

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 25

عبد الرحمن المودن

البوادي المغربية قبل الاستعمار

قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر

البوادي المغربية قبل الاستعمار



المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 25



البوادي المغربية قبل الاستعمار

قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر

عبد الرحمن المودن

1995

الكتــاب **البوادي المغربية قبل الاستعمار**

إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر.

المؤلـــف عبد الرحمان المودن.

منشورات كلية الآداب بالرباط.

الغــلاف إعداد عمر أفا.

الخطــوط حميدي بلعيد.

التصفيف الضوئي أنسيف الزنايدي ــ الهاتف 72.70.66 ــ الرباط.

الطبــع مطبعة النجاح الجديدة ــ الدارالبيضاء.

ردمــك 9981-825-22-0.

الإيداع القانوني 380 / 1994.

التصنيف الدولي 0334-1113.

الطبعة الأولــى 1995.

طبع هذا الكتاب بدعم
من مؤسسة كونراد أديناور

إهداء

إلى ميّنة

أصل هذا الكتاب رسالة قدمت إلى شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتاريخ 6 يوليوز 1984 أمام لجنة مكونة من السادة الأساتذة ابراهيم بوطالب رئيسا وجرمان عياش مقررا وأحمد التوفيق والعربي مزين عضوين. فنال بها المؤلف دبلوم الدراسات العليا (السلك الثالث) بميزة حسن جدا مع توصية بنشر الرسالة.

شكـــر

يتجه شكري العميق نحو الأسر الحيانية والوراينية والغياثية التي لم تبخل علي بالخبر والوثيقة ولا بكرم الاستقبال. كما يتجه شكري الخالص إلى سائر أفراد أسرتي الذين كان اهتمامهم وعطفهم خير معينين على المثابرة.

إني أشعر بدَين خاص تجاه أساتذتي وزملائي في شعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط وعلى وجه الخصوص الأستاذ والصديق أحمد التوفيق الذي كان خير مرشد في لحظات حاسمة سواء عبر كتابته أو عن طريق حرارة حواره وحسن استعداده باستمرار؛ والأستاذ العميد ابراهيم بوطالب الذي ما انقطع تشجيعه وحثه على الاستمرار؛ والأستاذ العميد محمد حجي الذي كان لتشجيعه الأثر الفعّال؛ والأستاذ العربي مزين الذي شجع بمناقشاته؛ والأستاذ المرحوم جرمان عياش الذي وضع ثقته في مآل هذا البحث منذ أن كان فكرة إلى أن صار إنجازا والذي لم يكن يعادل صرامة مناقشاته سوى رحابة صدره.

خلال مدة إنجاز هذا العمل، كنت ومجموعة من الباحثين نتقاسم هواجسنا : عبد الأحد السبتي، عمر أفا، عبد المجيد القدوري، محمد أعفيف وعلي المحمدي. هذا العمل مَدينٌ لمناقشاتي مع هؤلاء، ومع آخرين فاتني ذِكر أسمائهم، وإن كنت أتحمل بمفردي مسؤولية نواقصه.

وبودِّي أن أتقدم بالشكر الخالص إلى السيد محمد العربي الخطابي، مدير الخزانة الحسنية وإلى كافة موظفيها وموظفاتها، وكذا إلى موظفي كلٍّ من خزانة كلية الآداب بالرباط، والخزانة العامة ومصلحة الوثائق بالرباط والخزانة العامة بتطوان على حسن عونهم جميعا.

وبودِّي أن أشكر مصالح البعثتين الثقافيتين الفرنسية والبريطانية بالرباط لما وفرته لي من إمكانية المقام الصيفي بكل من باريس ولندن في سنوات 1979–1981.

وأوجِّه شكري في الختام إلى السيد القيدوم عبد الواحد بنداود على إدراجه هذا العمل ضمن منشورات الكلية وإلى أعضاء مصلحة النشر على جميل مساعدتهم.

تقـــديـــم

حينما نطل على فاس من تل المرينيين، ونصوب النظر في اتجاه الشرق، نشاهد مجموعة من التلال والهضاب، تفصل بين مقدمة الريف شمالا ومنتهى الأطلس المتوسط جنوبا تلك هي أراضي ممر ايناون الذي يربط بين فاس وتازة، ويشكل خيط الاتصال بين مجموعة من القبائل هي الحياينة والتسول والبرانس شمالا وبني سادن وآيت سغروشن وبني وراين وغياثة جنوبا.

واليوم كما بالأمس، يشعر المتوغل في هذا الاتجاه أنه يسير نحو الأطراف.

موضوع هذا البحث هو دراسة تاريخ هذه القبائل وعلاقاتها بالمخزن في النصف الثاني من القرن الماضي.

وأصل هذا البحث مغامرة وإصرار. مغامرة، لأنه حدد مجالا التاريخ القروي، وعين ميدانا قبائل ممر تازة في النصف الثاني من القرن 19م، ولم يكن يتوفر عند منطلقه إلا على اليسير جدا من المادة حول موضوعه، ثم إصرار لأنه بالرغم من تعثره خلال سنين، بسبب عدم العثور على ما يكفي من الوثائق، صابر الزمن والمسافة، إلى أن تمكن من مادة التفكير في موضوعه.

ومما يجب التنبيه عليه أن عددا من المصادر والمراجع التي أحيل عليها هاهنا في شكلها المخطوط قد تم تحقيقها أو نشرها، غير أني أبقيت على الإحالات الأصلية ليس لكونها غزيرة جدّاً فحسب بل أيضا لأن بعض الأعمال المنشورة يختلف إلى هذا الحد أو ذاك عن الأصول التي أرجع إليها هنا.

الرمـوز المستعملـة

خ.ح.ر.	الخزانة الحسنية بالرباط
خ.ع.ر.	الخزانة العامة بالرباط
ر.م.غ.م.	رسالة مستقلة وغير مرتبة
ط.ث.	طبعة ثانية
س.	السلطـان
ط.ح.	طبعة حجرية
ظ.	ظهـر
ق. 17م	القـرن السابع عشر
ق. الجيلاني الهلالي	القائد
م.س.	مرجع سابق
مـج	مجلـد
مـخ	مخطـوط
ن.م.	نفس المرجع
ن.م.ص.	نفس المرجع والصفحة
و. (قبل رقم)	وثيقـة
و. (بعد رقم)	وجـه
و.ز.	مجموعة الوثائق الزيدانية

A.E.P.	Archives du Ministère des Affaires Etrangères — Paris.
A.M.G.	Archives du Ministère de la Guerre, Vincennes.
B.C.A.F. - R.C.	Bulletin du Comité de l'Afrique Française / Renseignements Coloniaux.
C.H.E.A.M.	Centre des Hautes Etudes d'Administration Musulmane. devenu Centre des Hautes Etudes d'Afrique et d'Asie Modernes.
P.R.O.	Public Record Office, Londres.

نقحـرة

ڤ	V
ݣ، واحيانا ق في الوثائق	g (= gué)

مقدمة

البحث عن مادة لموضوع

حينما شرعنا في هذا البحث، في أواسط السبعينيات، لم تكن معرفتنا بميدانه ـ ممر تازة ـ تتجاوز تلك الصلة الحميمة التي يولدها الاحتكاك اليومي بواقع ما، منذ الصبا. وكان التحدي المطروح على الباحث هو هذا كيف أن مجموعات سكانية، على مثل هذا القرب من أهم قواعد السلطة المخزنية ـ فاس ـ لا يرد لها ذكر في معظم النصوص التقليدية؟ فهل هي من الحالات التي يكون فيها على المؤرخ ان يبحث عن «تاريخ شعوب لا تاريخ لها»(1)؟ بمعنى عن تاريخ أدخله «التاريخ» المكتوب في طي المنسي المهمش؟

بدأنا رحلة البحث عن مادة تفصح عن ماضي ممر تازة، وقبائل ايناون بكيفية مبعثرة، على غرار أي بحث مبتدىء. فمن المصادر المكتوبة إلى الرواية الشفوية وبعض الوثائق المحلية، في عين المكان، ومن المصادر المغربية إلى المصادر المكتوبة باللغات الأجنبية، ثم من المكتبة العامة بالرباط إلى مكتبة تطوان... وقد كان الوصول وقتها، إلى الوثائق الأجنبية والمغربية المحفوظة بالعواصم الأوربية، أيسر أحيانا، وبالرغم من مشاق ومصاريف السفر، من الولوج إلى أماكن حفظ الوثائق المغربية بالمغرب.. ذاك ما دفعنا إلى تعداد المقامات بباريس 1978، 1979، 1980، بلندن 1980، 1981، وبمدريد وبروكسيل 1980، تصيدا لذكر قبائل ممر تازة، في وثائق Vincennes وOrsay وC.H.E.A.M.(2) بباريس وفي P.R.O(3) بلندن وفي الخزانة الوطنية، وبوزارة الخارجية الإسبانية بمدريد ثم بوزارة الخارجية ببروكسيل.

---

(1) MONIOT, Henri: «Histoire des peuples sans histoire», **in Faire de l'histoire**, Jacques LE GOFF, Gallimard, 1974, T. 1, pp.106-123.

(2) C.H.E.A.M.: Centre des Hautes Etudes d'Administration Musulmane devenu Centre des Hautes Etudes d'Afrique et d'Asie Modernes.

(3) P.R.O.: Public Record Office.

كل هذا قبل آن يتآتى لنا الاحتكاك بالمراسلات المخزنية، وسائر أصناف الأصول المغربية الأخرى بالخزانة الحسنية التي كانت في سنوات 1980–1982 ما تزال تسمى بالخزانة الملكية.

حقا، لقد كان اصطياد أخبار ممر تازة مضنيا وطويلا، لكن الصيد كان في النهاية وفيرا، ولم تخل العملية من متعة. فما هي حصيلة البحث عن مادة هذه الدراسة، وكيف أثرت في تحديد الموضوع؟ وبأي منهج وقعت معالجتها؟ تلك عناصر هذه المقدمة.

I ـ المصـادر

انطلق بحثنا حول قبائل ايناون في غمرة الحماس الذي ولدته بعض المونوغرافيات الناجحة والمعتمدة أساسا على شتى أصناف المستندات والوثائق المغربية (عياش، التوفيق، العروي، مزين، باسكون) ولم يكن لبحثنا أن يحيد عن هذا النهج. بيد أننا لم نكن نعلم أننا لن نلتقي بالوثائق المغربية ـ عدا ما يصادفه المرء في المخطوطات بالخزانة العامة ـ إلا بعد رحلة في الوثائق الأجنبية. وبالرغم من كوننا في النهاية، لم نستفد منها إلا كنقطة للمقارنة، عدا بعض الحالات، سوف يرد ذكرها في محلها، ارتأينا أن نقدم لمحة عمّا رجعنا إليه من مصادر أجنبية قبل التعرض بتفصيل إلى المصادر المغربية التي مثلت في آخر المطاف العمود الفقري لهذا البحث.

أ ـ المصـادر الأجنبيـة

لن نطيل في ذكر المقالات، والمؤلفات المختلفة التي راجعناها، ويكفي الإحالة في ذلك على البيبليوغرافيا في آخر هذا البحث. بيد أنه ينبغي أن نوجز هنا ما فصلنا فيه في مكان آخر(4)، حول ما لكتب الرحلات الاستكشافية من أهمية، في دراسة تاريخ المغرب الإقليمي في القرن الماضي. فقد كانت تلك الرحلات تدخل في مخططات، تشكل فيها معرفة المجال المرحلة الأولى واللازمة لأي احتلال لاحق. ومن ثم دقتها الوظيفية. ومن ثم أيضا، طغيان عدد الرحالة الفرنسيين، على الأقل في شرق فاس.

(4) انظر EL MOUDDEN, Abderrahmane «Exploration et pénétration un siècle d'«itinéraires» dans le couloir de Fès-Taza (1805 1911)» in **Hespéris-Tamuda**, Vol. XXII, 1984, pp.103-118.

على أن أدق المعلومات حول التاريخ المحلي عبر المصادر الأجنبية ترد في الوثائق والمراسلات العسكرية والدبلوماسية. والملاحظ أن كثافة الأخبار، ودقتها واسترسالها تختلف بين العواصم الأوربية حسب حدة أطماعها في المغرب في القرن الماضي، وحسب قوة نفوذها وقدرتها على تدعيم ذلك النفوذ على حساب العواصم الأخرى. فهل من المستغرب أن تكون أدق الأخبار وأكثفها إنما تتوفر في المحفوظات الانجليزية والفرنسية؟ وهل يستغرب أن تكون الوثائق الاسبانية إنما تنقل عن المصدر الفرنسي، أو الوثائق البلجيكية عن الانجليزي ؟

1 ـ الوثائق الفرنسية

اشتغلنا بمحفوظات باريس بكل من

أولا ـ فانسين (Vincennes) تحتفظ وثائق فانسين بتقارير البعثة العسكرية ومراسلاتها، فضلا عن التقارير السرية المختلفة التي كان يعمل المكتب الثاني على جمعها حول المغرب. وللتقارير الشهرية التي كان يتوصل بها من البعثة العسكرية أهمية خاصة، إذ أن أعضاء هذه البعثة كانوا منذ 1877 في صحبة السلطان، يتنقلون بتنقله، ويحاولون نقل الشاذة والفاذة إلى رؤسائهم بباريس. ومن ثم كانت تقاريرهم أكثر دقة من مثيلتها المبعوثة من طرف الممثلين الدبلوماسيين بطنجة. وقد تميزت تقارير بعض رؤساء البعثة العسكرية بدقة زمنية وصلت حد تسجيل يومي لمجريات الأمور بدار المخزن والحاضرة أو بالمحلة السلطانية، كما في سنوات 1890 ـ 1893 على عهد كوشميز Cauchemez. راجعنا من محفوظات فانسين إثني عشر صندوقا، من Maroc, Série C. من 1 إلى 9 ثم 11 و18 و19. وتعم الفترة ما بين 1810 و1906.

وتجدر الإشارة إلى أن محرري هذه التقارير كانوا غالبا ما يتميزون بكثير من التحفظ والرصانة إذ كثيرا ما يعيبون على الصحافة أو حتى على تقارير الدبلوماسيين مبالغاتها وجهلها بالواقع الداخلي الذي كان يتأتى لهم معايشته[5].

ثانيا ـ أورسي (Orsay) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية أكثر تنظيما من الوثائق العسكرية، ولكنها كثيرا ما تكون أقل فائدة لتبعيتها المطلقة لشهية الفريق الاستعماري الفرنسي بغرب الجزائر، في الاستيلاء على المغرب. من ثم مسحتها

(5) من هنا تأتي أهمية كتاب ERCKMANN, J. Le Maroc moderne, Paris, 1885. الذي هو جمع لعدد من التجارب التي كان قد ضمنها في تقاريره أيام كان رئيسا للبعثة العسكرية، 1877-1882.

الايديولوجية. ولكن ذلك كان يدفعها أيضا إلى ترصد أخبار الجهة الشرقية بكيفية خاصة، ولا سيما في أوائل هذا القرن.

راجعنا من محفوظاتها

— Correspondance Politique, Volumes N° 38 à 41 (1872-1877).
— Correspondance Politique et Commerciale, Nouvelle Série, Volumes : 180 à 189 (1893-1908).
— Territoires du Sud et de l'Est, 240 à 248 (1907-1910)
— Rif : 259 à 261 (1896-1901).
— Mission militaire française, 272 à 274 (1896-1909).
— Correspondance Consulaire et Commerciale 5-6 (1869-1884).

وتكثر بهذه المجلدات الوثائق حول ايناون، وتصبح تقاريرها دقيقة ابتداء من 1900 ولا سيما فيما يتعلق بحركة الجيلاني الزرهوني (بوحمارة).

ثالثا ـ اشتغلنا أيضا بـ .C.H.E.A.M حيث تحفظ عدد من تقارير الضباط الفرنسيين إبان الحماية، حول مجموعة من القبائل (آيت سغروشن، بني وراين، التسول...) سوف تقع الإحالة عليها في محلها.

2 ـ الوثائق البريطانية P.R.O

تبدو الوثائق البريطانية غنية فيما يتعلق بتاريخ مغرب القرن 19م، وتمتاز عن الوثائق الفرنسية بدقة الترتيب، وسرعة الخدمة بفضل تنظيمها بواسطة الطرق الإعلامية. كما أن الوثائق البريطانية ما تزال تضع رهن إشارة الباحث ما تتوفر عليه من وثائق مغربية أصلية (مراسلات ببكر بن الحاج مثلا مع درمند هي) على العكس من الوثائق الفرنسية.

ولم نتمكن خلال مقامين قصيرين، سوى من الإطلال على ما تزخر بها تلك المحفوظات عبر بعض مجلدات سلسلة F.O. 99 ثم سلسلة F.O. 174، عشرون مجلدا أو رزمة في المجموع، تغطي الفترة ما بين 1873 و1893 (6).

(6) لقد تأكدت قيمة الأرشيف البريطاني بعد أن تمكن خالد بن الصغير من استغلاله استغلالا وافيا في كتابيه **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856 ـ 1886)**، ولادة، البيضاء 1990، **والمغرب في الأرشيف البريطاني مراسلات ج دراموند هاي مع المخزن 1846-1886**، ولادة، البيضاء 1992.

3 ـ الوثائق الإسبانية والبلجيكية

لها أهميتها بالرغم من كونها، كما أشرنا سابقا، عادة ما تنقل عن غيرها، إذ قد تنير جانبا تجاريا (تجارة السكر) أو عسكريا (تهريب الأسلحة بالريف)، أو محليا (انتفاضة الهبري).

والوثائق البلجيكية كالوثائق الإسبانية غير مرتبة، وفي حالة سيئة في شكل حزم لا تلبث أن تتأثر بكثرة الاستعمال.

راجعنا بوزارة الخارجية الإسبانية بالخصوص الحزم رقم 1638 إلى 1646 التي تغطي فترة ما بين 1861 و1925 ـ واشتغلنا أيضا بـ «قسم افريقيا» من الخزانة الوطنية بمدريد حيث تحفظ وثائق Guarcia Figueras، والمتعلقة بالمغرب الشمالي تحت الحماية الإسبانية بكيفية خاصة.

أما بوزارة الخارجية البلجيكية ببروكسيل، فإننا راجعنا صناديق أربعة A.F. 12, Maroc تشمل فترة متراوحة بين 1832 و1905.

والواقع أن الحصيلة التي خرجنا بها من هذا التجوال لا يستهان بها : مراسلات، تقارير، خرائط وإحصاءات.. بل ومراسلات مغربية، مترجمة أو أصلية. بيد أن مطاردة الوثيقة في الخارج لم تكن سوى نتيجة تعويضية عن احتجازها في الداخل.

ب ـ المصادر المغربية

يمكن توزيعها إلى ما هو شفوي وما هو مكتوب.

1 ـ الرواية الشفوية

لم نلجأ إلى الرواية الشفوية لتعويض انسداد باب الوثيقة المكتوبة أمامنا وقتئذ فحسب، بل لأن قناعتنا أن أي تاريخ اجتماعي لا يبحث فيه الدارس عن الأخبار «من أفواه الرجال» يكون بالضرورة ناقصا من جهة ما[7].

بيد أننا ككل مبتدىء متحمس لم نكن نعلم أن اجرائية الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الباحث على الرواة تتقوى كلما توسع اطلاعه على الأصول المكتوبة، إذ

(7) انظر الثروة الوثائقية التي تشكلها في هذا الباب أعمال المختار السوسي.

توجه ثغرات أو ايحاءات هذه الأصول، البحث والتحري في عين المكان، في الاتجاهات المثمرة. هذا ما جعل ما حصلنا عليه من الرواية الشفوية يتعلق بالمدة الطويلة أكثر مما يتعلق بالوقائع المضبوطة. فحدثنا المخبرون عن الحياة اليومية «القديمة» داخل المجموعة، وعن العلاقات بكيفية عامة بين القبائل، وصراعاتها، وتحالفاتها...

وخلال ترددنا على قبائل حوض ايناون تمكنا من استجواب

7 أشخاص من الحياينة

3 أشخاص من بني وراين

2 شخصين من غياثة

وخلال هذه الاستجوابات أسعفنا الحظ أحيانا فعثرنا على عقد ملكية هنا، أو شجرة نسب مرابط هناك، فكان التبادل مثمرا بين الشفوي والمكتوب.

2 ـ الأصول المكتوبة

مثلت هذه الأصول كما أسلفناه، حجر الزاوية في هذه الدراسة، وإن لم تغنِ عن غيرها في أحيان متعددة. وقبل التوصل إلى الوثائق المخزنية كان علينا أن نتطوف بشتى أنواع المخطوطات.

لن نشير منها هنا إلا إلى ما بدا لنا أنه ذو قيمة بالنسبة لتاريخ ممر تازة كعينة من التاريخ القروي

ـ عدد من الكتب الموضوعة في التاريخ، ويستحق بعضها ذكرا خاصا : **تاريخ الضعيف** لدقته وتميزه، **مجهول الابتسام** الذي يشاركه في هاتين الخاصيتين، **الدر المنتخب** لابن الحاج، لما يجمع بين دفتيه من استشهادات لمؤلفين ضاعت منا رسومهم...

ـ عدد من الرحلات، ونخص بالذكر منها الرحلات الحجية أو الحجازية، والتي كان مؤلفوها، ولا سيما منهم أولائك الذين يصحبون ركب الحاج الفاسي، يدوّنون مشاهداتهم، وتجاربهم القاسية وكذا الممتعة، خلال طريقهم. وطريقهم كانت تبتدىء بحوض ايناون وتنتهي به. وقد مكنتنا مجموعة من هذه الرحلات التي ما تزال حبيسة المخطوط، من أن نتبين بعض جوانب الحياة التجارية والدينية والاجتماعية عبر ايناون أيام كان الركب الحجي يمر به مرتين في السنة، أي قبل 1830.

ـ النوازل والأجوبة صنف من المستندات وقع الإلحاح على أهميته بما يعفينا من مزيد التأكيد. بيد أن التجربة أقنعتنا أنه على العكس مما يشاع من كون السؤال أهم من الجواب في النازلة، إذ أن السؤال تطلّبه الواقع والجواب يُستقى من دائرة المباح أقنعتنا التجربة بضرورة الانتباه بنفس الاهتمام إلى الجواب وإلى السؤال، إذ في أحيان كثيرة، وزيادة في إلتدقيق في جوابه، يفلت لسان المفتي، فيتكلم عما «يفعله الناس اليوم» أو عما «عليه قطرنا اليوم»، إذ ذاك نعود من خلال الجواب لنلتقي بالمعيش.

ـ لن نعرض هنا ما رجعنا إليه من كتب الأنساب، والوفيات، والمناقب، والدواوين الشعرية... فذاك ما سنشير إلى عناوينه في البيبليوغرافيا.

إن ما يطبع المخطوطات بصفة عامة هو الاختزال الزماني، والتعميم الكيفي، وهي النواقص التي لا يغني في تجاوزها سوى الغوص في معمعة الوثائق المخزنية.

3 ـ الوثائــق المخزنيــة

تمكنا فيما بين 1980 و1982 من الإطلاع بالخزانة العامة بتطوان وبالخزانة الحسنية بالرباط على رصيد هام من الوثائق المختلفة الأصناف رسائل مختلفة المصدر والاتجاه، بطائق، قوائم، كنانيش.. ويمكن تمييز ما هو «أدبي» يتمثل في نصوص إنشائية، وما هو «حسابي» يشمل بالخصوص الجداول واللوائح المختلفة.

أولا ـ القوائم الحسابية من الأوهام الشائعة، والتي لم نسلم دائما من ترديدها، أن المصادر المغربية لم تهتم بالرقم إلا بكيفية عَرضية. وإنما هذا الوهم تعبير عن درجة لم يتجاوزها البحث، بسبب وسائل لم تتح له.

يزخر هذا الصنف من الوثائق بمعلومات غاية في الأهمية والدقة، تتعلق بالجباية، والجيش، والقواد، والتجارة، والفلاحة.... ويوم يستطيع الباحث استغلال هذا النوع من الوثائق، سوف تنتقل معرفتنا، بالنسبة للقرن 19م على الأقل من مستوى الانطباع والتقريرات المبنية على شهادات كيفية إلى مستوى المقدار المضبوط، والمعرفة الدقيقة، في حدود عملية إعادة البناء التاريخية.

ثانيا ـ الوثائق «الأدبية» اصطلحنا بهذه الكيفية على كل ما هو وثيقة مخزنية غير حسابية، وبما أن الحجم الأوفر من وثائقنا من هذا النوع، فقد ارتأينا أن

نتعرض له في الأخير وبكيفية أكثر دقة. ويمكن تقسيمها إلى الرسائل المستقلة ثم الكنانيش.

ـ **الرسائل المستقلة** يمثل هذا الصنف رصيدا من المراسلات الأصلية، ما تزال محفوظة على هيأتها كأوراق مستقلة، رمزنا إليها في هذه الدراسة بـ: «ر.م.غ.م.». أي رسائل مستقلة وغير مرتبة. والواقع أن هذه الرسائل كانت توجد بمحافظ تحمل أرقاما ترتيبية كـ 301ـ1 إلى أزيد من 200 أو 302ـ1 إلى 35 إلخ... وكانت تخضع لترتيب حسب عهود السلاطين، ثم حسب ما يرد على السلطان أو ما يصدر عنه. هكذا كانت سلسلة 302 صادرة عن السلطان الحسن في حين كانت مجموعة 301 واردة عليه من القواد، والعمال والأمناء والفقهاء والشرفاء...

غير أن مصالح الخزانة الحسنية شرعت منذ أواخر 1980 في عملية تصنيف وإعادة ترتيب شاملة لم تنته بعد. لذلك يستحيل في الوقت الراهن الإحالة بكيفية مضبوطة على إحدى هذه الوثائق. بيد أن من يتوفر على اسمي المرسِل والمرسَل إليه، وتاريخ الرسالة يمكنه العثور على الرسالة المقصودة، حسب ما يُرتقب من الترتيب الجديد، على الأقل في حدود ما قُدِّم إلينا من شروح. ولهذا سهرنا على إثبات مصدر الرسالة واتجاهها وتاريخها بالضبط كلما تعلق الأمر بـ ر.م.غ.م. وعلى كل فإننا نتوفر على نسخة خطية أو مصورة من كل الرسائل التي استعملناها في هذه الدراسة.

ومن الوثائق التي يمكن إدراجها ضمن المراسلات الأصلية، وإن لم تكن في هيأة أوراق مستقلة، ما كان المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان قد جمعه من وثائق في مجموعة من المجلدات، محفوظة أيضا بالخزانة الحسنية، وتتكون من 31 مجلدا راجعنا منها عشرين. ولهذه الوثائق في رأينا أهمية خاصة، إذ أنها غالبا ما كانت متبادلة بين أعضاء المخزن المركزي، أو أحيانا بين أعضاء من أسرة من أسره، كأسرة آل أحمد، أو بن حمو، أو بن فرجي... وتكمن أهميتها في كونها «داخلية» يمكن الإطلاع من خلالها على بعض الخبايا.

ـ أما الكنانيش(8) فإنها تمثل حقيقة ذخيرة هامة من المستندات يكاد ينفرد بها القرن التاسع عشر في التاريخ المغربي إذ من مجموع 820 كناشا يختص هذا القرن

(8) انظر **فهارس الخزانة الحسنية، قسم الوثائق، المجلد الأول فهرس الكنانيش (السجلات الرسمية)** تقديم محمد العربي الخطابي، إعداد عمر عمور، مطبعة الأنباء، الرباط (د.ت) (1983).

بأكثر من أربعة أخماس نصفها تقريبا يتعلق بالفترة الحسنية[9].

وقد سبق لجرمان عياش أن نبه منذ 1961 إلى أهمية هذه الكنانيش[10] التي لا يرقى الشك إلى مطابقتها للأصول، بيد أن استغلال إمكانياتها لا يتجاوز بضعة سنين.

وقد تمكنا من مراجعة عدد من الكنانيش استفدنا بكيفية خاصة من 22 منها، تتراوح تواريخ المراسلات أو المعطيات المثبتة فيها بين 1835 (كناش 16) و1896 (كناش 422)، مع تركيز خاص على الفترة ما بين 1883 و1894 التي حاولنا أن نحصل على سلسلة وثائقية متصلة في شأنها.

وغني عن البيان ما توفره الكنانيش من إمكانية تتبع جملة من القضايا إذ أنها في أغلب الظن كانت تسجل معظم المكتوب المخزني، مما يجعل منها أداة قد لا تضاهيها غيرها من حيث نسبة احتفاظها بالرصيد الوثائقي الأصلي.

من خلال كل هذه الأصناف من الوثائق والكنانيش والقوائم، تمكنا من العثور على أزيد من ألفي وثيقة وقائمة تهم شؤون قبائل ايناون أو علاقاتها فيما بينها أو علاقاتها مع المخزن. هكذا وبعد أن كنا نعاني من انعدام الوثيقة المغربية أصبح الإشكال في كيفية معالجة هذا الرصيد الهام من الوثائق. هذا ما نحلله بايجاز في النقطتين الموالييتين.

II - الموضوع

من بين الأسئلة الأولى التي طرحها الإطلاع على المتداول من مصادر التاريخ المغربي المتعلقة بأوائل ق 20 لماذا انخرطت قبائل ممر تازة بكل ذلك الحماس في «ثورة بوحمارة» ؟ وهل يعود ذلك إلى كونهم «من الغوغاء»، «البسطاء»، ذوي «القلوب الخاوية» و«سخفة العقول» الذين سهُل على «ساحر» «فتان» كالجيلاني الزرهوني (بوحمارة) أن يستولي على أفئدتهم ويوجهها ضد المخزن[11]؟ أم أن الأمر كان

(9) SCHROETER, Daniel: «The royal palace archives of Rabat and the makhzen in the 19th century». **The Maghreb Review**, Jan-Apr. 1982, pp. 41-45.

(10) AYACHE, Germain: **Etudes d'histoire marocaine**, p. 73.

(11) ابن زيدان، عبد الرحمن، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية، الرباط، 1929، ج 1، ص 401–402.

يتطلب الغؤور في أصل هذا الحماس، بالكشف عن ملابسات المرحلة السابقة ؟

إن ما توفر لدينا من مواد عن النصف الثاني من القرن 19م. حول ممر تازة، وضرورة البحث عن أجوبة لمثل الأسئلة الآنفة الذكر، هو ما جعلنا نحول النظر من حركة الجيلالي الزرهوني، إلتي أغرقت جل المصادر في وصفها، إلى ما سبقها، وما قد يفسر مدى ما لقيه من دعم عند قبائل هذا الممر، فوجدنا البحث يتجه نحو إشكالية عامة هي علاقة المجتمع القروي والدولة قبل الاستعمار.

إن اهتمامنا انصب على تاريخ ايناون فيما بين القرن 16م. والقرن 19م. ولكن تركيزا أدق وقع على الفترة المتراوحة فيما بين 1290هـ/1873 و1320/1902. 1873 ليس فحسب لكونها تاريخ مجيىء سلطان جديد ـ السلطان الحسن ـ إلى الحكم، ولكن لأن سنتي 1873ـ1874، شهدتا أحداثا هامة بفاس والبوادي المجاورة لها، ما تزال تشكل معلمة يُؤرخ بها «عيطة بنيس» بفاس مثلا، ساهم فيها الحياينة بنصيبهم. ثم كانت مباشرة بعد ذلك انتفاضة بوعزة الهبري التي شملت جل الحوض الإيناوني. أما 1902، فلكونها السنة التي شهدت انطلاق حركة الجيلالي الزرهوني (بوحمارة).

فكان لزاما على الدراسة أن تتجه في دروب متعددة ماضي قبائل ايناون، ايكولوجيتها، علاقاتها المتبادلة، أشكال ومستويات علاقتها مع السلطة المركزية قبل التعرض لما شكل سوابق ما عرفه ايناون من أحداث في أوائل هذا القرن. تلك هي مادة الفصول الثمانية التي ينقسم إليها هذا البحث.

نتعرض في الفصل الأول إلى الإطار الطبيعي الإيناوني، وأهميته التاريخية، في مجتمع ضعيف المستوى التقني. ثم نترصد في فصل ثان التقلبات البشرية والسياسية الماضية قبل منتصف القرن 19م، بحوض ايناون، وهو ما أقنعنا بأن المنطقة انتظمت حول وظيفتها كمسلك ضروري بين الغرب والشرق، سواء عبر تيارات تاريخية مختلفة، أم من خلال التحام الدين بالتجارة عبر القافلة الحجية والتي استمرت تعبر ايناون مرتين في السنة حتى أوائل القرن 19م.

وتساءلنا في فصل ثالث عن التشكل القبلي بالحوض الإينّاوني، فركزنا على نماذج تمثيلية غياثة، الحياينة وبني وراين، وتعرضنا من خلالها إلى بعض ما يطرحه التاريخ القروي من إشكاليات مثل مسألة «الأعلام» Onomastique، وقضية ظهور

واختفاء أسماء المجموعات القبلية، وحاولنا التعرض لجوانب نشاط قبائل ايناون الاقتصادي قبل أن نتتبع ما كان يربطها ببعضها أو بالمخزن من علاقات التبادل والصراع.

وقد ضممنا الفصول الأول والثاني والثالث تحت عنوان واحد هو عنوان الباب الأول وسميناه «البيئة والإنسان بإيناون». أما الباب الثاني فقد عنوناه «السلطة المركزية وقبائل إيناون». وجمعنا فيه فصلين.

الفصل الرابع درس الحكم المخزني وركائزه المحلية بإيناون، محاولا استجلاء الصورة المحلية عن السلطان والمخزن، وتحليل نموذج من نماذج الأسر المخزنية الكبرى، وعلاقتها مع الجهاز التمثيلي المخزني المحلي. وإلى جانب تحليل مستويات هذا الجهاز، حاولنا التعرض لأهمية إحداث مؤسسة أمناء القبائل، وتدقيق أشكال طرق التحكم المركزي في الحياة المحلية عبر تعديد قنوات النفوذ، مما برّر أن نركز في آخر هذا الفصل على نموذج من ركائز المخزن المحلية ويتمثل في أسرة آل زين العابدين الوزانيين.

واستمر الفصل الخامس في تحليل وسائل الحضور المخزني وغاياته، عبر مسألة المحال والحرْكات، وأشكال الجباية، فدققنا النظر في ظاهرة التحرك المخزني عبر البادية في ما قبل الاستعمار، وأكدنا على ما يطرحه جانب الجباية من إشكالات ما تزال في حاجة إلى تدقيق.

وخصصنا الباب الثالث لعلاقة بوادي ايناون بالرموز المخزنية وقسمناه إلى ثلاثة فصول.

في الفصل السادس حللنا علاقة البادية بالمدينة عبر نموذجي الحياينة وفاس ثم غياثة وتازة قبل أن نحاول البحث عن عناصر لتفسير ما شاب تلك العلاقة من توتر في أغلب الأحيان.

وفي الفصل السابع ركزنا على التجارة بحوض ايناون، محلية كانت أم عابرة، فاتضح أن المسلك من رموز المخزن الذي يحاول مراقبة ما يصرفه ممر ايناون من تجارة وتبين لنا أن ثمة تجارة مباحة خضعت «للمراقبة» وأخرى محرمة أفلتت منها، وتعلقت بتصدير الماشية إلى الجزائر المحتلة، وتسببت في صراعات محلية متعددة. ثم في الفصل الثامن، حاولنا تحليل جوانب من الانتفاضة المحلية في القرن الماضي عبر نموذج انتفاضة بوعزة الهبري، وما تلاها من توتر في العلاقة بين ايناون والمخزن، وأشرفنا بواسطتها على قيام «ثورة بوحمارة».

ولم نغفل خلال هذه الفصول، الإشارة إلى ما اكتنف سائر هذه الأحداث من تغلغل أجنبي تمثل هنا بكيفية خاصة في مبادرات الفريق الاستعماري الفرنسي بغرب الجزائر، وركائزه الدبلوماسية بطنجة أو العسكرية بباريس.

إذا كانت هذه فِقر هذا البحث فما هي الهموم التي أشرفت على توجيهه ؟

III ـ بصـــدد المنهـــج

لن نبدي هنا سوى بعض الملاحظات التي لا تدعي الاكتمال ولا الشمول. ولعل ما يكون قد مورس من منهج أثناء بناء النص أدل من أية نية معلنة.

بيد أنه قد يكون مفيداً أن نسجل بعض الهواجس التي رافقت هذا البحث.

حاولنا تجاوز وهمين   الوهم الأول   أن تكون الكتابة الاستعمارية عديمة القيمة العلمية، فقد حاولنا أن نستفيد مما كتبه الأجانب بعد الكشف عن الجانب الإيديولوجي الاستعماري فيما كتبوه، وهي عملية لم تعد من الجدة بمكان. الوهم الثاني   أن تكون الوثائق الرسمية لا تعطي سوى الصورة الرسمية للأمور، حاولنا من خلال الوثائق الرسمية التوصل إلى بعض جوانب الواقع المحلي.

حاولنا من خلال هذه الدراسة أيضا أن نرفع لبسا   هل الخيار بين الدراسة المونوغرافية والتنظيرية أم بين البحث الدقيق، مونوغرافيا وتنظيريا، والتعميمات الواسعة؟ حاولنا أن نبين أن لا تعارض بين الدراسة المونوغرافية والهموم النظرية.

هكذا ركزنا في هذه الدراسة على محاولة القياس الكمي للظواهر كلما أمكن ذلك. وقمنا جهد المستطاع بالكشف عن المهمش في الكتابة التاريخية التقليدية بدءا من الحياة اليومية للمجموعات القروية إلى التيارات التي اخترقت البادية المغربية عشية الاستعمار.

وقد استفدنا من انفتاح ابتدائي على بعض العلوم الأخرى، ولا سيما الأنثربولوجيا، التي وإن ناقشنا نتائج بعض أبحاثها على المجتمع المغربي، فإننا استنرنا ببعض أدواتها لفهم ممارسات يومية أو علاقات بين القبائل أو بينها وبين المخزن، ونخص بالذكر من تلك الأدوات، مفاهيم كارل بولانيي Karl Polanyi.

فلنفتح الباب الأول !

الباب الأول

البيئة والإنسان في إيناون

الفصل الأول	**الإطار الطبيعي، أهميته التاريخية**
الفصل الثاني	**انتظام المنطقة حول وظيفتها كمسلك**
الفصل الثالث	**التشكل القبلي والحياة اليومية عند قبائل إيناون**

الفصل الأول

الإطار الطبيعي، أهميته التاريخية

يتبرر الحديث عن مختلف الظروف الطبيعية التي اكتنفت التقلبات التاريخية في حوض إيناون، في مستويات متعددة.

فمعلوم ما للظروف الطبيعية من أثر حاسم في مجريات الأحداث في أي مجتمع ضعيف التحكم في القوى الطبيعية[1]. وليس في التأكيد على أهمية دور الطبيعة في المسار التاريخي لمجموعة بشرية ما، إقرار بأية حتمية جغرافية عمياء، بل المقصود هو التنبيه إلى نسبية هذا الدور العكسية مع تطور تحكم الإنسان في تلك القوى الطبيعية. دراسة البيئة الطبيعية إذاً، مدخل ضروري.

يتبرر وصف بيئة حوض إيناون، أيضا، بكون البحث الذي نحن بصدده يهتم بمجموعة من القبائل عاشت سلسلة من الأحداث خلال القرن 19م. في مجال جغرافي محدد، وأحيانا كثيرة، تحت تأثير عوامل طبيعية خاصة بهذا المجال، مثل المناخ، وسلوك الأودية، ونوع التربة، وأشكال الطبوغرافيا.... ولكي تأخذ تلك الأحداث مواطنها لابد من وصف جغرافي أولي.

---

(1) يشير بلاندي (G. BALANDIER) في سياق حديثه عن الدولة التقليدية، معتمدا في أقواله على **مقدمة** ابن خلدون، إلى كون هذه الدولة تتأثر بضعف مستواها التقني والاقتصادي، فيكون تحكمها في المركز أقوى مما هو عليه في الأطراف.

BALANDIER, Georges: **Anthropologie politique** P.U.F., 1969, pp, 161-163.

وتجد نعيمة التوزاني أن من ضمن العوامل التي آلت بالإصلاح الجبائي الحسني إلى الفشل «تأخر وسائل المواصلات». التوزاني، نعيمة الهراج **الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن 1290-1311/ 1873-1894**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، يناير 1979، ص. 293.

يتبرر هذا الوصف الجغرافي أخيرا، بكون السمة العامة التي طبعت المنطقة في شتى مستويات علاقاتها الداخلية، أو مع السلطة المركزية، كما سوف يتضح ذلك فيما بعد، هي سمة المعبر، لذلك وجب الانتباه إلى الإطار الجغرافي الذي مثل الجسر الرابط بين غرب المنطقة (فاس) وشرقها (تازة، ثم وجدة).

على أن الوصف الذي يهمنا هنا ليس هو ذلك الوصف الخارجي الجامد الذي يقع الاهتمام به، تقليديا، أثناء التعرض لـ «الظروف الطبيعية» بل ما يهمنا هو بالضبط الترابط بين الطبيعة والإنسان.

هذا ما يجعل اهتمامنا ينصب على العوامل الطبيعية ذات التأثير الأكثر من غيرها على سلوك البشر وعلاقاتهم.

في هذا الصدد قد يكون للمناخ أثر أعمق من العوامل الأخرى من تضاريس ونبات... مثلما قد يكون لنوعية الصخور المتواجدة في جزء ما من مسلك من المسالك أهمية خاصة (بالعلاقة مع المناخ مطرا أو جفافا) إذ قد تساعدنا على فهم ظاهرة ما، كتوقف مؤقت في المواصلات من جراء كثرة الأوحال، وما ينتج عنه من ندرة في الأخبار مثلا(2).

ومن حسن الحظ أن الوسائل لا تعوز من يريد دراسة البيئة الإيناونية في القرون الأخيرة. فقد تعددت الإشارات إلى تلك البيئة في مصادر متنوعة، أولها الرحلات الحجية.

كان ركب الحجيج يجتمع بفاس، قبل أن ينهج المسالك المتجهة عبر حوض إيناون نحو الشرق(3). وكان الركب يضم أحيانا بعض هواة الكتابة والتأليف، وقد دوَّن هؤلاء أثناء سفرهم أو بعد عودتهم، مشاهداتهم ومغامراتهم في «رحلات» ما تزال غالبيتها مخطوطة(4). كان الرَّحالة إلى الحج يبتغون أجر عملهم، فيدوِّنون بدقة كبيرة

---

(2) هذا ما حصل في شهر مارس 1890 حيث دام تهاطل الأمطار أكثر من عشرين يوما، فشلت حركة المواصلات، وقلت الأخبار لدى رئيس البعثة العسكرية الفرنسية الذي يعتذر بذلك.

(3) حول ركب الحجيج، انظر مجموعة الرحلات، وأيضا أحمد بن خالد الناصري، **كتاب الإستقصا**، وبالخصوص محمد المنوني **ركب الحاج المغربي**، تطوان، 1953.

(4) سبق التنبيه إلى أهميتها كمصادر أثناء الحديث عن مصادر هذا البحث.

مصاعب الطريق ومشاق السفر، عسى أن يفيد ذلك حجّاجا محتملين لاحقين(5). قد يبالغون بعض الشيء في التأكيد على مصاعبهم، لكن مشاهداتهم ومعاناتهم تظل كبيرة المصادقية لأنهم كانوا يصفون واقعا معيشا.

وتشغل الطبيعة حيزا هاما ضمن أوصافهم، خاصة لما كان موسم الحج يصادف الفصل المطير، حيث تتضاعف متاعب التنقل. ومن حسن الصدف أن الرحلات المتوفرة طابقت في الغالب تنقل الحجيج أثناء موسم الأمطار فسجل الرحالة أوصافا مفصلة عن الجزء الأول من مسيرتهم نحو الشرق، أي عن المحطات الأساسية بين فاس وتازة. فيمكن إذاً استجلاء حالة المنطقة أثناء تلك الأسفار من الرحلات الحجية، وإن كان اهتمام الرحالة بالمناخ يطغى على اهتمامهم بأي جانب آخر من الطبيعة لذلك سوف نستفيد من هذه الرحلات بكيفية خاصة عند دراسة المناخ والأودية.

ولمقاربة الطبيعة الإيناونية نستفيد أيضا من سلسلة من المخطوطات التي تعرضت للتحركات المخزنية بالمنطقة، فوصفت مصاعبها أثناء الفصل البارد(6) كما تعددت الرسائل المخزنية الواردة من المسؤولين عن الحرْكات الجبائية بحوض إيناون، يصفون فيها الصعوبات التي تعترضهم إبان تهاطل الأمطار وتكاثر الوحل أو فيضان الأودية(7).

غير أن أدق المصادر لمباشرة الوصف الجغرافي التاريخي لحوض إيناون، هي الرحلات الاستكشافية التي قام بها مجموعة من المستكشفين الأوربيين في القرن الماضي عبر المنطقة(8).

كما أن التقارير والمراسلات التي كان يحررها المبعوثون العسكريون بالمغرب كانت تتضمن جملة من الإشارات إلى الأحوال المناخية بالشمال المغربي، لمّا كان السلطان، والبعثة العسكرية ضمن أتباع التنقلات السلطانية، يستقرون بفاس. وإذا بات من

---

(5) النموذج في هذا الصدد يتجسد في **رحلة الحضيكي**، خ.ح. رقم ز 12373، صص. 65–127 والتي هي عبارة عن دليل مرشد يخاطب مباشرة الحاج المتجه إلى الشرق.

(6) منها على سبيل المثال **تاريخ مولاي سليمان** لمجهول، ضمن مجموع، ورقة 64 إلى 69 رقم 1892 قسم المخطوطات، الخزانة الوطنية، باريس.

(7) سوف يحال عليها حسب استعمالها.

(8) انظر A. EL MOUDDEN, (م.س.)، (1984).

المتداول ما تصطبغ به كل من تلك الرحلات والتقارير من نظرة أحادية متحيزة في كل ما يتعلق بالإنسان، فإن الأمر كان يختلف كلما انجر الحديث إلى الطبيعة إذ كان المستكشفون يتوخون الدقة والتفصيل والقياس الكمِّي، ومن ثم يمكن الركون إلى أقوالهم في هذا المجال إلى حد بعيد. ونظراً لكثرتها النسبية، فإن هذه الرحلات حدثت في شتى فصول السنة، وتمكن بالتالي من الاطلاع على أحوال المنطقة في فترات مختلفة الفصول.

نتوفر أخيراً، لتدقيق الوصف الجغرافي لمنطقة حوض إيناون على بعض الدراسات الجغرافية الحديثة(9)، وبعض الخرائط الطبوغرافية التي قد تحدد هذا الجانب أو ذاك مما حصلنا عليه من المصادر السابقة.

اعتمادا على هذه الذخيرة، يمكننا تلمس جوانب طبوغرافيا ممر فاس ـ تازة، والتأكيد على خصائص مناخه، قبل التعرض لعينات من أثر هذه البيئة على السكان أو على علاقتهم مع المخزن.

1 ـ الطبوغرافيا منطقة متقطعة يغلب عليها الطابع الحوضي

ما الذي يبرر الغزارة النسبية للإشارات إلى المحيط الطبيعي لحوض إيناون؟ قد يعود ذلك بالأساس إلى موقعه الوسطي من المغرب الشمالي. فهو إلى الغرب من تازة، على هامش المغرب الغربي الذي كان يعرف بصفة عامة تحت اسم «الغرب»، كما أنه على أعتاب «المغرب الشرقي»، وهذه عبارة حديثة تدل على المناطق الموجودة إلى الشرق من تازة والتي كثيرا ما كانت تلحق بالمغرب الأوسط من حيث اشتراكها وإياه في المناحي الطبيعية والبشرية(10). ولم يجعل موقعها الوسطي هذا، من المنطقة، معبرا ضروريا لكل من أراد التوجه من فاس إلى الجزائر والشرق فحسب، بل أيضا لكل من أراد التوجه من فاس إلى الريف شمالا، وحتى إلى الصحراء تافلالت أو الظهرة جنوبا(11). لاغرابة إذاً، أن تحظى منطقة تتوسط هذه الشبكة من الإتجاهات بمثل هذا الاهتمام من لدن الرحالة على اختلاف مقاصدهم.

---

(9) FADLOULLAH, Abdeltif **La vie humaine dans le plateau de Tahala-Matmata (étude géographique)**, Mémoire pour le D.E.S., Rabat (Paris) 1972, inédit.

(10) يقول محمد بن عبد السلام بن ناصر في **الرحلة الصغرى** (1211/1797) مخطوط خ. ح. رقم 121، ص. 33 «وتازة من المدن الصغار في المغرب.. وهي حد ما بين الغرب والمغرب الأوسط».

(11) معظم الحركات المخزنية المتجهة إلى الشرق أو الريف مرت بالمنطقة 1874، 1875، 1876... إلخ.



قبائل ممر فاس-تازة: الموقع العام في الشمال المغربي

لنقتف أثر هؤلاء الرحالة، ولنقم بدورنا بالسفر من فاس إلى تازة مكتشفين قسمات المنطقة على وجه التدريج.

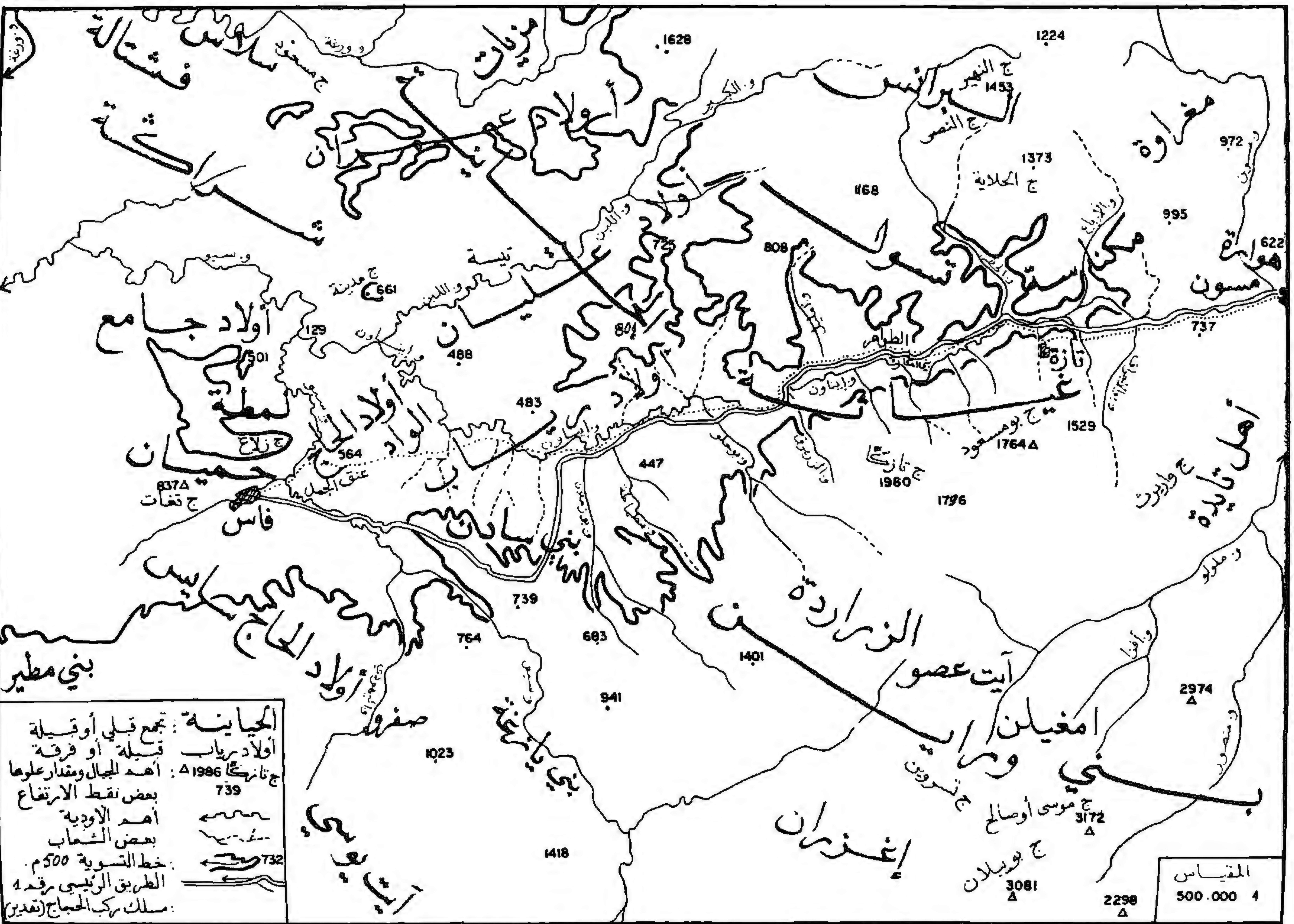
حينما نغادر فاس من باب الفتوح، نكون قد ودعنا هضاب سايس وشرعنا في نزول منحدرات ضفة وادي سبو اليسرى. من هذا المنحدر تبدو نحو الشرق، والجنوب الشرقي، والشمال الشرقي، نظرة عامة على المناطق التي تكوّن «ما بين فاس وتازة» : مجموعة من العناصر الكثيرة التقطع والتنوع، لكنها تنتظم مع ذلك في وحدات محددة. في المنظر الأول منخفض وادي سبو الذي تشغل منعرجاته قعر المنخفض في اتجاه جنوبي ـ شرقي، شمالي ـ غربي. فيما وراء النهر، تظهر الضفة اليمنى للمنخفض، ذات انحدار قوي، تتبع اتجاها موازيا لتعرجات النهر، وتحيط ببلاد بني سادن في الجنوب الشرقي وأولاد الحاج في الشمال الغربي. ويبدو من تساوي سطح هذه الضفة أنها بداية لهضاب تتجه نحو الشرق والشمال حيث تحجز الأفق مرتفعات ذات صبغة جبلية نحو الشمال الشرقي بلاد الحياينة حيث يغلب طابع التلال، وفي اتجاه الشرق بلاد التسول والبرانس، ثم غياثة، حيث يبدو الارتفاع واضحا من اللون الأدكن الذي تضفيه الغابة على القمَم. أما في اتجاه الجنوب الشرقي فإن جبال بني وراين أكثر ارتفاعا بما أنها تحتفظ بالثلوج طيلة السنة.

لكن هذه المقاربة الأولى لم تتح لنا فرصة الاطلاع على بعض الأجزاء الهامة من المنطقة ولا سيما وادي إيناون الذي لن نكتشفه إلا بعد الشروع في تتبع الطريق التي يسلكها من يريد التوجه من فاس إلى تازة، وهي اليوم الطريق الرئيسية رقم 1.

بعد عبور جسر وادي سبو، تأخذ الطريق في تسلق مضنٍ للضفة اليمنى التي تحمل هنا تسمية عقبة سيدي عبد الرزاق، وتشرف على الوادي بأزيد من 250 متراً من الإرتفاع (235م. بعمق الوادي و 489م. عند قمة الضفة)[12].

= في حين سبق للسلطان سليمان أن مرَّ عبر حوض ايناون ثم حوض ملوية نحو تافيلالت سنة 1803/1216 حسبما يرويه محمد أكنسوس في **الجيش العرمرم** مخطوط خ.ح. رقم 26، ص. 246. أما سي محمد المراكشي صاحب تقرير مخطوط بفَانسين، بمحفوظات وزارة الحربية الفرنسية، رقم Maroc C. 9 فقد توجه في ماي 1894 عبر حوض ايناون نحو الظهرة.

(12) استعنت في كل ما يتعلق بالتضاريس والأودية والطبونيميا بمجموعة خرائط 1 على 50.000 و1 على 100.000 ثم 1 على 500.000 المتعلقة بالمناطق الموجودة بين فاس وتازة. وتجدر الإشارة إلى أن خرائط 1 على 100.000 (**شرق فاس، تازة، مسون**) تبدو أكثر دقة ومطابقة للواقع حتى وإن ضحت بجملة من المعلومات التي كانت خرائط 1 على 50.000 (1922) تحرص على تسجيلها مثل التقسيمات القبلية الكبرى.



حوض إيناون، الطبوغرافيا وموقع القبائل

تستمر هذه الضفة في اتجاه الشمال الغربي تحت إسم عنق الجمل (564م) وهي عقبة شهيرة لدى الرحالة بما أنها كانت هي المسلك الرئيسي من الوادي إلى ظهر الهضبة(13). وسوف نعود بعد قليل للوقوف عند الأوصاف التي تركها أولائك الرحالة، ولاسيما الحجاج منهم، عن مصاعب صعود هذه العقبة إبان الفصل المطير.

عند قمة المرتفع يجد المسافر نفسه فوق هضبة بني سادّن، ذات الميلان المتدرج تجاه الشمال والشرق، إلى أن تشرف على وادي إيناون(14). وتقطع هذه الهضبة مجموعة من الشعاب تصب في إيناون، وتكون جافة القعر في معظم السنة، لا تملأها المياه إلا وقت حدوث الأمطار. وقد لاحظ De Foucauld عند عبوره لهضبة بني سادن في صيف 1883 أن سطحها كان مكسوا بالأحجار والدُّوم والسّدرة، مما يحيل على استغلال زراعي ضعيف أو متوسط، ومؤهلات هامة لتربية الماشية(15).

تستمر الطريق نحو الشرق عبر بلاد بني سادن، ثم بعد بئر طَمْطم، تعرج نحو الشمال، فتتوضح الرؤية تجاه الشمال، ويبدو منظر عام لتلال الحياينة تلال ذات لون أبيض أو رمادي، لغلبة الطين على نوعية صخورها(16). وتتميز هذه التلال بمنحدرات قوية وبتأثر بليغ بعوامل التعرية(17) على أن الإرتفاع متواضع لا يعدو إلا نادراً خط 500م. ولهذا غلبت على الطبونيميا تسمية «الكُدْيَة» أي التل (كدية سيدي عبد الله بولثام، الكدية الحمراء، كدية البغل... إلخ) إلا أن الشعاب عميقة والسفوح تنحدر بسرعة قوية بحيث أنه لايندر أن يبلغ الفرق بين عمق الشِّعب وقمة التل 200 أو 300م. على مسافة وجيزة. وإذا ما أضفنا أن قمَم هذه التلال ذات

---

(13) قدر هـ. دو لامارتينيير (H. De LAMARTINIÈRE) ارتفاع هذه العقبة، عند مروره بها في يوليوز 1891، ب 280م. عن قعر الوادي. DE LA MARTINIÈRE, H. «Itinéraire de Fès à Oujda, suivi en 1891», Extraits in **Bul. Com. Afr. Fr. (B.C.A.F.)** N° 2, 1914, p. 59.
في حين يبلغ الفرق بين جسر سبو العتيق وقمة عنق الجمل انطلاقا من خريطة «شرق فاس» 1 على 100.000 368 م.

(14) FLADLOULLAH, A, **La vie humaine**... p. 4.

(15) DE FOUCAULD, Vicomte Charles: **Reconnaissance au Maroc (1883-1884)**. Paris, 1888, p. 26.

(16) FADLOULLAH: **op. cit.** p. 4, COLVILE, Capitaine H.G, **A ride in Petticoats — and Slippers**, London, 1880, Extrait in **B.C.A.F.**, 1913. N° 12, p. 435.

(17) DE FOUCAULD, **op. cit.**, p. 27.

طابع مسنن في الغالب، تفهمنا كيف أن الرحالة عادة ما اعتبروها جزءاً من جبالة[18].

في الأفق الشمالي الشرقي تظهر بعض المرتفعات التي تكتسي طابع الجبلية بكيفية أوضح إذ يتجاوز العلو فيها 1000م. في كثير من الأحيان تلك مرتفعات التسول والبرانس.

أما في اتجاه الشرق، فإن هضبة بني سادن تستمر في شكل سلسلة من المستطيلات تحدها مجموعة من الأودية الضغيرة التي تنحدر من جبال الأطلس المتوسط، وتصب في إيناون. ومن هذه الأودية، واد بوزملان الذي يفصل بين هضبة بني سادن إلى الغرب وهضبة بني وراين إلى الشرق. وتضيق هذه المجموعة من الهضاب في اتجاه الشرق والجنوب كما ترتفع تدريجيا، إلى أن تلتحم بجبال تازكاّ من بلاد غياثة شرقا وبويبلان من بلاد بني وراين جنوبا[19].

وتمثل جبال بني وراين وغياثة سلسلة مرتفعة تغلق الأفق، بقِمَمها التي تكسوها الغابة، أو تعلوها الثلوج حتى إبان فصل الصيف. وقد أكد جل الرحالة العابرين للمنطقة على علو هذه الجبال واتساعها.

«وبلان جبل شاهق شديد البرودة كثير الاتساع (...) ويظهر الثلج بقمته في جميع فصول السنة»[20] وتتحدد مستويات متدرجة في هذا النطاق الجبلي مستوى أعلى في بويبلان (3081م). وموسى وصالح (3172م) ثم مستوى متوسط في تازكاّ (1980م) ثم مستوى أدنى (بين 1500م و1800م) كما في جبل مسعود[21].

---

(18) DE SÉGONZAC, Marquis., **Voyages au Maroc, 1899-1901**, Armand Colin, 1903, p. 22.

(19) FADLOULLAH, **op. cit.**, p. 4.

(20) الوزان، الحسن بن محمد، **وصف إفريقيا** ترجمة عن النسخة الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1980، الجزء الأول ص 278. في الهامش 159 بنفس الصفحة، يشير المعربان إلى أن لفظة «بويبلان» تعني «باللهجة البربرية «ذا الأبيض» لظهور الثلج في قمته طول السنة». إلا أن مقدار علوه هو 3081م. لا 3910م. ويلح كل من MARMOL, وDE FOUCAULD وDE SEGONZAC في أوصافهم على أهمية بويبلان.

(21) ألح كل من DELBREL, Gabriel, «De Fès à l'Oranie à travers le pays des Ghiata (vallée de l'Inaouen 1899)» **in la Géographie, Bul. de la Soc. Géo.** T. II, 2° Semestre 1900, Paris, Masson et Cie, p. 173 وDE SÉGONZAC، المرجع السابق ص 223، على طابع التدرج الذي يميز بلاد غياثة وبني وراين.

بين تلال الحياينة شمالا وهضاب وجبال بني وراين وغياثة جنوبا، يمتد وادي إيناون كحَدّ فاصل سواء بين المجموعات الطبيعية الريف شمالا والأطلس المتوسط جنوبا، أو المجموعات البشرية الحياينة، التسول، البرانس ومكناسة إلى الشمال، بني سادن، آيت سغروشن حريرة، بني وراين وغياثة إلى الجنوب.

ويتجه وادي إيناون من الشرق إلى الغرب ويكاد يربط بين تازة وفاس[22]. عرضه متواضع بما أنه لا يتجاوز 4 كيلومترات إلا نادرا[23] وعلوه منخفض جدا إذ أنه يتراوح بين 129م. عند مصب إيناون في سبو، و400م. فقط بالقرب من تازة. هذا الانخفاض، وضعف الانحدار النسبي هو ما يفسر كثرة منعرجات واد إيناون التي جعلت استعمال الوادي للمواصلات صعب المنال نظرا لكثرة ما يحتاج العابر إلى اجتيازها[24].

ومنذ أن تنزل الطريق إلى وادي إيناون بالقرب من واد بوزملان، تسير بموازاة واد إيناون إلى أن تصل إلى عقبة بني مكَارة من بلاد غياثة، حيث يلتحم الأطلس بالريف عبر عقبة الطواهر (556م). وهي عقبة «وما أدراك ما العقبة، فيها طول إلى الأرض لا إلى السماء (...) والخطب فيها سهل»[25] لأنها تحادي الخانق العميق الذي حفره إيناون إلى الجنوب من الطواهر. حوافّ الخانق عبارة عن أجراف شبه قائمة يتراوح عمقها بين 450م. و600م. هذا الخانق نموذج من الخوانق المتعددة التي حفرتها جل روافد إيناون المنحدرة من الأطلس المتوسط ومن تازكاّ. ولم يفت جل الرحالة أن يؤكدوا على مخاطر عبور هذه الخوانق التي تجعل المسالك الموجودة إلى الجنوب من إيناون قليلة الاستعمال[26].

وتستمر الطريق إلى الشرق من عتبة الطواهر عبر الوادي من جديد تاركة تازكاّ ومرتفعاته المتدرجة المتقطعة إلى اليمين وجبال التسول والبرانس إلى اليسار، إلى أن تصل إلى تازة.

---

(22) DE LA MARTINIÈRE، (م.س)، ص. 60.

(23) FADLOULLAH, **op. cit.** p. 17، المقصود بعبارة وادي المنخفض (Vallée) وكلما تعلق الأمر بالنهر فضلت استعمال «واد» الدارجة.

(24) DELBREL (م.س) ص 174، DE FOUCAULD (م.س) 26.

(25) الشرقي، أبو محمد بن محمد الإسحاقي، **رحلة الفقيه أبي محمد الشرقي**، مخطوط خ. ح. رقم ز 11867 (1731/1143) ص. 30، DELBREL (م.س). ص. 176، وDE FOUCAULD : ص 28–29 وDE SÉGONZAC ص. 255.

(26) DELBREL، (م.س). ص. 174 يقول عنها «شديدة التقطع، يستحيل استعمالها أحيانا».

بعد عبورنا للمنطقة عبور المسافر، يمكننا الآن إيجاز عناصرها التضاريسية في ثلاث وحدات كبرى تتقاسم المنظر العام للمناطق الفاصلة بين فاس وتازة باستمرار.

ـ إلى الشمال، تلال مقدمة الريف الطينية التي تبتدىء في الحياينة وتستمر في التسول والبرانس. وبالرغم من تدرج الارتفاع نحو الشرق والشمال فإنه لا يصبح أبدا عائقا أمام المواصلات، نظرا لتوفر شعاب متعددة، واتجاه بعض الأودية الأفقي أو شبه الأفقي، كوادي اللبن مثلا.

ـ إلى الجنوب، مرتفعات متدرجة هضاب وجبال تشغلها قبائل بني سادن، بني وراين، وغياثة. الارتفاع هنا أقوى والمواصلات أصعب نظراً لشدة التقطع.

في الوسط، منخفض وادي إيناون الذي شكل عبر العصور، وفي نفس الوقت ممرا حيويا للمجموعات البشرية شرقا وغربا، وحداً فاصلا بينها، وإطارا لتعاملها تأثيراً متبادلا أو صراعا(27).

إن التنوع الواضح في التشكيلة التضاريسية لما بين فاس وتازة من مناطق مضافا إلى التنوع المناخي الذي سوف نعاينه بعد قليل، حري بأن يفتح المجال لأنشطة اجتماعية واقتصادية متكاملة حينا ومتعارضة حينا آخر.

فقد تكامِل القبيلة الواحدة بين الرعي والزراعة (الحياينة أو بني سادن) أو النجعة وفلح الأودية الضيقة (بني وراين) لكن لن نستغرب من قيام بعض الصراعات القبلية من جراء تزاحم قبيلتين أو أكثر على نفس الحيز بني وراين والحياينة أو هم وبني سادن(28).

2 ـ المناخ والأودية ضراوة وتعارض

قد يكون الاطلاع على التطورات المناخية، التي مرت بمنطقة ما، أغزر فائدة لفهم ما عاشته تلك المنطقة من أحداث، من الاطلاع على بقية الأحوال الطبيعية

(27) مزين، محمد، **فاس وباديتها من 1549 إلى 1637**، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب الرباط، 1979 ص. 49، ثم CELERIER, J.: «Les Conditions géographiques du développement de Fès», **Hespéris**, T. XIX, Fasc. 1-2, 1934, p. 15. أما DE SÉGONZAC، (م.س)، ص. 222، فإنه يقرر، في شيء من الرؤية المستقبلية الاستعمارية المتحمّسة أن فجوة فاس ـ وجدة هي التي سوف تربط «الأمبراطورية الشريفة ببقية العالم» أي بالجزائر الفرنسية.

(28) سوف أتعرض لذلك في فصل لاحق.

للمنطقة المعنية(29). وإذا لم يكن من السهل العثور في المصادر التقليدية على إشارات مضبوطة إلى المناخ، فإنه من حسن حظ الباحث في تاريخ حوض إيناون أن هذا المعبر كان منذ القدم صلة الوصل مع الشرق، أي مع الأماكن المقدسة، التي يحج اليها بعض الفقهاء أو الطلبة ضمن وفود الحجيج، فيسجلون مراحل ومصاعب تشريقهم. وقد تعددت الإشارات إلى الأحوال الطقسية في الرحلات الحجية(30)، وإن ظلت في مستوى الأحكام القيمية التي يصعب قياسها. على أن الرحلات الحجية، التي صادفت بداية جلها، الفصل المطير، تفيدنا كثيرا في وصف مميزات هذا الفصل، إذ أن تلك المميزات هي بالضبط، ما يلاقيه الحجيج من متاعب في طريقه الأمطار تحيل التربة الطينية إلى مساحة من الأوحال، فتتسبّب في الزلق بالنسبة لبهائم القافلة، وتملأ الشِّعاب والأودية بسرعة فتنتج عن ذلك فيضانات تمنع المرور طيلة أيام، أما الرياح القوية فإنها تمنع من إقامة الأخبية أو تقلعها من أوتادها فيتعرض الحجاج إلى برد المنطقة اللاسع.

وقد تنتظر القوافل بفاس مدة من الأيام أملاً في أن يقل تهاطل الأمطار، نظرا لكون مشكل الوحل يعترض الراكب والماشي منذ الخروج من باب الفتوح، فتسيخ «البلغة» بصاحبها، ويضطر إلى المشي حفيا(31).

على أن الأمر يهون إذا ما ظل الطريق منبسطا أو قليل الميلان، في حين تتعقد الأمور كلما احتاج المسافر إلى صعود العقاب أو نزول المنحدرات. وقد تذكر جل من عبر طريق فاس ـ تازة إبان الفصل المطير، بشيء من المرارة، مشاق صعود عقبة عنق الجمل(32).

(29) أشار محمد مزين إلى أهمية أثر المناخ على ما عاشته بادية فاس في القرن 16م. من تبادلات سلمية وحربية. (م.س)، ص. 56–61.

(30) قد يكون ما قاساه هؤلاء الحجاج من متاعب السفر إبان الفصل المطير، أحد الدوافع التي حدتهم على تدوين رحلاتهم، زيادة في التقرب إلى الله وتأكيدا على استحقاقهم للأجر والثواب، بوصفهم الدقيق لمعاناتهم.

(31) DE SÉGONZAC (م.س)، ص. 21.

(32) من الأمثال الدارجة ببوادي فاس «مْعَ دِيكْ العَقْبة يطلَعْ لك.» يحكى أن أحد الجبليِّين لما رأى البعير لأول مرة، وانتبه إليه يحاول الشرب من غدير ما، قال هذه الجملة الاستعجابية، لما بهره من طول العنق كالعقبة، معتقدا أن الماء لن يفلح أبدا في صعود العقبة. وهو مثل يُحال به على من يحاول محاولة شبه مستحيلة. ففي هذه التسمية إذاً، إحالة على صعوبة الصعود بالإضافة إلى كون الزلق قد يهدّد الإبل أكثر مما يهدّد الدواب الأخرى.

فعادة ما «يعسر على الإبل [صعود] أوعار عنق الجمل وبلاد الحياينة لما بها من الزلق»(33). وقد يضطر المسافرون إلى تفادي هذه العقبة إذا ما كان الوقت مطيرا. هكذا يروي الفقيه الوزير أبو محمد الشرقي الذي صاحب أم السلطان عبد الله إلى الحج سنة 1731/1143 كيف اضطر الركب إلى اللف حول عقبة عنق الجمل «...وأخذ الركب سيره ذات اليسار من طريق عنق الجمل، وتجنب الطريق اليمنى لصعوبتها مصعدا وزلقا، إذ كان نزل ليلة السبت بعض المطر وأصبحت متهيأة للزلق، وأخذ الناس في تسليك الإبل والدواب لاسيما مراكب النساء طول يومهم ذلك، فما أسهلوا من ذلك العنق إلا بعد لأي وشدة»(34). ولا تتمثل الصعوبة هنا في عنصر الارتفاع بقدر ما تتجسد في نوعية الصخور الطينية، التي تتحول حينما تتبلل إلى مساحة من الأوحال يعسر اجتيازها. وكم من مرة «قاست الإبل والبغال والآدميون من الزلق والوحل شدة عظيمة (...) حتى لم يصل الركب من فاس لتازة على نحو شهر»(35). ذلك أن بعض السنوات تتميز «بشدة المطر وحمل الأودية وكثرة الوحل والطين»(36) فيضطر المسافر إلى الإقامة عدة أيام في هذه المحطة أو تلك قبل أن ينقشع الجو. هذا ما حصل للركب الذي كان فيه الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله نزيل المخفية من فاس، ومريده أحمد بن عبد القادر القادري سنة 1100/ 1789. فقد أقام الركب بتازة «خمسة أيام إذ كانت تلك الأيام مع لياليها كثيرة البرد غزيرة الأمطار هائلة الأمر عظيمة الأخطار، لا يستطيع أحد السفر فيها ولو طار ولا يمكن أحداً معها قضاء الأوطار»(37).

ويشتد الأمر على المسافرين أثناء مقامهم تحت الأمطار الغزيرة في أخبية لا تفلح في مقاومة رياح هذه المناطق العاصفة(38).

وقد روى محمد بن عبد السلام بن ناصر محن حجيج 1797 قائلا «ونزل علينا بالليل وابل، ورياح عاصفة قلعت الأخبية من أصلها وخرقت بعضها في ليلة

(33) بن ناصر، محمد بن عبد السلام **الرحلة الصغرى**، ص. 32.
(34) الشرقي، أبو محمد (م.س)، ص. 29.
(35) بن ناصر، محمد بن عبد السلام (م.س)، ص. 34، 32.
(36) القادري، أحمد بن عبد القادر الحسني، **كتاب رحلة الآس في حجة سيدنا أبي العباس** (1100 هـ/1789) مخطوط خ. ح. رقم 8787، بدون تصفيح (ص. 5).
(37) نفس المرجع والصفحة.
(38) DE SÉGONZAC، (م.س)، ص. 25.

اشتد الهول فيها فكدنا نعاين الموت (...) ليلة لا يهم العاقل فيها إلا اللجاء إلى الله، والجاهل همته دنياه وبهائمه وبضائعه (...) وأعظم من ذلك ما وقع بنا من السرقات وبات الناس عسّاس ارْعَ بَالْك [كذا]»[39]. وبالرغم من عدوانية الطبيعة والإنسان على الحجيج، فإن المؤلف يستبشر مع ذلك، لكون هذا المطر لم يصب الركب قبل تازة. «ولو أصابنا فيما بين فاس وتازة لكانت به مشقة عظيمة أو هلاك من كثرة أودية هذه الطريق وصعوبة أرضها من الزلق وبعض العقيبات»[40].

بيد أن توجس الرحالة من الفصل المطير لا يأتي مما يخلفه من أوحال وزلق فحسب، بل أيضا لأن الأمطار إذا ما تواصلت أياما متلاحقة[41] تخلف ارتفاعا سريعا في مياه الجداول والأودية المتعددة التي تقطع المسالك وخاصة منها نهر إيناون[42]. فشدة الأمطار تؤدي إلى حمل الأودية، وهذا ما يرغم على الإقامة انتظارا لانخفاض المياه.

ويروي ابن اليوسي في رحلته كيف فاضت الأودية في ماي 1690 وعطلت المرور «ووجدنا إيناون يمنع من العبور وأقمنا عليه يوما لينقص ماؤه ويقل عناؤه»[43]. وإذا نقص مستوى المياه بالسرعة التي ارتفع بها فلأن الشهر شهر ماي. أما في وسط فصل الشتاء، فإن إيناون يكون «عظيم الحملة في وقت نزول الأمطار»[44].

وقد تؤدي هذه الحملة إلى أخطار محققة بالنسبة للمسافرين إذا ما داهمتهم أثناء عبور الوادي، فلا يقطعون المشرع إلا «بعد الإياس واصفرار وجوه الناس»[45] كما أنها قد تعصف ببعض القرى إذا ما كانت قريبة من ضفة المجرى فتخلف الضحايا والخسائر في المزروعات ويصف DE SEGONZAC ما نجم عن تهاطل الأمطار الغزيرة في مارس 1901 بالتسول من انجراف في التربة أدى إلى خسارات جسيمة. «إن

(39) بن ناصر، محمد بن عبد السلام (م.س)، ص. 35.
(40) ن.م.، ص. 33.
(41) DE SEGONZAC، (م.س)، ص. 25.
(42) يقول DE LA MARTINIÈRE (م.س)، ص. 60 «يبلغ طول واد ايناون 150 كلم تقريبا. وهو نهر ذو منسوب غزير حتى في فصل الصيف، عذب، له مجرى مليء بالحصى الغليظة، عرضه المتوسط 26 مترا، وعمقه صيفا حوالي 0،60 سم (...) أهم رافد يصب فيه من جهة الشمال هو واد اللبن».
(43) اليوسي، **رحلة اليوسي إلى الديار المقدسة** (1690/1101) مخطوط خ. ح. رقم 2343، ص. 5.
(44) أبو محمد الشرقي، (م.س)، ص. 30.
(45) اليوسي، (م.س)، ص. 5.

جريان المياه حفر خنادق، وجرف حقولا بأكملها. وذهب السيل بكل الكروم ومزروعات الفول والشعير التي كانت توجد على سفح التل. كما هوت قرية صغيرة كانت تستوطن منتصف السفح، ويقال إن ذلك خلف عددا من القتلى والجرحى».(46).

وقد تكون حملة إيناون من المباغتة والقوة بحيث لا تترك فسحة كافية لحُرَّاك محلة مخيِّمة على حوافه، ليجمعوا أخبيتهم وأمتعتهم، أو حتى للنجاة بأنفسهم. فقد عانت حرْكة العربي ولد ابَّ محمد من حالة شبيهة بهذه، أثناء تخييمها بالحياينة، في دجنبر 1892(47).

---

(46) DE SÉGONZAC (م.س)، ص. 25.

(47) تذكر هذه الحادثة كل من المراسلات المخزنية والتقارير العسكرية الفرنسية رسالة جوابية من السلطان إلى العربي ولد ابَّ محمد بتاريخ 16 جمادى 2 1310، خ. ح، كناش 707، ص. 200 «وصل كتابك بما من الله به من الأمطار الغزيرة يوم تخييمكم بخميس الكَور وكثر الوحل الذي أضر بالناس مستأذنا في الرحيل» وتقرير الكبتان THOMAS عن شهر دجنبر 1892 ARCHIVES DU MINISTERE DE LA GUERRE (A.M.G.) ; Vincennes, MAROC, Série C, Carton 6, Rap. oct-déc. 1892, Capit. THOMAS.. يشير إلى غرق عدد من الحُراك وذهاب الحملة بما لا يقل عن 14 خيمة.

جدول رقم 1 بأهم أودية ممر إيناون

اسم الواد	المجرى الأصغر العرض والعمق	المجرى الأكبر العرض والعمق	مكان العبور — التاريخ	الرحالة المصدر
إينـــاون	25م×0،60م	50م×2–3م	أسفل الحياينة 29 يوليوز 1883	De Foucauld ص.26
	80م×1،10م		أسفل الحياينة 16 مارس 1901	De Ségonzac ص.23
	15م×0،50م		حوالي واد أمليل 29 يوليوز 1883	De Foucauld ص.26
	6م(؟)×0،30م		حوالي واد أمليل 3 ماي 1894.	El Merakchi[48] ص.12
	16م×0،30م		بني وجان 3 ماي 1894	” ص.13
	10م×0،50م		” ”	” ”
	20م× —		قرب مصب واد الحضر 15 غشت 1901	De Ségonzac ص.223
	26م×0،60م		(في المتوسط) صيف 1891	De La Martinière ص.60
بوزملان	7م×0،20م	8م×0،40م	قرب مصبه في إيناون 1 ماي 1894	El Merakchi ص.7
مطماطة	5م×0،40م	5م×0،40م	قرب مصبه في إيناون 1 ماي 1894	” ”
بوحلو	4م×0،30م	6م×0،60م	قرب مصبه في إيناون 2 ماي 1894	ص.9
	10م×1م		قرب مصبه في إيناون 18 غشت 1901	De Ségonzac ص.225
الزيرك	قليل من الماء	10م×12م	قرب مصبه في إيناون 2 ماي 1894	El Merakchi ص.9
أمليل	2م×0،20م		مصبه في إيناون 18 غشت 1901	De Ségonzac ص.225
الحضر	1 كلـم	1 كلـم	مصبه في إيناون 21 مارس 1901	ص.27
	300م–1،20م		مصبه في إيناون 22 مارس 1901	ص.28

ملاحظـــات

هذه الأرقام شديدة النسبية، وقد يكون نصيب الخطأ فيها كبيرا، إذا ما

(48) EL MERAKCHI, Si Mohamed: **Rapport de Si Mohamed EL Merakchi sur son voyage de Fès à Hasi Lahmar**, Paris, 3. Sept. 1894, A.M.G., Vincennes, MAROC, C. 9.
بعض أرقام هذا المؤلف مدعاة للشك بكيفية واضحة.

تصورنا ظروف السرعة وخشية الافتضاح التي كان يتناول فيها الرحالة قياس هذه الأودية. ثم إن أهمية الأودية تتغير حسب الفصل وحسب الموقع من المجرى الطولي.

لكن توفر هذه الأرقام يمكننا بالرغم من تقريبيتها، من استخراج بعض خصائص هذه الأودية

1 ـ عدم الانتظام بين الفصل المطير (80م×10،1م) والفصل الجاف (25م×60،0) بالنسبة لإيناون في أسافل مجراه.

2 ـ تضاؤل المياه التي تصرفها الأودية كلما اتجهنا نحو الأعالي (16م×30،0م).

3 ـ سرعة الحملة[49] واتساعها ثم نزول مستوى المياه بنفس السرعة (واد الحضر).

4 ـ بعض الأودية تتخذ طابع السيل الذي يمتلىء إبان الأمطار ثم يقل ماؤه، أو يجف تماما في الفصل الجاف (واد الزيركَ).

ولهذه الخصائص عواقبها على المواصلات وانجراف التربة وحياة السكان بصفة عامة.

*

إن غزارة تهاطل الأمطار في أوقات مركزة بهرت الرحالة فسجلوا آثارها ومعاناتهم منها. وترجع غزارة الأمطار هذه إلى انفتاح المنطقة الواسع على المغرب المحيطي وتعرضها أثناء الفصل البارد بالخصوص لمؤثرات غربية محيطية. فالرياح الغربية المحملة بالسحب، تصطدم بمرتفعات هضاب بني سادن وبني وراين أو جبال تازكاّ والأطلس المتوسط، فيتسبّب ذلك في تساقطات هامة[50]. على أن أكثر التساقطات تحدث فوق التلال الشمالية أو على الهضاب والجبال الجنوبية (800–900مم). أما وادي إيناون فإنه يتميز بمجموع أقل (400–500مم) نظراً لوضعيته المغطاة بالقياس إلى المرتفعات[51].

(49) ما تزال «الحملة» تمثل ظاهرة مفاجئة قد تكون خطيرة بالمنطقة إلى اليوم. في دجنبر 1981 حمل واد بوزملان، فهاجم المنازل المجاورة لمجراه، وأفرغها من كل أثاثها الخفيف الذي حمله نحو الأسفل فهرع سكان الأسافل إلى اصطياد هذا «السمك» من النوع الخاص !

(50) FADLOULLAH، (م.س)، ص ص. 24–27.

(51) نفس المرجع، ص. 28

على أن التأكيد من طرف الرحالة على «شدة الأمطار والوحل» لا يحيلنا على مناخ غزير التساقطات مستديمها، بقدر ما يحيلنا على انزعاج الرحالة من هذه البيئة، إذ أن أغلبهم من الحضر الذين لم يتعوّدوا على مثل تلك «الشدائد»(52).

بيد أن هذه الرحلات تثبت بما لا يدع مجالا للشك مدى الصعوبات التي تواجه التنقلات إبان الأمطار. وقد تستحيل البادية إلى «خلاء» يندر فيه الإنسان إذا ما دام تهاطل الأمطار(53) فيقبع السكان في مواطنهم مثلما تؤجل جل المبادرات «ريثما يطيب الزمان».(54)

وتؤكد الدراسة الجغرافية الحديثة لمناخ المنطقة توزع السنة إلى فصلين أساسيين متعارضين، تتخللهما فصول انتقالية سريعة .(55)

– الفصل المطير، هو أيضا الفصل البارد (4°–2°) وقد يتميز ببرودة مفرطة أحيانا نظرا للهواء البارد الذي ينحدر من الجبال المحيطة ، حيث تستديم الثلوج في بعضها طيلة السنة.

– في فصل الصيف، تنقلب البرودة حرارة (وقد تحادي 50 درجة أحيانا) نظرا للبعد عن المحيط وللشكل الحوضي الذي يحدث ظاهرة تركز الأشعة الشمسية، فترتفع درجات الحرارة. وهو فصل جاف، يزيد فيه الجفاف حدة إذا ما هبت الرياح الشرقية التي تحمل المؤثرات الصحراوية(56).

وللرياح أهمية خاصة بهذه المناطق. «إن شكل التضاريس المحلية تجعل من هذا الممر (...) إحدى المناطق الأكثر (...) رياحا بالمغرب»(57) وأهم الرياح التي تهب بالمنطقة هي

---

(52) ما من شك في أن اعتماد أقوال الرّحالة، سواء كانوا أجانب أم مغاربة لوصف بيئة المنطقة يطرح إشكالا منهجيا يستعصي حله من جهة كيف يمكن وصف بيئة بلسان غير سكانها المتعودين عليها والمتكيفين معها، ومن جهة أخرى كيف الولوج إلى بيئة المنطقة في غياب نصوص أخرى ؟

(53) DE SÉGONZAC، ص. 24.

(54) هذه العبارة هي التي ترد في رسائل المخزن كلما تعذرت مبادرة مخزنية بسبب المناخ.

(55) FADLOULLAH، (م.س)، ص. 25، إنما وقع التشديد على وصف الفصل المطير لتوفر الشهادات المتعددة بصدده ولتفهم بعض أحداث تاريخ المنطقة إبان الفصول المطيرة.

(56) ن.م.، ص ص. 30–32.

(57) ن.م.، ص. 14.

ـ رياح «الغربي» التي تقبل بالأمطار شتاء، وتساعد على فرز الحب من التبن صيفا، ولذلك ينيط أهل المنطقة بها بركة خاصة[58].

ـ الرياح الشرقية، (الشركي)، رياح قوية باردة في الشتاء، حارة محرقة في الصيف، يهابها سكان المنطقة ويتلطفون منها لأنها في سائر الأحوال «جافة ومجففة»، وقد قدر هبوبها بمعدل 100 يوم في السنة، وقوتها من الدرجة بأن تمنع المرء في بعض الأوقات، من الوقوف بعتبة الطواهر[59].

ـ وقد أثرت الرياح في العقول حتى أن سكان تازة نسبوا إحدى أبوابها إليها فسموها «باب الريح». كما أنها أثارت انتباه الأجانب عن المنطقة فوصفوها أدق الأوصاف منذ عصر ابن الخطيب الذي يقول بشأن رياح الإقليم «إلا أن ريحه عاصف وبرده لا يصفه واصف»[60] وقد سبقت الإشارة إلى ما عاناه حجيج 1797 من «رياح عاصفة قلعت الأخبية من أصلها ومزقت بعضها في ليلة اشتد الهول فيها»[61] كما أشار أحد مدوني الرحلات المتأخرين إلى قوة الرياح بتازة معتمدا على ما أخبره به «غير واحد بأن الممر الكائن بأعلى باب الريح، أحد أبوابها، يتعذر فيه المرور في بعض الأوقات من السنة، وربما يكون الرجل مارا فيرده الريح قهرا»[62] وقد تخلف الرياح الشرقية آثارا وخيمة على المحصول الزراعي لأنها تسبب الجفاف المحرق للمزروعات «يكفي أن يهب الشركي قبل أن ينضج القمح حتى يجف ويتراخى ويضعف المردود. وهنا في ظرف لا يتجاوز ثلاثة أيام»[63].

ولعل أبرز سمة لمناخ هذه الأقاليم، عدم الانتظام الذي يرتبط بالمناخ المتوسطي بصفة عامة. وقد يحدث عدم الانتظام داخل السنة الواحدة كما قد يعم سنوات

---

(58) «إن البرابر المجاورين لفاس وعرب الحياينة لا يصفون الحب من التبن إلا حينما تهب الرياح الغربية إذ لا ينيطون البركة بغيرها من الرياح».

WESTERMARCK, Edward, **Ceremonies and beliefs Connected with agriculture, certain dates of solar year and the weather in Morocco**, Helsingfors, 1913, p. 30.

(59) FADLOULLAH (م.س)، ص. 32.

(60) أصبحت هذه القولة مأثورة حول رياح تازة، يرددها من تعرض لمناخها السناني محمد بن الرضي، **المقالة المرومة في الرحلة إلى تلمسان وندرومة** خ.ح 2871، (1341/1922)، ص. 17. كذلك: البوخصيبي، أبو بكر **أضواء على ابن يجبش التازي**، ص ص. 19–20.

(61) انظر صفحة 38 أعلاه.

(62) السناني، (م.س)

(63) محمد مزين، (م.س)، ص. 59.

متعدده. وتمدنا تقارير البعثة العسكرية الفرنسية الشهرية، بتدقيقات مفيدة في هذا الشأن، إذ أن محرري هذه التقارير نادراً ما لا يتحدثون عن أحوال الطقس لِما لها من صلة وثيقة بالتداريب العسكرية. وتمثل سنة 1892-1893 نموذجا من عدم الانتظام الفصلي إذا ما استحضرنا أن الشتاء كان غزير المطر، تسبّب في فيضان إيناون الذي هاجم حرْكة ولد ابَّ محمد المخيمة على ضفافه(64)، في حين تواصل الجفاف من فبراير حتى أبريل حيث ظهرت أفواج الجراد، التي عادة ما تصاحب الجفاف. ويشير تقرير يونيو إلى مدى الإتلاف الذي ألحقه الجراد بالأشجار والمزروعات(65).

أما عدم الانتظام على مدى السنوات، فإنها ظاهرة مرتبطة بالمناخ المتوسطي، حيث قد تتفاوت السنوات فيما بينها من حيث الأمطار بما لا يقل عن الضعف أو أكثر. فاذا كانت محطة سيدي عبد الجليل (قرب بوزملان) قد سجلت سنة 1936 ما مجموعه 672م فإنها لم تتجاوز 296م سنة 1944(66). ولو تمكنا من تتبع الذبذبة المناخية بالمنطقة خلال القرن 19م، لأمكننا أن نتفهم أكثر بعض ما عاشته قبائل المنطقة من تقلبات سواء في علاقاتها فيما بينها أو بينها وبين السلطة المركزية.

ذلك أن الحياة الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والسياسية ترتبط إلى حد بعيد بتوزيع فصول السنة. «ففصل الشتاء بأمطاره وثلوجه في المرتفعات يجعل الحروب والتحركات مستحيلة لأن الطرق وعرة» في حين «تبدأ الحروب [في فصل الصيف] لتنتهي في آخره (...) ويكثر التبادل التجاري عبر الطرق فيبقى العدو الرئيسي هو الحرارة ولو أنهم كثيرا ما يسافرون في الصباح الباكر (...) أو ليلا»(67).

3 ـ عينات من ارتباط تاريخ الإقليم ببيئته

أضفى مناخ هذه المناطق، المتميز بالتعارض والإفراط برودة وحرارة، شيئا من

(64) انظر هامش 47 أعلاه.

(65) A.M.G, Vincennes, MAROC, C. 6, rapports de Déc. 1892 ; Janvier à Juin 1893.

(66) FADLOULLAH (م.س)، ص. 29.

(67) محمد مزين، (م.س)، ص ص. 60-61 على أنه لا يجب تضخيم دور المناخ مع ذلك فالمخزن في القرن 19م. لم يتراجع دائما أمام صعوبات المناخ، وإن فضل غير ما مرة تأجيل معالجة الأمور إلى إبان الصيف أي حينا «يطيب الزمان».

الغلظة والجلد على طباع أهلها(68). فقد أكد غير واحد من المؤلفين على ما لهذه المناطق من مؤهلات حربية دفاعية منذ القديم. فقد قال ابن خلدون، مثلا عن بعض أهلها «وهم موصوفون بوفور الجباية وقوة الشكيمة، ولهم عناء في مظاهرة الدولة وحقوق عند الحشد والعسكرة وفيهم مؤن من الخيالة»(69). ولاحظ مارمول، في القرن 16م، بصدد خوانق غياثة (مطغرة) أن «رجلا واحدا مسلحا بالحجارة بإمكانه أن يمنع المرور على ألفين»(70).

لا غرابة أن يرتكز سكان هذه المنطقة على مؤهلاتها الدفاعية الطبيعية ومواقعها المحصنة، لمواجهة حملات الغزو الخارجي من قبل أتراك القرن 16م أو فرنسيي القرن 20م. بل إن السلطة القائمة بفاس، عادة ما كانت تعتمد على هذه المناطق كحزام أمن ضد السلط التي تقوم في المغرب الأوسط، مثل اعتماد المرينيين عليها ضد الزيانيين(71) واتخاذ سلاطين القرن 19م هذه المناطق كنوع من الحاجز الواقي ضد الوجود الفرنسي بالجزائر(72).

على أن سكان هذه المناطق لجأوا إلى توظيف نفس المؤهلات لمواجهة السلطة المركزية كلما لم يستطيعوا الاستجابة لمطالبها(73).

وقد لاقت بعض الحرْكات السلطانية من مناخ المنطقة المعاناة الكثيرة في زمن الصيف كما في زمن الشتاء. «عانت جيوش فاس الأمرّين في هذه الحرْكة، لأنها وقعت في شهري يونيه ويوليه ولأن البادية شديدة الحر والجفاف (...) فاضطر الجنود إلى

(68) يتحدث DE SÉGONZAC، ص. 22 عن «فرسان غياثة والحياينة المتجهمين والمدجّجين بالسلاح».

(69) ابن خلدون، عبد الرحمن، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر** بيروت 1958–1959، ج 6، ص. 280. الحكم يتعلق بقبيلة مكناسة.

(70) MARMOL, **L'Afrique de..** Traduction N. PERROT D'ABLANCOURT, Paris 1667, 3T., T. 2, p. 317.

(71) يشير الحسن الوزان إلى صراع المرينيين والزيانيين في سياق وصفه لمدينة توريرت وما آلت إليه من الخراب من جراء ذلك الصراع. فقد استبدلت توريرت رؤساءها عشر مرات في ظرف خمسين سنة، تارة تخضع لملك فاس، وتارة لملك تلمسان، (م.س)، ص. 272.

(72) يشير LE CHATELIER في مذكراته إلى أن المخزن في القرن 19م. كان يجعل من «غليان» قبائل شرق فاس حجة دفاعية يعارض بها طموحات التغلغل الفرنسية في المناطق الشرقية، ويذهب لوشاتليي إلى افتراض يد للسلطان في ذلك الغليان. LE CHATELIER, A.: **Mémoire sur le Maroc... Voyages au Maroc, Oct.1889-mars 1890,** s.d. ni lieu d'édition, p. 26, 158-159.

(73) لعله من المثير للانتباه أن نجد إلحاحا خاصا لدى الوزان ومارمول، من بعده، على عدم أداء جل قبائل المنطقة للضرائب.

الإسراع لقطع هذه المناطق الحارة ومات الكثير منهم من شدة الحر في الذهاب والإياب وذلك عام 904 للهجرة» (1499/1498م)[74]. بهذه الكلمات يصف الحسن الوزان إحدى حركات بعض أمراء الوطاسيين المتأخرين في اتجاه دبدو.

ولما جهز السلطان سليمان جيشا ضد التسول سنة 1227هـ (1812-1813م) زمن الشتاء، عانى الفرسان من تساقط الثلوج الشدائد حيث أن «الخيل (كانت) تغيس (كذا) في الثلج حتى البَدْرة (كذا)»[75].

كما أن السلطان الحسن عاين مصاعب هذه المناطق أثناء إيابه من رحلته الأولى إلى المغرب الشرقي سنة 1874/1291 «ولما وصل عقبة مُوكَة، المحل الشهير بمكناسة، تراكمت الأمطار وتكاثف الوحل وحصل لتلك المحال بسبب ذلك مشاق عظيمة وأصيب بخسائر جسيمة»[76] ثم إن نفس السلطان لاقى ما لاقاه من شدة معارضة سكان جبال غياثة الذين اعتمدوا على حسن معرفتهم ببيئتهم ليهزموا الجيش السلطاني[77]. أما أمثلة الحركات غير السلطانية التي تضررت من عدم تمرسها بالمنطقة. فإنها كثيرة تتخلل القرن 19م[78].

بصفة عامة، يؤكد الرحالة والمؤلفون على ما تؤهل به هذه المناطق سكانها من إمكانيات المعارضة للسلطة المركزية والاعتصام بالمرتفعات، ولاسيما في اتجاه الأطلس المتوسط، إذ أن «لهم عناء في مظاهرة الدولة»[79] «ولهم دربة على المقاومة بالجبال

---

(74) الحسن الوزان (م.س)، ص. 275. هذه الأوصاف تتعلق بما عانته الحركة ما بين تازة ودبدو أي إلى الشرق من تازة حيث تتأكد المؤثرات الصحراوية، فتقل المياه الجارية على العكس من مناطق ما بين فاس وتازة. إلا أن شهري يونيو ويوليوز يتميزان بنفس الحرارة والجفاف حتى في هذه المناطق.

(75) **تاريخ مولاي سليمان** لمؤلف مجهول، بتاريخ 30 شعبان 1833/1248 ست ورقات من ورقة 64 إلى ورقة 69، (مخطوط السيد DE LA PORTE)
من مجموع تحت رقم 1892، قسم المخطوطات الخزانة الوطنية بباريس.
(يرجع الفضل في إطلاعي عليه إلى عبد الأحد السبتي، الذي أعبر له هنا عن صادق شكري). والبَدْرة هي تدريج لـ «البادرة» التي هي العضلة التي تربط العنق بالمنكب. هذا يعطي فكرة عن مدى ارتفاع الثلوج ببلاد التسول في شتاء 1812.

(76) ابن زيدان، عبد الرحمن **اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، الرباط، 1930، ج 2، ص. 154.

(77) يوجد تفصيل ذلك في فصل لاحق.

(78) سوف أتعرض لبعضها بتفصيل في الفصول اللاحقة.

(79) ابن خلدون، (م.س)، ج 6، ص. 280.

لدرجة أن العدد القليل منهم يهزم العدد الكثير من جند فاس»[80].

وتدل العديد من المراسلات المخزنية على أن مخزن القرن 19م كان يقيم لهذه البيئة حسابها حيث أنه كان يزاوج في تعامله مع مختلف القبائل التي تشغل هذه المناطق، بين المرونة والصرامة، حسب موقع تلك القبائل من المسالك الأساسية بين فاس وتازة، وحسب تمنعها أم لا بمرتفعات يصعب منالها[81].

يمكن إذاً إجمال مظاهر البيئة الإيناونية في كونها منطقة حوضية تتمحور حول وادي إيناون، الذي تشرف عليه تلال الحياينة والتسول شمالا وهضاب وجبال بني وراين وغياثة جنوبا. وتتميز هذه المنطقة الحوضية باتصالها من جهة الغرب بمنخفض وادي سبو، ومن جهة الشرق بحوض ملوية عبر عتبة الطواهر وممر تازة. هذا ما جعل مناخها يستقبل المؤثرات الغربية المحيطية شتاء والشرقية القريبة من الصحراوية صيفا، ويتميز بالتالي بالضراوة والتعارض. وقد مثلت هذه الظروف الطبيعية من تضاريس ومناخ، مرتكزات دفاعية هامة بالنسبة للسكان المتعاقبين في هذه المناطق، سواء ضد الغزو الأجنبي أو حتى السلطة السياسية القائمة بفاس. بيد أن طابع الممر الذي يميز حوض إيناون، ظل بالرغم من ذلك وعبر العصور المتتالية، معبر التوغلات العسكرية شرقا وغربا، ومسلك الهجرات البشرية الكبرى التي عرفها الشمال المغربي بأكمله، والتي خلف بعضها آثارا باقية إلى اليوم بالمنطقة.

---

(80) MARMOL، (م.س)، ج 2، ص. 317.

(81) أنظر تفصيل المواقف فيما يأتي.

الفصـل الثانـي

انتظام المنطقة حول وظيفتها كمسلك

إن طابع الممر الذي تمت ملاحظته في الفصل السابق أثر بعمق في حياة الحوض الإيناوني منذ العصور الغابرة. فإليه تعود سلسلة التقلبات التي جعلت سكان المنطقة يرتبطون باستمرار بما يجري شرقا حتى الجزائر أو تونس، وغربا حتى فاس، تطوان بل والأندلس قبل 1492. وقد كان لهذا الارتباط شرقا وغربا بليغ الأثر في تشكل ساكنة الحوض الإيناوني، التي تميزت بعدم الاستقرار لمدة طويلة. وقبل التعرض للمكونات الأساسية لهذه الساكنة، في فصل لاحق، نرى من الضروري التعرف في هذا الفصل، على بعض العوامل التاريخية والاجتماعية ـ الاقتصادية، التي تحكمت في تشكلها. وترتبط تلك العوامل بالأساس، بكون المنطقة ظلت حتى النصف الأول من القرن الماضي، مسلكا رئيسيا بشمال المغرب، ونقطة عبور حساسة على أكثر من مستوى

ـ تاريخيا شهد حوض إيناون تنازعا بين الشرق والغرب، يستهدف الاستيلاء على المنطقة من طرف السلط المتعاقبة بفاس أو بتلمسان أو حتى بافريقيا. أدى ذلك إلى صراعات متلاحقة، تفصلها هُدن لا تلبث أن تنفصم.

ـ دينيا وثقافيا   ما استثنينا فترات احتداد الاضطرابات التي كانت تمنع حركة التواصل، فإن حوض إيناون شكل، بالرغم من تلك الصراعات، الخيط الرابط الذي يصل بلاد الغرب الإسلامي بالمشرق، بمناسبة كل موسم حج.

ـ تجاريا   في الماضي كما في الحاضر، كانت التجارة ملازمة للحج. ويمكن تصور القوافل التجارية على شاكلة القوافل الحجية، حتى وإن كانت أكثر تواضعا وأقل هيبة منها.

سوف نحاول في هذا الفصل أن نتلمس كيف تبنينت حياة المنطقة المحيطة بإيناون حول وظيفة الممر الذي لا غنى عنه عبر نقطتين أساسيتين

I – التاريخ تجارب المنطقة بين الشرق والغرب وما أثاره ذلك من صراعات.

II – الدين والتجارة المواكب الحجية عبر إيناون.

I – دور التاريخ تجاذب المنطقة بين الشرق والغرب

لابد من الإشارة إلى ما يعترض الباحث في تاريخ قبيلة أو اقليم ما، من صعوبة في الاستقرار على نقطة للبدء. فقد يشعر المرء دائما بهاجس عدم معرفة «ما سبق»، فيلاحق أخبار المنطقة التي يهتم بتاريخها، في تعثر، عساه أن «يغطي» التسلسل الحدثي، فيتوهم أنه قد حصل على تلك المعرفة الحميمة بموضوعه[1].

بيد أن الفراغ الذي يصدم المرء حينما ينكب على الاهتمام بتاريخ منطقة ما، يرغمه، مع ذلك، على توجيه نظره في شتى الاتجاهات، عساه أن يصل إلى رسم لوحة منسجمة إلى هذا الحد أو ذاك لتاريخ المنطقة المدروسة.

لن يكون مقصودنا إذا الاستقصاء الشامل لمظاهر الماضي الإيناوني، إلى غاية القرن 19م، بقدر ما سيكون استجلاء الخطوط والتيارات الكبرى التي فعلت فعلها بالمنطقة وأسست سلوكات وعلاقات اتخذت طابع البنى الملازمة.

1 – حوض إيناون في القديم

لم ينل حوض إيناون سوى اهتمام ضئيل من لدن باحثي التاريخ القديم، ولا نتوفر اليوم، إلا على معلومات أصابها بعض التقادم فيما يتعلق بالماضي البعيد للمنطقة. ولا تعدو مصادرنا في هذا الباب، ما خلفه الباحثون الاستعماريون من دراسات وحفريات، وأوصاف واستخبارات مضى على تدوين معظمها، حاليا، أكثر من نصف قرن[2]. وقد كانوا، هم أنفسهم، من أول المقتنعين بمحدودية النتائج التي

---

(1) لعل هذا الطموح في «التغطية» من باب الأوهام التي لن يفيد الجري من ورائها في شيء، في أوضاع البحث التاريخي الراهنة. ومن النافل التأكيد على استعصاء أي مبادرة من هذا النوع على المجهود الفردي، لو افترضنا احتمال حصول هذه التغطية.

(2) أهمها هي

— BASSET, Henri, (1925) «Les Troglodytes de Taza», in **Hespéris**, T. V, 4e trimestre, pp. 427-442.

توصلوا إليها(3).

سوف يكون إذاً، من باب الادعاء الساذج، أن يعتقد المرء أنه بالإمكان التأريخ للمنطقة الإيناونية بصفة دقيقة، في العصر القديم، لما تعاني منه الدراسات القديمة من ضعف، ولما اكتنف ما يوجد منها من مناخ استعماري(4).

على أنه من المفيد رسم مسار عام، مهما اشتدت تقريبيته بالضرورة، لماضي المنطقة الإيناونية، حتى نتبين حجم التطورات اللاحقة.

يبدو أن أثر الإنسان يعود إلى أغبر العهود ما قبل التاريخية بالمنطقة، على الأقل حوالي الموقع الذي تحتله، اليوم، مدينة تازة. فقد وُجدت منذ عشرينيات هذا القرن،

— CAMPARDOU, Joseph, (1921). «Notes archéologiques sur la région de Taza (Maroc)» in **Bulletin Trimestriel de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran**, 44e année, T. XLI, Fasc. 3e-4e, Sept. 1921, pp. 173-194.

— CAMPARDOU et ANDRE, (1915) (Lieutenants,). «Notes historiques sur Taza». **Bulletin du Comité de l'Afrique Française (B.C.A.F.), 1915, Renseignements Coloniaux** N° 9, pp. 148-160.

— MARCY, Georges, (1929), «Une tribu berbère de la Confédération Ait Warain : Les Aït Jellidasen», in **Hespéris**, 1929, T. IX, 1er trimestre, pp. 79-142.

— TERRASSE, Henri, (1939) «Taza, notice historique et archéologique» **C.H.E.A.M.** (Paris), 1939, pp. 10.

والفقر في أبحاث التاريخ القديم لا يخص هذه المنطقة بالذات كما لا يتعلق بالمغرب وحده أيضاً، بل يشمل الدراسات القديمة بالمغرب الكبير عامة، باستثناء تونس، وذلك لما تميزت به الدراسات القديمة منذ المنطلق، من اتصالها إما «بالسياسة الثقافية الاستعمارية، أو رأسا بالإدارة الاستعمارية». «وبما أن الأبحاث القديمة هي الميدان الذي يحتك فيه الباحث بعلوم أساسية في تكوين المهتم بالتاريخ من أنثربولوجيا وكتابة حجرية وأركيولوجيا، فإن انصراف المغاربة عن تاريخهم القديم، لا يقود إلى عواقب منهجية خطيرة فحسب، (...) بل يشير، ضمن ما يشير إليه، إلى ضعف نضج ثقافي ووطني»

LAROUI, Abdellah, (1970) **L'Histoire du Maghreb, un essai de synthèse**, Maspéro, 1970, pp. 25-27, 58.

(3) يقرر CAMPARDOU (م.س)، ص. 178 «إن الفترة السابقة للإسلام ما تزال مليئة بالعتم بالنسبة إلينا..

(4) العروي (م.س)، ص. 33. وقد كان الدارسون الاستعماريون أنفسهم، يتشككون بين الحين والآخر، في جدية استنتاجاتهم. مثال عن ذلك CAMPARDOU (م.س) 187 «إلى أي فترة يمكن أن ترجع هذه الأطلال (كَرن النصاري، إلى الغرب من تازة). إن الإجابة عن هذا السؤال صعبة... ومما لا شك فيه أن بعض الذين سبقوا إلى الوصول إلى تازة (من الأوروبيين) قد تسرعوا، فنسبوها إلى الرومان»... وقد أكد مؤلفو **تاريخ المغرب**، ص. 30 «إن كل الأطلال التي سبق عزوها إلى الرومان، هي في الواقع، إما بربرية أو إسلامية، وتعود إلى العصر الوسيط في أغلب الأحيان» BRIGNON, Jean, BOUTALEB, Brahim et Col. (1967) **Histoire du Maroc**, Hatier, p. 30.

في مواضع متعددة، في الكهوف المنتشرة بأحواز تازة، بقايا الإنسان ما قبل التاريخي وتعود إما إلى الحجري القديم أو الحديث(5). وعثر على قدر هام من الظرار (Silex) في كِفَانْ بالغمَارى، مثلا، وكانت تستعمل إما كأسلحة، كرؤوس للسهام، أو كأدوات يومية كالمحكات إلخ... كما عثر على فأسين من الحجر المصقول بِرُوسْ الرّجِي (رؤوس الرحي) جنوب تازة، وبتازة بالذات(6)، وعلى عدد من الكهوف التي حفرت على الجانبين الشرقي والغربي للمدينة العتيقة.

هل كانت هذه التجمعات الكهفية تستعمل من طرف إنسان العصر الحجري الحديث للسكنى ولجمع المؤن وخزنها على غرار نمط «الأكَادير» بالجنوب، كما يقترح ذلك H. BASSET، أو إنما كانت هذه الكهوف تستعمل كمدافن للموتى كما يرى ذلك CAMPARDOU(7)؟

إن ما يهمنا من محاولة الإطلالة على العمق التاريخي للحوض الإيناوني، ليس هو التوقف عند هذه التدقيقات التي كانت، على كل حال، في أوائل هذا القرن، تستجيب لأغراض وقتية(8)، بل هو التوصل إلى أن موقع تازة، نظرا لطابعه الحصين، وتحكمه في الممر السهل الوحيد بين الشرق والغرب، قد جلب منذ العصور ما قبل التاريخية، الاستقرار البشري، وانتعاش «حضارة حجرية» مهمة يمكن مقارنتها بمعاصراتها بأوربا(9).

ويبدو أن تازة ظهرت كتجمع سكني أمزيغي قبل الاحتلال الروماني بكثير إذ «أنه من المحتمل أن يكون الموقع الممتاز الذي يشرف على وادي إيناون، ويسامت عيونا متعددة وغزيرة، انتقل من غير شك، من مرتبة الحصن البسيط إلى درجة القلعة المنيعة، في الفترة التي كان فيها لملوك البربر من القوة ما كانوا يواجهون به روما»(10). هكذا

(5) CAMPARDOU et ANDRE، (م.س)، ص. 151.

(6) (ن.م)، ص. 152.

(7) BASSET (م.س)، ص. 429 CAMPARDOU (م.س)، ص. 180.

(8) كان غرض CAMPARDOU (م.س)، ص. 181، هو التدليل على تشابه كيفية الدفن بين الرومان والمغاربة القدماء، في حين كان هدف BASSET(م.س) ص. 427، هو الإيحاء باستمرار حياة الكهوف بالمغرب حتى القرن العشرين، وهما وجهان لعملة استعمارية واحدة.

(9) CAMPARDOU et ANDRE (م.س)، ص. 151. وقد لاحظ باحث آخر أن موقعا متقدما وسط الأطلس المتوسط عرف، هو بدوره، نشاطا حرفيا مهما، في العصر الحجري، إلى درجة أنه افترض وجود «أوراش حقيقية لصناعة الرحى، والفخار والحجارة المنجورة»، MARCY(م.س)، ص. 104.

(10) CAMPARDOU et ANDRE (م.س)، ص. 152.

ربط المؤلفان المذكوران بين بزوغ الدور الاستراتيجي والعسكري لموقع تازة، وبين الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا.

ويبدو أن سكان الموقع قد عرفوا خلال القرون السابقة للميلاد أنشطة حرفية مهمة، تظهر في وفرة ما عثر عليه من خزف وفخار، يتمثل في مجموعة من القناديل الزيتية، أو الأواني البيتية الصالحة للطهو، أو لتناول الأطعمة[11]. ويستفاد من وفرة القناديل الزيتية المعثور عليها، أن ضواحي تازة قد عرفت منذ هذه الفترة، عناية هامة بشجر الزيتون، وانتشارا ملحوظا لصناعة عصر الزيتون[12].

ويغلب على الظن أن هذا التطور لموقع تازة، قد حصل في استقلال عن التأثير الروماني المباشر، إذ أنه «لا يبدو أن روما أسست مراكز قارة فيما بين لال مغنية ووليلي»[13] أي بين موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية.

بيد أن الممر استعمل من غير شك، ضد الممالك الأمازيغية، كلما تعلق الأمر بتنظيم حملة عسكرية غازية أو تأديبية. ولعل إحدى الحملات الرومانية الهامة كانت هي تلك التي قادها سويطونيوس بولينوس (Suetonius Paulinus) وكان القصد منها قمع الانتفاضة التي تزعمها ايدمون (Aedemon) إثر اغتيال ملك موريطانيا الطنجية بطليموس (Ptolémée) ابن يوبا الثاني (40م)، (Juba II) بإيعاز من الأمبراطور الروماني كاليكَولا (Caligula). فمن المحتمل أن تكون هذه الحملة قد عبرت ممر إيناون قبل التوغل جنوبا حتى الأطلس الكبير، أو نهر كَير[14].

وإذا لم يكن من المستبعد أن يكون إشعاع الغارات الرومانية قد وصل إلى مشارف الأطلس الكبير الأوسط[15]، فإنه من غير المستبعد أيضا أن تكون جل هذه الغارات قد وفدت من الشرق وعبرت الممر الإيناوني.

---

(11) ن.م. ص. 153. وتدل أدوات طهو الكسكس على وجود هذه العادة الغذائية منذ قرون متقدمة بهذه المناطق.

(12) ن.م ص. 153، ثم CAMPARDOU (م.س)، ص. 183.

(13) CAMPARDOU et ANDRE (م.س)، ص. 154.

(14) انظر: CAMPARDOU et ANDRE (م.س)، ص. 152، Ch. A. JULIEN, **Histoire de l'Afrique du Nord**, Payot, Paris, 1975, 2 vol. ج. 1، ص. 126. وJ. BRIGNON (م.س)، ص. 30. ويذهب MARCY في بحثه حول آيت جليدسن، السابق الذكر، ص. 107، إلى الجزم بوجود جزء من طريق روماني بالأطلس المتوسط، يفترض أنها لاشك الطريق التي سلكها بولينوس.

(15) التوفيق، أحمد، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان 1850-1912**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الثانية 1983، ص. 56.

هكذا، يبدو منذ هذه الفترة السابقة للإسلام، أن المنطقة تميزت بخاصية صاحبتها خلال العهود اللاحقة، تمثلت في كونها ممرّاً للحملات الغازية والهجرات المختلفة، الوافدة من الشرق، والتي استعملت حوض إيناون للعبور أو الاستقرار، طاردة عنه سكانه السابقين أو مضطرة إياهم إلى الاندماج مع الوافدين الجدد.

خلال هذه المراحل التي سبقت الفتح الإسلامي، لا نستطيع الحديث عن سكان حوض إيناون إلا بتقريبية كبيرة، إذ نكاد نجهل كل شيء عنهم، وحينما نعثر على إشارة إليهم فإنها غالبا ما تكون محفوفة بهالة المجهول الأسطورية. ما هي القبائل التي عاشت في هذه المناطق ؟ ما هي وسائل تعيشها، وهل كانت مستقرة أم كانت تعيش حياة النجعة ؟ ليس لدينا بعد أجوبة واضحة حول كل هذه الأسئلة، بالرغم من كون المؤرخين الاستعماريين ألفوا تصوير سكان المغرب كقبائل رحل منذ الأزل، فيندر ألا يشيروا إلى أسماء قبائل أو تجمعات قبلية مثل البكواتس (Baquates) والبوارس (Bavares) والماكنيتس (Macenites)[16] ولا يخلو مؤلَّف حول هذه المرحلة، من التأكيد على الطابع الترحالي الذي كان يهدد أمن ورخاء المدن الرومانية. «إن البكواتس والبوارس الذين كانوا يترحلون في السهول العليا الجزائرية المغربية كانوا يهددون أمن (المواصلات الرومانية بين الموريطانيتين)[17]».

وقد ناقش عبد الله العروي فرضية انتشار نمط الترحال قبل مجيء الرومان، وخلص إلى اعتباره على النقيض مما أكده المؤلفون المشار إليهم أعلاه، رد فعل ضد سياسة التهميش والطرد خارج الليمس (Limès) التي كانت روما تنهجها بالشمال الإفريقي[18].

---

(16) Ch. A. JULIEN (م.س.)، ج 1، ص. 138، CAMPARDOU et ANDRE، (م.س)، ص. 150، J. BRIGNON (م.س)، ص. 31. ويجتهد كل مؤلف في التقريب بين هذه الأسماء وأسماء قبائل معروفة تاريخيا. فاعتبرت تسمية الماكنيتس التسمية القديمة لمكناسة (المرجع الثاني) كما تم عدة مرات التقريب بين البكواتس وبرغواطة، وهو رأي ناقشه مؤلفو **تاريخ المغرب**، اعتمادا على FREZOULS الذي بحث في تاريخ هذه القبيلة، ورأى بالأحرى أنه إذا ما لزم التقريب، فإنه يصدق أكثر على قبيلة بقيوة الريفية. وإن صح ذلك يكون نفوذ بقيوة قبل الإسلام قد انتشر حتى عم ما بين الأطلس المتوسط والريف، وسيطر على طرق الاتصال بين الموريطانيتين.

(17) Ch. A. JULIEN، (م.س)، ج 1، ص. 138.

(18) A. LAROUI، (م.س)، ص ص. 63–64؛ التوفيق، (م.س)، ص. 54. ومما تجدر ملاحظته أنه لم يعد من المجمع عليه أن حياة الترحال حالة طبيعية متأصلة في الشمال الإفريقي؛ كما لم يعد من المقبول بدون نقاش، تصور تطور تاريخي اقتصادي ـ اجتماعي على شكل خطي لا رجعة فيه: من الالتقاط

ومهما يكن، فإننا لا زلنا، إلى اليوم، نصادف بحوض إيناون، جملة من أسماء مجموعات بشرية، قبائل أو فرق، يدرجها علماء الأنساب عادة، ضمن الأصول التي نفرعت عنها القبائل الأمزيغية منها البرانس، مكناسة، أوربة ولا يسع المرء إلا أن يفترض أن هذه القبائل كانت منذ هذه الفترة المتقدمة، تستقر إلى هذا الحد أو ذاك في المنطقة العريضة الممتدة على الأقل من وليلي حتى شرق الملوية(19).

ما يمكن استخلاصه إذاً من المرحلة ما قبل الإسلامية، أن المنطقة الإيناونية ظلت ولا شك خارجة عن الليمس، على الأقل خلال فترات طويلة متعاقبة، أو أنها في أقصى الحالات، خضعت لنفوذ حمائي من طرف روما، أو استُعملت كمعبر لجيوشها. ما يمكن استخلاصه أيضا هو أن وجود هذه المنطقة بين الموريطانيتين، جعل منها في نفس الوقت، محط أطماع رومانية، ونقطة ضعف في النظام الروماني بالشمال الإفريقي، إذ أنها كانت تتحكم في نقطة مواصلات حساسة بين أطرافه. وقد لازمت هذه الخاصية الحدّية الحوض الإيناوني لمدة طويلة من تاريخه، حتى بعد الفتح الإسلامي.

2 ـ إيناون من الفتح الإسلامي إلى مجيء المرابطين القرون 7م ـ 11م

يشارك إيناون بقية أقصى الغرب الإسلامي في كل ما طبع مرحلة الفتح، وما أعقبها من استبداد حكم الولاة العرب بين القرنين السابع والثامن الميلاديين. وإذا كنا لا نستطيع تتبع مراحل فتح المناطق الإيناونية، فإنه من الممكن اعتبار أن جل الحملات الإسلامية الأولى قد عبرت المنطقة ذهابا إلى الغرب أو إيابا منه.

كيف كان موقف سكان أحواز إيناون، مكناسة، غياثة والبرانس، حيال الدين والفاتحين الجدد ؟ ليس بالإمكان تقديم جواب قاطع حول هذا السؤال. لقد

والقطف والصيد ثم الترحال والرعي إلى الزراعة المستقرة وسكنى القرى قبل تطور الحرف وتوسع المدن. بل على العكس، قد تكون حياة الترحال مؤشرا على رجعة أصابت المجتمع من جراء «حصار تاريخي» مفروض عليه، حسب تعبير العروي. ويرى ع. مزين في دراسته حول المغرب الجنوبي الشرقي، بأن الوضعية التي سادت قبل القرن الثامن، هي وضعية الاستقرار.

MEZZINE, Larbi, **Constribution à l'histoire du Tafilalt**, Thèse de 3e Cycle; Sorbonne, 1977. (texte ronéo. Faculté des Lettres, Rabat, TL 74) pp. 452-453, 529.

(19) الناصري، أحمد بن خالد، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** بتحقيق ولدي المؤلف جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء، 1956 ج 1، ص ص. 65-66، ويذكر من بين القبائل التي تعتبر أصلية، ونجد لها أثرا باقيا بالمنطقة: من البرانس: أوربة، صنهاجة غمارة، ومن البتر، مكناسة.

ذهب Gautier إلى أن أوربة البرنسية كانت متشبعة بالحضارة اللاتينية المسيحية[20] وذلك شيء مستبعد، على الأقل بالكيفية الشاملة التي يوحي بها كلامه، إذا ما تذكرنا أن روما لم يستدم نفوذها أبدا فيما بين فاس ومغنية[21]. ويغلب الظن أن النصرانية لم تنتشر إلا بكيفية متفاوتة حتى ضمن القبائل التي كانت تعيش داخل الليمس إذ أن «المسيحية كانت أكثر تجذرا في المدن منها في البوادي»[22]. فلا يستغرب أن يكون نفوذها أقل بين ظهراني القبائل التي لم تخضع إلا لماماً لسلطة روما، وتلك كانت حالة قبائل حوض إيناون.

وربما كان جل هذه القبائل يحتفظ بعباداته الطبيعية التي نعتتها المصادر الإسلامية فيما بعد، نعتا عاما هو المجوسية[23].

على أن وجود مجموعات نصرانية في إيناون أمر شديد الاحتمال إذا ما أخذنا بالاعتبار ما وضعته المصادر العربية من الإلحاح في التأكيد على أن كسيلة، زعيم أوربة، كان نصرانيا[24]. ثم إن الطبونيميا بأحواز تازة، احتفظت ببعض التسميات، مثل «قرن النصراني» (غرب تازة)، وهي تسميات قد تدل على مقام قديم للنصارى بالمنطقة[25].

---

(20) عن Ch. A. JULIEN، 1975، ج 2، ص. 18.

(21) وُجد من ضمن الإداريين الاستعماريين أنفسهم من كان يتضايق من تعميمات GAUTIER المتسرعة. فقد عاب عليه أحدهم، وهو MORIZOT، في تقرير أعده في نهاية تدريبه، للمركز الذي كان متخصصا في «الدراسات الإدارية الإسلامية العليا» (وتحول فيما بعد إلى مركز للدراسات العليا لإفريقيا وآسيا الحديثتين) ـ عاب عليه عدم الربط بين أوربة التاريخية وأوربة التي هي اليوم فرقة من البرانس.
— MORIZOT, P. **La jmaâ en pratique (Les Tsoul)**, mémoire ronéotypé, C.H.E.A.M., Paris, 1953, 14 p., p. 2.

(22) J. BRIGNON et Col.، (م.س)، ص. 46، 51.

(23) احتاج كل من ادريس الأول ثم ابنه بعده، وقد مر ما يفوق القرن على الحملات الإسلامية الأولى إلى أقصى المغرب، إلى مكافحة المجوس غير بعيد عن فاس: «ثم خرج (ادريس الأول) برسم غزو من كان بقي من قبائل البربر بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية، وكان قد بقي منهم بقية متحصنون في المعاقل والجبال والحصون المنيعة (...) [كـ] فندلاوة وحصون مديونة وبهلولة وقلاع غياثة...»، أحمد الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 156.

(24) الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 80.

(25) CAMPARDOU et ANDRE (م.س)، ص. 154، أيضا DELBREL, Gabriel, «De Fès à l'Oranie à travers le pays des Ghiata (Vallée de l'Inaouen) 1899», in «**La Géographie, Bulletin de la Societé de géographie**» T. II, 2e Semestre 1900, Paris, Masson et Cie, pp. 167-182, p. 177.

إذا لم تكن النصرانية منتشرة، فيما يبدو، إلا في حدود ضيقة، فإنه على العكس من ذلك، من الجائز أن نعتبر أن اليهودية عرفت انتشارا مهما ضمن بعض القبائل المحيطة بإيناون، ولاسيما منها تلك التي تحادي الأطلس المتوسط. فمن القبائل التي يعدها الناصري كقبائل دانت باليهودية بالمغرب، نصادف مديونة، وبهلولة، وغياثة، وبني فازاز[26]. وإذا ما ألقينا نظرة على الخريطة، نجد أن غياثة ومديونة وبهلولة، أعلام ما تزال قائمة إلى اليوم، حتى وإن تغير الواقع الذي تحيل عليه. إننا نعثر على بهلولة في شكل قرية كبيرة إلى الشمال الغربي من صفرو تحت اسم البهاليل (جمع لـ بهلول الذي هو مذكر بهلولة أو مفردها) ومعلوم ما كانت هذه الناحية تحتضنه من تجمعات يهودية إلى فتره قريبة منا في القرن العشرين[27]. أما مديونة فنصادفها تحت اسم قرية توجد إلى الشمال الشرقي من تيسَّة في حين ما تزال لفظة غياثة تطلق إلى اليوم على القبيلة الكبرى المعروفة بضاحية تازة[28].

طرحنا منذ قليل السؤال عما كان موقف سكان إيناون من الدين والفاتحين الجدد. ويمكن العودة إليه وقد تبينا إحتمال التداخل الديني الذي كان عليه هؤلاء السكان، بين العبادات الطبيعية والنصرانية واليهودية، مع ميل الديانة الأخيرة إلى الغلبة. ومما يجعل الجواب على مثل هذا السؤال عسيرا كما أسلفنا، ما أضفته النصوص على مرحلة الفتوح من قدسية أصبح معها من الشاق تبين التاريخ من الأسطورة[29]. وليس لدينا سوى مؤشرات غير مباشرة لتلمس موقف سكان المنطقة، ولا نستطيع الجزم بأن ما نسجله في مأمن من الشك.

(26) الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 67؛ انظر G. MARCY، (م.س)، ص. 107.

(27) انظر مثلا: AUBIN, Eugène, **Le Maroc d'aujourd'hui**, Armand Colin, Paris, 1913, pp. 359, 396.

(28) ولعله مما يدل على عمق تجذر اليهودية، في دير الأطلس المتوسط الشمالي، من صفرو، حتى دبدو، تواتر حكايا وأساطير عن أمراء يهود أو حكام يهود كانوا يستبدون بالسكان المحليين إلى أن أتى منقذ خلصهم منهم. من ذلك قصة ابن مشعل الشهيرة. لكن أيضا، حكاية تروج عند بني وراين، قصها علي شيخ امغيلن، عبد الله أبجا، في ماي 1979، نستفيد منها أن أحد أسباب نزول بني وراين من الجبل أن قائد بني مكود كان يهوديا، يحقر من شأن القبيلة المكودية، وذلك بإلزام نساء القبيلة حمل الحطب من الغابة إلى داره. وكان القائد يدعى ابن خدة. فما كان من بني وراين إلا أن قتلوه. ثم شرعوا في عملية النزول إلى السهل. وقد قدر الراوي أن تاريخ هذه الحكاية قد يعود إلى حوالي مائة وخمسين سنة، أي إلى الثلث الأول من القرن الماضي، وهو تاريخ متأخر عن الزحف الأولي للقبيلة كما سنرى ذلك. ومن الطبونيمات الشائعة إلى اليوم: «شعبة اليهودي» «باب اليهود» «عنق اليهودي»... انظر خرائط 50.000/1 ورقة تاهلة وورقة مطماطة.

(29) J. BRIGNON et Col.: (م.س)، ص. 48؛ A. LAROUI، (م.س)، ص ص. 79–80.

لا يبدو ان سكان حوض إيناون واجهوا الزحف الإسلامي بالمقاومة العنيفة منذ الوهلة الأولى. هل يعود ذلك إلى احتمال تغلب الديانة اليهودية على المسيحية ضمن السكان، وسهولة خضوع اليهود لوضع الذمة ؟[30]. أم أن السكان أقبلوا على الفاتحين الجدد كردّ فعل ضد الهيمنة الرومانية (البيزنطية) ؟[31]. مهما يكن، فإن زعيم أوربة، كسيلة، حسب ما ترويه المصادر العربية، أسلم إبّان إحدى الحملات الفاتحة الأولى حوالي 62 هـ/682 م[32]. وإن كان ذلك تمّ بعد مقاومة عنيفة. وإذا ما كان كسيلة قد قلب ظهر المجن لعقبة بن نافع، وتزعم الانتفاضة ضد السلطة العربية الناشئة، فإن تلك الانتفاضة لا تدل على رفض للديانة الجديدة أو للعنصر العربي، بقدر ما تدل على موقف سياسي يرفض استبداد الجند العربي، والإهانات المتكررة التي يحلو للمصادر التقليدية أن تظهر عقبة وهو يمارسها على كسيلة[33].

وقد كانت عواقب هزيمة كسيلة وخيمة على قبيلته، إذ اضطرت إلى الفرار أمام جند زهير بن قيس البلوي حتى أشرفت على ملوية.

وقد يرجع أول استقرار لأوربة بالمنطقة الإيناونية إلى هذه الفترة بالذات[34].

وإذا لم يكن من السهل استجلاء مراحل قيام النفوذ الإسلامي بالحوض الإيناوني، ورد فعل سكانه إزاء الإسلام والعرب، فإنه من المؤكد أن هذه المناطق نالت نصيبها الأوفى من التقلبات التي أعقبت الفتح، وما تلاه من استبداد للولاة على العهدين الأموي والعباسي، قبل أن يحقق الغرب الإسلامي استقلاله عن المشرق إثر الحركة الخارجية.

وقد صادفت الدعوة الخارجية صدى عميقا لدى سكان المناطق الإيناونية، لأنهم كانوا من غير شك من ضمن الذين عانوا أكثر المعاناة من استبداد الولاة، نظرا لوجودهم على المعبر الذي كان يمر عليه هؤلاء الولاة، بين الأندلس وطنجة من جهة وتلمسان والقيروان والشرق من جهة ثانية.

---

(30) J. BRIGNON، (م.س)، ص. 52.
(31) ن.م، ص. 50.
(32) الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 80، A. LAROUI، (م.س)، ص. 78.
(33) الناصري، (م.س)، ج 1، ص ص. 81–83.
(34) الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 91.

فمن بين القبائل التي أقبلت على الصفرية نصادف مكناسة، ومطغرة وبني يفرن[35]. وجلها كانت تقيم في المناطق المحيطة بايناون[36]. ولا شك في أن حركة ميسرة المطغري (121 هـ/739م) قد عمت كل الشمال المغربي قبل أن تنطلق نحو الشرق[37]. ومعلوم أن هذه الحركة التي تبدو دينية كانت ذات بعد سياسي واجتماعي. إذ «نفرت قلوب البربر (...) وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحبحاب جملة بما كانوا يطالبونهم به من الوظائف»[38].

ما مدى تأثير الخارجية على قبائل المنطقة ؟ وما هي العلاقة بين نسبة ميسرة المطغري، وقبيلة مطغرة التي كانت تستقر إلى الشرق من بويبلان[39] ؟ هل تدل نسبته هذه على اعتناق القبيلة بأكملها للمذهب الخارجي ؟ أسئلة من المجازفة الإجابة عليها قبل مزيد من البحث المتخصص[40].

وقد ربط GAUTIER بين الثورات الخارجية وقبيلة زناتة معتمداً على منطق عنصري أصبحنا، اليوم، في غنى عن مناقشته[41]. بيد أنه يثير الانتباه إلى ظاهرة هامة وهي أن موطن الانتفاضات الأساسية على خط متسق، محطاته الرئيسية : «طنجة ووادي سبو وتلمسان ووادي شليف وهدنة وجنوب تونس وطرابلس، وكما تقع في سلسلة السهول والهضاب العالية»[42]، أي على المسلك نحو الشرق. وهذا ما يؤكد أن حوض إيناون، وهو المعبر الضروري لهذا المسلك، قد نال حظه من الاضطرابات التي رافقت الانتفاضات الخارجية. فمن المحتمل جدا أن تكون الانتفاضات الصفرية قد أدت إلى تحركات هامة عبر حوض إيناون. ومن المرجح أن

---

(35) اسماعيل عبد الرزاق، محمود: **الخوارج في بلاد المغرب**، دار الثقافة، البيضاء 1976، ص ص. 48–49. وفي ص. 138 يقرر أن الصفرية كانت منتشرة لدى «مديونة وغياثة ومكناسة».

(36) G. MARCY (م.س)، ص. 103.

(37) اسماعيل عبد الرزاق، (م.س)، ص ص. 64–65؛ A. LAROUI، (م.س)، ص. 90.

(38) الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 106؛ م. أ. عبد الرزاق، (م.س)، ص ص. 60–61؛ BRIGNON، (م.س)، ص ص. 54–55.

(39) MARCY (م.س)، ص. 107.

(40) من المؤسف أن يكون إسهام بعض الأبحاث المتخصصة في هذه الفترة ضعيفا. محمود اسماعيل عبد الرزاق، (م.س)، ص. 106، مثلا، يربط بكيفية فيها شيء من التسرع بين نسبة الزعماء ودور القبائل، فيعتبر أن مطغرة تزعمت الانتفاضة قبل أن تعوضها زناتة، غير مدلٍ بأكثر من نسب الزعماء كدليل.

(41) A. LAROUI، (م.س)، ص. 92، هامش 1، وم. اسماعيل عبد الرزاق، (م.س)، ص. 105.

(42) عن م. اسماعيل عبد الرزاق، (م.س)، ص. 105.

تكون جموع البربر المتجهة نحو الشرق بغية السيطرة على قاعدة السلطة بإفريقيا، وهي مدينة القيروان، قد سلكت معبر إيناون، قبل مواجهة الجند العربي على نهر الشليف، وإلحاق الهزيمة به في معركة الأشراف (123هـ/741هـ)(43).

في حين لا يبدو أن ثمة مجالا للشك في أن الجيش العربي الموجه ضد الخوارج بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، قد مر عبر إيناون بما أنه تواجه مع الصفرية بقيادة خالد بن حميد الزناتي، بوادي سبو إلى الغرب من وادي إيناون(44).

وقد اعتبر عدد من الدارسين أن الحركة الصفرية والخارجية بصفة عامة كانت ذات آثار بليغة في تاريخ المغرب الكبير برمته، إذ كانت علامة على حصوله على استقلاله الذاتي عن المشرق(45). وقد سبق للناصري أن أكد «وفشت نِحلة الخارجية في جميع قبائله (المغرب) وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد»(46).

وإذا ما سلمنا بأن الصفرية نالت التأييد إلى هذا الحد أو ذاك ضمن قبائل الحوض الإيناوني فإن هذا الإقبال على الخارجية قد يكون على درجة كبرى من الأهمية بالنسبة للمراحل اللاحقة من تاريخ المنطقة. إذ من الممكن أن نعتبر أن موقع قبائلها المتحصن والطرفي في آن واحد والذي هو ممهِّد موضوعي لرفض الجور، كان يجد في الخارجية تبريرا عقائديا له. وبالرغم من اضمحلال الخارجية في نهاية المائة الثانية، «فقد بقيت منها آثار في أعقابهم (البربر) من أصحاب الأطراف»(47).

إن التحركات العسكرية التي طبعت المرحلة الممتدة من الفتح حتى الثورة الصفرية كان لها عميق الأثر بالحوض الإيناوني. وعلى الرغم من عدم قابلية الأرقام

---

(43) الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 109، Ch. A. JULIEN، (م.س) ج 2، ص. 30.

(44) فصّل م. اسماعيل عبد الرزاق في وصف معركة بقدورة (؟)، حيث فاجأ الصفرية الجند الشامي باستعمال أسلحة غير منتظرة، واعتمادهم على عنصر الإيمان والحماس لدى المحارب، مما أربك جند كلثوم وأدى به إلى الهزيمة النكراء. انظر: م. اسماعيل عبد الرزاق، (م.س)، ص ص. 66–69؛ انظر أيضا الناصري، (م.س) ج 1، ص ص. 110–111.

(45) BRIGNON et Col.، (م.س)، ص. 57؛ A. LAROUI، (م.س)، ص. 90.

(46) أ. الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 108.

(47) ن.م، ص. 137. هذا ما قد يفسر ذلك التشدد الديني الذي لاحظه أكثر من واحد من رحالة القرن التاسع عشر، ناعتينه بالتعصب، ومعاداة الأجنبي.

التي تقدمها المصادر عن عدد الجيوش أو جموع القبائل، للتصديق بدون نقاش[48] فإن تلك الأرقام توحي مع ذلك بحجم التحركات البشرية والعسكرية التي شهدتها مناطق المسالك في هذه الفترة. ولو اقتصرنا على مثال جيش كلثوم بن عياض، لوجدناه يتكون من «ثلاثين ألفا من أهل الشام ومصر (...) فضلا عمن انضم إليه من المتطوعة وجند إفريقية وعدتهم أربعون ألفا»[49]. ومهما كانت درجة هذه الأرقام من الخيالية فإنها تشير مع ذلك إلى أهمية التنقلات وما قد تكون خلفته من نزوح بعض السكان عن مواطنهم، وحلول سكان آخرين محلهم. وقد سبقت الإشارة إلى أن أوربة قد يكونون استقروا بحوض إيناون على إثر هزيمة كسيلة[50]. ومن المرجح أن تكون الحركة الصفرية أسفرت أيضا عن استقطاب بعض السكان نحو هذه المناطق من أمثال مكناسة أو بني يفرن[51]. كما أن هذه الحركة قد تكون هي المسؤولة عن شد حوض إيناون إلى مسالك الجنوب والجنوب الشرقي الصحراوي، خاصة بعد أن قامت دولة بني مدرار وأنشأت مدينة سجلماسة سنة 140هـ/757م، حيث هاجرت بطون من «مكناسة الضاربة في وادي ملوية ونواحي تازة»[52].

بيد أن الروايات التاريخية تشير إلى إقبال جزء هام من قبائل حوض إيناون على بيعة إدريس الأول، منها، بعد أوربة، مغيلة وصدينة ثم زناتة وسدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة[53] فهل يدل هذا الإقبال على استمرار النزعة الاستقلالية عن المشرق والتي وقعت الإشارة إليها سابقا ؟ أم أن في ذلك دليلا على الرغبة في التميز عن الدولة المدرارية في الجنوب الشرقي ؟ على كل، فإن جل أسماء القائمة الواردة أعلاه، ما تزال موجودة بالحوض الإيناوني إلى اليوم، وهي إما دالة على قبائل بأكملها أو لم تعد تحيل

---

(48) هكذا يردد الناصري بعد مؤلفين عديدين سبقوه أن عدد قتلى بربر الأوراس بعد هزيمة الكاهنة كان مائة ألف. (م.س)، ج 1، ص. 94.

(49) م. اسماعيل عبد الرزاق، (م.س)، ص. 66. ونجد أن الناصري كان أكثر تحفظا «ووجه (الخليفة هشام الأموي) معه (كلثوم) جيشا كثيفا لقتالهم (الصفرية) كان فيه مع ما انضاف إليه من جموع البلاد التي مرَّ بها ـ سبعون ألفا على ما قيل» (م.س)، ج 1، ص. 110.

(50) انظر، ص. 58 أعلاه.

(51) MARCY، (م.س)، ص. 108.

(52) م. اسماعيل عبد الرزاق، (م.س)، ص. 288. وقد ثبت استعمال حوض ايناون للوصول إلى سجلماسة عن طريق ملوية أو العكس عدة مرات عبر تاريخ المنطقة حتى القرن التاسع عشر. انظر الفصل السابق.

(53) الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 155.

إلا على فرق من قبائل وفدت فيما بعد فاستوعبتها(54).

على أن إقبال سكان الحوض الإيناوني لم يكن شاملا ولا تام التلقائية، بل إن الناصري يشير إلى بعض غزوات ادريس الأول ضد المنطقة حيث كان المجوس واليهود والنصارى ما يزالون يتحصنون بالمعاقل والجبال المنيعة. فقد تعددت حملات ادريس الأول وابنه بعده ضد غياثة والمناطق الشرقية حتى تلمسان(55). وقد عاش إيناون مراحل الصراع بين الأدارسة والصفريين بسجلماسة والرستميين بتاهرت(56). ولا يبدو أن قبائله وقفت موقفا منسجما من هذا الصراع. فإذا كانت أوربة برهنت عن مساندتها المستمرة للدعوة الإدريسية، وتحالفها، الذي كان زواج ادريس الأول من إحدى بناتها خير دليل عليه، فليس من المستبعد أن تكون قبائل أخرى خضعت فقط لقوة سيف الأدارسة. ولا نستطيع قبول رواية الحوليات التي تظهر هؤلاء السكان تارة ضمن الحركات الصفرية بكل ثقلهم، وطورا في ربقة البيعة الإدريسية بكل حماسهم(57).

وفي الخطب التي تنسبها المصادر لكل من ادريس الأول والثاني، تتواتر بعض التعابير من أمثال «أيها الناس لا تمدُّنَّ الأعناق إلى غيرنا(58)»، وهذا الإلحاح قد يوحي بالاستمرار الصفري ضمن السكان القريبين من العاصمة الجديدة، فاس. وقد بدا هذا الاستمرار بجلاء ما إن ضمرت قوة الأدارسة «وبالفعل، نجح أحد صنائعهم (بنو مدرار) ويدعى عبد الرزاق، في لمِّ شمل صفرية مديونة وغياثة ومكناسة (...) ثم اتجه بجموعه إلى فاس، وهزم علي بن عمر بن ادريس الذي فرَّ لائذاً بقبيلة أوربة»(59) قبل أن يُقضى على هذه الحركة سنة 293هـ/907م.

هكذا يبدو حوض إيناون، بالرغم من قربه من قاعدة السلطة ـ فاس ـ كمنطقة هامشية، طرفية، لا تلبث أن تتحول إلى مرتكز لانطلاق الرفض والمطالبة

(54) إذا كانت مكناسة وغياثة ما تزالان تدلان على قبائل بعينها فإن مغيلة موزعة اليوم بين بني يازغة (مغيلة) وبني وراين (ايمغيلن)، وسدراتة فرقة من الحياينة وأوربة فرقة من البرانس في حين لم يحتفظ التاريخ بذكر صدينة سوى كعلَم لجبل بالحياينة.

(55) الناصري، (م.س)، ج 1، ص ص. 156-157، 169.

(56) م. اسماعيل عبد الرزاق، (م.س)، ص ص. 136-137، 195-196.

(57) الناصري، (م.س)، ج 1، ص ص. 108-109، 155.

(58) ن.م، ج 1، ص ص. 155-162.

(59) م. اسماعيل عبد الرزاق، (م.س)، ص. 138، الناصري، (م.س)، ج 1، ص. 179.

بالسلطة عندما تضمر الأسرة الحاكمة بفاس. ومهما يكن، فإن ما شاب نهاية الفترة الإدريسية من صراع بين أدارسة فاس، ورستميي تاهرت، يمثل الإرهاصات الأولى من التجاذب شرقا وغربا، والذي سوف تعيشه المناطق الإيناونية، وبصفة أعم المناطق الموجودة إلى الشرق من فاس حتى وجدة، فيما بعد، نظرا لما لمعبر إيناون من أهمية سياسية، عسكرية، واقتصادية في علاقات الغرب والشرق.

وقد برز هذا الصراع بين السلطة القائمة في الشرق والسلطة القائمة في الغرب من أجل الامتيلاء على شمال المغرب خلال القرن العاشر بين الفاطميين من جهة والأمويين من جهة ثانية.

تلح جل المصادر على ما شاب الشمال المغربي بصفة عامة، وحوض إيناون على وجه أخص، من اضطراب وتقلب متسارع في الانتماء والتبعية إما للفاطميين بافريقيا ثم بمصر أو للأمويين بالأندلس «وانقرضت دولة آل ادريس من فاس وأعمالها وتداول المغرب الأقصى العبيديون أصحاب افريقيا، والمروانيون أصحاب الأندلس، مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء»(60). وإذا ما صدق ما قاله ابن الخطيب عن هذه المرحلة، على سائر الشمال والجنوب الشرقي من المغرب، فإنه يصدق بكيفية أدق على الممر الإيناوني حيث تعاقب الحكام وغيروا ولاءاتهم المرة بعد المرة، إذ «كانوا بين لِحْيَيْ أسد يكابدون دولتين عظيمتين من جهتيهما، دولة الشيعة، ودولة الأموية»(61).

وإذا كان من الظاهر أن الصراع بين أتباع كل من الدولتين كان صراعا بين الشرعية الفاطمية الشيعية والشرعية الأموية السنية، فإنما كان ذلك الصراع في العمق تعبيرا عن عوامل أخرى، جيوسياسية واقتصادية، تستهدف الاستحواذ على ضفاف جنوب المتوسط من طرف الأمويين لسد الأفق أمام التوسع الفاطمي غربا، والتحكم في الميناءين سبتة ونكور، اللذين هما مصبان للمسالك الرابطة بين الجنوب الصحراوي، مورد الذهب، والشمال أو الشرق على السواء(62). ومن هذه الوجهة، كان لكل المسالك الرابطة بين المدن/الدول أهمية قصوى لا بالنسبة للسلط الحاكمة

---

(60) أ. الناصري (م.س.)، ج 1، ص. 186

(61) ابن الخطيب، لسان الدين، **كتاب أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام**، المطبوع تحت عنوان : **المغرب العربي في العصر الوسيط** بتحقيق أ.م. العبادي وم.أ. الكتاني، دار الكتاب، البيضاء، 1964، ص. 224.

(62) J. BRIGNON et Col.، (م.س)، ص. 75

فيها فحسب بل حتى بالنسبة للسكان المجاورين لها، وهذا ما قد يفسر عمق انخراطهم في الصراعات الدائرة حولها(63).

ماذا كان أثر هذا المد والجزر على حوض إيناون ؟ ما من شك أن من آثاره المباشرة دمج السكان بعضهم ببعض، الوافدين الجدد، بالمستوطنين السابقين. هذه العملية التي بدأت منذ هذه الحقبة المبكرة هي التي تفسر ما لاحظه أكثر من واحد من واصفي أحواز فاس في أوائل القرن العشرين، من كون السكان يتميزون بامتزاج عرقي ولغوي كبير(64). ويبدو هذا الامتزاج بجلاء من خلال ما أصاب بعض الأعلام من تغير عميق في الدلالة. فبعض أسماء القبائل التي تبعت دعوة ادريس في القرن الثامن مثل قبيلة صدينة لم يعد لها، اليوم، أثر سوى كعنوان على جبل بالحياينة، في حين نجد ضمن نفس القبيلة الحياينة، تسميات لبعض الفرق، كانت تدل في العهد الإدريسي، على قبائل بعينها، مثل قبيلة سدراتة(65) كما أننا نصادف اليوم، في طبونيميا الحوض الإيناوني مجموعة من الأسماء سجلت مرور الزناتيين بالمنطقة مثل «يفرن» التي تتكرر مرات بالقرب من تاهلة(66)، فضلا عن مكناسة، التي ما تزال تحيل على قبيلة، شمال تازة.

بيد أن هذا المد والجزر أدى أيضا من غير شك إلى طرد جزء من السكان السابقين. ولعل هجرة جزء من فرقها، أدى ببعض القبائل التي كانت قوية الشوكة فيما سبق، إلى الاندماج في قبائل أخرى، مثلما هو الأمر بالنسبة لأوربة(67)، التي رأينا أهميتها أيام الأدارسة، والتي اندرس نفوذها فلم تعد تظهر سوى كفرقة من تسول. ويحتمل أن تكون حركة الهجرة قد وقعت في اتجاه المدينة ـ فاس ـ للاحتماء بها، إذ أننا نصادف في العهد المريني اللاحق، ضمن «بيوتات فاس الكبرى» التي هي ذات «فقه وكتابة وعدالة وثروة»، وكلها صفات لا تتوفر في بيت من البيوتات إلا

(63) A. LAROUI، (م.س)، ص. 129.

(64) G. MARCY، (م.س)، ص. 94، وأيضا CELERIER, J. (1934), «Les Conditions géographiques du développement de Fès», in **Hespéris**, T. XIX, Fasc. 1-2, 1934, pp. 1-20, p. 15.

(65) «سدراتة، إحدى شعوب لواتة من البربر»، الناصري، (م.س)، ج 2، ص. 172. في حين أن الحياينة يشتهرون منذ القرن 16م كقبيلة عربية. وهذا نموذج عن الامتزاج المشار إليه أعلاه.

(66) انظر خريطة تاهلة 1 على 50.000.

(67) انظر MORIZOT، (م.س).

بعد بضعة أجيال من الاستقرار بالمدينة، نصادف ضمن تلك البيوتات، بعض بني مكود وأوربة[68]، وهي القبائل التي سبق ذكرها بحوض إيناون.

على كل، فإن التقدم الزناتي في القرنين العاشر والحادي عشر ما يزال في بدايته. وإذا ما حجبت عنا المصادر أخبار المجموعات الزناتية لما برزت الدول الأمبراطورية على مسرح الأحداث، فإن من المحقق أن مدّ هذه المجموعات لم ينقطع على أرضية الواقع، بما أنها تظهر من جديد، ما إن تندرس هذه الدول، للمطالبة بتركتها.

3 ـ إيناون في عصر الأمبراطوريات الكبرى

إن ما يمكن ملاحظته من استقراء المصادر التقليدية للتاريخ المغربي أن هناك تلازما يكاد يكون مستمرا بين تقوي الدولة المركزية وفقر الأخبار عن الحياة المحلية. فكلما برزت دولة مركزية قوية البنيان، دخلت الحياة المحلية في الظل بالنسبة لهذه المصادر، وانحجبت مظاهرها على الدارس الذي يصبح عليه، أحيانا، أن يتبين التطورات المحلية عبر تأويل للتطورات العامة، أو أن يستشف، أحيانا أخرى، تلك التغيرات من خلال مؤشرات نادرة. ولا غرابة في أن يدفع التقوي المركزي بالحياة المحلية إلى الهامش إذ أن الحالتين تنتميان إلى نمطين اجتماعيين، سياسيين مختلفين، متناقضين على الأمد البعيد[69]. فأن تنضب الأخبار حول حوض إيناون في عصر الأمبراطوريات الكبرى أمر طبيعي. بيد أن موقع المناطق الإيناونية على ممر التيارات الكبرى، جعل مع ذلك أخبارها من التواتر بقدر يسمح بتتبع تطوراتها خلال هذه المرحلة.

إن أول ما يثير الاهتمام الصعوبات التي تلاقيها كل دولة كبرى أثناء صعودها في التحكم في سكان المنطقة المحيطة بإيناون، فقد استغرق فتح المناطق المتراوحة بين بلاد فازاز وورغة وفاس من المرابطين، ست سنوات. وبالرغم من كون سيفهم أتى على ما لا يقل عن ثلاثة آلاف فيما قيل، من الزناتيين (مغراوة، وبني يفرن، ومكناسة)، فإن انفتاح هذه المناطق على الشرق مكن بعضهم من الفرار إلى تلمسان[70].

(68) ابن الأحمر، اسماعيل (شارك في تأليفه)، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور، الرباط 1972، ص. 10، 37.

(69) L. MEZZINE، (م.س)، ص. 11.

(70) مجهول **مفاخر البربر**، مخطوط مصور، خ.ح. رقم 10893، ص. 13 ظ. الناصري، (م.س)، ج 2، ص. 29.

ولعل فتح الموحدين للمنطقة كان أيسر، إذ منذ البداية، اتبعت الجيوش الموحدية مسالك الجبل في مواجهة الجند المرابطي الذي كان يراوح أمكنته بالأراضي الواطئة. ونتتبع مع أبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق حركة جيش الموحدين محطة محطة في مواجهة جيش المرابطين الخارج من فاس[71].

وكان خريف 1141/536 قاسيا بغياثة كما وصفه البيدق «فنزل علينا الهواء (كذا) خمسين يوما بخمسين ليلة ولم يفتر، وحملت الوديان»[72]، ولعل عدم ورود ذكر لانتفاضة ضد الموحدين، بالرغم من شدة المناخ الذي أدى إلى ارتفاع كبير في الأسعار أشار إليه البيدق، يدل على موقف مساند للموحدين ضد المرابطين[73]، بيد أنه إن كان موقف السكان المحليين مساندا للموحدين، لن يلبث هؤلاء أن يصطدموا بالجموع المرينية الأولى التي وصلت إلى المنطقة، واعترضت أحد جيوش الموحدين العائد من تلمسان سنة 1145/540[74].

على العكس، لا يبدو أن المنطقة قاومت كثير مقاومة تقدم المرينيين بعد أكثر من قرن من ذلك (1247/645 ـ 1248) حينما آلت مبادرة السعيد الموحدي في الاستيلاء على تلمسان إلى الفشل، فانتهز الأمير أبو بكر بن عبد الحق «الفرصة في الموحدين، فاعترض عسكرهم بجهات تازا (...) واستلبهم واستولى على ما بقي من أثاثهم»[75].

لعل ما يفسر هذا الاختلاف في استقبال السلط الناشئة من المرابطين

---

(71) محطات عبد المومن صفرو ـ الفلاج (عين الفلاج) ـ بني يازغة ـ بني مكود ـ غياثة ـ عفرا (جبل من غياثة)، ومحطات تاشفين جبل العرض (ظهر المهراس ؟). المقرمدة (بوحلو) النواظر (الطواهر ؟). وهما الطريقان المتواجهان طريق الجبل وطريق الوادي ـ انظر أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور، الرباط، 1971، ص ص. 52ـ53؛ الناصري، (م.س)، ج 2، ص. 104.

(72) البيدق ن.م، ص ص. 52ـ53. وقد وردت عند الناصري، ج 2، ص. 109 سنة 1132/527 كتاريخ لافتتاح تازة، وهذا شيء مستبعد إذا ما قارنا أخبار البيدق الكبيرة الدقة بمصادر الناصري ذات الطابع التعميمي.

(73) ومما يدل على عمق دعم سكان أحواز تازة للموحدين ما نصادفه عند الونشريسي، **المعيار المعرب** الرباط، 1981، ج 2، ص ص 453ـ460 من استمرار الدعوة الموحدية، مدة غير يسيرة، بعد اندثار دولة الموحدين، عند كزناية.

(74) الناصري، (م.س)، ج 2، ص. 108.

(75) ن.م، ج 2، ص. 252.

الموحدين إلى المرينيين، هي الأوضاع التي كانت عليها منطقة إيناون في كل حالة على حدة. أن تواجه غياثة المرابطين وأن تستقبل المرينيين بعد الموحدين، لا يمكن تفسيره بأي صراع عرقي بين صنهاجة ومصمودة أو زناتة، بل إن إرساء كل دولة تم في شروط تاريخية محددة[76].

مواجهة المرابطين تجد تفسيرها في كون المنطقة كانت قد عاشت فترة من الاستقلال الذاتي الواسع على عهد الإمارات الزناتية والسلط الأموية أو الفاطمية البعيدة، في حين أن نشأة السلطة المرابطية كانت تشد المنطقة إلى نظام مركزي قوي، وقريب القاعدة، لا شك وأن يتعارض والحياة المحلية.

أما تقبل السلطة المرينية النسبي، الذي نستشفه من النصوص التقليدية[77] فإنه قد يرجع إلى وضعية الوهن الذي أصاب المجتمع بأكمله على العهد الموحدي المتأخر، حتى أن الناصري يشير بكيفية لا تدع مجالا للشك إلى الفراغ الديمغرافي الذي نزل بالبلاد إثر الحروب المتكررة بالأندلس، وهزيمة العقاب وآثار الوباء «فلما كانت سنة عشر وستمائة (1212)، أقبل نجعهم على عادته (...) حتى إذا أطلوا على المغرب (..) ألقوه قد تبدلت أحواله وبادت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهله أوطانه وخف منها سكانه وقطانه، ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت (...) فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم»[78].

سبقت الإشارة إلى نضوب الأخبار في المصادر التقليدية، حول الحياة المحلية، كلما تقوت الدولة المركزية. غير أن تقوّي الدولة في حد ذاته كان يحبل بمخلفات محققة بالنسبة لمنطقة توجد على إحدى المسالك المحورية، ولابد أن تتأثر بذلك التقوي إيجابا وسلبا.

---

(76) انظر مناقشة الأطروحات الاستعمارية المعتمدة على تشويه لابن خلدون عند A. LAROUI (م.س)، ص ص. 203-204. انظر أيضا AYACHE, Germain, «Ibn Khaldoun et les Arabes» dans **Etudes d'histoire marocaine**, SMER, 1979, pp. 25-39.

(77) يشير **كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، لمؤلف مجهول، حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص. 172، إلى أن قبائل حوض ايناون كانت من السباقين إلى مبايعة المرينيين «وكان أول من بايعه من أهل المغرب هوارة وزكارة ثم تسول ومكناسة... ثم سدراتة... هؤلاء هم السابقون لبيعته، فوضع عنهم الخراج» (المقصود هو الأمير عثمان بن عبد الحق المتوفى سنة 638/1240-1241).

(78) الناصري، (م.س)، ج 3، ص. 5.

فمن آثاره الحميدة، على عهد المنصور الموحدي مثلا، سلامة المسالك حتى أنه «كانت الظعينة تخرج من بلاد نول فتنتهي إلى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يسومها بسوء»(79) ولابد أن تنعكس هذه السلامة إيجابيا على مناطق المسلك. وقد بدا ازدهار مسلك إيناون في هذه المرحلة في العناية التي نالتها مدينة تازة من الخلفاء الموحدين الأوائل الذين رفعوا شأنها من مرتبة الرباط إلى درجة المدينة المحصنة : بناء أسوار المدينة، تأسيس المسجد الجامع...(80)، ولم تكن هذه العناية ترجع إلى أهمية تازة في شبكة المواصلات الموحدية، كمنطلق لأهم الحملات الغازية في اتجاه افريقيا فحسب، بل إلى كون تازة والقبائل المجاورة لها كانت من المناطق التي أسهمت بقسط وافر في الحركة الموحدية، كما في جهاز الدولة المومنية أيضا(81).

ولعل في ذلك الازدهار أصل وفود مهاجرين جدد، وتقدمهم في المنطقة حسب خط المسلك من الشرق إلى الغرب، للسيطرة ولا شك على نشاطه التجاري(82). بيد أنه من اللازم أن نميز بين تقدم الزناتيين الذي يعود إلى فترة سابقة، وظهور أول العناصر العربية في المنطقة. إننا لا نستطيع القطع في شأن تاريخ هذا

---

(79) الناصري، (م.س)، ج 2، ص. 198.

(80) أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، المحمدية، 1967، ص. 80 «مدينة تازة كانت رباطا فمدّنها عبد المومن بن علي سنة 529» وقد سبقت مناقشة دخول الموحدين تازة. ـ الناصري، ج 2، ص. 110.

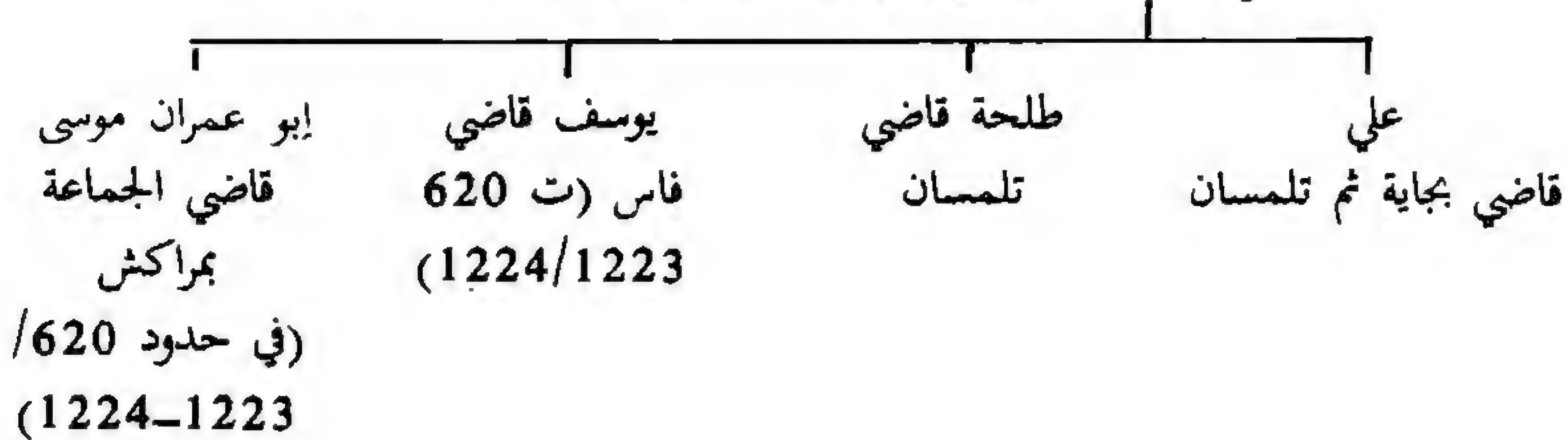
(81) لنا مثال عن ذلك عند عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، بتحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، البيضاء، ط 7، 1978، ص ص.357-358 و445، حيث يورد نموذجا من الأسر التي شغلت منصب القضاء لمدة غير يسيرة، مشكّلة شبكة حقيقية عبر عدة مدن. وتنتمي تلك الأسرة إلى قبيلة تسول وهي أسرة عيسى بن عمران التازي

شكل 1

شبكة القضاة التسوليين في العصر الموحدي

عيسى بن عمران التازي

قاضي الجماعة بمراكش أيام يوسف الموحدي (1163 – 1184)



(82) BRIGNON، (م.س)، ص. 121.

الظهور، ولا في وتيرة تقدم تلك العناصر أو حتى المسلك الذي اتبعته (هل أتت رأسا، مثلا من الشرق وتوقفت في إيناون أم أنها، كما قد يدعونا إلى التفكير فيه ما يرد في «تقييد» للأزموري[83]، قد عرجت على دكالة قبل الاستقرار في إيناون ؟ وإن صح ذلك فعبر أي طريق ؟) بيد أن مجيء القبائل العربية منذ الفترة الموحدية الأولى إلى المغرب الأقصى، قد يكون مؤشرا على بداية توقف فرق من الوافدين الجدد بحوض إيناون، وبذلك قد تكون عملية ظهور القبائل العربية بالمنطقة استغرقت عدة قرون إذ لا تكتمل صورتها في مصادرنا سوى في القرن 16م[84].

ولعل رخاء الحوض الإيناوني استمر في الفترة المرينية الأولى بأكثر مما كان عليه على عهد الموحدين. يبدو ذلك في كون تازة كانت قاعدة انطلاق السلطة المرينية، ثم نقطة ارتكاز المرينيين في مواجهتهم لبني عبد الواد بتلمسان. خلال زهاء قرنين، استفادت تازة من أهميتها التاريخية والاستراتيجية بالنسبة للسلاطين المرينيين[85] وقد اختارها أقوى سلاطين هذه الدولة، يعقوب بن عبد الحق، قاعدة لسلطته خلال فترات طويلة[86] وتفيد شهادة معاصرة هي **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن** لابن مرزوق التلمساني، بما لا يترك مجالا للشك أن حوض إيناون أخذ بنصيبه من آثار سلامة المسالك على عهد أبي الحسن المريني، «فرأى أن يعمر طرق المسافرين من حضرته بفاس إلى مراكش وإلى تلمسان وإلى سبتة وغيرها من البلاد بالرتب وهي خيام يأمر بسكناها على مقدار إثني عشر ميلا يسكنها أهل الوطن ويجري لهم على ذلك إقطاع من الأرض يعمرونها على قدر الكفاية ثوابا على سكنى المواضع المذكورة، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم

---

(83) الأزموري، محمد بن عبد العظيم، **تقييد لشرفاء المغرب وقبائله**، من مجموع، قسم الوثائق، الخزانة العامة، الرباط، رقم د 1595، ورقة 165ظ، 174 ظ،

(84) سوف أعود لمناقشة ظهور قبيلة الحياينة في فصل التشكل القبلي فيما بعد.

(85) VOINOT, Commandant, «Taza et les Riata», in **Bul. Trim. de la Soc. Géo. et Arch. Oran**, Sept. 1920 pp. 103-163, p. 107.

(86) الناصري، (م.س)، ج 3، ص ص. 19–22–26، وذلك بالرغم من كونها تحتل المرتبة السادسة في التقسيم الذي أحدثه انظر محمد المنوني، **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين** منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، دون تاريخ [1979]، ص. 64، ومن كثرة مقام المرينيين بتازة أن الأعياد كانت تدركهم بها الناصري، ج. 3، ص. 76، وأن بعضهم يقضي نحبه بها الناصري، ج. 3، ص. 117 وج. 4، ص. 79

على احتلافها والمرافق التي يضطرون إليها هم وبهائمهم..»(87) إذا كان هذا النص يشهد بمدى ما قد تكون مناطق المسالك جنته من فوائد من جراء وجودها على خطوط المواصلات انعاش اقتصادي ناتج عن توفير حاجيات المسافرين، تعمير بشري نظرا لضرورة حماية الطرق وتوفير متطلبات السفر.. فإن النص يشهد أيضا بمدى الاهتمام الذي أولاه المرينيون للمسالك، بما فيها، مسلك إيناون.

ولم تكن أهمية إيناون بالنسبة للمرينيين سياسية عسكرية واقتصادية كما سبق الإلماع إلى ذلك فحسب، بل كانت أهمية جهادية أيضا. فقد كانت تازة قاعدة لانطلاق عدد من الحملات الجهادية بالأندلس، ويمكن اعتبار الاهتمام بمسلك فاس ـ سبتة عنصرا يسير في نفس السياق(88).

على أن المسلك لا يدر على مناطقه الفوائد فقط، بل قد يجر عليها بعض الآفات، خاصة إذا ما احتاجت الدولة المركزية القوية إلى استعماله بكثرة، وتلك كانت حالة إيناون سواء مع الموحدين أو المرينيين.

ومعلوم أن الدولة الموحدية حركت جيوشا غفيرة شرقا وغربا، إبان سيطرتها على الشمال الإفريقي، وكانت طريق الخليفة الموحدي بين مراكش وتونس تمر بفاس ـ تازة ووجدة(89).

بيد أن تحركات الجند عبر حوض إيناون، في هذا الإتجاه أو ذاك، إنما تكاثرت على العهد المريني، لما أصبح على سلاطين هذه الدولة أن يواجهوا نفوذ الزيانيين بتلمسان، وكانت كل من الدولتين تحاول الاستيلاء على تركة الدولة الموحدية كاملة، لإقامة الأمبراطورية من جديد لفائدتها وحدها(90). فليس من الغريب أن تتعدد أخبار تنقل جند الزيانيين غربا أو جيش المرينيين شرقا عبر حوض إيناون(91). وقد تعددت الإشارات لدى الناصري حول هذه المواجهات حتى أن المرء قد يتخيل أن اهتمام

(87) التلمساني، محمد ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**، مخطوط خ.ع، الرباط، رقم ق 111، ص ص. 286–287.

(88) الناصري، (م.س)، ج 3، ص ص. 69–70.

(89) الناصري، (م.س)، ج 2، ص ص. 136–160، 183.

(90) A. LAROUI، (م.س) (1970)، ص. 186، 190.

(91) قلل العروي غير ما مرة من شأن هذه التحركات، ولاحظ أن صداها إنما يردد لأنها وجدت في مؤرخي الدول يدأ مدونة خلدت ذكرها، دون أن يعني ذلك أن لها أهمية تساوي تواتر ذكرها. انظر فيما بعد.

المرينيين بالصراع مع الزيانيين في الجهة الشرقية كان مسبقا لديهم على عنايتهم بالجهاد ضد نصارى الأندلس[92].

ولكي نستجلي جوانب المبارزة بين الدولتين عبر مناطق شرق فاس بدا من الأفيد، عوضا عن تتبع تفاصيل الأحداث التي لا تنتهي، تجريدها في جدول يبين ترددية التواجه، وإن لم نفلح دائما في تحديد حجمه (وقد اعتمدت في وضع هذا الجدول على الجزئين 3 و4 من **الاستقصا**).

جدول 2 المواجهة المرينية /الزيانية

ج 3 صفحة	السنة	السلطان	ملاحظات
18	1257/655	أبو بكر بن عبد الحق	انهزام يغمراسن بن زيان (أبي سليط؟)
20	1259/657	يعقوب بن عبد الحق	واجه هجوما ليغمراسن انتهى حتى كَلدمان بالقرب من تازة.
25 - 26	1260/666		هزيمة يغمراسن في تَلاغ وكان ينتصر لابي دبوس، آخر الموحدين.
31 - 32	1271/670-1272		قوام عساكر هذه الحملة «بلغت ثلاثين ألفا» اللقاء كان بوادي إيسلي.
54	1280/679		هزيمة يغمراسن بالملعب بأحواز تلمسان.
69	1290/689	يوسف بن يعقوب	حصار عثمان بن يغمراسن بتلمسان
76	1295/694		خرج لغزو تلمسان، لكنه توقف لتحصين تاوريرت التي كان «نصفها للسلطان يوسف ونصفها لعثمان بن يغمراسن ولكل واحد منهما بها عامل من ناحيته».
	695-696 / 1296-1297		حصار فاشل لندرومة وتلمسان.

(92) ولم يكن للمرينيين خيار فيما يبدو، إذ كانت بينهم وبين بني عبد الواد أثآر تمنع التحالف ضد العدو الإسباني المشترك. أنظر الناصري، (م.س)، ج 3، ص. 32. على أن الجدول التالي يبين أن مبادرة الهجوم كادت أن تكون مرينية باستمرار.

ج 3 صفحة	السنــة	السلطان	ملاحظــــات
=	1298/697		حصار فاشل لتلمسان، بعد إعادة بناء وتحصين وجدة. تكليف جند تاوريرت ووجدة «بشن الغارات على أعمال تلمسان».
79–80، 85	1299/698		حصار تلمسان «أخذ بمخنقها (...) حتى لم يخلص اليها الطيف» طوال «مائة شهر» تم خلالها بناء المنصورة، «مدينة عظيمة استبحر عمرانها». هلك السلطان خلال الحصار قتيلا.
104–105	1314/714	عثمان بن يعقوب أبو سعيد.	حصار فاشل لوجدة، ثم لتلمسان.
117	1330/730		نهوض إلى تلمسان وتوقف في ملوية.
120	1333/733	أبو الحسن علي	غارة زيانية انتهت الى تاوريرت، لمناصرة أبي علي منافس أبي الحسن.
124–126	735–737 / 1335–1337		«اتصل الحصار مدة ثلاث سنين» وانتهى باقتحام تلمسان.
155	1347/748		غزو افريقيا وإستيلاؤه على تونس.
182	1352/753	أبو عنان	افتتاح تلمسان مجددا.
201	1357/758		غزو إفريقيا.

ج 4

4	1359/760	أبو بكر بن أبي عنان	افتتاح تلمسان
33	1360/761	أبو سالم بن أبي الحسن	افتتاح تلمسان
43	1362/763	عبد الحليم بن أبي علي (مطالب بالعرش ضد تاشفين بن أبي الحسن)	تمكن من الوصول إلى فاس ومحاصرتها خلال سبعة أيام بمساعدة من الزيانيين.
57–59	771–774 / 1369–1373	أبو فارس عبد العزيز	احتلال تلمسان ووفاة السلطان بها.
67–68	1383/785	أبو العباس احمد بن ابي سالم	تخريب تلمسان على اثر هجوم أبي حمو بن يوسف الزياني مع أولاد حسين

ج 4 صفحة	السنــة	السلطان	ملاحظـــات
77–76 91–90	1393/795 1409/812	أبو سعيد عثمان ابن أبي العباس	من عرب معقل على تازة وتخريب قصر السلطان بها. افتتاح تلمسان بلوغ جيش أبي فارس الحفصي صاحب تونس، مشارف فاس، انتقاما، اثر تدعيم المريني لأحد منازعيه في العرش.

إن المرء حينما يتمعن في الجدول الآنف الذي يلخص أخبار المد والجزر المرينيين والزيانيين عبر حوض إيناون خلال ما يفوق القرن والنصف بقليل (1257–1409) ليتبادر إلى ذهنه ما يمكن أن يكون قد أصاب سكان المنطقة من هذه التحركات العسكرية المتعددة، ذات العواقب الأكيدة، وإن أعوزتنا المعلومة الرقمية التي قد تمكن من الاقتراب من تلك العواقب على وجه دقيق. فالحركة الوحيدة التي وردت في شأنها إشارة إلى حجم العساكر، هي حركة يعقوب بن عبد الحق (1271–1272) والتي بلغ فيها مجموع العساكر «ثلاثون ألفا»(93). بيد أنه لا يمكن أن نقيس سائر هذه التحركات على هذا المثال إذ أن الدولة المرينية كانت إبانها ما تزال في طور البنيان، وبالتالي ما تزال طاقتها الاستقطابية قوية، وذاك ما سوف يُفتقد لديها ابتداء من حملات أبي الحسن، ثم أبي عنان في أواسط القرن الرابع عشر.

وما من شك في أن العروي على صواب حينما يقلل من شأن هذه التحركات ويؤكد بأنها، أحيانا، لا تتعدى تلك المواجهات القبلية المعتادة بالمناطق الشرقية، وبأن اختلافها الوحيد مع هذه الأخيرة أنها وجدت من يدون أخبارها، ويردد ذكرها حتى أصبحت، من كثرة ذلك، توحي بحركة تراقصية لجيوش ضخمة(94).

على أن هذه الملاحظة، وإن صدقت، غير كافية مع ذلك، للاقتناع بانعدام أي أثر لتلك التحركات، إذ أن أي تحرك عسكري في مغرب ما قبل الاستعمار (بل حتى إبان وربما بعد الاستعمار أيضا) كان يجعل الجند يعيش على الإقليم الذي يمر به

(93) الناصري، ج 3، ص. 31–32.
(94) انظر هامش 90 أعلاه.

حتى أن معاناة السكان سُجلت في شكل أقوال وأمثال ظلت رائجة في نواحي فاس، مثلا، إلى فترة قريبة منا جدا(95).

هكذا قد لا نجازف إذا ما قلنا إن تلك التحركات العسكرية المتعددة، التي يبلغ معدل حدوثها تحركا كل ست سنوات، في هذا الإتجاه أو ذاك، لا محالة تحدث الفراغ أمامها وعلى جوانبها(96)، خصوصا إذا لم نغفل ما عانته المنطقة، ضمن الحوض المتوسطي بصفة عامة، من آثار وخيمة لقحوط وأوبئة متكررة تخللت هذه المدة(97). وقد سجل ابن خلدون شهادة دقيقة حول أحد تلك الأوبئة. ولعله أعظمها على الإطلاق، وهو وباء الطاعون الأسود (1348) الذي عم المدينة والبادية، في الحوض المتوسطي، وقد عاش ابن خلدون هذا الوباء وهو ابن السادسة عشرة من عمره، قال في مقدمته «... الطاعون الجارف (...) تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها (...) وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن (...) وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة»(98). ليس هذا الاستشهاد من باب الاحتماء السهل بسلطة

---

(95) من تلك الأمثال ما قام المرحوم عبد السلام بن سودة بتسجيله في **أمثال فاس وما إليها**، مخطوط في جزئين، خ. ح. رقم 10653 I وII. انظر مثلا ج 1، ص. 234 «الجِيشْ مَغْدُودْ من الجْوَايْحْ»، وقد كان مرور الجيش بمكان ما يسبب نزاعات محتدمة حول من سوف يتحمل عواقب ما يسفر عنه ذلك المرور من خسارة. نصادف صدى هذه النزاعات في أجوبة الفقهاء. انظر مثلا الونشريسي، (م.س)، ج 5، ص. 254 «وسئل عن الرجل يشتري ثمرة الكرم يقطفها فيتعدى السلطان الجائر على الثمرة فيقطف الكرم قبل أن يقطفها المشتري ممن تكون مصيبة الثمرة من المشتري أم من البائع ؟ أم هل تكون هذه جائحة ؟ (...) فأجاب تعدي السلطان جائحة لأنهم يقولون في الجيش جائحة والسراق جائحة والسلطان الجائر مثلهما (...)» وإذا ما توخينا حجة إضافية فإننا نجدها لدى محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي في **اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام**، مخطوط خ.ع رقم ح 114/(مجموع)، ص. 382/26 «ومن أمثال المغاربة الجُوعْ من جيشْ السّلطَان»، وفي هذا المثل مقارنة واضحة لآثار الجوع وعواقب مرور الجيش.

(96) أن تكون سكنى غياتة محصنة أمر طبيعي لدى سكان الجبل، لكن ما يثير الانتباه هو سكنى الحياينة بقمم التلال، تلافيا للمسلك، وفي مواقع محصنة حقيقية. أما سكنى الوادي، فهو أمر شديد الحداثة.

(97) انظر BRAUDEL الجيوش «مدن متنقلة، أكثر عرضة للإصابة بالأوبئة»،

BRAUDEL, Fernand, **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II**, Armand Colin, 1976, 2 T, T. I, p. 301.

(98) ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون** دار البيان، دون تاريخ، ص. 33 (من «المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها»).

«المقدمة»، بل إن فحواه ينطبق تماما على المناطق الموجودة إلى الشرق من فاس، حيث لم تلتئم ثلم ذلك الطاعون العظيم، في الذاكرة الجماعية، إلى غاية القرن العشرين، واستمرت الحكاية الشعبية تتناقل أخبار آثاره الجارفة إلى اليوم(99).

ومن البديهي أن تكون منطقة مثل إيناون، تعيش التحركات البشرية بالحجم والتواتر المشار إليهما أعلاه، من ضمن المناطق المعرضة، أسبق من غيرها، لآثار القحوط والأوبئة، لما تؤول إليه هذه التحركات من انتشار للعدوى سواء ضمن الجند أو السكان المار بهم.

فليس من الغريب إذاً أن تكون الفترة المرينية، ثم الوطاسية بعدها، فترتي إعادة تشكل سكاني (انظر «وتبدل الساكن»، ابن خلدون أعلاه) بحوض إيناون. وقد لا نجانب الصواب إذا ما اعتبرنا أن بعض التجمعات القبلية المهمة بالمنطقة، مثل الحياينة(100) والتي لم نعثر لها على ذكر في المصادر قبل القرن 16م، إنما يعود تشكلها في الغالب إلى القرنين 14 و15م وربما قبل ذلك، إذ استفادت جموع الوافدين الجدد على المنطقة من الفراغ الديمغرافي(101) الذي لا شك أنه أعقب القحوط والأوبئة، والتحركات العسكرية، ولعلها استغلّت تلك التحركات بالذات للتقدم في ركابها.

توقفنا في محاولة إحصاء تحركات الجند شرقا وغربا، عند ذلك التحرك الذي قاده صاحب تونس حتى مشارف فاس، سنة 1409. ولم يكن توغل الحفصي حتى عاصمة المرينيين المتأخرين رمزا لضعف واجهتهم الشرقية فحسب، بل لتدهور الدولة

---

(99) انظر JAMOUS, Raymond, **Honneur et Baraka, les structures sociales traditionnelles dans le Rif**, Ed. de la Maison des Sciences de l'Homme, Paris, 1981, p. 231 et ss.
وأيضا المودن، عبد الرحمن، «قراءة نقدية في كتاب «العرض والبركة» لريمون جاموس» **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 9، 1982، ص ص. 191–201.

(100) تظهر تجمعات قبلية كبرى، فجأة في المصادر، في مغرب القرن 16م، منها إضافة إلى الحياينة، الرحامنة، آيت باعمران، آيت عطة... وإذا كان من المستعصي، فيما نتوفر عليه من أصول، تتبع تكون وتطور هذه التجمعات، فإن اللجوء إلى علماء النسب، والاكتفاء بالإحالة على «الشجرة» التي يرسمونها، لا يقدم فهمنا لهذه الظاهرة. انظر مثلا د. مصطفى أبو ضيف أحمد **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين** (524 ـ 876 هـ/1130 ـ 1472 م)، دار النشر المغربية، 1982، وهو نموذج عن الكتّاب الذين يستغنون برسم النسب عن البحث في واقع التاريخ.

(101) انظر ص. 67 أعلاه.

بصفة عامة، سيما وقد أصبح الخطر الإيبيري، بعد ست سنوات فقط من مجيء الحفصي، جاثما بالشمال المغربي باحتلاله سبتة ثم طنجة[102].

كان للتوسع الإيبيري على شواطىء الشمال أثر عميق بالحوض الإيناوني، إذ أغلق المسالك الشمالية، وخلف تذمرا باديًا لدى السكان، تجاه الدولة الوطاسية التي كانت عاجزة عن صد الهجوم الإيبيري. وكان تذمر السكان، كما حدث في جهات أخرى من المغرب، التربة الخصبة التي أنبتت الحركات المرابطية الداعية إلى الجهاد، ووفرت للشرفاء، سواء انحدروا فعلا من آل البيت أم انتحلوا النسب، فرصة التقدم كزعماء لتلك الحركات، سيما وأن تازة استقبلت نصيبها من الأسر المهاجرة من الأندلس[103].

ولعل خير نموذج عن مرابطي هذه المرحلة التازيين، محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي المتوفى سنة 1514/920. وكان «سيدا فاضلا عالما (...) من مشايخ الصوفية» وقد وقف صاحب **دوحة الناشر** «على تأليف له ألفه في الحض على الجهاد (...) فكان مما ينبغي أن يُتناول باليدين ويُكتب دون المداد باللجين»[104].

ومن الجائز أن نتصور أن استنهاض ابن يجبش للهمم لاقى صدى لدى سكان تازة، الذين كانوا قد ألفوا أن تنطلق الحملات الجهادية بالأندلس من أرضهم، فأحرى أن يواجهوا عدوا أصبح يشاركهم مصبات مسالكهم نحو الشمال ويحاول الهيمنة عليها.

تلك كانت حالة حوض إيناون وهو يقبل على القرن 16م. فقد أصبح يدمج أكثر فأكثر في العلاقات بين أوربا والدولة المغربية، تلك العلاقات التي ما فتئت

(102) الناصري، (م.س)، ج 4، ص ص. 92–98.

(103) يتعلق الأمر مثلا بأسرة الغساسيين، الذين يدّعون الشرف، وقد وفدوا من الأندلس، واستقروا بالريف قبل الالتحاق بتازة في تاريخ غير مضبوط. وكانوا في أوائل هذا القرن من أتباع الطريقة الدرقاوية. انظر :
MOUSSARD, P., «Notes sur Taza, petite ville marocaine», N° 308, **C.H.E.A.M.**, Paris 1939, 63 p.; pp. 2-3.

وانظر أيضا رسالة ماركوس حول غياثة (1983)
MARCUS, M.A, Townsmen and Tribesmen : Identity, History and Social Change in Eastern Marocco, Ph D., New York University (June 1983)، الفصل الثاني.

(104) ابن عسكر، محمد الحسني الشفشاوني، **دوحة الناشر، لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، بتحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1976، ص ص. 66–71؛ انظر أيضا الناصري، ج.4، ص. 112، والتأليف المشار إليه هو **تنبيه الهمم العالية**، ميكروفيلم خ ع، الرباط، رقم 431، غير مذكور في **دليل مؤرخ المغرب** لابن سودة.

تنقلب بالتدريج لصالح الأولى إلى غاية القرن التاسع عشر حيث باتت الهيمنة الأوربية مطلقة.

4 ـ إيناون فيما بين القرن16م والقرن19م طرف الدولة

لعل ما يميز المرحلة الممتدة بين القرن 16م والقرن19م بالنسبة للمغرب كما بالنسبة للعالم غير الأوربي، هو تقلص وتراجع متلاحق أمام الزحف الأوربي المطرد. فبعد أن كان المغرب، والعالم الإسلامي يهاجمان أوربا، وبالرغم من استمرار التوسع العثماني إلى حين، فإن الظرف العالمي أصبح ينقلب بتواصل لصالح أوربا.

ومن المفارقة أن يصادف ميلاد الدولة المركزية، ذات الطابع الحديث بالمغرب، فترة الانكماش (الاقتصادي، والخارجي...) على النقيض من الدولة البرجوازية الوطنية الأوربية، المتشوفة إلى التوسع[105].

في الوقت الذي أخذت فيه «الدولة الشريفة» تحاول الإفلات من المنطق الاجتماعي القبلي المعتمِد على العصبية، وبناء نفوذها على سلطتها الرمزية (عنصري البركة والشرف) وسلطتها المادية (جيش منظم ليست القبيلة نواته الأساسية، مالية ترتكز إلى حد بعيد على موارد التجارة الخارجية) أصبح على هذه الدولة أن تواجه أو تساكن هذا الواقع المتحدي المليء بالتهديدات، المسمّى، أوربا الصناعية الحديثة، الجاثمة على الضفة الشمالية من الأبيض المتوسط.

وليس من الصدفة أن يبرز وعي دقيق بالمجال الجغرافي للدولة المغربية ابتداء من القرن 16م[106] إذا ما اعتُبر التطويق الإيبيري على السواحل الشمالية والغربية، والتهديد العثماني على الجهة الشرقية.

إن الحديث عن هذه التيارات ذات البعد القاري قد يبدو مجانبا لصلب

(105) ناقش J. BERQUE في كتابه «علماء، سلاطين وثوار» الوتيرتين المختلفتين لتكون الدولة المركزية، شمال وجنوب البحر الأبيض المتوسط. انظر BERQUE, Jacques, **Ulémas, Fondateurs Insurgés du Maghreb : XVIIes**, Paris, Sindbad, 1982.

(106) في خضم الصراع الذي واجه كلاً من الدلائيين وآخر السعديين وأول العلويين، وبالرغم من الشتات السياسي، فإن محمد الشيخ بن زيدان السعدي الذي كان يمثل الشرعية «التاريخية»، يؤكد في إحدى رسائله العتابية لأهل الدلاء أن البيعة واجبة «على كل من أطاع أو عصى، من وجدة إلى حدود السوس الأقصى»؛ انظر محمد بن الحاج الوفراني **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي** تحقيق هوداس، طبعة ثانية، مكتبة الطالب، الرباط، دون تاريخ، ص. 249 ؛ الناصري، ج 6، ص. 100.

الاهتمام بحياة وتطور منطقة كحوض إيناون. غير أن دراسات اقليمية أخرى أبرزت آثار هذه التيارات ليس في شكلها الجيوسياسي والعسكري الواضح فحسب، بل وربما بكيفية أعمق، في صيغتها الاقتصادية (انهيار التجارة الصحراوية، مثلا، من جراء منافسة التجارة البحرية)، على المناطق المقصودة بالدرس مهما بعدت تلك المناطق عن مراكز التأثير الموجودة آنذاك على الواجهات الغربية والشمالية أو الشرقية(107).

منذ القرن 15م، لم يعد بالعالم الأوربي «بحر للظلمات»، بل إن أوربا باتت تستعجل اللحظة التي تكشف فيها عورة الأراضي المسكونة بعد أن رفعت الحجاب عن المحيطات، وباتت أيضا تسعى إلى «توحيد العالم» لصالحها بعد أن حققت توحيد الدول الوطنية داخلها. هل من الغريب أن تتواتر أخبار المناطق المغربية بكيفية أكثر مما كانت عليه من قبل ؟ تتكاثر أخبار الحياة المحلية لدينا بكيفية واضحة ابتداء من القرن 16م بفضل ملاحظين لامعين مثل الوزان أو مارمول. وليس صدفة أن تكون أخبار الأقاليم بالكثافة التي نعلمها لدى هؤلاء الرحالة، إذ أن مبادراتهم كانت بشكل أو بآخر، نوعا من المساهمة في «توحيد العالم» لفائدة أوربا الغازية.

على أن أخبار الحوض الإيناوني، مثل بقية المناطق الشمالية، تتواتر أيضا ابتداء من هذا التاريخ، لدى النصوص المغربية، بسائر أصنافها، إذ أن الظرفية العامة المشار إليها سابقا، سواء على الصعيد الدولي أو الداخلي، جعلت مجموعة من الحركات المحلية تتخذ صبغة الفعل الأجنبي ورد الفعل المغربي. فإما أن تنطلق حركة زاوية أو مرابط لمواجهة الهجمة الأوربية في ظل عجز أو غياب السلطة المركزية (العياشي في القرن 17)، أو يتحرك مطالب بالعرش بإيعاز من القوى الأوربية (الناصر السعدي في نهاية القرن 16م)، وإما أن ترفض القبيلة سياسة تجريدها من السلاح وإخضاعها لمزيد من الجبايات، تعتبره السلطة المركزية ضروريا لمواجهة الأجنبي في الثغور، في حين لا ترى القبيلة وسيلة أخرى غير توفرها على السلاح والمال للاضطلاع بالمهمة الجهادية(108) وتلك حال جملة من الانتفاضات المحلية شغلت مناطق واسعة وفترات ممتدة خلال

(107) أنظر L. MEZZINE، (م.س)، ص ص. 471–478، هامش 36 حيث يتعرض لميلاد تجمع آيت عطة كظاهرة من ظواهر أزمة القرن 14 و15م؛ انظر أيضا

AYACHE, Germain, **Les Origines de la guerre du Rif** S.M.E.R., Sorbonne, 1981, pp.43-45.

(108) راجع في هذا الصدد الرسالة العنيفة التي توجه بها الشيخ اليوسي إلى السلطان اسماعيل، في الناصري، (م.س)، ج. 7، ص ص. 82–86.

القرنين 18 و19م، سيما وأن هذين القرنين شهدا تعدد الآفات الطبيعية وما يتبعها من قحوط وأوبئة(109).

إننا من خلال استقراء جملة من المصادر المختلفة نتبين معالم تاريخ حوض إيناون، ومناطق شرق فاس بصفة عامة، كتاريخ **طرف** من أطراف الدولة المركزية، السعدية ثم العلوية. وقد ورد مفهوم الطرف واضحا في مقدمة ابن خلدون، وأعاد صياغته الأنثربولوجيون في المدة الأخيرة.

يقول ابن خلدون «والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق (...) ثم إذا أدركها الهرم والضعف، فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف»(110). الطرف هنا، مثل النطاق بمعنى القبائل النائية، لكن قد يعني أيضا المجموعات المتحصنة بالجبل والتي لا تنالها أحكام المركز إلا لماماً.

أما E. Gellner، فقد قسم القبائل المغربية فيما قبل الاستعمار إلى ثلاثة أنواع ضمها في دوائر دائرة مركزية (قبائل الجيش) ثم دائرة وسطى (قبائل خاضعة بلاد المخزن)، ثم دائرة خارجية أو هامشية (وهي القبائل غير الخاضعة، التي لا تؤدي الضريبة قبائل السيبة)(111).

ما يهمنا الآن، ليست مناقشة مدى إجرائية هذا التوزيع، بل الإحالة فقط على العلاقة التي يشير إليها كَلنر فيما بين هذه الدوائر. فإذا كانت الدائرة الأولى تُخضع

---

(109) خلف تبدل الأحوال هذا صدى في النصوص العربية، إما في شكل تأليف تاريخي بدءاً بـ**مناهل الصفا**، و**نزهة الحادي**، حتى **الاستقصا**، أو تدوين للتراجم والوفيات كـ**دوحة الناشر**، و**نشر المثاني**، أو مناقشات فقهية تثيرها هذه الوضعية غير المعروفة سابقا، ومن ثم كثرت كتب النوازل والفتاوى التي يعتبر **المعيار** نموذجا عنها. وكل صنف من هذه الأصناف يشمل ثروة من المراسلات الرسمية، والعقود المختلفة، وبالتالي فإن المتتبع للتطورات المحلية، يجد نفسه أمام ثروة كبيرة من التفاصيل ابتداء من القرن السادس عشر.

(110) ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 162.

(111) GELLNER, Ernest, **Saints of the Atlas**, the University of Chicago Press., Weidenfeld and Nicolson Ltd, London, 1969, pp. 3-5.

وقد ناقش A. LAROUI أطروحات GELLNER، انظر **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)**, Maspéro, Paris, 1977, p. 175 et ss.

انظر أيضا HAMMOUDI Abdellah, «Ségmentarité, stratification sociale, pouvoir politique et sainteté. Réflexions sur les thèses de Gellner» in **Hespéris-Tamuda**, Vol XV, fasc. unique 1974, pp. 147-180.

الدائرة الثانية وتُحاصر هجمات الدائرة الثالثة، فإن هذه الأخيرة تمثل باستمرار خطراً على المركز، إذ أن السلط الجديدة، إنما انطلقت بصفة شبه عامة من تلك الدائرة الثالثة.

مثل شرق فاس «طرفا» بالمعنى الخلدوني، فاحتاجت الدولة المركزية إلى المدافعة عنه بين الحين والآخر، لكنه مثل، أيضا هامشا بالمعنى الذي يعطيه كَلنر لهذا اللفظ، إذ كان إحدى نقط الانطلاق للانقضاض على السلطة القائمة من الناصر السعدي حتى الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) مرورا بالرشيد العلوي وبوعزة الهبري.

* إيناون والسعديون

على أن تتبع أخبار حوض إيناون، منذ القرن 16م، يبرز أن مميزات التطورات الأساسية، التي عرفها، تتمثل في خواص سالفة في ثوب مغاير الصراع الزياني/المريني أصبح الآن نزاعا تركيا/سعديا ثم علويا. لكن في حين كانت المواجهة المرينية/الزيانية ذات طبيعة توسعية، رمى كل طرف فيها إلى احتلال ما بين فاس ووجدة لصالحه، تحول النزاع بين أتراك ولاية الجزائر وسلاطين المغرب إلى مدافعة من أجل الحفاظ، تحاول كل جهة أن تحافظ على ما لديها، وقد تستولي على هذا الجزء اليسير أو ذاك من التخوم، لكن فقط بهدف الحفاظ على الباقي[112]. وبذلك فقدت تلك المناطق، طابع التأرجح بين الغرب والشرق، والذي وقعت معاينته مرات فيما سبق، لتصبح «ثغرا» بالنسبة للمغرب، منذ أن كانت في مواجهة جوار مسلمين إلى أن أصبحت بعد 1830 حدا بين «دار الإسلام» و«دار الكفر».

يظهر استمرار القديم المريني في الثوب السعدي ثم العلوي، أيضا، في أن طول التحام سكان المنطقة بالسلطة المرينية، لا شك، ترك لديهم نوعا من التحفظ إزاء السلطة المركزية المتغلبة بعدها. هذا ما قد يفسر التجاء عدد من الزعماء الذين يبحثون عن أتباع إلى المنطقة. فقد كان التحالف المريني وسكان المنطقة مبنيا على

(112) انظر الكيفية التي رفض بها السلطان سليمان الاستجابة لبيعة أهل تلمسان، واكتفى، من المتاعب التي أحدثها للأتراك على تخوم ولايتهم بواسطة طائفة الدرقاويين، باسترداد السيادة على وجدة والبلاد المجاورة. انظر: الضعيف الرباطي، **تاريخ**، مخطوط خ ع الرباط، رقم د. 758، انظر أيضا BRIGNON et Col.: (م.س)، ص ص. 265–266.

أساس إعفاء القبائل الزناتية من الضرائب (مثل سدراتة وهوارة...) وإلحاق الأفواج الأولى من قبائل معقل العربية بالجندية(113).

هذه الامتيازات، قوضتها الدولة الشريفة، باعتمادها أساسا على جيش خاص، وتجريد جملة من القبائل من أسلحتها وخيولها، وإخضاعها للغرم مثل بقية القبائل، وإن ظلت سياسة كل من السعديين والعلويين غير مستقرة في اتجاه ثابت، في واقع الأمر(114).

بيد أننا لا نستطيع تلمس الموقف الذي وقفته قبائل إيناون من قيام السلطة السعدية بالجنوب، وزحفها إلى فاس ومحاصرتها لبقايا الوطاسيين بها قبل القضاء عليهم (1554/961)، إلا بواسطة مؤشرات هي من باب البرهان بالخلف. إذ لم تسق المصادر التقليدية التي أرخت لصعود السعديين، أخبارا عن مواجهتهم لمقاومة عنيفة من طرف سكان المنطقة، على غرار ما عانى منه أواخر الوطاسيين(115) فهذا محمد الشيخ السعدي، لما رأى أن يبادىء أتراك تلمسان بعد استيلائه الأول على فاس سنة 1549/956، والتجاء خصمه أبي حسون لديهم، توجه بجنده عبر ممر إيناون مرتين خلال سنة 957/1550ـ1551 ذهابا وإيابا، ولا يبدو أنه تعرض خلال غدوه أو رواحه لمعارضة جديرة بالتسجيل من طرف الإخباريين(116).

على أن تلك المصادر تفصح عن نشاط حثيث لما يمكن تسميته بفريق

(113) انظر ص. 68ـ69 أعلاه، والناصري، ج 2، ص ص. 178ـ179.

(114) قد تتراوح سياسة السلطان إزاء قبائل الجيش بين التغريب والإخضاع للغرم (كما فعله المنصور الذهبي إزاء الخلط؛ الناصري، ج 5، ص ص. 97ـ98)، والتغاضي عن قلة انضباطها باعتبارها صادرة عن أهل الدار: انظر مثلا الكيفية التي تعزى بها عبد الرحمن بن هشام على إثر انتفاضة الأوداية سنة 1831 «فجسارتهم أولى من صلاح القبائل» الناصري، ج 9، ص. 36.

(115) يروي محمد الوزان، ج 1، ص ص. 274ـ275، كيف تعرض جيش محمد الشيخ الوطاسي، مثلا، في موقعة دبدو، سنة 904/1498ـ1499، لهزيمة نكراء تظافرت فيها عوامل الطبيعة من حر وجفاف وجبال، بحنكة السكان العسكرية، وهو استغلال جيد لممكنات المجال، كثيرا ما تميز به سكان هذه المناطق فيما بعد (من ذلك معركة الشقة مثلا، ضد السلطان الحسن، سنة 1876).

(116) انظر، الناصري، ج 5، ص. 25. ولو أمكن اعتماد النسب حجة كافية على انتماء الأفراد القبلي، لكان بالإمكان أيضا اعتبار بعض شرائح قبائل المنطقة في زمرة المساندين للسعديين من ضمن المرافقين لمحمد الشيخ الذين لاقوا حتفهم في آكلكال بظاهر تارودانت، سنة 964/1557، نصادف «الكاتب أبو عمران الوجاني» فهل تدل هذه النسبة الوجانية على مساندة من بني وجان من غياثة لصعود السعديين ؟ أم أن هذه النسبة تعود إلى بني وجان سوس [أ. التوفيق] ؟ ـ انظر محمد الصغير الوفراني **النزهة**، ص. 43، والناصري، ج 5، ص. 34.

سعدي في الشمال المغربي، مدنه وبواديه، تمثل أساسا في أسماء اشتهرت بإسهامها في الحركة الصوفية التي أعقبت تدهور السلطة المرينية والوطاسية، والتي كانت تدعو إلى الجهاد، من أمثلتهم «الشيخ الصالح المتصوف المجاهد محمد بن يحيى البهلولي» الذي قاطع السلاطين الوطاسيين بفاس منذ عهد محمد بن الشيخ «البرتقالي»(117)، ومنهم الشيخ عبد الله الغزواني الذي تروي النصوص بعض جلساته الانتقادية اللاذعة لنفس السلطان، ونعلم بنفس المناسبة أن هذا الشيخ عاش بنواحي وادي اللبن، حيث تعاطى للحرث والسقي، وأظهر براعة غار منها زراع السلطان مما دفع بهذا الأخير إلى مصادرة الساقية التي بناها الشيخ واضطراره إلى الفرار إلى مراكش(118). ويمكن أن نتصور أن الغزواني قام بالدعاية لفائدة السلطة السعدية الناشئة بمراكش(119).

ومن المتصوفين الذين يبدو أنهم شكلوا فريقا سعديا بشمال المغرب، يسوق الإخباريون حالة الشيخ أبي الرواين المحجوب(120)، الذي كان «صاحب حال وجذب». فبعد أن ساهم في جماعة الفقهاء والصلحاء التي حاولت وضع حد للاقتتال بين وطاسيي فاس وسعديي مراكش، نجده «يبيع» فاس للسلطان السعدي مقابل مال قدره «خمسمائة دينار، فرقه من يومه ولم يمسك منه لنفسه حبة ومن ذلك اليوم والسلطان في الظهور»(121).

إن هذه الأخبار، مهما سبحت في مناخ رمزي مفعم، لتشير مع ذلك بكامل الوضوح، إلى غزارة الوسائل التي استعملها الفريق السعدي لمواجهة خصومه الوطاسيين بداية من الدعوة إلى الجهاد والإقامة بين أوساط سكان البادية ومقاسمتها أزماتها(122) إلى الشراء بالمال.

في المقابل، كان الوطاسيون أنفسهم يسهلون مهمة الفريق السعدي. فبعد التورط مع البرتغال المسيحيين على عهد محمد البرتقالي، نجدهم يلتجئون مرة أخرى

---

(117) ابن عسكر، (م.س)، ص. 59، الناصري، ج 4، ص. 112.

(118) الناصري ج 4، ص. 146، الوفراني (م.س)، ص. 19–20، ابن عسكر، (م. س)، ص ص.96–99.

(119) أوجزت المصادر التقليدية تلك الدعاية في التعبير الرمزي الذي ردده الغزواني أثناء رحيله إلى مراكش : «أيا يا سَلْطَنة إلى مراكش»، الناصري، ج 4، ص. 147.

(120) انظر ابن عسكر، (م. س)، ص. 79، الوفراني، (م. س)، ص. 28، الناصري، ج 4، ص. 151.

(121) الناصري، ج 5، ص. 24.

(122) بناء الغزواني لساقيته بنواحي واد اللبن أعقب جفافا من سبع سنين مثلا.

إلى الأجنبي، ولو كان مسلما هذه المرة. فالترك الذين احتمى بهم أبو حسون، كانوا حسب تعبير الناصري «أجانب من هذا الإقليم ودخلاء فيه، فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم»(123). وقبح فعلا بأبي حسون أن يلوذ بحمايتهم فلم يفلح في اقتحام فاس إلا بعد «حروب عظيمة ومعارك شديدة»(124) ورد وصف مفصل لبعضهما عند مارمول، رحالة أواخر القرن 16م(125). ولم ينجح فريق الفقهاء الموالين للوطاسيين(126) في مواجهة المد السعدي، إذ سرعان ما ضاق السكان ذرعا بتجاوزات الترك، فاقبلوا على الدعوة السعدية(127).

وليس من الصعب أن نتصور ما أولاه السلاطين السعديون من أهمية لهذه النواحي الفاصلة بين فاس وتلمسان، إذ أنها كانت بمثابة الثغر بالنسبة للدولة السعدية، في مواجهتها مع الدولة العثمانية. كانت كل من الدولتين ذات طموح شرعي مطلق يستهدف تقويض وجود الدولة الأخرى، ومنازلتها على أرضية شرعية الخلافة(128). وقد بلغ الأمر بالسعديين، وهم مايزالون حديثي عهد ببناء سلطتهم على مقاومة المسيحيين على السواحل، إلى التخلي للإسبان عن حجر بادس، تفاديا لاحتلاله من طرف الأتراك(129).

لا غرابة إذاً أن تستمر التنقلات العسكرية غربا وشرقا، إما غازية من طرف

---

(123) الناصري، ج 5، ص. 25.

(124) الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط، دون تاريخ (1972)، ص ص. 108–109، الوفراني (م. س)، ص. 30، الناصري، ج 4، ص. 160.

(125) MARMOL, **l'Afrique de** ..Traduction de N. PERROT D'ABLANCOURT, Paris, 1667, 3 Tomes, Tome I, p. 474.

(126) تذكر المصادر منهم عبد الواحد الونشريسي، ابن صاحب **المعيار**، وعبد الوهاب الزقاق، وأبي علي حرزوز، وكلهم أتى عليهم سيف محمد الشيخ السعدي. انظر: ابن عسكر، (م.س)، ص ص. 54، 55، 82. والناصري، (م.س)، ج 5، ص ص. 23، 29.

(127) الوفراني (م.س)، ص. 31.

(128) لخص الوفراني، (م.س)، ص. 42، هذه المنافسة حول منصب الخلافة. وهي بمثابة استمرار للمنافسة الفاطمية ـ الأموية التي عرفتها المنطقة فيما بين القرن 8 و10م. ومن الدال أن يكون محمد الشيخ قد هدد بقوله «لابد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك من أجحارهم.. كما نجد المنصور السعدي يستعمل وصف «العدو» في حقهم، نفس المصدر، ص. 175.

(129) ن.م، ص ص. 48–49، الناصري، ج 5، ص. 49.

الأتراك أو مدافعة مرة وغازية مرة أخرى من طرف السعديين(130) لا غرابة أيضا أن تكون لهذه التنقلات العواقب الوخيمة المشار إليها سابقا، على الساكنة، خاصة إذا ما صادفها انتشار الوباء، كما حصل سنة 1558/965(131).

إن الأهمية الاستراتيجية التي تكتسيها هذه المناطق بالنسبة للسعديين تبدو بجلاء في المراسلة التي تمت فيما بين المنصور وابنه وخليفته بالشمال، بفاس، محمد الشيخ المامون، حيث يقرر فيها أن «تازى ثم بلاد الفحص (...) لا تعطى كلتاهما إلا لأقرب الخدام الموثوق بمحبتهم وقربهم وخدمتهم»(132).

هذه الأهمية الاستراتيجية هي التي تفسر السياسة المرنة التي انتهجها السعديون الأوائل إزاء سكان المنطقة. فقد أورد مارمول أن سكان الجبل (غياثة) لم يكونوا مطَالبين بأداء أية ضريبة على عهد عبد الله الغالب(133). كما أن السعديين حاولوا اصطناع الأعراب ولاسيما الخلط منهم، المتنقلين بهذه المناطق، في جيوشهم، وكانت التحركات العسكرية والقحوط والأوبئة، في القرون الثلاثة الماضية قد فتحت فجوات دمغرافية عميقة ضمن سكان تلك المناطق، مما سهل ولا شك، تنقل أولائك الأعراب بها(134).

بيد أن المصادر السالفة تلح أيضا على كون العلاقات لم تكن أبدا تامة الوضوح بين السعديين وعرب الخلط. ولعل خير رمز لعدم الوضوح هذا نجده في المنزلة بين المنزلتين التي خصهم بها أحمد المنصور، لما «حرر (...) منهم النصف من

---

(130) من أمثلة تنقلات جيش الترك، مجيء حسن بن خير الدين التركي إلى فاس، «في جيش حفيل» وانهزامه بوادي اللبن أمام عبد الله الغالب في ربيع 1558، الوفراني، (م.س)، ص. 50.الناصري (م. س)، ج 5، ص. 39.

(131) نفس المصدرين والصفحتين.

(132) الوفراني، (م.س)، ص. 175. ويلاحظ MARMOL، (م.س) ج 2، ص. 301 أن أهمية تازة تأتي من كونها في نفس الوقت على طريق فاس، وفي مواجهة غارات الأعراب الذين يأتون كل سنة لمبادلة الثمر مقابل الحبوب.

(133) MARMOL، (م.س)، ج 2، ص. 316، وكان ذلك في الواقع إبقاء على امتياز يعود للمرينيين لاحظناه سابقا.

(134) تتبع كل من صاحب **مناهل الصفا**، ص ص. 108–112، وصاحب **النزهة**، ص ص. 98–99، أخبار علاقات السعديين وعرب الخلط. وبالاعتماد على ما أورده MARMOL في أواخر القرن 16م، نستطيع أن نتبين معالم حركة انتجاع الأعراب فيما بين الأطلس الكبير والمتوسط والبحر الأبيض المتوسط (ج 1، ص. 87). وتبدو الأراضي شاسعة بالقياس إلى حجم السكان «إنهم يفلحون

بذل الخراج وضربه على النصف الآخر»[135]، قبل أن يقرر مجددا، سنة 1587، بعد أن تثاقلوا في توفير حصتهم من الخيل المبعوثة إلى تيكَورارين، إبعادهم من سلك الجندية، وتجريدهم من خيولهم التي جمع منها عمّاله «آلافا ولم يفلت منها حصان واحد (...) وتركوهم يدبّون على أرجلهم دبيب النمل (...) وضربوا عليهم الخراج وردوهم إلى معهودهم من الغرامة»[136].

وقد جاءت الرسالة التي بعث بها المنصور إلى خليفته بفاس، في جمادى الأولى 1011/نونبر 1602 مشحونة بالتأنيب على كون الخليفة، لم يكتف باستخدام الخلط من جديد بل أيضا أطلع بعض العرب الحديثي الوفود من الشرق، بلاد «العدو» التركي، على أسراره[137]. تدلنا هذه الرسالة بما فيه الكفاية على الحيطة التي كان المنصور السعدي ينهجها في حق عرب ما بين تلمسان وفاس. يعود هذا الارتياب إلى أن المنطقة برمتها كانت قد عاشت منذ سبع سنوات خلت، حركة هزتها بكاملها هي ثورة الناصر[138].

أسهب الفشتالي في وصف امتداد هذه الثورة التي عمت سائر الشمال المغربي فيما بين فاس وبني يزناسن ومليلية. يقول على لسان السلطان المنصور «فقد زحف معه عرب الشرق بحللهم وأولادهم كافة (...) ثم أخماس تازى عن آخرها ومشهور البربر بحذافرها»[139].

أراضيهم ويحصلون فيها على كثير من الشعير والقمح، ويربون العديد من الماشية الكبرى والصغرى. ولذلك فهم لا يستقرون في أي مكان بل يتنقلون بين هذه الجهة وتلك طلبا للمراعي»... وقد اقترح الباحث LAZAREV G. في «Structures agraires et grandes propriétés en pays Hayaina (Pré-Rif)» **R.G.M. N° 9, 1966, pp. 23-58** تحديد أصل استقرار الحياينة بالمنطقة في القرن 16م وربط ذلك الاستقرار بالخدمة في الجند السعدي، وهو ما قد يحتاج إلى إعادة نظر إذا ما أخذت المناقشة السابقة، ص ص. 68–69 بالاعتبار.

(135) الفشتالي، (م.س)، ص. 110.

(136) ن.م، ص ص. 111–112.

(137) الوفراني، (م.س)، ص ص. 174–179.

(138) حول ثورة الناصر، نجد أغزر التفاصيل عند الفشتالي، (م.س)، ص ص. 169–187، ثم الوفراني (م.س)، ص ص. 100–102، ثم محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، 1977–1982 ج. 1، ص. 117، وأحمد الناصري، (م.س)، ج 5، ص ص. 145–150.

(139) الفشتالي، (م.س)، ص. 184. من المحتمل أن يكون الفشتالي ضخم من شأن هذه الثورة حتى يبرز قوة الخليفة السلطاني الذي استطاع في الأخير القضاء عليها. هذا ما قد نستنتجه من الانتقاد الذي

ما من شك في أن الناصر سُخر أداة من طرف فليب الثاني، ملك اسبانيا، الذي دعمه بالمال والعتاد، بعد أن كان آواه بإسبانيا، منذ غذاة وقعة وادي المخازن[140]. انطلق الناصر من مليلية، وسعى في جمع جموع قبائل شرق فاس، واتجه بها لفتح المدينة سنة 1595/1003[141].

«ولما دخل تازى وتسامع به المغتر بأباطيله الواهية (...) من قبائلها وأخماسها وأهل جبالها وأوباش عامة تلك الجهات وغوغائها تسايلوا إليه ينسلون من كل حدب، فتكاثرت جموعه وحشوده والتفت عليه منهم عالم من العرب والبربر يغص به الفضاء ويكاثر الرمل والحصي»..[142].

هكذا خلال سنة بكاملها (ماي 1595 ـ ماي 1596)، استطاع الناصر أن يهدد بكيفية جدية، الخليفة المامون الذي احتاج إلى تنظيم حركتين هامتين ضد أتباع الناصر قبل القبض عليه وقتله في ماي 1596.

تنخرط ثورة الناصر من غير شك، في استراتيجية مواجهات دولية بين فيليب الثاني وإليزابيت ملكة انجلترا، التي كان المنصور يعتمد على التحالف معها لمقاومة تنامي النفوذ الإسباني المهدد للشواطىء المغربية[143].

وقد أفلحت هذه الحركة، فعلا، في زعزعة حكم المنصور، إذا ما اعتبرنا مدى مبالغة المؤرخين في وصفها، ومدى الابتهاج الذي أفصح عنه المنصور بعد

يوجهه الناصري إليه حينا يؤكد بشأن وصفه للمأمون «بمحاسن السيرة» «وجميل السريرة»، قائلا «هذا الذي حكاه الفشتالي (...) هو بخلاف الواقع (...) ولكن المؤرخين والشعراء يمدحون ويقدحون بحسب أغراضهم لا بحسب الواقع غالبا، لاسيما إذا كان من يعنونه بذلك مخدوما لهم، ومنعما عليهم» الناصري، ج 5، ص. 93.

(140) Ch.-A. JULIEN (م.س)، ج 2، ص ص. 212-216، الفشتالي، (م.س)، ص. 171.

(141) الوفراني، ص ص. 100-101، الفشتالي، (م.س)، ص ص. 171-172، ومن الملاحظ أن اسم بعض قبائل المنطقة كالحياينة تظهر أول ما تظهر في النصوص، بمناسبة ثورة الناصر الفشتالي، (م.س)، ص. 176.

(142) الفشتالي، (م.س)، ص. 172. من الواضح أن وصف الفشتالي يبرر حكم الناصري عليه. ولم نستشهد به مطولا إلا لأنه يمثل نموذجا للنصوص التي أنشأها المؤرخون والشعراء «الخدام» اللاحقون للفشتالي، حول انتفاضات المنطقة فيما بعد. هكذا وصف مثلا كل من السباعي، والمشرفي والناصري ذاته، ثم ابن زيدان انتفاضة الهبري ثم انتفاضة الزرهوني في أواخر القرن 19م وأوائل القرن 20م.

(143) Ch.-A. JULIEN (م.س)، ج 2، ص ص. 216-217، A. LAROUI، (م.س) (1970)، ص ص. 240-241.

انتهائها لصالحه(144). على أن فهم انتشار حركة الناصر كانتشار الحريق في الهشيم لا يمكن أن يتم في هذا الإطار الدولي فقط، بل إن له دعائمه الداخلية التي كانت ولاشك ذات الأثر الأبلغ.

تشير المصادر التقليدية بما لا يدع مجالا للشك إلى المناخ الذي كان يسود العقول في أواخر القرن 16م، من سخط، نظرا «لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية»(145). فقد كانت سياسة الغزو للسودان، ثم سياسة التشييد (البديع مثلا)، قد آلت إلى فرض ضرائب مجحفة سواء في الأموال أو في الأبدان، في شكل مساهمات عسكرية(146). وقد تقدم ما أدى إليه افتتاح تكرارين من سوء تفاهم بين المنصور وعرب الخلط.

ولعل الناصر نهج خلال مدته القصيرة سياسة جبائية لفائدة البوادي على حساب المدينة، إذا ما اعتبرنا حدة النبرة التي وصفه بها المؤرخون، وهم حضريون، لما تحدثوا عن الكيفية التي عامل بها سكان تازة(147). ونجد الفشتالي مرة أخرى، أعنف نبرة من الوفراني «فلما فتح الناصر تازى أقام بها يومين أساء فيهما الأحدوثة بما تحدث به الناس إلى اليوم بمصادرة أهلها وامتحانهم على المال ومطالبتهم بالمكس على سنة النصارى (...) حتى لكان يقول لهم إن النصارى يغرمون حتى على البيض على سبيل الاحتجاج عليهم فيما يصادرهم عليه ويمتحن عليه يهودهم ومسلميهم»(148). هذه السياسة التفضيلية للبادية كانت عنصر دعاية قوية ولا شك، إذا ما قورنت بسياسة «النايبة» التي كان ينهجها المنصور، فضلا عما كانت تعنيه لمناصري الناصر من احتمالات النهب والسلب بالمدن المفتوحة.

هكذا كانت ثورة الناصر، مثالًا من ثورات الهامش التي تنقض على المركز المخزني فتزعزعه وتؤذن بقرب نهايته، إذ دب الضعف إلى الدولة السعدية إثرها مباشرة

(144) «ولما سمع المنصور بخبره أحزنه أمره وتخوف منه غاية لأن الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوفت له العيون (...) ولما قتل الناصر فرح بذلك المنصور وجاءته الوفود بالتهنية وكتب الفتح لسلطان مكة»، الوفراني، (م.س)، ص. 101.

(145) ن.م، ص. أيضا الناصري، (م.س)، ج 5، ص. 145 و189.

(146) تشير **النزهة** إلى أن جو السخط بدأ ينتشر منذ عهد محمد الشيخ (المتوفى سنة 1557) الذي كان أول من فرض «الضريبة المسماة على لسان العامة بالنايبة» ص ص. 38–39.

(147) الوفراني، (م.س)، ص. 101.

(148) الفشتالي، (م.س)، ص. 172.

بعد «انتفاض ولي العهد محمد الشيخ المامون على آبيه المنصور»(149)، وتهديده إياه بالاحتماء بالترك في حالة تحرك المنصور ضده من مراكش. فدخلت أحواز فاس بذلك، ومنذ ما قبل وفاة المنصور، في فترة الصراعات والتشتت التي أصابت المغرب بكيفية أوضح بعد 1603.

* إيناون في القرن 17م: من السعديين إلى العلويين وظهور التجمعات القبلية الكبرى

نال حوض إيناون حظه من موجة التفكك التي اجتاحت المغرب في مطلع القرن 17م. فإذا كان المغرب أصبح يعاني من تحويل شرايينه التجارية التقليدية نحو مصبات أخرى مثل المحيط غربا أو تلمسان شرقا، فإنه بقدر ما تضررت الأقاليم الجنوبية الشرقية التي كانت بمثابة نقط الوصول للمسالك الصحراوية، تضررت أيضا أقاليم أخرى بالشمال، كانت تستفيد من عبور الخطوط جنوب/شمال أو غرب/شرق. وحوض إيناون من الأقاليم ذات الانفتاح الواسع على هذه الاتجاهات الأربع(150).

كانت الفترة المتراوحة بين 1603 و1667، أي بين وفاة المنصور وسقوط فاس تحت حكم الرشيد العلوي، كانت هذه الفترة من ثلثي القرن من أعقد الفترات في تاريخ حوض إيناون والمغرب بصفة عامة، توالى على السلطة بفاس، ابناء وحفدة أحمد المنصور قبل أن تعوضهم الزاوية الدلائية التي تركت بدورها المكان للعلويين(151).

ولم يكن بإمكان أي سلطة تقوم بوسط المغرب أن تستغني عن الخط الرابط بين الغرب والشرق، بالرغم من تحول شبكة المواصلات المغربية بالتدريج إلى شبكة محلية فقط، ذاك ما جعل الزاوية الدلائية تسعى إلى امتلاك المناطق الرابطة بين فاس وتازة للتحكم في مسلك إيناون(152).

---

(149) الناصري، (م.س)، ج 5، ص. 169.

(150) BRIGNON et Col. (م.س)، ص. 221.

(151) حول هذه الفترة المضطربة انظر حجي، محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، المطبعة الوطنية، الرباط 1964؛ مزين، محمد، **فاس وباديتها من 1549 إلى 1637**، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط 1979؛ الشاذلي، عبد اللطيف، **الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1982.

(152) محمد حجي، (م.س)، ص ص. 157–158، انظر أيضا، الضعيف الرباطي، **تاريخ**. مخطوط خ ع. رقم د 758، ورقة 15.

كما لم يكن بوسع أي سلطة تنشأ بالجنوب الشرقي أن تستغني عن متنفسها نحو الشمال الشبرقي[153]. وذاك ما دفع بالسلطة العلوية الناشئة بتافلالت إلى التواجه مع الدلاء ليس فقط في هامشهم الجنوبي بل أيضا على حواف ممتلكاتهم الشرقية خاصة أيام الأمير محمد المتأخرة وبداية حكم الرشيد (1664–1672).

كل ذلك جعل ممر إيناون، خلال ثلثي القرن 17م الأولين، محط أطماع متعددة متعارضة، واجهت كلا من أحفاد المنصور السعدي، ثم المجاهد العياشي (ت. 1641)، والزاوية الدلائية، وأمراء الأسرة العلوية، فضلا عن جملة من الزعماء والمغامرين الثانويين[154].

يبدو سكان إيناون في هذه المدة في حالة من الغليان ناتجة عن/ومسهمة، في نفس الوقت، في كثرة وتعارض الأطماع الآنفة الذكر[155]. وقد اعتمد الدلائيون مرارا على العياشي الذي نظم حملات ضد الحياينة لضبط الممر وتسكين اضطراب حوض إيناون[156].

ولعل ظهور الحياينة كتجمع قبلي كثير الاضطراب والتعدي على سكان المدينة يمثل أبرز حدث في النصف الأول من القرن 17م. بحوض إيناون[157]. وقد أثارت تحركات الحياينة بالمنطقة، التي كانت تدل على حديث استقرار بها، ردود فعل من طرف فقهاء فاس، سوف نعود اليها فيما يأتي، وقد ذهب ببعضهم الأمر إلى تكفير الحياينة[158].

---

(153) BRIGNON et Col. (م.س)، 238.

(154) يورد الشاذلي، (م.س)، ص. 43، قائمة بـ 16 حاكما تعاقبوا على فاس فيما بين 1603 و1627 لم يحكم بعضهم أكثر من شهر واحد.

(155) يروي القادري، ج 1، ص. 336، كيف أن احمد بن زيدان اعتمد على التحالف مع الحياينة سنة 1635/1045 للهجوم على فاس، مما دفع بأهل المدينة إلى اللوذ بالعياشي بسلا، الذي طلب العون بدوره من محمد الحاج الدلائي. انظر محمد حجي، (م.س)، ص ص. 154–155.

(156) انظر أبو املاق، عبد القاهر بن محمد، **الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد**، في الشاذلي، (م.س)، ص ص. 195–286. يقول الناصري ج 6، ص. 86 «غزا (العياشي) عرب الحياينة مرارا واثخن فيهم حتى خضعوا للطاعة».

(157) محمد مزين، (م.س)، ص. 202 «وكانت سيطرتها (الحياينة) مطلقة على المنطقة حيث كانت تنشر الفوضى والخراب بها».

(158) شدة اضطراب الحياينة وشراكة بعد وفاة المنصور تنبىء باضطرابات القرن 18م. عن الحياينة وشراكة في القرن 17م. القادري (م.س) ج 1، ص ص 336، 363، 371، 375.

على أن جو الاضطراب الذي كان يشمل البلاد بأكملها، كان صالحا لميلاد طموحات إلى الاستبداد بالسلطة في جهات مختلفة. فلم تنفرد الأقاليم التي نشأت بها سلطة الزوايا (الدلاء أو السملالية) أو سلطة المرابطين (العياشي) أو الأسر الشريفة المنافسة للأسرة البائدة (تافلالت) بظاهرة ميلاد السلطة السياسية بمغرب ق 17م. بل إن ضواحي فاس ـ تازة، وقبل أن تصبح القاعدة الفعلية لانطلاق الأسرة العلوية مع السلطان الرشيد، كادت أن تكون أساسا لترعرع سلطة أسرة شريفة أخرى، هي أسرة محمد بن عبد الله بن علي بن طاهر(159). ومما لاشك فيه أن النصف الأول من القرن 17م. كان يحبل بالتغيير وأن احتمالات ذلك التغيير كانت متعددة(160).

* إيناون والعلويون حتى مطلع القرن 19م.

برزت الأسرة العلوية بسجلماسة بالجنوب الشرقي من ضمن مجموعة من الأسر التجارية الشريفة الأخرى، كانت كل منها تتشوف إلى اعتلاء موقع السلطة(161). وبعد أن أرست الأسرة نفوذها على حساب أبي حسون غربا ومحمد الحاج الدلائي شمالا، وسّعت ممتلكاتها حتى مشارف البحر الأبيض المتوسط، فأصبحت بذلك الامارة الوحيدة، بمغرب أواسط القرن 17م، التي كان لها في نفس الوقت انفتاح على المتوسط والأطلسي والطرق التجارية الصحراوية. وكان من الطبيعي أن تأخذ الإمارة السجلماسية بين شقي كماشتها إمارة الزاوية الدلائية، سيما وأنه من المحتمل أن العلويين كانوا يوفدون دعاة لهم إلى مناطق الشمال يهيئون النفوس لاستقبالهم(162).

بيد أن إرساء النفوذ العلوي شمال الأطلس الأوسط استغرق مدة طويلة إذ كانت الفترة الفاصلة بين أول محاولة فاشلة ضد فاس، 1649/1059، والمحاولة الثانية 1073/1662–1663 التي كانت شبيهة بسابقتها، أربع عشرة سنة. ولم

(159) محمد بن الطيب القادري، (م.س)، ج 2، ص. 134، الضعيف، (م.س) و13 ظ.

(160) من الجدير بالملاحظة أن المتصوفة والمجاذيب كانوا يطلقون على أنفسهم صفة «السلطان» بسهولة كبيرة في القرن 17م، وهو ما يدل في آن واحد على انهيار القيمة الاجتماعية لهذه الصفة، وعلى كثرة التشوف إلى السلطة التي أصبح بابها مفتوحا. ن.م. ج 1، ص ص. 239، 269، 277...

(161) L. MEZZINE، (م.س)، ص ص. 600–606.

(162) تلح المصادر على أن المجيء الأول لمحمد الشريف إلى فاس سنة 1649/1059 (النزهة) أو 1650/1060 (نشر ـ استقصا) كان استجابة لاستصراخ من سكان فاس، «وعرب الغرب من الخلط وغيرهم». ومن الجائز أن نرجح وجود دعاة يهيئون لمثل هذا الاستصراخ، خاصة إذا ما اعتبرنا احتدام الصراع بين أسر تافلالت حول السلطة. الناصري، ج 7، ص ص. 19، 28.

تفتح فاس إلا في أواخر 1666/1076 بعد أن انحسم الصراع بين محمد والرشيد لفائدة هذا الأخير بانكَاد[163].

إن تتبع إرساء النفوذ العلوي بإيناون، من خلال النصوص التقليدية، يستدعي بعض الملاحظات التي لها أهميتها بالنسبة للعلاقة اللاحقة لهذه المناطق مع الأسرة الحاكمة.

ـ إن محاولة افتتاح فاس سنة 1662/1073 جاءت في ظل انتشار مجاعة كبيرة وطاعون جارف بفاس فقد عم الغلاء «وأُكلت الجيف وكثر الموت بالأزقة (...) وأُكل الآدمي بوسط الصفارين جهراً وخلت حومات»[164].

ـ تجمع المصادر حتى الرسمية منها، على ربط هذه المجاعة بعيث محمد بن الشريف بزروع الحياينة المجاورين لفاس. فصاحب النشر يشير إلى ذلك بوضوح : «وسبب هذه المجاعة لما بلغ أمير المؤمنين مولاي محمد بن الشريف الحسني السجلماسي سلطان تافلالت وما يجاورها من بلاد القبلة والصحراء، خبر الحياينة البغاة، حيث كثر النهب وسفك الدماء بمن يمر بهم ويجاورهم فخرج اليهم من سجلماسة (...) فأخذ زرعهم حيث فروا منه عن البلاد إلى ناحية فاس»[165]، «وخرج من فاس جماعة من الأعيان إلى زاوية أهل الدلاء يستغيثون بأهلها من مولاي محمد»[166].

ـ خلف هذا اللقاء الأول أثره لدى سكان أحواز فاس، ولما حاول الرشيد افتتاح فاس، وجد أمامه تحالفا بين أهل فاس وجيرانهم عرب الحياينة، الذين كانوا لعهد قريب أعداء لهم. فكان على الرشيد أن يعدد من الغزوات: حيث يأتي، يقتل وينهب، ثم يرجع إلى تازة دون أن يستطيع فتح المدينة حتى حجة 1076/يونيو 1666[167].

(163) الناصري، (م.س) ج 7، ص ص. 19، 28، 34.
(164) محمد القادري، (م.س) ج 2، ص. 67.
(165) ترد هذه الرواية مجزأة إلى قسمين في النشر بين حوادث 1063 و1073، ج 2، ص. 67 وص. 134. والأمر يتعلق بنفس الواقعة. انظر أيضا الضعيف، (م.س)، و13 ظ والناصري (م.س)، ج 7، ص. 28.
(166) الضعيف، (م.س)، و13 ظ.
(167) الناصري، ج 7، ص ص. 33–34.

ـ إن مناطق شمال المغرب، كانت أيضا حبلى بإمكانية نشوء سلطة مضاهية ومنافسة لسلطة الأسرة السجلماسية. فلما هاجم محمد بن الشريف الحياينة سنة 1662/1073. توجهوا إلى فاس «مستنصرين بابن عمه الإمام مولاي محمد بن العلامة المحقق مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي، فنصروه وخرج معهم من فاس منصورا»(168)، مما أقنع محمد بن الشريف بالتخلي عن أحواز فاس والعودة إلى سجلماسة(169).

يتضح إذا أن الاضطراب السياسي وما آل إليه من إتلاف في المحاصيل وتهديد للمواصلات، ثم ما رافق ذلك من قحوط ومجاعات، كل هذه الظروف كانت ملائمة لبروز أي سلطة ذات كفاءة مادية وبشرية.

ويبدو من رواية محمد القادري (**نشر المثاني**) التي نقل عنها جل من أرخ للرشيد فيما بعد، أن هذا الأمير كان يتوفر، فضلا عن كونه شريفا، على الشجاعة الشخصية والإقدام على المخاطر، مما جعله، عبر سلسلة من المغامرات أهمها قصة دار ابن مشعل وما وفرته له من أموال، يستطيع تأسيس قاعدة انطلاق بشرق تازة، خاصة بعد أن قضى على أخيه، منافسه في السلطة(170).

ومن خلال ما يرويه القادري أيضا عن حوادث 1664/1075 ـ 1665، يتجلى ما أعقب نشأة سلطة الرشيد بتازة من صراع في المنطقة اتخذ صبغة المواجهة بين غرب إيناون وشرقه «فلما ملك سجلماسة ورجع إلى تازا ففروا (كذا) منه الحياينة وتحصنوا بجبل غياثة وبني يازغتان وخرج رئيس فاس أحمد بن صالح ومعه أهل سايس وقبائل كندر وبنى بهلول وصنهاجة والحياينة وبني يازغتان وقبائل جبل بووَبلان

(168) محمد القادري، (م.س)، ج 2، ص. 134.

(169) القادري، عبد السلام بن محمد الخياط، **تقاييد تاريخية**، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 248، ص. 8، يروي نفس الحكاية في سنة 1064 ولعله نفس التصحيف الذي سبقت الإشارة إليه عند محمد بن الطيب القادري صاحب النشر. ويضيف عبد السلام القادري ان الحياينة نكثوا عهدهم لمحمد بن عبد الله بن طاهر، «فرجع إلى فاس مخلوعا». ومن الملاحظ أن المتأخرين مثل عبد السلام القادري أو حتى الناصري (ج 7، ص. 28) حاولوا التقليل من شأن هذا المنافس. هكذا يقول الناصري «قدم فاسا بقصد أن يبايعه أهلها فلم يجيبوه» وإن كان يضيف لتوه «وقيل بل نصره بعضهم»، في حين ليس عند صاحب النشر الذي نقل منه كل هؤلاء ما يبرر مثل هذا التقليل.

(170) محمد القادري، (م.س)، ج 2، ص ص. 102-103، ويبدو أن أموال دار ابن مشعل كانت من ضمن عناصر المواجهة بين الرشيد ومحمد الذي طالب بها. انظر الضعيف الرباطي، (م.س)، ورقة 20 و.

(بويبلان) وساروا إلى تازا، فخرج إليهم مولانا الرشيد وقاتلهم وهزمهم، ورجعوا منهزمين إلى فاس، وتبعهم إلى قنطرة سبو...»(171).

عبر هذه الرواية تبدو وحدة رد فعل واسعة بين فاس وغرب إيناون الحياينة، بني يازغة وجبل بويبلان (بني وراين ؟) في حين لا ترد أسماء التسول أو البرانس أو حتى غياثة. فليس من المستبعد أن يكونوا انخرطوا في الفريق الرشيدي. أما غرب إيناون فإنه فيما يبدو لم ينس مرور محمد بن الشريف منذ سنتين، وما أعقبه من إتلاف في المزروعات وطاعون، وهذا ما يبرر هذا الاتفاق الواسع ضد الرشيد.

غير أنه بالاعتماد على ما وفره له انفتاح ممتلكاته على المتوسط من إمكانية شراء السلاح من الشركة الفرنسية «الحسيمة»(172) لم يلبث أن بسط نفوذه على جهات الشمال بعد أن استولى على ممتلكات أخيه بسجلماسة وقبل أن يقضي على إمارات الزوايا(173).

وخلال مدة طويلة من حكم الرشيد كانت تازة بمثابة قاعدة ملكه، يستقر بها، منها ينطلق في حركاته وإليها يعود، وإليها يوجه معتقليه(174)، وفي تازة زاره مبعوث لويس الرابع عشر R. FRÉJUS، سنة 1666(175). وقد يكون هذا الاستقرار مسؤولا عن دفع الحياينة شيئا ما في اتجاه الغرب إلى ضواحي فاس، إذا ما أخذنا بالاعتبار التجاءهم إلى فاس وتحالفهم معها ضده(176).

وتميزت الفترة الإسماعيلية (1672–1727) بالنسبة لحوض إيناون بما تميزت به في جل المناطق حيث يتحاذى الجبل والسهل. فقد سلك السلطان اسماعيل إزاء القبائل خطة متعددة لترسيخ دعائم الدولة المركزية على حسابها.

– كانت كل مناسبة صالحة لتجريد القبائل من سلاحها، وكانت جملة الشروط الأساسية التي يعقد الصلح عليها، إثر المواجهة مع قبيلة ما والتغلب عليها،

(171) محمد القادري، (م.س) ج 2، ص. 149.
(172) VOINOT (م.س)، ص ص. 128–129، Ch.-A. JULIEN (م.س)، ج 2، ص ص. 225–226.
(173) الناصري، (م.س)، ج 7، ص ص. 33–41.
(174) VOINOT (م.س)، ص. 129.
(175) FREJUS, R. «Relation de R. Fréjus» **S.I.H.M.** Série France, T.1, Extraits dans **B.C.A.F.** 1913, N° 11.
(176) محمد القادري، (م.س)، ج 2، ص. 149.

نزع سلاحها واستلام خيولها(177). وكان نصيب حوض إيناون من هذه السياسة أن توجه السلطان سنة 1096/1684–1685، إلى بلاد ملوية، «ففرت قبائل البربر إلى رؤوس الجبال وهم آيت يوسي وسغروشن وايوب وعلاهم وقادم وحيون ومديونة (...) وأقام على نهر ملوية يبث السرايا ويشن الغارات على البربر قريبا من السنة [إلى أن] جاءته وفود البربر تائبين طائعين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح فدفعوها»(178).

ـ غير أن السلطان إسماعيل لم يكتف بنزع سلاح القبائل، بل حاول شدها إلى ركاب الدولة بأواصر الزواج والمصاهرة من خلال اللائحة التي يوردها الضعيف الرباطي، والتي تتضمن أسماء أولاد السلطان، وبالرغم من كونها غير شاملة، نستشف بوضوح استعمال المصاهرة كوسيلة من وسائل سياسة القبائل من طرف السلطان. فإذا ما استثنينا الإماء والعلوج وغير المذكورات، يعين الضعيف من ضمن زوجات اسماعيل 14 شاوية و11 مالكية و8 دكاليات و3 سفيانيات و3 حيانيات(179).

ـ ولترسيخ دعائم دولته بالبادية المغربية، أيضا، نهج السلطان إسماعيل سياسة بناء سلسلة من القصبات إما على المحاور الأساسية للمواصلات أو في عمق قدم الجبل، في مواجهة الخطوط الأساسية لزحف القبائل الجبلية، ويزودنا الناصري بلائحة مضبوطة للقصبات التي رممها السلطان أو أنشأها في الجهة الشرقية، مع تعيين عدد جند العبيد الذي أنزله بها(180).

---

(177) انظر في هذا الصدد المناقشات الفقهية التي أثارتها هذه المسألة منذ القرن 17م وحتى القرن 19م، من أبي الحسن اليوسي إلى أكنسوس والناصري (م.س)، ج 7، ص. 62 وص ص. 67–68 وبالخصوص ص ص. 81–86، حيث يعرض المواقف المختلفة حول هذه النقطة.

(178) الناصري، (م.س)، ج 7، ص. 68.

(179) الضعيف الرباطي، (م.س)، و82 ظ ـ 84 ظ. ولم يكن لأي من أبناء الحيانيات الرشيد، بناصر وأبي فارس وسعيد الصغير، مصير سياسي معروف، سوى ما ذكره محمد القادري، من قيادة الرشيد جيش عبد الله ضد العبيد المناصرين لمحمد بن عربية بمكناس، في جمادى 2 1149/أكتوبر 1736، حيث مات. انظر **CIGAR,** Norman (edited by) : **Muhammad al-Qadiri's Nashr al-mathani : The Chronicles,** Oxford University Press, New York, 1981, pp. 79-80. فيما يلي القادري (تحقيق سيكار 1981).

إن التمعن في اللائحة الآنفة يرفع أي لبس عن كثرة زيجات السلطان ولا يمكن تأويله أبدا بشره «لاستهلاك النساء» بكثرة كما أتى على لسان Ch.-A. JULIEN، (م.س)، ج 2، ص. 228.

(180) الناصري، (م.س)، ج 7، ص. 62؛ VOINOT (م.س)، ص. 130.

وجدة • 1000

العيون • 500

تاوريرت • 100

كَرسيف •

مسون • 100

تـازة • 2500

الكَور • 100

فـاس•

شكل 2 (موقع القصبات الإسماعيلية وعدد العبيد بها بين فاس ووجدة).

من الواضح أن توزيع الجند بهذه الكيفية كان يمزج بين الهم التجاري، إذ أن القصبات كما يتضح من الشكل السابق ترقم المحطات الأساسية على طول الطريق التجارية غرب – شرق، وبين الهم السياسي والإداري الذي كان يفرض الزيادة في حجم جند تازة بكيفية خاصة، في مقابلة الجبل (غياثة).

على أن السلطان، إن هو استطاع أن يملك السهل والمسلك بدون منازع، فإن الأمر لم يكن دائما كذلك بالنسبة للجبل الوعر. هكذا لما أتى أحمد بن محرز، ابن أخي السلطان، إلى نواحي تازة، وأعلن أهل فاس مساندته في رجب 1083 / نونبر 1672، توجهوا للقياه بتازة عبر طريق بني وريتن وغياثة، في حين خفّت محلة السلطان عبر السهل لمحاصرته(181).

ويبدو أن القيمة الاستراتيجية للنواحي الشرقية تمثلت بالنسبة للسلطان اسماعيل في مستويين

(181) انظر محمد القادري، (م.س) ج 2، ص. 202، الضعيف، (م.س)،و29 ظ. وقد طالت انتفاضة أحمد بن محرز ضد السلطان اسماعيل، حتى أصبح اسمه مقرونا بالنسبة للمؤرخين بصفة «السلطان» «أمير المومنين»، واضطر السلطان اسماعيل إلى الاعتراف به خليفة له في السوس. محمد القادري ن.م، ج 2، ص. 332. وما من شك في أن عنصر الزمن والاستمرار كان يؤثر لصالح المنتفض الذي يكتسب بذلك مصداقية أكبر، وهو ما سوف نعود لملاحظته في حالة المستضيء وعبد الله.

ـ **داخليا** كانت هذه الجهة منفذا وملجأ في آن واحد للمطالبين بالسلطة، مثل أحمد بن محرز.

ـ **خارجيا** ظلت الجهة الشرقية مهددة من طرف السلطة التركية بالمغرب الأوسط، مما دفع السلطان إلى التنقل عدة مرات في اتجاه وجدة لتأكيد تبعيتها من جديد(182).

وقد ألحت جل المصادر التقليدية على ما أدت إليه السياسة الإسماعيلية من أمن في الطرقات وهدوء واستقرار في الجهات(183). ويمكن اعتبار تلك الفترة مرحلة لتقوية الدولة المركزية على حساب القوى الجهوية التي كانت متجذرة قبل مجيء العلويين إلى السلطة. على أن الدولة المركزية التي أسسها المولى إسماعيل لم تكن لتتبلور في اتجاه الدولة المركزية على النمط الأوربي، نظرا لنشأة قيادات كبرى ضمنها، تنزع نحو الانفراد بالسلطة، وتمثل حجابا بين المركز والحياة المحلية. وقد وصف صاحب كتاب **رحلة الآس** أحدهم، أثناء حجته سنة 1100 / 1688ـ1689 وهو «الرئيس منصور بن الرامي، أمير تازة وأمير ذلك القطر كله إلى تلمسان، وهو من أعظم الأمراء عند السلطان، والوالي على معظم جيشه وضابطه ويسمى عندهم بالباشا»(184). وإذا كان الرئيس منصور بن الرامي، فيما يبدو، نموذجا من القواد المخزنيين البواخر، فإننا نجد عند الناصري لائحة بقواد القبائل الكبار على العهد الإسماعيلي المتأخر، نصادف ضمنها «أحمد بن علي، (وكان) أمير جبال مرموشة وبني وراين وعرب الحياينة وبرابرة غياثة والجبال»(185). مما كان يجعل من الدولة مقاطعات شاسعة تخضع لأمراء ذوي سلط متسعة.

وإذا ما كان هذا التنظيم قد ضبط الأقاليم خلال مدة من الفترة الإسماعيلية، فإنه، أيضا، كان يحبل بعديد من المخاطر بالنسبة للدولة المركزية، ما لبثت أن انكشفت منذ العهد المتأخر من هذه الفترة. وقد سجل صاحب **رفع الالتباس**

---

(182) الناصري، (م.س)، ج 7، ص ص. 60، 61، 65، 79، 87، 90 ؛ VOINOT، (م.س)، ص ص. 130ـ131.

(183) الناصري، (م.س)، ج 7، ص. 97.

(184) القادري الحسني، أحمد بن عبد القادر، **كتاب رحلة الآس في حجة سيدنا أبي العباس**، مخطوط خ.ح.ر. رقم 8787، بدون ترقيم للصفحات (ورقة 6 و. ما قبل الأخيرة).

(185) الناصري، (م.س)، ج 7، ص. 117.

حكما عاما على نهاية العهد الإسماعيلي[186] ينبىء بالصراعات التي سوف تتفجر إثر وفاة السلطان.

تميزت الثلاثون سنة المتراوحة بين وفاة المولى إسماعيل (1727) ووفاة ابنه المولى عبد الله (1757) بغزارة التقلبات، وتغير الولاءات، وتعدد الحركات سواء ضمن الفرق العسكرية أو جموع القبائل أو حتى العائلات الحضرية. وكان كل ذلك يتم في ظرفية مناخية، اقتصادية واجتماعية غاية في التعقيد والاضطراب، توالت فيها سنوات القحط والمجاعة والوباء. ولم تكن الاضطرابات السياسية إلا لتعمق آثار الآفات الطبيعية[187]. هذا ما أضفى على أوصاف المؤرخين لهذه الفترة، مسحة من الرتابة في السرد والكثرة في التفاصيل التي قد يستعصي الإمساك باتجاهها العام[188].

(186) المعداني، الحسن بن رحال، **رفع الالتباس عن شركة الخماس**، مخطوط خ.ع.ر. رقم د. 1862، ص. 132 «في زماننا الذي هو في سبعة وعشرين بعد مائة وألف (1715) ظهر الجهل غاية وانتشرت الفتن النهاية حتى استوى فيه العالم والجاهل (...) وإنما بقي فيه ذباب في ثياب يتجاذبون هذا الحطام كان من حلال أم من حرام (...) بل صار الحرام يتقرب به عند الماهر النبيه».

(187) انظر كيف عرقل أحمد الريفي سنة 1150/1737–38، مثلا، مجيء الحبوب إلى فاس نظرا لمعارضته للسلطان عبد الله. انظر محمد القادري، **حوليات نشر المثاني** تحقيق ن. سيكار، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، الرباط، 1978، ص ص. 52–53.

(188) ما تزال العناية بهذه الفترة ضعيفة، بالرغم من أهميتها القصوى لفهم أي ظاهرة من تاريخ مغرب القرن 19م. أو القرن 20م. انظر:

MORSY, Magali, «Réflexions sur le discours historique à travers l'examen d'un document sur le Maroc au milieu du XVIIIe Siècle», in **Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée** N° 20, 2e Semestre, 1975, pp. 67-103, p. 82.

أما المصادر الأساسية التي تروي وقائع هذه الفترة، فهي **نشر المثاني** لمحمد القادري «الذي حكى هذه الأخبار عن معاينة لأنه كان يومئذ حاضرها وشاهدها» (الناصري، ج 7، ص. 147) وبالخصوص في طبعتي نورمان سيكار (1978 و1981) الآنفتي الذكر، ثم **تاريخ الضعيف**، وبالإضافة إلى الزياني، وأكنسوس، والناصري، لا بد من التنويه بمؤلف لا يزال لم ينل حقه من العناية بحثا وتعريفا وهو أحد مصادر **الإتحاف** لابن زيدان، وأقصد به **الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن** لأحمد بن محمد بن الحاج، مخطوط من تسعة أجزاء، وجزء منفرد، خ.ح.ر. رقم ز. 12184. وز. 11961. وغالبا ما ينقل ابن الحاج مروياته عن مؤلف يدعوه ابن ابراهيم، ويبدو من دقة أوصاف هذا الأخير أنه عاش في خضم اضطرابات فاس ونواحيها في هذه الفترة. ولعل ابن ابراهيم هذا هو المذكور في **الإتحاف**، ج 4، ص. 396 هكذا «العلامة أبو العباس أحمد بن الخياط بن ابراهيم الدكالي»، في مجرى أحداث نهاية 1141/1728–1729. ومن الجدير بالذكر أن ابن ابراهيم الدكالي كان ينتمي إلى «بيت» من بيوتات الفقه والعلم بفاس إذ أننا نصادف في **الاستقصا** ج 8، ص. 149 شخصا آخر لعله من نفس الأسرة في حدود 1820 يحليه الناصري بـ «الفقيه المفتي السيد محمد بن ابراهيم الدكالي» كما نصادف أيضا عند ابن عسكر، ص ص. 56–57، أسرة فاسية بهذا الاسم منذ القرن 16م.

وعلى العكس مما ادعته الكتابة الاستعمارية، من كون هذه الفترة، مرحلة للفوضى الشاملة، فإن الصراعات كانت تدور حول مصالح متضاربة والمواقف المتباينة كانت تقتضيها تحالفات محددة. ولم تعش قبائل حوض إيناون، مثلا، في هذه الفترة «في استقلال مطلق» كما ذهب إلى ذلك أحد الضباط الذين اهتموا بتاريخ تازة(189). بل إنها ساهمت في صنع وقائع هذه الفترة ايجابا وسلبا. إن الدوافع الكامنة وراء عدم استقرار سلاطين هذه الفترة تمثلت في مصالح محلية أو فئوية قوية لم تفلح محاولات التركيز السابقة في القضاء عليها.

واجهت تلك المصالح كلا من جيش العبيد الذي أصبح يستبد بالتنصيب والعزل، وجيش الوداية الذي تدعمه عادة قبائل شراكة وأولاد جامع والحياينة، في تحالف غير مستقر مع فاس من جهة، وبرابرة الأطلس، بني مطير وزيان وكروان من جهة ثانية: هذا التجمع الثاني ينصب بدوره ويخلع السلاطين(190).

وإذا ما كانت الاضطرابات قد شملت البلاد برمتها، فإنه من المحقق أن المسرح الأساسي الذي كان معتركا للصراعات ظل هو الشمال في كثير من المناسبات(191) مما جعل آثار الآفات الطبيعية والتطاحن السياسي والعواقب الاقتصادية تكون في الشمال أعمق مما في الجنوب.

وقد تعقد التواجه بين جيش العبيد وجيش الودايا والقبائل العربية، وتواجه البادية والمدينة، بتواجه جغرافي بين الشمال والجنوب، وهو تواجه يبدو فيه نفوذ المؤثرات الأجنبية بوضوح، الإسبانية والأنجليزية منها على وجه الخصوص. هكذا كان لنواحي تطوان ـ طنجة كلمتها الوازنة في الصراعات الدائرة(192).

وإذا ما أقصينا من الاعتبار السلاطين الضعاف الذين لم يمكثوا في الحكم أزيد من فاصل زماني محدود(193) فان فرسي الرهان بالنسبة للقوى المتصارعة الآنفة، خلال

(189) VOINOT، (م.س)، ص. 133.

(190) BRIGNON et Col.، (م.س)، ص. 257، أحمد بن الحاج، الدر، ج 8، ص ص. 157–160، 393–394.

(191) BRIGNON et Col.، ن.م. ص.

(192) M. MORSY، (م.س)، ص. 92.

(193) باستثناء أحمد الذهبي الذي اشتهر بالتبذير والمجون، فإن الألقاب تدل على ضعف هؤلاء السلاطين : أبو الحسن «الأعرج»، محمد بن عربية المكنى حسب الضعيف بـ «الكَيلا» (القيلولة)، نظرا لما تميزت به فترة حكمه (1150/1737–1738) من شدة الجفاف، وما أعقبه من قحط ومجاعة. انظر

مدة طويلة، كانا هما السلطان عبد الله والسلطان المستضيء. وكان هذا الأخير بمثابة مرشح بعض القوى القائدية الشمالية المتمثلة في أسرة أحمد الريفي التي كانت على صلة وثيقة بالمصالح الأنجليزية بجبل طارق[194]. في حين، مثل السلطان عبد الله، ولو بصورة أقل وضوحا، مرشح التجمع العريض من قبائل الجيش المحيطة بفاس[195].

وبما أن الهدف كان مرارا هو الاستيلاء على قاعدة الخلافة الموجودة إما بمكناس أو بفاس، فإن تموجات جل الصراعات كانت تلحق حوض إيناون خاصة وأن عبيد القلاع التي بنيت به على العهد الإسماعيلي، انخرطوا بدورهم في الصراع[196]. هكذا عاش حوض إيناون حظه من المبارزة بين المستضيء وعبد الله، سيما وهو الطريق في آن واحد نحو الشرق والشمال أو حتى تافلالت.

لمعرفة مدى تأثر حوض إيناون بهذه الصراعات وعمق انخراطه فيها، بدا من المستحسن، محاولة وضع كرونولوجيا لأعقد فترة منها، اعتمادا على ما ورد عند الناصري، واتماما لذلك بما يضيفه كل من محمد القادري (طبعة سيكار) وأحمد ابن الحاج من تدقيقات وتتراوح هذه الفترة بين 1150 /1737 و1163 /1750.

الضعيف، (م.س) ورقة 57 و.، و57 ظ. وقد وصفهم صاحب **الإتحاف** هكذا كان السلطان «عقيم التدبير، شديد البطش والانتقام غير متوقف في قتل الأنفس ولا متأنٍ أو متثبت في الأمور ولا متأمل في العواقب»، **الإتحاف**، ج 3، ص. 140، ج 4، ص. 333.

(194) أسرة أحمد بن علي الريفي من الأسر التي اشتهرت إبان استرجاع طنجة (1684) وانتقلت بالتدريج من الجهاد إلى السلطة إلى الثروة، «فكانت له بذلك وجاهة كبيرة في الدولة، خصوصا ببلاد الهبط» الناصري، (م.س)، 7، ص. 115.

(195) أحمد ابن الحاج، (م.س)، ج 8، ص ص. 393-394، 400.

(196) من أمثلة ذلك أن سليمان بن اسماعيل وفد على محمد بن عربية، سنة 1150/1737-1738، «وهو نازل بمحلته بحوز صفروا، من مدينة تازى ومعه عبيد تازى ومكناسة وزرارة وغيرهم». انظر محمد القادري، طبعة سيكَار (1978)، ص. 49، ويصف ابن الحاج في **الدر** ما نال حوض ايناون من عسف العبيد الموالين لأحمد الذهبي سنة 1141/1728-1729 غداة وفاة السلطان اسماعيل، وكان الحياينة على بيعة عبد الملك، على الكيفية الآتية «وورد الخبر بأن سفيان وبني مالك وشراكة وأولاد جامع والحياينة (...) باقون على عهده (عبد الملك) (...) فوجه لهم العبيد جيشا. فاقتتلوا مع القبائل قرب واد ايناون فانهزم القبائل وبقي منهم قتلى كثيرة (...) وكان العبيد ينهبون زرع الحياينة الذي بأمراسهم وياتون به للمحلة».. ابن الحاج، (م.س)، ج 8، ص. 157-160.

جدول 3 اضطراب الطبيعة والمجتمع أواسط القرن 18م

المصدر	التاريخ	الوقائع
القادري (سيكَار 1978) ص. 54	رجب 1150/ نونبر 1737	ـ ثمن القمح 110 مثاقيل للوسق. ـ عدد الموتى 150 يوميا (بفاس) من جراء المجاعة.
ن.م.، ص.58.	حجة 1150/ أبريل 1738	ـ محلة من العبيد بقصد نهب شراكة والحياينة «فقتل الكثير من الحياينة».
ن.م.، ص.59.	حجة 1738/1150	ـ ضحايا المجاعة بفاس 89000.
الناصري، ج7 ص165/147	صفر 1151/ يونيو 1738	ـ ثورة العبيد على السلطان محمد بن عريبة وخلعه واعتقاله. استدعاؤهم للمستضيء من سجلماسة. مقدم وفد الحجاج بالزرع انخفاض سعره إلى 24 مثقالا للوسق.
القادري (سيكَار 1978)، ص59	ربيع 2 1151/ غشت 1738	ـ دخول المستضيء فاس، تيمن السكان به من جراء شدة عسف عبد الله السابق بهم. استقراره بمكناسة. لكن سرعان ما أكثر من القتل بكل من فاس ومكناس. السلطان عبد الله يقيم لدى بربر الأطلس، ويحرضهم على قطع الطرقات وشن الغارات على الوذايا.
ابن الحاج، ج8، ص.345	1738/1151 ـ 1739	عدم خروج وفد الحجاج «لكثرة الفتن والأهوال».
	قعدة 1152/ فبراير 1740	انتفاض العبيد ضد المستضيء وفراره إلى طنجة ثم منها إلى مراكش حيث سيقيم حتى 1742/1155ـ1743.
القادري (سيكَار 78)، ص.61	1739/1152ـ 1740	كان العام كثير المطر والخصب والصابة جيدة.
	أوائل 1740/1153	عودة العبيد إلى طاعة عبد الله، عودة فاس وأحوازها (ايناون) أيضا.
ن.م.، ص.65	1740/1153ـ 1741	انتشار «نقمة الفار سلطه الله على الزرع والبحائر والدرة والرمان (...) وكثرت اذايته حتى أعيا الناس بكل حيلة».

المصــــدر	التـاريـخ	الوقـائـع
	أواخر 1153/ مارس 1741	رفض الحياينة دفع الزكوات والمساهمة في حركة عبد الله ضد أحمد بن علي الريفي. وقتلهم للقائد أحمد الكَعيدي اليازغي.
ابن الحاج، ج8، ص.400	ربيع 1 1154/ ماي 1741	شغب العبيد مجددا على عبد الله باتفاق مع أحمد الريفي ـ فرار عبد الله إلى الأطلس. صراع بين العبيد وفاس وأحوازها (الحياينة).
ن.م.، ج 8، ص.401	ربيع2 1154/ يونيو 1741	نهب العبيد زرع شراكة والحياينة الذين التجأوا إلى فاس «وتركوا الزرع في إبانه وهو في غاية الصلاح».
	ربيع الأول 1155/ ماي 1742	زحف المستضيء والريفي مع العبيد إلى فاس وفرار عبد الله إلى آيت يدراسن. قتال بين العبيد من جهة والودايا وأهل فاس والحياينة وشراكة وأولاد جامع من جهة أخرى.
	4 ربيع 2 1155/ يونيو 1742	هجوم عبد الله مع بربر زمور، بني حكم، جروان، آيت ادراسن وآيت أومالو وفرار جموع المستضيء والريفي.
القادري (سيكَار 78)، ص ص.69-70	42/1155 ـ 1743	في هذا العام فشا الطاعون بفاس وببلاد المغرب وقبائله، بواديه وحواضره، ومات به خلائق عديدة.
		40 يوما من المطر الغزير تؤدي إلى فيضانات هدمت قنطرة سبو.
ابن الحاج، ج9 ص.10-11	محرم، صفر 1156/ مارس أبريل 1743	عودة المستضيء والريفي إلى مهاجمة فاس، والحياينة وشراكة يحتمون بأسوار المدينة. عيث أحمد الريفي، ومعه عبيد تازة وقبائل أحوازها، ببلاد الحياينة. استنجاد عبد الله بآيت ادراسن. وقوع الهزيمة النكراء على الريفي والمستضيء (900 قتيل) ونجاتهما بنفسيهما إلى طنجة بعد تركهما لأثقالهما.
	جمادى1 1156/ يوليوز 1743	مشروع هجوم جديد للريفي والمستضيء على فاس. اعتماد عبد الله مجددا على فاس ـ

الوقائع	التاريخ	المصدر
الحياينة ـ شراكة ـ آيت ادراسن وجروان لمواجهته. هزيمة الريفي على اللكوس ووفاته.	جمادى 2 1156/ غشت 1743	
«وفي هذا العام والذي يليه بعده والذي يليه أيضا بعده وقع من الفتن والشرور مالا يحصى ولا يعد (...) وتراكمت أهوال وتغيرت أحوال وماتت رجال وغابت أبطال (...) وكانت مدة الفتن نحوا من سبعة وعشرين شهرا».	1746/1159 ـ 1747	القادري (سيكَار 78)، ص.73.
صلى الناس صلاة الاستسقاء(...) حتى بلغ تكرارها تسع عشرة مرة.	1749/1163ـ 1750	ن.م.، ص.74.

ملاحظة كلما لم تقع الإشارة إلى المصدر، وقعت الاستفادة من الناصري، ج7، ص. 147ـ165.

إن ما يشعر به المرء من عناء وضجر أثناء بناء أو قراءة الجدول السالف لا يشفع له سوى ما يبرزه هذا الجدول بكيفية جلية، من المناخ الكارثي الذي عاشته البلاد خلال هذه العقود شديدة الاضطراب.

وتكاد النصوص التي تعرضت لهذه الأزمات (نشر، الضعيف، **الدر**، **الاستقصا**) ترقّم جملها بصيغ التأسي والتعزي مثل «والأمر بيد الله» أو «نسأل اللطف» أو «والحول والقوة لله»... وكلها دالة على ما آل إليه المجتمع من تفكك، وما أصاب الأفراد من تمزق. وقد تظافرت قوى الطبيعة وقوى المجتمع لرسم خطوط هذه الصورة الكارثية

ـ توالي سني الجفاف (1737ـ1738 ، 1749ـ1750 إلخ...) وما يعقبها من غلاء ومجاعة، وظهور الأوبئة (جائحة الفئران، الطاعون) ينتج عن كل ذلك حصاد ديمغرافي لا نتوفر على فكرة حوله سوى بكيفية تقريبية بالنسبة لفاس (89.000 قتيل أحصيت بمارستان فاس حسب محمد القادري).

ـ الصراعات السياسية تفرض على هذه المنطقة الوسطية تغيير تحالفاتها مرات كثيرة مما يجعلها عرضة للانتقام من لدن الأطراف المتناقضة. بل إن الصراعات

شطرت حوض إيناون شطرين، مثلما وقع فيما قبل على عهد الرشيد[197]، إذ أن الحياينة وقفوا إلى جانب فاس مع السلطان عبد الله في حين ساندت تازة وأحوازها السلطان المستضيء، (1156/1743-1744).

ـ هل من الغريب أن يتراجع الانتاج الفلاحي بهذه المناطق التي، فضلا عن الآفات الطبيعية، اضطرت إلى التضحية ببعض المحاصيل الزراعية الجيدة التي لم تستطع جنيها لشدة الأضطراب والفتن (1154/1741)[198]. في ظل هذه الظروف لم يكن أمام العديد من سكان أحواز فاس سوى اللجوء إلى النهب والسلب كوسيلة للتعيش. وقد كثر «السياب» من ضمن الحياينة بفاس، حسب تعبير محمد القادري[199].

وكأن الحياة العادية توقفت فهذه قنطرة سبو تهدمت من جراء فيضان النهر ولا يستطيع سكان فاس رأب الصدع، وإنما يعوضون الأقواس المهدومة بجذوع النخل[200]. وهذا ركب الحجاج لا يستطيع مغادرة فاس (1151/1738) بالرغم من هالة القدسية التي تصحبه عادة، وتوفر له الاحترام حتى في أعصب الظروف.

ـ وهل يستغرب والحالة هذه، أن ينتفض الحياينة ضد السلطان عبد الله، وهم الذين كانوا يساندون جانبه باستمرار، عندما طالبهم في أواخر 1153/1741، بتيسير الحركة إلى الشمال وتسديد الزكاة، وهم على ما كانوا عليه من ضعف بشري، إثر المجاعة، وإنهاك اقتصادي بعد الجفاف ؟ فكان جوابهم قتل القائد محمد الكَعيدي اليازغي، كبير أهل الديوان هو وأصحابه الذين كانوا قد توجهوا اليهم من أجل ذلك الغرض[201].

---

(197) انظر ص ص. 92-93 أعلاه.

(198) يقول محمد القادري عن صابة حجة 1148/1736، في طبعة سيكَار (1978)، ص. 39 «حين قربت الصابة للوجود، قدم مولانا عبد الله من سوس ونزل بتادلا فوقع في الصابة فساد حين قدومه ولم يكن منها كائنة».

(199) ن.م، ص ص. 51-55 يشير إلى جو الهلع الذي كان يعيشه سكان فاس يوميا، من جراء هجمات «السياب»، ليلا ونهارا. ومن ضمن زعمائهم يشير إلى بورمضان الحياني. الناصري، (م.س) ج 7، ص. 145. «وكان أهل اليسار لا ينامون، وصار جل الناس لصوصا» والمقصود «بالسياب» هنا أولائك الذين لم يجدوا سوى السلب وسيلة للتعيش.

(200) القادري، ن.م، ص. 70.

(201) ابن الحاج، (م.س)، ج 8، ص. 376، الناصري، ج 7، ص. 153.

إن جملة تقلبات القرنين السابع والثامن عشر خلفت بحوض إيناون عواقب مؤكدة برزت في شكل اندثار مجموعات بشرية قديمة بالمنطقة، وظهور مجموعات أخرى. ابتداء من القرن 17–18م لم نعد نعثر على تسمية بني وريثن في النصوص إلا بكيفية نادرة، منذ أن انتقلت جموع منهم واستقرت بفاس(202). على العكس فإن تواتر ذكر بني سادن الذين عوضوا بني وريثن على هضبة جنوب إيناون، يبتدىء في نفس الفترة(203). وكان بني سادن قد أتوا من الجنوب الغربي في نفس الحركة المهاجرة التي قادت تجمع القبائل آيت ايدراسن من الأطلس في اتجاه الشمال(204).

وتؤكد حالة حوض إيناون ما سبق أن لاحظه روزانبرجي ROSENBERGER والتريكي حول تأثر السهل بالأوبئة والمجاعات أكثر من الجبال والصحراء، مما جعل من هذه الأخيرة، عبر التاريخ مصدر تزويد بشري بالنسبة للسهل والشمال(205). هذا هو السياق الذي برز فيه اسم تجمع قبلي، وافدٍ هذه المرة من الجنوب الشرقي، وهو تجمع آيت (بني) وراين في أوائل القرن(206). وقد شغل توسع بني وراين على حساب كل من غياثة شمال شرقهم، والحياينة شمال غربهم، الحيز الأوفر من حياة حوض إيناون فيما بين القرنين 18 و19م بل حتى خلال الفترة الأولى من الحماية.

ويمكن اعتبار فترة حكم السلطان محمد بن عبد الله (1757–1790) فترة الترسيخ الفعلية للسلطة العلوية، إذ اتخذ فيها المخزن ملامحه الأساسية التي سوف تميزه خلال القرن 19م. منذ أن كان خليفة بمراكش، نهج سياسة تمزج بين المرونة والعنف، بين المفاوضة واستعمال السلاح، مكنت الدولة المركزية من تلجيم القوى

---

(202) محمد القادري، (م.س)، ج 1، ص. 290 «واستوطن بنو وريثن عدوة الأندلس (...) وسمعت من بعضهم أن وقت دخولهم كان لهم من الخيل ألف ومائة فرس». (سنة 1040/1630–1631).

(203) محمد القادري، (طبعة سيكار 1978)، ص. 81. (سنة 1171/1757–1758).

(204) ABES, «Monographie d'une tribu berbère : les Ait N'dhir (Beni-M'tir)» **in Archives Berbères**, 1917, Vol. 2, Fasc. 2, pp. 149-194, p. 172.

(205) ROSENBERGER, B. et TRIKI, H., «Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe Siècles», **in Hespéris-Tamuda**, vol. XIV. Fasc. unique ; 1973, pp. 109-175 et vol. XV, Fasc. unique, 1974, pp. 5-103, surtout p. 71.
نفس الملاحظة عند القادري (سيكار 78)، ص. 53.

(206) أول ذكر في النصوص المتوفرة، لتجمع بني وراين يعود إلى أواخر العهد الإسماعيلي، الناصري (م.س) ج. 7، ص. 117.

المحلية(207). بيد أنه أصبح على السلطان أن يبرهن عن وجوده وقوته بالملموس، في المناطق التابعة لإيالته. فأصبح تنقله يتخذ طابعا إلزاميا، حتى ولو لم يكن الغرض منه عسكريا بكيفية مباشرة(208). كما يبدو أن هذه الفترة هي التي تأسس فيها تنظيم الحركات الإدارية، الموفدة مع أحد الأمراء أو القادة المخزنيين، والتي يقصد منها قبض الجباية أو فض القضايا المحلية العارضة(209).

ونصادف جوانب هذه السياسة في حياة إيناون خلال النصف الثاني من القرن 18م. فقد روى القادري أخبار الحركة العقابية التي نظمها السلطان ضد الحياينة سنة 1760/1174 كما يأتي «ثم إن السلطان (...) توجه قاصدا بلد الحياينة وقد كان [كذا] اتفقت كلمتهم على شق العصا عليه (...) والجؤوا [كذا] إلى أطراف جبال غياثة ومجاصة ومايلي مرموشة من تلك النواحي والجبال المانعة وتحصنوا بها منه (...) ولم يزل نازلا ببلدهم هو ومحلاته من أحرار وعبيد وعرب وبربر، وهم ينهبون ما قدروا عليه من مواشيهم وما يجدونه من زروعاتهم التي لا يعلم قدرها إلا الله (...) وبقي السلطان ببلدتهم مدة تقرب من شهرين»(210).

هذه المشاهد، من مجيء المحلة السلطانية أو غير السلطانية، والتجاء القبيلة إلى الجبل، ومكوث المحلة بأرض القبيلة... هذه المشاهد تكرر ذكرها في المصادر ابتداء من القرن 18م.

---

(207) A. LAROUI (م.س)، ص ص. 256–257. يشير ابن الحاج في **الدر المنتخب**، ج 9، ص. 188، إلى أن السلطان محمد بن عبد الله لم يكن يستعمل العنف إلا بعد «التدبير السياسي وحيل الملوك أصحاب العقول الرواسي»، ويمكن بهذا الصدد الإحالة على الكيفية التي انتقم بها من عبيد طنجة، وما يظهر في ذلك «التأديب الغريب» من «تدبير وحيل»، الناصري، ج 7، ص ص. 47–48.

(208) NORDMAN, Daniel, «Les expéditions de Moulay Hassan, essai statistique», in **Hespéris-Tamuda**, Vol. XIX, 1980-81, pp. 123-152, cf. pp. 127-128.
ويورد محمد القادري، طبعة سيكار 1978، ص. 84، تصور السلطان لضرورة التنقل على الكيفية التالية «لا سبيل إلى الإقامة في أرض واحدة، ولا بد من الإقامة في كل بلدة ليتيسر لكل من أهلها الاتصال بنا وتسهل عليه ملاقاتنا لما عسى أن يعرض موجب شكاية أو رفع خصاصة لاسيما من لم يقدر على السفر إلينا تسهيلا على الرعية». وهو ما يفيد وعي السلطان بارتباط استمرار حكمه بتنقله عبر البلاد.

(209) ن.م.، ص ص. 90 و99، أيضا، الناصري، ج 8، ص. 16. حول الحركات الإدارية، انظر فيما يأتي.

(210) القادري، طبعة سيكار 1978، ص. 90.

ويبرز الجدول التالي، بعض الحركات التي مرت عبر حوض إيناون، في عهد السلطان محمد بن عبد الله. ولعلها كانت في الواقع أكثر عددا مما احتفظت به الحوليات، نظرا لما لهذه المنطقة من خطورة على طريق الشرق، وسجلماسة.

جدول 4 الحركات المخزنية أيام السلطان محمد بن عبد الله

المصدر	التاريخ	القائد	الوجهة المدة	ملاحظات
القادري/سيكَار (78)، ص.90	محرم-صفر 1174/ غشت-شتنبر 1760	السلطان	الحياينة ــ شهران	يوردها الناصري، ج8، ص ص.16ـ17 في سنة 1761/1175
ن.م.، ص ص. 92ـ93	محرم 1177/ غشت 1763	السلطان	تازة بعد الإيقاع بمرموشة	أوردها الناصري، ج8، ص.18، في سنة 1176/ 1762ـ1763
الناصري ج8، ص. 25	1765/1179 ـ 1766	السلطان	الريـف والرجوع عن طريق تازة	
القادري/سيكَار (1978) ص.99	ربيع1 1180/ شتنبر 1766	علي ابن السلطان	الريف عبر الحياينة ــ ثلاثة أشهر	
الناصري ج8 ص.62. اكنسوس، مخطوط خ.ع.ر. د.965 ورقة 148ظ الضعيف، خ.ع.ر م.س، ورقة 110 ظ	1786/1201ـ 1787	السلطان	شراكَة والحياينة ــ شهـر	

ومما يؤكد انتباه السلطان محمد بن عبد الله إلى المنطقة الشرقية، وتخوفه مما قد ينجم عن عدم التحكم فيها من أخطار، تعيينه لأحد أكفإ كتابه، وهو أبو القاسم الزياني، عاملا على تازة، سنة 1201 / 1786ـ1787[211]. سيما وأن السلطان

(211) الناصري، (م.س)، ج 8، ص. 62.

كان يتوجس من رجوع ابنه اليزيد من المشرق، وكان اليزيد قد نازع أباه الحكم عدة مرات في أواخر حياته(212). ومن مظاهر هذا التوجس أيضا، البعائث العسكرية التي وجهها إلى وجدة وتازة سنة 1203/1788-1789، لمنع اليزيد من دخول البلاد. لكن هذا الأخير استطاع مع ذلك المرور عبر شبكة الحراسة والدخول إلى فاس قبل التوجه إلى ضريح عبد السلام بن مشيش حيث مكث إلى أن توفي أبوه بضعة شهور فيما بعد(213).

إن الفترة الوجيزة التي قضاها السلطان اليزيد في الحكم (1790-1792)، بالرغم من قصرها، كانت بليغة الدلالة بما سوف يصبح عليه المغرب أكثر فأكثر ابتداء من هذا التاريخ فريسة تتربص القوى الأوربية للانقضاض عليها. فقد كان حصاره لسبتة سنة 1790، ومحاولة استرجاعها عن طريق الحرب، من آخر محاولات دولة تواجه الأجانب بالقوة، إذ انقلبت الكفة لصالح القوى الأوربية التي أخذت تستفيد من الصراعات المحلية لتدعيم مصالحها التجارية والسياسية والترابية بهذه الجهة أو تلك. هكذا ضربت اسبانيا اليزيد من الخلف لما دعمت انتفاضة أخويه مسلمة في الشمال، وهشام بالخصوص، في أحواز مراكش بالمال والعدة والذخيرة، واضطرته إلى الانسحاب من حصار سبتة، فكان مصرعه في مواجهته لانتفاضة هشام بالقرب من مراكش(214).

ولم يفتر اهتمام القوى الأوربية بالمغرب خلال الفترة السليمانية (1792 - 1822) بالرغم مما قيل عن «سياسة الاحتراز» وبالرغم كذلك من انشغال أوربا بالحروب النابليونية، بل إننا نصادف، مثلا، ضمن الوثائق المحفوظة بـ (Vincennes) تقارير أنجزت من طرف مصالح الاستعلامات، تتابع فيها أخبار تحركات السلطان سليمان في الجهة الشرقية(215).

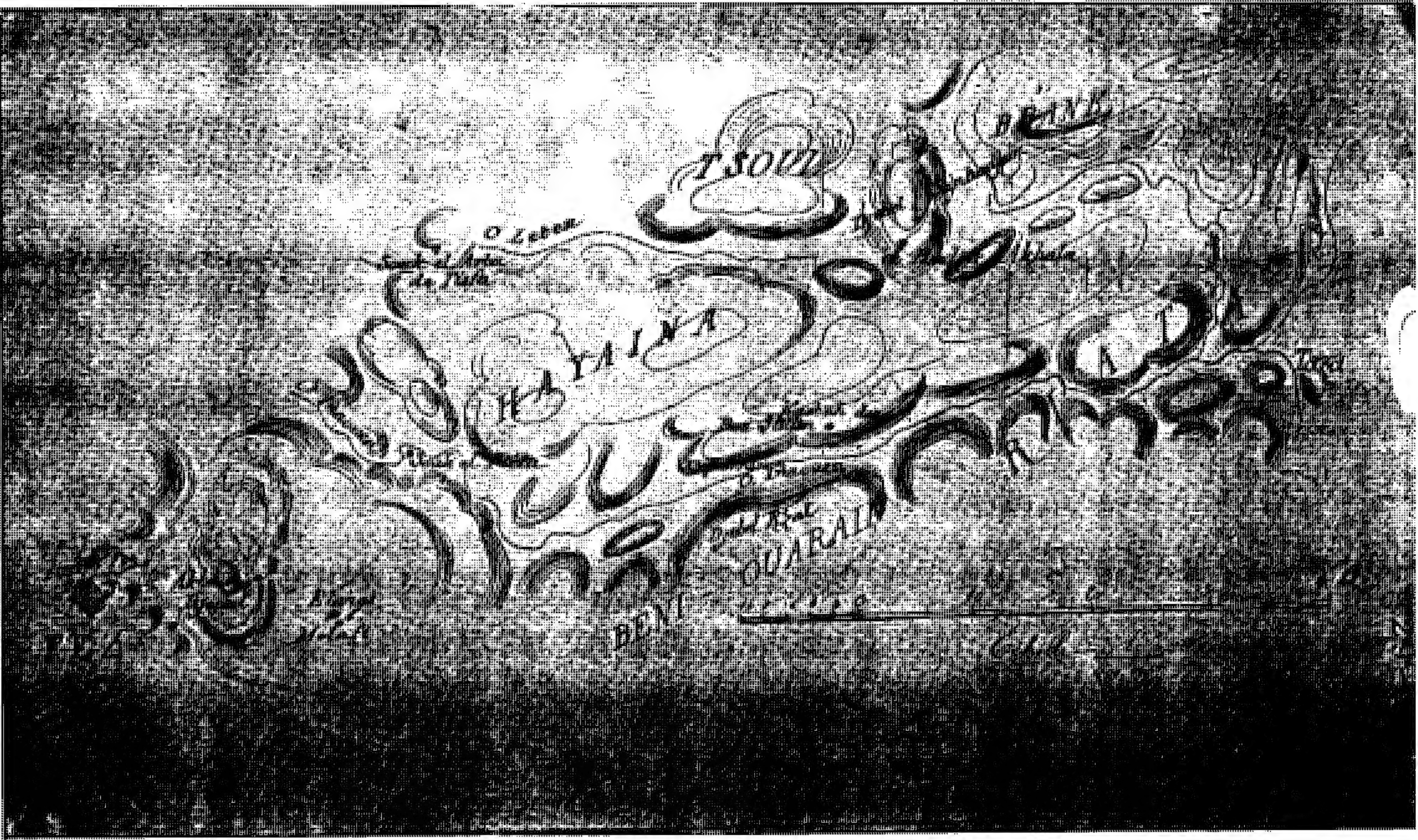
اتخذ النفوذ الأجنبي المتزايد في المغرب في مبتدإ الأمر، كما في جهات أخرى من

(212) ن.م، ج 8، ص ص. 72-73، انظر أيضا ARRIBAS PALAU, Don Mariano **Cartas arabes de Marruecos en tiempo de Mawlay al Yazid (1790-1792)**, Tetuan, 1961, pp. 39-42.

(213) الضعيف، (م.س)، و112 و. وظ، 113 و، 123 ظ.

(214) حول التدخلات الإسبانية في هذه الفترة، انظر ارياس بالاو، (م.س).

(215) BUREL, Capitaine, «Mémoire militaire sur l'empire du Maroc» Présenté à Sa Majesté Impériale en Juin 1810, A.M.G., Série Maroc, Série C. Carton I.



نموذج من خرائط الاستعلامات الفرنسية حول إيناون في نهاية القرن

المعمور، شكل رحلات استكشافية، كانت شرطا مسبقا لأي مشروع احتلال فعلي، لكي يقع التعرف على أيسر المسالك، وحجم المصاعب التي من المحتمل مواجهتها. فكانت المسالك تمثل، بالطبع، الخطوط الامتيازية لمبادرات الرحالة المستكشفين.

وباعتبار حوض إيناون المسلك الضروري بين الغرب والشرق، توالت عليه مبادرات المستكشفين المتنكرين منهم والعلنيين، منذ أن مر به الإسباني دومينغوباديا (Domingo BADIA) (1805) الذي كان متنكرا تحت زي أمير شرقي تسمى بـ «علي العباسي باي»[216].

بيد أن حوض إيناون ظل مع ذلك بياضا في خرائط الفريق الاستعماري الفرنسي، حتى نهاية القرن 19م، حيث تعددت المبادرات الاستكشافية بمباركة من هذا الفريق. ولن نعيد هنا ما بيناه في مكان آخر[217] من كون هذه الرحلات الاستكشافية كان همها الأساسي استقصاء إمكانيات ترويج تجارة البلد الذي ينتمي إليه الرحالة، أو توفير المعلومات الضرورية لتيسير احتلال سهل من طرف القوة الأوربية التي يخدم المستكشف مصلحتها[218].

كان من الطبيعي، في هذا السياق أن يواجه المخزن السلطاني، الاحتجاج والمعارضة على الواجهتين. فإذا ما كان ثمة مطالبون بالسلطة، استفادوا من الدعم الخارجي، إسبانياً كان أم فرنسياً، كما سبق وأن حصل لما استفاد الناصر من دعم الإسبان ضد المنصور، فإن هناك، أيضا، منازعين في مشروعية مخزن لم تعد له القدرة على مواجهة التغلغل الأجنبي بما يكفي من الصلابة.

---

(216) نالت الأوصاف التي سجلها باديا اهتماما خاصا من المصالح العسكرية الفرنسية، حتى أنها كانت تنقل عن نسخها القليلة .A.M.G., Maroc, C. 1
والملاحظ أن المقتطفات المنقولة تتعلق بكيفية خاصة بممر فاس ـ وجدة. ويغلب الظن أن هذا الرحالة كان يخدم بعض المشاريع التوسعية النابليونية جنوب البوغاز.
انظر مؤلفه **EL ABBASSI, ALI Bey, Voyages d'Ali Bey El Abbassi en Afrique et en Asie 1803-1807**, Didot l'Ainé, Paris, 1814, 3 tomes.

(217) انظر A. El MOUDDEN، (م.س) (1984). في الخريطة المرفقة (1895)، يبدو واضحا أن المستكشف ما يزال يجهل أين يلتقي إيناون بسبو.

(218) من أهم المستكشفين الذين عبروا المنطقة
DE FOUCAULD (1883)
DE LA MARTINIERE (1891)
DELBREL (1899)
DE SÉGONZAC (1901) etc...

ضمن الصنف الأول يمكن التذكير بحالة الأمير هشام بن محمد بن عبد الله الذي حكم أحواز مراكش مدة سنين، ضدا على اليزيد ثم على سليمان بعده، بدعم من الإسبان[219].

بيد أن هذا الصنف من المنتفضين لن يتكاثر إلا ابتداء من النصف الثاني من القرن 19م. ولن يكون غريبا أن يأتي هؤلاء من الشرق أو أن يعتمدوا على قبائل الشرق، إذ الغالب فيهم أنهم يحصلون على دعم الفريق الاستعماري بغرب مستعمرة الجزائر، ومنه يعودون إلى الغرب، في محاولة لاحتلال قاعدة الشمال فاس. وكان من السهل عليهم استغلال سخط قبائل هذه المناطق المتضررة من آثار الكوارث الطبيعية، ومن تعسفات قواد المخزن، مقيمين أو مرافقين للمحال المخزنية. هكذا تدعمهم القبائل بحماس ضد سلطان فاس، قبل أن ينكشف أمرهم. تلك كانت حالة سليمان الكبير ابن عبد الرحمن بن سليمان، الذي كرر عند تولي الحسن بن محمد سنة 1873، ما سبق لوالده عبد الرحمن أن فشل فيه ضد والد الحسن، محمد، عند توليه سنة 1859. وقد نال سلميان دعم الفريق الاستعماري بوهران من شخص «الكبطان علك»، بعد أن أقام تحت رعايته أربعة أشهر[220] وتلك أيضا كانت حالة الجيلالي الزرهوني، المعروف تحت كنية بوحمارة، الذي لن نتعرض له لخروجه عن حدود نطاق هذا البحث[221].

(219) ARRIBAS PALAU، (م.س)، ص ص. 83–84، 145.

(220) ابن زيدان، عبد الرحمن، اتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس، 5 أجزاء المطبعة الوطنية، الرباط، 1929–1933، ج. 2، ص ص. 147–150.

(221) انظر السوسي، محمد المختار، المعسول، 20 ج، مطبعة النجاح، البيضاء، 1961 الجزء 20.
LAROUI, A, **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1830-1912.** Maspéro, 1977, pp. 354-366.
AYACHE, G, **Les Origines de la Gue..e du Rif**, SMER, Sorbonne, 1981, pp. 129-139.

محمد
1790-1757
اليزيد
1792 - 1790
هشام
(1797-1791)
مسلمة
(1792)
سليمان
1822-1792
ابراهيم - السعيد
(1822-1820)
عبد الرحمن
1859-1822
محمد
1873-1859
عبد الرحمن
(1859)
الحسن
1894-1873
سليمان الكبير
(1873)

شكل 3 شجرة السلاطين والمنازعين لهم في الملك. والملاحظ انه كما هناك أسرة مالكة هناك، على الأقل بالنسبة للقرن التاسع عشر، أسرة من المطالبين بالعرش، (السهام ⟵//⟶ تنطلق من المطالب بالعرش وتنتهي إلى السلطان الحاكم وتعني التواريخ بين قوسين فترة انتفاض المنازعين، والتواريخ العارية عن القوسين، فترة حكم السلاطين).

على أنه من المثير للانتباه أن موقف قبائل شرق فاس، يتغير من هؤلاء المنتفضين، ما إن تنكشف مواطأتهم للأجانب[222] في حين نجدها تقف بقوة تبدو أعمق وأطول نفسا، إلى جانب منتفضين آخرين، عارضوا المخزن لعدم صلابته أمام النفوذ الأجنبي.

ضمن هؤلاء يمكن الاشارة إلى أبناء اليزيد إبراهيم والسعيد (1820 - 1822) اللذين بايعتهما فاس ونواحيها على التوالي، وحظيا بدعم واسع من قبائل

(222) انظر A. LAROUI، (م.س)، ص ص. 364-366. انظر أيضا G. AYACHE (م.س) (1981)، ص ص. 131، 134.



حوض إيناون، بعد أن توصلت فاس بالرسالة السليمانية الشهيرة التي استنتج منها عامة سكان فاس وخاصتهم أن السلطان خلع نفسه[223]. وتوحي بعض الأبحاث الحديثة أن فشل مبادرة ابني اليزيد ضد سليمان الذي كان حكمه في وضع أقرب إلى الانهيار، إنما يعود إلى مقاطعة القوى الأوربية (إسبانيا، فرنسا) لهما، وقد رأت في مبادرتهما احتمالا لإحياء العمليات الجهادية التي كان سلميان قد عطلها منذ 1817[224].

ويمكن إدراج الصراع الذي واجه السلطان عبد الرحمن والأمير عبد القادر (1844–1847) ضمن نفس السياق إذ أن عبد القادر اعتمد على تطلع سكان حوض إيناون والجهة الشرقية بصفة عامة للجهاد، فتمكن من تحدي الجيش السلطاني خلال سنوات عدة.

وضمن نفس السياق يمكن، أخيرا، الإشارة إلى انتفاضة بوعزة الهبري سنة 1873–1874، بحوض إيناون. هذه الانتفاضة ربطت بوضوح بين طابعها المهدوي.الذي يرتكز في الواقع على جذور ضاربة في العمق بالمنطقة[225] وبين تخوف السكان من الزحف الاستعماري من الشرق، وتطلعهم إلى المواجهة، خاصة وأن جزءا هاما منهم كان قد ساهم في مواجهة الإسبان في حرب تطوان[226].

إن ظرفية القرن 19م وضعت المخزن المغربي في مأزق كان من العسير عليه فك حصاره في ظل منزعه التوازني بين مكونات المجتمع، وبين هذا المجتمع والضغوط الخارجية لكي يبرهن عن وجوده، ويحد من التغلغل الأجنبي، المتسرب عن طريق المنتفضين المتواطئين مع الأجانب، كان عليه أن يقوم بتحركات عسكرية في شكل محال سلطانية أو غير سلطانية، تنقلب عادة إلى حملات تأديبية ضد القبائل التي

---

(223) الناصري، (م.س)، ج 8، ص. 148 وما يليها.

(224) انظر EL MANSOUR, Mohamed, **Political and social development in Morocco during the reign of Mawlay Sulayman, 1792-1822**, Ph. D. Université de Londres, 1981.

(225) انظر ص. 63 أعلاه عن أثر الشيعة بحوض إيناون وص. 66 هامش 73 عن استمرار دعوة المهدي بن تومرت بالمنطقة حتى بعد اندثار دولة الموحدين.

(226) الناصري، (م.س)، ج 9، ص ص. 98–99، ومحمد داود، **تاريخ تطوان**، الرباط، (بدون تاريخ)، ج 4، ص ص. 251–252. وابن زيدان، (م.س) ج 3، ص. 400، حيث يذكر أن «خمسة آلاف من المتطوعة أكثرهم من عرب سفيان وبني مالك والحياينة» توجهوا إلى تطوان لمواجهة الإسبان.

ساندت المنتفض، بدل أن تكون هذه الحركات موجهة بكيفية مباشرة، ضد الأجنبي، الرابض على التخوم(227).

كما كان على المخزن أن يصارع المنازعين له في شرعيته كمدافع عن البلاد، والذين اكتسبوا شرعيتهم بالضبط من ترددات المخزن إزاء التغلغل الأجنبي، فانتصبوا للاضطلاع بمهمة الجهاد(228). في هذا السياق، كانت حركات السلطان عبد الرحمن ضد الأمير عبد القادر، وحركة السلطان الحسن ضد الهبري.

وقد آل تعدد حركات الجيش بحوض إيناون إلى تفشي شعور بالقهر والتذمر، يحتمل أن يستغله أول زعيم له القدرة على الإمساك بالآليات المؤثرة في قبائل المنطقة (أشراف، أعيان...) هذا هو السر في تعدد المنتفضين بحوض إيناون ابتداء من 1820(229).

إن تتبعنا المطول لمتغيرات الأحداث بحوض إيناون، فيما استطعنا التوصل إليه، منذ الفترة القديمة حتى القرن 19م، كان يهدف إلى إبراز طابع جوهري ميز هذه المنطقة منذ أغبر العصور، وهو طابع الممر. فقد ظل هذا المنخفض الممتد بين الريف شمالا والأطلس جنوبا، المعبر الضروري للجيوش، لكن أيضا للهجرات السكانية وما يصاحبها من مؤثرات ثقافية، عيشية، دينية، اقتصادية وسياسية.

وإذا ما كانت بعض القبائل التي وقعت دراسة تاريخها مؤخرا، تتميز بانسجام التطور عبر اختمار طويل في بنياتها وحياتها في نفس المجال، من مرحلة التوسع إلى حالة التقلص ثم التفكك(230)، فإن ما يميز قبائل حوض إيناون هو العكس، إذ يبدو، هنا، الانقطاع غالبا على الاستمرار(231). ومن جهة أخرى، ازاء التمايز الواضح في

---

(227) من أمثلة ذلك حركة السلطان الحسن إلى وجدة سنة 1876، انظر فيما بعد.

(228) بعض فقهاء أواخر القرن 19م يحررون الإمام من واجب الجهاد ضد الكافر «إن الجهاد في زماننا ليس بفرض عين وإن قال به الجم من علمائنا»، انظر السملالي، علي السوسي **منتهى النقول ومشتهى العقول**، مخطوط خ. ع.د 633، ص. 86، ويضيف في شأن السلطان الحسن «فصار (...) يلعب مع الرومي الشطرنج ببيادق الحيل». وعلى العكس من ذلك فقد تعددت الفتاوي حيث يقرر الفقهاء منذ القرن 17م، أن محاربة القبائل مقدمة على جهاد الكفار ـ انظر فيما بعد.

(229) بما أن جوانب تاريخ إيناون في القرن 19م سوف تقع العودة إليها، فضلت المرور عليها بشيء من السرعة هنا.

(230) التوفيق، أحمد (م.س)، ص ص. 51-84.

(231) من هذه الوجهة تذكر دراسة حوض إيناون بمنطقة مسالك أخرى، كبيرة الانفتاح هي الجنوب الشرقي. انظر L. MEZZINE، (م.س).

الوحدات التضاريسية الذي سبقت ملاحظته، نلمس تشظّيا بشريا متداخلا فيما بين القبائل عبر هذه الوحدات. إنما ترجع هذه السمات بالأساس إلى وظيفة المعبر التي وقعت معاينتها غير ما مرة، فيما سبق، مما جعل القبائل التي سكنت البلاد المجاورة لنهر إيناون، عبارة عن طبقات سكانية يمكن تشبيهها دون مجازفة بالتطبّق الجيولوجي، وهو ما سنعرض له في فصل لاحق، بعد أن نتم هذا الفصل بالتأكيد على جانب آخر من انتظام حوض إيناون حول وظيفته كمسلك يربط الغرب بالشرق، ونعني الظاهرة الحجية، التي فضلا عن أهميتها الدينية، كانت، وربما بالأساس، ظاهرة اقتصادية واحتفالية.

II ـ انتظام حوض إيناون حول وظيفته كمسلك الدين والتجارة في الموكب الحجي

جدول 5 بعض الرحلات الحجية عبر إيناون

المصدر/الرحلة	تاريخ الذهاب والإياب	مدة التغيب	المسلك بين فاس وتازة	المدة
كتاب رحلة الآس في حجة سيدنا أبي العباس أحمد بن عبد القادر القادري الحسني. توفي سنة 1720/1133 خ.ح.ر. رقم 8787 (مذكور عند ابن سودة ص.81، 368).	20 جمادى2. 1100/ 1 أبريل 1689ـ 5 قعدة 1101/ 10 غشت 1690	16،5 شهرا	الذهاب مطيرة العجوز ـ عين الجنان/بني وريثن. قرن أبي زوف. أبي حلو. جبل غياثة. تازة[232] الإياب. تازة. بوحلو. الكَور. وادي بوجابر.	4 أيـام
رحلة اليوسي إلى الديار المقدسة، محمد بن الحسن اليوسي (توفي 1695/1107) (ا.س، ص.344) ـ خ.ح.2343	14 جمادى2. 1101/ 25 مارس 1690ـ شوال 1102/ يونيو 1691[233]	16 شهرا	الخليج (مطيرة العجوز). الحجر المثقوب (الكَور). عين تودة (بني خليفة) سيدي بونيرّو (تسول) ـ الغرفة (أهل الواد) ـ واد قنضرة (مكناسة)[234].	12 يوما

(232) مسلك غير معتاد، وهو مسلك الجبل الذي وقعت إليه الإشارة فيما سبق. تتبعه أبو العباس، نظرا لشدة المطر الذي أصبح استعمال وادي إيناون، بسببه، مستعصيا. فيما يتعلق بمراحل المسلك، إذا لم يقع تعيين العكس، فإن القائمة المثبتة، تحيل على المحطات بين فاس وتازة في اتجاه الذهاب.

(233) القبلي، فاطمة خليل (تحقيق..) **رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي**، البيضاء، 1981، جزءان، ج 1، ص. 52.

(234) مسلك غير معتاد أيضا، فرضته الأمطار من جهة، وضرورة تجول الشيخ اليوسي عند بعض أصدقائه في المنطقة قبل الرحيل، من جهة أخرى.

المصدر/الرحلة	تاريخ الذهاب والإياب	مدة التغيب	المسلك بين فاس وتازة	المدة
رحلة الفقيه الوزير أبي محمد الشرقي ابن محمد الإسحاقي ت. بعد 1150 / 1737-1738 (ا.س، ص347). خ.ح.ز 11867	25 جمادى2. 1143/ 5 يناير 1731 ـ	ـ	العسال ـ إيناون ـ سبت بوجابر الملاعب/بني مكَارة. تـازة[235]	5 أيـام
بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام عبد المجيد بن علي المنالي الزبادي. توفي 1163/ 1749 (ا.س، ص.182)، خ.ح 10989.	1 رجب 1158 / 1 غشت 1745	ـ	العسال ـ إيناون ـ تازة	4 أيام
الرحلة الصغرى، محمد بن عبد السلام بن ناصر ت. 1823/1239 (ا.س.، ص ص.52، 350) خ.ح. 121[236].	14 جمادى2. 1211/ 3 دجنبر 1796 ـ 27 قعدة 1212/ 13 ماي 1798	17،5 شهرا	قنطرة سبو ـ عوينات الطين الكَور. الوادي (أبو بكر). تـازة.	5 أيـام

ملاحظات حول هذا الجدول

ـ تأثر السفر بشدة بعوامل المناخ تمتد مدة التنقل بين فاس وتازة في الفصل المطير من 5 إلى 12 يوما في حين لا تتجاوز في الفصل الجاف 4 أيام.

ـ طول فترة تغيب الحجاج عن أهلهم ومواطنهم، مما يجعل من هذا الرحيل، مبادرة خطيرة، «داخلها مفقود وخارجها مولود».

(235) هذا هو المسلك المعتاد، عبر وادي إيناون، بالنسبة لركب الحاج.

(236) أعطي بين قوسين صفحات ذكر الرحلة والمؤلف عند عبد السلام بن سودة، **دليل مؤرخ المغرب**، دار الكتاب، الدار البيضاء، طبعة ثانية، 1960، جزءان. أما المجموعة الثانية من الرموز خ.ح.: 121، فهي تحيل على رقم مخطوط الرحلة في الخزانة الحسنية، بالرباط.

ـ كان الركب سنويا، لكن المدة التي يتغيبها كل ركب ينطلق من فاس تقارب السنة والنصف، وغالبا ما يحدث رجوعه في ذي القعدة من السنة الموالية لخروجه(237).

من مظاهر التاريخ الاجتماعي المغربي لما قبل القرن 19م، التي ما تزال في حاجة إلى البحث والتدقيق، ظاهرة الموكب الحجي السنوي(238).

لم يكن «ركب الحاج المغربي» ظاهرة دينية فقط، بل كان أيضا مناسبة لرواج تجاري عبر المناطق التي يمر بها، وفرصة احتفالية للسكان المجاورين لمسلكه. ومن ثم فهو من المظاهر المكثفة للحياة الاجتماعية التي لا يمكن أن يمر حدوثها أو عدم حدوثها في الخفاء أو يكون دون تأثير كما سنعود لتأكيد ذلك بعد قليل.

صحيح أن ما يهم المنطقة المقصودة بالدراسة من الموكب الحجي هي مراحله الأربع أو الخمس الأولى أو النهائية، إذ أن حوض إيناون، الموجود مباشرة إلى شمال شرق فاس، يمثل المراحل الأولى التي يستقبلها ركب الحاج عند مغادرته لفاس، ثم المراحل النهائية التي تتم بها العودة إليها. وبالتالي فلن يهمنا هنا تتبع ركب الحاج بعد اجتيازه لمدينة تازة.

صحيح أيضا أن المعلومات المتوفرة عن ركب الحاج، بل حدوث هذا الركب ذاته على الكيفية التي سوف يتم وصفها فيما يأتي، لم يتجاوز أوائل القرن 19م، وبالتالي فهو سابق عن المقطع الزمني الذي يستأثر باهتمامنا ونعني به النصف الثاني من القرن 19م.

بيد أنه ما دام الأمر يتعلق بإبراز العناصر التي جعلت وظيفة المسلك تستقطب جوانب حياة حوض إيناون، فإنه من الجائز أن نتوقف عند ظاهرة الموكب الحجي، فيما قبل القرن 19م، وذلك بالضبط، لنتفهم حجم الخسارة التي أصابت

---

(237) ركب 1755/1168 الذي لا نتوفر على أوصاف عنه، عاد في قعدة 1169/يوليوز 1756. انظر ابن الحاج، (م.س) ج 9، ص ص. 265-266.

(238) لا نتوفر على دراسة حديثة مستقلة حول الموضوع، منذ أن خصه العلامة محمد المنوني «برسالته» حول **ركب الحاج المغربي**، تطوان، 1953، عدا الإشارات العارضة في الدراسة المشتركة لمحمد مزين ويونان لبيب رزق حول **تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982 ص ص. 31-62، وبالخصوص ص. 34-36. لذلك وجب البدء من البداية والاعتماد على الأصول التي تتمثل هنا في «الرحلات الحجية» أو الحجازية. انظر الجدول أعلاه، وفصل المصادر السابق.

مناطق مسلك الحجاج، عندما تحول اتجاه الموكب من البر إلى البحر ومن الشرق إلى الشمال.

1 ـ ركب الحاج

انطلقت ركاب الحج المغربية منذ أواسط الدولة الموحدية بمبادرة من بعض الصلحاء قبل أن تبسط الدولة المرينية إشرافها على تنظيم وتوجيه الركب الحجي، على عهد يوسف بن يعقوب، أيام كان محاصرا لتلمسان سنة 1304/703[239].

وإذا ما استثنينا بعض الفترات المحدودة التي كان الركب الرسمي ينطلق فيها من مراكش أيام السعديين، فإن ذلك الركب كان يجتمع في فاس قبل تشريقه[240]. وبالرغم من وجود ركاب أخرى تنطلق من المغرب، ونخص بالذكر منها الركب السجلماسي[241]، فإن الركب الفاسي ظل باستمرار أهم الوفود الحجية المغربية، حتى أن تسميته كانت ترادف مجموع الحجاج المغاربة بمصر فيقال بنفس المعنى الركب «المغربي»[242] أو الركب «الفاسي» ذلك أن حجم هذا الركب كان يفوق الركاب الأخرى، لأنه فضلا عن حجاج الشمال، كان يستقطب جموعا من حجاج الجنوب، الذين، قبل توجههم إلى الشرق، كانوا يرغبون في زيارة بعض المزارات المغربية الموجودة بالشمال[243].

ليس بمستطاعنا أن نتوصل بعد ـ إلى أرقام محددة عن عدد الحجاج الذين كانوا يتوجهون سنويا إلى الديار الشرقية. ولا يمكننا أن نتصور أن ركب الحاج كان دائما في مستوى ذلك الركب الذي توجه إلى الشرق بعد وفاة السلطان أبي عنان المريني (1358/760) والذي يشير جواب للفقيه عبد النور بن أحمد العمراني (من

---

(239) المنوني، (م.س)، ص ص. 7ـ9، الناصري، (م.س)، ج 3، ص. 83.

(240) المنوني، (م.س)، ص. 36.

(241) حظي هذا الركب بواصف لامع هو أبو سالم العياشي، **ماء الموائد**، الرباط، 1977، جزءان، «أعظم رحلات أهل المغرب العلمية» ابن سودة، ج 2، ص. 362.
انظر أيضا عبد القادر زمامة «مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى المشرق»، في **المناهل**، الرباط، وزارة الشؤون الثقافية، ع 27، يوليوز 1983، ص ص. 156ـ168.
وقد سبق القلم مؤلفا **تاريخ العلاقات المغربية المصرية**، ص. 34 فاعتبرا أن الركب الفاسي كان هو الركب المغربي الوحيد مع أنهما اعتمدا على رحلة العياشي الذي انطلق ثلاث مرات من سجلماسة.
انظر زمامة (م.س)، ص ص. 159ـ160.

(242) مزين/لبيب رزق، (م.س)، ص. 34.

(243) صاحب **الرحلة الصغرى** المذكورة أعلاه مثال عن ذلك.

معاصري الفترة المعنية)، وارد في **المعيار**، إلى كونه «استفاض في آلاف كثيرة تزيد على العشرين ألفا من رجال وخيل»(244)، إذ أن ظروف انعدام الأمن في الطريق على ذلك العهد، كانت تحتم أن تكون القافلة الحجية كبرى للدفاع عن نفسها(245)، وإن كان من المستبعد أن يكون عددها قد بلغ فعلا ما أشار إليه الفقيه المذكور.

بيد أن المصادر تعدد التعابير التي توحي بأن حجم الموكب الحجي كان يقدر بالآلاف «حجم غفير»، «ركب قل ما تبصر مثله قوة وكثرة»، «فاجتمع من حجاج الآفاق مالا يحويه ديوان ولا يكاد يعده عادّ ولا إنسان»(246) هي الأوصاف التي تحاول أن تعكس حجم الركب الفاسي. ويكفي، لأخذ فكرة عن الأهمية العددية للركب الفاسي، أن نعلم أنه إذا ما اعترضته مصاعب في طريق العودة، مثلما حصل سنة 1746/1159 فإن مجرد حمايته تتطلب ما لا يقل عن 500 فارس دون الراجلين(247). ومما يدل أيضا على الأهمية العددية التي تجعل من الركب قافلة تفرض الاحترام على طول طريقها، أن السلاطين استعملوه باستمرار لإرسال أبنائهم أو بعائثهم الرسمية نحو المشرق(248). وقد سبق J.L. MIEGE أن قدر حجم ركب الحاج بما بين 800 و1200 شخصا(249)، ولعل هذا التقدير مشوب ببعض الإجحاف،

---

(244) الونشريسي، (م.س)، ج 1، ص. 441.

(245) إن مخاطر الطريق والوباء، زيادة على شدة عناء المدة والمسافة، لم تدفع الفقهاء إلى اسقاط وجوب الحج على أهل الأندلس والمغرب، في فتاوي متكررة منذ ابن رشد، فحسب، (انظر الونشريسي، (م.س)، ص ص. 432–442) بل أفرزت أشكالا من التكيف الاجتماعي، برزت في شكل الحج بالنيابة. يورد القادري في **النشر** ج 2، ص. 152 حالة من ذلك «أبو إبراهيم إسحاق بن محمد جعمان (...) كان كثير التردد للحج (...) مع أنه فقير لا مال له، إلا أنه لعلمه وصلاحه، يقصده الناس كثيرا من أهل بلده للاستيجار على الحج» ولا يفهم الاستيجار إلا في سياق المخاوف المشار إليها أعلاه.

(246) على التوالي المنوني (م.س)، ص. 12؛ محمد القادري، ج 2، ص. 208 (نقلا عن رحلة العياشي)، محمد بن ناصر، (م.س)، ص. 31. ويورد المنوني، ص. 16، نموذجا من القصائد الشعبية التي أشادت بكثرة جموع الركب، وهي للشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر بوخريص، والركب هو ركب 1811/1226، نقتطف منها

مَاذَا مَنْ قُومَانْ جَاتْ تْمشِي للحجّ تْخَطْرْ   مَنْ سوسْ ومراكشْ لْفَرَجَ جَاوْ لْخُطَّارْ
وهْلْ الحوْز وكل منْ تهيّاَ وعرَب وبربرْ   وقبايلْ شلاَ نْصيفْها والطُّلْبة لْخْيارْ

(247) انظر: اكنسوس المراكشي، محمد بن محمد، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا السجلماسي**، مخطوط خ. ح. رقم 26. ص. 166، الناصري، (م.س). ج 7، ص. 176.

(248) يعطي المنوني، ص ص. 12–13، لائحة بالمواكب التي استعملت على هذا النحو. ومن المحتمل أن يكون الحج قد لعب دورا سياسيا مهما، مايزال في حاجة إلى الكشف عنه فقد كان عدة مرات الملجأ بالنسبة للمنتفضين الفاشلين، أو المنفى للمغضوب عليهم. انظر حالة اليزيد مع أبيه السلطان محمد بن عبد الله فيما مر.

(249) MIEGE, J. L. **Le Maroc et l'Europe (1830-1894)**, 4 tomes, P.U.F., 1961-63, T. 2, p. 157.

لاعتماد مبيج علي مصادر متأخرة(250) ترجع إلى فترة كانت فيها حركة الحج قد ضعفت منذ الحملة الفرنسية على مصر (1798 – 1801). ولعل المنوني يشير إلى هذا التضاؤل حينما يقول بشأن الحجاج «وتضخم عددهم في دولة الإبل والشراع بقدر ما قلوا في عصر البخار»(251) يبدو إذاً، من الجائز تقدير الموكب الحجي، في عنفوانه، أي إلى أواخر القرن 18م وحتى أوائل القرن 19م، بعدة آلاف(252).

إن هذا العدد الذي يجعل من الركب في نفس الآن، قافلة وجيشا(253)، هو ما يفسر استمرارية خروج الموكب الحجّي من فاس حتى في أحلك ظروف الاضطراب السياسي في القرن 18م(254).

تبارى الواصفون في رسم صور زاهية عن الاحتفال بخروج الركب من فاس. «وكان يخرج من باب الفتوح وينزل في المكان المعروف بولجة العسال على الضفة الشرقية لوادي سبو، ويبرز في هيئة بديعة وشارة حسنة، من الاحتفال ونصب الأخبية المتنوعة (...) هذا إلى قرع الطبول وإظهار الزينة»(255). ووصف الإسحاقي الذي كان يصاحب خناثة بنت بكار أم السلطان عبد الله، في حجتها لسنة 1731/1143، الخروج من فاس على الهيأة التالية «ويوم خروج الحاج يوم موعود ومشهود، قل من يبقى بالمدينة إلا خرج ودب ودرج، الرجال والولدان والأحرار والعبدان فما ترى أعجب من ذلك اليوم»(256).

لا عجب أن تحف بهذا الخروج مخاطر نظرا لشدة الازدحام التي وصفها صاحب **الرحلة الصغرى** «فاجتمع من حجاج الآفاق ما لا يحويه ديوان (...) فخرجنا على باب الفتوح على العادة بعد جهد جهيد ومشقة عظيمة من كثرة الخلق

---

(250) هي أساسا الناصري، (م.س) في ترجمته إلى الفرنسية، و **THOMASSY, R., Le Maroc des Caravanes (1845).**

(251) المنوني، (م.س)، ص. 9.

(252) هو نفس التقدير الذي تعطيه VALENSI, Lucette, **Le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830)**, Flammarion, 1969, p. 59.

(253) من نصائح الرحالة للحجاج المحتملين عدم نسيان البندقية.

«واتخذ يالبيب ءالة حرب ربما عرضت لك الأعداء»

من «الرحلة العامرية»، أوردها المنوني، ص. 91.

(254) الناصري، ج 7، ص. 176، ابن الحاج، ج 8، ص. 319 وج. 9، ص ص. 85–86.

(255) المنوني، (م.س)، ص. 15.

(256) الشرقي الإسحاقي، (م.س)، ص. 27.

وازدحامه حتى هلك بذلك آدميون وضلت رواحل وما عليها من الأثقال والأموال فلا تسمع إلا المنادات من كل فج»(257).

كانت العادة أن يقيم الركب بالقرب من قنطرة سبو «يومين أو ثلاث ريثما يصل العاجز والثقيل الحركة والعظيم المؤنة»(258)، في أول مرحلة بالعسال على الضفة اليمنى لنهر سبو «وهي ولجة مستوية الأرض فسيحة المساحة»(259)، إلى الشمال الغربي من القنطرة. ولعل هذا المقام المعتاد، هو ما حدا ببعض أهل فاس أن يحبسوا أرضا لرعي إبل الحجاج على الضفة اليسرى لنهر سبو(260).

بعدها يشرع الركب في المسير مرحلة مرحلة(261). قد يستغرق عبور حوض إيناون من الركب أربعة أيام، بزيادة يوم عن المسافر العادي، نظرا ولا شك لحجم القافلة. لكن إذا ما كان الجو مطيرا، فإن هذه المدة قد تتضاعف عدة مرات(262). وكان الحجاج يتهيبون من أوحال حوض إيناون في الفصول المطيرة.

ومن الجدير بالملاحظة أن المسلك الرئيسي الذي كانت تتبعه وفود الحجاج، هو الخط الوسطي الذي يوازي نهر إيناون، والذي اعتبر في نهاية القرن 19م من أخطر المسالك سواء من طرف المخزن أو من طرف الرحالة الأجانب(263).

لا شك أن اختيار هذا الخط الوسطي لم يكن مبررا فقط بكونه أيسر طريق إلى تازة من الناحية الطبوغرافية، بل أيضا كان يستجيب لضرورة وظيفية ذاك كان

---

(257) ابن ناصر، (م.س)، ص ص. 31–32.

(258) ن.م، ص. 32.

(259) الشرقي الإسحاقي، (م.س)، ص. 26.

(260) المنوني، (م.س)، ص. 11. وما تزال هذه الأرض تحمل، اليوم، اسم «وطن الحجاج»، انظر الخريطة الطبوغرافية، ورقة «شرق فاس» 1 على 50000.

(261) وصف المسالك الحجية وإعطاء النصائح للحجاج المقبلين، فيما يبدو، هي الأغراض الأساسية من تدوين الرحلات الحجازية التي اتخذت في بعض الأحيان شكل القصيدة الشعرية، ربما ليسهل حفظها، والاستنارة بها عند الاقتضاء. وقد أثبت المنوني منها نموذجا، هي «الرحلة العامرية»، (م.س)، ص ص. 88–104) لمحمد بن الحاج العامري التازي المتوفى سنة 1170/1756–1757 وتسجل هذه القصيدة بتفصيل ما يحتاج إليه الحاج في طريقه، وتعين المراحل المتتالية بين تازة ومكة مع وصف سريع لها.

(262) انظر الجدول السابق، وما مر حول المناخ.

(263) A. EL MOUDDEN (1984)، (م.س) ونلاحظ في خرائط 1 على 50.000 التي وضعت أصولها حوالي 1920، أن جملة من أعلام المواقع خلدت ذكرى عبور الحجاج لهذا الخط الوسطي «شعبة الحجاج»، «كدية الحاج» إلخ – انظر ورقة «شرق فاس» وورقة «مطماطة».

هو الخط الذي يوفر للركب إمكانية المرور بالقرب من أكثر عدد من القبائل، إذ أن إيناون مثل بصفة شبه مستمرة حد التّماس لمجموع القبائل المحيطة به. وفي المرور عبر هذا المسلك الوسطي، في نفس الوقت، فائدة تكثير فرص التبادل مع القبائل المجاورة كما سنراه بعد قليل، لكن فيه أيضا مزية أخرى، وهي إمكانية اجتياز قبائل هذه المناطق، عبر هوامشها مما ييسر إتقاء المواجهة معها.

على أنه ندرت الإشارات، في مصادرنا، إلى تعرض قافلة الحجاج إلى الاعتداء، يعود ذلك ولا شك إلى ما سبق التأكيد عليه من احتماء الموكب الحجي بقدسيته، وعدده، وقدرته على الدفاع عن نفسه بالسلاح إن اقتضاه الأمر(264)، وإنما كان الركب في حاجة إلى كل هذه المستويات من الحماية، لأنه في ذهابه كما في إيابه، كان يرحل «بأحمال» من المواد والسلع التي كانت تثير أطماع السكان المارّ بهم.

2 ـ أهمية الحج التجارية

صحيح أن ركب الحاج لا يمر بحوض إيناون إلا مرتين، ذهابا وإيابا، تفصل بينهما مدة زمانية تقارب السنة والنصف. بيد أن تنظيم الركب كان سنويا كلما لم يكن ما يمنع من ذلك. هكذا، وكما يبرزه الجدول السابق، خرج ركب سنة 1101/1690 ولمّا يعد ركب سنة 1100/1689. بمعنى أن الركاب كانت تتقاطع فيما بينها، باستمرار، في مكان ما، وفي زمان ما، لم نستطع تحديدهما، لعدم تتبعنا لركب الحاج بعد تازة(265). لكنه من المؤكد أن ركبي السنة الواحدة كانا يتقاطعان : الواحد ذاهب والآخر آيب. نستنتج من ذلك، أنه بالنسبة لتواتر مرور الركب الحجي بحوض إيناون يمكن أن يتحدد في مرتين في السنة الركب الذاهب يمر به في أواخر جمادى الثانية أو أوائل رجب من كل سنة في حين يجتازه الوفد الآيب حوالي قعدة من

---

(264) يروى صاحب الدر إحدى تلك الحالات (سنة 1756/1169) فيقول «وفي يوم الجمعة التاسع والعشرين من ذي القعدة نزل الحجاج (في أوبتهم) بقصبة تَمدُرْت، داخل باب الفتوح ولم ينزلوا بقنطرة سبو كما هي العادة، لأن طائفة من البربر والحياينة نهبوا لهم بعض الأحمال (...) وفي يوم الإثنين بعده، خرج أمير الركب محمد عديل مع جماعة من الحجاج، معهم أعلام الركب إلى البربر الذين نهبوا، فردوا لهم ما أخذوه، والحول والقوة لله». ابن الحاج، (م.س)، ج 9، ص ص. 265–266. انظر أيضا مزين/يونان لبيب (م.س)، ص ص. 52–53.

(265) بيد أن «القصيدة العامرية» التي هي مع ذلك دليل بمراحل المسلك الحجي، لا تشير إلى مكان تلتقي فيه الركاب، عدا ما قد نستنتجه من طول مقام ركب الذهاب في القاهرة. ثم إن هذه الرحلة لم تعين مراحل العودة، بل توقفت في القدس، بعد أن وصفت ما بين مصر ومكة من مراحل.

كل سنة. وهذا تواتر هام للقافلة الحجية في بعدها التجاري، يبرر وقوفنا عند الظاهرة الحجية كقناة تجارية، إذ أن القوافل التجارية الصرف لم تكن من التعدد بما يسمح بعدم اعتبار القافلتين الحجيتين، سيما وهي على الكثرة التي وقعت الإشارة إليها سابقا.

يمكن التأكيد، اعتمادا على تقاطع ما ورد في مجموعة من «القوائم الحسابية» المخزنية، ترجع إلى العهد المتأخر من حكم السلطان محمد بن عبد الرحمن، أن تردد القوافل التجارية، بين فاس ووجدة، على الأقل في حدود ما عثرنا عليه لحد الآن من وثائق، كان بنسبة قافلة تجارية في كل شهرين تقريبا(266). بذلك، تكون أهمية القوافل التجارية الحجية، وبغض النظر عن حجمها الأكبر(267)، تضاهي على الأقل من سدس إلى ثلث النشاط التجاري العادي عبر حوض إيناون وهي نسبة لا يستهان بها، وتبرر أن نقف عند نوع التجارة التي يتعاطاها الحجاج أثناء تشريقهم ثم خلال تغريبهم.

لم يتحرج الذين دونوا رحلاتهم من الحديث عن نشاطهم التجاري خلال سفرهم(268)، بالرغم من أنف بعضهم من ذكر التجارة وما يتعلق بها(269). فقد

---

(266) مجموعة من «القوائم الحسابية»، محفوظة خ.ح.ر. سوف نعود للاستفادة منها فيما يأتي. ويبدو من الأرقام التي يوردها J.L. MIEGE، (م.س)، ج. 2، ص. 158 أن التواتر المشار إليه، سار نحو الانخفاض بكيفية حثيثة بعد 1830. يشير إلى أن عدد القوافل بين فاس ووجدة، فيما بين 1833 و1841 كان من 10 إلى 12 قافلة في السنة، قوام كل منها 30 إلى 40 من الإبل. وبالرغم من كون هذا التواتر المرتفع نسبيا في هذه الحقبة (قافلة في الشهر) قد تكون استدعته سياسة السلطان عبد الرحمن إزاء الأمير عبد القادر، وكانت ما تزال إلى غاية هذه السنة (1841) في اتجاه الدعم، بالرغم من ذلك، فإن الانخفاض المذكور لا يمكن تأويله إلا كتقلص ناتج عن مضايقة الاحتلال الفرنسي للجزائر لهذا الخط التجاري.

(267) تعتبر L. VALENSI (م.س)، ص. 59، أن قافلة الحجاج كانت أهم القوافل التجارية على الإطلاق في المغرب الكبير لما قبل 1830.

(268) ألا يروى عن النبي أنه قال «تسعة أعشار الرزق التجارة»؟ من «أجوبة في شأن قبيلة الحياينة» مخطوط خ.ع.ر. رقم ك 3270. هذا ما يفسر أن أحكام قاطع الطريق من أقسى الأحكام في الإسلام.

(269) هكذا نجد العامري المتقدم ينصح الحاج

لا تكلف بسلعة إن فيها ... خطرا وهي محنة وبلاء
بل دنانير جيد من نضار ... في حزامك حبذا الرفقاء

ورد في المنوني، (م.س)، ص. 91.

ويؤكد أبو سالم العياشي، في رحلته «لا شغل هنا (في الركب) إلا مدارسة القرءان ومذاكرة الإخوان في علم الأديان. نختم كل ليلة ختمة من القرءان في خبائنا دون الحزب الراتب» لكن هذا لا يمنعه من

وصف الرحالة الأسواق التي تقام على امتداد الطريق التي يسلكها الحجاج ذهابا وإيابا. يقول صاحب **الرحلة الصغرى** «فبتنا في عوينات الطين، ثم منها للكَور، وقامت فيه مع الحياينة وأولاد جامع وغيرهم سوق عظيمة فيما يحتاج المسافر من إبل وغيرها ثم منه للوادي بإزاء قبة لمنسوب هناك يدعى أبا بكر وقامت به سوق مع قبائل شتى أعظم من الذي قبله»(270).

أما أثناء العودة، فإن خير وصف لتجارة الحجيج نجده لدى صاحب كتاب **رحلة الآس** «ووجدنا هنالك(271) أعرابا كثيرة (...) فملئوا الركب غنما وسمنا وشعيرا وجلود بقر الوحش وغير ذلك مما عندهم حتى أني رأيت رجلا من أصحابنا اشترى بقطعة من شملة خلقة ما ينيف على العشرين رطلا من السمن وبعضهم أعطى فويطة لا تساوي أوقيتين أخذ بها كبشين. ولقد اشتريت جلد بقرة الوحش من امرأة بطرف خلق من الكتان مقدار ما يستر رأس الإنسان. وكان ذلك اليوم عند الحجاج من كثرة ما ذبحوا من الغنم كأنه عيد الأضحى (...) وسارت معنا دولة كبيرة من الغنم للحجاج فضلت لهم عن ما (كذا) ذبحوا فجعلوا لها رعاة من صعاليك الركب، يسوقونها لهم بالأجرة»(272).

تدل النصوص السالفة على مدى الحيوية التي قد تطبع الأسواق المرتجلة التي تنعقد بمناسبة مرور ركب الحجاج. وقد اعتاد مدونو الرحلات الحجازية توجيه النصائح الثمينة للحجاج اللاحقين، حول البضائع الرائجة على مدى الطريق الحجي. خير نموذج عن ذلك نستقيه من رحلة وصفت الركب السجلماسي، ولكن فحواها يظل صالحا أيضا بالنسبة لمرافق الركب الفاسي «ولك أن تصرف دراهمك بالذهب فإنه هناك (يقصد سجلماسة) أرخص تبرا ومسكوكا مما استقبلته إلى بلاد المشرق، وفيه فائدتان يروج في كل بلد أمامك وتصيب به غرضك حيث كنت وكيف شئت بخلاف هذه الدراهم الإسماعيلية فرواجها في عمالة الغرب، فإذا خرجت منها

تسجيل أنه من بين الفئات المساهمة في الركب «أهل البيوتات من الناس ذوي المروءات وأهل الحفاظ من تجار وفقهاء ورؤساء العشائر..» ولتقديم التجار على الفقهاء في النص، بعض الدلالة فيما نحن بصدده، انظر محمد القادري، (م.س)، ج 2، ص. 208.

(270) بن ناصر، (م.س)، ص. 33. انظر الخريطة فيما يتعلق بالمواقع المشار إليها في النصوص.

(271) يتعلق الأمر ببني لغواط، جنوب الأطلس الصحراوي بالجزائر، لكن من الجائز أن نعتبر تعاملهم مع الحجاج العائدين شبيها بتعامل الحياينة أو غيرهم من قبائل المسلك.

(272) أحمد بن عبد القادر الحسني، (م.س)، غير مرقم الصفحات، 10 ما قبل الأخير، و. وظ.

فلا تروج إلا ببخس. والفائدة الثانية أنك إذا صرفتها ذهبا تبرا كان أو مسكوكا خف عليك حمله، تشده على بطنك وتعلقه على جنبك فلا يثقلك إذ من أهم الأمور أن تصاحب نفقتك (...) ولك أيضا أن تشتري من العطرية الكحل والشب والكبريت والمشط والمرءات (كذا) والجلود المدبوغة الحمر والصفر والنعال فإنك ستلقى العرب رجالا ونساء يسألونك عن ذلك ومعهم اللحم والخضر والفواكه والسمن واللبن وغير ذلك يدفعونه في العطرية ولا تنال غرضك منهم إلا بها»(273).

وفي «الرحلة العامرية»(274) السالفة الذكر، يرشد الناظم الحاج الجديد إلى التزود بشِكّة كاملة من الأثاث والأواني والمواد المختلفة التي تشكل رحلا حقيقيا، لا يمكن أن يكون كله موجها لأغراض الحاج الاستهلاكية، بل لا بد أن يصرف منه جزءاً أثناء طريقه الطويل بواسطة المقايضة(275).

يمكن أن نستخلص من كل ما سلف، عناصر المواد التي كانت التجارة الحجية تروجها على طول المسالك إلى المشرق أو منه.

كانت البوابيج، وسائر المنتوجات الجلدية، ثم الثياب الصوفية (الحَيْك)، أهم ما ينقله أهل فاس في اتجاه الشرق، بالإضافة إلى المواد الصحراوية، الذهب تبرا أو مسكوكا، والعاج وريش النعام، وهذه مواد كانت تروج بالأحزى في الطريق، في الولايات العثمانية (من الجزائر حتى مصر والشام)(276) ثم شتى أنواع العقاقير وبعض المواد القليلة القيمة (مشط، مرءاة...) التي تستعمل في المقايضة مع أعراب السبيل للحصول على الزاد الطري(277).

---

(273) الحضيكي، محمد بن أحمد (ت. 1189/1775–1776) **رحلة الشيخ محمد بن أحمد الحضيكي** مخطوط خ.ح.ر. رقم ز 12373 (مجموع تحتل منه الرحلة ص ص. 65–127)، ص. 77. وبنفس المناسبة التي نطلع فيها على المواد المروجة في الطريق، نلاحظ أن لفظة «العطرية» لا تعني في أواخر القرن 18م، التوابل (كما هو الشأن اليوم بنواحي فاس) بقدر ما كانت تدل على كل ما يدعى اليوم بـ «العقاقير»، مع الإشارة إلى أن الانتقال من «عقور» إلى «عطور» في مستوى النطق سهل للغاية.

(274) في المنوني، (م.س)، ص ص. 90–91.

(275) بيد أنه من الملحوظ، إلى يومنا هذا، وبالرغم من غزو الاقتصاد النقدي لسائر الأراضي مقدسة كانت أم لا، أن الحجاج يتزودون إلى أقصى حد قبل الرحيل، فأحرى في تلك القرون حيث السفر خارجه ليس كداخله.

(276) انظر، J.L. MIEGE، (م.س) ج 2، ص. 156.

(277) الحضيكي، النص المثبت أعلاه.

أما في اتجاه المغرب فإن المواد التي يحملها الحجاج، هي تلك التي تخف موازينها وترتفع أسعارها. مثل الثياب النفيسة حرير حلب، منسوجات الهند، أنواع من العطور، والبن اليمني، ثم المخطوطات فضلا عن عبيد الحبشة وبورنو الذين يسهل اقتناؤهم على طريق العودة(278).

وقد كانت التجارة تثمر أرباحا مهمة بالنسبة للحجاج، قدرها MIEGE في حدود 30%، بالنسبة للبضائع المروجة في خط الإياب فقط(279)، واعتبرت VALENSI(280) أنها تساوي رأسمال الحاج عند انطلاقه، أي أن أرباحه بين الذهاب والإياب تساوي 100% بالقياس لرأسماله الأصلي(281).

وقد أوردت النصوص التاريخية بعض النماذج من أشخاص اغتنوا من المتاجرة في طريق الحج منهم

ـ «ادريس اصفايرة [الذي] قدم سلفه من الصفرة أحد حصون خيبر، والقادم كان يرعى الإبل في الطريق لبعض الحجاج (...) ثم اكتسب شيئا من المواشي (...) ثم باع مواشيه وجمع أولاده ودخلوا إلى فاس (...) فاتسع ذات أيديهم وصاروا تجارا (...)»(282).

ـ هناك نموذج أكثر دلالة يتجسد في شيوخ أو أمراء الركب(283). ومن تتبع أنساب أمراء الحج، يسهل استنتاج أن هذه الوظيفة، إن كانت في العهود السابقة توكل إلى فقهاء أو صلحاء (يحليهم المنوني بـ «الشيخ» منهم «الشيخ الحاج الراوية المكثر أبو الحجاج يوسف بن الحسن بن أبي بكر التسولي الورتناجي، من أشياخ السراج»)، فإنها ما لبثت أن سقطت بين أيدي البيوتات الشهيرة في التجارة الفاسية،

(278) J. L. MIEGE، (م.س)، ج 2، ص. 157.

(279) ن.م. ج 2، ص. 151، هامش 1.

(280) L. VALENSI، (م.س)، ص. 60.

(281) لا عجب في ذلك، إذ التجارة الحجية ككل تجارة بعيدة المدى، ما قبل رأسمالية، كانت تجد في هذه الأرباح العالية تعويضا عن الأخطار الجسيمة التي يتعرض لها التاجر نظرا لبعد المسافة 10 000 كلم (VALENSI) وما يتخللها من احتمالات اعتداءات، وأوبئة وكوارث طبيعية، ثم ما تقتضيه من طول المدة سنة ونصف.

(282) محمد القادري، (م.س)، ج 2، ص. 216، هامش 10. والقصة تعود إلى أوائل الفترة السعدية.

(283) توجد لائحة بسبعة وعشرين أميرا منهم، فيما بين 1305/704 و1811/1226 عند المنوني، (م.س)، ص ص. 30-32.

دون أن نستطيع تحديد أسبقية التأثير المتبادل بين كون الثراء أدى إلى شغل الوظيفة أم العكس. مهما يكن، فمنذ 1699/1110، تداولت الأسر التجارية الكبرى على هذه الوظيفة في شكل توارثي أحيانا كما حصل أيام أسرة عديل في القرن 18م ثم أسرة ابن جلون في أوائل القرن 19م.

وقد نال آخر أمراء الركب، الطالب بن جلون (توفي بعد 1844/1260) من الثروة والجاه ما جعله يعيش عيشة الأمراء، يمدحه الشعراء ويصفونه بالأوصاف الزاهية(284) ويلعب الأدوار الخطيرة في الأحداث السياسية الكبرى(285) وقد جاء وصف ثروته على لسان أكنسوس «كان ركنا شديدا من أركان الدولة (...) وكان له أموال لا تحصى، وتجارات منتشرة في آفاق الدنيا برّا وبحرا، في السودان ومصر والشام، وبلاد أجناس النصارى. وفي كل بلد وإقليم له شركاء وعمال (...) وله الأصول الكثيرة لأنه كاد يملك نصف أملاك فاس من رباع وعقار»(286).

بالرغم مما قد يشوب وصف أكنسوس من مبالغة، ربما لا يكون استدعاها، أحيانا، أكثر من ضرورة القافية في نص مسجوع، فإنه من الجائز تصديقه فيما يتعلق بامتدادات التجارة التي كان يتحكم فيها الطالب بن جلون إلى ثلاث قارات، وفيما يتعلق أيضا، بمحصلة تلك التجارة على الصعيد المحلي، والتي ظهرت في شكل تأثل العقارات والرباع في مدينة فاس والضاحية.

بيد أن اكنسوس يضيف بسرعة في شأن تلك الممتلكات المحلية «وجل ذلك حازه السلطان في مقابلة ما في ذمته من متاع المخزن لأنه كان يخوض في مال السلطان طولا وعرضا»(287).

---

(284) المنوني، (م.س)، ص. 32.

(285) الناصري، (م.س)، ج 8، ص ص. 149-150، حيث اضطلع بدور حاسم (التزويد بالمال) في بيعة إبراهيم بن اليزيد (1820) وهو الذي توسط بين الودايا وس. عبد الرحمن (1831) وهو أيضا الذي كان يقوم بدور الوسيط بين السلطان والأمير عبد القادر (1843)، انظر نفس المصدر، ج 9، ص ص. 37-44.

(286) اكنسوس، (م.س) (نسخة خ.ح.ر.)، ص. 342.

(287) ن.م.، سياسة المصادرة هاته، كان السلطان يسلكها مع خدامه، أعضاء المخزن أكثر مما كان يمارسها على التجار. لكن هذا النموذج يبين أن هؤلاء أيضا، خاصة إذا كانوا في نقطة التقاطع بين الوظيفة المخزنية والنشاط التجاري، وهي حالة الطالب بن جلون، لم يكونوا بمأمن من عواقب تلك السياسة.

ذلك أن السلاطين كانوا يتشوفون إلى ما يتأثله تجار الحج من أموال طائلة، خاصة حينما تنفد ذات يدهم. وتروي نسخ **النشر** بما لا يدع مجالا للشك، حالات من تطلع السلاطين إلى أموال تجار الركب، أهمها ما تحكيه عن السلطان عبد الله بعد أن عادت أمه من الحج «وأعلمته بما عاينته وبهر عقلها من أموال التجار وأحوالهم» أثناء حجتها «فأغرته بقبض تجار أهل فاس (...) وحرضته على أخذهم ونهبهم»[288].

إذا كانت النماذج السالفة توضح بما فيه الكفاية، مدى استفادة التجار من التجارة الحجية، فإنه من اللازم التساؤل عما هو وقْع هذه التجارة على الحياة المحلية.

من البديهي أن المدينة كانت تستفيد من هذه التجارة تصديرا واستيرادا. ويكفي أن يكون بمقدور التجارة الحجية أن تؤثر على الأسعار نحو الانخفاض أيام المسغبة، لنتصور مدى أهميتها بالنسبة لسكان المدينة[289].

بيد أنه يحق لنا أن نتشكك في أن تكون القبائل المجاورة لمسلك الحجاج كانت تجني نفس الفوائد التي استدرتها المدينة من تجارتهم. لدينا شواهد متعددة على ذلك.

أولها أن تلك البوادي لم تكن مصبا ولا منبعا لهذه التجارة بقدر ما كانت مجازا لها، سيما في وقت الشدة كما هو الأمر في الحالة السالفة. وقد أشارت الرحلات، بوضوح، إلى أن الأسواق التي تقوم مع القبائل لا تعدو مقايضة محدودة أو في أبلغ الأحوال، اقتناء الزاد والمركوب[290]، بل إن تلك المقايضة نفسها كانت تتم في شروط لا متكافئة صارخة، فاجأت الحجاج أنفسهم. ونص **كتاب رحلة الآس** الوارد فيما سبق صريح في هذا الشأن بما لا يحتاج إلى مزيد تعليق[291].

(288) محمد القادري، طبعة سيكَار (1978)، ص ص. 36–37، بتصرف في ترتيب النص. يضيف القادري أن تلك كانت من المحن التي أصابت تجار فاس «وفتنوا بذلك غاية الفتنة». هل هذا النوع من الممارسة، هو السر في استمرار هجانة البرجوازية التجارية الفاسية، وتبعيتها للمخزن إلى غاية الحماية، بل وما بعدها ؟

(289) ابن الحاج، (م.س)، ج 8، ص. 319 «ولما أتى ركب الحاج من طرابلس أتى معه بالقمح الكثير وانحط السعر» وكان قد بلغ في تلك السنة (1150/1737–1738) «مائة مثقال للوسق بعد أن كان في الرخاء بخمسين».

(290) الحضيكي (م.س)، ص. 77. بن ناصر، (م.س)، ص. 32، لبيب رزق/مزين، ص. 36.

(291) النص، ص. 124 أعلاه.

هل هذا الطابع «الخارجي» (extraverti)[292] الذي كان يميز التجارة الحجية، كان يخامر شعور أولائك اللصوص الذين كانوا يختلسون في دموس الليل البارد ما استطاعوا إليه سبيلا من أمتعة ركب الحجاج، في مبيته إلى الشرق من تازة؟[293] مهما يكن، فإن مثل هذه الوقائع تؤكد «خارجية» التجارة الحجية.

بيد أنه سبقت الإشارة إلى ندرة تعرض الحجاج للاعتداء الجماعي المنظم[294]، للعوامل التي وقع الالماع إليها (قدسية، عدد، مقدرة قتالية...)، إذ أنها كانت «تجارة دينية» تحظى بالهيبة والاحترام، وهو ما لم يكن ليتوفر للتجارة العادية. بل إن ما تؤكد عليه جل المصادر هو بالعكس الطابع الاحتفالي الذي يميز مسيرة الركب عبر حوض إيناون، حتى في أكثر الفترات اضطرابا.

3 ـ احتفالية الموكب الحجي

سبقت الإشارة إلى ما أولته المصادر من اهتمام بخروج الركب من باب الفتوح، وإذا كان لا يخفى أن الاحتفال بهذا الشكل لا يستمر، لأنه بعد مرحلة العسال يصبح على الركب أن يفكر في الجد في المسير لطي المراحل أكثر مما يفكر في الاحتفال، فإن الهالة القدسية التي تصاحب الركب كانت تجعل من مروره بالقبائل المجاورة لمسلكه، مناسبة احتفالية، أكدت عليها جل الرحلات المدونة[295].

لقد كان ركب الحجاج يحظى بالعناية من طرف قبائل إيناون أثناء ذهابه، خاصة إذا ما ضم صلحاء مرموقين أو شخصيات مخزنية، حيث قد تتخذ الاحتفالية، طابع الحركة المهيأة من طرف الممثلين المخزنيين المحليين، من شيوخ وقواد. فلما تحرك

(292) طابع التجارة «الخارجي»، سوف نعود لمعاينته بصفة عامة في التجارة عبر حوض إيناون.

(293) ابن ناصر، (م.س)، ص. 35 «ونزل علينا بالليل مطر وابل ورياح عاصفة (...) في ليلة اشتد الهول فيها، فكدنا نعاين الموت (...) ليلة لا يهم العاقل فيها إلا اللجاء (كذا) إلى الله والجاهل همته دنياه وبهائمه وبضاعته وأعظم من ذلك ما وقع بنا من السرقات، وبات الناس عسّاس ارْعَ بَالَك (كذا) وسرق من تقدم هنا».

(294) عن حالات الاعتداء النادرة انظر ابن الحاج، (م.س) ج 9، ص. 85، 265، ويبدو أن الاعتداءات المنظمة الجماعية التي كانت تهدد وفد الحجيج كانت تبتدىء إلى الشرق من القاهرة، حيث يصبح الموت أو فقدان الأمتعة أمراً وارداً.
انظر لبيب رزق/مزين، (م.س)، ص ص. 51–53.

(295) من المثير للانتباه مثلا أن عددا من القرى القريبة من المسلك (ورقة مطماطة 1 على 000 50 شمال ايناون) تتسمى «بدوار الحاج..» أو «دوار أولاد الحاج»... في حين تندثر مثل هذه التسميات كلما ابتعدنا شمالا أو جنوبا.

الركب الذي كانت به خناثة بنت بكار أم س. عبد الله تلقاها أشياخ الحياينة «بالهدايا والضيافات والعلوفات والمؤونات»(296)، على نهر إيناون.

بيد أن الاحتفاء بالركب الحجي يبدو أكثر وضوحا وقت عودته، لِما يكون قد زاره من أماكن مقدسة، وصحبه معه من بركة. ولا أدل على شدة الاحتفاء بمقدم الموكب الحجي من الحالة التي يوردها صاحب كتاب **رحلة الآس** فقد بعث الباشا منصور بن الرامي، أمير تازة، عيونه تترصد أوبة ركب 1100-1101 / 1689-1690 «وأمرهم بالتفرق على الطرقات الممرور عليها لمدينة فاس ليأتوه بخبر سيدنا العباس، وحلف لهم بأغلظ يمين، إن هو جاز قبل رؤيته، حتى يمثل بهم فسعفه القدر في مرغوبه (...) وأتوه بخبره فلقي سيدنا مع جماعة من كتابه والمعتبرين من أصحابه»(297).

وكانت مظاهر تبجيل الموكب أوضح بعد ذلك لدى قبائل إيناون. «فوصلوا وادي بوحلوا فباتوا به ومن الغد رحلوا وساروا فكان أهل تلك النواحي يتلقونهم أفواجا ويتعرض لهم أعرابها للسلام والضيافة وهم من كل حدب ينسلون»(298).

قد نقول إن هذا الإفراط في الاحترام، إنما مرده إلى وجود الصالح المذكور بالموكب، إذ كان صيته يسبقه (انظر حالة أمير تازة)، بيد أن احتفال سكان إيناون بعودة الحجاج تبدو وبجلاء في حالات أخرى، وإن كان ذلك بدرجة أقل.

ولعل أصدق صورة عن ذلك، إقبالهم بلهف على المقايضة مع الحجاج في الشروط المجحفة السابقة الذكر(299). وقد تكون تلك الأسواق الاحتفالية المرتجلة هي المناسبات التي حذر الحضيكي من التعامل فيها مع نساء الأعراب اللائي، حسب قوله، وليس ثمة مدعاة للشك فيه، «لا حياء في وجوههن، إذا خرجن للقاء الحاج يتبرجن بزينتهن ويفرحن بلقائهم»(300).

(296) الشرقي الإسحاقي، (م.س)، ص. 30.

(297) أحمد بن عبد القادر القادري، (م.س)، و6 و. و ظ. ما قبل الأخير. «وسيدنا العباس» المذكور هو «أبو العباس أحمد بن محمد الشهير بابن عبد الله نزيل المخفية»، ورقة 2 و. من الرحلة.

(298) ن.م. ورقة 5 و. ما قبل الأخير، ويتحدث الرحالة أيضا عن بعض الأعراب الذين يحلفون بالطلاق إلا أن يكرموا وفادة الصالح المذكور ويتبركوا به.

(299) وما زالت المواد التي يجلبها الحاج تعتبر إلى اليوم ذات بركة خاصة، مما يمنع من التفكير فيها بمنطق السلع العادية.

(300) الحضيكي، (م.س)، ص. 77

تحدونا النماذج السالفة على اعتبار أيام مرور الموكب الحجي بين ظهران القبائل، بمثابة الفرجة التي تغير عادية الأيام، ومن ثم تبرّج النساء للمناسبة.

قد نجد عنصرا إضافيا لتفسير هذا الاحتفاء، فضلا عما وقعت معاينته سالفا، من هالة القدسية، في كون حدوث مرور الموكب الحجي سواء ذهابا أو إيابا، يحصل في فترات تتوسط المدة الزمنية الفاصلة بين عيدين. فخروج الموكب الذاهب يحدث كما لاحظناه في أواخر جمادى 2، أي بما ينيف بقليل عن ثلاثة أشهر بعد عيد المولد، وبما يسبق بأكثر بقليل من ثلاثة أشهر عيد الفطر. أما عودة الموكب الآيب، فإنها تحصل عادة حوالي أواسط قعدة من كل عام، أي بالتقريب، في نقطة متوسطة فيما بين عيد الفطر وعيد الأضحى. قد لا نبالغ إذاً، إذا ما اعتبرنا أن السكان المجاورين للمسلك كانوا يترقبون مرور الموكب الحجي[301].

وقفنا عند مظاهر الموكب الحجي وتفاعله مع حوض إيناون بشيء من الإسهاب، لأن حديثنا عن ركب الحاج البري هو في واقع الأمر حديث عن ظاهرة غائبة في القرن 19م. إنما كان الإسهاب بقصد إبراز عمق الخسارة وحجم الغائب، إذ كان الركب قد أصبح بحريا.

بدأت ظاهرة الحج عبر الطريق البحري، انطلاقا من تطوان، منذ أواخر القرن 17م. لكن الركب البحري لم يستطع، مع ذلك، نسخ الركاب الأخرى خلال ما يفوق القرن وثلثيه (بين 1684/1096) و 1848/1265[302]، ولم يصبح ذلك ممكنا إلا لما أرست فرنسا دعائم قوتها بالجزائر، فقطعت بذلك التيارات الأفقية الطبيعية (غرب ـ شرق) التي كانت تعبر حوض إيناون، وأصبح على التيارات،

(301) من له خبرة بسيطة بحياة البادية، يعلم مدى الفرح الذي يحدثه صوت «العطار»، (التاجر الصغير المتجول في البوادي)، في الهدوء اليومي الرتيب، سيما بالنسبة للأطفال والنساء، فما أدراك بالموكب الحجي الذي قد يحمل معه أشياء وأخبارا. ألم يثنِ العربي الدرقاوي المتوفى سنة 1823/1239 اثنين من مريديه، من ناحية تازة، جاءا لزيارته وهو بجبال غمارة، عن الدخول إلى فاس لقضاء بعض أوطارهما، معللا موقفه هكذا «هذا وقت الحاج وقد عزم على السفر وطريقه عليكم وعنده سْطِيلَات وقْمِيقْمَات وقْدِيرَات وغير ذلك، ومنه اقضيا».. **انظر رسائل العربي الدرقاوي** مخطوط خ.ع.ر. ك. 3095، ص. 145، وتشير VALENSI (م.س)، ص. 91، إلى أن الحج سواء في ذاته أو عبر الركب الحجي بمثابة ربط لحياة المجموعات المعزولة (القبائل) بمنظومة ثقافية أشمل، هي الأمة الإسلامية.

(302) المنوني، (م.س)، ص ص. 40–41.

بالضرورة، أن تتحول إلى الشمال، بما فيها، حركة الركب الحجي(303). فوجدت منطقة إيناون نفسها، ضمن ما يلي فاس شرقا بصفة عامة، مدفوعة إلى مزيد من التهميش في وضعها كطرف للدولة.

إن حديثا مطولا حول تقلبات التاريخ في منطقة كحوض إيناون، ثم التعرض لظاهرة كانت تخترقه سنويا قبل أن يفطم عنها، قد أظهر مدى ارتباط هذا الحوض بالوظيفة التي أهلته الطبيعة لأن يضطلع بها، وهي وظيفة المسلك الضروري بين الغرب والشرق. وقد خلف اضطلاعه بهذه الوظيفة، بصماته على شتى مناحي حياته ولاسيما في تلاحق المجموعات البشرية المتساكنة والمتصارعة فيه: آن لنا إذاً، بعد أن التقينا بها عرضا عبر التقلبات الماضية، أن نتعرف على تلك المجموعات عن كثب.

---

(303) لاحظ J. L. MIEGE، (م.س)، ج 2، ص. 155، هامش 5، أن عدد البواخر الخارجة من طنجة قفز من 2 إلى 20 بين سنتي 1834 و1835. والسياق التاريخي لهذه القفزة لا يحتاج إلى تذكير.

الفصل الثالث

التشكل القبلي والحياة اليومية عند قبائل إيناون

التقينا في معرض حديثنا عما عرفه إيناون من تقلبات خلال تاريخه، بجملة من أسماء قبائل أو مجموعات قبلية من أمثال صدينة، بني مكود، غياثة سدراتة إلخ... ولم يكن القصد وقتئذ التعرف عليها في حد ذاتها بقدر ما كان الاقتراب مما انخرطت فيه من تيارات عامة عبر حوض إيناون. والتقينا أيضا بظاهرة هامة هي ظهور قبائل معينة (الحياينة، بني وراين)، واختفاء أخرى (بني مكود، بني وريثن) في فترات محددة. آن لنا إذاً، أن نقف بكيفية خاصة عند التشكل القبلي بحوض إيناون، محاولين تتبع مراحل هذا التشكل الكبرى، ثم أن نطلع عن كثب على ما يشطر مجموعة قبائل إيناون وعلى ما يجمع فيما بينها.

سوف يتمحور هذا الفصل إذاً، حول النقط التالية

I ـ اعتبارات عامة نتبين من خلالها جوانب الاستمرار والانقطاع في التشكل القبلي، وذاك ما سيقودنا إلى استعارة القاموس الجيولوجي للحديث عن تطبّق سكاني حقيقي.

II ـ مقاربة اقتصادية واجتماعية للقبائل الأساسية حسب أقدميتها بالمنطقة : نعتمد فيها على نماذج تمثيلية غياثة، الحياينة، ثم بني وراين. وإذا كانت دراسة هذه القبائل كل على حدة، تتبرر بما سوف نلمسه من صراعات فيما بينها، فإن تلك الصراعات لم تمنع قط، جل قبائل إيناون من اشتراك عدد من السمات، وذاك ما سوف نتعرض له في النقطة الأخيرة.

III ـ القواسم المشتركة في حياة قبائل إيناون اليومية.

I – اعتبارات عامة   الاستمرار والانقطاع في التشكل القبلي

إن من يهتم بتاريخ أو اجتماعيات المجتمع القروي المغربي، اليوم، لا بد وأن يصطدم، أثناء أبحاثه، بلفظة يستعصي الإمساك بمضمونها الدقيق، أو استعمالها بدون سابق نقد، ألا وهي لفظة القبيلة(1).

ويرجع هذا الاستعصاء أساسا إلى تعدد حمولات اللفظة وكثرة طبقات معناها.

وثمة أربع طبقات من اللبس في رأينا، تكتنف استعمال مفهوم القبيلة، وجب التعرض لها قبل الحديث عن تشكل المجموعة القبلية بحوض إيناون. يتعلق مستويان من ذلك اللبس بالخطاب السائد حول القبيلة في حين يتصل المستويان الآخران بواقع التشكيلة القبلية.

1 – العقبة الأولى التي تصدم الباحث في تاريخ القبائل، هي قلة ما كتب عنها بصفة مخصصة. على العكس من الدول والحواضر، والزوايا والأسر والأنساب الخاصة، فإن ما خصصته الثقافة المكتوبة التقليدية للقبيلة يلتقي به الدارس، عرضا، بصدد اهتمامات أخرى. وإذا كانت هذه الملاحظة لا تطال بعض الفترات التي حظيت ببعض الملاحظين البارزين، مثلما هو الأمر بالنسبة لتحركات القبائل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، والتي سجلها ابن خلدون، فإنه من بليغ الدلالة أن تكون المؤلفات التي ينتظر منها أن تفيدنا بمعلومات دقيقة عن القبائل، وهي مؤلفات الأنساب، غارقة في هالة أسطورية، يهمها التشجر النسبي، الوهمي في معظم الأحيان، أكثر مما تهتم بوصف الواقع العيني(2).

للتوصل إلى معلومات حول القبائل في فترة ما، على الدارس أن يتصيد الشوارد في المصنفات ذات التنوع الشديد. نود مثلا أن نعرف شيئا عن مجموعة هوارة ؟ سوف يكون من باب السذاجة الابتدائية أن نبحث في فهرسة العناوين عن كتب

---

(1) حول مفهوم القبيلة، أنظر GODELIER, Maurice, «Le concept de tribu» in **Horizon, trajets marxistes en anthropologie**, Nlle éd. Maspéro, 1977; T. 1, pp. 188-235.

(2) لنا عن ذلك نموذج في الفاسي، عبد الرحمن بن عبد القادر (توفي 1096هـ/1684–1685) : **الأقنوم في مبادىء العلوم** في جزئين، مخطوط خ.ع.ر. D90. ومن المؤسف أن تتسم كتب حديثة جدا بنفس الطابع. انظر: مصطفى أبو ضيف أحمد **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، خلال عصري الموحدين وبني مرين (524–876هـ/1130–1472م)**، دار النشر المغربية، البيضاء، 1982، مثال عن نقل عصري لمصادر تقليدية.

تحمل هذا العنوان ! لكننا، صدفة، ونحن نقرأ ما صنفه أحد مريدي الزاوية الوزانية، وهو عبد السلام بن عبد الله بن الخياط القادري المتوفى سنة 1813/1228، من مناقب الشرفاء الوزانيين، وأسانيد أولياء آخرين من القرنين 17 و18م[3]، نجده أحيانا، عند تعرضه لنسب صالح أو مريد، يعرج على ذكر القبيلة التي ينتمي إليها. هكذا نعثر على بعض الإشارات حول هوارة في ترجمة محمد الطالب الهواري «ولا أدري، يقول القادري، هل هو من بني الهواري القدماء بفاس ومن حضورها ورماتها (...) ولا أدري هل هوارة عمل فاس أو من هوارة عمل تازة، وهذان القبيلتان من صنهاجة بلاد ورغة، ومنهم من هو من هوارة بلاد سواحل سوس الذين هم من صنهاجة المرابطين الذين هم في بلاد الصحراء التي بين بلاد السودان وبلاد الغرب، وبلاد (كذا) طنجة أيضا صنهاجة وأظنهم هل (كذا) من أوربة أو من كتامة أو من غمارة وفي عمل صفرو صنهاجة أيضا وانظر هل هم من زناتة أو مكناسة أو مديونة أو من هوارة. وجميع ما ذكرته هنا قيل به»[4].

لنلاحظ، من خلال هذا التضخم الأعلامي[5]، مدى حيرة الفقيه الفاسي، في أوائل القرن 19م، أمام توطين نسبة قبيلة ما، وهو ما ينم أيضا عن مدى جهله بواقع تلك القبائل.

صحيح أن جل من تعرض لاخبار الدول من المؤرخين، تعرض أيضا لبعض أخبار القبائل، مثل ذلك ما نجده لدى سائر الإخباريين منذ البيدق حتى الناصري وابن زيدان. وما من شك في أن كتلة الوثائق الرسمية التي خلفتها الدول المتعاقبة، والتي هي في طور الاكتشاف فقط، سوف تنير تاريخ القبائل بكيفية أدق مما كان عليه الأمر إلى الآن.

لكن على الرغم من كل ذلك، وإلى أن نستطيع الوصول الى المستندات المحلية التي ما تزال الشروط العامة المكتنفة للبحث في تاريخ القبائل، تمنع أصحابها

(3) القادري، عبد السلام بن عبد الله بن الخياط، **التحفة القادرية في التعريف بشرفاء وزان**، مخطوط خ.ع.ر. ك 2321، جزءان، ج 2.

(4) م.س.، ص ص. 421–422، ونعثر بنفس الصدفة على معلومات حول هوارة عند محمد المختار السوسي، في رحلته، **خلال جزولة**، تطوان، بدون تاريخ (1958/1377) ج 4، ص ص. 98–99.

(5) الأعلامي تترجم Onomastique

من الإدلاء بها[6]، لا نجد مناصا من ابداء الملاحظة التالية إن معظم المصادر المتوفرة تنظر إلى القبيلة نظرة مخزنية من الخارج، إما نظرة تهيّب أو نظرة احتقار. ويكفي ألا يرد ذكرها لدى الإخباريين إلا أثناء مواجهة السلطان لها بالعنف، وأن تكون القبيلة بصورة شبه دائمة في موقع «البادىء»، لنتصور مدى تهيّب واحتقار الفقهاء الذين هم في الغالب من الحاضرة[7].

غالبا ما تحيل لفظة «القبيلة» في المصادر المتوفرة حاليا، على زمن الجاهلية، سواء وردت العبارة صريحة أم كانت مضمرة، خاصة عندما تنتفض القبيلة ضد السلطة المركزية. وقد كثرت هذه الإحالة لما تعددت انتفاضات القبائل في أواخر القرن 19م، فجنّد عدد من الفقهاء أقلامهم للتشهير بالقبائل دفاعا عن مصالح المخزن «إن ما تفعله الملوك مع القبائل وتسميه العامة ظلما وذلك لجهلهم فتراهم يقولون ملوك الوقت ليسوا بعدول وهم فيما يفعلونه على جادة الطريق...» و«لا يخفى أن غالب قبائل الزمان كما هو مشاهد بالعيان متواطئون على الانهماك في العصيان، لا تجد قبيلة في الغالب إلا وهي تحمي أفرادها وتتعصب عليهم، ولا يسمحون بجريرهم ومذنبهم...» أما «غياثة وآيت يوسي [فهم] أوباش وغوغاء، فطاعة السلطان عندهم معصية (...) قاتلهم الله بأنياب الكلاب وحاسبهم أشد الحساب»[8]. نلاحظ أن الفقيه الوقور لم يتورع في النزول إلى مستوى الشتم المبتذل، إذ أن قبائل إيناون تذكره بتجربة شخصية مريرة[9]. وبالرغم من اكتفائه باستعمال عبارة «الجهل» في حق العامة، فإن اتجاه نصه الغالب، يوحي بجو «جاهلي» ما تزال القبائل فيه سابحة. أما محمد المشرفي المتوفى سنة 1919/1337، فإنه يقرر بهدوء «عامة هؤلاء القبائل

(6) كل من اهتم بتاريخ البادية لمس عن قرب تخوف السكان من الإدلاء بما لديهم من وثائق. وتمتد الأخطار التي يتوجسونها من تهديد نزع الملكية إلى الخوف من فقدان تلك الوثائق نفسها. وكم يشعر الباحث بالغم حينما يسأله سكان قرية من قرى ايناون «هل أنت ممن يبحثون من أجل بناء السد» ؟!

(7) هل من الغريب أن نجد نقيض ذلك عند الفقهاء ذوي الأصل القروي؟ انظر رسالة الشيخ اليوسي الواردة في **الاستقصا**، ج 7، ص ص. 82–86، ودفاعه عن القبائل، ثم مؤلف الحسن بن رحال المعداني، (م.س)، للدفاع عن شركة الخماس.

(8) السملالي، علي السوسي، **عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة أو تقول قمع أهل الرعونة في إطلاق المكس على التوظيف والمعونة**، مخطوط خ.ع.ر. د. 480، في مجموع، ص. 330 وما بعدها، الصفحات على التوالي 337، 401، 362. ويبدو المنزع الصدامي لهذا المؤلف منذ عنوانه !

(9) ساهم السملالي في إحدى حركات العهد المحمدي المتأخر (1869) ضد غياثة، يروي أخبارها في مؤلفه **مطالع الحسن واتباع السنن بطلوع راية مولانا الحسن**، مخطوط، خ.ح.ر. رقم 81. ص ص. 96–98.

المذكورين (...) إلى قبيلة بني وراين من القبائل البربرية ومن جاورهم من العرب على منهاج الجاهلية»(10).

ومن الملحوظ أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا يميزون بين العرب والبربر، بل إنما يميزون بين القروي والحضري(11). وتكثر الشواهد التي تدل على أن تمثل هؤلاء المؤلفين للقروي بهذه الصفة، يستمد نموذجه المرجعي من الرؤية المركزية للسلطة فقد جاء في رسالة رحمانية في شأن غياثة «فإن غياثة لئام لا ينبغي إلا أن يقابلوا بالجد والقوة وأن يهانوا ولا يكرموا وليسوا أهل مكرمة، إن قوبلوا بالبشاشة واللين رجعوا وراعوا بل عند ذلك يزدادون جسارة وتعنتا (...) وإنما اللائق هو مقابلتهم بالشدة وأخذهم بالعنف ليلزموا طورهم ويعرفوا قدرهم، فقد جربناهم وخبرناهم وتعرفنا ذلك من طباعهم أهلكهم الله»...(12).

التهيّب والاحتقار موقف مشترك لدى الأوساط المخزنية، فقهاء وكتابا. فهذا الصدر محمد بن العربي بن المختار الجامعي يبرر للممثل البريطاني بالمغرب، درامند هي، عدم استجابة المخزن لحذف الرق الذي كان قد طلبه، على الكيفية التالية : «وهذه الإيالة ليست كغيرها من الإيالات (...) أهلها جلهم أهل بداوة ووبر لا يستقر بهم قرار ولا يدومون على حال ويتقلبون مع كل ريح ولا ينضبط لهم أمر (...) وحتى ما يومرون به لا يمتثلونه إلا قولا لا فعلا. وإذا أريد منهم تنفيذه فعلا تنزل عليهم الخيل أو المحلة حتى ينفذوه كرها ومهما نهضت عنهم عادوا لعادتهم وهذا هو حالهم من قديم..»(13).

---

(10) المشرفي، **الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية** مخطوط خ.ع.ر. د. 1463. ص. 257. ويقصد بالجاهلية احتكام هذه القبائل إلى أعرافها ازرف. وقد ورد عند محمد داود، **تاريخ تطوان**، ج 4، ص. 277، أن المشرفي شغل منصب القضاء بالحياينة. حكمه إذا، هو أيضا، حكم مجرّب !

(11) من الحقول اللسانية الثرية بالمتقابلات، بفاس وبواديها، حقل الحضري والقروي. بقدر ما يحيل الأول، «المْدِينِي»، على الرقة والذكاء والرجاحة، يحيل الثاني، «العْرُوبِي»، على العنف والفظاظة والبلادة. وإنما ذلك تعبير على اتجاه علاقات الهيمنة.

(12) من رسالة بعث بها س. عبد الرحمن إلى ولده محمد، 6 رمضان 1263/1847، وردت في ابن زيدان، (م.س)، ج 5، ص ص. 81–82. انظر أيضا (1977) Laroui. وكان نفس السلطان قد قرر في رسالة سابقة، في حق قبيلة جيشية (الودايا) «فجسارتهم أولى من صلاح القبائل». وردت عند الناصري، ج 9. ص. 36.

(13) محمد بن العربي الجامعي إلى ج. درامند هي، 24 شوال 1300/1883. P.R.O. — F.O. 174/107.

أنْ تدخل الحياة اليومية للقبيلة، مكوناتها وأنشطتها في حيز الأمور التي يسكت عنها الفقهاء المخزنيون، إلا نادرا، شيء عادي لا يثير الاستغراب، لكنه يعقد مأمورية دارس التاريخ القروي.

2 ـ بقدر ما كان مفهوم القبيلة من المكبوتات لدى الفقهاء والكتاب، تهافت عليه المستعمر منذ ما قبل عقد الحماية بكثير(14). ولا مناص لدارس تاريخ القبائل، اليوم، على الأقل فيما يتعلق بالقرن الماضي، من الرجوع إلى ما تركه الرحالة الأجانب من أوصاف عن حياتها، فروعها، عدد سكانها وعاداتها، كما اطلعوا عليها أثناء أسفارهم(15). بيد أن الأوصاف الاستعمارية شحنت مفهوم القبيلة بشحنتين متناقضتين تستدعيان الرفض على حد سواء.

القبيلة هي إما الجمهورية البربرية الأصلية التي تعبر عن العبقرية المحلية، وتحتمي بالجبال في مواجهة المخزن العربي في السهل، أو هي جحافل العرب الغزاة الذين استحوذوا على السهول، لكنهم يفلحون في السطو أكثر مما يبرعون في الحرث، وهم الأساس لبلاد المخزن(16).

وإذا لم يعد من الضروري الإطالة في الحديث عن خلفية هذا التمييز، فإنه من اللازم التأكيد على ما قد يعلق بمفهوم القبيلة، اليوم، من حمولة عاطفية، تجعل البعض يرى في التشبث باستعماله نوعا من الموقف الطائفي، في حين يعتبر البعض الآخر ذلك من باب البحث عن خصوصية ثقافية، وهما زعمان لا يقل أحدهما اجحافا بالواقع عن الآخر.

---

(14) من السلاسل الدارسية الهامة التي اعتمدت عليها الإدارة الاستعمارية في تنفيذ سياستها، مثلا، سلسلة «المدن والقبائل» **Villes et Tribus**.

(15) انظر بهذا الصدد AYACHE, G., «Histoire et colonisation», **in Etudes d'Histoire marocaine**, op. cit., pp. 5-24.

وإنه لمن السهل تمييز الغث الإيديولوجي LAROUI, A. (1977), pp. 27-66، من السمين العلمي في هذه الأوصاف سيما ما يتعلق بالمعطيات الكمية.

(16) أكثر الدراسات استحكاما في هذا الصدد هي: MONTAGNE, Robert, **Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc**, Alcan, Paris, 1930 لكن هذه الرؤى انتشرت منذ القرن 19م LE CHATELIER, A., **Mémoire sur le Maroc, Situation actuelle de la France au Maroc, Programme politique, questions économiques, Voyages au Maroc, Oct. 1889 - Mars 1890** (s.d., Nelle éd.).

وقد ناقش هذه المقولات كل من عياش، العروي، التوفيق...

فالقبيلة، على الأقل إلى القرن 19م، وبعض تقسيماتها إلى وقتنا الحاضر، لا تعني بالنسبة لأعضائها بعض المصالح المشتركة المحددة فقط، بل أخطارا خارجية موحدة كذلك، وواجبات متقاسمة أيضا، مما كان يجعل من القبيلة ومن تقسيماتها، تعبيرا عن مجموعات ملتحمة، لدوافع اقتصادية (أرض، مرعى) أو لأغراض دفاعية (في مواجهة مجموعات أخرى أو المخزن) أو لحاجة إدارية (توزيع الواجبات)[17].

هذه سمات عامة اشتركت فيها المجموعات القبلية بقطع النظر عن الحيز الثقافي اللغوي الذي كانت تنتمي إليه.

3 ـ من التعقيدات التي تكتنف استعمال مفهوم القبيلة، تعدد محتويات الكلمة بالنسبة للسكان. جل من درس التاريخ القروي نبه على ضرورة التمييز بين لفظة «القبيلة» التي قد يطلقها السكان على شتى التقسيمات القبلية، وبين عبارة «القبيلة» كأعلى مستوى للتنظيم والانقسام الاجتماعيين بالبادية، مباشرة قبل اللف[18]. هكذا يطلب الحياني، مثلا، «الشهادة»، داخل القرية، من «القبيلة» (بمعنى الجماعة أو الفخذة) في حالة نزاع فردي، وقد يحضر حفل عرس مثلا، باسم «قبيلة» أولاد عمران أو أولاد رياب (بمعنى فرقة) وقد يساهم مع بقية «قبيلة» الحياينة في حركة أو مواجهة مع صنهاجة مثلا (بمعنى قبيلة)[19].

4 ـ إلى جانب التعدد في محتوى الكلمة، ثمة تعقيد في مستوى الواقع المعبر عنه. سبق لنا إدراج نص لعبد السلام القادري، حول حيرته في أوائل القرن 19، في تحديد وتوطين النسبة الهوارية. وما يهمنا من ذلك النص الآن هو تردد ذكر هوارة في أماكن متباعدة من الرقعة المغربية، وهذه خاصية متواترة تتكرر بالنسبة لجل القبائل

---

(17) PASCON, Paul, **Le Haouz de Marrakech**, Rabat-Paris, 1977, 2 T., T.1., pp. 145-150.

(18) من R. MONTAGNE، (م.س)، إلى R. JAMOUS، (م.س).

(19) النسّابة يوزعون المنظومة النسَبية عادة إلى عدد من المراتب المضبوطة، تأتي فيها القبيلة قبل العمائر التي تجمع البطون، وهذه تتكون من الأفخاذ التي تتوزع إلى عشائر. والعشيرة «هم الذين يتعاقلون إلى أربعة أجداد»، وتنقسم إلى فصائل، وهي الأسر الكبرى. وطبيعي ألا يرى النسّابة أساسا آخر لهذا التوزيع، خارج الأساس السلالي انظر الفاسي، عبد الرحمن بن عبد القادر، **الأقنوم في مبادىء العلوم** مخطوط خ.ع.ر. د. 90. جزءان، ج 2، ص. 188. والفاسي، المهدي، **داعي الطرب باختصار أنساب العرب**، خ.ح.ر. رقم 221، ص ص. 84ـ85.

القاطنة بالمغرب الكبير[20]. فقد تتردد نفس التسمية في أماكن متباعدة، وقد تشير إلى مجموعات متفاوتة جدا من حيث الحجم. هكذا «توجد هوارة في موضعين «كقبيلة» وفي ثلاثة «كفرقة» وفي خمسة «كقرية»[21]. وليست هذه بظاهرة حديثة، بل تضرب بجذورها فيما قبل عصر البكري، الذي أحصى ج. بيرك أن أسماء كبريات القبائل تتردد عنده بالتواتر التالي مصمودة في ستة مواطن، زناتة في أربعة عشر، هوارة في خمسة عشر وصنهاجة في خمسة وعشرين موطنا[22].

كما أننا نجد نفس التسمية تشترك فيها فرق من قبائل متعددة. مثال ذلك أولاد عمران الذين هم فرقة من الحياينة، وفرقة من دكالة وفرقة من هوارة جنوب تارودانت[23].

إن هذا التوزع الأعلامي يطرح مشكلة في التأويل. وبالرغم من كونه أصبح من السذاجة، بعد أبحاث كل من BERQUE، LAROUI وPASCON، الاكتفاء بلوائح القبائل كما وردت عند البيدق (القرن 12م) وابن خلدون (القرن 14م) وعبد الرحمن الفاسي (القرن 17م) ثم في إحصاءات الحماية (القرن 20م) للاستدلال على تحركاتها خلال هذه المدة من الزمن، فإن استمرار بعض الأسماء في مكانها، وتفرد موطنها بها إلى درجة كبيرة، مثلما هو الأمر بالنسبة لغياثة[24]، تسول أو البرانس من جهة، ثم اختفاء تسميات كانت لها أهميتها بالمنطقة في زمن ما، مثلما هو شأن بني وريثن، وبني مكود إلى حدّ ما، وظهور تسميات أخرى غير واضحة الأصل، وتلك حالة الحياينة أو بني وراين، من جهة ثانية، كل ذلك يترك باب المزيد من البحث في

---

(20) BERQUE, Jacques, «Qu'est-ce qu'une «tribu» nord-africaine», **in Maghreb, Histoire et Sociétés**, S.N.E.D — Duclot, Alger, 1974, pp. 22-34 ; «Logiques d'assemblage au Maghreb», **in L'intérieur du Maghreb XVᵉ-XIXᵉ siècle**, Gallimard, 1978, pp. 327-353.

(21) J. BERQUE (1974)، ص. 25.

(22) ن.م. ص. 30.

(23) ابن زيدان عبد الرحمن، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، الرباط، 1962، جزءان، ج 2. ص. 160، هامش 9، ومحمد المختار السوسي، (م.س)، هكذا حينما نعثر على بعض المراسلات المخزنية، لـ «أولاد عمران»، وإذا لم يكن لدينا وسيلة أخرى لتحديد انتماء هذه الفرقة (قائد، واد..) فإنه يصعب معرفة عمن من «أولاد عمران» تتحدث الوثيقة، وقد يؤدي ذلك أحيانا، إلى استنتاجات في غير محلها. انظر فيما بعد.

(24) وذلك بالرغم من تعدد الإحالات على هجرة مجموعات غياثية، انظر P. PASCON، (م.س)، ص. 167.

تأويل هذا التوزع الأعلامي مفتوحا على مصراعيه(25).

صحيح أن النسغ البشري الذي تشمله هذه التسميات لم ينقطع أبدا عن التبدل عبر التاريخ(26). وقد سبق لابن خلدون أن أكد على «اختلاط الأنساب كيف يقع». «... وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب، ويلتحم قوم بآخرين...»(27).

بيد أن استمرار نفس التسميات، بالرغم من الاختلاط النسبي قد يدل بالنسبة للمجموعة المعينة، على درجة من الالتحام، تستوعب الوافدين الجدد، الذين يضعون من الانخراط تحت التسمية الواحدة، علامة على دفاعهم عن رصيد تاريخي مشترك. فهل من الغريب أن تتواجد القبائل التي حافظت على تسمياتها منذ الأدارسة على الأقل، في مناطق المرتفعات حيث من الواضح أنه يسهل الالتجاء والتحصن؟ تلك حالة كل من غياثة، تسول والبرانس. وتلك أيضا حالة سدراتة التي ذكرت غير ما مرة على عهد الأدارسة «كقبيلة»، ونجدها اليوم ضمن مجموعة الحياينة، وقد أصبح اسمها يطلق على المناطق المرتفعة من مجال هذه القبيلة فتسمى «جبل سدراتة»(28).

لا يقابل هذا الاستمرار سوى انقطاع تسميات أخرى مثل بني وريثن وبني مكود.

لا نعلم الكثير عن بني مكود، غير الإشارات العابرة التي ترد عرضا عند ذكر نسب مكودى، في أحد كتب المناقب أو الأنساب مثلما يشير إليه صاحب **السلوة**(29). ولعل ما ورد عند البيدق حول هذه القبيلة أكثر معلوماتنا دقة، وقدماً.

---

(25) يشير BERQUE إلى صعوبة التوصل إلى وصف دقيق للآليات التي تنشأ بها التسميات كرموز أعلامية. (م.س)، ص ص. 28–30.

(26) أحمد التوفيق، (م.س)، ص. 81.

(27) ابن خلدون، «المقدمة»، دار البيان (د. ت)، ص. 130. وذاك ما يؤكده الناصري، (م.س). ج 4، ص. 67 بخصوص الشاوية، على أن ابن خلدون لا يلبث أن يضيف أن ما يهم المؤرخ على العكس من النسّاب الذي يقف عند صحة النسب أو خطإه، هو اعتقاد المجموعة بالرغم من اختلاط نسبها، في الانتماء المشترك، إذ أن ذلك الاعتقاد هو العنصر الفاعل تاريخيا.

(28) وإن كان من الضروري التذكير بأن التسمية وحدها لا تكفي حجة على الاستمرار أو الانقطاع.

(29) الكتاني، محمد بن جعفر، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، ط. ح. فاس 1898/1316، ج 1، ص. 187.

فقد أشار إليها في مكان ونعتها بعبارة «موضع يقال له بنو مكود» وقد تعني هذه العبارة أرض القبيلة(30). وأشار إليها في مكان آخر كقبيلة «بنو مكود»(31)، قبل أن يسجل اسمها ضمن القبائل التي عانت من عملية «الاعتراف» على عهد عبد المومن الموحدي، حيث أنه حسب ما يرويه البيدق، ذهب ما لا يقل عن 30980 ضحية، لعدم موافقتهم للدعوة الموحدية. وكان نصيب بني مكود من هذه الكارثة يضاهي الخُمُسين (مع صريوة (؟))، إذ أن حجم ما قتل منها 12000(32). لعل هذه الحادثة وحوادث أخرى في حياة هذه القبيلة لم تحتفظ لنا النصوص عنها بذكر، هي الكامنة وراء تبددها، وهجرة جزء منها إلى فاس حيث نجد بعض أعضائها، أصبحوا على العهد المريني، من «البيوتات»(33). أما أجزاؤها الأخرى، فإنها توزعت على القبائل القريبة مثل ما هو أمر المكاكدة الذين اندمجوا بأهل الوادي من غياثة، ولعل جزءاً ضامرا منها استمر في مواطنه إلى غاية القرنين 17م و18م حيث اندمج بقبائل آيت وراين الزاحفة من الجبل نحو وادي إيناون(34).

اختفاء أسماء قبائل عرفت بالمنطقة لم يقتصر على بني مكود، بل كان أيضا، وبصفة أشمل، مصير بني وريثن.

ذكر البيدق بني وريثن في معرض حديثه عن الحصون التي أنشأها المرابطون لمواجهة الموحدين، فأشار إلى الفلاج من بني وريثن(35). وأشار صاحب **بيوتات فاس الكبرى** إلى أن «قبيلة بني وريثن [من] الصنهاجيين دخلت إلى فاس فارين من الفتن في خبر يطول ذكره»(36). ولم تكن هجرة بني وريثن إلى فاس فقط، بل تم ترحيل

(30) البيدق، (م.س)، ص. 52.

(31) ن.م، ص. 66.

(32) ن.م، ص. 71.

(33) انظر ص. 65 أعلاه.

(34) ابن الأحمر، (م.س)، ص. 10، هامش 9. (ع. بن منصور). ومن الجدير بالذكر أن بني مكود ماتزال تظهر في الخريطة اليوم، في شكل فرقة من بني وراين، انظر ورقة اهرمومو 1 على 100.000. وليس بين أيدينا ما يمكن من تحديد زمن تبدد هذه القبيلة.

(35) ما يزال واد وعين يحملان اسمي واد الفلاج وعين الفلاج، على الحدود بين بني سادن وبني وراين. انظر ورقة «مطماطة» 1 على 50.000.

(36) (م.س)، ص. 17. يقول محمد مزين، (م.س)، ص. 27. هامش 8 «بنو ورايثن من شعب من صنهاجة يعرفون باسمهم المبربر آيت ايواريضن (...) بمعنى «الراجعون» بالبربرية، واسمهم المعرب هو بنو وارث (...) اندمجت هذه القبيلة المذكورة اليوم في غيرها من القبائل بالمغرب الأقصى..» ويصطدم

جزء منهم من طرف المرينيين إلى أحواز مراكش حيث اندمجوا بقبيلة إينولتان(37) بيد أن جزءا منهم لم يبرح مكانه إلى غاية القرن 16م حيث أن كلا من الحسن الوزان ثم MARMOL بعده، أشار إلى مواطنهم إلى الشرق من فاس. ويبدو أنهم تكاثروا خلال هذا القرن بما أن الوزان يقدر عدد قراهم بمائة في أوائل القرن في حين يعطي MARMOL في حدود منتصف القرن رقم مائتين(38). وإذا ما كان كل منهما أشار إلى أن ثروة هذه القبيلة تتكون أساسا من زراعة القمح وتربية الأغنام من أجل صوفها (وهي أنشطة لازمت هذا الجزء من حوض إيناون إلى اليوم) فإنه لم يفت أيهما أن يتنبه إلى وضعيتها المهددة إزاء القبائل المحيطة بها أو الزاحفة من جهات أخرى. وصف الوزان تلك الوضعية بدقة «لديهم الكثير من القمح والصوف لكن لباسهم رديء، ولا يركبون غير الحمير، حتى أن جيرانهم أنفسهم يسخرون منهم ويزدرونهم»(39). ودقق MARMOL هذه الصورة واصفا إياهم كـ «أناس بسطاء، يشتغلون باستمرار في مزارعهم، دون الطموح في قوة أو غلبة. ولذلك فهم لا يربون خيولا»(40) ونلمس تلك الوضعية المهددة بوضوح حينما يضيف MARMOL «وتحمل فرق أخرى نفس الاسم، وهي مختلطة من عرب وبربر، تتنقل في هذه الربوع دون استقرار (...) ولها قطعان هامة من الخيول والإبل»(41). وقد تكون الفترة التي وصفها MARMOL في النصف الثاني من القرن 16م، هي فترة المنقلب في المنطقة من حيث التشكل القبلي، إذ هي الفترة التي سوف نرى أن الحياينة استقروا فيها، تقريبا، في حوض إيناون(42).

نصادف آخر ذكر مضبوط لقبيلة بني وريثن، فيما توفر لدينا، عند محمد بن الطيب القادري، حينما يخبرنا أنهم استوطنوا عدوة الأندلس، سنة 1630/1040 –

الباحث بفقر المعلومات حول هذه القبيلة في بنعبد الله، عبد العزيز، **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية**، 1981، ج 4، ص. 278، حيث يجهل وجودها بالمغرب تماما.

(37) التوفيق، (م.س). ص. 71.

(38) الوزان، (م. س)، ج 1، ص. 230، MARMOL، ج 2، ص ص. 202–203.

(39) ن.م. ص.

(40) MARMOL (م.س). ص. 202.

(41) ن.م، ص ص. 202–203.

(42) انظر فيما بعد.

1631 فيما لا يقل عن «ألف ومائة فارس»[43].

ربما كان ما وصفه MARMOL وما أورده القادري دليلا على الفترة التي قد يكون اختفى فيها اسم بني وريثن من المنطقة. ولعل نصف القرن 1575–1625، يمثل انكسارا ضخما على صعيد اختفاء أسماء قبائل وظهور أخرى، سبقت الإشارة إليه، وسوف نعود إليه غير ما مرة. ولعل هذا الانكسار لا يعني المنطقة الإيناونية بصفة مخصوصة بقدر ما يشمل جهات متسعة من المغرب بأكمله.

لا غرابة أن يكون المنقلب في هذه الفترة بالذات، إذ أن حوض إيناون، علاوة عما عاشه من اضطرابات أيام المرينيين المتأخرين والوطاسيين، تعرضنا لها سابقا، كان مسرحا لبعض مواجهات الأتراك والسعديين. وكانت أرض بني وريثن بالذات مجالا، لاصطدام جند محمد المتوكل، وفرقة المعتصم العائد من الشرق أوائل سنة 1576[44]. ولا ننسى ما أكدته المصادر من ضعف بني وريثن العسكري، وهو ما لا يمكن فهمه إلا في إطار موقع القبيلة على المسلك، في منطقة واطئة، سهلة المنال، يصعب التحصن بها أو الدفاع عنها.

خلال القرن 17م. وما يليه لم يعد ذكر بني وريثن يرد إلا كموقع جغرافي، كـ «بلاد بني وريثن»[45]، قبل أن تظهر في المواطن التي كانت هذه القبيلة تحتلها فيما قبل، قبائل أخرى كالحياينة وبني سادن.

وقفنا عند حالتي بني مكود وبني وريثن لأن هذين الاسمين، اندثر ذكرهما، بمضمونهما القديم، في مصادرنا بعد القرن 17م، لكي نبرز نموذجا من تلك القبائل التي اختفى اسمها من خريطة المنطقة، أو على الأقل، أصاب مدلوله تغير عميق.

ولا نستنتج بالضرورة، من اختفاء اسم قبيلة ما، من مصادرنا، أن طامة كبرى

---

(43) محمد القادري، (م.س)، ج 1، ص. 290. ولعل بعضهم قد أوى إلى المدينة مدة قبل ذلك، إذ أننا نلتقي ضمن وفيات 1027/1617–1618، ص. 225، بـ«الولي الشهير سيدي علي الهيري (...) الوريتني».

(44) الوفراني، (م.س)، ص. 62.

(45) الإسحاقي القادري الحسني، **كتاب رحلة الآس** (م.س)، ص 5، والقادري، عبد السلام بن محمد بن الخياط، **تقايد تاريخية**، مخطوط خ.ح.ر. رقم 248، ص. 13. ومن الجدير بالملاحظة أن 'الأعلام البشرية، أشخاصا أم جماعات، تلتصق بالطبوغرافيا بعد أن يندثر البشر الذي كان يحملها. ومن ثم كل الأهمية التي قد تكتسيها أي اركيولوجيا في الطبونيميا.

قد أتت على كل أعضاء القبيلة دفعة واحدة. بل وكما هو من المرجح أن تكون الأسماء الثابثة إطارا لمضمون بشرى متجدد، فإنه من الجائز أن نتصور أن اختفاء الاسم قد لا يدل دائما على انقراض ديموغرافي بقدر ما يحيل على انهزام سياسي، وانحلال المجموعة السابقة في إطار مجموعات متغلبة جديدة، تفرض اسمها كما تفرض غلبتها(46).

وإذا ما راجعنا مواطن القبيلتين ـ مكود ووريش ـ فإننا نجدها تشترك في كونها جنوب الحوض الإيناوني، على خط مفترق المياه بين إيناون وسبو، على أراض تتميز عموما بصعوبة المدافعة عليها، وهي المجال الذي ظهرت فيه أسماء جديدة بدءا من القرن 17م الحياينة، بني سادن، بني وراين.

نستخلص من كل ما سبق أنه من الجائز استعارة القاموس الجيولوجي للحديث عن تشكل قبائل الحوض الإيناوني ثمة كتلة قديمة تتمثل في ساكنة المرتفعات الشرقية والشمالية الشرقية، غياثة، تسول، البرانس، مكناسة، وهي المجموعات التي لم تبرح مكانها، والتي هي بمثابة عمود فقري بالمنطقة، جاءت المجموعات الأخرى ابتداء من القرن 16م لتستقر حولها، في الجهات التي اختفت فيها قبائل أخرى. وكأن ثمة تطبّقا قبليا من الناحية الزمنية، إذ أن الحياينة أبرز مجموعة ظهرت في المنطقة في القرن 16م، وبني وراين(47) في القرن 18م.

ومن البديهي أن هذا التشكل القبلي عبر الحوض الإيناوني، لم يتم في منأى عن الصراعات فيما بين القبائل أو مع السلطات المركزية المتعاقبة. غير أنه عبر هذه الصراعات ذاتها، تشابكت العلاقات فيما بين المجموعات وتُبودلت التأثيرات حتى استطاعت بالرغم من مواجهاتها، أن تربط فيما بينها، في مستوى تقاسم نفس أشكال الاحتفال والحزن، وأنواع التعامل مع بيئة طبيعية متقاربة.

لكن قبل التعرض للقواسم المشتركة فيما بين قبائل إيناون، في حياتها اليومية، نرى من الضروري الوقوف عند النماذج الأساسية لهذه القبائل، ونعني بها غياثة، الحياينة، وبني وراين.

(46) خير ما ينطبق ذلك على بني مكود الذين يتوزعهم اليوم كل من بني وراين وغياثة.

(47) استعمل الأعلام «بني سادن»، «بني وراين» كأعلام ممنوعة من الصرف، ومن ثم لا أخضع لفظة «بني» لمتطلبات الصرف العادي، وذلك اقترابا من منطوق المعنيين الأولين بهذه التسميات.

II ـ مقاربة اقتصادية ـ اجتماعية لنماذج من قبائل إيناون في أواخر القرن 19م ـ غياثة ـ الحياينة ـ بني وراين

إذا كانت بعض المناطق مثل الغرب أو الحوز قد وقع استكشافها منذ فترة مبكرة من طرف الأجانب، لكونها تربط بين الموانىء طنجة أو الصويرة مثلا، والعواصم فاس، مكناس أو مراكش، فإن حوض إيناون، على غرار جل المناطق الواقعة «وراء» العواصم، وربما هنا بكيفية أخص، قد ظل مدة طويلة، «بقعة بيضاء» على خرائط الأوساط المخطِّطة للعملية الاستعمارية[48]. هذا ما يجعل أن معلوماتنا حول قبائل إيناون، وإلى أن تتاح استبارات أوسع في «القوائم الحسابية» أو «الكنانيش الحسابية»، لا تتجاوز النصف الثاني من القرن 19م، أي لما تكاثرت أسفار الرحالة الأوروبين عبر المنطقة. وقد تعددت الأوصاف حول إيناون بصفة خاصة فيما بين 1880 و1920. بالعلاقة الوطيدة مع التوغل ثم الاحتلال الفرنسيين.

من الممكن إذاً، محاولة تحديد معالم قبائل المنطقة الأساسية، بدءا من غياثة وانتهاء ببني وراين مرورا بالحياينة. استقر الرأي على هذه النماذج الثلاثة كعينة معبرة عن المراحل الكبرى للاستقرار البشري بالمنطقة، وكذا عن أنماط العلاقات التي ربطت القبائل القديمة والقبائل الوافدة، أو العلاقات التي نشأت بين هذه القبائل واحدة واحدة أو مجتمعة وبين السلطة المركزية.

1 ـ غياثة القبيلة الأصلية

أ ـ مسألة الأصل والاسم

لم تحتفظ النصوص التقليدية بشيء يذكر عن أصل غياثة، سوى أنها «من برابرة المغرب الأقصى»[49] وقد تفيد بعض الإشارات التي تتعلق في الواقع ببعض الأقسام الغياثية كمطغرة، أكثر مما تشير إلى القبيلة بأكملها، أنه بالإمكان تصنيف غياثة ضمن التقسيمات الكبرى الأمزيغية إلى مصمودة وصنهاجة وزناتة، في هذه المجموعة الأخيرة[50].

(48) DELBREL، (م.س)، ص. 171.
(49) ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص. 214.
(50) ن.م، ج 6. ص ص. 180، 203، 244 ـ 245 إلخ.

أما تسمية غياثة فإنها على غرار ما سنعود إلى ذكره في شأن الحياينة، مقطوعة الجذور في النصوص التقليدية. ما هو أصل هذه التسمية التي يبدو اشتقاقها العربي واضحا بالرغم من كونها تغطي مجموعة بشرية من أعرق «برابرة المغرب الأقصى»؟[51]. هل تعود إلى الدعاء الصالح الذي تحكي الرواية الشعبية إلى اليوم أن إدريس الأكبر قد دعا به لمن كانوا إلى ذلك العهد ولا شك لا يعرفون بعد باسم غياثة، لما قال لهم «تغيثوا ولا تغاثوا»، قاصدا بذلك أن تكون مجموعة غياثة، غوثا للأدارسة، كما كانت من أول المساندين له، وأن تكون من المنعة والبأس، بأن لا تحتاج أبدا إلى معونة أجنبية؟[52].

قد لا تعدو هذه الرواية أن تكون تأويلا قامت به المجموعة الغياثية لاسمها في مراحل لاحقة، أصبح فيها الشرف رهانا سياسيا واجتماعيا فيما بين الأفراد والمجموعات، حوالي ق 15م، لما أصبح درجة إلى السلطة أو في مواجهتها[53].

بيد أنه بالرغم من هذا التحفظ الهام، فإن جملة من الاعتبارات قد تؤيد هذه الرواية، إن لم يكن في صحتها التاريخية، على الأقل، في قيمتها الرمزية

ـ فقد أشارت جل المصادر إلى كون غياثة مع أوربة كانت من أول المساندين لإدريس بن عبد الله[54].

---

(51) معضلة المؤرخ في مثل هذه القضايا أنه لا يستطيع الوصول إلى الماضي إلا عبر نصوص لم تسجل في غالب الأحوال سوى إحدى وجهات النظر، المتغلبة ولا شك. ولكن، ولو افترضنا أن غياثة كانوا يُدعون «ايغياثن» كما أخبرني أحد الوراينيين، فإن المشكل المتعلق بالاسم، سوف يصبح أكثر تعقيدا، إذ أن الاشتقاق الأمزيغي هنا إنما مزّغ أصلا عربيا يطلق على مجموعة أمزيغية !

(52) TRENGA, V., «Le Branes : notes pour servir à une monographie des tribus berbères de la région de Fès», **Archives Berbères**, 1915-1916, Vol. 1, Fasc. 3, pp. 200-218, Fasc. 4, pp. 293-330. Cf. pp. 201-202.

ومما يدل على طول تواتر مثل هذه الروايات، تداول بعض الأمثال ك «تازة حبس مولاي إدريس» ابن سودة، **أمثال فاس**، ج 1، 178، أي أن تازة محبوسة على الأدارسة، ويشير TRENGA إلى تواتر مثل آخر يقول «غياثة معدن الملوك»، ومن المثير للانتباه أن عددا ممن ثاروا بالمنطقة، استغلوا هذه الروايات، فتقدموا تحت ظل دعوة إدريسية.

(53) يعتبر بعض الباحثين أن ظاهرة الشرف، إنما انتشرت لدى القبائل كرد فعل خاص ضد اعتماد السلطة المركزية على نفس الظاهرة. لكن كلا من القبيلة والمركز يدافع عن شرف معين هنا مثلا، الأدارسة في مواجهة السعديين، ثم العلويين، انظر MORSY, Magali, **Ahansala**, Paris, 1972.

(54) ابن خلدون، (م.س)، ج 6، ص. 300.

ـ ثم إننا عندما نستقرىء تقسيمات غياثة منذ ق 17م، لا نعثر على ما يبرر هذا الاسم ضمن فرقها(55).

جدول 6 **غياثة الأسماء المبتدئة بـ**

المبتدئة بـ : / التقسيمات	أولاد ـ بني	أهل ـ موالين	الأسماء / الصفة	الأسماء / الجغرافية	غيره	المجموع
الوحدات الكبرى فرق ـ أفخاذ	25 بني وجّان	27 أهل الدولة الدولة	10 المربحيين	5 غياثة السفلية	6 أجموط	73
الوحدات الصغرى الجماعات والأسر	11 أولاد علي حلحول	7 أهل الديزان	12 الكمامرية	8 عين تودة	14 سكسف	52
المجموع	36	34	22	13	20	125

المصدر **B.C.A.F.** 1912, **R.C.** N° 6, pp. 212-213

يلاحظ غلبة التسمية بـ «أهل» أو «موالين» على صعيد الوحدات الكبرى كالفرقة أو الفخذ، في حين أن التسمية «بأولاد» تتغلب على الوحدات الصغرى، كالجماعات أو الأسر الكبرى. وهذا ما قد يوحي بأن الأساس القرابي ولو كان مفترضا لا يتوفر سوى في هذه المستويات الدنيا، في حين تدل أسماء الوحدات الكبرى على طول فترة توافد المجموعات المتعددة على نفس المجال. ولعل في هذه الأسماء دليلا على كون تجمع غياثة ذى صبغة سياسية عسكرية أكثر منها سلالية.

كيفما كان الأمر، فإن تسمية غياثة لا تحتمل أية إحالة على تجمع سلالي بل إنها من التسميات التي تؤيد ما حدسه J. BERQUE من كون عدد من تسميات القبائل إنما هي إطارات رمزية(56).

(55) انظر: عبد الرحمن الفاسي، (م.س)، ص. 202 ثم **B.C.A.F.**, 1912 — **R.C.** N° 6, pp. 212-213

(56) BERQUE، المرجعان السابقان.

وقد أوجز PASCON أصناف تسميات القبائل، في مؤلفه حول الحوز فميز «القبيلة ـ الأمة، والقبيلة ـ الحزب، والقبيلة ـ الجماعة الملتحمة، والقبيلة ـ الملتجئة، والقبيلة ـ المنفية، والمقاطعة الجبائية والادارية..»(57). ويمكن وضع غياثة ضمن هذا التصنيف في إطار القبيلة ـ الحزب، إذ أن أفرادها، إلى اليوم يعتبرون أن أصل تكون قبيلتهم، الالتحام للدفاع عن الأدارسة.

يتضح من كل ما سبق أن اسم «غياثة» بمثابة الشعار أو العلم الذي تحمله مجموعة من الفرق، سكنت الجبل، ولم تعط نفسها حتى عناء البحث عن جد وهمي مشترك. ولا عجب أن تختلف الأصول وتتعدد اللغة في جبل قريب من مسلك كثير الاستعمال. فمن اليسير تصور ما طردته التقلبات الموصوفة سابقا من سكان من الأراضي الواطئة نحو هذه الأعالي، وهي عملية لم تتوقف حتى القرنين 19م و20م.(58)

(57) PASCON، (م.س)، ص. 145.

(58) وبالمقابل فإنه تكثر الإشارات، في الدراسات الحديثة عن هجرة عناصر غياثية في اتجاه النصف الجنوبي من المغرب. بالإضافة إلى ما أشار إليه PASCON من وجود عناصر منهم بمسفيوة، أورد أحمد بوشارب في **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة اخلاء أسفي وآزمور (قبل 28 غشت 1481 ـ أكتوبر 1541)**، دار الثقافة، البيضاء، 1984، ص. 463-466، ذكر غياثة كإحدى فرق المجموعة الدكالية.

جدول 7 نموذج عن تعدد أصول «الفخذات» المكونة لفرقة أهل الواد الغياثية حسب المشهور لدى أعضائها

الفخـــذة	أصلهـا المشتهـــر
العربييـــن	البـرانـــس
أولاد بني شعيـب	تســـول
أولاد بوعلاقة (= أولاد الفلاح)	آيـت ورايـن
الدبـوبـة	آيـت ورايـن
بـلابلـــة	آيـت ورايـن
أولاد بوعـــزة	كزنايـــة
بودريسييـــــن	أهل الطاهر (فرقة غياثية أخرى)
أولاد سيدي علي مسمار	شرفاء من فهامة، سهل بشرق تازة
أولاد سيدي علي المقدادي. (المقـادّة) (= أولاد يحيـى)	فيـكيـــك
أولاد عِلي بن الحسن	«يـهـــــود»
أولاد المريحيـــن	غير معـــروف

المصدر[59] MARCUS, Michael A., Townsmen and Tribesmen : identity, history and social change in Eastern Morocco. Ph d, N.Y.U.. 1983, p. 88

نتبين من هذا الجدول كم هي متعدَدة أصول هذه الفرقة الغياثية، حتى أن الفخذات ذات الأصل المحلي المحتمل قد لا تعدو الإثنتين الأخيرتين اللتين يُعَنْون أصلهما إما بـ «يهود» أو بـ «غير معروف». أما بقية الفخذات، فإنها تحيل على شبكة حقيقية من الأصول، ترتبط بجل القبائل المحيطة.

كانت غياثة في أواخر القرن 19م تنغرس في مجال جبلي، على الهامش الأقصى الشمالي الشرقي من الأطلس المتوسط، وتتوسط مجموعة من القبائل المختلفة الحجم، الحياينة وبني ورايِن من الغرب والجنوب، التسول مكناسة والبرانس من الشمال وهوارة من الشرق. بيد أن معالم هذا الموطن كانت نتيجة لمسيرة طويلة من المد والجزر فيما بين المجموعة الغياثية وجوارها المتعاقبين.

(59) أشكر السيد M. MARCUS الذي أطلعني على فصول من رسالته غير المنشورة.

من المحتمل أن يكون الغياثيون الأوائل، قد بسطوا نفوذهم خلال القرن 9م حتى مشارف السايس[60]، حيث ربما كانوا يتجاورون وقبيلة أوربة، شبيهتهم في مساندة إدريس بن عبد الله.

ولعلها استغلت الزحف المريني لإرساء إقامة مستديمة في وادي إيناون، وكان توسعها تجاه الشمال على حساب قبيلة مكناسة، التي ما فتئت وضعيتها تتدهور منذ أن انقرضت دولة ابن أبي العافية[61].

وقد احتفظت الذاكرة الشعبية بقصص عن المواجهات التي شهدها حوض إيناون، بين مكناسة وغياثة، منذ أن طردت هذه الأخيرة جارتها من تازة في حدود القرن 12م، حتى حدوث الحماية في القرن 20م[62].

ويبدو من بعض الحكايات الشعبية التي التقطناها في عين المكان، أن مكناسة كانت تستبد بالأرض والسلطة على حساب العناصر الغياثة الأولى التي نزلت من الجبل حوالي القرن 18م، إذ أنها تظهر الغياثي وهو يشتغل في معصرة الزيتون لفائدة صاحبها المكناسي، أو أنها تبرز سطوة مكناسة على غياثة في كون الفرسان المكناسيين، حينما يصادفون نساء غياثة، يرغمونهن على حمل علف خيولهم في طرف الثوب الأسفل الذي يتلحفن به، لكي يتمكنوا من التفرج على عوراتهن، وفي ذلك ما فيه من المس بعرضهن والإذلال لكرامة القبيلة برمتها[63].

لعل حركة غياثة هذه نحو الأراضي الواطئة تنتمي إلى نفس الحركة البشرية الضخمة التي هزت المنطقة برمتها وآلت إلى ظهور قبائل توسعية كبرى مثل بني

---

(60) M. MARCUS، (م.س)، ص. 38.

(61) انظر الفصل السابق.

(62) M. MARCUS، (م.س) ص ص. 38 و58. مايزال المسنّون إلى اليوم، يذكرون أن بعض الأراضي بغياثة هي لمكناسة، وتم طردهم عنها شمال ايناون في نهاية القرن الماضي، وتوجد بعضها بعمق الجبل كما هو الأمر عند بني بويحمد. وقد تعددت المراسلات المخزنية بين السلطان وعامل تازة في شأن هذا الصراع، انظر مثلا، رسالة السلطان إلى خليفته بفاس الأمير اسماعيل بتاريخ 24 رجب 1300/يونيو 1883، في **كناش الصادر** رقم 353، ص. 2.

(63) أشكر عبد السلام كشتير على مساعدته في التعرف على رواة هذه الحكايات، وقد نقل ماركوس (م.س)، نفس الحكايتين، ص. 59 ـ60. عن إذلال القبيلة عن طريق إذلال نسائها يمكن الرجوع إلى R. JAMOUS، (م.س).

وراين بالخصوص، والتي استمرت تضغط على غياثة من جنوبها حتى القرن 20م(64). وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا الضغط في اتجاه الشمال، أي على حساب القبائل الموالية، وهي مكناسة، التي كانت، على كل حال، قد ضعفت كثيرا(65). سيما وأن غياثة كانت تجاور على هامشها الغربي قبيلة قوية أخرى هي الحياينة.

ب ـ الحجم الديموغرافي وانقسام القبيلة

كانت غياثة تعتبر في القرن الماضي من أقوى قبائل الحوض الإيناوني بسبب مواجهاتها المتكررة مع جوارها. ولعل ما أكد تلك السمعة، سواء على الصعيد المحلي أو في المستويين المركزي والخارجي، مواجهاتها المتكررة أيضا، في القرن 19م، مع المخزن، عبر أهل تازة بالخصوص.

ليست قوتها البشرية التي تفسر قدرة غياثة على المواجهة، ولا مزاج أهلها الذي زعم عدد من الرحالة الأوربيين أنه ميال إلى العدوانية والحرب(66)، بقدر ما يفسر تلك القدرة مجالها الجبلي المنيع المُطل على المدينة والمسلك. أما على الصعيد البشري، فإن غياثة تبدو من خلال مجموعة من التقديرات متوسطة الحجم(67).

قدر DE FOUCAULD أثناء عبوره لحوض إيناون، في صيف 1883 أن قدرة غياثة القتالية تبلغ حوالي 3000 راجل و200 من الفرسان(68)، وأعطى DELBREL ست عشرة سنة بعد ذلك، أرقاما تقل عما أورده DE FOUCAULD بقليل 2500 من الرجالة و200 من الفرسان(69). فيكون مجموع المجندين الغياثيين الاحتماليين حسب هذه التقديرات يتراوح بين 2700 و3200. وإذا ما استفدنا من نتائج المحاولة الإحصائية التي قام بها أحمد التوفيق بصدد قبيلة جبلية

---

(64) عن تلك الحركة انظر: COLIN, G.S., «Origine arabe des grands mouvements des populations berbères dans le Moyen Atlas», **Hespéris**, 2e tr.-3e tr. 1938, TXXV. pp. 265-68.

(65) لا يتعدى تقدير المخابرات الفرنسية لحجم مكناسة في سنة 1912، حوالي 1125 نسمة إلى 2400 نسمة إذ أنها تقدر عدد مجنديها بـ300. **B.C.A.F.** — 1912. **R.C.6.** p. 213

(66) انظر أوصاف DE SÉGONSAC, DELBREL, DE FOUCAULD

(67) بالرغم من كون تلك التقديرات كانت متأثرة بدورها كما سنراه بسمعة غياثة.

(68) DE FOUCAULD، (م.س)، ص. 34.

(69) DELBREL، (م.س)، ص. 175.

أخرى، هي إينولتان(70)، نستطيع أن نعتبر أن تقدير حجم غياثة كان يتراوح في أواخر القرن، فيما بين 10.125 نسمة و12.000 نسمة في التحديد الأدنى وبين 21.600 و25.600 في التقدير الأعلى(71) وهذه أرقام عالية بالقياس إلى ما التقطه الرحالة أنفسهم من تقديرات إجمالية للسكان. DELBREL، مثلا، بعد الإشارة إلى القدرة القتالية، يقدر الحجم الاجمالي لغياثة بـ 7000 نفس. فإما أن يكون هذا الرقم دون الواقع وإما أن تكون تقديرات القوى القتالية مبالغا فيها. ومن الجائز أن نأخذ بالاحتمال الثاني، إذا ما راعينا ما أثارته هذه القبيلة لدى الأوساط الأجنبية من تهيّب، سيما وأنها كانت ترى فيها عقبة محتملة أمام كل مبادرة احتلالية مستقبلة. فليس من المستبعد أن يستكثر الرحالة الفرنسيون بالخصوص، قوة هذه القبيلة(72).

ومما يؤيد الاحتمال الأخير، بعض التقديرات التي قامت بها مصالح المخابرات الفرنسية، غداة احتلال فاس سنة 1911، أي لما كان لها من الزمن والوسائل والأهداف ما يوفر لها إمكانية الضبط أكثر ويبعثها على التحري بكيفية أدق(73). تعطي هذه التقديرات عدد 8000 نسمة كحجم إجمالي لسكان غياثة، وهو رقم يقارب التقدير السكاني الذي اقترحه DELBREL. بيد أن هذا الرقم قد يكون ناتجا عما أصاب المنطقة من كوارث طبيعية جفاف، جراد، في أواخر الفترة الحسنية، واضطرابات سياسية إبان حركة الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) (1902 ـ 1909)، وبالتالي قد يكون التقدير الأول الذي توصلنا إليه، وهو ما بين 10.000 إلى

---

(70) أحمد التوفيق، (م.س)، ص ص. 182–189.

(71) عملا بالقاعدتين التضعيفيتين الاتفاقيتين الضرب في $\frac{15}{4}$ للتوصل إلى التحديد الأدنى وفي 8 للتوصل للتحديد الأعلى. ن.م. ص.

(72) الأرقام التي يعطيها الرحالة مشكوك فيها باستمرار، وأهميتها توضيحية، وتقديرية ما دمنا لا نتوفر على غيرها لتعويضها. وغني عن البيان ما كان يشوب مبادراتهم من الاستعجال والتخوف الذي يمنع من أي مراقبة أو تدقيق. DE FOUCAULD قضى مثلا 11 يوما فقط بالمنطقة، لكن هذا لم يمنع رحلته من أن تصبح المرجع الحجة لكل وصف للمنطقة فيما بعد ! ومن المؤسف ألا نتوفر بالنسبة لغياثة على مثل ما عثرنا عليه من تقديرات مخزنية، تتعلق ببني وراين، في «القوائم الحسابية». وإنما ندرة الاحصاءات في مصادرنا المحلية، دليل على واقع وشروط للبحث وليس على انعدامها في الواقع الملموس : انظر نموذج «القوائم» و«الكنانيش».

(73) انظر: DE CAIX, R. «La population du Maroc» in **B.C.A.F.** , 1913, N° 5, pp. 180-183.
«إن تقريرات الرحالة المعزولين السابقين لا تحتمل أية مقارنة مع عمل ضباطنا الذي هو أكثر شمولية والتصاقا بواقع البلد»، ن.م. ص 180.

12000 هو الأقرب إلى الصواب، خاصة في سبعينيات وثمانينيات القرن[74].

إن هذا الحجم الديموغرافي يضع غياثة، في الحوض الإيناوني، ضمن القبائل المتوسطة الحجم مثل تسول 6000 نسمة، البرانس 5000 ن، التي تفوق زمرة القبائل الصغرى مثل بني سادن حوالي 4000 أو آيت سغروشن 3500، لكنها لا تبلغ مستوى التجمعات الكبرى كالحياينة أو بني وراين[75].

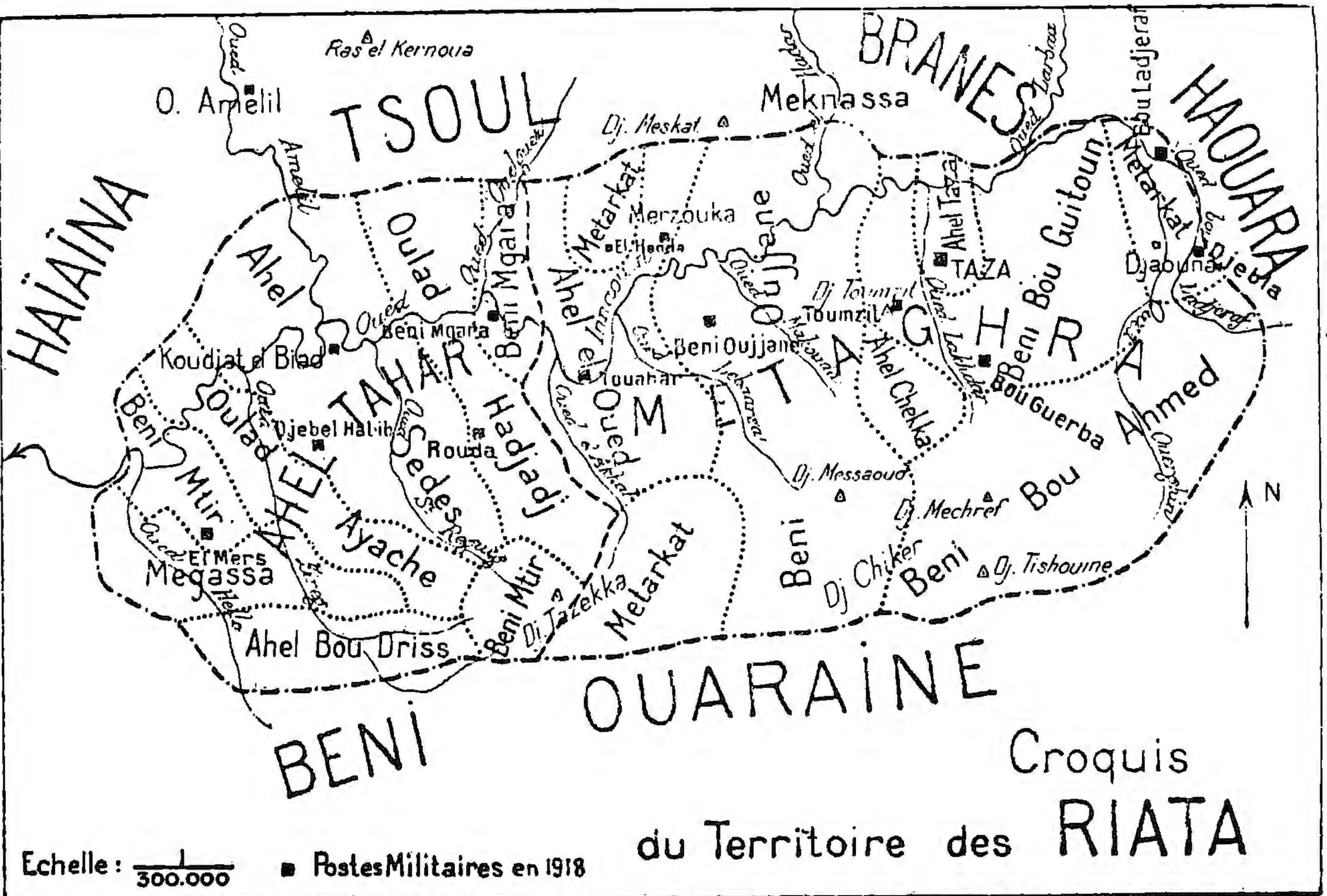
(74) بيد أن أول تعداد قريب من الضبط أيام الحماية (1936) أعطى عدد 34.412 نسمة، لمجموع غياثة (بإضافة بني وجان). وقد يفهم هذا الارتفاع الهام (أزيد من ثلاث مرات) في ضوء ما صاحب الحماية من نمو ديموغرافي عام، مصحوب في حوض ايناون، بحركة استقطاب واسعة، خلفها استعمار أراضي الهضاب والوادي الخصبة. انظر **Répertoire alphabétique des agglomérations de la zone française de l'Empire Chérifien (1936)**, Rabat, 1941, pp. 665-668.

(75) بالنسبة للقبائل التي لم تتوفر إمكانية مناقشة عدد حجمها الديموغرافي، اكتفيت بما ورد في مقال R. DE CAIX، (م.س)، ص. 180-183.

جدول 8 تقسيمات غياثة

التقسيمات / المصدر / التاريخ	غياثة السفلية									غياثة الفوقية							
	أهل الواد	أهل الطاهر	مكاصة	بني مكارة	أولاد حجاج	أهل السادس	الخماجة	أولاد أوشن	أولاد عياش	بني مطير	متركات	بني سنان	بني وجان	بني بوقيطون	بني بوحمد	أهل الدولة	أهل بوديس
الفاسي الاقنوم 1684/1096 ص.202.	+	+		+													
DE FOUCAULD 1883، ص. 33	+	+											+	+	+	+	
EL MERAKCHI 1894، ص. 11													+	+			
DELBREL 1899، ص. 175		+		+	+	+	+	+	+	+	+		+	+			
DE SÉGONZAC 1900، ص. 297	+	+	+	+							+	+	+	+	+	+	
مراحل رحلات السلطان الحسن الأول خ.ح.ر.، ز. 12059 حوالي 1905.	+		+	+	+	+			+	+	+	+	+	+	+		+
B.C.A.F. 1912 R.C. 6. p. 212-213.	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+

ملاحظة من الطبيعي أن تبدو فرق غياثة السفلية أوفر عددا من مثيلتها بغياثة الفوقية، وإنما يعود ذلك إلى كثرة ذكر أجزاء هذه الجهة لوقوعها على المسلك،



Bul. trim. de la Soc. de Géogr. d'Arch. d'Oran, 43e A., T. XL, Fasc. 3e et 4e trim. Sept.-déc. 1920.

قبيلة غياثة

مما يجعل بعض الجماعات، مثل الخمامجة أو أولاد أوشن (من أهل السدس)، تظهر بمظهر الفرق، في حين لا تبرز فرق غياثة الفوقية إلا في تقسيماتها الكبرى. نلاحظ أيضا أن التفاصيل تكثر كلما اقتربنا من الوقت الراهن.

بالرغم من أصلها الأمزيغي، ومن تحصنها بالجبل، فإن غياثة قد تعربت منذ فترة مبكرة فيما يبدو، نظرا لإطلالها على مسلك الهجرات العربية، واحتكاكها بقبائل ذات غلبة عربية كالحياينة[76]. ولم تكن تستعمل الأمزيغية في تعاملها اليومي، في أوائل هذا القرن، من بين فرق غياثة، سوى فرقة أهل الدولة، التي تقطن أقصى جنوب شرق جبل غياثة، وتحادي قبائل بني وراين، بحيث يتعذر علينا معرفة ما إذا كان تخاطبها بالأمازيغية آنذاك، دليلا على تشبث هذه الفرقة الموجودة في قلب الجبل، بلغتها الأصلية، أم بالأحرى على عودة إليها، ناتجة عن احتكاك هذه الفرقة، خلال زهاء القرنين بمجموعة بني وراين الأمزيغية[77].

يمثل تعريب اللسان قرينة إضافية على ما لاحظناه من كون غياثة عنوانا لمزيج من السكان وفدوا على الجبل وضمنهم ولا شك مجموعات من أصل عربي.

ج ـ السكن ونمط العيش

يتجلى الأصل الدفاعي لتجمع غياثة بوضوح في كون معظم القبيلة ظل يسكن الجبل بالرغم من توسعها شمالا في اتجاه الوادي الإيناوني. ويتمثل معظم سكن غياثة في «دشرات»، أو قرى مجمعة، محصنة، تختار لنفسها مواقع دفاعية، بحيث أن عددا منها يدعى «قلعة ..»[78] ويطل إما على وادي إيناون أو أودية جبل غياثة. أما في الأراضي الواطئة، ولاسيما في حوض إيناون، فإن ظروف عدم الأمن التي كانت تتردد حتى أوائل هذا القرن جعلت السكن الخفيف هو السائد. فقد أشار

---

(76) DE FOUCAULD، (م.س)، ص. 35. و BASSET, Henri **Essai sur la littérature berbère,** Alger, 1920, p. 47.

(77) إذا كانت تلك هي حالة بني وراين ـ آيت جليدسن، فما أدراك بغياثة الموجودة على المسالك؟ انظر: MARCY، ص. 102.
MARCY, Georges, «Une tribu berbère de la Confédération Ait Warain : Les Aït Jellidasen» in **Héspéris**, 1929, T.IX, 1er trim. pp. 79-142.

(78) قلعة بني سنان، قلعة بني مطير، قلعة بني مكّارة إلخ.
B.C.A.F. / RC. 1912 — 6, pp. 212.213.

بعض رحالة نهاية القرن إلى استمرار حياة الخيام بوادي إيناون، في مجال غياثة(79).

ونلاحظ نفس التمايز بين الجبل والوادي في المجال الغياثي على صعيد الأنشطة الانتاجية بالرغم من تعدد المناظر الزراعية.

جل الملاحظين الذين عبروا وادي إيناون ألحّوا على جمال أحواز تازَة وكثرة استغلال الأرض المحيطة بها، ونضرة الاخضرار باجنتها(80).

أما أراضي غياثة بإيناون فإنها كانت قليلة الاستعمال، ويبدو أنها كانت تستغل كمراع أكثر مما تستعمل للزراعة، إلى غاية أواخر القرن 19م(81)، في حين تتركز الحياة الزراعية بالأودية العليا بالجبل(82). وإذا ما أضفنا إلى هذه الثروة الزراعية النسبية لأودية جبل غياثة، ما أشار إليه أكثر من واحد من الرحالة، من حداقة عدد من سكان هذه الأودية المعلقة، في استخراج أنواع من المعادن كالحديد والرصاص(83)، فإننا نتفهم كيف استطاعت مجموعة غياثة، على غرار عدد من سكان الأطلس المتوسط الشمالي، أن تعيش منذ مدة غير وجيزة، وخلال فترات تطول أو تقصر، في منعة إزاء مبادرات المخزن المُمَركزة، إذ أن جبلهم «عسير المرتقى (...) يمكنهم من الصمود أمام حصار يدوم عشر سنوات لأنهم يجدون في نفس المكان كل ما يحتاجون إليه» كما وصفهم الوزان منذ القرن 16م(84). وفي أوائل هذا القرن لاحظ أحد أعضاء المخابرات الفرنسية بشأنهم «إن غياثة يعتبرون أن وعورة بلادهم سوف تجعلها في معزل عن التدخل الأجنبي («الرومي») هكذا فهم يختزنون الحبوب في الجبل بالرغم من كون أراضي حرثهم ومرعاهم وقراهم بالسهل، حتى إذا ما شعروا بأي خطر كان أول ما يقدمون عليه، الالتجاء إلى جبل تازكا والشعرة عند بني وراين»(85).

---

(79) EL MERAKCHI، (م.س)، ص. 9.

(80) انظر: EL ABBASSI، (م.س)، ج 1، ص. 317، DE FOUCAULD، (م.س)، ص. 29 وROHLFS, **B.C.A.F**, 1914, N°1, pp. 14-15

(81) EL MERAKCHI، (م.س)، ص. 10.

(82) DE FOUCAULD، (م.س)، ص. 33.

(83) DE FOUCAULD، ن.م. ص ص. 33–34 يشير إلى أن ثمانين أسرة غياثية تشتغل بصناعة الرصاص، ويعتبرها أهم صناعات القبيلة. انظر أيضا GOUVION, Marthe et Edmond, **Kitab Ayane al Maghrib al Aqsa**, Alger, 1357 (1939), p. 800.

(84) الحسن الوزان، (م.س) ج 1، ص. 277.

(85) انظر **B.C.A.F.** 1912 **R.C** N° 6 p. 213.

د ـ غياثة وجوارها والمخزن

إن حياة الشظف بالأودية، وضرورة البحث عن المراعي الشتوية في الأراضي الواطئة لقطعان الماعز الغياثية، هي العوامل التي كانت تدفع غياثة مرة مرة إلى الدخول في مجابهة مع سكان التلال الشمالية مكناسة، والغربية الحياينة، أو إلى الدخول في مواجهة مع المخزن الذي يحاول التحكم في حوض إيناون باعتباره مسلكا رئيسيا في اتجاه الشرق عامة، وتازة، قاعدة المنطقة، خاصة.

هذه المواجهات المتكررة هي المسؤولة عن السمعة العسكرية لغياثة، والتي كانت تُرعب الأجانب والمخزن على حد سواء[86]. وإذا كنا سوف نتعرض فيما يأتي لعلاقات غياثة والمخزن بكيفية أدق عبر علاقاتها بمدينة تازة، فإنه من الممكن، منذ الآن، القول إن السلطة المخزنية المتمثلة في قواد معينين، تنضبط لهم القبيلة، لم تكن مستمرة الوجود بغياثة في النصف الثاني من القرن19م، حتى بعد الحركتين الحسنيتين سنتي 1874 و1876. صحيح أن الكتابة الاستعمارية تجنّت على الواقع حينما أكدت غيرما مرة أن غياثة مثلت منطقة «سيبة» مستمرة منذ أن كانت[87]. بيد أن مراجعة المراسلات المخزنية تدل على أن غياثة مثل جارتها بني وراين، لم يكن الحضور المخزني فيها سوى متقطعا[88]. وهي أيضا من القبائل التي بقيت فيها المؤسسات القبلية فاعلة حتى آونة متأخرة، وقد سجل DELBREL، أثناء مروره بالقبيلة سنة 1899، بعض أسماء الشيوخ الذين يشكلون آيت الأربعين بالقبيلة[89]. وكان قد سبق لـEL MERAKCHI، خمس سنوات قبل ذلك، عند عبوره لإيناون سنة 1894، أن أشار إلى غياب أحد أعيان غياثة عن داره، لحضور أحد «الميعادات»[90]. في هذا الجانب تتشابه غياثة وبني وراين، التي لن نتعرض لها

---

(86) DELBREL، (م.س)، ص. 174.

(87) من DE FOUCAULD (م.س). ص. 34، إلى GOUVION (1939) ص ص. 799-800.

(88) هكذا نتوفر على عدد من الرسائل تخبر عن «بقاء فرق من غياثة بدون قائد»، تعود إلى سنة 1890/1308 و1894/1312.

(89) DELBREL (م.س)، ص. 175، سمى منهم خمسة قدور ولد الطالب محمد، أحمد ولد بلالت، ولد ليجة (؟) عزوز ولد محند (؟) الأشهب بوعبيد القيوطني، ولا يستبعد أن تكون هذه المؤسسة قد عادت إلى الحياة بعد أن كانت قد دخلت في الظل أيام س. الحسن.

(90) احتفظت عمدا بالوزن الدارج للإحالة على المؤسسة. انظر EL MERAKCHI، (م.س)، ص. 11، ويتعلق الأمر بقدور ولد الطالب محمد الذي كان مرفوقا في هذا «الميعاد» بما لا يقل عن 83 من أعيان بني وجان. و«الميعاد»، كما يدل اللفظ، موعد بين أعيان القبيلة لتدارس شأن من شؤونها الداخلية أو التي تربطها مع جاراتها أو مع المخزن.

بالدرس إلا بعد البحث في ظهور وتجذر مجموعة الحياينة، عملا بما حددناه من مقياس ظهور المجموعات القبلية بالمنطقة.

2 ـ الحياينة القبيلة المندمجة

مثلت حقبة القرنين 15م ـ 16م، انكسارا بشريا ضخما اخترق الجسم المغربي من أقصاه إلى أقصاه، تميز باختفاء أسماء وبروز أسماء جديدة، ضمن الساكنة المغربية. إلى هذه الفترة يرجع بروز أسماء تجمعات قبلية هامة مثل آيت باعمران أو آيت عطة في الجنوب؛ ثم الرحامنة في الوسط، والحياينة أخيرا في الشمال(91).

في جل هذه الحالات نجد بروز التجمعات القبلية الكبرى، ذا علاقة وطيدة سواء كان ذلك باديا أم خفيا، بالظرفية العامة تقلص التجارة البعيدة بسبب جثوم الزحف الإيبيري على السواحل، رد الفعل المغربي بقيادة الزوايا ضد هذا الزحف.. هكذا وجدنا الرحامنة يزحفون نحو الشمال في ركاب التقدم السعدي(92) والحياينة يظهرون في حوض إيناون في غمرة الصراع السعدي ـ التركي.

كيف ظهرت هذه القبيلة وكيف تم اندماجها في الإطار الإيناوني ؟ ما مدى أهميتها المحلية وما هي علاقتها مع مجالها؟ وماهي علاقتها مع جوارها ومع السلطة المركزية خلال القرن19 ؟ سوف نتطرق لبعض عناصر الإجابة عن هذه الأسئلة عبر النقط المحورية التالية

أ ـ أسطورة الأصل.

ب ـ الحياينة ومجالهم.

ج ـ الحياينة وجوارهم.

(91) استقيت هذه المعلومات من أعمال L. MEZZINE، P.PASCON، G. LAZAREV، السابقة الذكر. فيما يخص آيت باعمران، اعتمدت مناقشات شفوية مع علي المحمدي الذي كان ينهي بحثا حول هذا التجمع القبلي. فيما يتعلق بالحياينة، اتبع عن كثب، تكملة أو مناقشة، ما كتبه LAZAREV, G., «Structures agraires et grandes propriétés en pays Hayaïna (Prérif)», **Revue de géographie du Maroc»**, N° 9, 1966, pp. 23-58.

(92) PASCON، (م.س)، ص ص. 187، 190ـ191.

أ ـ أسطورة الأصل

أورد LAZAREV في معرض حديثه عن ماضي الحياينة روايتين حول أصل القبيلة اطلع عليهما لدى السكان في عين المكان(93).

ـ الأولى تفيد أن رجلا كان له ثلاثة أبناء، إثنان من زوجة، وهما عُمران وريان، والثالث، وهو عليان، من زوجة ثالثة، وكان ذلك الرجل يمتلك بلاد الحياينة. ولما توفي قرر الأبناء الثلاثة اقتسام الأرض فيما بينهم، فكان نصيب عمران نواحي ورغة ونصيب رياب نواحي إيناون ونصيب عليان نواحي وادي اللبن بينهما. وكان هذا التوزيع يهدف إلى وضع الأخ غير الشقيق في الوسط، حتى لا تسول له نفسه بمغادرة أرض الآباء.

ـ الثانية تفيد أن أرض الحياينة كانت لصنهاجة الشمس، قبل أن يأتي أولائك من أرض الجزيرة، ويستقروا بها(94).

هاتان الحكايتان، كسائر أساطير الأصول القبلية، تتموقعان بين الرمز والواقع التاريخي. ومن السذاجة اعتماد منطوقهما الرمزي للاقتراب المباشر من ذلك الواقع. بيد أن استنطاق ما يتوفر من نصوص على ضوئهما، ومساءلة واقع الحياينة الراهن من خلالهما، ربما كان ذلك كله على درجة كبيرة من الخصوبة(95).

---

(93) LAZAREV، (م.س)، ص. 33.

(94) انظر LAZAREV، ص. 33. وقفت عدة مرات على الرواية الأولى، آخرها في ماي 1983، لدى مقدم ضريح الولي محمد السهلي، تـ 918/1511ـ1512 غرب تيسة، لكن مع تعديل طفيف: تأويل التوزيع لا يبرز العلاقات القرابية بين الإخوة الثلاثة، بل يلح على مستوى شجاعتهم وقدرتهم القتالية بما أن عليان كان أقلهم شجاعة، فقد وضع في الوسط حتى لا يكون على جبهات المواجهة مع المجموعات القبلية الأخرى. في حين لم أقف على الرواية الثانية، على الأقل في هذه الصيغة الواضحة. فقد جاء في كراسة وزعتها «جمعية مربي الخيول بتيسة»، بمناسبة «المهرجان الثاني للفروسية بتيسة» (1981)، ص. 17، ذكر رواية، تجمع، في الواقع، بين الروايتين السابقتين وتفيد أن أهم أولياء الحياينة، وهو محمد بن الحسن الجناتي، لما توجه إلى الشرق، التقى بشخص يُدعى «حيون»، أكرم مثواه، فدعاه الولي إلى القدوم معه إلى المغرب حيث كانت «أراض شاسعة وخصبة تتطلب من يستثمرها»، فجاء حيون مع أبنائه الثلاثة.. بقية الحكاية شبيهة بالرواية الأولى.. عن الولي محمد السهلي انظر: الكتاني، محمد بن جعفر بن ادريس، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، ط. ح. فاس، 1316/1898، 3 أجزاء ج 2، ص. 211 و214. وردت نفس الرواية تقريبا في **B.C.A.F.**, 1912, **R.C.** 6, 210

(95) تؤكد L. VALENSI، ص. 31ـ36 أن الرواية الشفوية لا تخصب معرفتنا بإضافاتها بل بتحويراتها وأخطائها أيضا. VALENSÍ, L., **Fellahs tunisiens : L'économie rurale et la vie des campagnes aux 18ᵉ et 19ᵉ Siècles**, Mouton, Paris-Lahaye, 1977.

تحيل الأسطورة الأولى على منشأ محلي سُلالي، لقبيلة الحياينة، وهو ما يدل على تشبث المجموعة الحياينة بانغراسها واندماجها في المجال الإيناوني، وإن تعارض ذلك مع المسار التاريخي الفعلي لتكون القبيلة. في حين تقترب الحكاية الثانية من الاحتمال التاريخي، وإن اختزلت تعقد السيرورة التاريخية في حركتين أساسيتين إقامة صنهاجية سابقة، ووفود عربي غير محدد الزمن. بيد أن قيمة هاتين الأسطورتين لن تبدو بجلاء إلا بعد جولة في الأصول المكتوبة.

صحيح أن المصادر السعدية الأساسية الوزان، MARMOL، **الدوحة**، **مناهل الصفا**، **النزهة** إلخ، لا تشفي كثيرا من غليلنا فيما يتعلق بأصل الحياينة ولا بالكيفية التي استقروا بها في حوض إيناون، وإنما تكتفي برسم لوحتين متوازيتين متتاليتين لساكنة الحوض الإيناوني.

أولى اللوحتين قبيل منتصف القرن 16 تبدو المناطق الواطئة من حوض إيناون تحت نفوذ قبيلة بني وَمُود التي وصف أنشطتها الحسن الوزان على الكيفية التالية «والأراضي الزراعية في كل منحدرات [ها] جيدة. والماشية كثيرة إلا أن الماء قليل»، وأشار إلى الحرف المزدهرة لدى أهلها (صنع الصابون) وإلى الأرباح التي يجنونها من تجارة منتوجات هذه الحرف مع مدينة فاس(96).

تلك مميزات مجموعة من الفلاحين المستقرين المعتمدين على اقتصاد من صنف جبلي، يجمع بين الزراعة والماشية والأنشطة الحرفية. ولا نستطيع، للأسف، أن نتبين ما هي علاقة هذه القبيلة، بقبائل أخرى يبدو أنها عاشت بالمنطقة منذ الأدارسة على الأقل مثل صدينة وسدراتة. هل كانت سدراتة مثلا، منصهرة في بني وَمُود؟ أم مجاورة لها فقط؟ كيف فات ذكرها على الوزان في هذه الحالة؟ هل يمكن، في افتراض آخر، أن تكون سدراتة، قد أفلحت في الحفاظ على اسمها عبر المراحل المختلفة التي انتمت فيها إلى تجمعات أوسع بني وَمُود ثم الحياينة فيما بعد؟ أسئلة ليس لدينا، الآن، ما يوفر إمكانية الجواب عليها.

مهما يكن، فإن الوزان يعطي إشارة دقيقة، تحيل على وضع بني ومُود المهدّد من الناحية الديموغرافية «وليس بهذه البلاد أكثر من خمس وعشرين قرية»(97). وهو

(96) الوزان، (م.س)، ج 1، ص. 264.
(97) ن.م، ص.

رقم ضعيف بالقياس إلى جاراتها في نفس الفترة بني زروال شمالا 120، مطغرة ومكَاصة شرقا 50 ثم 40 على التوالي[98]. وليس لدينا ما يمكن من تفسير هذا الضعف الديموغرافي عدا ما يمكن افتراضه من قابلية سكان الأراضي الواطئة للتأثر بشتى أنواع الآفات الطبيعية (أوبئة، مجاعات) أو البشرية (حروب إلخ)، وذاك ما سبق افتراضه في شأن قبيلة أخرى مجاورة، عاشت ظروفا مماثلة هي قبيلة بني وريثن[99].

بعد منتصف القرن 16م، يقل ذكر بني وَمُود، ولا نجد إشارة واضحة إليهم سوى عند ابن عسكر، في معرض ترجمته «ليحيى الحاج الوامودي من بني وامد»[100]، حيث يبدو أن القبيلة، في الوقت الذي ألف فيه ابن عسكر (1577)[101] كانت ما تزال لا تحتاج إلى مزيد تعريف.

فجأة يختفي ذكر اسم بني وَمُود من حوز فاس، وبنفس الطابع الفجائي تظهر «قبائل الحياينة، أهل جهة تازة»، ضمن القبائل التي ساندت ثورة الناصر سنة 1595/1003[102]. وإذا ما تذكرنا أنه إلى غاية كتابة **الدوحة**، لا يبدو أن مجموعة الحياينة كانت معروفة، على الأقل تحت هذا الاسم[103]، فإنه يصبح من المقبول أن نزيد في تضييق الهامش الزماني الذي سبق أن اقترحه LAZAREV كفترة محتملة لظهور تسمية الحياينة بالمنطقة، والذي حدده فيما بين 1540 و1610[104]، في حين بات من الجائز أن نحدد ذلك الظهور على ضوء ما سبق وبكيفية شبه يقينية، فيما بين 1578 و1595.

---

(98) ن.م، ص ص. 262، 277، 278.

(99) انظر، ص. 142-144 أعلاه.

(100) ابن عسكر، (م.س)، ص. 63. ومن باب الرمز عن مصير القبيلة برمتها أن يقول المؤلف في شأن المترجم له أنه «باع أملاكه وهاجر». وقد توفي الوامودي هذا في حدود 1548/955.

(101) ن.م، من تقديم محمد حجي، ص. ب.

(102) LAZAREV، (م.س)، ص. 34. والفشتالي، (م.س)، ص. 176. ولكل كلمة من مقطع الجملة الذي خص به الفشتالي ظهور الحياينة قيمتها الخاصة كما سنلاحظه.

(103) مما يؤيد هذا الرأي أن DIEGO DE TORRES، الذي عاش في المغرب، حتى حدود 1578 ووصف أحداث الشمال في ذلك الإبان لم يذكر اسم الحياينة.

DIEGO DE TORRES, **Histoire des Chérifs et des royaumes de Maroc de Fès et de Tarudant**, trad. Duc d'ANGOULEME. inclu dans MARMOL, T. 3.

(104) LAZAREV، (م.س)، ص. 34.

خلال هذه السنوات السبع عشرة إذاً، ظهرت تسمية الحياينة. هكذا نكون قد حاصرنا الاسم فحددنا زمن ظهوره. لكن الواقع الذي توَّجَه ظهور الاسم ما يزال يفلت من قبضتنا كيف يمكن فهم ظهور هذه التسمية على ضوء أبرز أحداث إيناون أواخر القرن 16م؟ عبر أي مسار تم تشكل الحياينة كمجموعة قبلية؟ لا نستطيع الجزم بأي جواب، عدا أنه من الممكن أن نتصور أن الواقع الذي جاءت التسمية لتحصر معالمه، كان ولا شك محصلة لتاريخ قرني معقد، دل نحت الاسم فقط على اكتماله ونضجه.

ما هو الحدث البارز الذي طبع الفترة التي ظهرت فيها تسمية الحياينة؟ ليست وقعة وادي المخازن كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما الصراع الذي دار بين المتوكل وعميه والذي قاد إليها. وقد دارت رحى الفصول الأولى لهذا الصراع في حوض إيناون بالذات. أول مواجهة بين عبد المالك وابن أخيه سنة 1576 تمت ببني وريثن، ونعلم أن أولاد عمران ساهموا فيها، وانحازوا إلى جانب عبد المالك بعد أن كانوا ضمن جيش المتوكل(105). وأولاد عمران أهم قبيلة من مجموعة الحياينة، ولعلها أول من استقر بهذه المناطق.

فهل كان أولاد عمران قبيلة جيش سعدي كما يقترحه LAZAREV؟ صحيح أن ذكر أولاد عمران تكرر مرتين **بالنزهة**(106). وصحيح أيضا أن الفشتالي أورد إشارات مقتضبة وغامضة إلى أن «قبائل السوس» كانت ضمن «دواوين الخراج»، مما قد نستفيد منه أن تلك القبائل استوطنت أحواز فاس على عهد عبد المالك إن لم يكن قبل ذلك(107). على أن هذه الشواهد تظل ضعيفة لا تكفي لإقناعنا بأن الحياينة كانوا فعلا من الجيش السعدي، سيما وأن اسم أولاد عمران الذي يمثل إحدى حجج LAZAREV الأساسية يحتمل اللبس. ففي المكان الثاني، حيث ذُكر هذا الاسم في **النزهة**، يبدو بجلاء أن أولاد عمران المقصودين، يقطنون أحواز مراكش، وبالتالي ليسوا أولاد عمران ـ الحياينة(108). إذا لم يكن من المؤكد أن أولاد عمران، وأحرى كل الحياينة، كانوا منظمين في شكل قبيلة جيشية، موزعة على المئين

(105) الوفراني، (م.س)، ص. 62.
(106) ن.م، ص ص. 62 و177.
(107) الفشتالي، (م.س)، ص. 33.
(108) يعترف LAZAREV نفسه أن عددا من فرضياته ما تزال في حاجة إلى مزيد بحث.

والأراحي(109)، فإنه من المحتمل أن يكون المخزن السعدي أو حتى المريني قبله، قد أوكل إلى فرق منها لم تكن قد توحدت تحت نفس الاسم بعد، ببعض المهمات المحددة، كحراسة الطريق(110).

ألحت جملة من المصادر على انتماء العمارنة، أو أولاد عمران، إلى ذوي منصور من معقل(111)، وعلى وفود معقل من المشرق إلى الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية من المغرب، بكيفية تلقائية ابتداء من القرن 14م. ولا يستبعد أن تكون العناصر الأولى التي كونت الحياينة فيما بعد، استقرت في المنطقة منذ هذه الفترة المبكرة (أولاد عمران؟) ثم جاءت عناصر أخرى لتنضاف إليها من القبائل العربية الأخرى، ولينصهر الكل مع الأصل الصنهاجي أو الزناتي السابق، في إطار الاسم الجديد، سيما والقبائل السابقة في حوض إيناون على ما وقعت الإشارة إليه من الوهن الديموغرافي(112).

في هذا الصدد تكتسي صيغة الجمع «قبائل الحياينة» التي استعملها الفشتالي كل أهميتها الدلالية، إذ تحيل مباشرة على التعدد والتنوع الذي يبدو بكيفية جلية من استعراض بعض أعلام الفرق والأفخاذ الحيانية، التي ترتبط بشتى قبائل المغرب.

(109) من الواضح أن الرواية الشفوية التي اعتمدها LAZAREV تُدغم مستويات تنظيمية وزمانية متعددة. ن.م، ص. 38، هامش 39.

(110) انظر ص. 70 أعلاه.

(111) الناصري، (م.س)، ج 2 ص. 179، عن ابن خلدون، MARMOL، ج 1، ص. 84–85.

(112) إن ما يؤكد هذا التشكل القرني لقبائل الحياينة، وكذا تعدد الأصول المكونة للمجموعة، يمكن استفادته من حالة المرابط محمد السهلي المشار إليه سابقا. رواية مجيء هذا المرابط كما تحتفظ بها الذاكرة الجماعية المحلية أتى فاراً بنفسه من استبداد أحد السلاطين الوطاسيين المتأخرين، بمراكش. هل في ذلك إحالة على أن أصل بعض فروع الحياينة من الجنوب ؟ مهما يكن فإن سلسلة مشايخ هذا المرابط، المكتوبة على رق الغزال سنة 952/1545–1546 ترفع نسبه إلى قبيلة السهول وتقرر أنهم أخواله. ومن جهة أخرى، في رسم إراثة، يتعلق بميراث دار بدرب اللمطي من العدوة بفاس، يرد اسم لإحدى زوجات محمد العربي ابن محمد السهلي على الشكل التالي «زهرة بنت محمد العاجي» نسبة إلى أولاد عاجة. وبما أن تاريخ الإراثة هو 958هـ/1551–1552 فإن أولاد عاجة، الذين هم اليوم، فرقة من أولاد عليان، كانوا موجودين بالمنطقة في النصف الأول من القرن 16م. هذه الوثائق الشاهدة بأصول وقدم تشكل الحياينة هي في ملك مقدم الضريح الراهن. بيد أن الذاكرة الجماعية الراهنة، حينما نسائلها عن مدى أقدمية المجموعة البشرية، نادرا ما تسعفنا بأكثر من قرنين. ذاك ما يبدو في تقارير عدد من طلبة المعهد الزراعي بالرباط، إذ لا تتجاوز شجرات النسب التي يتوصلون إلى بنائها ستة إلى سبعة أجداد.

جدول 9 ارتباط أسماء الحياينة بأسماء قبائل أخرى

الاســـم	موقعه من الحياينة	موقعــه	من القبيلة الأخرى
الحياينــة	اتحاديــة	قريــة	دكـالـــة
أولاد عمـران	قبيلــة	قبيلــة	ذوي منصور ـــ معقل
أولاد عمـران	قبيلــة	فرقـــة	دكالــة
أولاد عمـران	قبيلــة	فرقـــة	هـــوارة ســـوس
أولاد عمــران	قبيلــة	اتحاديــة	آيت باعمـــران
هـــوارة	فرقة من أولاد عمران	قبيلــة	هوارة ســـوس
هـــوارة	فرقة من أولاد عليان		هوارة كَرسيـــف
الدوامـــة	فرقة من أولاد عليان	قبيلــة	ذوي منصور ــ معقل
الشبانـــات	دوار من المحررين من أولاد عمـــران	قبيلــة	شبانات حوز مراكش (ق16)

المصادر LAZAREV، (م.س)، ابن زيدان **العز والصولة**، بوشارب **دكالة**، محمد المختار السوسي **خلال جزولة**. B.C.A.F. 1912. R.C. 6.

يتضح من الجدول السابق مدى اتصال القبيلة بالقبائل العربية الأخرى(113) لكن الشواهد الأعلامية عن المجموعات السكنية السابقة للاسم الجديد متعددة أهمها سدراتة، هوارة، صدينة(114). وقد نستنتج أيضا من نفس الجدول بعض المسارات الجغرافية المحتملة التي وفدت قبائل الحياينة عن طريقها، قبل حط الرحال في إيناون.

صحيح أن نص الفشتالي من بتوطيد دقيق لما أكد أن الحياينة «أهل جهة تازة»(115). هل هي مرحلة من تقدم الجزء الأساسي من القبيلة من الشرق في اتجاه الغرب؟

(113) ورد في الأزموري، محمد بن عبد العظيم **تقييد لشرفاء المغرب وقبائله** مخطوط خ.ع.ر. 1595، ص. 171 ظ «وأما الحياينة فمنهم فرقة أولاد عمران وإخوانهم في دكالة وأولاد عليان وإخوانهم في الرحامنة والباقي من ذرية جالوت وإخوانهم بحوز مراكش».

(114) الطابع «العربي» لمجموعة الحياينة يبدو في تكاثر الأعلام المبتدئة بـ«أولاد» في تسمية الفرق والجماعات، بدءا من التقسيمات الكبرى مثل أولاد عمران حتى أصغر التقسيمات.

(115) لا يعج كتاب **مناهل الصفا** بمثل هذه الإشارة الدقيقة بل يفضل صاحبه بدلا منها إغراق النص في التعميم الرنّان !

مهما يكن، فإن أولاد عمران، حتى عبر كثرة ورود اسمهم، يبدون كجذع أساسي في المجموعة الحيانية، جاءت الفروع الأخرى لتلتحم حوله(116).

يمكن الآن العودة إلى أسطورتي الأصل، وقد تبدّى ما نستطيع ضفوَه من مدلول تاريخي على كل من الأسطورة الثانية والأولى.

إذا كانت الأسطورة الثانية تشير بوضوح إلى التحام العنصر العربي الوافد بالعنصر الصنهاجي أو الزناتي السابق، فإن الأسطورة الأولى تستدعي تأويلا مختلفا نسبيا ليس من الصدفة أن يُنعت عليان بالأخ غير الشقيق، ويُتهم بالجبن(117)، ويُعلل بذلك توطين أولاد عليان الوسطي، إذ أن نظرة خاطفة على الخريطة تبرز أن جل بقايا المجموعات السكانية السابقة لظهور الحياينة، كسدراتة مثلا، تقطن هذه الجهة الوسطى من القبيلة، وإذا كانت الحكاية قد رمزت إلى علاقة الوافدين بالسابقين، بقرابة نصف الأخوة، وألمَحت إلى التغلب بالجبن، فإنها أبرزت تمسك المجموعة الحياينة بالرصيد السكاني الأسبق، وإصرارها على استيعابه، عن طريق تأويل التوطين، كمحاولة لمنع نصف الأخ من مغادرة أرض الأجداد.

بالرغم من كل ما سبق، يظل السؤال مطروحا لماذا هذا الاسم «الحياينة» ـ بالذات ؟ تقدم LAZAREV بفرضية مفادها أن هذا الاسم قد يرتبط بقائد للحياينة كجيش سعدي، ربما كان يسمى «حيان» أو «حيون». صحيح أن مثل هذه الأسماء تتكرر بتواتر في أعلام الحياينة، (أولاد حيون، حيانات إلخ..) بيد أن الحجج التي يبني عليها LAZAREV افتراضه غير تامة الإقناع، سيما وقد بدا لنا أنه ليس من المؤكد أن تكون الحياينة انتسبت إلى الجيش السعدي، وهو ما يضعف من حظوظ إجرائية الفرضية.

هل هذا الاسم اشتقاق من/وتحريف «لأولاد يحيى» المعقليين، كما يقترح ذلك بحث حول فاس وباديتها في القرن 16م، دون مزيد من الشواهد ؟(118).

(116) LAZAREV، (م.س)، ص. 37.

(117) ثمة شواهد أعلامية إضافية اسم الفخذة الوحيد الذي يحتفظ بوزن أمزيغي صريح ضمن الحياينة «نكَوشت» ينتمي بالضبط إلى سدراتة، في حين أن سدراتة تنتمي إلى فرقة من أولاد عليان تدعى «المسكرين». وليس من المستبعد أبدا أن يكون لقبا تحقيريا أطلقه المتغلبون الجدد ومن الجدير بلفت الانتباه أن الفاسي في تعداده المفصل لفرق الحياينة وأفخاذها لا يشير إلى سدراتة ضمن فرق أولاد عليان، وإنما بكيفية منفردة ضمن القبائل البربرية التي تعربت ـ انظر **الأقنوم**، ج 2، ص. 195.

(118) محمد مزين، (م.س)، ص. 94.

من المؤسف ألا يكون لدينا لحد الآن ما يبيح التقدم في الموضوع بتأويل لا يقبل الشك، بيد أنه إذا كان مجال الاجتهاد في تأويل مضمون الأعلام(119) مفتوحا، شريطة أن ينبني أي اجتهاد على ما يقوي مصداقيته من قرائن ومستندات، فإنه بالإمكان، على سبيل المقاربة، أن ندرج هنا مثلا سائرا بالمنطقة إلى اليوم، قد يساعد في هذا التأويل وهو

«الحياينة أحْيَوْنا واحْيَوْا أولادْ اوْلادْنا»(120).

هل تعلق الأمر بإحياء الأراضي ؟ أم بإحياء الساكنة ؟ إذا لم يكن بمستطاعنا تحديد ظروف ظهور المثَل، ولا من قال به، فإن فكرة الأحياء الواردة فيه ذات حمولة مزدوجة من جهة تدل على الانغراس في المجال، ومن جهة أخرى تحيل على فضل الوافدين على السابقين. بهذا التأويل، لا يستبعد أن تكون تسمية الغالبين من صنع المغلوبين، وهو ما قد يفسر عدم ذكر اسم الحياينة قبل بروزه مكتمل المعالم بالحوض الإيناوني.

مهما يكن من أمر، فإن تجمع الحياينة ولد تحت نجم المواجهة للسلطة القائمة بفاس، لما ساندت القبيلة ثورة الناصر. وقد أسالت مشاكسة الحياينة لأهل فاس، الكثير من مداد الفقهاء الذين عبر القرون أصدروا الفتاوي(121) المتكررة لاستدرار سخط الله والحاكم عليهم، إذ أن مواطنهم على مصبات الطرق الشمالية والشرقية نحو فاس، كانت تضع بين أيديهم بعض مفاتيح التحكم في مصير المدينة.

بيد أنه لا يجب أن نستنتج من ذلك أن علاقات الحياينة بالمدينة، كانت دائمة التوتر. فقد تعددت أشكال التبادل والتأثير، سيما وأن مجموعة الحياينة، أصبحت خلال القرون 17ـ19م من أهم المجموعات القبلية بأحواز فاس، عدديا، اقتصاديا، وسياسيا.

ب ـ الحياينة ومجالهم

لم تحتفظ لنا النصوص الراجعة إلى القرنين 16 أو 17م بتقديرات عن مجموع

(119) انظر محاولة PASCON، مثلا، في شأن «الرحامنة» (م.س) ج 1، ص. 186.

(120) عبد السلام بن سودة، **أمثال فاس**، (م.س) ج 1، 270.

(121) طالما عمل الفقهاء بمبدإ أخذ القبيلة بجريرة مذنبها، مما جعلهم يعممون مسؤولية الحياينة على قضايا قد لا تعني سوى جزء ضئيل منهم.

الحياينة عند تكون تجمعهم، وإن كان الأقنوم قد سجل لائحة كاملة بانقسام القبيلة إلى فرق وأفخاذ وجماعات مما يوفر إمكانية المقارنة مع لوائح بداية القرن 20م.

وفي أواخر القرن 19م ، تتحدد معالم حجم الحياينة الديموغرافي، إذ أن جل الرحالة المتجهين من فاس إلى الجزائر كان عليهم بالضرورة قطع أراضي الحياينة[122].

بيد أن معلوماتنا السكانية القريبة من الدقة لا تعدو، في الواقع، أوائل العقد الثاني من هذا القرن، لما كان الاحتلال الفرنسي قد أرسى القدم بفاس، واحتاج إلى ربط الصلة مع زحف فرنسي آخر، آت من وجدة، فتطلب «تهييء التوغل»[123] معرفة مضبوطة للقبائل الموجودة على الطريق، والحياينة واحدة منها.

---

(122) هكذا قدر دلبريل سنة 1899، (م.س)، 172، حجم الحياينة بـ4000 كانون، وهو ما يعطي حجما إجماليا يساوي 20.000 نسمة تقريبا. وقد سبقت الإشارة إلى أن الرحالة مالوا إلى استكثار حجم غياثة في حين لا يستبعد أن يكونوا قد قللوا من حجم الحياينة، باعتبار تراجع هؤلاء الأخيرين أمام كل من بني وراين وغياثة في أوائل هذا القرن.

(123) DE CAIX، (م.س)، ص. 180.

جدول 10 : نموذج من تطور إحدى فرق الحيانية : أولاد رياب

الفرقة	الفخذة	الجماعة ق17	الفرقة	الفخذة	الجماعة ق19	الفرقة	الفخذة	الجماعة ق20	عدد الخيام
أولاد يحيى	بني حشون	الشعاشعة	أولاد يحيى	الشعاشعة	الشعاشعة	أولاد يحيى	الشعاشعة	الزرينة ـ أولاد بن عيشة	220
		المعاتكة			المعاتكة			الطوابعة ـ الشعاشعة	
		البراطلة			الغرابة		الغرابة	الموالدة ـ أولاد ثريا ـ السلاطنة	195
		بني عيشة			أولاد عياد			الغرابة	
		أولاد بوطحابة			الزمامرة		أولاد عياد	أولاد عزوز ـ أولاد حمو	230
		عبابزة			الكرنة				
	ضمر	أولاد كيحل							
		أولاد سالم							
		الطوابعة							
		بني ذراد							
		الكرانة							
		العبابزة							
الأغوال	أولاد عزوز								
	أولاد عجال								
	العتارمة								
أبو النخل			أولاد بنّخل		الاغوال	أولاد بنخل	الغوال	العتارمة ـ أولاد دح	315
	جابر				الشبابات			أولاد عجال ـ النبكين	
	موسى	بني جارية			أولاد بوزيان			أولاد سالم ـ الكديم ـ سباب	
		بني هلال			أولاد هلال		أولاد هلال	أولاد الحسين ـ أولاد قدور	190
		العسارة			العسارة			أولاد الحيان ـ أولاد المهاري	
		الحزازرة			بني راشد			العسـارة	
	أحمـد	أولاد صالح			أولاد عبد الكريم		الهبارجة	أولاد الهبريجي، أولاد الفاطمي	300
		الهبارجة			الهبارجة			أولاد السلطان، أولاد بديهاج	
الكراكرة					أولاد ماج		بني ستيتن	أولاد عمران، المودنيين	110
الغرابة	بني كروم				بني خليفة			أولاد قدور	
	أولاد ثريا				بني ستيتن		أولاد عبد الكريم	أولاد عبد الكريم ـ أولاد بوزيان	400
	الموالدة						الشبابات	الشبابات، بني راشد	160
							بني خليفة		50

جدول 11 انقسام الحياينة وحجمها الديموغرافي

الفرقة		الفخذة والجماعة	عدد الخيام
أولاد رياب	أولاد يحيى	ـ الشعاشعة	220
		ـ الغرابة	195
		ـ أولاد عياد	230
	أولاد بنخل	ـ الغوال	315
		ـ أولاد هلال	190
		ـ الهبارجة	300
		ـ بني ستيتن	110
		ـ أولاد عبد الكريم	400
		ـ الشبابات	160
		ـ بني خليفة	50
أولاد عليان	المسكرين	ـ الدوامة	130
		ـ أولاد ملوك	90
		ـ أولاد علي	65
		ـ أولاد تخيل	510
		ـ سدراتة	145
		ـ أولاد الحمون	60
		ـ أولاد عزيز	50
		ـ المطالسة	110
	عليان	ـ أولاد عاجة	200
		ـ الجياهنة	40
		ـ أولاد حسن	20
		ـ زوامة	40
		ـ أولاد جابر	40
أولاد عمران	الحشالفة	ـ الجعافرة الفوقية	900
		ـ الجعافرة السفلية	400
		ـ أولاد بن غينة	300
		ـ أولاد عمارة	200
		ـ الرشاشيين	80
		ـ أولاد السلطان	10
		ـ جياهنة	70
		ـ الحرارشة	50
	أولاد يوسف	ـ أولاد غنام	100
		ـ أولاد بوشتى	200
		ـ المحريين	300
		ـ أولاد جموح	100
		ـ أولاد عيسى	400
المجموع			6.780

المصدر **B.C.A.F. 1912, R.C. n° 6, pp. 210-212**

يستدعي الجدولان السابقان بعض الملاحظات

– على صعيد الحجم السكاني الإجمالي، يمكن وضع الحياينة في مصاف القبائل الكبرى بشمال المغرب في أوائل هذا القرن. فإذا ما طبقنا قاعدة التضعيف بـ 5 على عدد الخيام 6780، يكون حجم الحياينة هو 33.900 نسمة، وإن كان التقدير الإجمالي الذي اقترحه ضباط المخابرات الفرنسية هو 28.000 نسمة. وعلى سبيل الاستئناس، يمكن مقارنة هذا العدد مع تقدير نفس المصالح لقبائل أخرى : بني حسن 13000، سفيان 18000، بني مالك 15000.

أما في حوض إيناون، فإنها أكبر قبيلة على الإطلاق، إذ لا تقاربها سوى بني وراين بحوالي 20.000 نسمة، وتبقى كل من بني سادن 4000، وآيت سغروشن حريرة 3500، دونها بكثير(124).

لعل حجم الحياينة السكاني هذا هو ما يفسر حضورها المستمر في الأحداث التي ربطت النواحي الإيناونية بالمركز المخزني، في القرن 19م. وعلى كل فإن هذا الحجم يفسر المواجهات المتكررة بين الحياينة من جهة وغياثة أو بني وراين من جهة أخرى.

– حول مقارنة التشكيلتين اللتين تظهر بهما مجموعة الحياينة في القرن 17م ثم القرنين 19و20م، من خلال نموذج أولاد رياب، يمكن إبداء جملة من الملاحظات

أولا – اختفاء عدد من الأسماء، بالخصوص في مستوى الفرق الكراكرة، أو الأفخاذ بني حشون، ضمر؛ في حين نجد عددا من الأسماء كانت بمرتبة الجماعات في القرن 17، قفزت في القرن 20م إلى مستوى الأفخاذ.

ثانيا خلال مدة قرنين وربع، حصلت إعادة ترتيب كبيرة ضمن التشكيلة القبلية، لم تصب البناء العمودي فحسب، بل التوزيع الأفقي الجغرافي. هذا ما يفسر التغيرات سابقة الذكر، ويفسر أيضا اندراج أسماء كثيرة في القرن 20م، في مجموعات مخالفة لتلك التي كانت فيها في القرن 17م أولاد سالم مثلا انتقلوا من فرقة أولاد يحيى إلى فرقة الأغوال، في حين أن أولاد عزوز لم يعودوا ضمن فرقة الأغوال وأصبحوا جزءا من فرقة أولاد عياد، التي هي تسمية جديدة تماما.

(124) انظر B.C.A.F. 1912 — R.C. 6 et 1913.

ثالثا إن بعض الأمثلة من تغلب الاسم على مجموعة معينة، تدل على أن هذا التغلب ذو مغزى سياسي بالأساس. مثال ذلك فرقة أولاد بنّخل في القرن 17م تضم ثلاثة أفخاذ تتفرع إلى سبع جماعات. في القرن 20م تضم سبعة أفخاذ موزعة إلى أربع وعشرين جماعة. من باب السذاجة التفكير في أي تفسير ديموغرافي لظاهرة توسع الحقل الذي يشمله هذا الاسم، إذ أن أسماء كانت مستقلة بذاتها فيما قبل، أصبحت في القرن 20م تحت عنوان الاسم الجديد، ثم إن عدد سكان كل فرقة أو جماعة على حدة، لا ينم عن نمو ديموغرافي كبير فيما بين القرن 17م والقرن 20م: أولاد عجال، اسم معروف ضمن أفخاذ الأغوال منذ القرن 17م، لكنه، لا يتجاوز في القرن 20م ثلاثين خيمة، وقد أصبح يحيل على إحدى جماعات الأغوال التي انحدرت بدورها من مستوى الفرقة إلى صف الفخذ ضمن فرقة بنّخل التوسعية[125].

صحيح أن لإعادة التراتب التي أشرنا إليها للحين، دخل كبير فيما أصاب بعض الفرق من وهن ديموغرافي، نظرا لهجرة بعض جماعاتها إلى فرق أخرى[126]. لكن ذلك الوهن يجد تفسيره بكيفية أعمق فيما لحق الساكنة بصفة متكررة، من كوارث ديموغرافية خلال القرنين 18 و19م.

لا يمكننا إذاً اعتبار امتداد اسم أولاد بنخل، علامة على نمو ديموغرافي بقدر ماهو دلالة على توسع نفوذ هذه الفرقة السياسي[127]. ولا يخامرنا شك في أن لوجود هذه الفرقة على الخطوط الرئيسية للمسالك عبر حوض إيناون، أثرا بليغا في توسع نفوذها السياسي. ولا يخامرنا شك أيضا في أن هذه الفرقة بنَت قوتها السياسية على

---

(125) بل إن أولاد عزيز من أولاد عليان، الذين كانوا يتفرعون إلى ست جماعات لم يعودوا في أوائل القرن 20م يتعدون جماعة واحدة قوامها 50 خيمة ! وهذا مثال أسطع عما نحاول إبرازه من إعادة التراتب الداخلية التي حصلت فيما بين القرن 17م والقرن 20م.

(126) كثر تشكي القواد ببعضهم، خلال النصف الثاني من القرن 19م، بسبب انتقال جماعة من إيالة هذا القائد إلى إيالة الآخر.

(127) من علامات هذا التوسع، تواتر مواجهات هذه الفرقة مع السلطة المركزية خلال النصف الثاني من القرن 19م من رسالة جوابية على المولى اسماعيل، الخليفة بفاس «وصل كتابك بما طلبه منك الخديم الهلالي من شد عضده على إخوانه أولاد بنّخل لفسادهم بالكتب لعمال بني سادن وبني وراين وغياثة والدسول وعامل تازا (...) فلتساعده» 8 رجب 1308/1891. خ.ح.، كناش 632، ص. 81. ولعل من آثار هذه المواجهات أيضا أن رفع بعض كتبة المخزن أولاد بنخل إلى مصاف التقسيمات الكبرى للحياينة. أنظر **كناش رحلات س. الحسن** (م.س)، الذي يقسم الحياينة إلى : أولاد عمران، أولاد رياب وأولاد بنّخل !

تحكمها في أجود أراضي إيناون، أي على ثروة فلاحية ورعوية جعلتها قادرة على مواجهة جوارها والمخزن على حد سواء.

يعتبر LAZAREV عن حق أن مجموعة الحياينة من القبائل العربية التي اندمجت في مجالها مع الساكنة القديمة، وتركت أثناء هذا الاندماج عاداتها الترحالية، وتخلت حتى عن التنظيمات القبلية المؤسساتية(128).

منذ فترة مبكرة تشير النصوص إلى أن أرض الحياينة كمجال خصب يتوازى فيه رعي الماشية وانتاج الحبوب(129). وذاك ما أكدته ملاحظات الرحالة الأجانب في القرن 19م(130).

تبدو بلاد الحياينة كأرض لزراعة الحبوب، القمح، الشعير، الذرة(131). وبالرغم من ضعف التربة الطينية النسبي، فإن كدّ السكان يحول سفوح التلال حتى في فصل الصيف، إلى مساحات خضراء بما تحمله من مزروعات الذرة. ذاك ما لاحظه DOMINGO BADIA، المختفي تحت اسم ALI BEY EL ABBASSI، لما مرّ

---

(128) من الملحوظ فعلا، أنه نظرا لنمط عيشها المستقر منذ فترة مبكرة، ولقربها من العاصمة المخزنية، فإن تنظيم «أبو الأرباع» لم يبق فاعلا في الحياينة على العكس مما كان عليه الأمر بغياثة أو لدى بني وراين. على أن التنظيمات القبلية كانت تطفو على السطح مجدداً عندما يضعف المركز، أو يغرق السلطان في الابتعاد جاء في رسالة موجهة إلى العربِ ولد ابَّ محمد، أيام كان عاملا على الحياينة، مؤرخة بـ15 محرم 1303/أكتوبر 1885، والسلطان آنئذ بمراكش يتهيأ لحركته الثانية إلى سوس «خالنا ق. العربِ ولد أب محمد (...) فقد بلغنا أن جماعة أولاد بوزيان وأولاد عبد الكريم من الحياينة قد انحرفوا عن نهج الصلاح وتجردوا للبوار البواح واتخذوا شيخ الربيع، واتسموا بكل سوء شنيع فعليه نأمرك بشد عضد شيخهم عليهم حتى يعطوا يد الطاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة»، خ.ح.ر. كناش 371، ص. 18. وعن شيخ الربيع، ورد في وثيقة تعود إلى 1288/1871، في شأن بني زروال «.. جعلوا لهم عاملا مستقلا منهم (...) ونصبوا شيخ الربيعة (كذا) للحكومة فيما بينهم...» خ.ح.ر.و. ز – مج – 18 و173. مما يدل على أن شيخ الربيع أو الربيعة على الأصح، كان عبارة عن «عامل» أو حاكم تتفق القبيلة على تنصيبه، ضدا على المخزن، وترخص له، ولا شك، في التصرف فيما تجمعه من مال (الربيعة) يتطلبه الدفاع عن مصالح المجموعة.

(129) انظر كيف أن تخريب محمد الشريف لزرع الحياينة، خلف، ضمن أسباب أخرى، مجاعة بفاس، سنة 1663. ص. 91 أعلاه.

(130) أشرنا غير ما مرة إلى أن ملاحظات الرحالة حول اقتصاد البادية، لا تعوضها سوى معلومات «القوائم الحسابية» المضبوطة، التي من المؤسف أن يبقى الوصول إليها رهين النزوات الإدارية.

(131) DE FOUCAULD، ص. 27. ويعطي DE SÉGONZAC، ص. 85، تصنيفا مفصلا لأنواع القمح الذي تنتجه البوادي الشمالية.

بالحياينة في غشت 1805[132]. أما قمم التلال فنادرا ما لا تحتلها أشجار الزيتون ومساكن المجموعة[133].

بيد أن جل من مروا بحوض إيناون ألحوا على الفروق الجهوية الكبيرة، فقد أكدوا طيلة القرن على ضعف الزراعة على هضبة بني سادن، واستمرار نفس الهضبة عند الحياينة، إذ غالبا ما يكسوها «الدوم» أو «السدرة»[134]... وقد خلف منظر هذه الهضبة لدى بعضهم انطباعا عاما بضعف استغلال امكانيات الأرض ببلاد الحياينة[135]. في حين لا ينازع أحد في ثروة وادي إيناون حيث تحمل الأراضي مساحات هامة من المزروعات إلى جانب البساتين النضرة الاخضرار[136].

إن هذا التفاوت لا يجد تفسيره في خمول السكان[137]، بقدر ما كانت تبرره حاجيات نشاط أساسي آخر لمجموعة الحياينة هو الرعي، إذ أنها من أكبر مربي الماشية بشمال المغرب الأبقار والأغنام فضلا عن الأعناز ثم الخيول[138].

بيد أن أوصاف الرحالة لا تعدو في الواقع انطباعات مشروطة بفترة مرورهم بالمنطقة، وبالتالي يصعب اعتمادها في أية محاولة كمية خارج الأحكام التعميمية أو الكيفية. في حين، تزخر الوثائق المخزنية الجبائية بمعلومات مضبوطة فريدة. ومن حسن الحظ، أن استبارات أولية في وثائق الفترتين المحمدية ثم الحسنية، وبصفة خاصة في صنف «القوائم الحسابية» مكننا من العثور على معطيات متعلقة بالإنتاج الفلاحي بالحياينة على فترة ممتدة نسبيا، أتممناها بما سجلته كناشة باليمني[139]، مما جعلنا نستطيع معالجة معطيات مرقمة تتراوح بين 1868/1285 و 1890/1308،

---

(132) B.C.A.F. 1913, N° 11, p. 410.

(133) B.C.A.F. 1914. N° 5, p. 197.

(134) EL ABBASSI، ص. 316 ؛ DE FOUCAULD، ص. 26؛ DE SÉGONZAC، ص. 226؛ DE LA MARTINIERE، ص. 60.

(135) B.C.A.F. 1913 N° 12, p. 436

(136) DE FOUCAULD، ص. 29. يؤكد DELBREL، ص. 173 «أن الوادي مزروع بكيفية رائعة جدا».

(137) كما يوحي بذلك COLVILLE في .B.C.A.F. 1913 N° 12, p. 436

(138) يصف DE SÉGONZAG بلاد الحياينة بكونها مرجا فسيحا. ولتربية الخيول بالمنطقة أهمية خاصة إلى اليوم، ولعل ذلك إرث من الأصول العربية.

(139) **كناشة باليمني**، محمد الطيب بوعشرين، خ.ح.ر. نسخة مصورة. 10933، خ.ع.ر. مكروفيلم رقم 4.

وإن لم تشكل تلك المعطيات سلسلة متصلة، وهو ما جال دون التفكير في وتيرة التطور وعوامله. لذلك ظلت محاولتنا ذات دلادة اقترابية أولية.

كانت عادة الإدارة الجبائية المخزنية أن تبين الأساس الإنتاجي الذي تفرض عليه الجباية(140) وهذا مفتاح اقترابنا من مقادير الإنتاج إذا ما طبّقنا على الكميات المجباة قاعدة النّسب المفروضة. وفي هذا المستوى يمكننا أن نعتبر اعتباطا أن ما كان يجبى كان يساوي عشر المحصول، لأن ما يهمنا الآن هو بناء رقم انتاجي تقريبي واضح، وإن كان الواقع أكثر تعقيدا، والنّسب المأخوذة فعلا من السكان، نادرا ما لا تتجاوز ما تسجله اللوائح المخزنية.

تمكنا بهذه الكيفية من التوصل إلى المقادير التقريبية لإنتاج الحبوب المهمة : القمح والشعير، ثم حجم قطعان الماشية الأساسية، الأبقار والأغنام، أوجزناها في الجدول والرسم التاليين

(140) حول ما يتعلق بالجباية المخزنية، يُرجع إلى التوزاني، نعيمة هراج، (م.س).

جدول 12 : الحياينة : الزراعة والرعي

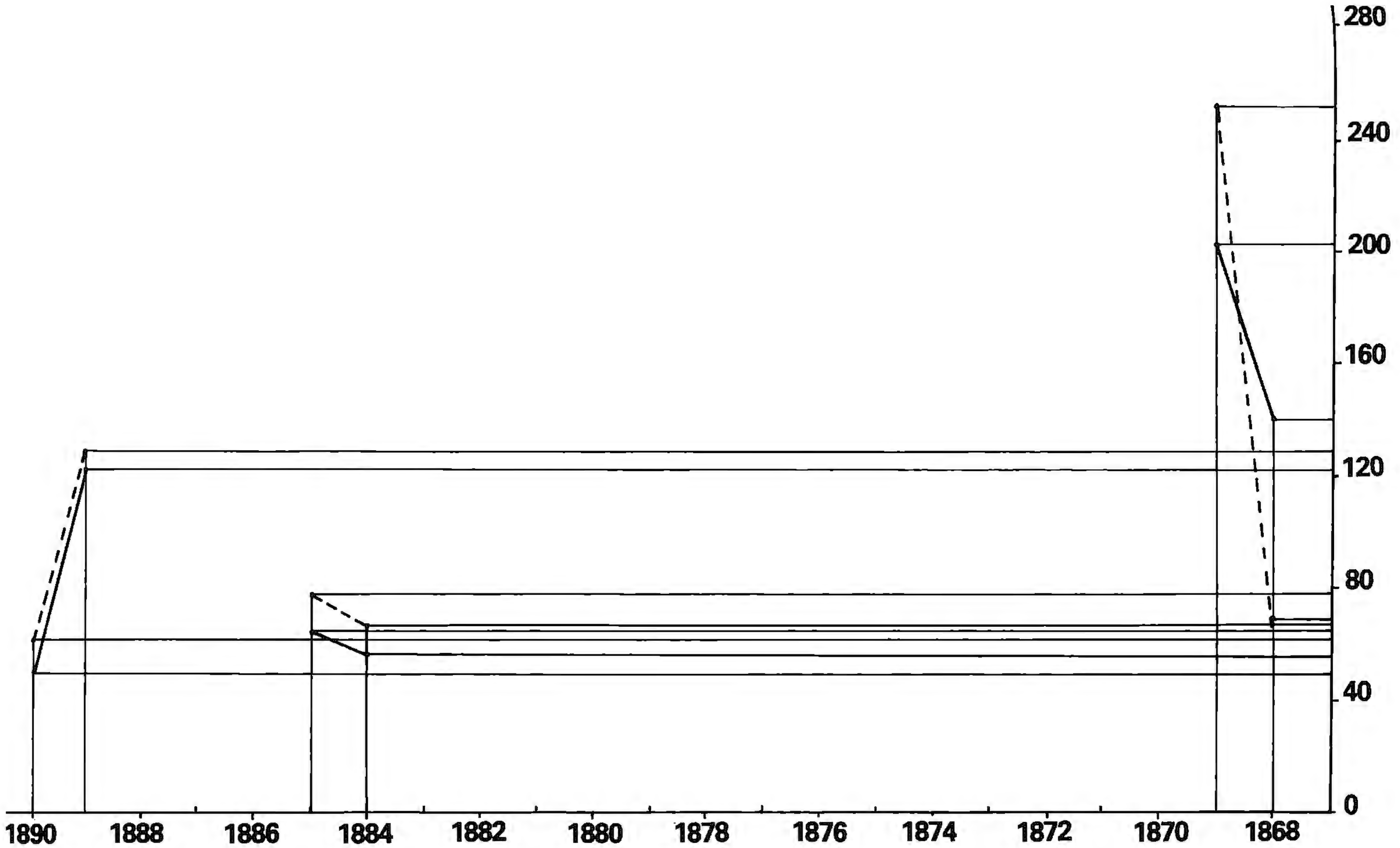
السنوات	أولاد رياب		أولاد عليان		أولاد عمران		مجمــوع الحيـاينـة					
	قمح[1]	شعير[1]	قمح	شعير	قمح[1]	شعير[1]	بقر[2]	غنم[2]	قمح[1]	%[3]	شعير[1]	%[3]
1868/1285							19297	132645	139855		68875	
1869/1286	57030	59870	64500	86420	81360	105010			202890	+ 45	251300	+ 264
1884/1301									54550	− 73	67045	− 73
1885/1302									65430	+ 19	77725	+16
1889/1307	58590	65380	23970	25950	38660	36410			121220	+ 85	127740	+ 64
1890/1308	14020	17520	16120	20950	18640	23240			48780	− 60	[4]61710	− 52
المعـدل	43213	47590	34863	44440	46220	54886			105454		109065	
النسبة %	47،5	52،5	44	56	45،7	54،3			49		51	

- **المصادر** – 1285–1286 = كناشة باليمنى، ص 57 ، 51 –56، 66.
– 1301–1302 = وثيقة مستقلة من «القوائم الحسابية» خ.ح.ر.؛ – 1307 – 1308 = ن.م.
- **ملاحظـة** تأثر المعدل العام لمجموع الحياينة بانخفاض مستوى انتاج سنتي 1884–1885.

(1) بالمد. ولم نستطع للأسف معرفة ما إذا كان المخزن يعتبر «المد الفاسي» أم «المد الحياني» الذي يساوي نصف المد الأول. إلى اليوم يساوي القنطار (100 كلغ) 3 أمداد فاسية و6 أمداد حيانية.
(2) بالرأس.
(3) حجم التغير بالنسبة لأرقام آخر سنة لدينا تقدير عن الانتاج فيها.
(4) بعد أن تم بناء هذا الجدول، عثرت على أرقام جديدة تتعلق بخرص سنة 1309 (محصول 1891 – 1892)، ويعطي الأرقام التالية حسب نفس الطريقة في المعالجة

	قمح (بالأمداد)	شعير (بالأمداد)
أولاد عمران	24.372،5	30.132،5
أولاد عليان	29.820	31.940
أولاد رياب	18.230	24.280

وبما أن هذه الأرقام لا تعيد النظر فيما أبديناه من ملاحظات اقتصرنا على إدراجها هنا إتماما للفائدة، دون تجشم مراجعة الجدول أو الرسم.



شكل 4   تطور جزئي لإنتاج الحبوب لدى الحياينة فيما بين 1868 و 1890 ــ إنتاج القمح ؛ ــ ــ ــ إنتاج الشعير (بآلاف الأمداد)

صحيح أن الجدول السالف مثغور بكيفية بادية مما جعل الرسم البياني الذي يجسده متقطعا متشظيا، وذاك ما يدعو إلى التأني في التأويل والاستنتاج. غير أن المعلومات التي يوفرها تحتفظ بكامل قيمتها نظرا لانفرادها لحد الآن بمثل هذه الدقة.

ـ نلاحظ شدة التقلب من سنة إلى أخرى مقابل السنوات السمان : 1869، 1889؛ هناك سنوات عجاف 1884، 1885 وبالخصوص 1890. وترجع شدة التقلب هذه إلى الأحوال المناخية بالأساس، حيث أن سنوات الجفاف تتوالى أحيانا، وقد يصاحبها هجوم الجراد أو انتشار الوباء، مما يؤثر بعمق على المحاصيل(141). وتطرح وضعية المحاصيل المهددة، على السكان باستمرار، مشكل اختزان الحبوب توقعا للفاقة، مما ينير بعض تصرفاتهم إزاء مطالب المخزن المتزايدة في أواخر القرن 19م.

ـ نلاحظ أيضا تفاوتا جهويا بين التقسيمات الكبرى للحياينة، يبرز فقرا نسبيا لأولاد عليان، بالقياس إلى أولاد عمران وأولاد رياب. هذا التفاوت الذي تبرره الجغرافيا، إذ أن كلا من أولاد رياب أو أولاد عمران يتحكمون في الأودية الخصبة، إيناون أو ورغة، في حين يستقر أولاد عليان على التلال المتوسطة الخصوبة بين الواديين، هذا التفاوت، قد يكون عنصرا إضافيا من عناصر فهم الأساطير التي تروج لدى الحياينة في شأن أولاد عليان والتي وقع الحديث عنها سالفا.

ـ على صعيد المنتوجات يلاحظ تغلب مستمر لزراعة الشعير على زراعة القمح بالنظر ولا شك إلى حسن مقاومة الشعير للظروف المناخية والتربية الرديئة، لكن هذا التغلب قد يدل أيضا على كثرة تناول الشعير في تغذية الإنسان فضلا عن

---

(141) تلك كانت حالة سنوات 1890ـ1894، حيث ضاعف الجراد آثار الجفاف، فظهرت بوادر المجاعة. انظر عن سنة 1891 A.M.G. Vincennes, Maroc, C6, Rapports Fév. Avr., Juil. (Cauchemez).
والرسائل المخزنية المتعددة عن سنتي 1893ـ1894 جاء في جواب السلطان إلى قواد الحياينة بتاريخ 13 شعبان 1311 (مسجلة خطأ 1302) فبراير 1894 «وجدتم الناس يحفرون عشبة أيرنا للاقتيات بها من عدم وجود الزرع بسبب جائحة الجراد»: كناش 694، خ.ح.ر، ص. 64. وأيرنا من النباتات التي تستهلك جذورها وقت المسغبة، انظر: ROSENBERGER, B, «Cultures Complémentaires et nourritures de substitution au Maroc. (XVe-XVIIIe S)». **in, Annales**, E.S.C. N° 3-4, Mai-Août 1980, pp. 477-503, voir surtout p. 491.

علف الماشية، وقد اشتهرت بلاد الحياينة، بصفة عامة، كأرض لإنتاج الحبوب وتصديرها إلى جهات أخرى(142).

ـ لا نتوفر إلا على رقمين يتيمين حول الماشية، يخصان سنة 1868، التي تبدو قريبة من المتوسط فيما يتعلق بالمحاصيل الحبوبية مما قد يدفعنا إلى الاعتقاد أن هذين الرقمين يعكسان حجم ماشية لم تعان من نقص في المرعى. غير أنه من المحتمل جدا أن يكون العدد الذي سجلته اللوائح المخزنية، دون الواقع، إذ الخطأ، في اتجاه النقص خاصة، وارد في عد الماشية أكثر مما في خرص الحبوب، لأنه من السهل تهريب القطعان للإفلات من الأداء كما أنه من السهل أيضا، بالنسبة للأمين أو الشيخ، والقائد الاستفادة من هذه العملية والتغاضي عنها(143)، على أنه بالرغم من هذا التحفظ، يلفت انتباهنا أن نسبة الماشية إلى السكان، حوالي خمسة رؤوس غنم لكل نسمة، تدل على كثافة لا يستهان بها(144).

ـ ثمة ملاحظة أخيرة بصدد الإنتاج الزراعي بالحياينة نستقيها من إحدى القوائم الحسابية التي ارتكز عليها بناء الجدول الآنف، وتتعلق بـ «خرص الشرفاء النازلين ببلدهم المحررين». تعطينا هذه الوثيقة خرص محاصيل الشرفاء كاملا عن سنة 1890/1308، بالنسبة لكل أراضي أولاد عليان. فيكون هذا المحصول عملا بنفس القاعدة التضعيفية الاعتباطية الآنفة، هو 17.920 مدا من القمح و18.130 مدا من الشعير، أي أن محصول الشرفاء يفوق محصول سائر بقية القبيلة بما لا يقل عن 11% بالنسبة للقمح وينقص عنه بـ 13% بالنسبة للشعير. ولا نستطيع أن نقدم أي جواب فيما إذا كان التناسب متكررا في جهات أخرى من الحياينة وفي سنوات أخرى من الإنتاج. بيد أن نفس الوثيقة تسعفنا بمواد أخرى للمقارنة فقد أخطأ الكاتب وسجل خرص شرفاء إيالة القائد الجيلالي الساهلي، وهو قائد أحد جزئي أولاد عليان، عن سنة 1889/1307 قبل أن يشطب عما كتبه، ويثبت ماكان مقصوده

(142) جاء في رسالة من علي بن محمد الهواري العثماني، من هوارة كَرسيف، إلى السُلطان، يشتكي فيها بكون قافلة لإخوانه نهبت من طرف القائد الهادي التسولي «إبل إخواني (...) وهي أربعة وأربعون (...) كانت مسافرة عند لحْيَاينة (...) يْكِيْل الحبوب لأوْلَدْهُم»... مؤرخة بـ15 قعدة 1884/1301. رسالة مستقلة، خ.ح.ر.

(143) انظر «الجباية» فيما بعد.

(144) J. L. MIEGE، (م.س)، ج 3، ص. 71، يقدر أن حجم تجارة الأغنام باتجاه الجزائر، سنة 1856، كان يتراوح ما بين 200000 و300000 رأس، معظمها من قبائل ايناون.

الأولي تسجيله، وهو خرص 1890/1308. ومن حسن الحظ أن التشطيب لم يضر أبدا بمقروئية الأرقام، مما مكننا من استخراج تقدير محصول شرفاء هذا الجزء من أولاد عليان، عن سنة 1889/1307 هكذا

جدول 13 **محصول شرفاء الساهلي العلياني**

1889/1307	تقدير محصول أيالة الساهلي 1	تقدير محصول شرفائها 2	نسبة 2 إلى 1 %
القمح[145]	6690	17660	% 263
الشعير[145]	7740	18250	%235

هذه نسب مرتفعة جدا تدل، إن كانت صحيحة، على عمق اكتساح الأشراف للأراضي الفلاحية بالحياينة في منتهى ق 19م[146] بيد أنه ليس من المؤكد أنها كانت تنطبق على جهات أخرى من الحياينة، إذ أننا نتوفر على إشارة أخرى وردت بكناشة بايمني وتخص «ما للزوايا والشرفاء والمرابطين بقبيلة الحياينة» عن سنة 1868/1285[147]. وقد نصت الكناشة على محاصيل المحررين من الضريبة، هذه المرة، بالقيمة كالآتي

جدول 14 **خرص المحررين من الحياينة**

مجموع قيمة خرص لحياينة (غنم، بقر، قمح، شعير) بالمثاقيل 1	منه للمحررين 2	نسبة 2 إلى 1
58.368.2	ص 7.244.8[148]	% 12،5

(145) بالأمداد.

(146) LAZAREV، (م.س)، ص. 47 — 48.

(147) بايمنى، (م.س)، ص. 57.

(148) يُقرأ العددان على التوالي «ثمانية وخمسون ألف وثلاثمائة وثمانية وستون مثقالا وأوقيتين» ثم «سبعة آلاف ومئتان وأربعة وأربعون مثقالا وثمان أواق ونصف».

إذا كانت هذه النسبة ما تزال معتدلة في أواسط القرن، فإنها ما لبثت ولا شك، أن ارتفعت في اتجاه النسب التي سجلناها عن سنوات 1890[149].

من خلال كل ما سبق، تظهر الحياينة كمجموعة ذات زرع وضرع، مما يحيل على انغراس عميق بالمجال والتحام بالساكنة القروية المستقرة السابقة. بيد أن الاستقرار ما يزال هشا حتى نهاية القرن 19م.

تبدو هشاشة الاستقرار من خلال التسمية التي تطلق على المنزل «الخيمة» أو «المشتى»، ولو كان مبنيا بالحجارة أو كان مقرا لاستقرار دائم[150]. فقد احتفظ السكان بتسمية قديمة وأطلقوها على واقع جديد غير تام الترسخ.

تبدو هشاشة الاستقرار أيضا في شكل السكن ذاته ما تزال الخيام تجانب البيوت المبنية بالحجارة. بل إن الخيام التي رآها DE FOUCAULD سنة 1883 عبر حوض إيناون كانت أجمل من الدور التي كانت حسب وصفه، أقرب إلى الأخصاص من شيء آخر[151]. وحتى حينما تكون الدار مبنية، فإن المواد التي تغلب في البناء هي اللبن الطيني أو الصخر الجاف، مما يُضفي عليها مسحة من الكآبة نظرا للونها الرمادي[152]. هكذا، في أوائل هذا القرن، كانت «تتخلل سهل الحياينة، قرى تشابه الدواوير [بمعنى مضارب الخيام]، نظرا لانخفاض جدران دورها، وكون سقوفها مغطاة بالقش، تتوارى خلف أسوار من السدر»[153].

(149) ورد في رسالة مستقلة، خ.ح.ر. من ق. د حمان بن علي التخيلي (أولاد عليان) إلى السلطان بتاريخ 10 ربيع 2 1884/1301 «لينه لكريم علم سيدنا أنا دفعنا عشر عام 1300 ولم يبق إلا واجب الشرفاء والمرابطين المحررين بالنص الشريف، وهو أربعة أوسق ونصف وخمسة أمداد ونصف من القمح، وخمسة أوسق من الشعير، والعادة لم يُقبض عشرهم..» وإذا ما ضعّفنا الوسق ب. 60 مدا نتوصل إلى مجموع 2435،5 مدّا من القمح و3.000 مد من الشعير، فيكونُ المحصول السنوي لشرفاء ومرابطي ق. د حمان التخليلي هو حسب التضعيف ب10 24.335 مدّا قمحا و30.000 مد شعيرا وهي أرقام مرتفعة إذا ما قورنت مع محصول مجموع الحياينة سنة 1884/1301، ص. 177. أعلاه. وبصفة عامة فإن ثمة إشكال لم أستطع البث فيه، يتعلق بموقع محصول الشرفاء من مجموع إنتاج القبيلة. فإذا كانت كناشة بالميني قد أحصته ضمن مجموع إحصاء القبيلة، فقد وضعته الوثائق الأخرى على حدة. ونظرا لعدم تعيينه بكيفية مستمرة من طرف الوثائق المتوفرة، فلم يؤخذ بعين الاعتبار في الجداول السابقة.

(150) انظر **LAOUST, E. L'habitation chez les transhumants du Maroc Centrai,** Larose, Paris, 1935, p. 8.

(151) DE FOUCAULD، (م.س)، ص. 30.

(152) DE FOUCAULD، (م.س)، ص ص. 35 – 36.

(153) DE SÉGONZAC، (م.س)، ص. 70.

ولعل هذه الهشاشة في الاستقرار تعود فيما تعود إليه، إلى تقلب الأحوال السياسية بالمنطقة، على امتداد القرنين السابقين، واستمرار هذا التقلب حتى نهاية القرن 19م. وقد أدى ذلك التقلب إلى نتيجة مزدوجة على صعيد السكن في أواسط القبيلة، في اتجاه الشمال والغرب، يختار السكان قمم التلال ليشيدوا دورهم في شكل قصبات محصنة حقيقية حتى يستطيعوا الدفاع عنها إذا ما اضطروا إلى ذلك[154]، أما على أطراف القبيلة ولاسيما جهة الشرق، فإن السكان الذين يحادون الجبال غياثة وبني وراين، يفضلون الاحتفاظ بخيامهم، يحملونها ويفرون إذا ما دعاهم داع إلى ذلك محلّة مخزنية، تضييق قائد، أو هجوم فرقة أخرى.. نقرأ في ملخص جواب سلطاني إلى ق. الجيلالي الهلالي، مؤرخ بـ 1 جمادى 2 1309/ 1892 «وصل كتابك بفرار ستين خيمة من إخوانك»[155]... وفي جواب آخر، موجه للقائد عياد المغيلي الوراييني، بتاريخ متم ربيع 1 1309/1891 «فقد أخبر الخديم الهلالي أنك تعرضت له أنت وإخوانك على إخوانه جماعة الشبابة هذه مدة من عامين وكذلك على فرقة من إخوانه أولاد هلال فرت إليك»[156].

إن ثروة الحياينة الفلاحية والحيوانية كانت لا بد وأن تجلب إليها أطماع الجيران[157] كما أن موقعها على مسلك تجاري مخزني رئيسي كان لا بد وأن يجر القبيلة بدورها إلى ارتكاب بعض الاعتداءات في حق القوافل. مهما يكن، فإن موطنها الذي يتوسط الجبل الذي غالبا ما يفلت من قبضة المخزن، والمدينة، قاعدة المركز المخزني، هذا الموطن الوسطي، كان لا بد وأن يجعلها على طريق كل المواجهات. من ثم مواقفها الكثيرة التبدل ومن ثم أيضا كثرة مجابهاتها مع جوارها، وفي درجة أقل، مع السلطة المركزية.

ج ـ الحياينة وجوارهم في القرن 19م

لم تحتفظ لنا النصوص المتوفرة للآن، بشيء عن علاقة الحياينة بجوارهم المباشرين في الفترة المبكرة (القرنين 16ـ17م)، بقدر ما سجلت مواجهتهم للسلطة

---

(154) DELBREL، (م.س)، ص. 173.

(155) كناش خ.ح.ر. رقم 657، ص. 172.

(156) نفس الكناش، ص. 21.

(157) DE FOUCAULD، ص. 30. إن حراسة الحقول تتم بالسلاح.

المركزية أو لمدينة فاس أو لهما معا، مما يطرح سؤالا حول هذه الثغرة، ليس بمستطاعنا الجواب عنه(158).

يجب التذكير في هذا الصدد بأن الرواية الشفوية ثرية بكيفية لا تقارن مع فقر الروايات الإخبارية، وإن تميزت تلك الرواية بالتسطع الكرونولوجي والتداخل الزماني(159).

بيد أن معلوماتنا حول علاقة الحياينة بجوارهم تصبح مدققة إلى حد كبير في النصف الثاني من القرن 19م، نظرا لتكاثر أصداء هذه العلاقات في المراسلات الرسمية، التي تتعدد كما هو معلوم، كلما اقتربنا من القرن 20م.

من الممكن، تصفيف الوثائق المتوفرة لدينا حول هذه العلاقات، حسب منظورين متناقضين منظور يبرز التساكن والتلاحم بين أطراف الحياينة وجوارهم ناطقين للعربية كانوا أم للبربرية. ومنظور ثان يركز الأضواء على المواجهة والصراع سواء بين أجزاء مجموعة الحياينة ذاتها أو بينها وبين جوارها، دون أي تمييز لغوي أيضا.

ـ التساكن

تعددت الإشارات الواضحة إلى كون مجموعة الحياينة في القرن 19م، كانت منفتحة بكيفية جديرة بالانتباه، على جوارها، سواء نطقوا بالعربية أو بالأمزيغية. ولم يقتصر انفتاح الحياينة على استقبال مجموعات من جوارها لهذا السبب أو ذاك، وقبول مقامهم الذي قد يطول أو يقصر حسب كل حالة، بل امتد إلى كون فرق من الحياينة، كانت تلجأ إلى جوارها كلما احتاجت إلى ذلك. وقد يتعمق التساكن فيصبح تقاسما للحياة اليومية بكامل مظاهرها من زراعة وسكن إلخ...

حول كل أشكال التساكن هذه، تتوفر معلومات مضبوطة في المراسلات المخزنية. سبقت الإشارة(160) إلى نموذج من الرسائل التي تبين أن جماعات من الحياينة لم تكن تتردد في مغادرة قبيلتها إلى القبائل الأخرى. ويكتسب ذلك الصنف من

---

(158) تترك ثغرات النصوص سؤالا قائما بكيفية مستمرة هل هي ثغرات في عناية المؤلفين أم هي دالة على ثغرات في الواقع؟ ألم توجد فعلا مواجهة بين الحياينة وجوارهم، أم أن المؤلفين لم يكن يهمهم تسجيلها؟.

(159) L. MEZZINE، (م.س)، ص ص. 119–120.

(160) انظر ص 183 أعلاه، هامش 156. رسائل متعددة حول احتماء جماعات حيانية ببني وراين أو غياثة.

الرسائل أهميته من كونه ينير جانبا من جوانب العلاقة بين الحياينة وبني وراين (التساكن) طالما وقع التأكيد فقط على نقيضه.

بيد أن أرض الحياينة كانت ملجأ غير ما مرة لجماعات من القبائل المجاورة ولاسيما من بني سادن «ق. محمد الشعشوعي [من أولاد رياب]، فقد أخبر سعيد السادني أن عشرين خيمة من إيالته فرت لإيالتك، ولما تكلم معك (...) لم ترد له جوابا»[161]. بل إن المجال الحياني ذاته كان متاحا لمن شاء من أفراد القبائل المجاورة، فلح الأرض فيه، كراءً أو شراءً.

جاء في رسالة موجهة إلى ق. المحرري، من أولاد عمران «فقد أجاب أرزيم الصنهاجي (...) بأنهم (...) لا زالوا على الصلح المعقود ثمة بينكم بأمرنا (...) مع أنكم أكلتم لهم مالا ونهبتم لهم ماشية وأن رغيوة هم المعتدى عليهم، بما فعله الأمين الدحوحي من ضرب ولدي الرجل الذي اكترى منه البلاد»[162]... إذا كانت هذه الرسالة تفصح عن جوانب من الصراعات بين الحياينة وصنهاجة، وهو ما سنعرض له بعد قليل، فإن ما يهمنا منها الآن، أن عناصر من صنهاجة، كانوا يتمكنون من اكتراء الأرض، وفلحها بالحياينة. بل إنه كان بإمكان عناصر غير حياينة أن تشتري الأرض بالحياينة كما تدل على ذلك هذه الرسالة «عمال التسول كافة، وصل كتابكم بأن البعض من إخوانكم اشتروا من الحياينة (...) بلادا حراثية، وبعد أن دفعوا لهم ثمنها طالبوهم برفع اليد عنها»[163]. ولا تهمنا هنا أيضا، النازلة التي آلت إلى «مضاربة» بين الحياينة والتسول بسبب عدم رفع يد هؤلاء الأخيرين عن الأرض التي باعوها، بقدر ما يهمنا إمكان شراء الأرض الحياينة من طرف غير الحيانيين.

وقد يبلغ التساكن حد تبادل الخدمات فيما بين الجماعات المتجاورة والمنتمية إلى قبائل مختلفة، سيما وقت التصالح والتعاون. ذاك ما نستشفه من رسالة تعود إلى فترة محمد بن عبد الرحمن المتأخرة، كتبها عامل تازة، جوابا على رسالة من الحاجب موسى بن أحمد «وصلنا كتابك (...) وعلمنا ما أشرته [كذا] فيه وما كان من قضية الحياينة وغياثة والتسول (...) اشتركوا الطعام وتآلفوا بعضهم بعضا ومن جملة

(161) ملخص رسالة من السلطان إلى الشعشوعي، مؤرخ بـ21 جمادى 2 1892/1309 – خ.ح.ر. كناش 657 – ص. 226.

(162) مؤرخة بـ3 جمادى 2 1892/1309، ن.م، ص. 177.

(163) مؤرخة بـ26 جمادى 1 1892/1309. ن.م، ص. 156.

ذلك حصاد زروعات [كذا] بني خليفة [الحياينة] بالتّوَائز من غياثة برجالهم ونسائهم إياهم، وزروعات غياثة كذلك يتوِّزون لهم بني خليفة وهم على الخير للآن»(164).

ما هو نصيب التعايش اليومي في مجال مشترك متقارب السمات، يفرض تبادل المصالح فيما بين المجموعات المتجاورة، وما هو دور تحكيم الشرفاء والمخزن في تأسيس التصالح بين القبائل(165) قد يعسر تحديد الحصص بتدقيق !

لكنه من المؤكد أن المخزن كان يدعم سلطته في حوض إيناون، سواء بواسطة أدواته المباشرة عمال أو قواد، شيوخ وأمناء، أو عن طريق معاونيه المحليين شرفاء وزان بالخصوص، كان يدعم سلطته بمحاولة حضور مستمر في النزاعات تحكيماً فيها واستفادة منها. ومن كثرة الرسائل التي تتعرض لهذه المسألة يمكن إدراج رسالة تشير إلى تسلسل عملية التحكيم السلطان، أمر بالتحكيم ← الشريف الوزاني ← تحكيم ← قبائل ← طاعة + ذعيرة ← السلطان «أمناء الحياينة، وصل كتابكم بأن السيد عبد السلام بن ادريس الوزاني صالح بينكم وبين بني وراين كما أمرنا»(166)...

بيد أنه لا يجب إغفال أن ما سبق إنما هو تصفيف واحد من ضمن تصفيفات ممكنة، حسب منظورات مختلفة للمراسلات المخزنية. في الواقع، لا بد من القول إن علامات التساكن، تقل حجما في الوثائق المخزنية عن دلائل المواجهة بصورة متزايدة في اتجاه نهاية القرن 19م. ولا نستطيع البث فيما إذا كان تكاثر الوثائق التي تحيل على الاصطدامات، يرتد إلى محاولات تركيز السلطة ابتداء من أواسط القرن وما صاحبها من تزايد اعتماد الممارسات المخزنية على المكتوب أكثر مما على الشفوي،

(164) مؤرخة بـ21 ربيع 2 1871/1288. و.ز. مج 18، و 114.

(165) مسألة التحكيم فيما بين المجموعات الانقسامية سواء من درجة القبيلة أو ما دونها، نالت اهتمام كل من المؤرخين G. AYACHE, M. MORSY، والانتروبلوجيين E. GELLNER، وإذا ما كان الاتفاق حاصلا حول معاينة الظاهرة، فإن التاويلات متباينة، ومثلها الاستنتاجات العملية. ومهما يكن فإن وفرة المراسلات التي تفصح عن اشتغال الشرفاء والمخزن بهذه المهمة، تدل أن وظيفة التحكيم كانت إحدى ركائز السلطة بالمغرب. ولم تكن هذه الوظيفة شرفية أو رمزية فحسب بقدر ما كانت تؤول إلى ممارسة مالية غاية في المباشرة، عن طريق الذعيرة. انظر فيما ياتي.

(166) مؤرخة بـ24 شعبان 1894/1311. خ.ح. كناش 694، ص. 86. ويرد ذكر الذعيرة في الصلح بين الحياينة والتسول أكثر مما مع بني وراين.

فأصبحت الحوادث ذات الصبغة العمومية، شاذة أم فاذة، تترك أكثر فأكثر، أثرها المكتوب في الوثائق ــ أم أن تكاثر أخبار الاصطدامات في الوثائق يعكس تزايدا للصراعات على أرض الواقع، بالارتباط مع ما أحدثته التدخلات الأجنبية في شتى المجالات، ابتداء من ثلاثينيات القرن، من تغيرات عميقة، تمثلت بالنسبة لحوض إيناون، في الوجود الفرنسي بالجزائر وما خلفه من تجارة تهريبية في الماشية، أحد أهم عناصر الصراع بالمنطقة كما سيتضح. ولعل العاملَين معا ــ تزايد المكتوب وتزايد الصراعات ــ أديا بصفة متداخلة إلى وفرة أخبار المواجهات داخل أطراف الحياينة أو بينها وبين جوارها.

ـ الصـــراع

من المؤكد أن هذا المنظور الثاني الذي يمكن تصفيف المراسلات المخزنية حسبه، يستند إلى ذخيرة وثائقية أوفر، لسبب بسيط، وهو أن النزاع يستدعي تدخل السلطة (المحلية، الشرفاء، المركز)، وهذا التدخل يخلف أثرا مكتوبا شاهدا عنه.

تعددت شواهد الصراع بين مكونات المجموعة الحيانية جاء في رسالة من ق. ح. المفضل الغيناوي العمراني إلى الخليفة السلطاني بالمحلة بنواحي إيناون، المولى عبد الهادي بن عبد المالك، مؤرخة بأول ذي القعدة 1872/1288 «... فيعلم سيدنا حين رجعنا من حضرتك الشريفة نحن والقائد عبد السلام بن الحسين [العمراني] (...) بتنا بأولاد عليان (...) وعند الصباح تفارقنا (...) وكل واحد جاز على طريق. عَيْنُونا أولاد بوشتى من إيالة القائد عبد السلام المذكور ومعي عَادَ ثلاثة أناس من إخواننا، سبقونا لعند إخوانهم وصاحوا على جماعتهم كلها وجعلوا لنا المرصاد على ثلاث جلسات حتى دخلنا في أواسطهم وتكلم فينا البارود من كل ناحية ونجانا الله (...) وقام الهراج في إخواننا وأرادوا الفساد معهم ونحن كَفَّيْنَهم ونحن علْمنَك سيدنا بما فعلوا لنا فلا يفعل ذلك المسلم لأخيه المسلم (...) فإن الواد كله بقصد الفساد على ذلك إن لم يكن زجرا على ذلك (...) وذلك على عين أولاد عليان»(167).

(167) متبثة بالوثائق الزيدانية، خ.ح.ر ــ مج 2 و.125. ونظرا لكثرة اللحن في الرسائل الموجهة إلى المركز من طرف القواد، الشرفاء إلخ... فإنني استغني عن استعمال رمز (كذا) وما يرد من لحن في الوثيقة هو أصلي.

لم يبح صاحب الرسالة بأصل هذا «المرصاد». بل إنه يوحي بأن اعتداء أولاد بوشتى ذو منطلق عدواني مجاني صرف. ولا نملك ما يوفر لنا إمكانية تتبع تطورات النازلة. ولكننا، من خلال هذه الرسالة نتبين بوادر صراع يهدد بالانفجار بين جزئي أولاد عمران، إن لم يحصل تدخل السلطة المركزية، فثمة تقاطع لآليتين : آلية الزجر المخزني التي التجأ إليها الغيناوي، وآلية أخرى، قد تعوضها بمجرد عدم تحركها، وهي آلية الحمية القبلية.

بيد أن الرسائل التي تفصح عن أحد أصول الصراعات التي تنشأ بين أجزاء القبيلة الحيانية كثيرة. ورد في رد سلطاني على القائد الجيلاني الهلالي(168) «وصل كتابك بأن أولاد ابن النخل لا زالوا على ما هم عليه من الفساد (...) وبعد أن قدم عليهم السيد ادريس الوزاني واسترعى عليهم لم يرجعوا وأن الماشية المنهوبة للهبارجة المبينة بطرة كتابك وأخذها الخديم التخيلي وكان صدر له أمرنا (...) يدفعها لك لتوجهها على يدك لأعتابنا (...) امتنع من دفعها لك (...) فقد عرض ذلك على الخديم المذكور فأجاب بالإنكار لأن يكون حاز شيئا مما ذكر وأن إخوانك هم الذين ضربوا على إخوانه حال مغيبه في الحركة وأخذوا لهم مائتي رأس غنما وخمسة وثلاثين رأسا بقرا بإذنك وإشارتك (...)» لنلاحظ بالمناسبة مدى انخراط الأطر المخزنية المحلية (القائد) في هذه الصراعات الانقسامية هنا بين أولاد رياب وأولاد عليان. ولنسجل بعد ذلك أن هذه الرسالة لا تترك مجالا للشك حول أصل النزاع الاستيلاء المتبادل على الماشية.

حول الماشية أيضا قام الصراع بين أولاد رياب وأولاد عليان سنة 1311/ 1894. «ق. التخيلي، وصل كتابك بأن الخديم البوزياني جمع إخوانه للضرب على هوارة فأتوا لبعض إخوانك وحاصوا مشتاهم بما فيها وحرقوه وقتلوا ثلاثة رجال من أولاد تخيل وأسقط أربعة نسوة أجنتهم وأن خليفته جمع إخوانه وضرب على فرقة من إخوانك وأخذ مواشيهم وقتل منهم رجلا (...) وأخبرت بذلك خوف وقوع الفتنة بين أولاد عليان وأولاد رياب»(169).

لعل عنف المواجهة البادي في هذه الرسالة راجع إلى ما ميز سنة 1311/ 1893-94 من خصاص إذ كان «الناس يحفرون ءايرنا للاقتيات بها من عدم وجود

(168) مؤرخة بـ متم ربيع 1 1309/1891. خ.ح.ر. كناش 657، ص. 22.
(169) مؤرخة بـ 8 شوال 1311/1894. خ.ح.ر. كناش 694، ص. 205.

الزرع بسبب جائحة الجراد، حتى وصل ثمنه إن ظهر أربعة وعشرين مثقالا...»(170). وتدفع هذه الوثيقة ومثيلاتها إلى الاعتقاد أن المواجهات من هذا الصنف تكثر إبان المجاعات وكل أشكال الجوائح.

بيد أن الصراعات الداخلية بين المجموعات الحيانية لم تكن تمنع مجموع القبيلة من التلاحم لمواجهة القبائل الأخرى على الأطراف جاء في جواب سلطاني لقواد الحياينة «القائد لحسن بن العربي الهلالي والقائد دحمان التخيلي والقائد الجيلاني الشعشوعي [قواد أولاد رياب وأولاد عليان] وبعد، وصل كتابكم بما شاع من الفتن من فساد آيت سغروشن وبني وراين وغياثة والدسول وتوافق البربر على هدم دار خديمنا الهلالي وأنكم وإياه يد واحدة عليهم طالبين كتابنا الشريف لقواد القبائل المذكورين [كذا] بالتوبيخ وشد العضد على من ذكر وصار بالبال، فأولائك إنما هم حبّالة لا يهم أمرهم، وحتى العاجي والعمراني [قائدا أولاد عمران] فهم كذلك مع اجبالة [صنهاجة] لا محالة، وأما الدسول فقد أمرنا عمالهم بأن يكونوا معكم يدا واحدة وذاتاً متحدة على أولائك المفسدين حتى يفيئوا إلى الحق..»(171).

ثمة أعداد هامة من المراسلات التي تؤكد ما جاء في هذه الوثيقة من كون الحياينة يتواجهون مع القبائل المحيطة بهم أولاد رياب مع بني سادن أو بني وراين أو غياثة؛ أولاد عليان مع غياثة أو مع التسول؛ وأولاد عمران مع صنهاجة(172).

(170) كناش 694 ـ ص. 94. سبقت الاشارة إلى أيرنا كنوع من العساقيل المغذية التي يُلجأ إلى التعويض بها عن الحبوب وقت القحط، مثلها مثل جذور الدوم، (الجمّاخ). أما سعر الزرع، فإنه كان سنة 1883/1300 بـ11 مثقالا فقط للمدّ أنظر كناش 353، ص. 57. وفي بعض القوائم الحسابية تعود إلى 1893/1310، إن المخزن باع جزءا من مذخراته من الزرع بسوق حاضرة فاس، بسعر يتراوح بين 3 و10 مثاقيل.

(171) مؤرخة بـ4 صفر 1301/دجنبر 1883. خ.ح.ر. كناش 348، ص. 46. تطرح هذه الرسالة إشكالا قد يكون الأمر لا يعدو القواد وأتباعهم من أعيان «إخوانهم»، في حين قد تظل بقية القبيلة في منأى عن المواجهة. ما يؤيد ذلك أن الهلالي كان قد تشكى بفرار إخوانه إلى بني وراين فيما سبق. لكن بالرغم من هذا التحفظ الهام، فإنّ المواجهة بين الحياينة وجاراتها كانت تؤول في الغالب، كما يروى ذلك إلى اليوم كل من الحياينة أو بني وراين، إلى حشر معظم القبيلة في الصراع. (رواية شفوية). وحبّالة الواردة في الرسالة تعني صانعي حبال الدوم، أي لا ثروة زراعية لهم.

(172) يمكن التذكير بهذا الصدد بتأويل الرواية الشفوية لتوزيع فرق الحياينة الجغرافي على أساس المواجهة مع القبائل المجاورة. الأمثلة متعددة ومتكررة عبر الوثائق الحياينة/أولاد الحاج حول الماشية (1885/1303) كناش 371، ص. 37 ؛ الحياينة/التسول حول الأرض (1892/1309) كناش 657، ص. 156؛ الحياينة/صنهاجة حول الأرض (1892/1309) ن.م، ص. 110، 129، 176 ـ 177، 223 إلخ...

وتظهر المراسلات الحياينة، عدة مرات، في موقع الهاجم المتعدي «قبيلة الحياينة كافة، فقد بلغنا اتباعكم طريق الغي والردى واستحبابكم العمى على الهدى وإسرافكم في الفساد والعتو وقطع السبل في كل رواح وغدو ونهبكم أموال الجوار وأنعامهم واستياقكم بقرهم وأغنامهم كما فعلتم ببني مزكلدة من إسلاس وغيرهم من الناس..»(173).

لكن الواقع أن الحياينة إذا كانوا يهاجمون فعلا الغرب والشمال ـ الغربي فإنما كانوا يدافعون عن مجالهم من جهة الشرق والجنوب الشرقي، حيث كان ضغط غياثة وبني وراين قويا لطردهم عن الهضاب الموالية لجبال الأطلس الأوسط الشمالي(174).

إن استقراء المعطيات الواردة في المراسلات المخزنية، في ضوء هذا المنظور الثاني ـ منظور الصراع ـ يؤكد ما ألح عليه أكثر من واحد من الأنثروبلوجيين، من تحرك الآلية الانقسامية المبنية على التعارض الأفقي فيما بين الوحدات المتساوية، وعلى التضامن العمودي ضمن الوحدات المتكاملة(175).

لكن بعد أن يتم وصف الكيفية التي تحدث بها التعارضات والتضامنات من أدنى مستوى إلى أعلاه، من الأفراد إلى الجماعات صغرت أم كبرت، لا نكون قد قطعنا سوى نصف الطريق، إذ يبقى علينا أن نحاول الكشف عن أصل تلك التضامنات والتعارضات المختلفة.

لنلاحظ بدءاً أننا عبر المادة السابقة، بعيدون كل البعد عن الصور الكاريكاتورية التي رسمتها في آخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن الإثنوغرافيا حول صراعات ضخمة (حرب السنوات السبع مثلا) تنشأ لأتفه الأسباب (قتل كلب)(176). إنما نجد أنفسنا أمام أسباب من مستويات أخرى، متعلقة برهانات يومية

---

(173) مؤرخة بـ26 رمضان 1300/1883. خ.ح.ر. كناش 353، ص. 230.

(174) كل من DE LA MARTINIERE، (م.س)، ص. 61؛ EL MERAKCHI، (م.س)، ص. 6؛ عاين تراجع الحياينة أمام القبيلتين في العقد الأخير من القرن الماضي.

(175) وصف الآلية الانقسامية كل من D. HART، وE. GELLNER وناقشها كل من A. HAMMOUDI، G. AYACHE، أ. التوفيق A. LAROUI, P. PASCON. انظر البيليوغرافيا.

(176) أوجز G. AYACHE مظاهر الكاريكاتور وفندها في «Société rifaine et pouvoir central marocain» dans Etudes.. pp. 205-208.

استراتيجية الأرض، الماشية، التوزيع الإداري للسكان وما يعنيه من توزيع للكلف والواجبات...

ومن الملفت للانتباه أن أكثر ما يرد ذكره كسبب من أسباب الصراع، نهب الماشية وغني عن البيان ما لكثرة حوادث اختطاف الماشية وتجارة الماشية المهربة مع فرنسيي الجزائر من علاقة وطيدة(177).

يبقى أن نتساءل عما كان موقف المخزن من تلك الصراعات المتعددة ؟ بل وعما كان موقعه منها أيضا، إذ أن النسق الانقسامي الأمثل يفترض أن تتحرك الآلية الانقسامية بكيفية تلقائية وظيفية تتوصل إلى التوازن بين مكونات المجموعة في إطار عام يغيب فيه مركز حاكم.

إن استقراءنا لنماذج متعددة من ردود فعل المخزن إزاء الصراعات ذات الصبغة الانقسامية بحوض إيناون، أقنعنا أن المركز المخزني، بدلا من أن ينحصر في دور الحكم الذي كان يفرض عليه الانحباس في موقف سلبي في نهاية التحليل إزاء الآليات التي يتحرك المجتمع القروي حسبها، بدلا من ذلك، كان المخزن في معظم الأحيان ينخرط في تلك الآليات، ويحاول تدجينها حسب أهدافه الاستراتيجية(178).

قبل أن يلجأ المخزن إلى استعمال وسائله المركزية (مدد، حُرْكة، إلخ...) كان يوظف الآليات الانقسامية المحلية لصالحه تفصح المراسلات عن وجود تدرج في سياسة المخزن يكاد يوازي تدرج البنية الانقسامية فإذا أصاب «الفساد» فردا أو أفرادا (سرقة مثلا) يكلف الجماعة بشد عضد الشيخ لزجرهم. وإذا أُعدِيت الجماعة أو الفرقة بأكملها (اعتداءات، عدم أداء...) فإن التضييق بها يصبح من مسؤولية الفرق الأخرى وقوادها. أما إذا انتفضت قبيلة أو مجموعة من القبائل، فإن كل القبائل المجاورة لها تؤلب ضدها، وتؤمر بشد عضد المدد الموجه لحملها على الطاعة(179).

(177) إن حجز أجهزة المخزن لقطعان الماشية المهربة إلى الجزائر، بحوض ايناون، يؤرّف الثلث الأخير من القرن 19م 1869، 1871، 1883، 1885... ومن شدة حركة هذه التجارة اضطر المخزن سنة 1885 إلى التنازل عن خمس ما يصادر من ماشية للجماعة التي تقوم بحجز القطعان.

(178) تفند الممارسة المخزنية بايناون ما ذهب إليه بعض الكتاب المخزنيين المشرفي، **الحلل**، ص ص. 254–261 من تعارض النظام القبلي والنظام المخزني، وهو ما بنت عليه الاثنوغرافيا الاستعمارية سائر تصنيفاتها.

(179) مثال من ألف، نعثر عليه في كناش 154، ص. 117، وهو كناش كان كتبة السلطان يسجلون به تلخيص ما يرد عليه من مراسلات وتلخيص ما يشير به من جواب، رامزين إلى بداية عناصر الجواب

وقد نتصور أن المخزن كان يستعمل الحياينة بكيفية خاصة ضد قبائل الجبل كما دلت على ذلك بعض الوثائق السابقة. صحيح أن السلطان كان يعتبر الحياينة بمثابة الحاجز أمام توسع بني وراين في اتجاه السهل. ومما يؤيد ذلك أنه أعفى الفرق المجاورة لها من نصف الكلف نظرا لما يُفترض أنها تقدمه من تضحية في مواجهة أهل الجبل، هذا ما نستفيده من رسالة وجهها ق. محمد بن كروم الحياني إلى السلطان الجديد عبد العزيز جاء فيها «وإيالتنا [أولاد هلال] أضعف من غيرهم لمجاورتهم للبربر فقد أخذ البربر جل أموالهم بالغارة، وقد كان والد سيدنا المقدس يشفق عليهم من أجل ضرر البربر لهم حتى أسقط عنهم نصف الكلفة...»(180).

بيد أن السلطان لم يتردد في فسح المجال لأهل الجبل ليضربوا أهل السهل، معطيا بذلك الدليل أنه قد يوظف العداءات الانقسامية لفائدة استراتيجيته التي تتمثل في صرامة أكبر بالنسبة لأهل السهل. نجد العديد من الشواهد على هذه السياسة في العشرات من الرسائل، اخترنا إدراج واحدة منها لاستيفائها لعناصر تلك السياسة. وهي موجهة من الشريف الوزاني إلى السلطان عبد العزيز، أيام مقام حرْكة الأمير الأمين بالحياينة «... وبعد ينهى لعلم مولانا (...) أن المحلة السعيدة لما خيمت بأولاد ابن نخل على واجبهم وجدنا إذ ذاك الجل من جماعة الهبارجة منحرفين عن الخدمة مع عاملهم وأمر عم سيدنا مولاي الأمين بالحرْكة إليهم وكلفنا بالتوجيه على غياثة والبرابر يقدمون لشد العضد (...) فقدموا بحرْكة كثيرة بالبرابر بني وراين وآيت سغروشن دارت بقصبة العسارة وغياثة دارت أيضا بقصبة بني ستيتن فلم ينفعهم إذاك إلا قدومهم بالتَعرْكِبات والمزَاوقَة بالصبيان والنساء ورجعوا للجادة وذلك بعد السوقة للهبارجة وحرقهم وتشتيتهم مع سلامة المحلة فلم يمت واحد ولا جرح (...) وعليه نطلب من سيدنا أن يجازى بني وراين وآيت سغروشن وغياثة بالكتابة إليهم ويدعو معهم بخير فإنهم امتثلوا أمر سيدنا...»(181).

بـ «التوقيع الشريف» «علال بن الشليح (عامل الحياينة بأكملها) بأن أولاد تخيل ظهر فيهم الفساد وجعلوا الجموع مع رعاع أولاد رياب والجعافرة وقصدهم التواني عن الحرْكة والحياينة تشوفوا لما فعل المذكورون ووجه بطاقة اليهم تشهد بما ذكره عنهم. التوقيع الشريف يجري عليهم الأحكام بتسليط إخوانهم عليهم وجوارهم وهو يشد لهم العضد ولابد ونحن بحول الله في الأثر لهم». تدرج الرفض يوازيه تدرج القمع.

(180) رسالة مستقلة، خ.ح.ر. مؤرخة بـ6 جمادى 1 1312/دجنبر 1894.

(181) رسالة مستقلة، من عبد السلام بن ادريس زين العابدين إلى السلطان، مؤرخة بمتم رجب 1895/1312 خ.ح.ر. لاحظ أن قبائل الجبل تستحق المجازاة لمجرد الامتثال لأمر بالتضييق بجوارهم.

فضلا عن دور الحركة، وتأثير الشريف الوزاني بالمنطقة، وهما عنصران سوف نعود إليهما فيما بعد، تدل هذه الرسالة على شدة صرامة المخزن، في أواخر القرن 19م، بالنسبة لقبائل السهل والمسلك، ومرونته كلما تعلق الأمر بسكان الجبال الذين اعتبرتهم وثيقة سابقة مجرد حبّالة، أي صانعي حبال الدوم، لا يهم أمرهم[182].

ويبدو أن جهاز التمثيل المخزني المحلي كان يشاطر المركز في صرامته تلك بالنسبة لقبائل السهل والتل فقد عبر ثلاث قواد من التسول عن موقفهم المختلف من فساد بني وراين الذين هم في الجبل وغياثة الذين هم على المسلك باللفظ التالي «فأما البرابر ليس هم على طريق وأما غياثة إن فشى أمرهم (...) فلا شك في بيان فسادهم أكثر من هؤلاء البرابر في الطرقات ومع مدينة تازا»[183].

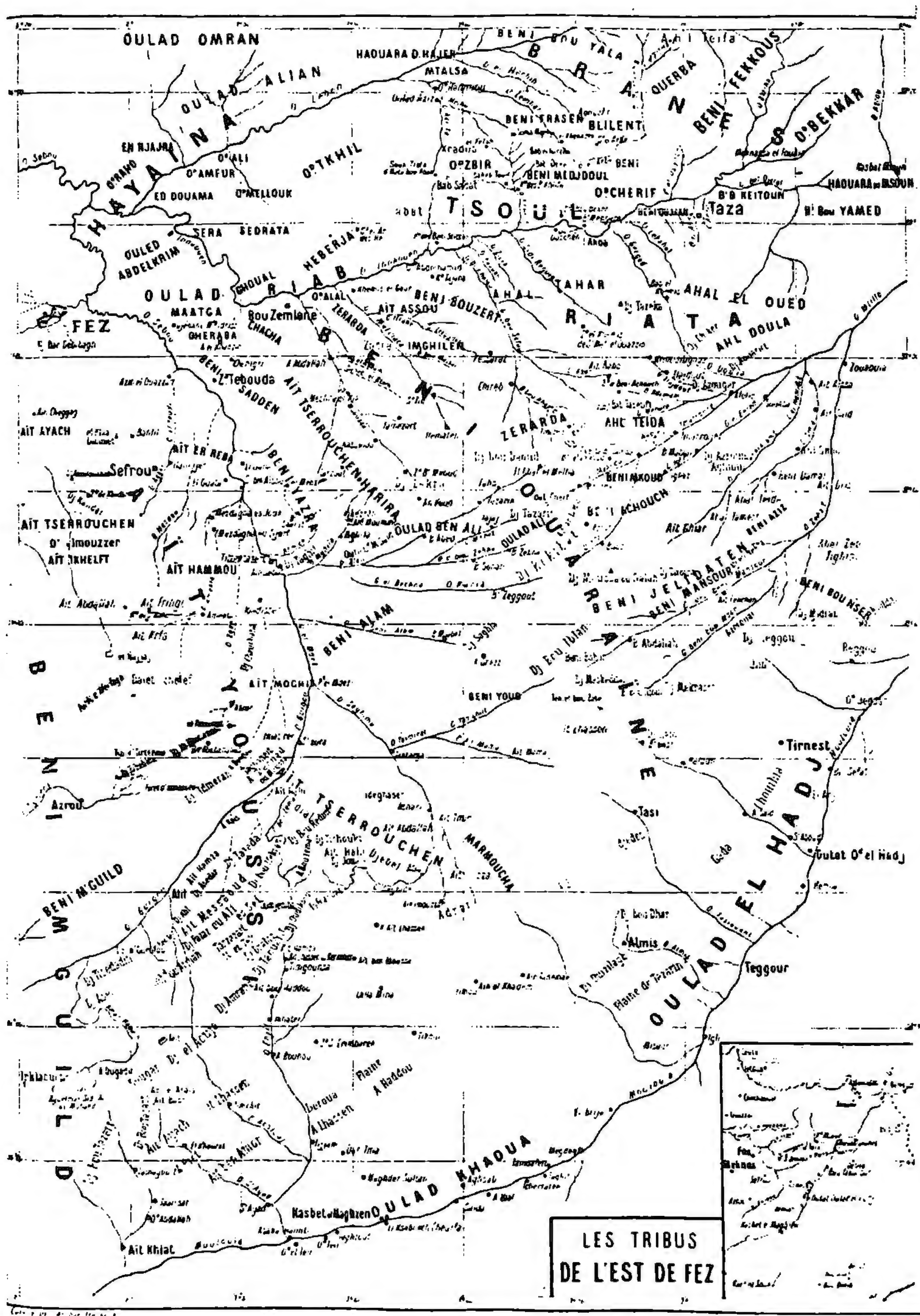
يبدو واضحا إذاً أن المخزن كان يؤلب الحياينة على جوارها أو العكس كلما تطلبت استراتيجيته ذلك بالمنطقه. ومن الجائز أن نعتبر هذا عنصرا من عناصر تأجيج، أو في أقل تقدير، استمرار المواجهة بين المجموعات القبلية بالمنطقة.

ذكرنا منذ قليل أن الوثائق تسمح بتصفيف المعطيات حول علاقات الحياينة بجوارها وموقع المخزن من الحركة الانقسامية بالمنطقة حسب منظوري التساكن أو المواجهة. ومن الواجب أن نشير الآن، إلى أن هذين المنظورين لم يكونا متنافيين، ولا متوازيين جغرافيا أو متتاليين زمانيا بقدر ما كانا متداخلين على سائر الأصعدة، مما جعل التحالفات بالمنطقة غاية في التذبذب والتعقد. ولكن من الممكن القول إن سكان التل والهضبة تسول والحياينة، كانوا تحت طائلة المخزن الذي سعى بكل الوسائل كما رأينا للحفاظ على طاعتهم، ولعقابهم في حالة العكس ـ في حين كان أهل الجبل، غياثة في معظمهم كما مر، وبني وراين كما سيتضح الآن، في مأمن، إلى هذا الحد أو ذاك من قبضة المخزن.

وقد سبق لنا في ص. 186، هامش 166، أن أشرنا إلى أن الصلح مع بني وراين، نادرا ما كان يلزمهم حالة نقضه بأداء ذعيرة، على العكس من التسول مثلا. وكلها سمات لما سوف نسميه بسياسة المخزن الانتقائية.

(182) أنظر، ص. 189 أعلاه. هامش 171.

(183) رسالة مستقلة، من عبد الهادي الدسولي والمختار اللنتي والمختار الملالي الدسولي إلى السلطان مؤرخة بـ21 رجب 1301/1884.



بعض فرق قبائل إيناون الحياينة، بني وراين...

3 ـ بني وراين القبيلة الجبلية التوسعية

يمكن اعتبار ظاهرة التوسع الوارايني[184] على السفح الشمالي الغربي من الأطلس المتوسط، في حدود ما يدخل ضمن اهتمام هذا البحث من مناطق، من المعطيات المحورية في تاريخ الحوض الإيناوني. وتكاد تجمع شتى أصناف المصادر على رصد ظاهرة التوسع تلك، فتتبع مراحلها وأطوارها، وإن اختلفت في تأويل منطلقاتها ودوافعها. صحيح أن تلك المصادر إنما تكثر، وذلك التوسع إنما يتجلى بوضوح في أواخر القرن الماضي، غير أنه من السهل استحضار جملة من الشواهد، تؤدي إلى أقدمية هذه الظاهرة بما يفوق القرنين. كيف طفت ظاهرة التوسع الوارايني على سطح الأحداث بحوض إيناون في أواخر القرن 19م بعد طول اختمار خلال أزيد من قرنين؟ إلى أي فترة يمكن رد بداية التحرك الوارايني؟ كيف يمكن تأويل هذا التحرك؟ تلك هي بعض الأسئلة التي سوف نحاول التقدم ببعض عناصر الجواب عنها.

أ ـ التوسع الوارايني في أواخر القرن 19 معطيات المكتوب المخزني

سبقت الإشارة إلى أن المركز المخزني تخلى أحيانا لبعض القواد ولفرقهم عن نصف واجباتهم الجبائية مقابل ما كانوا يقومون به من مواجهة «للبربر»، والمقصودون هنا هم بني وراين، وعادة ما كانوا يتحالفون مع آيت سغروشن، وأحيانا مع بني سادن أو غياثة[185]، وليس من المبالغة في شيء القول إن حركة توسع بني وراين من الحركات التي كان مخزن الثلث الأخير من القرن 19م يحسب لها كل حساب. لنترك الكلمة للممثلين المخزنيين، إذ أن رسائلهم بهذا الصدد أوضح من أي تعليق

جاء في رسالة موجهة من موسى بن أحمد، الحاجب، إلى أخيه عبد الله بن أحمد، وكان وقتئذ باشا بفاس. «وبعد، وصلنا كتابك (...) مخبرا فيه بحال تلك النواحي، وما فعل إيالة القائد محمد بن قاسم والقائد محمد بن قدور [الحيانيين] من النهب والقتل ومن مات من إخوان القائدين المذكورين وآيت سغروشن وبني وراين كذلك، وبقدوم أولاد عمران عليهم حتى صار بنو وراين وآيت سغروشن في الضيق

---

(184) ينقسم بني وراين إلى اغربيين (غرّابة)، واشرقيين (شراقة) أهل تايدة وآيت جَلّدَسْن ولا تدخل ضمن حدود هذا البحث سوى الفرق الغربية ـ انظر: خ.ح. كناش 151. وG. MARCY، (م.س)، ص. 79.

(185) انظر، ص. 191ـ192 أعلاه.

والشدة، وبما فعل بنو يازغة ببني وراين حتى مات منهم العدد وانكسروا»[186].

تبدو كل من الحياينة وبني يازغة من خلال هذه الرسالة كحزام أمن يمنطق به المخزن قبائل الجبل لمنعها من التوسع في الأراضي الواطئة، وذلك منذ الفترة الأولى للعهد الحسني. وإذا ما كان أولاد عمران سارعوا إلى دعم أولاد رياب في ربيع 1876 فإن الأمر لم يكن دائما كذلك، وذاك ما تثبته رسالة الحسن بن العربي الهلالي الموجهة إلى السلطان بتاريخ 9 جمادى2 1884/1301. جاء فيها «فنطالع علم سيدنا (...) بما يقع بيننا وبين فساد الابْرَابْر كبني وراين وسغروشن من الفتنة الشديدة والقتال كل يوم خيولنا سرَّجة ورُماتنا متحزِّمُون ليلا ونهارا ولم نجد من يعيننا من قبيلتنا، وإنهم حركوا لنا بخيول كثيرة ورمات عديدة لديارنا وقمت أنا بنفسي وأولادي وجماعتي فقط، ولم يكن لنا معينا (...) وتعطَّبت خيولنا وانجرحوا أولادي ومات نحو الإثنان من إخواني دون المجارح حاصله لم يسلم منا إلا قليل وحضرت إغارة مولانا معنا وهزمنا جيشهم وقتلنا منهم ما هو عدد من الخيل والآدمين..»[187].

تعكس هذه الرسالة الجو الذي كان يسود الجماعات الهامشية في مجاورة القبائل المتواجهة على الرغم من ضرورة عدم التضخيم من هذه المواجهات التي تؤول في النهاية إلى نتائج محدودة (قتيلان من إخوان الهلالي) فإنه من اللازم أخذ الوصف الذي يصف به هذا القائد جو الحياة اليومية مأخذ الجد، إذ أن رائحة الحرب حاضرة «ليلا ونهارا»، سيما إذا بقيت جماعة حيانية معزولة أمام بني وراين كما هو الشأن هنا.

وقد يقفز الذهن إلى التصنيفات السهلة الحياينة عرب، وبني وراين بربر كما تلح على ذلك الرسائل المخزنية. وإذا كنا بينّا بما فيه الكفاية، فيما سبق، أن الحياينة مزيج سكاني متعرب فإن بني وراين، وبالرغم من استقرارهم السابق بالجبل، كانوا أيضا مزيجا سكانيا أمزيغيا، وأحيانا، متمزّغا.

و لم يراع بْني وراين في زحفهم إلى السهل أي اختلاف لغوي. بل عاملوا سكان

(186) مؤرخة بـ26 صفر 1293/مارس 1876، خ.ح.ر. الوثائق الزيدانية، مج 12 و85.
(187) رسالة مستقلة، غير مرتبة، خ.ح.ر. ونظرا لكثرة اللحن بالرسالة أثبت لفظها دون استعمال رمز [كذا] أمثال هذه الرسالة، من الناحية اللغوية، عديدة وتدل على تدَنّي الاطلاع على الفصحى حتى لدى القبائل الشهيرة كقبائل عربية. وقد اعتبرنا أنه من اللازم إضافة بعض الحرَكات إلى النص الأصلي، تقريبا لفهمه.

«الوطا» معاملة متشابهة. يبدو ذلك بجلاء في عدد من رسائل بني سادن، القبيلة الأمزيغية الموجودة على الهضبة، جنوب إيناون، وهذه واحدة منها، موجهة من القائد ابن حدُّ بن علي السادني، بتزكية من شيخين وأمينيين، إلى خليفة السلطان بفاس، الأمير إسماعيل، بتاريخ 18 جمادى 1 1886/1303 «... وبعد (...) فقد وفانا الأمر الشريف مخبرا بلغًا [أنه بلغكم] خبر القتال وقع بين بني سادن وبني وراين وآيت سغروشن (...) وغزران وبعض غياثة وماةْ الأمين بن علي الميموني وغيره من بني سادن وأمرنا سيدنا أن نبينوا له الحقيقة على أي شيء نشأ وعْلم سيدي أما ما كان من هذا القبائل المذكورة فأمرهم حقا في ذلك أما ما كان من غياثة وغزران ليس دخلوا في هاذا وعْلم سيدي أما سبب الواقع بينهم كان كفاف وحقوق بينهما قبل هذا ولم يتفاصلا من الجانبين حتى وقع القتال بيهما وشاعت العداوة...».

وفي طرة الرسالة سجل القائد «عداد من بني سادن شر الأول يوم الثلاثة قبل تارخه ماتوا.... 5 والشر الثاني بعده يوم السبت... 7 والشر الثالث... 4 وعداد الخيل.. 5 وعداد المجارح... 09 والامراس أيت عبُّ وأيت حمودين وكَيتن بزملان، حازوا لهم أمراسهم جميعا»(188).

تدلنا هذه الرسالة بكيفية أدق من سابقتها على معدل للمواجهة (الشر) في أحد أسابيع فبراير 1886 بين مواجهتين وثلاث تؤول إلى ما يقرب من 16 من القتلى و9 من الجرحى في جانب بني سادن وحدهم دون الأضرار المادية الأخرى: خيول، أمراس إلخ....

مقابل المد الوراييني في اتجاه السهل، والذي تبرزه هذه الرسائل بجلاء، نستفيد من رسائل متعددة أخرى، أن بني وراين كانوا مستعدين بكيفية تكاد تكون مستمرة، لإيواء وحماية فرق القبائل المجاورة لهم، والتي كانت لسبب أو لآخر، في حاجة إلى الاحتماء بهم من عقاب المخزن سبقت الإشارة إلى حالة بعض فرق الحياينة ويمكننا تأييد ذلك بأمثلة مأخوذة من بني يازغة.

نقرأ في رسالة إلى السلطان، بدون توقيع، يظهر من فحواها أنها من القائد حم بن الحسين اليازغي، كما سَجل ذلك في التلخيص على ظهرها، كتبة القصر،

(188) رسالة مستقلة، خ.ح.ر. استغنيت هنا أيضا عن رمز [كذا] بعد اللحن، لكثرته. وتدل نسبة اللحن المرتفعة، والخط الرديء على درجة تعرب هذه القبيلة، الضعيفة إلى غاية العقد التاسع من القرن الماضي. وغزران المذكورة في الرسالة من فرق بني يازغة القديمة التي التحقت ببني وراين كما سيأتي.

وهي مؤرخة بـ 20 ربيع 2 1310/نونبر 1892 «فقد كنا قدمنا لك وأطلعنا سيادتك بأن إخواننا غزران، وهم نصف القبيلة لم يمتثلوا منا الأوامر لدخولهم تحت بني وراين الفاسدين وفسادهم معلوم وأمنوا مكر الله ووجهنا لقياد بني وراين وأعيانهم إخواننا مع مقدم من أصحاب سيدنا وطلبنا منهم رفع اليد عن غزران وما أضيق إليهم فامتنعوا وزادوا في عتوهم، والقبيلة كلها تتشوف إليهم...»(189).

إن هذه الرسالة لا تفيدنا أن بني وراين وسعوا نفوذهم إلى غزران من بني يازغة منذ مدة فحسب، بل تدلنا كذلك على موقع قواد بني وراين ضمن قبيلتهم، حيث أنهم، بدلا من الانفراد بالسلطة كما يفترض فيهم من وجهة النظر المخزنية، يتقاسمونها في أحسن الأحوال مع الأعيان مما يفيد أن تمثيليتهم المخزنية صورية محدودة كما سوف يتجلى بعد قليل.

مهما يكن، فإن ضم بني وراين لغزران لم يكن سوى محطة على طريق استيعاب جل بني يازغة ضمن التجمع الورايني، وهو ما نستشفه من الجملة الأخيرة من الرسالة السابقة، وما تشير إليه بكيفية قطعية رسالة مبعوثة هذه المرة من خليفة القائد وأخيه محمد بن الحسين اليازغي، إلى القائد السابق الذكر، والذي كان يصاحب السلطان في رحلته إلى تافلالت، مؤرخة بـ 4 صفر 1311/غشت 1893 «وبعد، إن سألت عنا في هذه الساعة، فنحن في ضيق شديد مع بني وراين وأيت سغروشن وفئة من بني سادن. فإن بني وراين لما سمعوا بسيدنا (...) بأنه غمق [تعمق] في السحارى وامنوا منه غاضوا واستغلظوا (...) ثم إن بني سغات [جزء من بني يازغة] قدموا لبني وراين وذبحوا عليهم بسوقهم اثنين فحول بقر ورجعوا معهم ذاة واحدة كقاضيوة وغزران [جزءان آخران] وزحفوا علينا بني وراين وغزران وبني سغات يوم الأربعاء الفارطة (...) بالخيول والرجْلي (...) واشتعلت الفتنة بيننا وبينهم فمات [أربعة من بني يازغة] وأما منهم لم نتحقق بشيء لأن بكثرتهم قطعوا فينا الجهد (...) والحاصل أن ثلاثة أجزاء من بني يازغة رجعوا من قبيلة بني وراين ويدا وَحْدة ويحرْكوا إلينا بأجمعهم. فإن لم تنظر ما تفعله عاجلا من الاعتذار لدار المخزن وتطلب الإغاثة منها فلا تجد أحدا (...) فقد غلبونا بالقوة والاستعانة بإخواننا علينا»(190).

(189) رسالة مستقلة، غير مرتبة، خ.ح.ر.

(190) رسالة مستقلة، غير مرتبة، خ.ح.ر. هنا أيضا، استغنيت عن رمز [كذا] لكثرة اللحن. وقد أشار

إن هذه الرسالة ذات الطابع الاستصراخي الواضح تشير إلى أن بني وراين كانوا يشددون قبضتهم على جوارهم كلما كان المركز المخزني مبتعدا، حيث أصبحت تهدد في صيف 1893 باستيعاب كل قبيلة بني يازغة. بيد أن نفس الرسالة تدلنا على الكيفية التي اعتاد بني وراين التحرك بها. فمن النادر ألا تسبق مراسيم «العار»، تحرك القبيلة الوراينية في اتجاه من الاتجاهات. وتعني مراسيم «العار» الذبيحة الطقوسية، وطلب المؤاخاة[191] لسبب من الأسباب. في الحالة التي تعنينا، احتاجت فرقة بني سغات إلى طلب مؤاخاة بني وراين بعد أن قتل أحد أفرادها من طرف عضو من فرقة الربع الفوقي في مبارزة انتهت لغير صالحه[192]. وقد تعددت تلك الحالات حسبما تحتفظ به الذاكرة الجماعية كما سنراه.

تشير الرسائل المدرجة أعلاه إلى امتدادات التوسع الوراييني في أواخر القرن 19م في اتجاه الشمال والشمال الغربي ضد الحياينة وبني سادن وفي اتجاه الغرب ضد بني يازغة[193]. بيد أن السمة المشتركة بين تلك الرسائل أنها كلها محررة من طرف خصوم بني وراين وبالتالي، لا بد من أخذها بالاحتياط اللازم. وقد لاحظنا في الرسالة الأخيرة أن تحرك بني وراين لم يكن في العمق سوى استجابة لاستنجاد من جماعة من بني يازغة. والواقع أن قواد بني وراين احتجوا غير ما مرة لدى المخزن لما كان يراجعهم في توسعهم على حساب جوارهم، بأنهم إنما استجابوا لمثل ذلك الاستنجاد. فلننصت مثلا إلى محاجة قواد بني وراين لقائد بني يازغة حول غزران، واردة في رسالة موقعة من طرف قائدين وراينين هما محمد بن علي الزرودي وعياد أوراغ الوراييني إلى السلطان مؤرخة بـ 18 محرم 1310/غشت 1892، تقول

«...وبعد، سيدي بلغنا من قولك الشريف على شأن غزران مع قصيوة لنتخلوا عن مرافقتهم ويرجعون لبني يازغة فها نحن نعلمك بحالهم مع قبيلتنا ونظرك أوسع. وقد كنا معهم على الصلح والهْنَا فإذا به غدرونا وأخذوا منا إثنا عشر ألفا من الغنم وقاتلْنَهم عليها المرة بعد المرة فإذا به ادرْكْنَهُم بالقوة واخرجْنَهم إحدى اليوم من مدشرهم وحينيد طلبوا منا الكف من المقاتلة واستنعموا لنا برد الماشية وطلبوا من بني

DE SÉGONZAC، ص. 228، إلى تطورات الأحداث التي تحيل عليها هذه الرسالة في جملة موجزة «قصيوة يحرثون وادي الأحمر لفائدة بني وراين»...

(191) حول المؤاخاة أو تاضًا انظر التوفيق، (م.س)، ص ص. 383-384.

(192) مصدر هامش 190.

(193) خرائط 1 على 50.000 أوراق مطماطة، تاهلة، أهرمومو إلخ....

يازغة المعاونة على ذلك حيث كانوا دفعوا لهم طرف من داللك فامتنعوا من معاونتهم وفروا منهم ويوم من الأيام كنا معَمْرين سوق بلدنا يوم الخميس، حتى قدموا باليل ودخلوا علينا في السوق نساء ورجالا وقالوا إن بني يازغة فروا منا ونحن ما قدرنا على غرم الماشية وَاخْذْنا [بمفردنا] واليوم نكون إخوانا معكم وقبلنا منهم ذلك وصاروا يضربون معنا بني يازغة ويقاتلُهم واخْذهم إلى العام الفارط واصطلحنا معهم واليوم سيدي نحبك إن اقتضى نظرك الشريف أن تأمر اليازغ يدفع لنا العدة المذكورة وإلا فنظرك أوسع وهم لا زالوا بأرضهم وبالمكان الذي كانوا فيه أولا...»[194].

إن هذه الوثيقة تستبق بعض الشيء ما سنبحث فيه في نهاية هذه الفقرة من دوافع التوسع الورايني، بما أنها تنص بوضوح أن أصل صراع بني وراين وغزران إنما هو مسألة اغتصاب ماشية، ناتجة من دون أي ريب عن تطاحن حول المراعي الشتوية.

وما يهمنا منها الآن، هو ما تؤكده، حسب رواية الطرف الورايني، من أن تحرك مجموعة بني وراين نحو الغرب إنما كان باستدعاء من غزران بعد أن انفقدت عرى التلاحم بينهم وبين قبيلتهم الأصلية بني يازغة. كما توحي الرسالة بالصراع المرير بين بني وراين وبني يازغة «وصاروا يضربون معنا بني يازغة» وتفصح في الأخير، من حيث لا تريد، عن أحد رهانات هذا الصراع عندما تؤكد «وهم لا زالوا بأرضهم»[195].

ونصادف في رسالة[196] أقدم من الوثيقة السابقة بأربع سنوات أن قصيوة «رجعوا إلينا [بني وراين] نحو العشرة أعوام» أي على الأقل منذ 1296/1878 ـ 1879. كما أن القائد عياد الورايني لما طالب ق. الجيلالي الهلالي باسترجاع إخوانه الشبابات، من أولاد رياب أجابه «ان الشبابات من دو [كذا] وقت كان القائد محمد بن قدرو البزياني، وهم نازلين مع إخواننا أيت عصّ من إيالتنا كل واحد مع

(194) رسالة مستقلة، غير مرتبة (ر.م.غ.م.) ـ خ.ح. وقع الاستغناء عن رمز [كذا] لكثرة اللحن.

(195) سجل DE SÉGONZAC، (م.س)، ص. 232، حوالي 1900 ما يلي «غزران فرقة من بني يازغة التحمت ببني وراين. وحينما تسألهم عن سبب هذا الاختيار يشيرون إلى تل حسي أحمد وعلي قائلين : «هذا ثمن دفاعنا عن استقلالنا». وهذا التل مقبرة لمن قُتلوا من طرف العدو [بني وراين] وما قمة التل سوى مدفن كبير..

(196) ر.م.غ.م. ـ خ.ح. 13 رجب 1306/مارس 1889. من ق. محمد بن علي الزرودي إلى السلطان.

صاحبه (...) أكثرهم مساكين وخماميس، فلا زالوا معّاشين من الان وحتى الآن مع بني وراين...»(197).

إن ما يشوب هذه المحاجة بين بني وراين وجوارهم من رمي الآخر بتهمة البدء ومحاولة احتلال موقع المظلوم، وهو ما يسري بكيفية متساوية، على هذا الطرف أو ذاك، لا يهم المؤرخ، بقدر ما يهمه رصد ظاهرة توسع مجموعة بني وراين والبحث عن جذورها. وإتماما لهذا الرصد، وبعد أن أوردنا رواية الطرفين المعنيين، رواية الجوار ثم رواية بني وراين أنفسهم، لا نرى بأسا في إدراج رأي إحدى دعامات المخزن المحلية بإيناون، وهو الشريف بن زين العابدين الوزاني، الذي يمتلك بالمنطقة، نفوذا وراثيا موازيا لنفوذ المخزن المركزي(198). وإذا ما كان هذا الرأي صادرا عن جهة مستقلة نسبيا عن التنظيم القبلي، إذ أن الشريف، كان يمثل بإيناون العنصر الموازن للصراعات الانقسامية، فإن صاحبه، لم يكن متجردا تماما عن ملابسات الصراع، إذ أن عزائبه كانت ببلاد الحياينة، ومن ثم قد تفهم حدة لهجته ضد بني وراين. بيد أن ما أوردناه سابقا من وثائق، يدل بما فيه الكفاية، على أنه بالرغم من التحفظ الذي أبديناه للتو، تبقى شهادة الوزاني كبيرة المصداقية، سيما وأنه كان مرات عديدة، أداة المصالحة بين قبائل المنطقة.

جاء في ملخص رسالة جوابية، بتاريخ 24 جمادى 2 1310/يناير 1893:
«سيدي ادريس الوزاني وصل كتابك بشرح فساد بني وراين وتطاولهم على الاستيلاء على جيرانهم واتساع بلادهم بكثرة الترامي على الناس والتقاعد على الواجبات...»(199).

إن ما أوردناه من شواهد حول «اتساع بلاد» بني وراين في أواخر القرن 19م، إنما هو غيض من فيض بالنظر إلى ما يتوفر من وثائق حول هذه الظاهرة، والتي

(197) ر.م.غ.م. 16 جمادى 2. 1307/فبراير 1890 من عياد الورايني إلى السلطان. ويرد ذكر اسم القائد البوزياني في المتوفر لدينا من وثائق، فيما بين 1286/1869–1870 و1296/1878–1879 قبل أن نعود لاكتشافه ضمن القواد المعتقلين سنة 1301/1883–1884 بمعنى أن عياد الورايني يؤكد أن «الشبابات» التحقوا ببني وراين على الأقل منذ آخر فترة لحكم البوزياني، أي منذ إحدى عشرة سنة.

(198) سبق لنا أن التقينا، لمّا درسنا الحياينة، بكل من إدريس ثم ابنه عبد السلام. أسرة حاكمة محلية موازية للأسرة الحاكمة مركزيا.

(199) كناش 707، ص. 215. خ.ح.ر.

لا شك أنه لم يكن يختلف إثنان في شأنها وقتئذ. ونعتبر أن في ذلك غنى عما أشار إليه رحالة أواخر القرن 19م في الموضوع[200].

بيد أن ذلك لا يعفينا من إدراج ما تحتفظ به الذاكرة الجماعية الورainية إلى اليوم، حول هذه الوقائع. وليس إدراجنا هذا من باب مقابلة تأويل المخزن، أو حتى تأويل الخصم الحياني، والسادني، واليازغي إلخ... بتأويل ورايني، يستحيل فيه «التعدي» و«الترامي» إلى «بطولة» و«نجدة»، فقط، وإنما ندرج ذلك، لما تتيحه الرواية الشفوية، حتى من خلال نواقصها، من طرح مسألة التوسع الورايني، من منطلقات جديدة، تمكن من تعميق المناقشة.

لا حاجة للتأكيد على ما يطبع الرواية الشفوية من تحرر من الضابط الزماني، وأحيانا كثيرة أيضا، من الضابط المكاني، مما يُضفي عليها غالبا صبغة التداخل والادغام، ويجعل أحداثها تكون مركبة، مكثفة في لحظات زمانية ومكانية امتيازية[201]. فإذا ما كانت الرسالة المخزنية تنزل من حيث الدقة إلى مستوى اللامتناهي في الصغر ـ الحادثة اليومية الدقيقة جدا ـ فإن الرواية الشفوية تحلق بالعكس في مستوى اللامتناهي في الكبر ـ التوسع الورايني برمته. ومن ثم تنفتح مباشرة على أسئلة من صنف أصل بني وراين؟ خط مسارهم؟ اتجاهات توسعهم؟ آفاق توسعهم التي لم تعقها سوى الحماية الفرنسية؟[202].

ب ـ التوسع الورايني رواية الذاكرة الشعبية الورainية[203]

«أصل القبيلة، فيما تواتر من أخبارها، من ناحية فيكَيكَ، اتجهت تدريجيا نحو

(200) DE FOUCAULD، ص. 387 ؛ EL MERAKCHI، ص. 6 ؛ DELBREL، ص. 179 ؛ DE SÉGONZAC، ص. 215 ؛ pp. 214-215 **B.C.A.F.** 1912 — **R.C.**

(201) «تعاني الرواية الشفوية من عيب جسيم يتمثل في جهلها بالكرونولوجيا، وتقديمها للوقائع في هيأة لوحة مسطحة بدون نتوء (...) وتستعمل الذاكرة الشعبية رقابة لا شعورية على الأخبار فلا تحتفظ إلا بتلك التي أثرت في مصير المجموعة أو تلك التي تبرر وتديم امتيازات راهنة» L. MEZZINE، (م.س)، ص. 119.

(202) القول إن توسع بني وراين في اتجاه فاس لم تعقه سوى الحماية، مثلا، ظل يتردد لدى بني وراين منذ أوائل هذا القرن اثبته ضباط الاستخبارات سنة 1912 (**B.C.A.F.** 1912. **R.C** 6 214) ثم MARCY (1929)، ص. 80، ثم COLIN (1938)، ص. 266، واستمع إليه ع. فضل الله في نهاية الستينات واستمعت إليه بدوري في 1979.5.12، أنظر المصادر، الرواية الشفوية.

(203) أشكر كلا من السيدين علي أوراغ، حفيد القائد السابق الذكر، وعياد لمهور، اللذين بفضلهما تمكنت من الاتصال بأسر ورainية والحصول على مادة هذه الفقرة.

الشمال الغربي، إلى أعالي الأطلس المتوسط، في جبال بويبلان، وإلى وادي تنكرارمت[204] بالضبط، حيث أقامت مدة طويلة. ثم شرعت في النزول إلى «الوطا»، وكان، قد وصلها الخبر أن سكان «الوطا» هم على التوالي بني مكود، آيت سغروشن الحريرة، الحيانية وبني سادن.

كان بْني مكود يخضعون لقائد يهودي يفرض على النساء المكوديات الاحتطاب له من الغابة، ويوما ما، وجدهن بعض بني وراين، ولما علموا بالأمر، قرروا القضاء على الحاكم اليهودي. فكان ذلك أصل تغلب بني وراين على بني مكود[205].

بعد ذلك علم بني وراين أن بعض شرفاء آيت سغروشن[206] كانوا يقعون بصفة متكررة تحت ضيم بني سادن. من ذلك أن هؤلاء يأتون كل مرة، في أربعين فارسا[207] و«ينزلون» على آيت سغروشن، ويشترطون عليهم خير مأكل ومشرب بل إنهم زيادة في الإهانة، يرفضون الترجل عن خيولهم، ولا يقبلون من لحم الخروف سوى الطابق الذي يفرضون أن يوضع على الكسكس وسط قصعة تحملها إحدى الشريفات. على رأسها حتى يتسنى لبني سادن أن يأكلوا وهم راكبون على خيولهم[208]. فتوجه بعض كبار آيت سغروشن إلى موطن بني وراين وهم ما يزالون

---

(204) انظر ورقة أهرمومو 1 على 100.000. واد مرتفع يبلغ علوه حوالي 1900م. إحدا ثياته 352 شمالا و627 شرقا.

(205) يبدو أن في هذه الرواية إعادة ترتيب قوية لصالح بني وراين، فقد أفاد راوية آخر بأخبار مغايرة كان بني مكود أقوياء ومن شدة بطشهم أنهم كانوا يقولون «آلدُّومِيَّة ولّي مكُّودِية وَألا يَاكلُكْ الحَافر»، بمعنى أيتها الدومة، انضمي إلى بني مكود قبل أن ياكلك الحافر، لشدة ما يتوفر لهم من الفرسان. وهو ما يدفعنا إلى افتراض صراع مرير من طرفهم قبل خضوعهم.

(206) نجد عند محمد بن عبد العظيم الأزموري، **تقييد لشرفاء المغرب وقبائله** مخطوط خ.ع.ر. 1595، ص. 169 ظ، أن من بين الشرفاء الأدارسة من اشتهر بلقب السغروشنيين وينحدرون من عمر بن ادريس. ومن الملفت للانتباه أن ذكرى الشرعية الإدريسية ظلت قائمة بايناون حتى القرن 20م.

(207) إحالة على مؤسسة آيت الأربعين ؟

(208) في رواية ثانية يحمل القصعة كبير شرفاء آيت سغروشن. ومن الملحوظ أن الإهانة عن طريق المراة تَمثُّل مشترك في الحوض الإيناوني. سبقت الإشارة إلى حالة غياثة/مكناسة. وبالإضافة إلى الحالة الراهنة التي تواجه آيت سغروشن/بني سادن، اطلعت في رواية أخرى على كون الحادثة وقعت بين الحياينة وبني وراين فقد كان أولاد هلال حسب هذه الرواية، من شدة ضغطهم على بني وراين، يرغمون الوراينيات على حمل علف خيولهم في أسفل لحافهن، بالضبط كما يرويه غياثة في شأن مكناسة مع الغياثيات. وقد علق الراوي أن ذلك كان من كثرة التغلب والظلم المؤْذِن بالانهيار. وذاك ما آل إليه أولاد هلال لما طاردهم بني وراين.

بالجبل، «فعركَبوا» عليهم ثورا[209] وطلبوا منهم النجدة، فكانوا بذلك بمثابة الدليل لهم في «الوطا».

طالت المواجهة بين بني وراين وبني سادن، واستفادت الأولى من التحالف مع آيت سغروشن، إلى أن دفعت بني سادن غرب عين الفلاج[210] بعد أن كانوا يقطنون هضبة الشعرة[211]. ومن شدة ضغط بني وراين وتغلبهم على بني سادن، اقتسموهم «نائبة». كل فخذة من بني سادن تتبع لفخذة مقابلة لها من بني وراين، تساندها في الحرب، وتدين لها بالولاء في السلم حتى أن السادني إذا ما توفي عن غير وريث ذكر من صلبه يؤول متروكه إلى «أخيه» الوراييني.

ثم كان دور اغزران وبني يازغة، ثم الحياينة الذين طردهم بني وراين حتى شمال وادي إيناون[212]. ولولا الحماية لكان نفوذ بني وراين يمتد اليوم إلى ضواحي فاس، إذ كانت هجماتهم بدأت تتجه ضد آيت يوسي[213].

تستدعي هذه الرواية بعض التعليقات وتطرح بعض الأسئلة.

ـ من الواضح أن الراوي يتغنى في روايته بماض زاهي الألوان، تُعزّي بطولات الأجداد فيه عن الشعور بالتهميش في الواقع الراهن. وقد يكون رفع علم البطولات الماضية رديفا للحفاظ على امتيازات غاية في الآنية[214].

ـ لكن بعد أن ندخل هذه التحفظات في الاعتبار، من الواجب الإقرار أن هذه الرواية تمكن من إضاءة جديدة لحوادث بدت لنا معزولة فيما صادفناه في الوثائق المكتوبة الاستعداد لتلبية دعوة المستنجدين (آيت سغروشن مثلا)، دمج فرق

---

(209) انظر ظاهرة المؤاخاة أعلاه.

(210) ورقة شرق فاس، 1 على 100.000 383 شمالا و575 شرقا.

(211) ورقة اهرمومو، 1 على 100.000 375×604. وهي عبارة عن هضبة مرتفعة تبلغ 1458 مترا. المسافة بين الشعرة وعين الفلاج، بالخط المستقيم، أزيد من ثلاثين كلم، وهي مدى طرد بني وراين لبني سادن تجاه الشمال الغربي.

(212) ما تزال الطبونيميا المحلية تحتفظ بتسمية «جبل الحياني» يبعد عن إيناون بحوالي ثلاثين كلم حسب الخط المستقيم. أنظر ورقة اهرمومو، 1 على 100.000 365×588 وقد سماه DE SÉGONZAC، ص. 231، عندما مرّ بالمنطقة سنة 1900، وكان تابعا في ذلك للورايينيين، عَرِبي حيان.

(213) صغت هذه الرواية من تركيب ما أفادني به كل من السادة عبد الله أبجا من امغلن، محمد برغازي من آيت عبد الحميد، ومحمد وبراهم (لمهور) من الزراردة، سنة 1979.

(214) حصص الإصلاح الزراعي مثلا !

القبائل الأخرى عن طريق المؤاخاة (غزران، أولاد هلال)، تبدو هذه من المميزات الاستراتيجية التي لازمت التوسع الوراييني.

ـ مسار هذا التوسع اتبع خطا لا نعرف عنه أي شيء بين فيكَيكَ (؟) وتنكرارمت. لكن تفرع امتداد التوسع الوراييني يبدو جليا في اتجاه الشمال والغرب، وهو ما يهمنا، وفي اتجاه الشمال الشرقي، وهو ما يخرج عن حدود هذا البحث(215).

إلى أي فترة يمكن إرجاع انطلاق المد الوراييني؟ تقدر الرواية المحلية المسافة الزمانية التي تفصلنا (1979) وانطلاق «نزول» بني وراين بحوالي مائة وخمسين سنة(216) مما يحيل على أوائل القرن 19م. ومن حسن الحظ أننا عثرنا لدى أسرة وراينية على بعض عقود الملكية، التي كان الوراينيون «يحللون»(217) بها ممتلكاتهم من أصحابها الأسبقين (بني مكود)، وتعود إلى 1858/1275، مما مكننا من ضبط مدى تقدم بعض فرق بني وراين، وهم الزراردة، مكانا (الشعرة) وزمانا (النصف الأول من القرن 19م). ويؤيد هذا الاستنتاج ما تفيده شجرة أسرة أحد مخبريي الوراينيين (انظر الجدول اللاحق) والذي يروي أن جده الثالث مات في إحدى المواجهات الأولى مع بني سادن. وإذا ما اعتبرنا أن القرن ينقسم إلى ثلاثة أجيال فإنه يصبح بالإمكان تقدير المسافة الزمنية التي تفصلنا عن وفاة ذلك الجد الثالث أي عن المواجهات الأولى بين بني وراين وبني سادن على الكيفية التالية

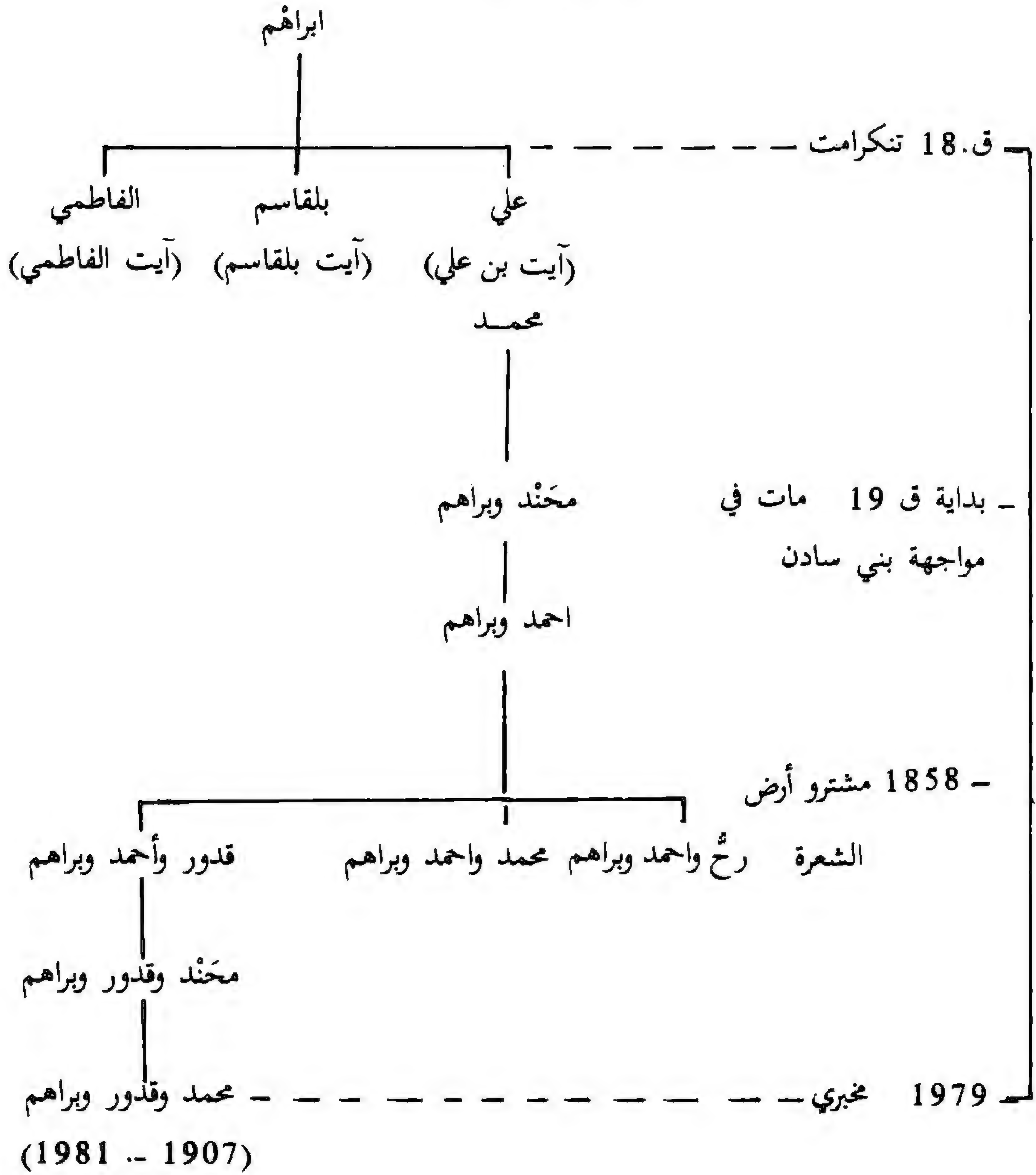
$$\frac{100 \times 5 \text{ (أي 3 أجداد + الأب + المخبر)}}{3} = 165$$ سنة، وهو أيضا ما يرجعنا إلى أوائل القرن 19م، ولا يبتعد بنا كثيرا سواء عن تقدير الراوي السابق (150 سنة) أو عن الاستنتاج الذي توصلنا إليه من استقراء عقود تملك أراضي المغلوبين (120 سنة).

(215) عن حركة بني وراين في اتجاه الشمال الشرقي G. MARCY، (م.س)، ص ص. 79–80؛ 95. ومن الطريف أن تكون بعض أسر أعيان المنطقة، إبان فترة الحماية، ومنهم بعض الأشراف، قد اتبعت نفس الخط، الذي يفترض أن بني وراين اتبعوه فيما قبل من فيكَيكَ إلى تنكرارمت قبل الانتقال إلى غياثة. انظر أسرة القائد طنطان، في GOUVION، (م.س). ص ص. 819–820.

(216) نفس المدة لاستقرار عدد من أسر أعيان إيناون، نتوصل إليها من مراجعة أخبارهم عند GOUVION. وقد يرتبط ذلك بنوعية المصدر أكثر مما بالواقع.

(217) تعبير استعمله مخبري، ويقصد به تبايعا شكليا. انظر فيما بعد.

شكل 5 شجرة آل ابراهْم عرش[218] من عروش الزراردة
من بني وراين الغرابة



باستطاعتنا الآن، بعد استعراض معطيات المكتوب المخزني ورواية الذاكرة الجماعية، أن نفترض مسارا عاما لزحف بني وراين على الشكل التالي

* القرنان 16-17م تشكل هذه الاتحادية وانطلاقها من الجنوب الشرقي (فيكَيكَ؟) وهي نفس الفترة التي سبق ان عاينا فيها تشكل مجموعة الحيايينة.

(218) يستعمل الورانيون لفظة «العرش» بمعنى «العظم» أو العشيرة، أي المجموعة السلالية الكبرى.

*القرنان 17-18م محطة بتنكْرارمْت حيث كان الفراغ الديموغرافي يلائم وفود مهاجرين جدد[219]. ومن الجدير بالملاحظة أنه إلى غاية 1096/1684 - 1685 أي إلى تاريخ وفاة صاحب **الأقنوم**، لم يكن اسم هذه الاتحادية معلوما لدى فقهاء فاس فيما يبدو، إذ أن هذا المصنف لم يشر إليه بالرغم من كونه ذكر بعض الأسماء التي اندرجت فيما بعد ضمن مجموعة بني وراين، كبني زهنة، مثلا أو بني مكود[220]. وقد يساعدنا ذلك على تدقيق أكثر لمنطلق بني وراين من الجبل، إذ ترد تسميتهم لأول مرة في نصوصنا، عند صاحب **الاستقصا** في أواخر أيام السلطان اسماعيل حوالي 1720[221]. بذلك، يمكن أن نفترض أن زحف بني وراين إنما وقع خلال المدة المتراوحة فيما بين 1685 و1720، أي بما يساوي القرن أو يفوقه بقليل، بعد تشكل مجموعة الحياينة شمالا[222].

* القرنان 18 و19م صراع بني وراين مع جوارهم الجبليين (ق 18م) ولا نعلم عنه شيئا، ثم «نزولهم» (ق 19م) إلى «الوطا» الذي تنيره كل من الرواية الشفوية والوثائق.

هكذا نكون قد حاولنا إعادة بناء وتيرة التوسع الوراييني في القرنين 18 و19م. لكنه من الواضح أن إعادة البناء هذه لم تجب عما هي الدوافع الكامنة وراء حركة التوسع الموصوفة، وهو ما سنحاوله الآن.

ج - دوافع التوسع الوراييني

إن المجهود الذي بذلناه في إعادة بناء حرَكة التوسع الوراييني إنما استهدف تدقيق ما أشار إليه أكثر من واحد من الدارسين منذ بداية هذا القرن، دون التوفر في أحيان كثيرة على ما يكفي من المستندات، من كون حركة ضخمة عمت قبائل الجبل منذ القرن 18م على الأقل، وربما منذ ما قبل، في اتجاه السهول[223]. وقد

(219) يشير صاحب **الدوحة** (م.س)، 63-64 إلى نزوح بعض الصلحاء في القرن 16م إلى جبل وبلان، أي بويبلان.

(220) الفاسي، عبد الرحمن بن عبد القادر، **الاقنوم في مبادىء العلوم**، (م.س) ج 2، ص. 202.

(221) انظر الفصل السابق، ص. 96، ، **والاستقصا** ج 7، ص. 117.

(222) اعتبر ROMIEU أن بني وراين استغرقوا قرنين لقطع المسافة الفاصلة بين الجبل ووادي ايناون.
ROMIEU, Cne, **Les aït Ouraïn** C.H.E.A.M., N° 2259, Paris, 1958, p. 3
وذاك ما ينسجم تقريبا مع توصلنا إليه.

(223) انظر بالخصوص ABES، (م.س)، ص. 173، LAOUST (1935) (م.س)، ص. 91 COLIN، (م.س). ص ص. 265-268.

ذهب كل من هؤلاء الدارسين مذهبه في تفسير تلك الحركة(224). ولا يهمنا منها هنا سوى جانبها المتعلق بحوض إيناون نزول بني وراين في اتجاه «الوطا».

نستبعد اليوم، تلقائيا، أي تعليل من مستوى الاختلاف العرقي أو حتى اللغوي لهذا النزول وما صاحبه من صراعات، إذ أنه اتضح بما فيه الكفاية أن بني وراين لم يصنفوا أبدا خصومهم إلى ناطقي العربية فقط، أو حلفاءهم إلى متكلمي الأمزيغية دائما. كما نستبعد أيضا من الاعتبار أي تبرير من مستوى نفسية خاصة، تتصف بالشجاعة والإقدام، قد تميز بني وراين دون غيرهم(225)، وذلك بالرغم من ميل الرواة الراهنين إلى التلذذ بتميز من هذا المستوى !

على العكس، يجعلنا الاحتكاك مع أنواع مختلفة من المستندات نجنح إلى التفكير في مستويات أعمق، من التعليل، مثل الحجم الديموغرافي، ونمط العيش، ورهانات الحياة اليومية بين المجموعات المتساكنة.

أولا ـ الحجم الديموغرافي

وقعت الإشارة غير ما مرة إلى ما يحمله من مخاطرة، كل حديث عن الحجم الديموغرافي لتجمع قبلي ما، قبل بداية القرن 20م. وسبقت الإشارة أيضا إلى فقر مصادرنا المغربية بالخصوص في شأن كل ما هو مكمّم. بيد أنه من المفارقة، أن تكون مجموعة بني وراين الغرّابة (أغربيين) الذين اتضح أكثر من مرة أنهم يفلتون من قبضة المخزن، من القبائل التي تشذ عن القاعدة السابقة. فقد عثرنا، ضمن «القوائم الحسابية» على قائمة تعطي بكل تدقيق، تقديرا لمختلف فرق بني وراين إغربيين. على أن المفارقة الملحوظة إنما هي ظاهرية فقط، إذ أن المخزن، ربما كان أحوج إلى معرفة كمّ القبائل التي «لا تنالها الأحكام» بصفة أدق من مثيلتها سهلة المنال.

والواقع أننا نتوفر على ثلاث نسخ من نفس القائمة، عثرنا عليها في أماكن وأصناف مختلفة من الوثائق المخزنية. ولا نرى مضيعة للجهد في وصفها بإيجاز، إذ أن هذا الوصف، قد يفيدنا أيضا، في معرفة الكيفية التي كان المركز يتعامل بها مع قبائل شمال الأطلس المتوسط في أواخر القرن 19م.

(224) من الجهود الجادة الجديرة بالاعتبار، مقال B. ROSENBERGER et H. TRIKI حول المجاعات والأوبئة في مغرب القرون 16م إلى 18م، السالف الذكر.

(225) على نفس الكيفية التي يرفض بها P. PASCON تفسير علاقة الرحمانة بالمخزن. بنفسيتهم (م.س)، ص. 206.

أولى هذه القوائم ورقة مستطيلة (11،5 سم×32،5 سم) مكتوبة بخط يظهر بجلاء أنه قروي، لفظها دارج (مثلا «جمايع»، «لحياينة»، «تْولّا»، «يعمْل»، على التوالي بدلا من «جماعات»، «الحياينة»، «تولى» و«يُقدَّرون»....) وأغلب الظن أنها من إملاء أحد الأعيان الوراينيين[226]، إذ أنه مما ورد فيها «والقائد عياد [أوراغ] ما وَقْفْنا فيه إلا لأجل غياثة خَايْفين من جماعته لأن اثنين اخوانه قْتْلوهم غياثة حيث نزّل عليهم سيدنا رحمه الله [س. محمد بن عبد الرحمن] محلة مولاي عبد السلام [و] ولد ابَّ محمد حين تولّا القائد عبد الرحمن...»[227].

نون الجماعة في «وَقْفْنا» تعود من غير شك على أعيان بعض جماعات بني وراين. ولا تحمل القائمة تاريخا ولا توقيعا. بيد أن ما ورد في الفقرة المثبتة أعلاه، يحيل على أحداث مؤرخة. فالمحلة المشار إليها توجهت إلى حوض إيناون في أواخر أيام محمد بن عبد الرحمن، وتؤرخها بعض الرسائل بماي 1869[228]. أما ق. عياد أوراغ المشار إليه، فإذا كنا لا نتوفر على ظهير تعيينه، فإن أول ما يرد ذكره في وثائقنا[229]، يرجع إلى قعدة/1306/يوليوز 1889. ومعلوم أن هذا هو تاريخ تنقل حرْكة السلطان نحو الشمال (تطوان)[230]، تلك الحرْكة التي كانت وقفاتها بمثابة محطات إدارية تفقدية للقبائل المجاورة[231]. فلا نستبعد أن تكون هذه القائمة استجابة لاستخبارات المخزن عن أحوال بني وراين إبان هذه الحرْكة، وعلى كل فإن المعلومات الواردة فيها صالحة قطعا فيما بين 1869 و1889، أي بين تاريخ الحرْكة التي ورد ذكرها فيها، وتاريخ أول ذكر للقائد أوراغ.

بيد أن لدينا إشارة أخرى قد تدقق تاريخ هذه القائمة بكيفية أكثر. فقد

(226) طريقة استعملت باطناب بعد 1912. انظر: **B.A.C.F. 1912 R.C.6** p. 210 et suiv.

(227) يتعلق الأمر بـ أخي السلطان، والعربي ولد ابّ محمد أحد قواد الجيش (شراكَة) الكبار والقائد عبد الرحمن الزراري المولّى على تازة سنة 1869.

(228) ر.م.غ.م. – خ.ح.ر. من السلطان إلى ق. الحسن بن العباس 19 صفر 1286. ويروي بعض تفاصيلها السملالي السوسي في **مطالع الحسن**، مخطوط خ.ح. رقم 81. ص ص. 96–98.

(229) خ.ح. كناش 151 بعنوان «تقييد أمناء وأشياخ قبائل الغرب»، قعدة 1306.

(230) انظر: NORDMAN, Daniel, «Les expéditions de Moulay Hassan», in **Hespéris-Tamuda** Vol. XIX, 1980-81, pp. 123-152, cf. p. 133, 141.

AAFIF, Mohamed, «Les harka hassaniennes d'après l'œuvre d'A. Ibn Zidane», pp. 153-168.

(231) انظر **كناش رحلات الحسن**، (م.س). وقد طالت وقفة المحلة بالحياينة ثلاثة وعشرين يوما (بالبطمة).

أوردت هذه النسخة الأولى من قائمة جماعات بني وراين، أربع جماعات بدون قائد في حين سجلت النسخة الثانية، نفس الجماعات، في تبعية القائد محمد بن علي الزرادي، الذي نتوفر، من جهة أخرى، على ظهير تعيينه والذي يعود إلى 25 ربيع 2 1306/ دجنبر 1888[232]. نخلص من ذلك إلى أن القائمة الأصلية وضعت ولا شك قبيل دجنبر 1888، وأن وضعها كان يدخل دون ريب ضمن استعدادات السلطان للحركة[233]. وعن تلك القائمة الأصلية نقلت القائمة الثانية التي سجلت بالكناش 151 الآنف الذكر، وحيث عثرنا على القائمة الأولى، منفصلة.

أما ثالثة هذه القوائم، والتي لا تختلف معلوماتها عن السابقتين، سوى في إلحاق بعض الجماعات ببعض القواد، فقد صادفناها ضمن ملف للقوائم الحسابية، يحمل رقم 359 ويعود إلى سنوات 1308-1309/1890-1892[234]. وما من شك في أنها نسخة من السابقتين.

يمكن إذاً إجمال معطيات هذه القائمة بعد أن تم التأكد من تاريخها، الذي هو من غير شك 1888، في الجدول التالي.

(232) ر.م.غ.م. – خ.ح.ر.

(233) سيما وأن السلطان ترك الشائعة تروج خلال شهور، حول احتمال توجه الحركة إلى بلاد غياثة. انظر: A.M.G. Maroc, C.5, Rapport Cne Thomas, 1er Août 1889.

(234) ومن الجدير بالانتباه أن هذه هي الفترة الوحيدة من الحكم الحسني، التي تتحدث فيها الوثائق عن «الواجب» بالنسبة لبني وراين. ولعل هذا ما يوضح أصل وجود هذه القائمة بهذا الملف.

جدول 15 بني وراين الانقسام والديموغرافيا

المجموعة القبلية	الجماعة	عدد الرماة	القائد
بني وراين الغرابة	ـ الزراردة ـ أولاد علي ـ أولاد بن علي ـ عايت عصّ	600 200 300 300	
مجموع 1	4	1.400	محمد بن علي الزرادي
	ـ امغيلن ـ بني عبد الحميد ـ بني بُزارت ـ بني حماد وبني عششر ـ أهل الثلث	800 500 800 600 600	
مجموع 2	5	3.300	عياد أوراغ الورايني
مجموع عام	9	4.700	2

يتضح من هذا الجدول أن مجموع الرماة الوراينيين حسب تقدير المخزن سنة 1888، هو 4700 رامٍ. وإذا ما ضربنا صفحا عما يمكن أن يحمله هذا التقدير من عيب زيادة أو نقصا[235]، لهذا السبب أو ذاك، فإننا نجده أدق بكيفية متفوقة على الأرقام العشوائية التي أثبتها رحالة نهاية القرن 19م 3.000 مجند حسب DELBREL[236] و10.000 إلى 12.000 حسب DE SÉGONZAC[237].. في حين أن أقرب رقم من تقدير 1888 حول ساكنة بني وراين، هو الذي اقترحته استخبارات أخرى، تابعة للزحف الفرنسي هذه المرة، وقد استقته أجهزتها من نفس

(235) في التقدير الأصلي، أعطيت الأعداد «بالرجال» وهو ما قد يضم في نفس الوقت الفرسان والراجلين، في حين اثبتت الوثيقتان اللاحقتان، نفس الاعداد «بالرماة».

(236) DELBREL، (م.س)، ص. 175.

(237) DE SÉGONZAC، (م.س)، ص. 303. وهذا الرقم المرتفع إنما أبتدعه خيال هذا الرحالة، لكونه على العكس من DELBREL الذي اجتاز ايناون بسرعة بعيدا عن بني وراين، أقام عدة أسابيع في المجال الورايني وفي مناطق تماسها مع جوارها، مما خلف لديه انطباعا بكل هذه القوة.

المصدر، وحددته في 4100 كانون[238]، وإذا عولجت هذه الأرقام حسب معاملات التضعيف الاتفاقية السابقة فإننا نتوصل إلى الأرقام الآتية 17.625 نسمة عن 1888، و20.500 عن سنة 1912[239].

أخذنا عنوة بالحدين الأدنيين للتضعيف إذ العكس كان قد يعطي : 37.600 ن. عن التاريخ الأول و41.000 عن التاريخ الثاني، وهي أرقام عالية تفوق تقدير المصالح الفرنسية لسنة 1913 30.000 نسمة[240]، وهو تقدير يبدو بدوره مبالغا فيه، إذا ما أخذنا بالاعتبار تقديري 1936 15500ن. و1952 : 21.000ن[241].

مهما يكن فإنه من الجائز قبول فرشاة 18.000ـ20.000 كمعدل لعدد بني وراين في أواخر القرن 19. صحيح أنه لكي تكون لهذا العدد دلالته الكاملة، كان من الأمثل أن نتوفر على أعداد أخرى، تتعلق بالمِساحة المنزرعة، وكميات الإنتاج، أو أعداد القطعان، حتى نتمكن من قياس نسبة الثروة إلى السكان. لكن غياب هذه المعطيات المضبوطة، لا تمنعنا، مع ذلك، من تعميم بعض النتائج التي خلصت إليها دراسة قبائل أخرى، في بيئة جبلية شبيهة، ولو اعتمدت أنماط عيش مختلفة. ونقصد بها دراسة أحمد التوفيق لقبيلة اينولتان[242]، حيث أن السمة الغالبة على الإنتاج وكذا الحياة الاجتماعية، هي سمة القلة.

هذه السمة تطبع أيضا ولا شك حياة بني وراين، مما يجعل عددها كبيرا بالنسبة لموارد الجبل المحدودة، سيما إذا قارناه بأعداد القبائل المجاورة كغياثة أو الحياينة، التي تستفيد مع ذلك، من ظروف بيئية أرحم.

لا نملك إلا أن نفترض أن هذا «التضخم» الديموغرافي النسبي، قد صاحب القبيلة منذ عقود خلال القرن 19م وربما القرن 18م أيضا، إذا ما وضعنا في

(238) انظر B.C.A.F. 1912 R.C. N°6, pp 214-216

(239) عن قواعد التضعيف انظر أحمد التوفيق، (م.س)، ص ص. 186 ـ 189.

(240) R. DE CAIX، (م.س)، ص. 180. والملاحظ أن القبائل التي لم تكن قد خضعت بعد للاستعمار الفرنسي سنة 1913 عادة ما بالغت الأجهزة الفرنسية في تقدير ساكنتها.

(241) ROMIEU، (م.س)، ص. 8. ولن نستغرب من انهيار حجم بني وراين الديموغرافي في القرن 20م إذا ما استحضرنا التطويق والتجويع الاباديين اللذين عانت منها القبيلة فيما بين 1921 و1927، بسبب مقاومتها العنيفة للتقدم الفرنسي ـ ن.م. ص. 3.

(242) أحمد التوفيق، (م.س).

الحسبان، ما نبه عليه كل من B. ROSENBERGER وH. TRIKI، في مقالهما حول الأوبئة والمجاعات(243)، من كون الجبل والصحاري، عادة ما كانت تفلت من آثار العدوى، مما يجعل منها المُزوّد الديموغرافي للشمال والسهل. والحال أن بني وراين الذين يُفترض فيهم أصل صحراوي (فكَيكَ ؟) وجبلي (تنكرارمت)، في نفس الآن، لا يمكن إلا أن يكونوا استفادوا من نفس الحصانة، وبالتالي كانوا على السفح الشمالي للأطلس المتوسط، ذلك المزوّد الديموغرافي المشار إليه للتّو. هكذا يبدو العنصر الديموغرافي، أحد أصول التوسع الوراييني.

ثانيا ـ نمط العيش الوراييني

لم يكن نمط العيش الوراييني، الذي يمزج بين زراعة الأودية الضيقة الجبلية، والانتجاع بين السهل وأعالي الجبل، إلا ليعمق آثار الحجم الديموغرافي(244).

وصف الرحالة DE SÉGONZAC كثافة الزراعة بأودية جبال بني وراين فذكر شتى أنواع الأشجار المثمرة، وزراعة الحبوب التي تتمّمها تربية النحل على نطاق واسع، مما جعل من قبيلة بني وراين إحدى الجهات المزوّدة للمدينة (فاس أو تازة) بالعسل.

على أن الرعي ظل مع ذلك من أبرز أنشطة بني وراين مما كان يفرض على جزء هام منها التنقل وراء الماشية في رحلة الشتاء والصيف، حسب خط يمتد من الجنوب الشرقي في اتجاه الشمال الغربي. «هكذا يشتّي آيت وراين عند آيت سادن والحيَاينة»(245)، حيث يعيشون تحت الخيام، ويصيّفون في الأودية العالية، حيث يسكنون القرى المحصنة.

إن مثل هذا النمط من العيش، كان لا بد وأن يؤدي إلى احتكاكات قد تنتج عنها مجابهات مع الجوار المحيطين بمجال تنقل بني وراين، سيما منهم أولائك الذين استقروا بـمواطنهم منذ أمد يطول أو يقصر مثل بني يازغة وغياثة وأجزاء هامة من الحياينة وبني سادن.

(243) B. ROSENBERGER et H. TRIKI، (م.س).
(244) G. MARCY (م.س)، ص. 97.
(245) LAOUST، (م.س) (1935)، ص. 91.

ثالثا ـ الرهانات اليومية

تمثلت الرهانات التي كانت تواجه بين بني وراين وجوارها في أواخر القرن الماضي، بكيفية أساسية في الأرض، التي كانت السيطرة عليها تعني قبل كل شيء، التحكم في المراعي الشتوية، وذاك هدف التحرك الوارايني. كان الصراع حول الأرض، إطار المواجهة بين فرقة غزران اليازغية وجماعات عياد الوارايني، الذي احتج في الوَثيقة المثبتة أعلاه، بكون إخوانه سُلبوا من 12.000 رأس من الغنم، وهو ما يدلنا في نفس الوقت على حجم القطعان التي كان ينتجع بها بني وراين، وعلى الرهان العميق للصراع بين بني وراين وبني يازغة المرعى(246).

بيد أن الأرض كانت تمثل أيضا رهانا يوميا بين بني وراين والقبائل السابقة لها في المجال الذي احتلته تدريجيا، بالنظر إلى قيمتها (أي الأرض) الزراعية. وقد أسعفنا الحظ في الكشف عن هذا الجانب، بالعثور على بعض عقود الملكية الوراينية تعود إلى فترة الزحف في القرن الماضي. وقد يكون من المفيد الوقوف عند نموذج من تلك العقود.

«اشترى المكرم محمد بن أحمد بن إبراهيم وشَقيقُه قدور وشقيقهما رحّ بن أحمد بن ابراهيم(247) أثلاثا بينهم ثمنا ومثمنا من البائع لهم محمد بن محمد المكودي الفحصي(248) جميع واجبه مع إخوته وأولاد عمه وداره وقدره الربع من الأرضين اسْقَى(249)ذلك الشعرة وما احتوى عليه ذلك من أغراس الزيتون ودوالي العنب والتين وعود المثمر وغيره الكائن ذلك كله بأرض تَرِدَالت (...) وولجة بوخالد وأرض كدية أوجَمُّوع، وأرض الفحص، وأرض الأرْيَاب، وأرض الخميس(250) وأينما بان وتعين ملك من ذكر (...) بجميع منافع ذلك ومرافقه وكافة حقوقه (...) اشتراء صحيحا جائزا

---

(246) لا نستغرب أن تكون الوثائق التي تروي أحداث المواجهات بين بني وراين وجوارها في جل الأحيان، مؤرخة بما بين نونبر وأبريل. انظر ما سبق.

(247) انظر شجرة آل ابراهَم، ص. 206 أعلاه.

(248) قبيلة بني مكود من القبائل التي استوعبتها بني وراين أثناء زحفها.

(249) أشكل تأويل هذه الكلمة. هل تحيل على «أرضْ السّقَا»، أي الأرض حيث يمكن تعاطي السقي ؟ أم أنها اشتقاق من الريفية «تسْقّا(ر)»، التي تؤدي معنى «النصيب من تجزئة من الأرض» (علي المحمدي) ؟ هذه القراءة الثانية تنسجم أكثر، مع سياق النص.

(250) عن بعض هذه الطوبونيمات انظر ورقة أهرمومو 1 على 100 000.

ناجزا دون شرط ولا يتناوله خيار[251] بثمن قدره للمبيع المذكور ثور من عوامل البقر وفرخة أنثى حولية من إناث البغل [البغال][252] اعترف البائع المذكور بقبض ما ذكر عوضا عن أرضه[253] وأبرئت منه ذمة المشترين المذكورين إبراءا تاما (...) [وتملكوا] مشتراهم تملكا على السنة في ذلك (...) شهد به عليهم (...) تقدم ذلك بسنين وتأخر كتبه إلى الآن[254] صدر في جمدى الأولى عام خمس وسبعين ومائتين وألف» يتلو ذلك توقيعان للعدلين، غير مقروئين.

إن سمة التغلب واللاتكافؤ التي تطبع هذا النوع من التبايع لا تحتاج إلى كثير تأكيد. ويكفي أن تكون ممتلكات من أراض وأجنة إلخ... موزعة على خط مستقيم يفوق 5 كلم، حيزت بمقابل ثور وبغلة، لنفهم مدى اللاتكافؤ[255]. ويشير المخبرون في عين المكان إلى أن هذا النوع من البيوع تكاثر أثناء زحف بني وراين، ويسمونه بشراء «التحليل». ولا غرابة أن يكون هذا النوع من الشراء أصلا متجددا للمنازعة كلما سنحت الفرصة لهذا الطرف أو ذاك، لأن يسترد مجاله القديم أو يدافع عن مكاسبه الجديدة.

وقع الإلحاح على الطابع التوسعي لقبيلة بني وراين اعتمادا على جملة من المستندات والشواهد المختلفة. بيد أننا عندما ننقل توسع مجال بني وراين إلى الخريطة، نلاحظ أنه، خلال قرنين، وبالرغم من كل ما أشرنا إليه من تحركات وراينية في شتى الجبهات، لم يتجاوز التوسع الوراريني شعاعا مقداره أزيد من ثلاثين كيلومترا بقليل، أي بمعدل لا يفوق في النهاية 150 مترا في السنة. إن هذا المعدل عديم الدلالة في الواقع، ولكنه مع ذلك يفيد مدى مرارة الصراع، ومدى ضيق الحيز الذي تم فيه ذلك الصراع على امتداد زمني هام. هذا ما يفضي بنا إلى القول، وبالرغم مما يبدو في ذلك من مفارقة ظاهرة فقط، أن بني وراين، وبقية قبائل حوض إيناون، نظرا لانصهارهم في نفس البيئة، وتبادلاتهم المتنوعة، عنيفة كانت أم سلمية، آل بهم الأمر، أكثر من مرة،

---

(251) تذكر الراوية الورانية إلى اليوم أن هذا النوع من الشراء هو «تحليلي»، أي أنه يحلل التملك، ويضفو عليه طابع الشرعية، انظر معطيات الرواية الشفوية حول التوسع الوراريني، سابقا.

(252) أي ثور في قوة الحرث وبغلة فاقت الحول من عمرها.

(253) يبدو هنا الطابع «التحليلي» واضحا.

(254) هذه إشارة أخرى تؤيد الطابع التحليلي تأخر الإشهاد بسنين عن «التبايع».

(255) في ورقة أهرمومو، 1 على 100.000، يفصل بين عين تردالت (372×600) والأرياب (374×596) 5 سنتيمترات.

إلى اقتسام نفس المصير، واشتراك نفس المصالح، لِما يجمع في العمق فيما بينهم من القواسم المشتركة، التي تظل قائمة، حتى إبان صراعاتهم العنيفة[256].

III ـ القواسم المشتركة بين قبائل ايناون

جدول 16 أصول قبائل ايناون، سكنها وأهميتها

اسم المجموعة	أقدميتها	منطلقها/ أصلها	سكنها	لغتها	تقدير عددها
البرانس	قبل ق 8م	أصلية	التل استقرار	عربية[257]	5.000[258]
غياثة	قبل ق 8م	أصلية	الجبل استقرار	عربية	12.000
التسول[259]	قبل ق10م	زناتية/عربية	التل استقرار	عربية	6.000
مكناسة	ق 10م	زناتية / نواحي تلمسان	التل استقرار	عربية	1.125[260]
الحياينة	ق 16م	صنهاجية / عربية نواحي تلمسان	«الوطا» هضبة وتل: استقرار	عربية	33.900
بني سادن	ق 17م	صنهاجية / الأطلس المتوسط	«الوطا» الهضبة	أمزيغية	4.250
آيت سغروشن	ق 17م	جنوب شرق الأطلس المتوسط	«الوطا» وادي بوزملان استقرار	أمزيغية	3.500
بني وراين	ق 18م	فكَيك، بويبلان	الجبل والوطا انتجاع	أمزيغية	20.000

يبين الجدول السابق مدى التنوع القبلي في حوض إيناون، سواء من حيث الأصول والمنطلقات، أو اللغة المستعملة والحجم السكاني ونمط العيش. بيد أن الاختلافات التي يوجزها هذا الجدول، لا يجب أن توهمنا بوجود خطوط واضحة أو

(256) إن التأثير بواسطة العنف لم يكن مقصورا على المجموعات المختلفة اللغة، بل كان يحدث أيضا ضمن المجموعة الواحدة المشتركة السمات. انظر R. JAMOUS، (م.س).

(257) BASSET، (م.س). (1920) ص.47.

(258) بالنسبة للقبائل التي لم نتوقف عند مناقشة عدد سكانها، أخذ بما جاء في R. DE CAIX، (م.س)، ص ص.180-181.

(259) MORIZOT، (م.س)، ص 3. وتكتب أيضا في النصوص والوثائق الدسول.

(260) B.C.A.F, R.C 6. p. 213 قدر عدد مجنديها بـ 300 مما يعطي مضعفا بـ 4/15 1125.

دائمة للتنافر، وذلك بالرغم مما وقع التأكيد عليه فيما سبق من هذا الفصل، من مجابهات بين هذه القبائل المختلفة في أواخر القرن 19م. فقد ألحّ أكثر من واحد من مدّاحي الثنائيات الاستعمارية (بربر/عرب، مستقرون/رحل إلخ...)، أنفسهم، على شدة الامتزاج والتداخل في منطقة سِمتها الأساسية، الانفتاح على كل الجهات[261]. وقد لاحظنا هذا الامتزاج فيما سبق في شأن الحياينة. وربما لم يستغرب من تعرّب مجموعات أمزيغية سابقة تحت فعل الهجرات العربية المتتالية[262]. لكن الذي يستحق الانتباه، ويحيل أكثر مما سبق، على مدى الامتزاج، أن عكس الظاهرة المشار إليها للحين، ظاهرة التعرّب، قد تمت معاينته أيضا عدة مرات هكذا، في عمق الجبل، نجد ضمن غياثة، الذين كانوا قد تعرّبوا تماما في أوائل هذا القرن إلى درجة إنكار أصلهم الأمزيغي، حسب شهادة DE SÉGONZAC[263]، فرقة أهل الدولة، التي عادت للتمزُّغ تحت فعل احتكاكها ببني وراين. وقد أشار مارسي إلى نفس الظاهرة فيما يتعلق ببني وراين آيت جلْداسْن، حيث عادت مجموعات زناتية قديمة، كانت قد تعربت، والتحمت بأخرى عربية، للتمزُّغ من جديد، في إطار بني وراين الشرقية[264].

إنما ألححنا على هذا الامتزاج الناتج عن تبادلات محققة، للتدليل على بؤس الرؤى الثنائية الاستعمارية البائدة، وعلى تعسف النموذج الانقسامي الراهن، الذي، إن هو أفلح في وصف آليات تحرك التضامنات والتعارضات المختلفة بالنسبة لمجموعة أو مجموعات معينة في وقت ما، يعجز مع ذلك عن الإمساك بتعقيدات الواقع الملموس الذي لا يعرف حدودا قارة أو جامدة لا مكانا ولا زمانا.

إن القواسم المشتركة بين المجموعات البشرية في حوض إيناون، تخترق في الواقع الجسم الاجتماعي لهذه المجموعات، منذ أبسط مستويات تعاملها اليومي مع وسطها الطبيعي والبشري نسل، إنتاج، تقنيات... إلى أعقَد مستويات ممارساتها الثقافية : التعبير عن الفرح والحزن، التمثُّلات عن الماضي... «ليس ثمة اختلاف بين اقتصاد بني يزناسن البرابرة الزناتيين، والذي هو اقتصاد قروي يمزج بين الفلاحة والرعي،

(261) CELERIER، (م.س)، ص.15.
(262) BASSET، (م.س)، (1920) ص.47.
(263) DE SEGONZAC، (م.س)، ص ص. 215-216.
(264) MARCY، (م.س)، ص 102. انظر حالات مشابهة بالجنوب الشرقي عند L. MEZZINE، (م.س)، ص.231.

واقتصاد آيت سادن الصنهاجيين الذي يشابه، بدوره في كل شيء مثيله عند القبائل العربية المجاورة بني يازغة، الحياينة..»(265).

وقد أسهب WESTERMARCK في مؤلفه **المعتقدات والطقوس المتعلقة بالفلاحة بالمغرب** على ما يشترك فيه كل من الحياينة، بني سادن، بني وراين والتسول، من معتقدات وطقوس تصاحب العملية الإنتاجية الزراعية، منذ تهيىء الأرض، إلى الحرث، فالبذار والعناية بالحقل، ومقاومة الآفات الطبيعية والاجتماعية التي تهدد المحصول، ثم الحصاد والدراس إلخ...(266).

ومن الملحوظ أن تشابه الطقوس المتعلقة بالإنتاج يخترق الحواجز اللغوية، ولعل العادات الزراعية، ترتبط برصيد مغرق في القدم، يتبناه الوافدون الجدد، مضيفين إليه أشياء ومتخلين منه عن أخرى.

ويمكن تسجيل لجوء جل قبائل إيناون إلى الاحتماء بطقوس متشابهة من الكوارث الطبيعية. وأخطر هذه الأخيرة، الجفاف، الذي يحاول سكان إيناون إبعاد أخطاره كلما اعترى المنطقة، باللجوء إلى إحياء طقس «تغنجة» أو «أغنجة». وهي إحدى كيفيات الاستسقاء، تتمثل في طلب المطر عن طريق عرائس رمزية (صلبان مصنوعة من المغارف، تُلبس لها ألبسة العرائس) تحملها المجموعة من الصبيان، وتنشد أناشيد الاستسقاء(267).

وقد خصص نفس الإثنوغرافي الأنجليزي مؤلفا آخر لوصف «معتقدات وطقوس الزواج بالمغرب»، ارتكزت جل المعلومات التي أوردها فيه على تجربة قبائل إيناون المتشابهة(268).

---

(265) LAOUST، (م.س) (1935). ص. 205.

(266) WESTERMARCK, Edward, 1913, **Ceremonies and beliefs, connected with agriculture, certain dates of the solar year and the weather in Morocco**, Helsingfors, 1913, pp. 11, 17, 30-31 etc...

ويشير LAOUST، (م.س)، ص.ص 44 ـ 45 إلى تشابه التقنيات في حوض إيناون عبر اشتراك نفس نموذج الرحى اليدوية في كل المنطقة.

(267) WESTERMARCK، (م.س)، ص.ص 112 ـ 119.

(268) انظر، WESTERMARCK, E, (1921) **Les cérémonies du Mariage au Maroc**, trad. J. Arin, Paris, Ed. Leroux, 1921.

هل من الغريب أن نجد هذا الإلحاح على التشابهات عند اثنوغرافي انجليزي في حين ما أكثر ما سجل الأثنوغرافيون الفرنسيون الفروق؟

صحيح أن التسميات تختلف، وقد تختلف حتى فترة الاحتفال بطقس من الطقوس. لكن تشابه مضمون العديد منها لا يحتمل أي شك. لنتوقف فقط عندما بصاحب «العيد الكبير»، عيد الأضحى، من ولائم واحتفالات جماعية قد تسمى «ابّا الشيخ» عند تسول، «بوجلود» عند البرانس، «سونة» عند الحياينة أو «بوجرتيل» عند بني وراين(269).

يجمع طقس «ابّا الشيخ» بين الاحتفال المسرحي المقنع الذي يولد سعادة أفراد المجموعة كبارا وصغارا، وبين إحياء رموز قد تدل على صراعات قديمة لم تعد تعيش حتى في الذاكرة الجماعية إلا على مستوى الرمز الساخر.

«ابّا الشيخ» عبارة عن مسرحية مقنعة عفوية، تدوم عدة أيام وليال، بعد عيد الأضحى. تتكون الفرقة التي تمثلها من «أبّا الشيخ»، وهو شخص يلبس جلد ماعز بشعره، أو فَرْو ضأن، ويقنع وجهه كذلك، وهو قائد الفرقة، تصحبه زوجته «سونة»، مقنعة أيضا، ثم الخادم المدعو «عبيدة» أو «عزّي»، بالإضافة إلى «اليهودي» الذي يمثل التاجر المتنقل. وتصحب المجموعة «بغلة» يضطلع بدورها مجموعة من الأشخاص يتغطون بأكياس قديمة أو حصير قديم من الدوم، وقد انحنى كل من الِاثنين الأخيرين على ظهر الذي أمامه في حين وقف من يتقدمهم، وحمل على رأسه جمجمة بغلة حقيقية، ابيضَّ عظمها من القدم، وربط فكاها إلى خيط، بكيفية تُمكِّن للذي يحملها من فتح الفكين، وغلقهما، وتوجيه الجمجمة متى شاء في هذا الاتجاه أو ذاك. وتقلد المجموعة حركة حيوان حقيقي، مما يثير صخب السكان المتحلقين حول المجموعة. أما «اليهودي» فإنه ينادي

«ها الكَرْكَاع، ها السّوَاكْ. آللّي يبَدّل شِي !»

ويدخل يده في مِزوده، حتى إذا أعطاه الشخص الذي توجه إليه بالنداء شيئا، نقدا كان أم عينا، فذاك، وإلا أخرج كمشة من الرماد، الذي ملأ به مِزوده، ورمى بها من لم يهبه شيئا. أما العبد فإنه يترصد الأطفال الذين يكيلون السباب لكل من ابّا

(269) BIARNAY, S. **Notes d'éthnographie et de linguistique nord-africaines** publ. par L. Brunot et E. Laoust, éd. Leroux, Paris, 1924. p. 111.

Trenga, (1915-16) 297-298, WESTERMARCK (1913), 69.

يلاحظ أن بني وراين بدلا من العيد الكبير، يخلدون هذه الطقوس بمناسبة «حكَوزة» أي رأس السنة حسب التقويم اليولياني، المسماة بالعام الفلاحي.

الشيخ أو اليهودي، وكل حرَكة أو كلمة تخلف موجة من الضحك والاستمتاع لدى المجموعة.

تتجول الفرقة على هذه الصورة في كل منازل القرية، وينتهي الحفل بوليمة تشترك فيها الفرقة، ومن معها من شباب القرية، في تناول ما تجمع لديها من أطعمة من هبات سكان القرية[270].

ما هي دلالة هذه الطقوس القروية؟ هل هي استمرار لطقوس سابقة عن الإسلام، ومن ثم يفهم احتفال بعض القبائل بها بمناسبة رأس السنة «الفلاحية»؟ أم أنها سخرية من نظام العِرض وقانون الشرف الذي ينبني عليه عنف الحياة اليومية؟[271].

إن ما يهمنا هنا، ليس هو تأويل هذه الطقوس، بقدر ما هو رصد اشتراك جل قبائل إيناون فيها.

ولعل أبلغ مؤشر على اشتراك جل هذه القبائل في عدد من الخواص، حتى في مستوى الممارسة الثقافية، وعلى صعيد الوجدان، ما عايناه سابقا، من ادعاء كل قبيلة أنها بطلة قصة «الحصان والمرأة» المتواترة. هل الفارس مكناسي، أم حياني، أم سادني؟ والمرأة، أهي غياثية أم سغروشنية أم ورواينية؟ ثلاث روايات شفوية، من السذاجة أن نبحث فيها عن الحدث التاريخي الإيجابي. بيد أن وراءها، من غير شك، واقعا مشتركا فيما بين هذه القبائل. وهو حرصها على المرأة كأهم عنصر لإعادة تجديد القوى الإنتاجية والقتالية، وما يرتبط بذلك من تصورات حول العِرض وشرف المجموعة[272].

وبصورة عامة، فإن الحياة الاقتصادية والاجتماعية ضمن مجموع قبائل إيناون، كما ولا شك، ضمن سائر قبائل المغرب قبل الاستعمار، كانت تقوم على التكافل

(270) استقيت عناصر هذا الوصف من المصادر السابقة في الهامش 269، أتممتها بمشاهدة شخصية إذ أن هذا الاحتفال كان ما يزال حيا في 1979.

(271) عن هذا الجانب انظر R. JAMOUS، (م.س).

(272) يروي أحد مخبريي الوراينيين أن الفصال في القتلى لدى بني وراين كان لا يتم، حتى بعد أداء التعويض المادي (الديّة) إلا عندما تقبل مجموعة القاتل تزويج عدد من بناتها لأعضاء من المجموعة التي وقع القتل عندها، وفي ذلك من التعويض الديموغرافي ماهو بيّن. عن أهمية المرأة في المجتمعات ما قبل الرأسمالية انظر **MEILLASSOUX, C. Femmes, greniers et capitaux,** Maspero, 1980.

والتعاضد، ومبادلة المواد والمصالح على نطاق واسع(273).

ومن مظاهر المبادلة الرئيسية، الولائم الجماعية الدورية، التي رأينا نموذجا منها في الوليمة التي تنهي حفل «ابّا الشيخ». والواقع أن الولائم الجماعية كانت تتخلل حياة المجموعة، وتعقد بمناسبة الشروع في الحرث أو الانتهاء من الحصاد أو الدراس، وبمناسبة أهم مراحل الحياة (عقيقة، ختان، زواج، أو المرض أو الموت)(274).

وتحيل شتى أشكال التعاضد في مختلف أنواع الممارسات سواء في مستوى الإنتاج أو الاستهلاك على مبدإ المبادلة منها العمل الجماعي لفائدة أحد أعضاء المجموعة بالتناوب «التويزة»(275). ومنها أيضا «الكَصعة»، وهي المساهمة المتبادلة في

---

(273) استعمل لفظ «مبادلة» لمرادفة مفهوم réciprocité الذي هو أحد المفاهيم الاستراتيجية التي وصف بها K. POLANYI، المجتمعات ما قبل الرأسمالية، حيث ينغرس الاقتصادي في المستويات الأخرى من الممارسة الاجتماعية القرابة، الدين... وقد وقعت معاينة مثال عن ذلك، في انغراس الاقتصادي في الديني في حالة القافلة الحجية. ومعلوم أن من مفاهيم POLANYI المحورية الأخرى، بالإضافة إلى «المبادلة»، «إعادة التوزيع» redistribution، وهو مفهوم، سوف نحتاج إليه عند حديثنا عن المخزن المركزي.

و«المبادلة» من المبادىء الأساسية التي تتحكم في شتى أشكال التعامل الاجتماعي، (مثل إعادة التوزيع). فيما بين وحدات اجتماعية متناظرة قبائل، أجزاء القبيلة الواحدة. وحسب مبدأ «المبادلة» يتم انتقال الأمتعة داخل المجموعة أو فيما بين المجموعات دون الحاجة إلى وسائط مالية كما يتم في التبادل الرأسمالي، بل تقوم معاوضة المصالح والأمتعة، في مدة تطول أو تقصر، على جملة من أشكال المهاداة بالمناسبات، والتآزر أيام الشدة، والتكافل بصفة عامة.

حول POLANYI، انظر:

— POLANYI, Karl, **The great transformation, the political and economic origins of time**, Boston, 7° éd. 1967.

— VALENSI, L. (Sous direction de...) : Dossier : «Pour une histoire anthropologique : la notion de réciprocité», in **Annales E.S.C**, 29e A, N° 6 Nov-déc. 1974 pp. 1309-1380.

— POLANYI et ARENSBERG, **Les Systèmes économiques dans l'histoire et dans la théorie**, (Préf. de GODELIER), Larousse Université, Paris, 1975.

(274) انظر WESTERMARCK (1913) ص ص. 35، 37. و؛TRENGA, G., 1917 «Contribution à l'étude des coutumes berbères», **Archives Berbères**, 1917, Vol.2; fasc. 3. pp. 219-248.

(275) انظر LAOUST, Emile, (1920) **Mots et choses berbères**, Challamel, Paris, 1920, pp. 322-323, 326-27..

وقد أشار أحمد التوفيق إلى ما يعتري هذا التعامل المتكافل من تحول في المضمون، ما إن تنتقل التويزة من عمل لفائدة أعضاء المجموعة بكيفية متبادلة ومتناوبة، إلى سخرة لصالح القائد، أو الشريف أو السلطان. (م.س)، ص.530.

إطعام مدعوّي الأسرة التي تحتفل بعرس أحد أبنائها، أو «العشاء»، وهي المساهمة المتبادلة أيضا، في إطعام الحاضرين في وفاة أحد أعضاء أسرة ما[276].

هذه مجموعة من السمات المشتركة التي تجعل من قبائل إيناون، «نسيجا متصلا»[277] وإن اختلفت ألوان خيوطه. وهذا ما يجعل أن جزءا هاما من تلك القبائل كان له، غير ما مرة، ردود فعل مشتركة، أمام نفس الواقعة.

وبالرغم من كون الوثائق المخزنية، ومؤلفي الحوليات بصفة أكثر، اعتادوا تصنيف تلك القبائل إلى الطاعة الحياينة، بني سادن، البرانس وتسول، وقبائل «الفساد» أو «السيبة»، أي ذات الخضوع القليل للمطالب المخزنية غياثة وبني وراين، فإن جل قبائل إيناون، في مناسبات عدة، شعرت بما يكفي من الروابط المشتركة للوقوف جنبا إلى جنب أمام المركز المخزني، الذي يتمثل في الأمين والشيخ والقائد أو الشريف والحركة، في المسلك أو المدينة[278].

وإذا كنا سوف نتعرض فيما بعد بشيء من التفصيل إلى نماذج من تلك المواقف المشتركة، فإنه يكفينا الآن شاهدا عليها، ما ورد في إحدى رسائل بداية العهد الحسني

«... وصيفنا (...) الجيلاني بن حم (...) وبعد فلما تشكي بحضرتنا (...) أولاد الحاج والشراردة ذوو بلال وأولاد ادريس، كل فريق يطالب الآخر بما نُهب له أيام الفساد السالف وبحثنا في القضية فأُخبرنا بشرحها من أولها إلى آخرها فألفينا أولاد الحاج منهم ابتدئت [كذا] الفتنة وفيهم انتهت، فخطفوا أولا ماشية لبعض حميان ووقع عليها البارود وهو أول شر وقع ثم استغاثوا بالحياينة وبني سادن وءايت سغروشن

(276) رواية شفوية من بني وراين، غياثة والحياينة. وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة المبادلة تنبني على ما لوحظ في جهات أخرى من المغرب الكبير أو من العالم من انتشار التعامل بالهدية والهدية المقابلة، الذي كان قد حلله Marcel MAUSS في بحثه الشهير حول «الهدية»، والذي عمقه عديدون منهم POLANYI، ومنهم BOURDIEU. BOURDIEU, P. **Le sens pratique**, éd. Minuit, 1980, pp. 191-207. («Le capital symbolique»).

(277) A. LAROUI (1977)، (م.س)، ص. 171.

(278) انظر مثلا شدة أحكام أبي القاسم الزياني في **تاريخ الولاية المحمودة البدء والنهاية**، مخطوط من مجموع، خ.ح. رقم ز. 12109، ص. 8–9 «غياثة، أهل المقت والفساد والخباثة (...) الحياينة اللئام (...) بني سادن الأنجاس...» وقد أصدرها بمناسبة حركة رحمانية ضد غياثة في رجب 1239/مارس 1824.

وصار الجميع لفا واحدا في مقابلة لف المخزن من الشراردة وشراكَة والشجع وذوي منيع وتعددت الشرور والنهب بين الفريقين ثم عمل لهم الشرفاء الصلح فغدر بنو سادن والحياينة وقدموا إلى باب الجيسة وخطفوا منها بغالا لجانب المخزن كانت بقصد الحطب وبقرا لأهل فاس وغير ذلك ولا يصلون لذلك المحل إلا بأولاد الحاج فتبعهم من حضر من المخزن إذ صادفهم الحال مجتمعين ليدخل في الصلح السابق من لم يكن حضره منهم واستغاث لف الفساد ببعضهم بعضا وذهبوا يغيثون في الجبال حتى وقع الشر الكبير وراحت الهزيمة على لف الفساد وعليه فمن أولاد الحاج ابتدئت الفتنة وفيهم انتهت فيُلزمون هم ولفهم بأداء ما بقي للمخزن وأهل فاس من البغال والبقر..» 2 جمادى 1 1291 / 17 يونيو 1874(279).

إن هذه الرسالة تعطي ترتيبا للأحداث التي تتعرض لها حسب ما توصل إليه التحقيق المخزني، وليس من الغريب، أن يكون «لف الفساد» هو «البادىء بالفتنة»، ضدا على «لف المخزن».

بيد أن الذي يهمنا من هذه الوثيقة، هو رد فعل قبائل إيناون المشترك أكثر من أي جانب آخر. ولا نستغرب أن يكون منطلق هذه المواجهة والتحام مجموعة من قبائل إيناون أمام حلف القبائل الجيشية، يدور حول الماشية(280). وإن كنا للأسف لا نتوفر على رواية الطرف الآخر، التي كانت قد تضيف عناصر توضيحية أخرى ربما غيرت الانطباع الذي نخرج به من قراءة الوثيقة السابقة.

ولكننا من خلال نفس الوثيقة، نتبين بوضوح، كيف التحمت كل من أولاد الحاج، وبني سادن، والحياينة وآيت سغروشن، وهي القبائل التي تواجهت فيما بينها في أكثر من مناسبة كما قدمنا. غير أنها لوقوعها على نفس المسلك وارتباطها إلى هذا الحد أو ذاك بنفس تجارة الماشية نحو الشرق، فإنها، وبالرغم من كونها قد تتواجه فيما بينها لنفس الأسباب، لا تتردد في التحالف ضد المركز المخزني.

(279) الوثائق الزيدانية، خ.ح، مج.15. و.204. والجيلاني بن حم هو باشا فاس الجديد وكانت تتبع إلى اختصاصاته بعض أحواز فاس، كصفرو، وأولاد الحاج بل وهوارة الحجر والوطا في عمق الحياينة، ويروي أحمد بن حمدون بن الحاج، في **الدر المنتخب**، جزء منفرد رقم ز.11961 ص ص.290-292. خ.ح. بعض تطورات هذا النزاع بين قبائل إيناون والقبائل الجيشية المحيطة بفاس، والذي أعقب فيما يبدو مباشرة وبالارتباط معها، «ثورة الدباغين» بفاس.

(280) انظر ما قدمناه من إشارات حول أهمية الماشية كرهان للصراعات بالعلاقة مع تجارة القطعان في اتجاه الجزائر المحتلة.

ولم يكن هذا التحالف حدثا معزولا، بل سبقته تحالفات وتلته أخرى بدورية غير محددة، لكنها عنت جل قبائل المنطقة، في مواجهة المخزن. ولا نفهم هذه التحالفات العريضة إلا في ضوء ما حاولنا إبرازه من قواسم مشتركة تلتقي فيها قبائل إيناون.

خاتمة

رأينا أن التشكل القبلي بحوض إيناون تم، كما هو طبيعي، عبر سلسلة من التبادلات والصراعات سواء فيما بين المجموعات القبلية أو بينها وبين السلطة المخزنية. وقد ألمحنا أيضا إلى أن الوجود الفرنسي بالجزائر كان له أثره غير المباشر في تلك الصراعات

تأثر إيناون من جراء احتلال الجزائر في مستويات عدة

- أصابت التجارة عبر إيناون تغيرات عميقة فقد انقطعت القافلة الحجية، وظهرت تجارة محرمة، هي تجارة الماشية التي كما رأينا كانت غير ما مرة أحد أصول الصراعات.

- تزايدت حساسية المنطقة إزاء الأحداث الكبرى التي هزت مجموع المغرب 1844: ايسلي؛ 1844-1847: حركة الأمير عبد القادر الجهادية في الجهة الشرقية برمتها؛ 1859-1860: مساهمة الحياينة في حرب تطوان.

- كل ذلك ولد بالمنطقة تخوفا عاما من الاحتلال الأجنبي، نشأ عنه موقف مزدوج معاداة الأجنبي كمحتل محتمل، ومعاداة المخزن إذا ما عجز عن مواجهته. هذا ما يفسر إقبال جل قبائل المنطقة على بعض المطالبين بالحكم الذين وضعوا شعارا لهم مواجهة الأجانب، سيما منهم، أولائك الذين ربطوا دعوتهم ببعض بقايا الدعوة الإدريسية. والواقع أن هذه الدعوات إنما انتعشت في قلوب سكان أثقلتهم أنواع المطالب والكلف، في منطقة مسلك، تبدو هامشية بالرغم من شدة قربها من القاعدة السلطانية فاس. تلك بعض المحددات التي أطّرت علاقات قبائل حوض إيناون بالمخزن المركزي في الثلث الأخير من القرن الماضي.

البـــاب الثـانـــي

السلطة المركزية وقبائل ايناون

السلطة المركزية وقبائل ايناون

من إشكاليات التاريخ المغربي التي استأثرت بالاهتمام، مسألة الدولة، سواء تعلق الأمر بالمؤسسة المخزنية أم بالأسر المتعاقبة عليها أم ببعض السلاطين أو الأسر المحيطة بهم، أو علاقات المخزن المركزي بالمدن أو البوادي.

ولم ينفرد بهذا الاهتمام كتاب البلاط من مؤرخين وفقهاء وشعراء، ضمن ممارستهم المدْحية للأسر الحاكمة، بل شاركهم في نفس الاهتمام كتاب المدرسة الاستعمارية قبل وخلال الحماية، إذ كان همهم الاطلاع على ثنايا الجهاز الحاكم للاعتبار بأساليبه والنفاذ من خلالها إلى التحكم في البلاد.

ثم إن الاهتمام بإشكالية الدولة انتعش من جديد غداة انتهاء الحماية؛ إذ أن عدداً من الباحثين، حقوقيين ومؤرخين وسوسيولوجيين واقتصاديين بالخصوص اعتبروا أن أي تفكير في الواقع المحجوز الراهن يصطدم بهذا السؤال[1].

لكل ذلك قد يبدو أن هذا الحيز من التاريخ المغربي قد تضخم فيه البحث وكثر الاستقصاء. ولا ننكر أن عددا من هذه الأعمال على درجة كبيرة من الأهمية، إذ أنها عمقت معرفتنا بالجهاز المخزني وبدواليبه والضوابط التي تحكم تحركه. فهل يحق

---

(1) من السذاجة ادعاء الإحالة على ببليوغرافيا لإشكالية الدولة المغربية، نظرا لكثرتها وتنوعها. بيد أن هذا لا يمنعنا من الإشارة إلى عناوين دالة من الصنف الأول **تاريخ الولاية المحمودة البدء والنهاية**، لأحمد بلقاسم الزياني، خ.ح.ر. 12109 من مجموع؛ **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، للناصري... ومن الصنف الثاني مؤلفات MICHAUX-BELLAIRE، وE. AUBIN، ثم R. MONTAGNE. أما في الصنف الثالث فإننا نجد أعمال M. LAHBABI، J.-L. MIEGE، G. AYACHE، A. LAROUI، M. MORSY...

السلطة بالرغم مما ذكر؟

إن جملة من الإعتبارات تجيز الجواب بالاثبات

ـ أي تحليل لعلاقة قبائل ايناون بالمخزن يحتاج إلى تبين جوانب هذه المنظومة المركزية لمعرفة القنوات التي تتمفصل عبرها تلك العلاقة.

ـ ثمة مجموعة من المجهودات النظرية والمستندات الوثائقية الجديدة التي تسمح بالتفكير في المخزن كنمط للدولة.

لهذه الإعتبارات ارتأينا أن نفتتح هذا الباب بفصل يتعرض للجهاز المخزني المركزي وركائزه المحلية بايناون من ممثلين محليين وشرفاء. ثم نعرض في فصل لاحق لوسائل أخرى يستعملها المخزن لإبراز حضوره بالمنطقة ونقصد بها المحال والحركات قبل أن نختم هذا القسم بالحديث عن الجباية بايناون.

الفصل الرابع
الحكم المخزني وركائزه المحلية بايناون

يتوخى هذا الفصل استجلاء درجة الحضور المخزني(2) لدى قبائل ايناون والقنوات المختلفة التي كان السلطان يستعملها لإبراز ذلك الحضور، في النصف الثاني من القرن 19م. والواقع أن الوجود المخزني المحلي لم يكن يتمثل في الأداة البارزة التي هي القائد أو الجابي أو حتى المحلة أو الحرْكة فقط، بل كان يركَب مطايا متعددة مما يجعل منه ظاهرة تكتسي صبغة من التعقد والتداخل في المستويات، تعبر خير تعبير عن مدى تعقد الجسم المخزني برمته.

لا مناص لمن شاء الإمساك بجوانب هذه الظاهرة، من التنقل بين ما هو محلي وما هو مركزي، ما يتعلق بالخطاب والتصورات وما يتعلق بالوقائع. في مجال التصوُرات يتعين اعتبار الايديولوجيا التي يفرزها العضو المخزني ويعمل على بثها بين أطرافه أو لدى مجموع السكان حتى تصبح جزءا من تصوراتهم. لكن يتعين أيضا ترصد التصورات المناقضة التي تنم عن تيار معاكس لتيار المخزن المركزي. وفي مجال الوقائع لابد من التساؤل عن الكيفية التي يتمفصل بها الجهاز المخزني المركزي والمُمركِز بالتعريف، بالتشكيلة القبلية ذات المنزع الاستقلالي الذاتي حسب ما تبين من بعض تحليلات الفصل السابق.

سوف نحاول أن نتعرض لكل هذه الجوانب عبر النقط الآتية

(2) «المخزن» كلمة متعددة المعنى. قد تعني السلطان أو بلاطه، أو ما يقوم مقام الحكومة وهو الأغلب، وقد تعني أيضا الجيش الموجه إلى منطقة قبل أن تعني القائد وأعوانه. ولذلك وجب الانتباه إلى السياق، فهو الذي يحدد المعنى.

I ـ مفاهيم محورية ترسم إطار الإيديولوجيا والممارسة المخزنيتين.

II ـ الجهاز المركزي من خلال التصورات المحلية ومن خلال واقعه الاجتماعي.

III ـ الجهاز التمثيلي المحلي مستوياته ودرجات كثافته، وتطوره.

IV ـ الأعوان المحليون من خلال نموذج شرفاء وزان.

I ـ مفاهيم محورية الإيديولوجيا والممارسة المخزنيتان

من المؤكد أن المخزن لم يكن فقط ذلك الجهاز الفوقي الطفيلي «العربي» الذي يمتص أعضاء الجسم «البربري» كما فتحت الطريق للمدرسة الاستعمارية، في وصفه، مقالات Michaux-Bellaire(3).

كما أنه من المؤكد أيضا أن الرؤية التي أبرزها فقهاء وكتاب البلاط حول مخزن يخضع لسلطان عادل(4) لم تكن تعكس الواقع، الذي كان أعقد من تبسيط النظرتين النفعيتين.

ولم يكن المخزن من جهة أخرى يعتمد فقط على الرصيد الإسلامي للتحكم في قبائل البوادي، بل إنه كان يحرك منظومة من الأفكار تستقي شرعيتها في المستوى الديني ولاشك، ولكنها ترتد أيضا إلى بعض المبادىء البسيطة التي تتحكم في سلوكات المخزن المركزي سواء مع ممثليه المحليين أو مع القبائل بصورة أعم.

يقترح Clifford Geertz مفهوم «النموذج المركزي» (Exemplary Center) كمفهوم محوري لفهم التصور الذي يرسخه المخزن داخل المجتمع «تمثل الحضرة السلطانية في هذا المنظور صورة من النظام الإلهي ومعيارا للنظام الاجتماعي»(5). السلطان حسب هذه الرؤية ظل الله في الأرض. وهو أداة لتنفيذ الخطة الإلهية. وبالإمكان تعديد الشواهد على ذلك. فلما أخبر ولد أبّ محمد السلطان بأن فرقة من

---

(3) من مقالاته المتعددة يمكن الاقتصار على MICHAUX-BELLAIRE, Ed. (1936). «Makhzan», in E.I. 1ère éd., Leiden, Paris, 1936, T. 3, pp. 177-181.

(4) خير مثال عند علي السملالي، **عناية الاستعانة**... السابق الذكر.

(5) GEERTZ, Cl. — **Islam Observed, Religious Development in Morocco and Indonesia,** The University of Chicago Press, Chicago/London, 1968, p. 36.

الحياينة وبني سادن رفضوا أداء ما وظفه عليهم أجابه «فسطوة الله وراء الجميع»(6) وكأن الحرْكة التي تعاقب القبيلة إنما هي أداة لسطوة الله. وقد أنشأ مؤلفو الحوليات في هذا المجال. فنجد الناصري مثلا يقرر: «الخروج عن طاعة السلطان (...) يسخط الله ويرضي الشيطان»(7). فيكون إذ ذاك مورد السلطة والمشروعية هكذا : الله (سطوة الله) ← السلطان والمخزن (سطوة المخزن) ← قائد.

كما أن هذه الرؤية تخول لبلاط السلطان، وقاعدته، والأجهزة المختلفة التي يتحكم بواسطتها في المجتمع، صبغة نموذجية، كان على أعضاء تلك الأجهزة أنفسهم أن يقتدوا بها، وتنزع بدورها إلى فرض نفسها على بقية المجتمع.

وتبدو إجرائية مفهوم «النموذج المركزي» في عدد من مجالاتَ المؤسسة المخزنية سواء في التعامل الداخلي بين أعضاء المخزن، أو في ممارسة بعض القواد الذين يتوقون إلى نهج نسخة مصغرة من حياة البلاط السلطاني(8)، وذلك حتى في مستوى محاكاة الأسلوب المخزني في كتابة الرسائل.

«تفرز المخزنية اليومية [المجالس التي تعقدها «البنائق»] نظرة مخزنية للأمور، تتميز بطريقة خاصة في تقديم الأخبار وتوقع مضاعفاتها. ولا تلبث تلك النظرة أن تفرض نفسها على بقية السكان...»(9) كما سجله أحد الملاحظين البارزين لمخزن أواخر القرن 19م.

ومن موقع النموذج المركزي الذي كان السلطان يضع نفسه فيه، كان أيضا يتقدم كأبٍ للمخزن كله ولبقية المجتمع برمتها. والأبوية من المميزات الهامة التي تطبع مجموعة من ممارسات السلطان وتبرز في الخطاب الذي ينتجه المخزن عن نفسه وعن علاقته مع قبائل ايناون، ضمن بقية سكان البادية. هكذا تُقولب العلاقات في إطار هذا الطابع الأبوي العام فيصبح رفض القبيلة الخضوع لأمر مخزني، «تكاسلا»

---

(6) كناش خ.ح. 707 ص. 87. 8 جمدى 1 1892/1310

(7) الناصري (م.س). ج 9، ص. 18.

(8) التوفيق (م.س)، ص ص. 476–478، ويؤكد BALANDIER (م.س). ص. 163، أن النموذج يُكرر من أعلى إلى أسفل في الدولة الانقسامية.

(9) AUBIN, Eugène. — **Le Maroc d'aujourd'hui**, Armand Colin, Paris, 1913, p. 230.
بالرغم من عدم إفلات هذا المؤلف من التوجيه الاستعماري، فإنه مع ذلك سجل عددا من الملاحظات المناسبة جدا في شأن التنظيم المخزني.

فقط[10]، ويتحول الانتفاض إلى «خروج عن الطاعة» كما سبق في كلمة الناصري. أما العقاب، بل والقمع الصريح فلا يتعدى كونه «تربية» استحقها العاقون. هكذا، عندما كان السلطان متوجها إلى وجدة، في حركته الثانية بالمناطق الشرقية، سنة 1876، وعاقب بني وراين على ما سلف منهم من معاضدة لثورة بوعزة الهبري سنتين قبل ذلك، كتب إلى قائد فاس الجديد، سعيد بن فرجي «وبعد، فإنا لم نزل نشاهد من فتح الله ونصره (...) ما هو خارق للعادة من تيسير أسباب النجاح والسعادة، هذا وإنّا لما حلَلنا بساحة قبيلة الفسّاد وأصل العتو والبغي والعناد بني وراين ظهر لنا من حالهم واستمرارهم على ضلالهم ما تعين معه إرسال الجيوش المنصورة عليهم وتوجيه لحظ التربية إليهم، فسارعت طائفة من المحلة السعيدة إلى مداشرهم القريبة فما كان قدر لمح طرف أو إجالة طرف حتى مزقتهم كل ممزق ونسفت أرضهم بتفريق ما تجمع (...) واستأصلتهم حرقا ونهبا..»[11] ويمكن التشديد على ما في هذه الرسالة من تقابل بين وصف «التربية» وواقع القمع.

هذا الخطاب الأبوي يجد تتويجه في مميزة أخرى من مميزات الايديولوجيا المخزنية، وهي فكرة المبادلة وإعادة التوزيع. وقد سبق لنا أن عرضنا مفهوم المبادلة الذي يبدو أنه كامنٌ في جملة من أشكال تعامل القبائل فيما بينها. وربما وجدنا حضورا لنفس المبدإ في الخطاب المخزني من خلال الرسائل التي تجيب على قضايا الجباية والتي غالبا ما يطغى عليها خطاب الهدية، إذ نادراً ما لا نصادف في نهاية الرسالة «كثر الله خيركم» أو «وعوضكم بالخلف»[12].

والواقع أن السلطان كان يستعمل خطاب الهدية على نطاق واسع إذ أن جملة من الوظائف والكلف كانت تدرج تحت طابع الهدية والضيافة، وتستدعي منه دعوات الخير، وكأن روح المبادلة التي لمسناها في مستوى القبيلة، تمتد لتعم العلاقات

---

(10) يبدو ذلك بكيفية جلية في مسودات الرسائل السلطانية حيث نطلع على بعض التصحيحات من يد السلطان. من ذلك مثلا: ا.غ.م. خ.ح. من السلطان إلى القائد عبد الله بن علي الزراري، بتاريخ 27 حجة 1884/1301، كان مكتوبا بها «وبعد، وصل جوابك عما صدر لك في شأن فرقتي البرانيس الممتنعين من أداء الواجب والمؤنة بأنك شافهت كبير المحلة.. فشطب السلطان بقلم الرصاص على: «الممتنعين من أداء الواجب والمؤنة» وعوضها بـ: «المتكاسلين».

(11) غ.م. بتاريخ 13 جمدى 2 1876/1293، من السلطان إلى سعيد بن فرجي – خ.ح.ر.

(12) مثال في بتاريخ 14 حجة 1877/1293 من السلطان إلى قدور بن الحسين الجامعي،

بين القبيلة والمركز المخزني. لكن عوض أن تكون المبادلة متكافئة (أمتعة بأخرى وخدمات بغيرها على المدى البعيد) فإنها هاهنا مختلة إذ أن السلطان يتسلم منتوجات أو ماشية أو نقدا، أو يستفيد من عمل مجاني، ويعطي أدعية وبركة، يعتبرها، ويعمل على أن يعتبرها السكان أيضا، أساسا لاستقامة العالم، وسلامة المجتمع، وهي التي ينبني عليها أي نشاط في أي مجال كان.

أما مفهوم إعادة التوزيع redistribution، فبالرغم من كونه ينطبق بكيفية أشمل على المجتمعات القبَلية الأوقيانية، حيث تسلم القبيلة فائض خيراتها لرئيسها قبل العودة للاستفادة منه إبان الأزمات الطبيعية أو خلال الولائم والحفلات[13]، فإننا استفدنا منه لتفهم جانب من الإيديولوجيا المخزنية، أو من ممارسات المركز المخزني في بعض الحالات.

ولعل من أهم وظائف المخزن المبكرة، جمع الخيرات ومركزتها، وإعادة توزيع قسط منها عند الحاجة[14]. وقد أصبحت هذه الوظيفة لا تُمارس إلا نادرا في جانبها الثاني. بيد أن جانبها الأول ظل قائما، يبرز أحد عناصر قوة المخزن المركزي بالنسبة للقبيلة حتى تواترت الأمثال الشعبية التي تقارن المخزن بالقوى الطبيعية، نظراً لما يبدو مجتمِعا بين يديه من الخيرات[15].

وقد كان المخزن المركزي يمارس فعلا شكلا من أشكال إعادة التوزيع بكيفية متفاوتة وفي مناسبات مختلفة بين الحاضرة والبادية. فالسلطان والمخزن بكيفية عامة، يجمع خيرات البوادي بشتى الوسائل هدايا، جبايات، دفوع، ذعائر، مصادرات، تسخير... ويوزع منها نصيبا على أعضاء المخزن ذاته وعلى الأشراف والفقهاء، في شكل صلات، وتنافيذ إلخ. هذا في الحالة العادية. وقد يمتد التوزيع في حالات خاصة إلى المدينة والبادية فيقترب من التطابق مع مفهوم إعادة التوزيع كما لوحظ في جهات أخرى من المعمور، ويحدث ذلك بالخصوص زمن المسغبة.

---

(13) عن «الهدية» و«الهدية المقابِلة» و«المبادلة» و«إعادة التوزيع»، انظر

MEILLASSOUX, Cl. «Potlatch», in **Encyclopaedia Universalis**, Vol. 13, pp. 423—5.

وأعمال K. POLANYI سابقة الذكر حيث يرد تحديد مضمون «إعادة التوزيع».

(14) MICHAUX-BELLAIRE، (1936) (م.س).

(15) ثْلاثَة مَاثِيْتْعَرضُوشِي المخْزَن والبْحَر والعَافِية»، ابن سودة، **أمثال فاس وما إليها**، خ.ح. 10653، ج 1، ص. 219.

نقرأ في رسالة من الأمين عبد الله حصار إلى موسى بن أحمد، الحاجب، مؤرخة بـ 10 شعبان 1291/شتنبر 1874[16] ما يلي «فينهى لعلم سيادتك أنه ورد كتاب سيدنا (...) على أمناء آسفي في تسويق القمح ليوسق لثغر طنجة وعليه فإن اقتضى نظر مولانا (...) يأذن بقبض ما بذمة قبيلة عبدة من الزرع بعينه ويوسق لطنجة للحسنة التي أراد سيدنا أجزل الله له الأجر والثواب فنظره السديد أوسع لأن دفعه بعينه أهون على القبيلة وأخف من دفع الثمن لأن الزرع عندهم كثير في المطامير من السنين السالفة، على أن مولانا قدس الله روحه كان سلّفه لهم على أن يردّوه بعينه ثم لما نقص ثمن الزرع قبل رجّعه لهم ثمنا بسعر ذلك الوقت الذي سلّف لهم فيه وأما الآن فهو بسعر كالوقت الذي تسلّفوه فيه..».

يبدو المخزن من خلال هذه الوثيقة كمركز جامع ومعيد للتوزيع، وتطال عملية التوزيع المدينة (طنجة، وتحدد الرسالة أن الأمر يتعلق هنا «بحسنة»، لا يستبعد أن تكون توزيعا تامّا في شكل صدقة)، وكذا البادية (قبيلة عبدة). بيد أننا نلاحظ أن التوزيع، على الأقل بالنسبة للقبيلة، ليس مجانيا. بل إن الأرضية التي يتحرك فيها هي أرضية التجارة، وإن ساد الرسالة أسلوب الأبوية المخزنية. وهذا واضح في حالة نقصان الأسعار، إذ لا يهم المركز استرجاع عين ما سلّفه للقبيلة بل ثمنه بسعر وقت الغلاء[17].

وفي مسغبة 1892 قرر السلطان إخراج مخزونه من القمح وبيعه بفاس تخفيفا من آثار القحط، ونتوفر على قوائم حسابية تبين ما بيع من الزرع بهذه المناسبة :

27 رمضان 1310	926	مدّا
6 حجة 1310	353	مدّا
13 حجة 1310	136	مدّا
14 حجة 1310	183	مدّا
المجموع	1.598	مدّا[18].

(16) و.ز. مج. 11 و. 203.

(17) مع تدقيق إضافي مع ذلك، وهو أن المخزن لم يستلم ذلك الثمن، بما أن الأمر أصبح متجاوزا من جديد. مديونية القبائل، «وتوسعة» المخزن عليها، جانب من الممارسات الأبوية المخزنية سوف نعود إليه. ويشير ERCKMANN في أحد تقاريره إلى حاكم الجزائر بتاريخ 28 يوليوز 1878 إلى توزيع التغذية على 200 إلى 300 من النساء يوميا بمراكش، نظرا للمجاعة. A.M.G., Maroc, C, 2

(18) قوائم حسابية غير مرتبة، خ.ح.ر.

نلاحظ من هذه الأرقام ضعف الكمية الموضوعة في السوق مما يجعلنا نتساءل عن مدى أهميتها. ثم نسجل أن هذه الممارسة ترتبط بالأعياد (الفطر ثم الأضحى هنا) وهي ولاشك مناسبات كان المخزن يرسخ فيها صورة أبويته. بيد أنه بالرغم من ذلك، فإن لدينا شواهد تدل أن التجاري يمتزج بالأبوي الديني حتى في هذه المناسبات. ورَد في ملخص لجواب على رسالة من ولد أبّ محمد «وبعد وصل كتابك بأن أسعار الحبوب ارتفعت جدا وحصل للناس من ذلك ضرر حمل جل أهل البادية على حفر يرنى مستأذنا في بيع القمح الباقي بمَرْس الحجرة الشريفة وتعيين أمناء لبيعه [فإن السلطان] ساعدك على ذلك وقال (...) إنما يُباع منه أولا الذي لا يصلح حتى يكمل ثم يُباع الوسط ولا يباع الجيد...»(19) فإذا كان القصد المصرح به هو تخفيف وطأة القحط وهو ما يلتقي بميزة إعادة التوزيع، فإن الرسالة تحيلنا بما لا يدع مجالا للشك، على منطق تجاري بارد أكثر مما على انفعالٍ عطوف.

وإذا ما انتقلنا من هذه الحالات العينية إلى التأمل في سلوك السلاطين في منظور زمني طويل، فإنه بالإمكان افتراض أنهم كانوا يكرسون معظم فترات حكمهم للجمع ولا يكون التوزيع على نطاق واسع إلا وقت البيعة. ولنقف عند مثال يوضح هذه الظاهرة ونستقيه من **تاريخ الضعيف** «ثم خرج مولانا اليزيد من مكناسة لناحية فاس [1790] وتبعه جل البربر من كل قبيلة بعد أن فرق عليهم بيت مال مكناسة، فربحت منهم أهل فاس (...) وتركوا بفاس مالًا عظيما..»(20) فنلاحظ أن وقت البيعة هو وقت توزيع يستفيد منه حتى أعيان البادية، وإن كان ذلك يؤول إلى تجار المدينة في النهاية.

خلاصة القول إن السلطان يقدم نفسه عبر مراسلاته كمركز يجمع الخيرات ويوزع البركة أو يعود لتوزيع بعض تلك الخيرات، ومما سبق يمكننا الاستنتاج بأن المدينة إذا ما استثنينا بعض فئات البادية، وفي شروط خاصة، هي المستفيدة الأولى من إعادة التوزيع حينما تحصل(21).

---

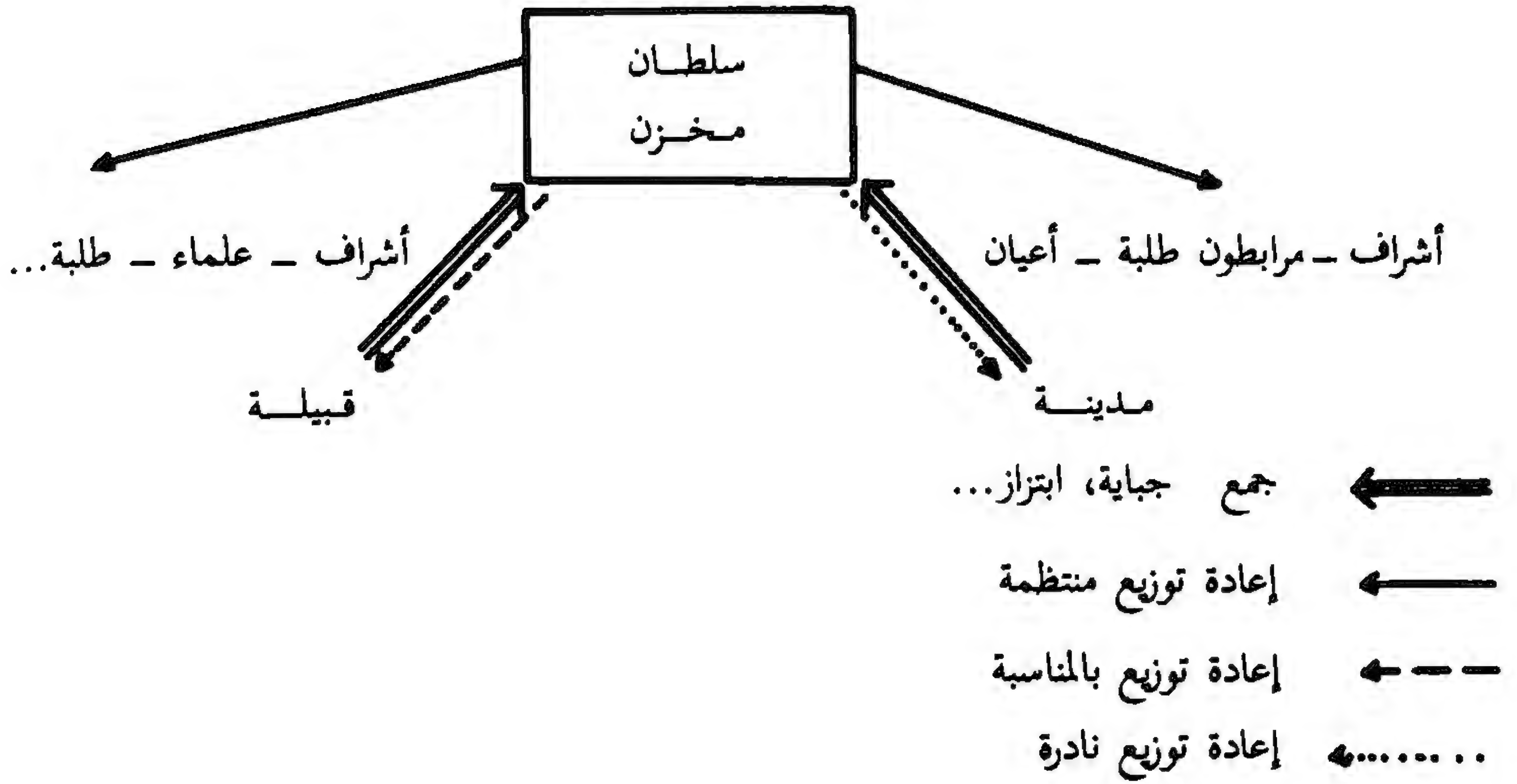
(19) كناش خ.ح.ر. 694 ص. 244. 17 شعبان 1311/فبراير 1894. ويرنى من الجذور التي تستهلك وقت القحط.

(20) الضعيف (م.س). و123 ظ.

(21) A. LAROUI (1977): (م.س)، ص. 123.

ويمكن إيجاز عملية إعادة التوزيع في الشكل التالي

شكل 6 إعادة التوزيع.



خلصنا إلى القول إن البادية لم تكن تستفيد إلا نادرا مما يسبغه المخزن على نفسه كجهاز معيد للتوزيع، في حين، وكما سوف نتوصل إليه في حديثنا عن الجباية، كانت البوادي هي المزوّد الرئيسي للمخزن. هذا ما يطرح السؤال التالي كيف تقبل البادية والحالة هذه بوجود السلطة المخزنية؟(22). وهذا السؤال يجعلنا نلتقي بواقع المخزن كنمط معقد للدولة. فالمخزن دولة مركزية في مجتمع معظمه قبلي، مما يطرح سؤالا آخر عن مدى التمفصل بين البنيات المخزنية المركزية والواقع المحلي القبلي، وعن القنوات التي يتم ذلك التمفصل عبرها.

تعرضنا فيما قبل لبعض أشكال العلاقات فيما بين قبائل ايناون، تبادلا وتعاونا أو مواجهة وصراعا. وقد اتضح لنا آنئذ أن المخزن المركزي قد يستفيد من كلتا الحالتين لترسيخ نفوذه إما بواسطة التحكم في حالة النزاع أو بواسطة استعمال الآليات

(22) نطرح هذا السؤال بنفس الصيغة التي يتساءل بها GODELIER عن أصل قبول المضطَهدين لحكم مضطِهد. انظر GODELIER, M. — «Origine et Formation de l'Etat, les processus de sa formation, la diversité de ses formes et de ses bases», in **Rev. Int. des Sc. Soc.**, Vol. XXXII (1980) n° 4. pp 657-659.

الانقسامية نفسها لتدعيم أغراضه بالمنطقة(23) هذا ما يجعل من الدولة المخزنية، دولة انقسامية، حيث تكسو فيها المؤسسات المركزية، الواقع المحلي، وتحاول تدجينه والاستفادة من آلياته لتوطيد استراتيجيتها(24).

وظيفة التحكيم(25) من الوظائف التي تضفي على النظام المركزي صبغة المشروعية لدى مجتمع القبائل الانقسامي. وكأن المخزن سائل يتحرك عبر مسام الجسم الاجتماعي، فيحيط بالخلايا دون النفاذ تماما إليها(26).

لاشك أن هذا التحليل المفهومي طويل شيئا ما، بيد أننا شعرنا بضرورته لتفهم ما يأتي من تفصيل في علاقة المخزن بواقع ايناون. ونستخلص من هذا التحليل أن السلطان ومخزنه المركزي يمثلون نموذجا مركزيا يفرض نفسه على بقية المجتمع، ويحاول، عن طريق ممارسات أبوية وبواسطة التحكيم تدجين البنيات القبلية حسب استراتيجية مركزية.

II – الجهاز المخزني المركزي

أوجز ع. العروي جوانب سلطات السلطان في كونه 1 – شريفا يعتلي بكيفية أو بأخرى الأسر الشريفة ويتصرف كزعيم لزاوية ضخمة. 2 – إماما، يسهر على صيانة تعاليم الشريعة ويتقدم سائر الفقهاء والعلماء وينتصح غالبا لنصحهم. 3 – قائدا عسكريا بالنسبة للجند وخلال المحال إما حضوريا أو استخلافا. 4 – منَظِّما إداريا خاصة في النصف الثاني من القرن لما أُحدثت سلسلة من التنظيمات ظهرت مثلا في جهاز الأمناء. 5 – مولًى يخدمه الجهاز المخزني المتسع الذي يتحكم بدوره في المجتمع بأكمله(27). وقد أشار أيضا إلى أن هذه الجوانب من

(23) انظر الفصل السابق.

(24) BALANDIER (م.س)، ص. 163. و MORSY, Magali, — **La relation de Thomas PELLOW, une lecture du Maroc au 18e siècle**, Ed. Recherches sur les Civilisations, Paris, 1983, pp. 59-60.

(25) انظر G. AYACHE (1979) (م.س)، ص ص. 159–176.

(26) ذاك ما تسميه MORSY (م.س)، ص. 57–58 بنية التفاعلات بين ما هو محلي وما هو مركزي. فالسلطان كحكَم إنما هو أكبر الحكام الذين يفصلون في القضايا المختلفة فيما بين القبائل أو الوحدات التي تكوّنها.

(27) A. LAROUI (م.س) (1977)، ص. 111–120.

سلطات السلطان آمكن تحديدها بالنظر إلى رؤية المجموعات الاجتماعية المكونة للخاصَّة أو المخزن بمعناه العريض (جيش، دواوين، علماء، أعيان...).

إن هذا التحديد يبرز ما للسلطان من أهمية محورية في النظام المخزني[28]. وتلك الأهمية تعطي لمميزات الشخص الذي يشغل هذا المنصب قيمة خاصة. بيد أن هذا لا يعني أن شخص السلطان ذو قيمة تفسيرية كبرى، بل إنه يأخذ مكانه ضمن جملة من العناصر، ليس أقلها تأثيرا الصورة التي يتعارف الناس على أنه على السلطان أن ينضبط إليها.

والواقع أن المستويات التي تَمَّ تحديدها أعلاه تعكس تصور الخاصة الحضرية بالأساس، إذ هي التي نجد اليوم، عبر ما خلفته من نصوص، أثراً باقيا عن تصوراتها. وإذا كان الأنثربلوجي يستطيع استخراج تصور البادية عن السلطة المركزية مما يحصل عليه من الرواية الشفوية الراهنة وجدها[29]، فإن المؤرخ يتريث في قبول تعميم نتائجه بالنسبة للقرن الماضي، دون مزيد حجج. بيد أنه بإمكان الباحث أن ينقب عن هذه الصورة عبر المراسلات التي كانت تفد على السلطان من قواد القبائل وأشياخها وأمنائها. صحيح أن هؤلاء القواد والأمناء والأشياخ كما سوف نقوله فيما بعد، كانوا من ضمن أثرياء القبائل (أعيانها، كبارها إلخ)، ومن ثَم، فالصورة التي سوف نستقيها من رسائلهم لا تتجاوز تصورهم هم أنفسهم، وهو تصور يعكس الكثير من المفهوم المركزي حول السلطان، وهذا ما يؤكد قولة «النموذج المركزي» سابقة الذكر.

بيد أنه، بالرغم من ذلك، قد يفيدنا ذلك التصور، ولاسيما إذا ما توصلنا إلى رسم اختلافات فيما بين القبائل، قد تنيرنا عن درجة استيعاب الصورة المخزنية من لدن النُّخب القبَلية، وبالتالي عن درجة «المخْزَنة» بكيفية عامة.

اعتمدنا ديابيج المراسلات لاستقاء هذه الصورة، ولو أن تلك الديابيج كانت تعتبر عديمة القيمة، وذات صبغة شكلية غيابها مثل حضورها، حتى من طرف

---

(28) ألح WITTFOGEL على ما لشخص السلطان من أهمية خاصة في نظام «الاستبداد الشرقي». WITTFOGEL من أولائك المثقفين الأوربيين الذين بعد أن اعتنقوا الشيوعية في عشرينات هذا القرن أصبحوا معادين لها في الأربعينيات. ومن ثم رمى المؤلف إلى إبراز الطابع «الشرقي» للنظام السوفياتي. خارج هذه الغاية الواضحة، فقد قام المؤلف بتحقيق واسع حول الاستبداد الشرقي.
WITTFOGEL, Karl, — **Le despotisme oriental**, éd. Minuit, Paris, 1964, p. 409.

(29) تلك حالة R. JAMOUS (م.س).

أعضاء المخزن أنفسهم[30].

ومما لاشك فيه أن ديباجة الرسالة المخزنية تخضع لنموذج أسلوبي جامد إلى حد ما إذ أن معظمها يتكرر مع تغيرات طفيفة. بيد أن استقراء العديد من المراسلات الوافدة على المركز المخزني، أقنعنا أنه بالإمكان الاستفادة من تلك الديابيج مهما ضؤلت اختلافاتها. وقد انتهينا إلى أن الديباجة تتغير في الواقع حسب جملة من المعطيات.:

– فحوى الرسالة تظلّم أم إخبار، استجابة لطلب أم التماس لمساعدة...

– موقع المرسِل من المنظومة المخزنية أو الاجتماعية قائد، وصيف، شريف... بدوي أم حضري، من العامة أم من الخاصة.

– درجة الطالب الذي كتبها من التشبع بالتعابير المخزنية، وسعة ثقافته الدينية[31].

– حالة القبيلة أو الفرقة التي ينتمي المرسِل إليها، وهل كانت خاضعة أم غير خاضعة... فبقدر ما نجد الديابيج مطولة لدى الحياينة والتسول مثلا، وهي قبائل المسلك والتي حرص مخزن القرن 19م على الحفاظ على طاعتها، بقدر ما نجدها مقتضبة لدى قبائل غياثة أو بني وراين الجبليتين. أهذه مجرد صدفة؟

نعتقد أنه بالإمكان اعتبار هذا الاختلاف انعكاسا لاختلاف في علاقة المجموعتين بالمخزن. وقبل أن نستنتج خطوط الصورة التي يبدو بها السلطان من خلال هذه المادة، لننصت إلى نماذج من هذه الديابيج

1 – «خليفة الله في أرضه الذي جعله مولاه ضلا ممدودا. يأوي إليه كل مظلوم ويعتصم بجانبه كل ضعيف ومكظوم ويريح أهل الأداء والعلل وما فيهم من

(30) في الكنانيش كما عند الإخباريين تسجل الرسالة ابتداء من «وبعد».

(31) ثمة حالات من طلبة تجولوا عبر قبائل متعددة في ايناون. وقد تمكنت من خلال الخط من تتبّع تنقلات أحدهم: 1302 عند أولاد رياب، 1305: عند بني سادن، 1306: عند بني وراين، 1307 عند أولاد عمران، 1309: عند التسول. ما هي أهمية هذا البشريان المخزني في الحياة المحلية؟ ولمَ كان يخضع تنقل مثل هذا الطالب؟ مهما يكن فإن هذا الطالب نقل معه صيغة متقاربة لديباجة الرسالة، مما قد يفيد أن الطالب كان يتحكم في صيغتها. على أن وجود الطالب في بني وراين أو في الحياينة كما سنراه، يؤثر حتى على صيغة الديباجة.

الهموم وبوجوده تقع العافية التامة وأمن السبيل ليسلكها الصادر والوارد من غير خوف (...) فخمدت بمهابته كل فتنة خمودا وانتسج حُكمُه على الصادر والوارد والقاعد حكَما وكل من اعتصم به نُصف لاشك معصوم الإمَمْ الهمام الأكمل الأسعد الأفعل الأشهر أبو مولانا إسماعيل بن مولانا محمد أبقى الله حياته وأطال للمسلمين عمره وبعد...»(32). وهذه من أطول الديباجات التي صادفناها، إذ أن الشيخ والأمين يستنجدان «بالمخزنية» لمواجهة جماعة أولاد بن غينة الذين «ظهرت فيهم السيبة» على حد تعبيرهما(33).

2 ـ «أدام الله لنا وجود سيدنا المنصور بالله أمير المومنين خليفة الله في أرضه يرتحم به الضعيف وينتصر به المظلوم المتوكل على الله الغالب بالله أيد الله أمره وأعز نصره وأسعد زمانه المبارك فالله يبقيه لنا ضلا ممدودا وعزا بالعقد معقودا سلام على سيدنا نصره الله ورحمة الله وبركاته..»(34). نلاحظ من هذه الديباجة مدى تواتر ذكر «الله» الذي تكرر اسمه تسع مرات، وهو ما يذكرنا بما سبقت الإشارة إليه من اعتبار السلطان «خليفة الله في أرضه» كما جاء في الديباجة نفسها.

ومن الملحوظ أن جزءا هاما من هذه الديابيج يستعار من نصوص البيعة. فكأن كل رسالة مناسبة لتجديد جانب من البيعة، وهو ما قد يفيد في نفس الوقت أن المرسلين متشبثون بما التزموا به من بيعة، لكن أيضا أنهم يذكرون أن بيعتهم كانت مشروطة تستدعي التنفيذ. ويقع التأكيد بصورة أخص على طابع السلطان كخليفة لله، ثم تبرز الديباجة وظيفة السلطان (والمخزن) الأساسية في الحفاظ على أمن المسالك و«حرية» التجارة. وتؤكد أخيرا على ما يجب أن يتحلى به الإمام من عدل، أي من موازنة بين مكونات التشكيلة القبلية.

هل من الغريب أن تفتقد جوانب من هذه المواضيع لدى غياثة أو بني وراين باعتبارهما قبيلتين لم تترسخ فيهما السلطة المخزنية إلا لماما؟ لنسجل نماذج من ديابيج بعض رسائلها القليلة جدّاً بالقياس إلى الحجم الكبير للمراسلات الوافدة من الحياينة، التسول أو بني سادن.

(32) ر.م.غ.م. ـ خ.ح. من الشيخ محمد بن الطيب الحياني الفضيلي والأمين معه إلى السلطان بتاريخ 21 رمضان 1885/1302.

(33) تنطبق ملاحظة G. AYACHE (1979)، ص. 212، على الرسائل التي يبعث بها السلطان فقط والتي تأنف كما رأينا من تسمية بعض الأشياء بأسمائها.

(34) من القائد أحمد بن العتيك الدسولي إلى السلطان، 14 شوال 1888/1305. م.غ.م ـ خ.ح.

3 ـ «سيدنا المنصور بالله أمير المومنين ورحمة الله في العالمين وسلام طيب كريم ورحمة الله وبركاته بوجود مولانا أيده الله ونصره»(35).

4 ـ وتبتدىء رسالة قائد غياثي على الكيفية الآتية «أعز الله مقام أمير المومنين سيدنا السلطان بن السلطان مولانا الحسن بن سيدي محمد وعلى سيدنا الإمام أزكى السلام...»(36).

يلاحظ أن الجانب الذي تشدد عليه هذه الديابيج هو طابع الإمامة الذي تربطه بالشرف، والكل مرتبط باستقامة الدين لتستقيم الدنيا. لكن الذي يبرز هو الاختلاف مع ديابيج قبائل الطاعة حتى في الحيز الذي تشغله الديباجة من الرسالة ديباجة القبيلة ذات الارتباط المتلاشي مع المخزن، قصيرة تفسح المجال بسرعة للمقصود من الرسالة(37). فإذا كان السلطان يبدو من خلال سائر الديابيج في حلة الإمام، خليفة الإله ودعامة العالم، فإنه لا يبدو في وظائفه الإدارية والتحكيمية.. إلخ، إلا لدى قبائل السهل. والواقع أن هذه الوظائف هي التي كانت تبرر وجود الجباية. فكأن القبيلة الجبلية، بإلغائها للجوانب التي تذكرها القبائل السهلية، تلغي أيضا حق السلطان في مطالبتها بالوظائف والكلف المخزنية(38).

هذا الفرق في التصور للسلطان هو أيضا فرق في التعامل معه، سوف يكون له وقعه حتى على معاملة السلطان لهذه القبائل كما سيأتي.

---

(35) ر.م.غ.م ـ خ.ح. من القائد عياد الوراييني إلى السلطان بتاريخ 13 شوال 1889/1306. ومن الجدير بالذكر أن هذه الرسالة مكتوبة من طرف الطالب الذي تجول في المنطقة بكاملها. وكان يكتب ديابيج جل رسائله بكيفية قريبة من هذه. بيد أنه كتب في ديباجة تعود إلى 1885/1302 «الحمد لله أقبّل الأرض تحت رجلي مركوب سيدي وادّي (كذا) ما وجب علي للحضرة العالية بالله أدام الله علاها...» وكانت موجهة من أمين حياني. فيبدو تأثير القبيلة واضحا في الأسلوب الذي يستعمله الطالب.

(36) ر.م.غ.م ـ خ.ح. من ق. عبد النبي بن عمر الغياثي إلى السلطان بتاريخ 8 جمدى 1 1890/1309. وقد نقل كتاب البلاط اسم القائد على ظهر الرسالة كـ«عبد الله»، نظرا لعدم وضوح الطابع. أليس في ذلك دلالة على عدم كثرة وفود هذا القائد على البنائق؟

(37) حتى حينما تكون ديباجة قبائل الطاعة قصيرة فإنها تختلف جوهريا من حيث الفحوى عن ديباجة قبائل الجبل (السيبة). وهذا مثال من ديابيج بني سادن 1889/1302: «سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أما بعد تقبيل بساط بين أيادك الكرام وأدآء ما يجب (كذا) لخدامك من الطاعة على الدوام...

(38) تنتظر الكمية الضخمة من المراسلات المخزنية المتعلقة بالنصف الثاني من القرن 19م، من يطبق عليها منهجا إعلاميا وإحصائيا ولسانيا. وننتظر من ذلك العديد من المفاجئات!

وإذا كان السلطان الحسن قد عمل على ترسيخ صورة الخليفة الإمام العدل، المؤمِّن للسبُل والواقي للضعيف من شر القوي فإنه أيضا كان يوظف هذه الصورة إلى أبعد حد، وإن كان ذلك عبر قناة «نشر الدين الصحيح» بين قبائل ايناون التي رأينا أن الأوساط المخزنية كانت تعتبر أنها، ككثير غيرها من القبائل، ما تزال تسبح في «الجهالة». فقد كان السلطان، من بين الوسائل التي يلجأ إليها للضغط على الفِرق أو القبائل التي ترفض أداء مطلب أو الاستجابة لأمر، يستعمل ما تفترضه له الصورة أعلاه، من قوة رمزية، يستطيع بها جلب الخير أو الشر. هكذا كانت بعض رسائل المركز تنتهي باستدراز سخط الله بعد أن تكون القبيلة شاهدت أو على طريق مشاهدة علامات سخط السلطان[39].

هدفنا من التحليلات السابقة إلى إبراز مدى قوة السلطان في التصورات المحلية. والواقع أن قوته في تلك التصورات كانت مستوحاة من قوته الفعلية بالقياس إلى إمكانيات القبيلة المحدودة. فالسلطان، إلى جانب تفوقه العسكري التقني والبشري على مجتمع القبيلة، كان أيضا يمتلك قوة رمزية كبيرة دينية وغير دينية. بيد أن القبيلة بوسائلها المحدودة تلك، واعتمادا على مؤهلاتها الايكولوجية، وعلى تلاحم مكوناتها كانت تستطيع كما سنراه فيما بعد، تهديد المركز المخزني بكيفية جدية.

تعرضنا في الفقرات السابقة إلى بعض الوسائل التي يستعملها المركز لترسيخ صورة قوة السلطان بالبادية. ونرى من المفيد، التأكيد بهذا الصدد على جانب لا يقع

---

(39) كناش 707، ص. 160، خ.ح. تنتهي الرسالة في شأن أولاد بن النخل، الذين فضلا عن عدم أداء الضريبة «اشتغلوا بقطع الطرقات» هكذا: «فلا يعود بخير عليهم إن شاء الله». وقد أشار MICHAUX-BELLAIRE(1911)، ص. 37، هامش 1، إلى أن السلطان كان يستعمل «السخطة الصغيرة»، وهي دعوة الشر من الله، «والسخطة الكبيرة» وهي دعوة الشر المدعمة بتوجيه القبائل والجند ضد القبيلة المغضوب عليها، ودون التوقف عند الترتيب الذي يضع أخطر السخط بيد السلطان، فإننا نرى من المفيد تسجيل أن حكاية «الدّود» التي يوردها MICHAUX-BELLAIRE باعتبارها وقعت لبني مطير عندما غضب عليهم السلطان محمد بن عبد الرحمن، فامتلأت عجائنهم بالديدان إلى أن تابوا، هذه الحكاية، سمعتها من أحد المخبرين الحياينة، مروية هذه المرة في شأن غياثة وبني وراين، المغضوب عليهم من طرف السلطان الحسن. صورة أخرى تُتَناقل في دير الأطلس الأوسط، دليلا على ما سميناه بالقواسم المشتركة. وقد كان بإمكان الرسائل السلطانية أن تكون شديدة العنف كما نجد عن ذلك مثالا في الضعيف، ص. 94: «شتت الله شملكم لا سَلام عليكم ولا رحمة الله ولا بركة في أموالكم..» وهي دعوات ينفذها الجند والقبائل المجاورة.. (الرسالة من السلطان محمد بن عبد الله إلى أهل تافيلالت الذين امتنعوا من أداء الضريبة).

الاهتمام به عند الحديث عن وسائل التحكم المركزي في المجتمع القروي ونقصد به امتلاك المخزن لوثائق منتظمة ومنظمة.

إن السلطان لا يحكم بواسطة القائد والجابي، والجندي والشريف فقط، بل يحكم أيضا بواسطة الرسالة والظهير(40). وقد كان لبعض الرسائل المخزنية أثرها العميق في بعض السياقات مثل رسالة سليمان الشهيرة إلى أهل فاس. وقد يكون من المفيد تتبع الكتابة كوسيلة من وسائل السلطة، عند مخزن القرن 19م، بيد أن الذي يهمنا من ذلك الآن، هو استعمال المراسلة والوثائق بكيفية عامة كوسيلة من وسائل تحكم المخزن الحسني في قبائل ايناون.

صحيح أن المخزن لم يكن يحتكر الكتابة، لكنه كان ولاشك يمتلك أوسع رصيد توثيقي يجعلنا نفترض أنه كان في حالة احتكار للوثائق أيضا، على المدى البعيد. فالقبيلة كما يبدو من حالات متعددة، لم تكن تحتفظ دائما بكل وثائقها المكتوبة، سيما ما لم يكن يتعلق بالملكية العقارية(41). في حين لم يكن المخزن يحتفظ بوثائقه فحسب، بل إنه، وكما ذكرناه في فصل سابق، كان يقلل جدا من فرص الضياع عن طريق تكرار فحوى المراسلات وتعديد نسخها(42).

بذلك يمتلك المخزن سلطة الذاكرة، بحيث إنه زيادة عن كونه يتوفر على ما لا طاقة للقبيلة أن تتوفر عليه من ذخيرة وثائقية فإنه غالبا ما كان لا يعترف ببعض الوثائق التي بيد القبيلة، أو على الأقل لا يعترف بها إلا بعد أن يقابلها بوثائقه الخاصة، ولو صدرت منه(43).

---

(40) من علامات أهمية «الرسالة» المخزنية، أنها كانت بمثابة «الجواز» لعدد من الأجانب المستكشفين لهذه المناطق. انظر: A. EL MOUDDEN (م.س) (1984).

(41) يكفي أن نعلم أن من أشكال حفظ وثائق الملكية إلى اليوم بغياثة تلفيفها ووضعها في قصبة لنتخيل مدى ما قد يصيبها من التّلف. ويمكن إدراج مثال آخر يبين مدى عدم الحفاظ على غير عقود الملكية لمدة طويلة: قبل وفاته بشهور أطلعني أحد مخبريي ببُوزملان، وكان أحد كبار الملاكين به أيضا، أن لديه كيسين من «الأوراق»، لكنه، وكما كان منتظرا، وَعَدني بإطلاعي عليها عند لقائنا المقبل. ولما فاجأه المنون، هرعت إلى عين المكان، علني اقتنص نصيبا من تلك الأوراق فكم كانت دهشتي وحسرتي لمّا وجدت أن الوريثة الوحيدة، بمساعدة من المقدم، قد أقدمت على حرق «ما لا فائدة فيه»!

(42) انظر فصل المصادر السابق. ويشير BALANDIER إلى السلطة المرتبطة بالوثائق (م.س)، ص. 26.

(43) نقرأ في كناش 657، ص. 227 في شأن استيفاء الضرائب: «العمل على ما وصل من ذلك وعلى ما في الكناش [المخزني] لا على النهاية [البطاقة التي يتسلمها من أدّى] فإنها لا تجزي شيئا».

غير أن الذاكرة المخزنية، إن هي قويت في شأن كل ما يتعلق بمصالح المخزن، فإنها كانت أحيانا تصاب بالوهن حينما يتعلق الأمر بمصالح المجموعة، سيما إذا كانت تؤول إلى التنقيص من مداخيل المخزن. هكذا لما احتجّ بني ستيتن عن عدم تأديتهم كل الكلف بكونهم محرَّرين من نصفها «لمواجهتهم للبربر»، برهن كتبة المخزن عن جمود غريب، إذ ظل المركز يُطالب بني ستيتن «الاستظهار بظهيرهم» خلال أزيد من سنة، قبل أن يعثر هؤلاء على ذلك الظهير، ودون أن يتجشم المركز عناء البحث في كنانيشه(44).

إن المميزة الأساسية لصورة السلطان عند قبائل ايناون كما اتضح، هي القوة والعظمة. بيد أننا حينما نتساءل عن مدى احترام الصورة للواقع، نجد أن هذه الصورة إنما ترسخت لدى قبائل السهل دون غيرها، أي عند القبائل التي تطالها الحرْكات والمحال كما سوف نقوله فيما بعد. بل إن قوة المخزن الفعلية حتى في مجال الحرْكة ذاته كانت متقطعة الاستمرار ترتبط غالبا بلحظة الحرْكة والجباية، حيث يتصل الخيط الواهن للحضور المخزني المحلي المستديم المتمثل في القائد والأمناء والأشياخ من جهة والشرفاء والمرابطين من جهة أخرى، برمز الحضور المخزني المركزي بعين المكان، والمتمثل في المحلة أو الحرْكة. خارج هذه الفترة، ما هو المخزن بالنسبة للقبيلة، غير ذلك الخيط الواهن؟ إنه يتمثل في الجهاز المركزي، الحضري بالأساس، والذي يتجسد في السلطان.

صحيح أن السلطان كان على صلة مباشرة مع كل أعضاء التمثيل المحلي كما سوف نعود للتأكيد عليه، وصحيح أن الأخبار في أغلب الأحوال، كانت تجد طريقها إليه في النهاية، وذاك ما كان ينم عن درجة عالية من المركزية في السلطة(45).

بيد أنه من العسير القبول بصورة شخص ذي قدرات فوق قدرات البشر، يعتلي هذا الجهاز المعقد ويتصرف فيه كيف شاء. فالسلطان لم يكن يحكم بمفرده، بل كان هو أيضا أسيراً للمؤسسة المخزنية، التي يضطلع فيها المخزن المركزي بدور محوري في تسيير الأمور الحضرية والقروية على السواء(46).

(44) ذاك موضوع مجموعة من المراسلات عن سنتي 1309-1310/1891-1892. انظر كناش 657 و707، خ.ح.

(45) انظر التوزاني (م.س)، ص. 270.

(46) A. LAROUI (1977) (م.س)، ص. 81.

على أن المخزن المركزي يساهم بدوره في تكريس صورة سلطان قوي. فلننصت إلى أحد كتاب الصدر ابن ادريس، أيام السلطان عبد الرحمن، يقول مقارِناً الوزير بالسلطان «وكان الناس يلومونه [ابن ادريس] ويقولون إنه يأخذ الرشا وليس كذلك إنما كان يأخذ الأجرة على البلاغ لأنه كان مبلِّغا لا منفذا. والتنفيذ والإبرام إنما هو للسلطان خاصة لأن القبول والرد بيده فإذا أراد أن يولي أو يعزل أو يسرح أو يسجن أو يعطي أو يمنع أحدا فلا يشارك أحدا في شيء من ذلك ولا يقدر أحد سواء كان وزيرا أو غيره أن يتعقب عليه حكما أو أمرا وهم يكونون بين يديه كالميت بين يدي غاسله. فهم إنما يخبرونه بما يحدث وراء الباب فيرى هو في ذلك رأيه ولا يشاور فيه غيره ولاكن جرت عادة الناس عامتهم وخاصتهم أن يجعلوا سيئات الملك في ميزان وزيره...»[47]. قد يكون هذا النص دفاعا عن ابن ادريس، وتحميلا للسلطان مسؤولية السياسة المخزنية كاملة، مما أسبغ عليه طابع المطلق هذا. بيد أنه يبين مع ذلك مدى تضخيم صورة السلطان حتى على الصعيد المركزي.

والواقع أن السلطان لم يكن يحافظ على نفوذه إلا باللعب على المجموعات التي تكون مخزنه مركزيا كان أم محليا[48]. وقد ألحّ جل من تعرض بالدراسة للأجهزة المخزنية على تنافس الأسر الكبرى، وهو صراع كان بارزا للعيان منذ أواخر القرن الماضي[49]. وليس هذا مجال التفصيل في ذلك التنافس[50] ولكنه من اللازم التأكيد على أن ذلك الصراع كان يجد بعض متنفساته في الاستيلاء على مواقع السلطة ضمن القبائل المحيطة بالعاصمة مثل الحياينة، أو هوارة الحجر، أو في المدن الصغرى القريبة منها كتازة. وهذه ظاهرة نلمسها حينما ننتبه إلى توالي القواد الذين يعينهم المركز بتازة أو بايناون حيث يبدو بجلاء تراقص بين المنحدرين من جيش القبائل والمنحدرين من عبيد البخارى (ولد أبّ محمد الشركي، عبد الله الزراري... ثم سعيد بن فرجي، محمد بن الفقيه البخاري..)[51].

ونظرا لوفرة الوثائق التي توفرت لدينا حول إحدى تلك الأسر، وأهمية ما

---

(47) مجهول الابتسام (م.س)، ص. 96.

(48) للتفصيل في المخزن المركزي يرجع إلى أعمال M. LAHBABI، G. AYACHE، A. LAROUI.

(49) انظر مثلا. E. AUBIN (م.س). 145. وما تزال الأسر المخزنية في حاجة إلى الدراسة، سيما الأسر البخارية التي نتوفر حولها على ذخيرة وثائقية هامة في مجموعة «الوثائق الزيدانية».

(50) انظر A. LAROUI (1977) (م.س)، ص ص. 81–87.

(51) انظر جدول القواد باينوان وتازة أسفله.

ارتبطت به من روابط معايناون، فإننا ارتأينا أن ندقق النظر في حالتها كنموذج عن مجموع الأسر المخزنية، وتلك الأسرة هم آل أحمد بن مبارك، الذي كان يلقب بـ «مول أتاي»، وكان حاجبا وصدرا أيام السلطان سليمان المتأخرة(52).

وتمثل أسرة آل أحمد موسى بن أحمد وعبد الله بن أحمد وأولادهما الكثيرون، نموذجا أكمل من الأسر المخزنية الكبرى. فلم تكن تشعر بحظوتها وكثرة حسادها فحسب(53) بل إنها سعت إلى توطيد نفوذها عبر السهر على إعطاء أبنائها تربية مخزنية محكمة، في تبعية كاملة للسلطان، فلما عُين محمد بن عبد الله كبيرا للعلّافة في حرْكة الأمير علي سنة 1875، والتي توجهت إلى غياثة قبل توجهها إلى بني يزناسن، ثم بدا منه ما كان قد يؤذي بسمعة كل الأسرة أرسل إليه والده بهذه الصيغة «فقد بلغنا بأنك تعلِّم على جميع بطائق العلّافين، وبعد ما يقبضون بهم [كذا] المؤنة من عند الأمين تجعل أنت والعلافة أو العلافة فقط ورقة فيها مضمن البطائق وتدفعها للأمين وتحز [كذا] منه بطائقهم. ما هذا العمل أخبرنا بحقيقة الأمر، وهذه حرْكتك الأولى، ينبغي لك أن تتحرى لِيَلّا تكون عليك عهدة وكان من حقك أن لا تحدث أمرا إلا بعد إعلامك لنا به لنعلمك كيف يكون فيه ولا تُشافِه الأمين بهذا ولا تظهر أنك أخبرت به، ولا تفعل أمرا مثل هذا أو غيره حتى تطلعنا عليه ونعلمك كفيته [كذا] ولا تغيب خبرا وعجل به (...) وأعلمنا بحقيقة ذلك هل منك أو من العلافين وما معك من العلافين كل واحد باسمه، بيس الفعلة، فلابد إن كان منك فتوقاه (...) وإن من غيرك فوبخه واستدركه بإعادة الورقات للأمين وإلا فتكون مسألة توذيك يسمعها كل أحد، فيها ازدراؤك. وهذه أول كلفة تكلفت بها يسمعون الناس [كذا] بها خيرك أو شرك فتحفظ أصلحك الله على نفسك ونحن أكثر...»(54). ونستشم من هذه الرسالة مدى عمق الصراعات التي كانت هذه الأسرة منخرطة فيها، من خلال ما خلفه سلوك الابن من حالة استنفارية عند الأب !

وقد دأبت هذه الأسرة، في شخص من يشغل منها الصدارة موسى بن أحمد ثم ولده أحمد، على وضع أبنائها في المواقع الحساسة من النظام المخزني، حتى إن المتتبع لمراسلات هذه الأسرة الداخلية ليشعر وكأنها تمثل مخزنا داخل المخزن، تستطيع بواسطة

---

(52) أشكر مينة مادني على ما استفدته من بحثها حول هذه الأسرة.

(53) و.ز. ـ مج. 25. و. 393 بصدد تعيين عبد الله بن أحمد باشا على فاس سنة 1875/1292.

(54) و.ز. ـ مج. 25، و. 402. من عبد الله بن احمد إلى ولده محمد. 28 ربيع 2 1875/1292.

أجهزتها الخاصة أن توجه الأمور في الإتجاه الذي ترغب فيه، بما في ذلك التأثير على القرارات السلطانية، على العكس مما سبق لمجهول **الابتسام** التأكيد عليه(55).

ثم إن هذه الأسرة كانت تسهر على تعديد زبائنها ضمن القواد والشرفاء، ولاسيما في المناطق الثرية المحيطة بالعواصم، فلما أمر السلطان بإنهاض حرْكة من قبيلة أولاد الحاج، كتب عبد الله بن أحمد إلى إدريس الوزاني و«أعلمناك لتُنهض أصحابك من القبيلة المذكورة للحرْكة المذكورة لإعانة إخوانهم لأني وأنت في المعاونة سواء»(56). وتبدو ظاهرة الزبونية بوضوح أكثر من خلال ما أجاب به عبد الله بن أحمد ادريس الوزاني عن تهنئته بالمولد سنة 1883/1300 «فقد وصلنا كتابك بتجديد العهد والسؤال عن الأحوال وما أنت عليه من المحبة (...) وما طلبته من الاستيصاء بولديك خيرا، ها نحن منهما على بال (...) ولا يحتاج إلى الايصاء عليهما»(57).

وكان من الطبيعي أن ينبني هذا النفوذ السياسي على ثروة فلاحية وغير فلاحية هامة لا نستطيع سوى تلمس بعض جوانبها. وتدل مجموعة من المراسلات الداخلية بين أعضاء هذه الأسُرة على مدى ثروتها العقارية بضواحي العواصم ولاسيما فاس، حيث أنه يبدو أن أبناء عبد الله بن أحمد ولاسيما منهم المختار، كانوا يتوفرون على أملاك مهمة؛ فحينما كان المختار يصحب السلطان إلى مراكش، كان يترك ابنه السعيد، يسهر على «الأحوال المتعلقة [به] خارجا وداخلا، أما خارجا فالحراثة (...) وأما داخلا فكالأكرية...»(58). وكان يوجه شؤون «حراثته» بالرغم من بعده : «والحيابنة أجعل بها زوجتين وأجعل بها شيئا من السهمة إن أُمكن...»(59). كما يأمر نفس ولده السعيد في رسالة أخرى، وكان يتابع أخبار المحصول السنوي «.. فلابد بيّن لنا ما حصل من صابة عامنا هذا من سائر أنواع الحبوب على يدك، وما حصل

(55) و.ز. ــ مج 3. و. 138، حيث يكتب موسى بن أحمد لأخيه عبد الله، الذي عارض الخليفة اسماعيل، «وحيث ظهرت لك المصلحة في عدم ذلك فالعمل عليه والحاضر بصيرة»...

(56) و.ز. ــ مج 5، و. 26 ــ 21 جمدى 2 1880/1297.

(57) و.ز. ــ مج 25، و. 206.

(58) و.ز. ــ مج 5. و. 197. 1887/1304.

(59) و.ز. ــ ن.م. و. 227، وتحدِّد «برنامجا» لحرث سنة 1308/1890ــ1891. والسهمة أن يفوض استغلال الأرض إلى الغير مقابل نصيب من المحصول، على أن يتكلف الغير بجميع مستلزمات الزراعة. ويكون النصيب عادة الثلث.

لأبناء عمك من شركتهم وعزيبهم (...) وهل ظهر شيء من الزيتون في أعواد الحياينة عن عامنا وكيف حال جنات الأخ المرحوم في العنب والكرم [كذا] والزيتون...»[60].

إن أمثال أسرة آل أحمد، سواء من البواخر أم من الجيش (الجامعي، الشركَي...) كانت تشغل المناصب الادارية والعسكرية وتمثل الحلقة الواصلة بين السلطان كتجسيد مركزي للسلطة، والممثلين المحليين كأدنى درجة للحضور المخزني بالمجتمع القروي.

وإذا كنا قد تعرضنا للجهاز المركزي، من خلال تصور القبائل له، ومن خلال بعض الجوانب من واقعه الاجتماعي، فإن الذي يهمنا أن نفصل فيه بكيفية أدق، هو جهاز التمثيل المخزني المحلي، وبعض ركائز المخزن المحلية غير الرسمية.

III ـ الممثلون المخزنيون الرسميون القواد، الأشياخ والأمناء

يتكون التمثيل المحلي من جهاز القواد على الصعيد الايناوي، ومن الأشياخ والأمناء داخل كل قبيلة. وسوف ندرسه حسب هذا الترتيب.

أ ـ القــواد

ما يزال الجهاز المخزني المحلي في حاجة إلى مزيد من التنقيب والدراسة، إذ أنه على غرار ما لاحظناه في شأن القبيلة، عانى من احتقار الكتابة الحضرية ومن تشويش الأوصاف الاستعمارية. ماهو تكوين هذا الجهاز؟ أسسه الإجتماعية والاقتصادية؟ أشكال حضوره الفعلية في حياة القرية اليومية وأصناف تعامل بقية السكان معه؟ ومدى ومستويات تمفصله بالهيئات المركزية وبالسلطان ؟ ثم ماهي علاقة هذا الحضور المخزني الرسمي المستمر بأشكال الحضور المخزنية الأخرى: متقطعةٍ كالحركات أو مستمرةٍ كالشرفاء؟ لا يمكن القول إن الأجوبة عن جل هذه الاسئلة قد يسّرها البحث الراهن بكيفية مُرضية.

ومن الظواهر التي درست بشيء من الدقة، ظاهرة القائدية بجنوب المغرب، بيد أن هامشية هذه الظاهرة في حد ذاتها تترك السؤال مطروحا حول أطر السلطة

---

(60) ن.م. و. 230.

المحلية في مغرب القرن 19م. وإذا كانت القائدية تفترض تكون السلطة في المستوى المحلي الأضيق ثم اتساعها إلى أن تصبح مقاطعات كبيرة قبيل الحماية، جعلت البعض يصفها بـ «الفيودالية»(61) فإن ما نتوفر عليه من وثائق بشأن الجهاز المخزني المحلي بحوض ايناون، قد يدفع إلى اقتراح تطور نقيض تماما في النصف الشمالي من المغرب(62).

1 ـ تطور جهاز القواد بإيناون خلال القرن 19م

سبقت الإشارة إلى المقاطعات الكبرى التي كانت تتقاسم الدولة الاسماعيلية حيث أن ابن علي كان يحكم كلّا من مرموشة وبني وراين، والحياينة فضلا عن غياثة وقبائل الجبل(63).

ولا غرابة أن تتشظى هذه المقاطعات الكبرى خلال «الفترة» التي تلت الحكم الإسماعيلي فنجد النصوص تتحدث عن أشياخ القبيلة من جديد. لكننا نعود لمصادفة إيالات متسعة مرة أخرى في أواخر القرن 18م وأوائل القرن 19م.

ويروي الضعيف أن السلطان سليمان عين «القائد أحمد اليموري، قائد فاس مع سبعمائة من عبيد مكناس، وخرج بها [إلى الحياينة] ليقبض الزكوة والأثمار [الأعشار]» (1795)، أي أن بلاد الحياينة كلها كانت تدخل تحت حكم قائد مخزني موفد من العاصمة. والواقع أن أحمد اليموري كان ولاشك قائد حركة جبائية مثيلة بتلك التي سوف نحلّلها فيما بعد. بيد أنه كان أيضا يجمع فيما يبدو بين يديه وظائف كانت من نصيب القواد المحليين في نهاية القرن 19م بحجة أن الضعيف يضيف أن السلطان لم يعزل أحمد اليموري بعد أن ظهر عسفه بالحياينة إلا بعد تظلم القبيلة واحتجاجها (ماي 1796)، أي بعد مضي مالا يقل عن ستة أشهر، وإن كان ليس من النادر أن تقيم حركة جبائية مثل كل هذه المدة على كاهل القبيلة. «فعزله عنهم وولى عليهم أخوهم [كذا] القائد محمد بن المانع الحياني»(64). والواقع أن

---

(61) عن «القائدية» انظر أعمال MONTAGNE وPASCON، وعن مناقشة الفيودالية انظر **Sur le féodalisme** C.E.R.M., Paris, 1971.

(62) يشير MICHAUX-BELLAIRE (1911) (م.س) إلى نفس التطور.

(63) الناصري (م.س)، ج. 7، ص. 117.

(64) الضعيف (م.س)، و165 و. وظ، ثم و167 ظ. وهذا أول ذكر نصادفه لقائد من القبيلة. وأسرة ابن المانع من الأسر التي نصادف ذكر اسمها في القيادة، مجدّدا، في نهاية القرن 19م.

ابن المانع هذا لم يدم حكمه أزيد من ثمانية أشهر، إذ «غوغت» (انتفضت) القبيلة عليه فقتلته بأحد الأسواق نظرا، ولاشك، لارتكابه ما سبقه اليموري إليه مضاعفة القبض والتعسف.

وليس من الغريب أن تكون أخبار التمثيل المحلي المخزني متوفرة بشيء من الاتصال منذ هذه الفترة المبكرة، بالنسبة للحياينة بالضبط، لما لاحظناه غير ما مرة من أهمية موقعها الذي يجعل من تبعيتها للمخزن إحدى شروط تحكمه في الشمال المغربي برمته.

في حين لا نتوفر إلا على معلومات نادرة، في شأن كل من غياثة وبني وراين والتسول. وهذا في حد ذاته يدل على درجة الحضور المخزني فيما بين هذه القبائل.

من خلال أحد الكنانيش المخزنية يخص «هدايا القبائل» ويعود إلى أواسط العهد الرحماني(65) نستطيع بالفعل أن نلاحظ أن جل قبائل المنطقة تظهر بهذا التواتر أو ذاك ضمن القبائل والحواضر التي تقوم بمراسيم الهدية للسلطان: أولاد الحاج، بني سادن، الحياينة،التسول، هوارة، تازة، بني وراين وغياثة... بيد أن ثمة اختلافا كبيرا: في حين تظهر غياثة أو بني وراين مثلا تحت اسم القبيلة بكيفية مستمرة، تظهر كل من الحياينة، وأولاد الحاج وبني سادن، مصحوبة عادة باسم القائد: فرجي البخاري (شوال 1253/يناير 1838)، أو ولد أب محمد بالنسبة للحياينة (رجب 1254/ أكتوبر 1838).

تدل هذه المعلومات في نفس الوقت على ما نبّهنا إليه آنفا من تنافس أسر عبيد البخاري وجيش شراكَة على الإنفراد بالسلطة على ضاحية فاس، وتدل أيضا على أن الحياينة كانت تابعة من الناحية الإدارية للعاصمة، يحكمها باشاها، عن طريق خلائف في عين المكان لعلهم أشياخ القبيلة.

ونصادف في الوثائق التي يوردها ابن زيدان، الحديث عن عامل للحياينة في يوليوز 1842: «واعلم أن جل الحياينة وخصوصا أولاد ارياب منعوا الحقوق وأظهروا العقوق فطلب عاملهم خروج المحَلة إليهم...»(66). ثم نلتقي مجددا بالوصيف فرجي

(65) كناش 16 ـ خ.ح.

(66) ابن زيدان (م.س)، ج 5. ص. 50. دون أن تفصح الرسالة عن هوية ذلك العامل.

عاملا على الحياينة سنة 1850/1266[67]. قبل أن نجد للحياينة قوادا أربعة في نهاية فترة السلطان محمد بن عبد الرحمن.

فالذي يبدو من هذا الاستعراض أن قبيلة الحياينة، إلى غاية منتصف القرن 19م، نادراً ما كانت لها قيادة مستقلة بها، حيث أنها في الغالب كانت تُضَم مع قبائل أخرى في قيادة كبرى. والذي يبدو أيضا أن منصب قيادة الحياينة نادراً ما كان يرجع لأبناء القبيلة، إذ أنها غالبا ما تبعت لسلطة مقيمة بالمدينة (فاس)، ولو أن السلطة المحلية الفعلية كانت ولاشك باستمرار بين أيدي خلائف أولائك القواد، أي أشياخ الحياينة أنفسهم.

أكدنا على مثال الحياينة أكثر من غيرها لتوفر المعلومات حولها، وغيابها في شأن القبائل الأخرى. بيد أنه من خلال نموذج الحياينة وحده، نستطيع استخراج استنتاج أولي لا يسير في اتجاه فرضيات Montagne: عوضا عن اتجاه القائدية نحو الاتساع والتعمق، نجد بُنى السلطة المحلية، وهي تعبير عن القوى الاجتماعية، تسير نحو التفكك إلى وحدات أصغر فأصغر. وهذا يطرح سؤالا ليس بإمكاننا الجواب عنه لحد الآن، بكيفية مضبوطة، وهو لماذا تطورت ظاهرة القائدية في حوز مراكش ولم تتطور في حوز فاس؟ لعله من المستعصي على دراسة محدودة مثل هذه أن تتصدى بكيفية شاملة لمثل هذا السؤال. بيد أنها إن أسهمت بنصيبها في صياغته، فإنها تكون قد شاركت في البحث عن جواب له. ومن شأن الدراسة على أساس معطيات أزيد دقة، أن تنير جوانب هذه المسألة التي تصب في قضايا أشمل مثل التشكيلة الاجتماعية ما قبل الاستعمارية وحظوظ واتجاهات تطورها... مهما يكن، فعبر نموذج الحياينة دائما، نجد أن عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن أتى بالجديد كما في مستويات أخرى. فتظهر الحياينة سنة 1869 من خلال كناشة ابن الطيب بوعشرين، تابعة لأربعة قواد كلهم من ضمن القبيلة، بالإضافة إلى قائد لهوارة الحجر والوطا[68].

وإذا ما قفزنا على الفترة الحسنية التي سنخصص لها الفقرات اللاحقة، فإننا نجد عند الحياينة غداة وفاة السلطان الحسن ثمانية قواد[69]. أما حينما أصبح التنظيم

(67) و.ز. مج 7 و. 265: من الوصيف فرجي إلى العربي بن المختار: «فقد كنا قدمنا الكلام لخلائفنا بالحياينة (...) وأمرناهم بأن لا يقربوا أحداً بسوء...

(68) نسخة خ.ح. المصورة رقم 10933 ص ص. 51–55.

(69) انظر الجدول فيما بعد.

المخزني في حالة التفسخ، بعد عقد من الفوضى والضعف والضغوط الأجنبية، فإن رسالة موجهة إلى حاجب السلطان عبد الحفيظ من طرف كافة قواد الحياينة تحمل ما لا يقل عن أحد عشر طابعا ليست كلها مقروءة[70]. هذا يعني أن عدد قواد الحياينة أو على الأقل حاملي طابع القيادة قد صار أحد عشر[71].

من خلال ما سبق نلاحظ أنه بين 1850 و1910 انتقل عدد قواد الحياينة من 1 إلى 11، وهو ما يوضح مدى ما أصاب بنية السلطة المحلية من تفكك بالشمال المغربي.

وقد دأب المؤلفون والباحثون على تقديم هذا التفكك كجانب إداري من جوانب الإصلاح[72] المختلفة التي اتخذها السلطان الحسن في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. والواقع أن عبارة «الإصلاح الإداري» إذا قصد بها تقسيم القيادات الكبرى، سابقة عن فترة السلطان الحسن، وتعود إلى السلطان محمد بن عبد الرحمن كما سبقت الإشارة. ثم إن الفترة الحسنية لم تشهد حركة تقسيم إداري شاملة على غرار ما قرره دون كثير شواهد J. Erckmann، وهو ما تناقله المؤلفون فيما بعد دون مزيد تأكد. صحيح أن السلطان الحسن قد قسم مجال نفوذ بعض القواد الذين كانوا قد أصبحوا يهددون السلطة المركزية، كما فعل أثناء رحلته إلى وجدة، سنة 1876، حينما اعتقل ولد البشير اليزناسني[73]. لكنه من الأكيد أن الحركة المنسقة الشاملة والخاضعة لمقاييس موحدة، والتي قد نفهمها من عبارة الإصلاح، لم تحدث. فحينما يقرر Erckmann «عوض السلطان المقاطعات الثماني عشرة الكبيرة بحوالي 330 قيادة صغرى»[74]، وهو الذي ألف كتابه قبل 1885، لا ندري ما هو سنده في ذلك التقرير. وحتى لو قبلنا جدلاً أن لفظة الإصلاح إنما تغطي حركة متواصلة، ولو تمت بكيفية بطيئة، على امتداد الفترة الحسنية، لما كان بإمكان Erckmann، وهو مصدر

(70) ر.م.غ.م. 22 شعبان 1910/1328.

(71) ليس في الأمر مدعاة للاستغراب باعتبار ما ساد كلا الفترتين العزيزية والحفيظية من بيع لطوابع الوظيفة على نطاق واسع.

(72) انظر في شأن هذه الإصلاحات **ندوة الإصلاح والمجتمع**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة محمد الخامس، الرباط، أبريل 1983.

(73) ابن زيدان (م.س)، ج 2، ص ص. 161–162. نفس التعيين الجماعي قد نلمسه في الحركة إلى سوس. ن.م.، ص ص. 209–210.

(74) ERCKMANN (م.س)، ص. 122. إلا أن أ. التوفيق (م.س)، ص. 491، هامش 28 يحيل على «قائمة» تعود إلى نهاية القرن الماضي وتشمل أكثر من 250 قائدا.

من تلاه، أن يحكم بعد على تلك الحرَكة.

والواقع أن تطور عدد القيادات، إذا ما انحصرنا في إيناون، قد عرف تقلصا في أواسط الفترة الحسنية سوف نحاول تبريره بعد حين. وإذا كان من الجائز أن يكون تعديد القيادات قد شمل جهات أخرى غير إيناون[75]، فان الذي اتخذ فعلا طابع الإصلاح الإداري هو إحداث جهاز الأمانة بالقبائل وما رافقه من تعيين لشيوخ جدد وذاك ما سنتعرض له بعد أن ننهي الحديث عن جهاز القواد بإيناون في الفترة الحسنية.

2 ـ قواد إيناون في الفترة الحسنية

حينما وصل أولاد عليان خبر تولية أحد أولاد تحيل عليهم، إبان عبور السلطان الحسن للحياينة، أثناء رحلته الأولى بالجهة الشرقية سنة 1874، «نكروا غاية، فافترقوا بعدما حلفوا بأيمان مغلظة أنهم لا يقبلونه على أي وجه من الوجوه وإن حُتم عليهم (...) ولا وجدوا بدّا من ذلك، فلينظر سيدي لهم موظفا آخر إما مخزنا أو قبيلة (...) لما مر عليهم .من أكل أمتعتهم من غير حق وهتك أعراضهم وأنواع العذاب الأليم والكلفة كيف ما كانت عليهم...»[76]. نستفيد من هذه الرسالة أن القائد[77]، وهو الممثل الرئيسي للمخزن على الصعيد المحلي، كان «إما مخزنا أو قبيلة».

القائد المخزني كان يُعين من طرف المركز إما من ضمن جيش القبائل كولد ابّ محمد أو من ضمن عبيد البخاري كفرجي، وقد سبق ذكرهما.

أما القائد القبَلي، فإنه يُعيّن من بين أعضاء القبيلة نفسها وهذا هو الصنف الذي يعنينا بالأساس في هذه الفقرة. فما هو أصل القائد القبَلي الاجتماعي والاقتصادي، وما هي كيفية تعيينه وما هو مدى سُلَطه وطرق تصرفه فيها، وما هو موقعه في المنظومة المخزنية بكيفية عامة؟ تلك بعض الأسئلة التي سوف نلتمس لها بعض الجواب، بعد أن نسجل في الجدول التالي قائمة بأسماء قواد بعض قبائل إيناون، حسب ما توفر لدينا من معلومات حولها.

---

(75) وهذه ليست حالة إينولتان مثلا.

(76) من عبد الله بن أحمد إلى السلطان، و.ز. مج 1. و. 286.

(77) نزعت المراسلات المخزنية بالتدريج إلى تعويض لفظة «القائد» بلفظة «العامل».

جدول 17 قائمة قواد ايناون، في القرن 19م

التاريخ	الحياينة			غياثة		بني وراين			تازة
	أ. رياب	أ. عليان	أ. عمران	بني بوقيطون	بني وجان	بني مكود	أمغيلن	الزراردة	
1288/ 1871	محمد بن قدور البوزيالي عبد الجليل	محمد بن قاسم التخيلي	المفضل الفيناوي ع. السلام العمراني						عبد الرحمن الزراري
1289									
1290									
1291		محمد بن ح. العاجي	الهاشمي العمراني أحمد العيساوي	الأشهب البوقيطوني	ولد أحمد بن عياد الوجاني				
1292									محمد بن الطاهر الدوبلالي
1293					ولد علي قروط (أهل الطاهر)		(اعتقال أبركان) أحمد بن قاسم		قدور بن الحسين الجامعي
1294									
1295									
1296	محمد بن قدور البوزيالي الجيلالي الشعشوعي	محمد بن الحاج العاجي بن قاسم التخيلي	محمد بن أحمد العمراني						
1297									
1298									
1299									
1300	(اعتقال البوزيالي الشعشوعي الحسن بن العربي الهلالي	محمد بن الحاج العاجي دحمان التخيلي	أحمد بن قدور الجعفري أحمد بن حمان الفيناوي						
1301	الهلالي + الشعشوعي	العاجي + التخيلي (اعتقال كافة قواد الحياينة)	الفيناوي + الجعفري						عبد الله الزراري (+ مكناسة)
1302		ولد أبّ محمد الشركي (خلائف)							
1303									
1304									
1305							(اعتقال أحمد بلقاسم) عياد أوراغ	محمد الزرودي	عبد السلام بن يط الجامعي
1306		علال بن الشليح (خلائف)							محمد بن الفقيه البخاري
1307		(كافة قواد الحياينة) أحمد بن قدور التخيلي	محمد بن عبد الله الجعفري						
1308				ح علي بن عمر محمد بن علي البوقيطوني	محمد بن عياد الغيالي عبد النبي الغيالي				بن عيسى بن أحمد العبدي
1309	محمد الشعشوعي الجيلالي بن عمارة الهلالي	الجيلالي الساهلي أحمد التخيلي	أحمد بن قدور الجعفري علي المحرري				عياد أوراغ		
1310	(عزل الهلالي) الشعشوعي + محمد النيكي لحسن بن قدور البوزياني					قاسم المكودي		محمد الزرودي	عبد السلام بن يط الجامعي
1311	(اعتقال الشعشوعي)								
1312/ 1894	البوزيالي + الجيلالي الغولي محمد بن كروم	الجيلالي العلياني محمد بن بوعزة التخيلي محمد بن علي بن المانع	المداد الجعفري محمد بن القاضي المحرري محمد بن القاضي المحرري	محمد بن علي البوقيطوني	بن عياد الغيالي	قاسم المكودي		محمد الزرودي	

المصدر مراسلات مخزنية مختلفة.

ـ بقدر ما طالت فترة حكم القواد في النصف الأول من حكم السلطان، بقدر ما تقلصت في نهايته. ومع تقلص مدة القيادة تزايد عدد قواد الحياينة كما هو ملحوظ. ويرتبط ذلك ببيع الولاية الذي تواتر ذكره في نهاية الفترة الحسنية.

ـ نلاحظ «فترة استثناء» بالنسبة للحياينة 1302ـ1307، عين فيها السلطان قائدين مخزنيين بها.

ـ تواتر بعض الأسماء التي تنتمي إلى نفس النسب محمد بن قدور البوزياني ثم الحسن بن قدور البوزياني، مما يحيل على توارث هذا المنصب في بعض الأسر.

ـ مقارنة القبائل الثلاث تبين الاختلاف الواضح بين الحياينة وغياثة أو بني وراين من حيث كثافة عدد القواد واستمرارية حضورهم.

* *

أولا الأصل الاجتماعي للقواد

ينتمي القائد إلى أعيان جماعته وكبار قبيلته الذين يمتلكون أوسع الأراضي وأكبر القطعان[78]. وقد كان على من يطمح إلى القيادة أن يتمتع بنصيب مقبول من الثروة ليستطيع تحمل أعباء الخدمة المخزنية التي تُلزِمه بضيافة الموفدين والنازلين، ومرافقة المحال والحركات، والالتحاق ثلاث مرات على الأقل بالقاعدة التي يوجد بها السلطان لأداء واجب التهنئة والهدية، بمناسبة الأعياد الثلاثة... كما كان عليه أحيانا أن يواجه بعض المصاريف العارضة مثل أداء ما في ذمة بعض «إخوانه» مسبقا، أو تسبيق ما تعجز إيالته مؤقتا عن أدائه أو ترفض دفعه بالمرة.

جاء في رسالة جوابية من القائد المختار اللنطي التسولي إلى السلطان، الذي كان قد طالبه بإلزام إخوانه تعويض ما نهبوه للبرانس التابعين لعامل تازة، من ماشية : «قد ورد علينا كتاب مولانا (...) وفيه بيان سخرة قائد الأرحى النازل على قضية البرانص قرأناه على المتعدِّين وأمرناهم بتنفيذ الأمر فامتنعوا من أداء السخرة فاستشهدنا عليهم العصيان بِعَدْلَين وتركنا سبيلهم واعلم سيدي وأن المال الذي أعطينا للبرانص والله وبركة مولانا ما أعطيناه إلا مِن عندنا سلّفناه من تازة وأعطيناه

(78) E. AUBIN (م.س)، ص. 241.

للمنهوبين على يد عاملهم (...) وأما العلف والمؤنة من عندنا (...) وها نحن وجهنا قائد الرحى ودفعنا له بغلة بخمسين ريالا...»(79).

وإذا كانت المصاريف العارضة تتطلب رصيدا ماديا (أرض، قطعان) قد يضمن للقائد إمكانية الاستلاف من تجار أو ذمة المدينة إن احتاج باستعجال إلى مبالغ مالية كما هو الأمر هاهنا، فإن القائد كان يحتاج أيضا إلى سعة في الثروة لمواجهة متطلبات حياة تتميز عن حياة بقية القبيلة بمن في ذلك كبراؤها. ويحاول القائد أن يعيش حياة مصغرة من حياة السلطان الذي هو نموذجه المركزي، ومن ثم فإن لديه «بلاطا» مصغرا لا ينقصه لا العبيد والأعوان ولا الحريم والزبائن وكل ذلك يفترض ثروة هامة(80).

وقد كان من شأن وراثية هذا المنصب ضمن نفس الأسر أن تحافظ على حظوظ تمركز الثروة الفلاحية (الأرض بالخصوص) بالرغم من سياسة المصادرة التي لم يفلت منها سوى القليل من القواد المعزولين. ذلك أن العزل نادراً ما كان يُؤدي إلى نكبة الأسرة بأكملها. بل إن ثمة حالات تدل على أن الأسر التي كانت تمسك بزمام السلطة محليا، عادة ما كانت ترجع إليها حتى بعد أُفول نجم أحد أفرادها (انظر الحالات المتكررة في الجدول السابق). فبعد أن قبض على القائد محمد بن الجيلالي الشعشوعي، كتب من خلفه، وهو محمد بن كروم الحياني، إلى السلطان «إن القائد (...) المسجون (...) لا زال يسعى بشيطنته في فساد إخوته (...) وكذا أبوه قبله قد حصل منه مثل هذا حتى وجهه سيدنا المقدس لمراكش وحينئذ استراح الناس من شرهِ (...) وما كان من مال سيدنا تركه كله لولده هذا ولا زال تحت يده وقد تنوسي...»(81). لاشك أن فيما يقوله القائد الجديد في شأن القائد القديم كثيرا من التحامل، وبالتالي قد يُغفل كون الشعشوعي الأب قد تعرض إلى المصادرة ولو جزئيا، بيد أن هذه الرسالة تبين مع ذلك أن السلطة عادت إلى أسرة الشعشوعي بالرغم من اعتقال الأب، وأن استمرار السلطة فيها، كان من ضمانات استمرار الثروة أيضا. بل

---

(79) ر.م.غ.م. – خ.ح. من القائد اللنطي-الدسولي إلى السلطان – متم شعبان 1884/1301

(80) انظر حالة الجيلالي الدمناتي التي يعرضها أ. التوفيق (م.س)، ص ص 476–478. أيضا عن القائد محمد ولد البشير اليزناسني.

SEDDON, David. — **Moroccan Peasants**, Kent, England, 1981, pp. 103-106.

(81) ر.م.غ.م. – خ.ح. من محمد بن كروم الحياني إلى السلطان، 6 جمادى 1 1894/1312.

إن طول استمرار السلطة لدى بعض الأسر كان من عوامل تنمية ثروتها[82].

ثانيا تعيين القواد

يجعل الأساس الاجتماعي والاقتصادي للمرشحين المحتملين لمنصب القيادة بالقبيلة، دائرتهم ضيقة فمن أصل 259 خيمة التي يتكون منها أحد أرباع بني سادن لم يسجل كناش مخزني سوى 9 أعيان، ضمنهم الأشياخ والأمناء، وهي نفس الدائرة التي يُختار منها القواد[83].

والواقع أنه من الصعب في أغلب الأحيان الحديث عن «تعيين» القواد من طرف المخزن، إذ تخضع تسميتهم لعديد من المفاوضات والمشاورات سواء فيما بين المخزن وممثليه المحليين الآخرين من قواد وأشياخ مجاورين أو أعوانه غير الرسميين كالأشراف الوزانيين... وتوازي هذه المشاورات العمودية مفاوضات أفقية محلية فيما بين أعيان المجموعة المعنية بتعيين القائد الجديد. ولا يكون التعيين في غالب الأحيان سوى إضفاء للرسمية المخزنية على سلطة محلية واقعة سابقة عن التعيين[84].

وقد تعددت الشواهد في المراسلات المخزنية عما أسلفناه. فعندما توفي القائد الملالي الدسولي، واختلف محكوموه عمن يتولى عليهم أجاب السلطان في شأنهم : «فالقبيلة هي التي تعين من يصلح للتولية عليهم ومن توافقوا عليه واحداً أو إثنين يقع الإشهاد عليهم به وحينئذ يُولى»[85] وتبرز هذه الرسالة مدى قدرة المركز على التكيف مع الواقع المحلي، حتى يكسب الزجر بالعنف شرعية كاملة، في حالة تنكر القبيلة، بعد أن وقع «الإشهاد» عليها[86].

ولم تكن القبائل تتردد في رفض تعيين القائد الذي لا ترتضيه سيما إذا ما كانت ممارساته التعسفية معروفة لديها في السابق كما جاء في احتجاج أولاد عليان على تعيين قائد تخيلي عليهم سنة 1291.

بل إن المركز كان يبالغ أحيانا في مسايرة الواقع المحلي قبل احتوائه في الأخير.

---

(82) الضعيف، و257 ظ.

(83) الربع هو إحمُودن، انظر كناش 192 خ.ح. ويعدد «تسعة أرباع».

(84) ERCKMANN (م.س)، ص. 120، وAUBIN، ص. 241.

(85) كناش 639، ص. 119. 25 ربيع الثاني 1890/1308.

(86) جانب من جوانب سلطة الكتابة بيد المخزن.

ولعل من أبرز أمثلة التنازل في الآن والقبض على زمام المآل، أن يقبل السلطان بترسيم زعامة محلية، فيرفعها إلى درجة القيادة ثم يعود بعد حين إلى القبض على صاحبها. نصادف هنا تطبيقا لفكرة النموذج المركزي المبنية على تشبه النظام السياسي بالنظام الإلهي فالسلطان أيضا بهذا المنظور يُمْهِل ولا يُهْمِل كما تكرر في عدد من المراسلات(87).

هل مسايرة الواقع المحلي، هذه، كانت تعني أن المخزن لم يكن يفرض من يختاره من الأعيان الأوفياء له على القبيلة بالرغم من عدم رضاها؟ بل إن السلطان، وكما جاء في هذا الجواب الجاف: «مولاي إسماعيل، وافا كتابك باستحرام آيت سغروشن طالبين تولية من سميت عليهم وصار بالبال فقد ولينا عليهم الخديم رح السغروشني»(88)، كان يتشبث بمن اختاره بالرغم من أشكال الاحتجاج (الاحترام) التي تلجأ إليها القبيلة(89) وقد تطلب إرضاء القبيلة نقل عيْنٍ من أعيانها من السجن إلى القيادة(90).

ولم يكن من الغريب أن ينتقل العَيْن من القيادة إلى السجن ثم منه إلى القيادة مجَدّدا، بل يبدو أن هذه خاصية عامة لتعامل المخزن مع معاونيه، انتبه إليها عدد من الملاحظين الأجانب(91).

بعد ارتضاء القبيلة كان على المرشح أن يقدم «هدية» لبيت المال، ولاسيما في نهاية العهد الحسني(92) إذ ذاك فقط كان القائد الجديد يتسلم الشارات الرسمية التي

(87) تلك كانت حالة محمد بن البشير ولد مسعود اليزناسني؛ انظر الناصري، ج 9، ص ص. 144 وما بعدها. **والإتحاف**: 2، ص ص. 153–160.

(88) كناش خ.ح. 639 – فاتح ربيع 1 1308/1890 – ص. 77.

(89) لن يتراجع السلطان إلا بعد سبعة أشهر من المبادرات المختلفة.

(90) كناش خ.ح. 632، ص. 417. قعدة 1308/1890.

(91) ERCKMANN (م.س)، ص. 132. هل هذا هو سر بعض الأمثال الشعبية مثل: «عَزِّز رجْلِيكْ عْلَى المُلُوكْ قْبَلْ يْدِلُّوكْ»، ابن سودة، (م.س) ج 2، ص. 523. أو أنفة بعض الفقهاء المتواترة من خدمة الملوك؟ انظر الحوات، **ثمرة أنتعي**، ص. 82–83.

(92) A.M.G, Maroc, C, 6, Cauchemez, avril, 1881.
وقد كتب ابن موسى لعبد السلام بن ادريس بن زين العابدين الوزاني: «وصل كتابك في شأن ولد علي بن قدور الذي تكلمت في ولايته على صنهاجة بأنه التزم بألفي ريال لبيت المال (...) بعد الإشهاد على القبيلة برضاهم بولايته حسبما بالرسم الذي وجهت» ر.م.غ.م خ.ح.، 4 ربيع 1 1312/1894.

تجعل منه في أعين إخوانه وأمثاله قائدا رسميا الفرس والقبة والطابع والكسوة، وكلها علامات خارجية تمييزية للقائد عن بقية كبار القبيلة.

وقد كان الوزانيون يلعبون دورا هاما في تعيين القواد بسائر قبائل ايناون في النصف الثاني من القرن 19م، ولدى قبائل الجبل بكيفية خاصة. هنا، عوض أن تتم التشاورات بين السلطان وأعيان القبيلة يكتفي السلطان بتزكية اختيار الشريف الوزاني الذي يقوم هو بالمفاوضة مع القبيلة الجبلية. وتدل مجموعة من الرسائل أن السلطان كان يركن إلى الوزاني لمباشرة تعيين قواد القبائل التي يستعصي على المخزن الوصول إليها وذاك كان شأن غياثة وبني وراين(93).

يتضح مما سبق أن المخزن الحسني كان ينهج في شأن تعيين القواد، كما في جوانب أخرى من سياسته تجاه قبائل ايناون، سلوكا مرنا حسب موقع وحالة كل قبيلة.

فقد كان يتبع سياسة متدرجة يمكن إدراجها تحت عنوان السياسة المخزنية الانتقائية التي صادفنا منها نماذج وسوف نلتقي بأخرى فيما بعد. فثَمَّة قبائل محيطة بالحواضر كانت تتبع بكيفية آلية لها منها مكناسة، والبرانس التي كانت تتبع لتازة وأولاد الحاج أو هوارة التي كانت تتبع لباشا فاس. تتلوها في اتجاه الجبل قبائل يتفاوض أعيانها مباشرة مع السلطان أو الخليفة السلطاني قبل الإتفاق على القائد المعين، والذي نادرا ما لا يكون من أسرة القائد السابق، سيما في حالة الوفاة. هذه حالة الحياينة وتسول وبني سادن. ثم تتلوها القبائل التي تتم المفاوضة فيها بين الشريف الوزاني وأعيان القبيلة، ويكتفي السلطان بتزكية النتيجة بشاراته الرسمية وتلك كما أسلفنا حالة كل من غياثة وبني وراين(94).

ثمة اختلاف آخر بين تعيينات قبائل «الوطا» وقبائل الجبل. فإذا كان القواد المعينون ببني وراين وغياثة في حدود ما وصلنا من أسماء وعددها قليل، يعكس

---

(93) كناش 689، ص. 42: «كان وقع الكلام معك (...) على أن تعين من يصلح للولاية على الفرقتين الباقيتين (...) من غياثة بلا عامل..

(94) هذه الدوائر المتداخلة لا تتطابق مع الدوائر التي يحددها الانقساميون كمجالات متوالية للكلب والخروف والذئب، أي الجيش ثم قبائل المخزن ثم قبائل السيبة، إذ أن «السيبة» قد تعم كلا منها في وقت من الأوقات، والخضوع للمخزن لا يخلو بشكل من الأشكال من أي منها.

محدودية الحضور المخزني زمنيا بها، كلهم من الفرق أو على الأقل من القبيلة التي عينوا بها، فإن المخزن لم يتردد في فرض قائد مخزني على قبيلة أو مجموعة من القبائل حفظا لمصالحه، ولو اقتضى ذلك فرض نوع من الحالة الاستثنائية على حياة القبيلة. تلك كانت حالة الحياينة فيما بين 1884/1302 و1889/1307، عندما عين السلطان للحكم عليها على التوالي ولد أبّ محمد الشركَي ثم ولد الشليّح. وهذه الحالة تستدعي منا وقفة خاصة بعد الانتهاء من وصف حكم القواد وتعاملهم مع السكان ومع المركز المخزني.

ثالثا دائرة نفوذ القائد

«وأما خطة الولاية فموضوعها في عرفنا وقطرنا اليوم الجرائم والجبايات وما يتبعهما، فالوالي عندنا اليوم نائب عن الإمام في جباية ما جرت العادة أن تدفعه الرعية للسلطان وفي كف اليد العادية فيما يحدث بينها من التقاتل والتواثب والتغالب فيردع الظالم وينصر المظلوم (...) وقد وُسّع له في هذه السياسات ما لم يُوسّع للقاضي إذ له أن يحكم بالقرائن (...) وينظر الوالي أيضا في كل ما يكلفه السلطان به (...) وتعديد ذلك يطول مع أنه غير خاف بين الناس...»[95] هكذا يعرف الناصري خطة الولاية، ويقصد بها «القيادة».

يوجز هذا التعريف ما ألحّت عليه الشهادات الأجنبية المعاصرة والدراسات اللاحقة من كون مهام القائد بالنسبة للسلطان تتحدد في السهر على أمن إيالته، جمع سائر أصناف الجبايات، فضلا عن تنفيذ الأوامر العارضة المتنوعة والتي تمتد من الإجابة عن استخبار ما إلى شد عضد قائد آخر ضد كل أو جزء من إخوانه، إلى القيام بمؤنة مسافرٍ أو محلةٍ أو السهر على تسخير عمل إخوانه في عزيب مخزنيٍّ أو تابع لأحد الشرفاء المنتمين للأسرة الحاكمة...[96].

(95) جواب لأحمد بن خالد الناصري حول الفرق بين خطة القضاء والولاية والحسبة، ضمن كناش، خ.ع. د. 2295، ص ص. 7-8. ويتخذ «الجواب» أهمية كبيرة في نصوص النوازل، حينما ينتقل من البرهنة بالنصوص إلى التدليل بما يجري «اليوم»، أو إلى مناقشته، إذ يصبح إذ ذاك مرجعا مضبوط المجال والزمان.

(96) حول القائد ووظائفه: ERCKMANN، ص ص. 120-122، AUBIN، ص ص. 241-245، ثم أ. التوفيق، ص ص. 478-489، A. LAROUI (1977)، ص. 162، G. AYACHE (1979)، ص ص. 212 - 214. انظر عدداً من التعميمات الخاطئة عند JAMOUS (م.س)، ص ص. 237-238.

وقد كان القائد يمارس هذه الاختصاصات في نطاق «إيالته». ومن الواجب أن نؤكد أن هذه اللفظة لم تكن تعني مفهوما جغرافيا فقط، بل وربما بصفة أغلب، كانت تدل على معنى بشري. فسلطات القائد كانت تمتد إلى «إخوانه» أينما وُجِدوا. وحتى لو أفلتوا منه واستوطنوا جهة أخرى فإنه يحتج لدى السلطان على القائد الذي أوى جزءا من إخوانه ضده[97].

هذا ما كان يُولِّد صراعات متكررة بين القواد المتجاورين حول المجموعات الهامشية، يدّعي كل منهم أنها تتبع له. وما كان ذلك الصراع بتلك الدرجة من الاحتدام إلا لأن نزوح أي فرقة أو جماعة من إيالة قائد كانت تعني بالضرورة ارتفاع حجم ما على بقية السكان أداؤه للمخزن، وتضييق مجال الابتزاز بالنسبة للقائد.

وقد جعل هذا المفهوم البشري، القواد غيورين على اختصاصاتهم التي كانت تشمل محكوميهم سواء حلّوا أم ارتحلوا، ويحتجون بعنف إذا ما تدخل جانب آخر في شؤونهم، ولاسيما موظفو المخزن المركزي بالحاضرة. فلنُنصِت إلى قائد عُمراني يخاطب باشا فاس بهذا الجفاف «... عبد الله بن أحمد (...) نحب من.الله ثم منك تسرح اولد عمران [كذا] إخواننا فإن أمرهم بيدنا ولا حكم يجرى عليهم سوى حكمنا، وهما إنما قدموا من أجل المسواق وأنت قد جعلتهم بالحكم متاعك بالسجن نحبك تسرحهم... وإن كان لأحد عليهم طلابة يقدم عندنا بارك الله فيك...»[98].

كان القائد، في دائرة نفوذه هذه، يعتمد في تنفيذ السياسة المخزنية، على إمكانياته الخاصة قبل كل شيء. لذلك رأينا أنه عادة ما كان ينتمي إلى جماعة قوية بشريا واقتصاديا واجتماعيا بحيث يكون في مستطاعه التأثير بواسطة الكرم أو القوة حسب الحاجة وقد صادفنا حالات يستطيع فيها القائد مواجهة الصعوبة الطارئة بالاعتماد على «إخوانه» فقط[99].

وكان القائد يعتمد أيضا على تنظيم خاص لعله من بقايا النظام القبلي المستقل.

---

(97) كناش خ.ح. 205 بتاريخ 12 حجة 1891/1310، ملخص رسالة من التخيلي.

(98) و.ز ـ مج 8. و. 10. والرسالة مكتوبة بالدارجة. 25 ربيع 1 1882/1299. انظر أيضا كناش 353، ص. 101.

(99) «صُكّتْ اليهم بإخواني فقط وبني عمي»، ر.م.غ.م. من محمد بن المانع إلى السلطان بتاريخ 10 رمضان 1895/1312.

تشير الوثائق فضلا عن الأشياخ والأمناء المخزنيين إلى «أشياخ العمال» أو «أشياخ الأحكام» وهم الأشياخ الذين كانوا يساعدون القائد، قبل تعيين منافسيهم الذين دعوا بالضبط بالأشياخ «المُعيّنين». ولعل أشياخ الأحكام كانوا أكثر أعيان القبيلة نفوذا، يختارهم القائد لتنفيذ أحكامه في وسط مجموعتهم حسب ما يرونه ملائما دونما حاجة من القائد إلى التدخل في هذا المستوى الأدنى.

وقد نتوهم ممّا سبق أن نظر السلطة المركزية يتوقف عند حدود إيالة القائد. وقد نجد في شهادات القرن 19م ما يرسخ مثل هذا الوهم، إذ أن الشهود الأجانب كانوا ينعون على القواد شدة ظلمهم، فتخيلوا أن القائد صاحب السلطة المطلقة في إيالته، ليس فقط على غرار السلطان بالنسبة لبقية البلاد، بل كان هو السلطان الفعلي وإن كان ذلك في حجم مصغر، وسط إيالته(100). ونجد لدى الفقهاء والكتاب أيضا ماقد يؤيد هذه الصورة، إذ كان مقصودهم تبرئة السلطان من «ظلم الولاة» للرعية(101).

بيد أن القائد كان يبقى مرتبطا بالسلطة المركزية عبر عدد من القنوات تذكره بحضور تلك السلطة. ففَضلًا عن الأشياخ والأمناء «المعينين» والذين سوف نعود إلى الحديث عنهم بتفصيل، كان للقائد أن يستمد عددا من «المخزنية» أو «أصحاب سيدنا» يستعين بهم على قضاء أغراض الخدمة السلطانية(102).

وكان بإمكان القائد الاعتماد على قواد آخرين عند الاقتضاء، دون ما توفره البعثات المخزنية والحركات الدورية من تدعيم متجدد لنفوذه فيما بين الأعيان وضمن القبيلة برمتها.

على أن القائد إذا ما أعوزته هذه الوسائل، وعجز عن مباشرة أحد الأمور بقواه الذاتية، فإنه كان يلجأ إلى تقليد المركز في «الإمهال» فيستعمل «السياسة»، ويضمر

---

(100) AUBIN (م.س)، ص. 241.

(101) يتحدث السملالي، عناية (م.س)، 102/431 عن «ما يفعله جهلة العمال والقواد اليوم من مجاوزة الحد في الإغرام...

(102) ذاك ما نستنتجه مما ورد في رسالة بـ و.ز.ج 1. و169: «أن رجلا من الجعافرة لم ينصف رجلا من إيالتنا من حقه بسوقنا وأمرنا صاحب سيدنا بإحضاره بمقابلة خصمه (...) فامتنع (...) وسبّ المخزني...

الأمر إلى حين مجيء الحرْكة أو المحلة(103).

رابعا موقع القائد بين القبيلة والمركز المخزني

ما هو موقع القائد من العلاقة بين المركز المخزني والسكان؟ سبق لـ G. AYACHE أن أشار بصدد جهة غير بعيدة عن ايناون، وهي الريف، وفي فترة قريبة مما ندرسه، أن منْصب القائد، مؤسسة يتم فيها الالتقاء بين المؤسسات القبلية الجماعية والمؤسسة المخزنية المركزية. فالقائد يحتل نقطة المواجهة بين قوتين سياسيتين متعارضتين، قوة القبيلة وقوة المخزن(104).

وقد كثرت الشواهد وتعددت المراسلات في شأن هذا الموقع الحرج المتناقض الذي يحتله القائد بين القبيلة والمخزن. فقد تعودنا أن نقرأ عن القبيلة المنتفضة ضد قائدها لسبب من الأسباب شدة العسف والتسلط، كثرة التغريم... وعادة ما تحدث تلك الانتفاضات بمناسبة وهَن النظام المركزي: وفاة سلطان، انهزام جيشه في وقعة داخلية أو مواجهة خارجية(105). وهذا أحد قواد الحياينة يروي ما كاد أن يدهمه من خطر، إثر رواج خبر مرض السلطان: «لما استودعنا الجانب الشريف من الحرْكة والعيد (...) ألفينا أخانا الخليفة قد قيّد بزمام ناسا عشرة (...) كانوا أشاعوا في القبيلة حين كان سيدنا (...) سقيم [كذا] قائلين وأن المخزن قد انقضى وارتفع ولا أثر له فجعلوا أشياخ الربيع منهم على عادة الفساد إبان فَقْد المخزن وصاروا لا يتحاكمون إلا عندهم ونبذوا المخزن وراء الظهر، وحرَكوا لدارنا بصدد قتل الموجود فيها وأخذ ما فيها وهدمها بعد العهود على ذلك بينهم في ضريح ولي ببلادنا ولولا أناس من فخذنا الأقربين إلينا وقفوا عليها بعُدَّتهم وحراستهم لها ليلا ونهارا ماوجدنا دارا ولا عمارتها أمامنا بعدما حاصوا للمنحاشين إلينا المذكورين ما كان بيدهم من المال بقرا وغنما وحمرا وغير ذلك فباعوها وفرقوا ثمنها على عين الخاص والعام..»(106) ولاشك أن «البرنامج» الذي

(103) يقول عامل تازة سنة 1874/1291، في شأن غياثة الذين كانوا في حالة «فساد»: «فقابلناهم بخير... ريثما يقدم مولانا»، ر.م.غ.م. ـ 25 رجب 1894/1291. من عبد الرحمن الزراري.

(104) G. AYACHE (1981)، ص ص. 100–101.

(105) الناصري (م.س)، ج. 9 ص. 18: «وعمَدوا إلى قوادهم... فقبضوا عليهم وأودعوهم السجن وانتهبوا دورهم» (الشرارده، أواسط العهد الرحماني)، انظر أيضا MIEGE، ج 2: ص. 203.

(106) ر.م.غ.م. ـ خ.ح. من علي المحرري إلى السلطان ـ 12 ربيع 2 1892/1310. وعن «شيخ الربيع» المذكور هنا انظر L. MEZZINE (م.س)، ص ص.445–447، وABBES(م.س)،

وثيقة 1   1892/1310 القائد بين القبيلة والمركز

تفصح عنه رسالة القائد كان يحرك جمعا من القبيلة يتجاوز الأنفار العشرة المشار إليهم، بما أن الأمور كانت تتم «على عين الخاص والعام».

فهل نحن في حاجة إلى تعديد الأمثلة على كون موقف القبيلة من القائد كان في غالب الأحيان، كما يبدو من الرسالة السابقة، موقف العداء المكتوم الذي ينتظر فرصة للكشف عن عمقه؟[107].

نود على العكس التأكيد على جانب يبدو لنا جديراً بالملاحظة وهو موقف المخزن المركزي من القواد إبان مدة حكمهم. هنا أيضا تعودنا قراءة أخبار القواد الذين ينتقلون من التهنئة بالعيد إلى السجن، أو مصادرة أملاك القواد المعزولين أو المُتوفّين[108] وهو ما سوف نعود إلى تدقيقه فيما بعد. أما ما يسترعي انتباهنا الآن، ومن خلال استقراء العديد من المراسلات المخزنية، فهو الموقف المخزني المركزي المزدوج من قواد القبيلة: فالقائد ممثل السلطان، ومجسد حضوره في القبيلة، بحيث أن الاعتداء عليه من طرف محكوميه يستدعي من السلطان التأنيب والزجر وقد يبرر حركة أو محلة سلطانية (كما في شأن غياثة مع عامل تازة) لكن القائد، حينما يكون بالبلاط المخزني، فإنه يعامل وكأنه لا ينتمي إلى نفس المخزن. ولندرج حول هذه المسألة بعض الشواهد.

إن ما يقرره القائد المختار اللنطي التسولي «والقواد (...) استغنوا بالكلمة الشريفة يقضوا بها مسائلهم»[109] هو ولاشك، انعكاس للتصور العام الذي كان يطغى لدى أعضاء المخزن المركزي حول القواد بصف عامة. وهذا ما يفسر ارتياب المركز من ممثليه المحليين باستمرار سواء كان ذلك مكشوفا أم ظل مغلّفاً.

ولما طالع القائد محمد بن علي بن المانع علم المخزن بتمنع فرقة من إيالته الدوامة

= ص ص. 192–193، وهذه العبارة ترجمة حرفية للأمزيغية: «أمغارْن ـ توكَا [MEZZINE] أو «أمغارْن ـ تويا» [ABBES] ومن الطريف أن ترث قبائل اشتهرت «بعربيتها» رصيداً ادعى كثيرون أنه أمزيغي فقط. بيد أن الطرافة إنما هي طرافة بالنسبة لنا. أما المعنيون بالأمر، فإن فصلا سابقا أبرز ما يربطهم من سمات مشتركة تجعل هذا النوع من التأثير المتبادل أمرا طبيعيا لا يحتاج إلى تأكيد.

(107) ثمة إشكال ما يزال في حاجة إلى تدقيق وبحث: كيف ينتقل أعيان القبيلة من ارتضاء القائد إلى رفضه إذ نادراً ما لا يساهمون في «الثورات» ضده.

(108) ERCKMANN (م.س)، ص ص. 132–133، E. AUBIN (م.س)، ص ص. 244–245.

(109) ر.م.غ.م. ـ خ.ح. من اللنطي إلى السلطان، بتاريخ مهم شعبان 1301/1884.

من أداء اللوازم المخزنية كان الجواب على ظهر الرسالة، (معلّما بالرصاص من يد أحمد بن موسى؟): «أصل كل علة وفساد من العمال لأنه حين تكون المحلة ببلادهم يقدمون الفرع على الأصل في الاقتصار على جلب المصالح الخاصة بهم...»[110].

إن هذا الموقف المرتاب المحتقِر هو ما قد ينير بعض أنواع المعاملة التي كان يلقاها القائد حينما يفد على البلاط. فما لم يتقدم بالهدايا المختلفة، التي تضمن له المداخل الضرورية بدار المخزن، بمعنى أنه ما لم ينخرط في زبونية إحدى تلك الأسر التي أشرنا إليها آنفا، فإنه حسب بعض الشهادات المعاصرة، يظل منزويا مجهولًا في أحد أركان المشور[111].

ونرى أنه من المفيد في هذا الصدد، إدراج رسالة تبرز مدى الحدود التي كانت مرسومة للقواد داخل البلاط، ولو أنها تتعلق بقواد الجنوب وببلاط مراكش: «القائد محمد بن قاسم الشركَي (...) وصل كتابك (...) بما صدر من السيد محمد بن موسى من الخرق عليك والخروج عن موضوع خطته بإدخال العمال لبنيقة الطابع وغيرها من الأماكن المحترمة والتوسط لهم في الملاقاة مع سيدي مولاي محمد (...) في غير وقتها (...) فمحل العمال معلوم لا يجاوزونه إلى غيره في ذلك المحل كغيره من البنائق وأحرى أن يدخلوا للمحال المحترمة التي لا يدخلها إلا الأفراد القائمون بوظيفها وأحرى غيرهم فأحرى **العمال ومخالفة ذلك خرق وفتح لأبواب الجسارة على المخزن ووسيلة للاختلاس والخروج عن الطور وإفساد للاعمال المؤسسة»** [112].

قد يتبادر إلى الذهن أن ما تعبر عنه هذه الرسالة ناتج عن غيرة على ضابط بروتوكولي رافق المؤسسة المخزنية طيلة وجودها. وهذا وارد جدا. لكن الجوانب التي نشدد عليها تنتمي في الواقع إلى موقف سلطاني متكرر من القواد في الفترة الحسنية، ولاسيما بعد تعيين الأمناء والأشياخ كما سيأتي، ومضمون هذا الموقف الريبة والإتهام.

(110) ر.م.غ.م. – خ.ح. من ابن المانع إلى السلطان، 10 رمضان 1895/1312.

(111) AUBIN (م.س)، ص. 207.

(112) نُقل عن مسودة رسالة بتاريخ 28 محرم 1892/1310. ولاشك أنها كتبت أصلا لتبعث باسم الصدر أو الحاجب لأنها كانت تبتدىء بعبارة «محبنا» التي اعتاد أعضاء المخزن التخاطب فيما بينهم بها. غير أنه شُطِّب عليها وعُوضت بـ«خديمنا» وهي عبارة كان السلطان يختص باستعمالها. وهذا ما يبين ما أولاه السلطان من أهمية لمثل هذا الموضوع. (التشديد من عندي).

يتضح مما سبق إذاً أن القائد، إن كان يشغل موقعا متوسطا بين المؤسسة القبلية والمؤسسة المخزنية، فإنه لم يكن يحظى في الواقع بثقة أي منهما. هذا يطرح السؤال: كيف نفهم إذا تسابق الأعيان، وتزايدهم بالمعنى النقدي للكلمة، حول هذا المنصب غير المريح؟

لا يمكن فهم ذلك التهافت إلا في ضوء ماكان يضمنه احتلال منصب القائد من إمكانيات تحقيق «الأغراض الخاصة» بالتعبير المخزني السابق.

خامسا تعسفات القواد

ورد في رسالة سليمانية إلى أهل فاس تصنيف ثلاثي للعمال فمنهم من يأكل ويُؤكّل ومنهم من يأكل ولا يؤكل ومنهم بالخصوص «كعمال اليوم [من] يأكل وحده ويمنع رفده ولا ينتصر للمظلوم»...(113).

وورد في رسالة رحمانية إلى الخليفة سيدي محمد، في شأن تعسفات شيخ من الكرارمة بأولاد فارس القريبين من البرانس «وهذا شأن الكرارمة في تلك القبائل التي كانوا يتولون عليها حتى نفّروهم (...) ولو تمادَوا عليها لأحبّوا ولاية النصارى لما يلحقهم من الحيف والإرهاق..»(114).

تفصح هاتان الرسالتان عن مدى استبداد العمال «واستغراق ذممهم» منذ أوائل القرن 19م(115). ولعل بنيقة الشكايات كانت من أشد البنائق نشاطا بدار المخزن في القرن الماضي، إذ أن المراسلات المخزنية تعج برسائل التظلمات والشكايات من تعسفات القواد التي كان تعيين الأمناء والأشياخ التابعين للمخزن مباشرة من عوامل الكشف عنها بكثرة مستجدة، في حين كان حصولها في الماضي، لا يترك أثرا مكتوبا إلا في النادر.

(113) أكنسوس (م.س)، ص. 275. والرسالة وجهت بعد ثورة أهل فاس ضد عاملهم الصفار (1819-1820).

(114) رسالة مرتبة بالمحفظة 7 عهد مولاي عبد الرحمن، خ.ح.

(115) كثرت الفتاوي حول «استغراق ذمة» العامل حتى أن بعض الفقهاء كانوا يفضلون عدم السؤال عن أصل الهدية التي يتسلمونها حتى لا يكونوا في حرج من قبولها أو رفضها، انظر مثلا **نوازل**، العلمي، خ.ع.د. 832، ص. 123. (جواب عبد القادر الفاسي)، انظر أيضا السملالي، **عناية**، (م.س)، ص. 431.

مر بنا أن السلطان سليمان عين أحمد اليموري لاستخلاص جباية الحياينة. وحسب ما يرويه الضعيف فإن هذا القائد استوفى ما لا يقل عن ست مرات أكثر مما كان مطلوبا منه. وهذا ولاشك ما جعل مصيره ومصير ابن المانع بعده، يكون مأساويا على ما سبق تقديمه.

وقد تعددت أشكال شطط القواد خلال القرن 19م، بدون أي شك، وكان ذلك على علاقة وطيدة مع تعدد أنواع المغارم السلطانية، إذ كان القائد يجد فرصة التعسف كلما احتاج إلى تنفيذ أمر بالقبض، فضلا عمّا كان يمارسه من تذعير خاص به تثبته الرسائل السلطانية بكثرة.

جاء في ملخص رسالة موجهة إلى القائد عبد الله الجعفري «فقد أخبر أمناء وأشياخ إيالتك أنك جمعت أولاد عليان وأولاد عمران تروم إهلاك بعض أقاربهم وذعّرت منهم من ذعرت بما له بال من المال وانتزعت من أحدهم طابعه وأردت سجنه ثم دفعته لبعض أقاربك ظلما وتعديا وعليه، إن صح، فنأمرك أن تكف عن ذلك وتقف عند الحد»(116).

ونقرأ في ملخص جواب موجه إلى أمناء وأشياخ من الحياينة: «وصل كتابكم بأن الخديم الهلالي أضر بالأمين الغولي منكم وصار يسعى في إذايته وأنزل عليه قائدي رحى وعددا من المخازنية بما أحوجه إلى الخروج من داره والإخلاء لبلاده (...) فقد كتبنا له في ذلك وحيث يجيب يظهر»(117).

إذا كانت هاتان الوثيقتان تفصحان عن جانب من علاقة القواد بالأمناء، سوف نعرض له بعد قليل عند حديثنا عن جهاز الأمناء، فإنه يكفينا أن نستفيد منهما الآن، ما تدلان عليه، بوضوح، من تعسفات القواد. فإذا ما كان نصيب بعض الأمناء والأشياخ من تلك التعسفات بالقدر الذي تشير إليه هاتان الرسالتان، فإننا نستطيع أن نتصور ما كان بالإمكان أن يلحق عامة السكان، ونستشف ذلك من رد على أحد أمناء الحياينة: «وصل كتابك بأن العمال جاوزوا الحد في الذعيرة ولم يقفوا عندما حُدَّ لهم فيها وصاروا يذعّرون بنحو المائة ريال... فقد كتبنا لهم وأمرناهم بالكف عنه»(118).

(116) كناش 708، ص. 182، 5 ربيع 1 1891/1309.

(117) كناش 657، ص. 137، 13 جمادى 1 1891/1309.

(118) كناش 657، ص. 244، 25 جمادى 2 1892/1309.

وقد بلغت تجاوزات القواد أحيانا درجة كبيرة حتى أن السكان فضلوا أن يطلبوا من المركز المخزني إيفاد حرْكة تقبض الواجب قفزاً على قوادهم الخاصين(119).

يبدو منصب القائد إذاً، على الصعيد المحلي، كمنصب كان يُوفر لصاحبه من الجاه والسلطة ما كان يجعله في مأمنٍ من أي اعتداء أو قهر، عدا قهر الحرْكة أو المحلة، مما لم يكن يجعل منه سياجا لامتيازات سابقة عن احتلاله فقط، بل مطية محققة لامتيازات جديدة تتمثل أساسا في احتجانٍ مستجد لثروات زراعية أو مالية: أرض، قطعان، أموال(120)...

ماذا كان موقف المركز المخزني من شطط عماله؟

الواقع أن موقف المركز المخزني كان معقدا. بيد أنه يمكن رد تنوعه إلى خاصيتين أساسيتين: النهج الشرعي الإسلامي في مراقبة الإمام للولاة، والاستفادة الواقعية من تعسفاتهم.

ففي الجانب الأول نجد السلطان يسترعي في مراسلاته ويعيد الاسترعاء ويحاول إثبات الحجة على القواد الجائرين ومن ثم ما يبدو في تلك المراسلات من رزانة في الأسلوب وتأنّ في الحكم: فعند اطّلاع السلطان على شكاية، يستفسر المتهم بالأمر منهيا استفساره بعبارات تدل على أنه لازال لم يستنتج التجريم بعد، من صنف ما تقدم: «إن صح ما تقدم»؛ «إن صح، فنأمرك أن تكف...» ثم يجيب المتشكي: «فقد كتبنا له وحين يجيب يظهر». ولكن في نفس الوقت يستفسر قواد المنطقة المجاورة للقائد المتهم. وقد كانت المراسلات تمثل سلاحا قويا بيد السلطة المركزية، إذ أن الأخبار التي كانت توفرها للسلطان ما كانت لتتوفر لأي طرف من الأطراف المتعاملة معه.

كانت مصادر أخبار السلطان متعددة، يستفيد من أكثرها كلما احتاج: القائد، الأمين، الشيخ، الشريف المحلي، قواد الحرْكة، الخليفة السلطاني فضلا عن سائر الخواص(121). وكان هذا التمركز الكبير في وسائل الخبر في حد ذاته سلطة بيد

(119) A.M.G., Maroc, C. 6, Rapport Cap. Thomas, oct. 1891.

(120) بيد أنه لا يجب أن ننسى أن هذا الحكم صالح أيضا لسائر أعضاء الجهاز المخزني.

(121) في حادثة انتفاض عسكر تازة ضد العامل كانت مصادر أخبار السلطان هي: العامل، الخليفة بفاس، أعيان تازة، المحتسب والناظر بها، قائد غياثة ونقيب شرفاء تازة. انظر كناش 708، ص ص. 43، 45، 47، 85... (1308/1891).

المركز، تلتقي مع ما سبق وأن لمسناه من احتكاره للذاكرة المكتوبة.

وعن طريق مقابلة الأخبار، وإعمال المنطق فيها ينتهي السلطان إلى قرار يأمر به[122]. وأما إذا تعذر الوصول إلى قناعة عن طريق مواجهة المراسلات، خاصة حينما تتنافر الأخبار التي تدلي بها الأطراف المتحاجّة، ويكون ما يرويه كل طرف متماسكا بما فيه الكفاية فإن السلطان كان يلجأ إما إلى استدعاء الطرفين للمواجهة الحضورية أو إلى إيفاد مبعوث خاص يراقب صحة الأخبار في عين المكان، إن لم تُتْرك تلك القضايا إلى إبان تَوَجُّه الحرْكة إلى نفس المكان، فيكون التحقيق فيها من جملة وظائفها.

فلما اشتكى عدد من جماعات القائد المختار اللنطي التسولي بكثرة إضراره بهم في جمادى2 1309/1892 كتب السلطان إلى بقية قواد التسول: «فقد اشتكى على حضرتنا (...) خدامنا (...) إيالة الخديم اللنتي بأنه لم يسلك بهم سبيل الرفق والعفافِ وحمّلهم من أنواع المضرات ما أحملهم على الخروج عنه والاِحترام وقد وجهنا حامله بوعزة السريعي لتحقيق ذلك وبيان عدد الخارجين عنه فنأمركم أن تقفوا معه على تحقيق ما ذُكر وتطلعوا شريف علمنا بما ثبت لديكم فيه ليظهر ما يكون في أمرهم»[123].

وعندما تتوفر القناعة بشطط القائد، يكون التأنيب صارما[124].

قد نستنتج من كل ذلك سهر المركز على بقاء عماله في دائرة نفوذهم وهي تنفيذ السياسة المخزنية المركزية دونما إحداث أمر بغير إذن. وإذا ما تذكرنا أن المركز يقدم سياسته كسياسة لا تحيد عن الشرع قيد أنملة[125] فإننا قد نستنتج أن السلطان يقوم هنا بأحد أدوار الإمام، وهو رفع المظالم والانتصار للمظلوم من الظالم.

بيد أن استنتاجا مثل هذا لن يأخذ بالاعتبار سوى وجه واحد من العملة، في حين أننا أسبقنا منذ قليل أن موقف المركز من تعسف العمال تميز بالازدواج: تشبث

---

(122) انظر مثلا في المثال أعلاه، كناش 708، ص. 85.

(123) كناش 657، ص. 221.

(124) ن.م.، ص. 244: «نأمرك أن تبين سبب ذلك والحامل لك عليه، وتكف عنه وتقف عند الحد فيه فإنه إن تواتر عليك فلا يعجبك حال». الصيغة «الأبوية» لهذا الأسلوب واضحة.

(125) أحمد التوفيق (م.س)، ص. 478.

بالشرع في مستوى الخطاب واستفادة في أرض الواقع.

وقد كانت استفادة المخزن من ممارسات عماله الجائرة تتم أساسا بواسطة سياسة المصادرة. صحيح أن الفقهاء كانوا يجدون للمصادرة التي تحصل عند عزل أو وفاة القائد تبريرا فقهيا(126). وصحيح أيضا أنه كان من المتعذر ماديا على السلطان رد ما يكون قد احتجنه القائد إبان مدته من أموال ومذخرات، إلى أصحابه. هذا ما قد يضعف من قيمة هذا النوع من المصادرة كحجة على استفادة المخزن بكيفية بنيوية من تعسفات عماله. بيد أن ثمة نوعا آخر من المصادرة، يثبت ما قدمناه، وهو الذي يحصل مباشرة إثر كل شكاية، أو حادثة ابتزاز.

يشتمل الكناش 154 من الخزانة الحسنية على ملف هام (13 رسالة أو ملخصا) حول حادثة تواجه فيها عسكر تازة وقبيلة غياثة، انتهت بحيازة المخزن المركزي لِمَا نُهب من القبيلة(127). ولم تكن نهاية هذه الحادثة سوى نموذج من مواقف المخزن المركزي من تعسفات عماله: الاستفادة الفعلية منها وعدم الإعتراف الرسمي بها وهو بذلك يكسب ثمرة التعسف ويحمل مسؤوليته لعماله(128).

وعلى كل فإن بعض النصوص التي روت مشاهد مصادرة العمال لا تترك مجالا للشك في أن سياسة المصادرة من الوسائل المحورية التي يأخذ بواسطتها، الجانبُ المُبْتَزُّ من المنتوج الزراعي ببوادي مغرب ما قبل الحماية، طريقه نحو المركز المخزني(129). ويكفينا الإنصات إلى أحمد مول أتاي، الأب المؤسس للأسرة البخارية التي اشتهرت فيما بعد، وهو يخاطب قائد قبيلة بعيدة ولاشك عن ايناون، وهي الشاوية، ولكن نفس الخطاب كان بالإمكان جدّاً، أن نستمع إليه من فَمِ موظف مخزني آخر، وفي ظروف أخرى، موجَّهاً إلى قائد من قواد ايناون. «إن السلطان أمرني

---

(126) السملالي: **عناية** (م.س)، 48/377: «أخذ السلطان من مال العامل ما زاد على ماله يوم التولية هو الذي عليه المالكية».

(127) انظر عن ذلك فصل: البادية والمدينة اللاحق.

(128) راجع قولة صاحب **الابتسام** «سيئات السلطان في ميزان وزيره» وهي قولة يمكن إعادة صياغتها بصدد المصادرة هكذا: «ثمرات سيئات القائد في ميزان سلطانه.»

(129) توحي رسالة من السلطان إلى ق. بنحد السادني بهذا المعنى ولو أنها تتعلق بأمين وليس بقائد. فالسلطان يجيب القائد الذي أخبره بأن الأمين تسلم واجب السخاري وتقاعد عليه بـ«حيث لم يبق عليهم شيء وعُمِّرت ذمة الأمين بذلك سهُل الخطب»، انظر كناش 364، ص. 30 – 1885/1302.

أن نُوجل [كذا] عليك ثلاثة أيام حتى تشتاور [كذا] مع نفسك في إخراج مال السلطان وإلا قطع رأسك وإن أنت أخرجت بيت المال الذي عندك يؤمن عليك السلطان ويترك لك عشرة قناطير تعيش بها مع أولادك ويترك لك الأملاك التي بالرباط وإن لم تخرجه فأبشر بعقاب شديد»[130].

سادسا نهاية مدة القائد

لا نستطيع الجزم أن المصادرة كانت تتلو وفاة أو عزل كل أو حتى جل القواد ما دمنا لا نتوفر على الكفاية من الحالات العينية سواء في المستوى الأفقي في فترة واحدة أو على صعيد المدة الطويلة.

ولعل الوفاة في منصب القيادة وفاة طبيعية عن رضى من السلطان، من الحالات التي لم تكن تقود إلى المصادرة إذ غالبا ما كانت القيادة تستمر في نفس الأسرة. أما إذا كان العكس فإن «متروك» القائد يؤول إلى المخزن. ونتوفر على لوائح مضبوطة بمتروك بعض قواد بني سادن، أو بعض الوِصفان. الذين حكموا قبائل ايناون[131].

بيد أن نهاية مدة القائد لم تكن تحصل بالوفاة فقط، ولاسيما ابتداء من ثمانينيات القرن الماضي، حيث نزع المخزن إلى تقليص مدة القواد بعد أن كان العهد المحمدي السابق قد قلّص من حقل نفوذهم الجغرافي والبشري.

ثمة شواهد كثيرة حول عدد من القواد قضوا نهاية حياتهم في الكبل، بعد أن صودر ما ابتزّوه من محكوميهم، حتى أنه نادرا مَا لَا تحكي قبيلة ما، قصة أحد القوادِ الذين توجهوا إلى الحاضرة بالهدية في عيد من الأعياد فلم يعودُوا بعدها[132].

ولعل سجن القواد، أو تغريبهم على الأقل، كان قد أصبح من المعتاد في نهاية القرن 19م إلى درجة أنه كان ثمة «حنطة» بالبلاط السلطاني، تدعى «القواد

---

(130) الضعيف، و. 257 ظ. وكان القائد المذكور، وهو ابن الغازي الشاوي، «قد طالت حكومته على الشاوية أخذ فيها سبعة عشر سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما». ن.م، و. 258 و.

(131) يتعلق الأمر بمتروك ابن حدو السادني (1897/1315)؛ وهذا عنوان إحدى قوائم «المتروك» «بيان الذي بقي مما خلفه أبينا [كذا] المرحوم فرجي (...) وأخذ منه ما أرد [كذا] سيدنا (...) في 28 جماد 1874/1291.

(132) رواية شفوية خاصة (بني وراين)، انظر أيضا حالة الحياينة الآتية، وR. JAMOUS عن قبائل الريف...

المعزولين» ولهم مهام يقومون بها ضمن مسخري البلاط[133]. وربما كان الرمي بالقواد في المعتقل يكثر إبان استلام السلاطين الجدد للسلطة، وذلك لعدد من الاعتبارات، ليس أقلها شأنا الحصول على هدايا التعيين، فضلا عن رغبة المخزن الجديد في الإعتماد على زبائن جدد خاصين به.

هل هذا يعني أن الوفاة أو السجن هما المخرجان الضروريان لمدة حكم القائد المخزني بإيناون في القرن الماضي؟ ثمة مخرج قد لا يخطر بالبال، لكنه ينسجم مع منطق المصادرة الذي وقع الإلحاح عليه أعلاه. فقد كان من القواد من يتحول من التمثيل المحلي للسلطة المركزية إلى موقع تزعم التصادم معها، وهو ما يؤيد ما لاحظناه سابقا من تناقض وازدواج في منصب القائد. وقد تعددت هذه الظاهرة بايناون في نهاية العهد الحسني نظرا لارتفاع نسبة عزل القواد فيها: فلما عُزل القائد ولد الهلالي، صار «يكتب بطابعه لإخوانه وغيرهم البراءة من جميع الكلف وصار هو وأولاده وإخوانه يترصدون الناس بالطرق ويقتلونهم ويأخذون أمتعتهم»[134]..

مهما يكن فإنه من المرجح جدا أن يكون القواد الذين أنهوا مدة قيادتهم ثم عاشوا بقية حياتهم في تقاعد هادىء، من باب العملة النادرة. والواقع أن القواد باعتبارهم من أعيان الأسر ذات النفوذ المحلي المتسع، لم يكن لهم في منطق المخزن المُمركِز إلا أن يكونوا في القيادة، أي ضمن الاستراتيجية المخزنية، أو خارج حقل نفوذهم الطبيعي، أي بالسجن أو مع القواد المعزولين، وهي وضعية الرهينة على حد سواء.

هذا هو ما قد يوضح مفارقة لمسناها مرات عبر مراجعة الأسماء التي تبرز في قيادة قبائل ايناون: فقد يعتقل القائد دون أن تخرج القيادة من أسرته الواسعة. وقد يعتقل الأب فيموت في السجن ويُقيَّد الإبن بعده (أسرة الأشهب التخيلي مثلا). وهذا أيضا ما قد يوضح ما أشرنا إليه كذلك في مفارقة ثانية تتمثل في كون «الخدمة» و«الخوض» كانا يُصادَفان ضمن نفس الأسر إن لم نقل أحيانا عند نفس الشخص كما عرضنا في حالة الهلالي...

(133) ورد في ر.م.غ.م. من السلطان إلى أخيه المولى عثمان بمراكش بتاريخ 15 محرم 1875/1292: «فبوصوله إليك سرح محمد بن سلام العمراني الحياني واتركه هناك من جملة القواد المعزولين».

(134) كناش 707، ص. 69. ربيع 2. 1892/1310. القائد يستعمل حالة عزله وسائل المخزن (الطابع) ضده.

هل في هذه التبعية المعقدة من طرف أعيان قبائل ايناون، ولاسيما منها الحياينة، بني سادن، وتسول، للمخزن المركزي أحد أسرار عدم بروز ظاهر القائدية كما كان الأمر بالجنوب؟ ليس في مستطاعنا ولا في نيتنا الفصل في مثل هذا السؤال قبل مزيد بحث. بيد أننا نعتقد أنه من المفيد التأكيد على حالة خاصة، قبل إنهاء الحديث عن القواد بايناون، وتلك الحالة كفيلة بالإسهام في المناقشة حول السؤال المطروح أعلاه، ونعني بها حالة الاستثناء التي عاشتها قبيلة الحياينة فيما بين 1884/1302 و1889/1307.

3 ـ حالة الاستثناء القائد المخزني

أشرنا في مطلع حديثنا عن قواد القبيلة إلى أنه كان بالإمكان أن يكونوا من القبيلة نفسها وهو الأغلب، وكان بالإمكان أن يكونوا مُعَيّنين من أعلى، من طرف المركز المخزني. وإذا كانت هذه الحالة تعني بالأساس القبائل التي كانت خاضعة للمخزن، كالحياينة، البرانس أو مكناسة، فإن تعيين قائد مخزني كان ولاشك يحدث كرد فعل مركزي ضد أوضاع محلية في غير صالح المخزن[135].

ما هو سياق إحداث الاستثناء بالحياينة؟

أول رسالة تذكر تبعية كل القبيلة الحياينة للقائد العربي ولد ابّ محمد الشركَي، تعود إلى 24 ربيع 2 10/1302 فبراير 1885، وتشير إلى فرح «القبيلة عند تولية عاملهم عليهم»[136]. وقبل العودة إلى الفرح أو عدمه لابد من ملاحظة أن هذا التعيين كان يعاكس اتجاه السياق العام الذي حدث فيه. فقد سبقت الإشارة إلى أن النصف الثاني من القرن 19م عرف حرَكة تعديد في القيادات، تعمقت وترسخت في الفترة المتأخرة من العهد الحسني. وكان تعيين الأمناء والأشياخ بمثابة التتويج لهذه الحرَكة.

---

(135) ثمة حالة متأخرة، ولاشك، ولكنها تسير في نفس اتجاه ما نقترحه: نعثر في الكناش 199 على رسالة موجهة لعبد الكريم ولد ابّ محمد الشركَي: «وبعد فقد بلغ علمنا الشريف أن هوارة الحجر كثر فسادهم وإضرارهم بجوارهم ونهبهم لأموال الناس ظلما وتعديا وخروجهم عن الجادة والاستقامة واقتضى نظرنا الشريف توليتك عليهم لتقوم على ساق في حسم مادة ما هم عليه من الفساد وتسعى فيما يردهم للجادة بسيرة تُراد منك وتُستحسن وسياسة تنفي اضطرابهم» ـ 15 رمضان 1897/1314.

(136) من السلطان إلى الشيخ الحارثي العمراني ـ كناش 360، ص. 242. وعن ولد ابّ محمد، انظر ابن زيدان (م.س)، ج 2، ص. 194 و264، وينعته بـ«كبير محلة الغرب».

بيد أن حالة الحياينة تبرز مسارا معكوسا بالضبط: ففي نفس مناسبة تعيين الأمناء والأشياخ، وفي إطار غير مستقل عن عملية ترتيب 1302، ثم تعيين ولد أبّ محمد باشا فاس، عاملا على كافة الحياينة. وفي ظروف متشابهة، ثم تعيين قائد تازة عبد الله الزراري على مكناسة، ثم قائد فاس الجديد سعيد بن فرجي قائدا على هوارة الحجر والوطا(137).

تدل هذه الحالات على أن مصير الحياينة لم يكن استثناء إلى درجة كبيرة. ويمكن التساؤل: ألم تكن حالة الحياينة تدخل في نطاق حركة أوسع، ربما كانت تستهذف ضمان حظوظ النجاح لتنصيب الأمناء والأشياخ المعينين، عن طريق إتّباع جهات واسعة من القبائل السهلية والمحيطة بالحواضر بالأساس، لقواد مخزنيين لن يُمانعوا في تنصيبهم كما قد يُتوقع من قواد قبَليين(138)؟ بيد أن الجواب إيجابا أو سلبا يستلزم كثيرا من التحفظ ما دامت هذه الملاحظة المعتمدة على مثال ايناون لم تتأكد بأمثلة أخرى، بضواحي الحواضر الأخرى، ولاسيما، ما دمنا لم نعرف واقع الحوز على هذا المستوى، وقتئذ.

على أن السياق المحلي الإيناوني الذي تم فيه اللجوء إلى هذه التعيينات المخزنية، يؤيد التفكير في مِثْل هذا الاتجاه. فقد تعددت أخبار التجاوزات التي ارتكبها قواد الحياينة في سنتي 1300-1301/1882-1883، مثل القبض والجباية ثم عدم دفع المقبوض للمخزن(139). وقد تأخرت جهات واسعة من القبيلة في أداء الواجبات والأعشار لمدة تتراوح بين ثلاث وأربع سنوات، في سجلات المخزن، في حين كان عدد منها قد دَفع لقائده نصيبه دون أن يحصل منه على الإيصال اللازم في هذه الحالة وهو «النهاية»(140). ولاشك أن عمال الحياينة أعلنوا المواجهة الواضحة مع المخزن حينما

---

(137) على التوالي: كناش 360، ص. 242، ثم 215، ور.م.غ.م من السلطان إلى سعيد بن فرجي بتاريخ 9 صفر 1303/1885 - ولعل ما يثير الانتباه في هذه التعيينات هو «منطق التخطي» (J. BERQUE) الكامن فيها بن فرجي يقفز على الحياينة ليحكم هوارة مثلا، فتكون «إيالته» كطرفي الكماشة بالنسبة لإيالة ولد ابّ محمد.

(138) عن موقف القواد القبليين من الترتيب انظر التوزاني (م.س)، ص. 158.

(139) ورد في مسودة رسالة إلى ولد اب محمد: م.غ.م. 22 محرم 1301/1883: «وأنك وجهت من يبحث عما يفعله عمال الحياينة في قبض الواجب والوظائف من إيالتهم خفية».

(140) ر.م.غ.م. من عبد الله الزراري إلى السلطان 16 محرم 1301/1883، ومن العرب ولد ابّ محمد بتاريخ 27 ربيع 1 1301/1883. ثم كناش 348، ص. 72

وقفوا موقفا معارضا من الترتيب[141].

لعل هذا السياق المحلي، مضافا إلى السياق العام، هو ما برر في رأي المركز الحالة الاستثنائية التي فرضها على الحياينة خلال خمس سنين. ماذا كان موقف السكان من هذا الإجراء؟ في غياب وثيقة صريحة في الموضوع لا نجد مبررا لوضع الرسالة المخبرة بفرح السكان بهذا التعيين موضع شك كبير، ولو أن فحواها قد لا يحيل على أكثر من تعبير بروتوكولي. بيد أن هذه الفرحة ربما كانت حقيقية[142]، إذ أن قبض الجباية خفية من المركز، وعدم تسليم إيصالات المقبوض، وتأخير الأداء للمركز، كلها أعمال كانت تؤدي إلى الاغتناء السريع بالنسبة للقائد، والأداء المضاعف بالنسبة للسكان، إذ أن المركز، وبالرغم من مصادرته بين الحين والآخر لما يحتجنه هذا العامل أو ذاك من مال، كان يظل يطالبهم بما لم يقبضه برسم الجباية المخزنية.

مهما يكن، فإن كان ثمة فرح فإنه لم يدم طويلا بعد مصادرة العمال السابقين المعزولين الذين وقع اعتقالهم وتغريبهم إلى مراكش[143]. جاء في ملخص جواب إلى الخليفة المولى اسماعيل بفاس: «وصل كتابك على ما كتب لك به أمين وشيخ أولاد تخيل من امتناع إخوانهم من أداء هدية العيد بسبب وسوسة إخوان دحمان المقبوض (...) فقد أصدرنا أمرنا (...) لعاملهم بإجراء الأحكام عليهم»[144]. تثبت هذه الرسالة أن علامات الرفض ضد القائد الجديد أخذت تبرز منذ نهاية سنته الأولى، واتخذت شكل الامتناع عن أداء الضريبة، ثم عرقلة استفادة المخزن من الأراضي التي صادرها من القواد المقبوض عليهم. بل إن بعض الأمناء والأشياخ شرعوا

(141) كناش 360، ص. 75 و113.

(142) وحتى نتصور مدى إجحاف بعض قواد الحياينة قبيل 1302 لنقرأ في كناش 353، ص. 94 جوابا على القائد الحسن بن العربي الهلالي الذي كان قد اقترح بيع أملاك من يفر من أداء الضريبة «وصل كتابك طالبا إذْنَنا (...) لك في بيع أملاك الفُرّار فصار بالبال وعليه فذلك لَا صلاح فيه بل تُتبِّعه يفضي إلى الخراب (...) وتشتيت القبيلة (...) ومهما وقع ذلك في الإيالة ءال إلى الانقراض لا محالة فحينئذ على من تحكم وإلى من تأوي وعلى من ترسم والحاصل أخِّر ذلك حتى نكون هنالك فنعالج أمرهم». 14 شعبان 1883/1300.

(143) كناش 371، ص. 10: تشفع الأمناء في القائد الجعفري الموجود بسجن مصباح. وحول مصادرة القواد القدماء: انظر كناشي 360، ص. 247 و275، حيث يظهر أهل القائد القديم أثناء تهريب ما خف أو تحرك من أمواله اتقاء للمصادرة.

(144) كناش 364، ص. 233. 26 حجة 1884/1302، أي أقل من سنة بعد تعيين ولد ابّ محمد.

في المطالبة بتسريح بعض القواد المقبوضين[145]. وقد وجدت هذه الحرَكة تتويجها في التجاء القبيلة إلى المؤسسات القبلية النقيضة للمخزن، مثل «اتخاذ شيخ الربيع»، ولاسيما في أطراف القبيلة المحادية لغياثة وبني وراين[146].

هل يحق الاستغراب من رد فعل الحياينة، حينما نعلم أن هذا التعيين كما سوف نؤكده بصدد الجباية، كان مصحوبا بالزيادة في حجم بعض أنواع الضريبة المعتادة؟ فقد أتى «الترتيب» بمضاعفة «الهدية» بالنسبة للحياينة بثلاث مرات، معوضا الثلاثمائة ريال القديمة بتسعمائة[147].

ثم إن العامل الجديد متغيب يعيش في المدينة، ويكتفي بتعيين خلائف لا يستطيع مراقبة ممارساتهم التي تتحول بسرعة إلى استبداد واضح، تعددت رسائل الأمناء والأشياخ في شأنه، وأصبحت طوابعهم أسفل الرسائل الاحتجاجية تتزايد حتى وجدنا رسالة 9 ربيع 1 1306/نونبر 1888، تضم ما لا يقل عن اِثنين وعشرين طابعا، وتشكل عريضة احتجاجية بكل ما يؤاخذه الأمناء والأشياخ على هذا العامل المخزني (انظر الصورة المرفقة).

لعل كثرة التظلّمات هذه، قادت السلطان إلى عزل ولد أبّ محمد (1306/1889) وتعويضه بقائد مخزني آخر هو علال بن الشليّح، الذي لم يدم نفوذه بدوره بالقبيلة أزيد من سنة[148]. فقد عبرت القبيلة عن عدم رضاها برفض جمع المؤنة في الأماكن التي كانت قد عُينت لها استعدادا لمحلة السلطان إلى طنجة في صيف 1889[149]. وكثرت الشكايات من عسف القائد الجديد[150].

ولا نتوفر على معلومات مضبوطة عن الظروف والكيفية التي قرر فيها وبها السلطان إعادة تمثيله المحلي بالحياينة إلى ما كان عليه قبل 1302، أي بواسطة قواد قبليين، ولكننا ابتداء من ربيع الثاني 1889/1307 نعثر على رسائل تخاطب من

---

(145) كناش 364، ص. 232، 152؛ كناش 371، ص. 10.
(146) كناش 371، ص. 18.
(147) كناش 360، ص. 208. وذلك على العكس مما عند التوزاني. انظر: (م.س)، ص. 172.
(148) كناش 154، ض. 70 (شعبان 1306/أبريل 1889).
(149) ن.م، ص. 147.
(150) ر.م.غ.م من الأمين محمد بن الطاهر الحياني والشيخ معه إلى السلطان. 6 شوال 1889/1306.

وثيقة 2 عريضة احتجاج الأمناء والأشياخ

جديد «كافة قواد الحياينة» ونعلم بالتدريج أن هؤلاء العمال هم فعلا من القبيلة[151].

ما الذي يمكن استنتاجه من هذه الحالة التي لا يستبعد أن تكون لها مثيلات قد تكشف عنها أبحاث أخرى؟ هل كان تعيين القواد المخزنيين يدخل في سياق عملية تستهدف شد ضواحي المدن الثرية بكيفية أوثف إلى المركز المخزني؟ مما قد يؤيد التفكير في هذا الإتجاه أن تعيين الأمناء والأشياخ بالبوادي كان موضوعا من طرف المخزن في إطار مجهوداته التركيزية، كما سنقوله. ثم من جهة أخرى، هل يمكن اعتبار تعيين هؤلاء القواد المخزنيين من العناصر التي قد تفسر غياب ظاهرة «القائدية» (Pascon) التي تطورت بحوز مراكش؟[152].

مهما يكن فإن فشل القواد المخزنيين بالحياينة يدل على اصطدام القوى المركزية بقوى محلية ما تزال تتمتع بحيوية كبيرة، وتشكل سلطة مضادة تستطيع أن تقاوم بنجاح بعض مبادرات المركز المخزني. ومن باب المفارقة أن القوة التي وقفت في وجه القواد المخزنيين، قوة جديدة، كانت تحظى بحماية السلطان، وهي مجموعة الأشياخ والأمناء. بيد أن صبغة المفارقة تزول حينما نعلم أن هؤلاء الأمناء والأشياخ إنما عُيِّنوا أصلا من أعيان القبيلة الذين رأيناهم يتزعمون النفوذ المحلي منذ مدة.

ب ـ الأشياخ والأمناء الإصلاح الإداري الذي لم يتحقق

إلى غاية 1883/1301 لا يظهر بأسفل الرسائل الواردة على المركز السلطاني سوى طوابع متوسطة الحجم دائرية الشكل، حلت مشكل التوقيع بالنسبة لجل أصحابها القليلي أو العديمي المعرفة بالكتابة: تلك كانت طوابع القواد.

فجأة، تظهر، ثم تكثر بسرعة بادية، طوابع من صنف جديد، أضيق مساحة، وذات شكل مستطيل، مثمن الأضلاع: تلك طوابع الأشياخ المعينين والأمناء[153] الذين مثلوا عصب الإصلاح الإداري الذي سعى إلى تحقيقه السلطان الحسن. وقد آن لنا أن ندقق النظر في مسألة تعيين الأشياخ والأمناء بايناون، متوخين من ذلك

(151) كناش 162، ص. 45. وعن أسماء القواد انظر الجدول السابق، ص. 254.

(152) من الجدير بالانتباه أن الفترة التي يحددها PASCON لتبلور ظاهرة القائدية بالجنوب متقاربة مع الفترة التي عين فيها قواد مخزنيون بالحياينة. انظر PASCON م.س، ص ص. 306-313.

(153) عن الأمناء والأشياخ، انظر التوزاني (م.س)، وإن كانت المؤلفة كما سنراه ذويت واقع الأشياخ في نموذج الأمناء بصفة عامة.

استنطاق هذا النموذج عن فشل المبادرة برمتها وعن التناقضات التي صحبتها منذ انطلاقها.

من أجل ذلك لابد من التساؤل عن واقع السلطة المحلية المتصلة مباشرة بسكان البوادي، أو بمعنى آخر، عما هي السلط التي كانت تدعم سلطة القائد قبل تعيين الأمناء والأشياخ؟ ولما عُيِّن هؤلاء ماذا كانت علاقتهم مع أصحاب تلك السلط؟ ألم يحدث تداخل أو نزاع بين مختلف هذه القوى؟ وماذا كانت وظائف ومهام الجهاز الجديد وما هي أهميته بالنسبة للسكان؟ ثم لماذا آلت هذه المبادرة إلى الفشل؟ أسئلة كثيرة سوف نحاول أن نمحور بعض الأجوبة عنها حول الخطوط الرئيسية: ما قبل الإصلاح، جوانب الإصلاح، أهميته وفشله.

1 ـ ما قبل الإصلاح أشياخ القائد

إن معلوماتنا عن مؤسسات السلطة بالبادية وعمن يشغلها قبل إصلاح الأمناء والأشياخ محدودة لا تمكننا دائما من معرفة مضبوطة لمن كان يتقاسم النفوذ مع القائد على صعيد القبيلة. نصادف في أوصاف بعض الملاحظين الذين عاينوا التنظيم المخزني المحلي، قبل حدوث هذا الإصلاح، أن القائد كان يستعين بعدد من الأعوان:

ـ الخليفة وهو إما ولده أو أخوه.

ـ الجرّاي (الجاري) وهو الذي كما يدل على ذلك اسمه كان يقوم بكل عمل يتطلب «الجري»، بمعنى التنقل من بيت إلى آخر: نقل خبر، أو استدعاء، أو طلب إلخ... ويبدو أيضا أن الجراي هذا هو الذي كان يقوم بجمع الجبايات لفائدة القائد.

ـ الأشياخ، الذين كان القائد يعينهم كلما عبرت جماعة عن رغبتها في توفرها على شيخ، دون أن نستطيع معرفة الكيفية أو الشروط التي كان يتم فيها ذلك التعيين.

ـ مجموعة من «الأصحاب»، أي مختلف أنواع الزبناء والرعاة والخماسين الذين كانوا ينقلبون إلى فرقة مسلحة خاصة كلما استدعى أمر من الأمور من القائد استعمال العنف المباشر للبث فيه(154).

سوف نميز من هذه الشبكة من الأعوان منصب الأشياخ لأنه ولاشك،

(154) ERCKMANN (م.س)، ص ص. 119–122. انظر أيضا ما أورده أ. التوفيق في هذا الباب (م.س)، ص ص. 473–474.

المستوى الذي يعكس تكون السلطة بكيفية طبيعية على الصعيد المحلي، بحيث أن تعيين القائد للشيخ لا يكون في الغالب سوى تزكية لأمر واقع. ومن الجائز افتراض أن القواد القبليين أنفسهم لم يعدوا أن يكونوا أشياخا لفرق فرضت نفسها على بقية الفرق، فأصبح أشياخها على علاقة مباشرة مع السلطان وسُمُّوا قوادا.

لاشك أن هؤلاء الأشياخ كانوا يساعدون القائد في إجراء الأحكام بجماعاتهم، سواء تعلق الأمر بكل ما يربط تلك الجماعة ببقية القبيلة أو بقبائل أخرى (كشؤون الحرب والسلم، أو اقتسام المجال أو توزيع الجباية والتسخير إلخ) أو بما يعني التعايش داخل الجماعة، وهو الشيء الذي كان يخضع لعوائد وأعراف معمول بها منذ عهود غابرة(155).

ولعل ما يدل على استمرار حيوية الزعامة المحلية التي تنبع من المجموعة ظهور «شيخ الربيع» بين الحين والآخر عند قبائل ايناون، أوردنا منه نماذج فيما سبق. وتدل بعض الشواهد أن بعض هؤلاء الزعماء الذين كانوا يفرضون أنفسهم أشياخا على القواد المتعاقبين كانوا يدومون مدة طويلة في مشيختهم كما نستفيده من تبليغ أحد الأمناء المُعَيَّنين عن واحد من أولائك الأشياخ «إن الطيب بن عبد الله الجهاني (...) كان يتولى مع قواد الحياينة منذ أيام أسلافك المقدسين سيدنا ومولانا عبد الرحمن ومن بعد المقدس الإمام سيدي محمد والآن مع عمالك حتى أدرك مالاً شتى...»(156).

وقد استمر نفوذ هؤلاء الأشياخ حتى عندما عين المركز المخزني أشياخه فنجد الرسائل المخزنية تميز بتدقيق، ولاسيما في سنوات 1885/1884 بين «أشياخ الأحكام»، أو «أشياخ القائد» وهم الأشياخ الأقدمون و«أشياخ المخزن» أو «الأشياخ المعينين» وهم الجدد.

---

(155) لم نعثر بالنسبة لقبائل ايناون على أعراف مكتوبة عدا ما سجله TURBET.
TURBET, Lt. — «Le droit coutumier des Béni Ouarain Cheraga (Région de Taza)», **Revue Alg. Tunis. et Maroc. de Législation et de Jurisprudence**, 1931: 97-110; 218-226; 253-259; 1932: pp. 115-140; 223-232: 267-74.

(156) ر.م.غ.م. من عبد السلام بن بوبكر العماري إلى السلطان بتاريخ 9 ربيع 1 1884/1302 ويضيف أنه اكتسب من وظيفته أموالا هامة وأجنّة وعقارات، وتنتهي الرسالة كما هو منطقي بالدعوة إلى المصادرة.

2 ـ جوانب إصلاح الأمناء والأشياخ المعينين

لم يكن توزيع السلطة المحلية على الصفة الآنفة يزعج السلطة المركزية بما كان يؤدى إليه من تجاوزات القواد فحسب، بل ربما وبصفة أخص، بما كان يمثله القائد من حاجز جدي أمام إشعاع وتجذر السلطة المركزية بالبوادي سواء في مستوى الجباية، حيث يؤول استبداد القائد إلى تقليص إيراداتها، ولو أنها تعوض عن ذلك بواسطة المصادرة، أو في مستوى معرفة ما يجرى بالبادية من أمور.

وقد كانت غيرة المركز على الجانب الجبائي مفهومة، ليس فقط في إطار الاحتياج المخزني الكبير إلى الأموال في القرن 19م (من ما تتطلبه حياة البلاط أو شراء المدفع حتى ما يحتاج إليه غرم الديون الفعلية أو الوهمية) بل كذلك في إطار محاولة المخزن الإنفراد بفوائد المجابي حتى يقطع الطريق على تجذر قوى محلية قادرة على منافسته.

ولم تكن غيرة المركز على الأخبار بأقل من غيرته على الأموال. وتظهر معرفته للأحوال المحلية، في عدد من الأحيان، كإحدى الوسائط الأساسية لإبراز قوته. لذلك كان تعيين الأشياخ والأمناء موجها ضد القواد بالأساس، ويستهدف تدعيم نفوذ المركز، عن طريق مزيد من موارد الجباية ومن معرفة بالأحوال المحلية، تلك المعرفة التي كانت قد أصبحت في النصف الثاني من القرن الماضي، هي أيضا، من الرهانات اليومية بين المخزن والأجانب(157).

وقد أبرز بحث حديث حول الأمناء شِقا واحدا من العملية التي عين السلطان الحسن خلالها أشياخا وأمناء بالبوادي، والتي سميت بـ «ترتيب 1884»، وهذا الشق هو جانب «الأمناء» بالذات، إذ لم يتبين البحث المذكور «من خلال الوثائق فرقا أساسيا بين الأمناء والشيوخ»(158). بيد أن ما استجد من الوثائق يفيد بما يفرض ضرورة مراجعة مثل هذه التقريرات. فقد كانت عملية تعيين الأشياخ والأمناء مبادرة متعددة الغايات، ليس الجانب المالي سوى واحد منها. ثم إن هذا التعيين لم ينسخ ما سبقه من أطر للسلطة المحلية كما قد نتخيله، بل وجدناه يتكيف معها على العادة

(157) انظر مثلا رحلة السلطان الحسن الأول إلى سوس.

(158) التوزاني (م.س)، ص. 154. وبنفس الكيفية تقرر المؤلفة أن «الشيوخ التقليديين لم يعد لهم دور في تدبير شؤون القبيلة».

المخزنية، ولعل هذا بالذات أحد تناقضات العملية برمتها والتي آلت بها في النهاية إلى الفشل.

ما هو اختلاف الأمناء والأشياخ «المعينين» مع الأشياخ «القدماء»، أشياخ القائد أو الأحكام(159)؟ نستفيد ذلك الإختلاف بوضوح كبير من مسودة رسالة سلطانية موجهة إلى قائد دكالي، ولكن فحواها كان ولاشك، صالحا بالنسبة لكل القبائل التي عناها الترتيب بما في ذلك الحياينة وبني سادن مثلا، جاء فيها:

«وبعد وافا كتابك بمنع الشيخين والأمناء الجدد، الأشياخ الذين كانوا يخدمون معك قبل تولية هؤلاء من الوقوف في المصالح وتنضيد الأمور وذكرت أن الأشياخ القدماء الذين يخدمون مع عمال القبيلة الدكالية لا زالوا معهم وقد جلس أعيان إخوانك في خيامهم بسبب ذلك وصار بالبال أما الأشياخ الجدد فنتيجة عملهم ومقتضى توليتهم المصارفة والفرض وغير ذلك، وأما الأشياخ القدماء فقد أفرزناهم في الرتبة أشياخا على إخوانهم وأنهم كبراء فوقهم يتولون القبض منهم على مقتضى الترتيب الجديد ويدفعونه للأمناء وتكون مصارفتهم مع العامل كمصارفتهم معه قديما لكن على مقتضى الترتيب الجديد، نعم الفرق بينهم وبين الأشياخ المُعَيَّنين من قبلنا هو كون المُعينين يحضرون وقت الفرض مع الأمناء والعامل وهؤلاء لا يحضرون حتى يُعلِمهم العامل بالقدر الذي فرض ويأذن لهم في قبضه، والمُعَينون مأذون لهم في المصارفة مع جانبنا (...) والآخرون إنما يتصارفون مع العمال»(160).

إن هذه المسودة تحدد بوضوح دائرة وحدود نفوذ كل من الأشياخ القدماء والجدد

ـ الأشياخ الجدد، وهم المُعَينون، يحضرون ساعة «الفرض»، أي تقدير المجابي، سواء تعلق الأمر بالخرص أو عدّ الماشية أو توزيع كلفة... ثم إنهم «يتصارفون» مع المركز، أي أنهم يخبرونه بكل أحوال القبيلة، فيكونون بهذا المعنى عيْناً

(159) ما هي العلاقة بين «شيخ الأحكام» و«آنحكام» التي يحيل عليها مخبري من بني ورايين؟ ويعني مخبري زعامة قبيلة لا علاقة لها بالمنظومة المخزنية، في حين كان شيخ الأحكام يتبع لقائد وافق عليه المخزن. هنا أيضا قد نلمس انتقالا لاسم مؤسسة أو للمؤسسة ذاتها من المستوى القبلي إلى المستوى المتمفصل مع المركز.

(160) من السلطان إلى القائد بوشعيب بن الرامي الفرجي ـ 2 شوال 1884/1301. ر.م.غ.م.

رقيبة للمركز على مجريات الأمور المحلية ــ فموقعهم إذا كان موقع «المستشار» و«المخبر» في نفس الوقت.

ــ الأشياخ القدماء احتفظوا بموقع التنفيذ ومن هذا الباب صدقت تسميتهم بأشياخ «الأحكام». فهم الذين يستوفون المقادير المحددة قبل تسليمها للأمين، الذي يسلمها بدوره للقائد. ثم إن الأشياخ القدماء لا يتعاملون إلا مع القائد، في شأن ما يتعلق بإجراء الأحكام المخزنية أو بحياة القبيلة الخاصة[161].

وإذا كانت هذه الوثيقة تثبت أن المركز قد زكى أشياخ القبائل السابقين في مهامهم، على العكس مما قيل، وبالرغم من كون هذه التعيينات الجديدة، كانت لابد وأن تنقص من مدى نفوذهم، فإنها تثبت أيضا أن للأشياخ الجدد دوراً خاصا بهم، وإن كان ذلك الدور يبدو محدودا في الحضور بالقياس إلى الأشياخ القدماء الذين «يقبضون» والأمناء الذين «يتسلمون» ما يجبى أو يوظف.

وتدل هذه الوثيقة أيضا على أنه إذا كان للمخزن المركزي بعض الوضوح في ضرورة تواجد مؤسستين تحملان نفس التسمية ولا تختلفان سوى في الصفة (شيخ مخزني أو شيخ القائد)، فإن تنصيب الأشياخ الجدد والأمناء كما تفصح عنه الوثيقة ذاتها قد أدى إلى منازعات ومطارحات لم تحتفظ لنا منها الوثائق، ولاشك، سوى بالجزء اليسير، إذ الأمر كان يتعلق برهان خطير هو تقاسم السلطة على الصعيد المحلي.

ذاك ما نستفيده من ملخص رسالة إلى عبد الله بن أحمد الذي كان قد عُيِّن عاملا على زرهون: «وصل جوابك عما أصدرناه لك فيما تضرروا [كذا] به الأمناء والأشياخ المُعَينين من أشياخ الأحكام وأنك أمعنت النظر في حسم مادة كثرة الكلام (...) وغاية ما أدركته في الجملة هو الانعقاد على أن كل ما يعرض في كل مدشر من القضايا المهمة التي تستدعي الكتب إليك لا تعمل فيها إلا إذا كان مختوما بشكل أحد عدول المدشر الصادر منه شاهدا به على شيخ الأحكام مع طابع أمين

(161) في ملخص جواب على أمناء وأشياخ الحياينة، مؤرخ بـ 26 جمادى 1 1891/1309، يستفسر السلطان هؤلاء عما إذا كان الشيخ الذي أخّره القائد ابن الخياط الحياني «من أشياخ المخزن أو من أشياخ العامل ليظهر». كناش 657، ص. 159. مما يدل على أن التمييز بين المؤسستين والتعايش بينهما، أو على الأقل تواجدهما ظل مستمرا إلى نهاية الفترة الحسنية.

الترتيب بذلك (...) فلا بأس بذلك إرضاء لهم حتى يظهر أمرهم»[162].

تبدو، من خلال هذه الرسالة، كل الصعوبة التي كان يجدها المخزن المركزي في تبيّن الطرف المصيب في المحاجّات التي كانت تعرض عليه، حتى أنه يحاول أن «يرضي» كل الأطراف في آن واحد.

بيد أننا نتوفر على رسالة تتعلق بالحياينة، هذه المرة، وتبرز من جهة، أن المنازعات لم تقم بين الأشياخ القدماء والجدد فقط بل بين الأشياخ الجدد والأمناء كذلك، وتبرز أيضا أن المصالح المخزنية المركزية ذاتها، لم تتحلّ دائما بنفس الوضوح الذهني الذي تفصح عنه الرسالة الموجهة إلى القائد الدكالي أعلاه، في شأن التمييز الدقيق بين الأشياخ القدماء والجدد.

ولعل كثرة الحجاج التي خلفها تعيين الأمناء والأشياخ، مسؤولة عن تشوش الرؤية المركزية ذاتها. ولعل هذا التشوش أحد العلامات على ما كانت المبادرة بأكملها تحمله من إلتباس منذ البداية على الأقل فيما يتعلق بالأشياخ. جاء في الرسالة الموجهة إلى ولد أبّ محمد:

«وبعد، فقد أخبر أشياخ أولاد عمران من الحياينة أنه وقعت بينهم وبين المُعَيّنين من الأمناء مخالفة فيما يكون عليه عمل كل وما يختص به كل فريق منهم فأجبناهم بأن الذي في ظهائرنا (...) التي بأيديهم هو أن يحضروا على الفرض بأجمعهم لديك بعد الإذن لهم فيه وتوجيه قائمته لهم وتولية قبضه، وأنت تشد لهم العضد حتى يأتيهم كلّ بما عليه طبق ما في الفريضة وأن من لم يأتهم بما عليه يعلموك به من غير أن يتصرفوا في شيء وأن من تمام عملهم كلهم النظر في مصالح القبيلة وإعلامنا بما ظهر لهم فيها. من غير تنفيذ وكذلك بالضرر إن كان ويزيد الأشياخ على الأمناء بتنفيذ الأوامر بأمر كنيابة عنك حيث كنت ليس بين ظهرانيهم وإن ظهرت لك زيادة على الأشياخ لأجل جلب المصالح أو دفع المضار فلا مانع...»[163].

---

(162) كناش 364، ص. 117، شوال 1885/1302.

(163) كناش 364، ص. 111. 14 شوال 1885/1302. والواقع أن هذه الرسالة تنتهي بجملة أشكلت قراءتها بالرغم من الجهود المتكررة، وهو ما لم نتعوده من الرسالة المخزنية التي كأي نص منخرط في ممارسة السلطة، كان عليها أن تتوخى الوضوح قدر ما تستطيع. وها هي الجملة المشكِلة: ...فلا مانع إلا فيما يرجع لِمَا اختصصت به من الأحكام على غير إخوان الأشياخ الخاصين بهم الذين بحيث إن تكلموا معهم لم يبق لهم مع من يتكلمون».

وإذا كنا قد استعملنا عبارة تشوش الرؤية المركزية، بصدد هذه الرسالة فلأننا نشعر بالفارق الكبير بينها وبين مثيلتها الموجهة إلى دكالة. فلا ندري هنا أيتعلق الأمر بأشياخ الأحكام أم بأشياخ المخزن.

مهما يكن، فإن هذه المجادلة لم تكن نزاعا أجوف حول الاختصاص بقدر ما كانت صراعا حول تقاسم السلطة المحلية التي حاول المركز أن يعيد ترتيبها لصالحه، نحو تجذر أكبر. فلم يعد القائد أو أشياخ الأحكام ينفردون بإجراء الأحكام وقبض الجبايات إلخ.. بل أصبح القائد يحضر فقط للتقدير مع الأمين والشيخ المعين، ثم يتسلم ما تم تقديره أو توزيع تقديره (في حالة الكلف) من الأمين الذي يكون بدوره قد تسلمه من شيخ الأحكام. وهذا الأخير، الذي لم يحضر ساعة التقدير، هو الذي يقوم بالقبض المباشر. وكل عملية في هذه السلسلة كان يلزم أن تخلف أثرا مكتوبا يمكن الاحتجاج به عند الاقتضاء.

جماعة ⇠⋯ شيخ الأحكام ⇠⋯ أمين ⇠⋯ قائد ⇠⋯ المركز (تبين الخطوط اتجاه انتقال الأموال والمنتوجات والنقط اتجاه تسليم الإيصالات: «النهايات»)وكان من مسؤولية القائد أن يسلم ما اجتمع من مقبوض محكوميه إلى بيت المال إما رأسا بمناسبة الأعياد الثلاثة أو بمناسبة حضور الحركة الجبائية، التي يصحبها دائما أمين مكلف بذلك.

ونلاحظ من هذا التسلسل مدى تعديد محطات المراقبة التي كان السلطان يدأب على التكثير منها لكي يضمن التحكم في الجهاز برمته(164) وقد انتبه الملاحظون الأجانب الذين كانوا يرافقون السلطان إلى أن الاستفادة من عدم اتفاق القواد والأمناء كانت من أبرز وسائل مراقبة المخزن للحياة المحلية(165).

وقد كان السلطان يقف في الغالب إلى جانب الأمناء والأشياخ، في المواجهات التي تنشأ بينهم وبين القواد كما يرد بوضوح في ملخص جواب إلى الخليفة اسماعيل بفاس: «وصل كتابك طالبا بيان وجه العمل فيما يظهر في القضايا الدائرة

---

(164) ألم يُقل: قوة السلطان في عدم اتفاق خدامه؟ وهذا يستلزم التكثير منهم بالضرورة.

(165) A.M.G., Maroc, C. 6, Rapport Cauchemez, Janv. 1891.
ومن الملحوظ أن الوصف الذي يعطيه CAUCHEMEZ عن عملية القبض دقيق للغاية عدا أنه يقرر أن الأمين هو الذي يقوم بالقبض مباشرة من السكان.

بين العمال وبين الأمناء والأشياخ مما يوجب الحيرة في الحكم (...) فالغالب أن الصدق يكون مع الأمناء والأشياخ باعتبار كونهم على فطرتهم ولم تتقدم لهم دسائس الرياسة وكونهم جماعة لا يتفقون على ضلال...»(166).

ونشعر من خلال عدد من المراسلات أن السلطان كان يعامل جهاز الأمناء والأشياخ المُعَينين ضمن بقية الممثلين المحليين، معاملة أبوية خاصة، حتى أنه، حينما احتج لديه أمين مستفاد فاس، عبد السلام المقري، بعدم جدية أمناء وأشياخ الحياينة في أداء مستفاد أملاك القواد المعزولين. التمس لهم الأعذار في جوابه قائلا: «أما عدم حصولك معهم على طائل فقد عرفناه لأنهم لا زالوا لم يعرفوا طرق الخدمة ولا أدبها فلْيُساسوا وليُعرّفوا بها شيئا فشيئا حتى يستأنسوا فإن كل شيء بالتعلّم والتدريج»(167).

وما كان السلطان يولي كل تلك العنآية للأشياخ المعينين وأمناء القبائل إلا للاهداف الكبرى التي عقدها على تعيينهم

ـ تقوية مداخيل المركز عن طريق سحب احتكار عملية القبض من يد القواد، ثم عن طريق فرض الجباية على أساس ترابي وليس على أساس سلالي كما كان في السابق.

ـ معرفة ما يجرى على الصعيد المحلي بواسطة المراسلة المباشرة مع الأشياخ والأمناء سواء تعلق الأمر بتجاوزات القائد أم بأحوال القبيلة بصفة عامة(168).

ومما لاشك فيه أن جهاز الأمناء والأشياخ المُعَينين كان من العناصر التي أضعفت نفوذ القواد بالأراضي الخاضعة للمخزن. ولاشك أيضا، في أن القواد كانوا

---

(166) كناش 364، ص. 103، 11 شوال 1885/1302. بيد أنه من الواجب أن نضيف أن السلطان لا يلبث أن يقوم بالتحفظ المعهود في آخر الرسائل كما سبقت الإشارة: فيقول: «على أن البحث دافع لتلك الحيرة فمن وُجد معه الصدق سُمع له».

(167) ر.م.غ.م. من السلطان إلى الأمين ح. عبد السلام المقري: 23 جمادى 2 1886/1303. وقد تدفعنا مثل هذه الرسالة إلى الحديث عن طابع تربوي (بيداغوجي) للمركز بالنسبة لخدامه.

(168) يبدو أن المركز كان ينتظر من تعيين الأمناء والأشياخ، أن تصبح معرفته بشؤون البادية دقيقة بكيفية شبه مطلقة: ففي رسالة لأمناء وأشياخ أولاد عمران من الحياينة يأمرهم بتوجيه «قائمة الزائد والناقص عند رأس كل ثلاثة أشهر». وهو ما يوحي بمدى ما استهدفته العملية في أصلها من تركيز للسلطة المخزنية. كناش 364، ص. 91.

على وعي بما يؤدى إليه تنصيب هذا الجهاز الموازي، مما جعلهم في عدد من الأحيان يقفون موقف المعارضة منه، وقد مر بنا نموذج من ذلك في مثال قواد الحياينة، الذين افترضنا أن معارضتهم تلك، ربما كانت أحد أسباب اعتقالهم بالجملة سنة 1302/ 1884، وتعويضهم بقائد مخزني هو ولد أبّ محمد(169).

بيد أنه يحق لنا أن نتساءل هل أقام تأسيس هذا الجهاز من الأمناء والأشياخ المُعَينين الدليل على أن تعسف القواد من ذاتهم أم أن الجهاز الجديد انخرط بدوره في ممارسات تنسحب على المنظومة المخزنية برمتها.

صحيح أن تعيين الأمناء والأشياخ ولّد آمالا كبرى عند السكان الذين عبّروا عن استبشارهم بالكيفية الجديدة في قبض المجابي، وتقليص نفوذ القواد كما نستفيده من عدد من المراسلات، هذه واحدة منها: «أما بعد فقد حمدنا الله تعالى على ما خولنا وأعطانا من رحمتك التي عمتنا (...) ومن أجل ذلك اهتم القائد محمد من عدم رضاه بما يصدر من الأمر الشريف حتى صار يأخذ من القبيلة ويحبس على وجه التعدي..»(170).

غير أن شعلة الحماس ما لبثت أن انطفأت إذ تعددت الرسائل التي تشتكي من تعسفات الأمناء والشيوخ المعينين الجدد(171).

بل إن هذا الجهاز أصبح بالتدريج يتصرف تصرف الجسم المتماسك، ليس فقط ضد القائد المحلي كما رأيناه في حالة الحياينة ضد ولد أبّ محمد، بل كذلك ضد مصالح المخزن المركزي نفسه(172).

بذلك يكون جهاز الأشياخ والأمناء قد انضاف إلى سائر الأجهزة المحلية، ولم يفلح في التجذر كدعامة موثوقة من دعائم السلطة المركزية على الصعيد المحلي، وذلك

(169) انظر ص. 276 أعلاه.

(170) ر.م.غ.م. من أمناء وشيوخ بني يازغة إلى السلطان. 4 شعبان 1884/1301. ونقرأ في «ظهر» الرسالة التلخيص التالي: «أمناء بني يازغة ذكروا أن العامل مدّ يد الظلم في القبيلة (...) حيث انتظموا في سلك الترتيب السعيد ورُفع عنهم الظلم بسببه.».

(171) غيض من فيض: كناش 364، ص. 134، 28 شوال 1885/1302، كناش 154، ص. 77، 19 شعبان 1889/1306، كناش 657، ص. 257، 1 رجب 1892/1309 وكلها تتعلق بالحياينة.

(172) كناش 639، ص. 147: 11 جمادى 1 1890/1308: «اشتغال (...) الأمناء والأشياخ بالخوض والوسوسة في القبيلة والدخول فيما ليس من قبلهم». نموذج من أمثلة متعددة.

بالرغم من استمراره شكليا في تأدية بعض ما حدد له من مهام كالخرص، والإخبار...

3 ـ كيف يمكن تأويل هذا الفشل؟

لاحظنا بمعرض حديثنا عن تعيين القواد المخزنيين أنه بالإمكان القول إن المخزن كان يطبق «منطق التخطي» في تعييناته. ويمكن الاستفادة من نفس الملاحظة بصدد تعيين الأمناء والأشياخ. وقد استفدنا من الكناش 151، بالخزانة الحسنية، والذي يسجل لوائح تامة بأمناء وأشياخ قبائل أخرى، لوضع الجدول التالي:

جدول 18 الأشياخ والأمناء

القبيلة أو الفرقة	الأشياخ	الأمناء
أولاد عليان	8	9
أولاد رباب	8	7
أولاد عمران	8	10
المجموع	24	26
بني يازغة	6	7
هوارة الحجر والوطا	2	2
أسلاس	3	2
بني سادن	5	3(173)

لماذا ثمة عدم تطابق بين عدد الأمناء وعدد الأشياخ عند قبائل ايناون سنة 1889/1306، حسب ما يبرزه الجدول أعلاه؟ لو أن عدد الأمناء كان يفوق عدد الأشياخ باستمرار، لافترضنا أن ذلك يعود إلى كون الأمين قد يكون مكلفا بمهمة خاصة إلى جانب أمين آخر ضمن نفس الإيالة الواحدة التابعة للشيخ الواحد: كأنْ

(173) أوردت التوزاني (م.س)، ص. 155، جدولا يبرز فيه الأمناء بعدد أكثر باستمرار من عدد الشيوخ، وهو ما لوْ عمَّ، لما سمح بما نقترحه من تأويل أدناه، على أساس معطيات ما توفر لدينا حول ايناون، والتي تبقى مع ذلك جزئية.

يوجد أمين لمستفاد أملاك مخزنية وآخر لمستفاد سوق... إلخ وتلك كانت حالة الحياينة بعد أن صودرت أملاك قوادها سنة 1884 (174).

بيد أن جدول أمناء وأشياخ ايناون يظهر تغير الأعداد في الإتجاهين: فكما أن هناك إيالات ذات أمناء أكثر عددا من الأشياخ، ثمة أخرى يفوق عدد أشياخها عدد أمنائها. نفترض إذا أن هذه الظاهرة تعود إلى منطق التخطِّي والتعديد الذي أشرنا إليه سابقا. ونستنتج أنه لم تكن ثمة دائما مطابقة بين دوائر النفوذ بين الأمناء والأشياخ. ولعل الحالات المحتملة كانت تتلخص في ثلاث

- إيالة ذات أمين وشيخ.
- إيالة ذات أمينين وشيخ واحد.
- إيالة ذات أمين واحد وشيخين (175).

وينسجم هذا الاستنتاج وما لاحظناه سابقا حول الطرق المخزنية في المراقبة: تعديد المكلفين بالأمر الواحد، وعدم مطابقة دوائر الإختصاص المختلفة. ماذا كان أثر هذا التداخل على عدم المركزة التي افترضت في إحداث جهاز الأمناء والأشياخ المعينين؟

قد تحدثنا عن التخطي. والتخطي يبدو خير ما يبدو في قفز السلطان على القائد والإتصال المباشر مع الأمناء والقواد واتصال هؤلاء بدورهم به. هذا ما جعل المركزة لا تدور حول جهاز متسلسل بيروقراطي (بالمعنى الڤيبري) بقدر ما تدول حول المركز السلطاني أو السلطان ذاته، وبالتالي فإن هذا النوع من المركزية يتصف بهرمية خاصة: رأس ضيق بارز يتمثل في السلطان والمخزن المركزي وقاعدة عريضة جدا تتجسد في كل أصناف التمثيل المحلي، رسمية كانت أم غير رسمية.

هل كان في عدم التسلسل هذا عنصر آخر من عناصر فشل المركزة إذ أن شدة المركزة في قمة الهرم لم تكن توازيها سوى شدة التبعثر في القاعدة؟

---

(174) أدرجنا احتجاج أمين مستفاد فاس بشأن عدم تجدية أمنائها.

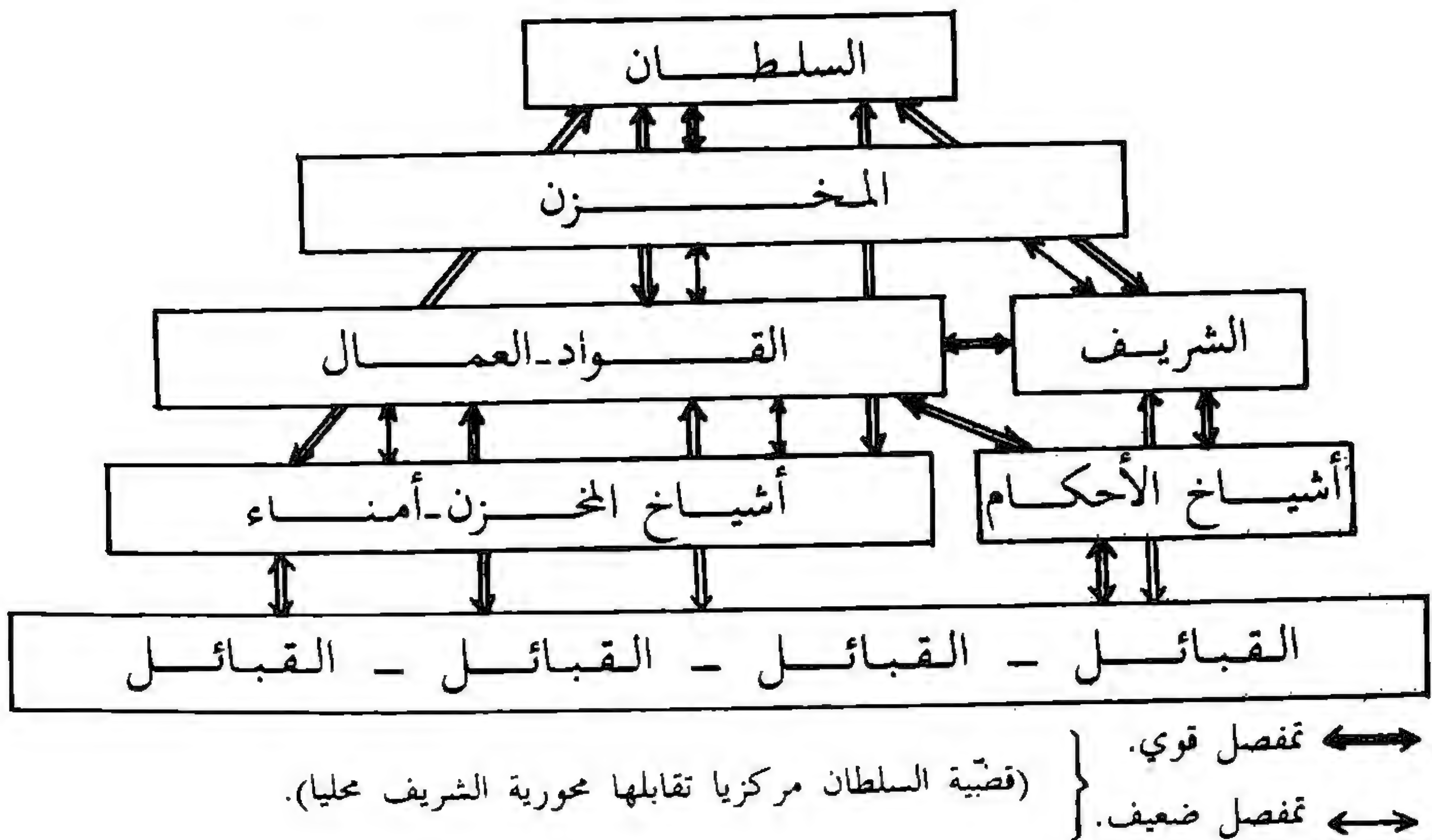
(175) تبدو الحالة الأولى بديهية. عن الحالة الثانية نقرأ في كناش 708، ص. 191، في تلخيص جواب سلطاني: «لحسن بن محمد ومحمد بن الجيلالي الحيانيين والشيخ معهم». أما الحالة الثالثة فقد استنتجناها مما ورد في الجدول السابق في شأن أولاد رياب واسلاس وبني سادن حيث كان بالضرورة لكل أمين أكثر من شيخ واحد.

أخيرا لابد من التذكير بصدد تأويل فشل مبادرات التركيز المتمثلة في إصلاح الأمناء والأشياخ المُعَينين، بأن المخزن العلوي، منذ السلطان إِسماعيل، يحاول التحكم في البادية، باستغلال آليات المنظومة القبلية، وحينما يستطيع ذلك، فإنه يلبس سياسته ثوبا قبَليا. ولعل هذا ما حدا السلطان على الإبقاء على أشياخ الأحكام، وقد رأينا أن هذا التناقض الخِلقي أدى إلى تشوش في رؤية المخزن ذاته، وكان، ولاشك، من بين عناصر فشل العملية برمتها.

ولا يعزب عن ذهننا أن أي التماس لتأويل فشل «إصلاح الأمناء والأشياخ»، لا يمكنه أن يغفل أن هذه العناصر المختلفة المتعلقة بالبنية المخزنية، قد فعلت في ظرفية عامة تتميز أساسا بالتطويق الأجنبي لكل مبادرة إصلاحية قد تقوي نفوذ الدولة المركزية إلى درجة تستَطيع معها حماية السيادة المغربية. وكان يهم القوى الأجنبية أن يستمر المخزن في موقع الدولة التي لاهي بالقوية فتواجه الأجنبي ولاهي بالضعيفة فتنهار أمام الضغط الداخلي الرافض للتغلغل الأجنبي. وكأن المخزن انضبط في الأخير لهذا السياق حينما أصبح همه كبح جماح قبائل الأطراف التواقة إلى مواجهة الأجانب في مواطىء أقدامهم الأولى بالشرق أو بالشمال.

ويمكننا إيجاز مجموع الملاحظات التي أوردناها في شأن المخزن محليا ومركزيا في الشكل التالي

شكل 7 مستويات التمفصل في البنية المخزنية



أوجزنا في هذا الشكل المعطيات المتعلقة بالممثلين الرسميين للمخزن على الصعيد المحلي من القواد حتى أشياخ الأحكام. بيد أننا أضفنا إليهم صنفا آخر من الركائز المخزنية الهامة بإيناون، وهو شخص الشريف الوزاني، والذي يأخذ موقعه، ولو في هيأة غير رسمية، ضمن ما أشرنا إليه من سلوك مخزني يعتمد على منطق التخطي:

فكما كان السلطان يقفز على القائد ليتصل مباشرة بالأمين والشيخ المعيّن، كان أيضا يكلف الشريف المحلي ببعض المهمات تدعيما للقائد أو ضده لصالح القبيلة أو على حسابها.

IV ـ الأعوان المحليون الشرفاء الوزانيون نموذجا

كتب الكثير عن دور الأشراف والمرابطين والزوايا في الوسط القبلي ولاسيما منه ذلك الذي يفتر فيه أو يغيب تماما منه الحضور المخزني المركزي، وتصبح أسر الأشراف والمرابطين الوسائط الضرورية للحفاظ على التوازن فيما بين الوحدات الانقسامية، ووضع الحد لحالات النزاع التي تنشأ فيما بينها عن طريق التوسط والتحكيم، معتمدين أساسا على ما تخولهم تلك القبائل نفسها من «بركة» وقوة رمزية، تمثل وازعا حقيقيا في غياب وازع آخر[176].

غير أن الزوايا والمرابطين والأشراف الذين وقع التركيز عليهم، يتميزون بخاصية كونهم يستوطنون مناطق غير تابعة لمركز سياسي منظم، ومن ثم فإن بعض الدراسات تربط بين الزوايا والصلحاء وبين ظاهرة الرفض للمخزن، وتعتبر انتشار نفوذ الزوايا في هذا الوسط، بعد القرن 17م، دَالا على التمسك بالخصوصية، في مواجهة المبادرات المخزنية التركيزية[177]. وما كان أسهل أن يواجه المخزن بنفس الأسلحة التي يستعملها وهي الشرف. ولا غرابة أن يستوطن هذا النوع من الشرف الجهات الطرفية كالجنوب الشرقي أو المناطق المستعصية كجبال الأطلس.

(176) غَزُرت الأدبيات في هذا الباب، يمكن الإحالة على أحدثها: انظر أعمال: MORSY، GELLNER، BERRADY، HAMMOUDI، PASCON، القبلي، وJAMOUS، وبالرغم من تعميمات هذا المؤلف الأخير الكثيرة، فإن أهمية عمله تكمن في كونه فرز بوضوح المنطقين اللذين يؤطران سلوك كل من أسر الشرفاء وعامة القبائل: «البَركة والعِرض»، الشرف والعنف. فلم يتحدث عن شيء آخر ذلك الورايني الذي خاطبني قائلا: «الشرفاء كانوا يجْرُون في الخير أما بقية القبيلة فكانوا لا. يجرون إلا في الشر» وهو يعني بالتقابل: المصالحة والتقاتل. بيد أن مخبري لا يلبث أن يضيف: «أما اليوم وقد أصبح كل واحد يعرف كيف يسلك، فقد أصبح الكل شريفا»!

(177) انظر بالخصوص: MORSY (م.س) (1972): L. MEZZINE (م.س)، ص ص. 214، 477.

بيد أننا لا نعثر على كثير من الأشراف المعارضين للمخزن بايناون. فإذا ما استثنينا تجربة بوعزة الهبري والشيخ سعيد السغروشني، سوف نجد أن جل أشراف ايناون، وأهمهم الشرفاء الوزانيون، وقفوا إلى جانب المخزن، على الأقل منذ أن تواتر ذكر أخبارهم بالمنطقة. وقبل التعرض لحالة الوزانيين بكيفية مدققة، رأينا من اللازم تقديم إشارة عامة عن أشراف ايناون.

أ ـ الأشراف بايناون

ليس من المستغرب أن يكون حوض ايناون قد احتضن عددا من الأسر الشريفة التي استوطنت قراه وقبائله، وهو على ما هو عليه من القرب من حاضرة الأدارسة، ومن انفتاحه الكبير على كل هجرة شرقية كانت أم غربية[178].

وقد أخبرتنا بعض المصادر القديمة أن عددا من الأدارسة استوطنوا بعض قبائل هذه المناطق[179]. بيد أن هذه المناطق كانت قطب رحى الحركة الزناتية التي قادها موسى بن أبي العافية ضد الأدارسة بالضبط. ماذا كان أثر ذلك في اختفاء أسر شريفة من المنطقة؟ لا نستطيع تقديم جواب في الموضوع. بيد أن الأسر الشريفة الموجودة راهنا سواء بايناون أو بتازة، لا يتجاوز استيطانها بالمنطقة سبعة أجيال أي ما يفوق القرنين، ويحيلنا على أوائل القرن 18م. ولعل هذا الاستيطان الجديد تم في ركاب الأسرة الحاكمة الصاعدة[180].

ويبين بحث Moussard المحال عليه أدناه مدى تنوع أصول شرفاء تازة: فمنهم البوعراقيون والغساسيون وأسر الإدريسي والمراني والنجّار والسملالي. وفدت الأولى من مكناس أيام السلطان إسماعيل، والثانية من الريف حيث كانت تستوطن منذ هجرتها

---

(178) حول هجرة الشرفاء، انظر محمد القبلي، «مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين»، **مجلة كلية الآداب**، الرباط، 1978، ص. 7ـ59.

(179) الأزموري (م.س)، 169 ظ: «من الأدارسة شرفاء سغروشنيون». انظر قيام بوعزة الهبري وسعيد السغروشني بالدعوة الإدريسية-فيما بعد.

(180) MOUSSARD, P. — **Notes sur Taza, petite ville marocaine**, C.H.E.A.M., 308, 1931, 63P, pp. 2-3.

ومن المثير أن تكون بعض الروايات الشفوية المتعلقة بأسر غير شريفة بالحياينة لا تعود بأصلها إلى أكثر من قرنين. فهل هذا واقع أم عتبة للذاكرة الشفوية؟ انظر تقارير طلبة السنة الأولى من المعهد الزراعي بالرباط عن تداريبهم بالحياينة عن سنة 1978 و1979.

من الأندلس والخامسة من تلمسان والرابعة والسادسة من تافلالت. وبما أن أصل الثالثة لم يعين فإنه بالإمكان افتراض أنها من بقايا الرصيد الإدريسي القديم(181).

يدل هذا السرد على التنوع الذي كان يميز شرفاء تازة في القرن الماضي. أما في حوض إيناون، فإن تحرياتنا في الوثائق المخزنية أبرزت أن الشرفاء هنا أيضا متنوعو الأصل، وإن لم يكن بالدرجة التي كان عليها شرفاء مدينة تازة. غير أن غلبة أسرتين على شرفاء إيناون بادية للعيان أسرة العلويين وأسرة الوزانيين كما يتضح ذلك من جدول عزبان الشرفاء بايناون حسبما توصلنا إليه

جدول 19 شرفاء إيناون

الشريـــف	الحياينة	هــوارة	بني سادن	غياثـة	البرانـص
الوزانيــون	6			1	1
العلويــون	6				
البقالـــي		1			
الحمومـــي	1				
الفضيلـــي	1				
ابن الرامـي			1		
(مقدم المولى ادريس)					(182)

يبدو من هذا الجدول مدى انتشار نفوذ الوزانيين والعلويين بالحوض الايناوني، لكن إذا كانت عزبان العلويين تبدو ذات طبيعة «اقتصادية» صرف، إن صح القول، بما أنها تتمركز بأرض الحياينة، ذات المردود الزراعي الجيد، فإننا نستطيع ملاحظة أن

(181) MOUSSARD، ن.م، ص.

(182) لا نطمح من هذا الجدول إلى الاستقصاء أو الشمول الذي لا توفره المراسلات المخزنية على أي حال، ونحيل على المقال المهم جدا لـLAZAREV حول:

LAZAREV, G. — «Aspects du capitalisme agraire au Maroc avant le Protectorat», **in Annuaire de l'Afrique du Nord,** Vol. 1975, C.N.R.S., Paris, 1976, pp. 57-90.

ويعطي الباحث أرقاما هامة عن ملكية مختلف العائلات الوارد ذكرها في الجدول أعلاه، مستوحاة من ملفات المحافظة العقارية بفاس. وفي اعتقادنا أن هذه المعطيات لن تبليها سوى أخرى، مستقاة مثلا من قوائم خرص ممتلكات الشرفاء. انظر عند نفس الباحث مختلف تعاريف كلمة: «عزيب»، ص. 66.

عزبان الوزانيين تشكل شبكة حقيقية من الحضور متعدد الجوانب والغايات والوظائف، اقتصادية، سياسية ورمزية، بين ظهراني جل قبائل الحوض الايناوني.

يستوطن الشرفاء الوزانيون نقط التقاطع من البنية الاجتماعية الانقسامية، فنجدهم في المفاوضات لحل كل نزاع بين الوحدات الانقسامية إما داخل القبيلة الواحدة أو فيما بين مجموعة من القبائل الإيناونية أو بينها وبين المخزن.

ب ـ شريف بوزملان

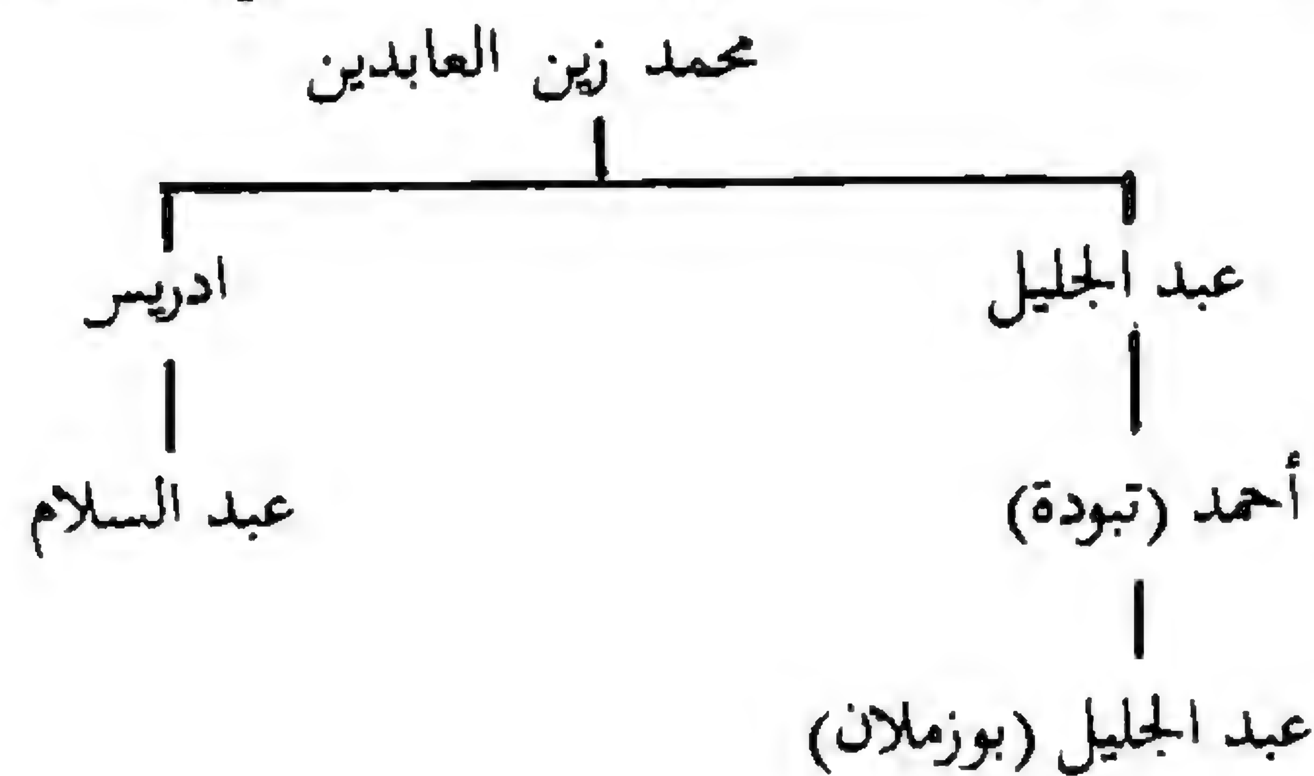
ارتأينا التوقف عند حالات أولائك الشرفاء الذين غمرهم ظل أكبر أسرة بالمنطقة، وهي أسرة ابن زين العابدين، التي سنتعرض لها بعد قليل، تلك الحالة هي حالة عبد الجليل بن أحمد الوزاني، شريف بوزملان، والتي قد نستشف منها بعض جوانب تأثير الشرفاء الوزانيين في الحياة اليومية بإيناون في القرن الماضي.

وبما أن ذِكر هذا الشريف نادر في الأصول عدا ما ورد عند بعض الرحالة الذين مروا بعزيبه[183]، فإننا اعتمدنا ما التقطناه من روايات شفوية، حول محاولة هذا الشريف لبناء ثم توطيد نفوذ محلي. ينتمي هذا الشريف إلى الشرفاء الوزانيين المقيمين بتَبُودة من بني سادن[184] منذ مدة. وكان أبوه «يتزَوَّر» (يتجول لأخذ «الزيارات» أي الهدايا) على الحدود مابين قبائل الحياينة، بني سادن، آيت سغروشن، وبني وراين، مستثمرا مافي هذا الموقع المتماس من إمكانيات النزاع وفرص التدخل للمصالحة،

---

(183) انظر EL MERAKCHI (م.س)، ص ص. 6–7، DE SEGONZAC، ص. 215.. وقد استفدت من أربع روايات شفوية.

(184) حيث التجأ سليمان الكبير بن عبد الرحمن بن السلطان سليمان، بعد الفشل في مطالبته بالحكم عند تولي السلطان الحسن. انظر الفصل الثالث أعلاه، وابن زيدان ج. 2، ص. 150. وأشراف تبودة أبناء أخي ادريس بن زين العابدين، حسب «الإتحاف»، مما يعطي الشجرة التقديرية التالية:



(شكل 8) شجرة الوزانيين بإيناون

يفصل في القضايا، ويستفيد منها، سيما والمنطقة كانت على ما وصفناه من المجابهات، في أواخر القرن 19م.

«وكانت «النية» (الثقة) كثيرة. فإذا وقف أهل وزان في أرض، تخضر بإذن الله، وإذا وقفوا على الشر (الحرب) يسكت بإذن الله، وإذا جاءوا في الأرواح (تعويض القتلى) يلاقون الطالب والمطلوب [بثأر] ولا يستطيع أحد أن يغدر الآخر دون أن يظهر فيه البرهان» هكذا عبر أحد شيوخ الحياينة عن مدى قوة البركة التي كان يتمتع بها آل وزان في الحوض الإيناوني.

هذا التصور حول قدرة هؤلاء الشرفاء هو الذي يبرر ما يتقدم به السكان إليهم من «هبات» تسمى عادة «بالوعدة» أي الشيء الموعود به، وهنا نلتقي مجددا بطابع «المبادلة»، الذي نوهنا به سابقا: فالهدية لا يفكر فيها كهدية صرف، وإنما كمقابل عن خدمة، عن منفعة، تتمثل في البركة التي يكون لها في هذا التصور، تأثير مباشر في الإنتاج.

ففي رسالة موجهة من شريف وزان التهامي بن الطيب بن العربي الوزاني، سنة 1938 إلى أحد مريديه بهوارة الحياينة، نقرأ في الجواب عن وصول «الوعدة»: «وصلت وعدتكم من الزيارة وحلت منا محل القبول وذلك على العادة المألوفة بين أسلافنا وأسلافكم، بارك الله فيكم وكثّر خيركم وأصلح بمنيه [كذا] أحوالكم وبلادكم وذريتكم وفلاحتكم وغروسكم وماشيتكم ودينكم ودنياكم وآخرتكم...»(185) هذه الرسالة تثبت بوضوح ما يعتبر الشريف، وما لاشك يشاركه فيه المريد، أنه يقدّمه في مقابل الوعدة: دعوات الخير. ولننتبه إلى ترتيب الدنيا. من أولاد وفلاحة وغروس وماشية، قبل الدين والآخرة في هذه الدعوات.

وبصفة عامة، فإن بعض الأدبيات التي "كان يروجها آل وزان بالحوض الإيناوني كانت كفيلة بترسيخ صورة متينة عن قدرتهم الرمزية، وقوة دعواتهم، وضمان شفاعتهم: فمن كتاب **على الطريق** الذي هو كتاب أدعية بيد نفس المريد، يمكن أن نقتطف جملا دالة: «وكل زاوية تنقطع إلا زاوية وزان تبقى إلى يوم الدين» جملة يقدمها الكتاب كحديث نبوي، ثم يضيف على لسان عبد الله الشريف :

(185) في حوزة «الفقير» لحسن ابْحايد من هوارة الوطا، من دوار سدرة مومن.

«بالله لا يدخل النار من قال أنا صاحب مولاي عبد الله الشريف ولو كان مازحا... والله ثمّ والله لو ما استحييت من جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصحابُنَا لا يصلون ولا يصومون ويدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب وكل ذلك أنا أولى به ولكن امتنعته [كذا] عليهم حتى لا يتعجبون [كذا] في أنفسهم...»(186).

إن مثل هذه التصورات التي كانت منتشرة في الحوض الإيناوني في القرن الماضي كانت أرضا خصبة لميلاد وانتشار نفوذ عدد من «الزوايا» بالمفهوم المحلي، وهي دور الشرفاء المنحدرين من الزاوية الوزانية الأم، وعزبانهم.

وقد وصف أحد مخبريي الكيفية التي تتناسل بها تلك «الزوايا»: «كان الشريف يأتي للتزَوُّر فيُعين أرضا تعجبه، فتأتي فرق الحياينة، مثل الموالدة، وأولاد عياد، والطوابعة والشعاشعة... إلخ، فتُحْرث في يوم، ثم حينما ينضج الزرع تُحصد وتُدرس في نفس اليوم، بطريقة التويزة، حيث تساهم كل الفرق».

ولعل مرحلة «التزور» والتويزة هذه هي ما يسبق العزيب والاستقرار. إذ أن الشريف لا يلبث أن يُلَمِّح أو يعبر بوضوح، عن كون الفصال في النزاعات يحتاج إلى مقام مستمر، نظرا لحصولها يوميا، كما كان الشأن بين بني وراين والحياينة.

يذكر الرواة أن أبا عبد الجليل (أحمد بن عبد الجليل المذكور في **الإتحاف**)، حينما أتى «للتزَوُّر» واشتكى إليه الحياينة من بني وراين أجابهم «لابد لكم من شريف يحميكم ويكون لكم بمثابة الحجر الصلب الذي لا يتزحزح من مكانه». وكان ذاك الشريف أحد أبنائه وهو عبد الجليل الذي «لم يكن معه حينما جاء إلى بوزملان، سوى زوجته وعبد وأمة وفرس. فدق خزانة (خيمة) وسكنها قبل أن تبني الجماعة داراً له. وقد أصحبت الجماعة هذه الدار بهبة قطعة أرضية مستطيلة، تربط دار الشريف بالواد حتى يستطيع التنقل بين منزله وواد بوزملان دون حاجة إلى المرور بأرض غيره»(187).

وقد كان على الشريف أن يقيم الحجة على بركته، ولاسيما بالنسبة لمن تشكك فيها، فحاول النيل منه. ويروي واحد من «أصحاب» الشريف إحدى كراماته على الكيفية التالية:

(186) المخطوط بيد نفس الشخص.

(187) تعود هذه الأحداث ولاشك إلى أواخر القرن 19م، حسب ما بيناه في الفصل الثالث من أن الصراعات بين بني وراين والحياينة احتدمت في ذلك الإبان.

«كان لسيدي عبد الجليل عددا من البغال (حوالي 20). وقد أتى أحد بني ورايِن بغية سرقة واحدة منها. فلما وضع يده على ظهرها ليطَمئنها كي لا تركله، لم يستطع تخليص يده من ظهرها، فبات ليلته ملتصق اليد بظهر البغلة إلى الفجر عندما اكتشفه الخماسة الذين أتوا لعلف البهائم قبل خروجها إلى الحرث. ولما أُخبر الشريف بالنازلة، جاء إلى عين المكان وقرأ سورة من القرآن، ثم أخذ يحرك يده وكأنها موسى، يريد قطع يد اللص بها. فانفكت يد السارق الفاشل، وأعطاه الشريف طعاما وشرابا وقال له رُحْ إلى حال سبيلك ولا تعد إليها، دون أن يعاقبه أكثر من ذلك».

هل تعكس هذه الحكاية حادثة وقعت ثم صبغها الخيال بطلائه المعهود؟ أم أنها برمتها من نسج التصور الشعبي؟ يستحيل الجواب بالرغم من تأكيد الراوي أنه حضر الحادثة بنفسه. على أنه يمكن التساؤل هل ثمة من فائدة للبحث عن جواب لمثل هذا السؤال.

إن مثل هذه القصة قد يكون حصل فعلا، وقد يكون تم تدبيرها من أولها إلى آخرها فضلا عن احتمال عدم حدوثها أصلا. بيد أن الذي يهمنا هو تواترها واستغلالها من طرف الشريف. فالشريف يتميز عن عامة القبيلة في كونه لا يخضع لقانون العنف والانتقام، بل يكتفي بتحريك قوى خفية، تسهر على مصالحه وتعاقب من يريد به الشر. في هذا الاختلاف تكمن قوته(188).

ويمكن أن نتصورَ كَمْ من مرة أُعيدت هذه القصة في المسامرات، وكَم كان لها من التأثير الفعال في عقول سائر فرق بوزملان. ويطيل الرواة في حكاية عدد من كرامات الشريف الأخرى، لا نرى فائدة في المزيد منها. بيد أنها تغذي كلها صورة الشريف كشخص يمتلك تلك القوة الخارقة الخفية التي يعم خيرها من رضي عنه وشرها من غضب عليه.

نفهم إذاً كيف تصبح دار الشريف نقطة استقطاب بشري، في مجتمع متزايد الاضطراب في نهاية القرن 19م. فقد أصبحت قلبا لدوار يدعى «زاوية سيدي عبد الجليل». ثم إن دار الشريف لا تلبث أن تتحول إلى مقر لتأمين وثائق الفرق المتصارعة، ولاسيما منها عقود الملكية، التي كان امتلاكها شبيها بامتلاك العقار ذاته. ويقوم الشريف بهذا الدور مقابل هبات عقارية. «فبقي أهل القبيلة، يضيف

(188) انظر JAMOUS (م.س).

«الصاحب» القديم، يسلّمون الرسوم والهدايا إلى الشريف حتى أصبح يملك الأرض والقبيلة تحرثها لفائدته»[189].

كان نفوذ الشريف عبد الجليل مستحكما عند الحياينة، آيت شغروشن وبني وراين حتى الجبل. ولم يفتر نفوذه سوى عندما زحف الاحتلال الفرنسي، وافتضح ازدواج موقف الشريف بين المقاومة التي كان يضطلع بها بني وراين، وضغط الضباط الفرنسيين الذين رأوا في استعمال نفوذه مطية لكسب طاعة قبائل الجبل الممتنعة[190].

حالة الشريف عبد الجليل تبرز صنفا مغمورا من الشرفاء لا نعثر لهم على أثر كبير في المصادر المكتوبة، ولكنهم، ولو في حدود الفرقة أو القبيلة الضيقة، كانوا أصحاب الكلمة الفصل في العديد من القضايا.

غير أن ما توفر لدينا من وثائق حول أهم أسرة وزانية بإيناون، وكذلك ما لها من صلة أوثق بموضوع الدراسة، بما أنها كانت من أهم حلقات الحضور المخزني المحلي، حدانا على تركيز التفكير على تلك الأسرة.

ج ـ أسرة زين العابدين، سند المخزن بإيناون

«وبعد فقد طولع علمنا الشريف بما كتبت به في شأن ما كان عليه أسلافك (...) مع أسلافنا (...) من ملازمة الخدمة والمحبة حتى تقرر فيك ذالك بعدهم (...) ولازمت الخدمة مع سيدنا الوالد (...) ثم معنا إلى أن كبر سنك ووهن عظمك راجيا أن يبقى ذالك في أولادك (...) وعقد المحبة صحيح متصل (...) وقد أمرنا بالملاقاة مع أولادك (...) على سبيل الترتيب الأول فالأول»[191]. هذا ما أجاب به السلطان الشريف ادريس بن محمد زين العابدين لما طلب الإذن بتقديم أبنائه، وكان

(189) يشير FADLOULLAH (م.س)، ص ص. 103-106 إلى هذه الظاهرة وما خلفته من نزاعات حينما شرع ورثة الشريف في تسجيل تلك «الأملاك» بالمحافظة العقارية، بحجة امتلاكهم لرسوم الملكية.

(190) وبالرغم من ذلك، فإن المريد ابْحايد، سابق الذكر، يجعل من كرامات الشريف أنه كان يستطيع أن يجمع في داره بني وراين والضباط الفرنسيين دون أن يعلم هذا الطرف بالآخر. بيد أن روايات أخرى تشير إلى أن الهجمات على ممتلكات الشريف كما في القصة السابقة إنما كثرت في هذه الفترة.

(191) ر.م.غ.م. ـ خ.ح.، 18 قعدة 1892/1309

وثيقة 3   استقبال السلطان الحسن لوزانيي إيناون

بتلك الكيفية، يهيىء خلافته في مهمة توارثتها أسرته بايناون، منذ جده أو والده على الأقل[192].

من ضمن الخدمات الهامة التي كان الوزاني يقدمها للمخزن المركزي، تدعيمه للقواد وإخضاع الفرق التي لا يتحكمون فيها، عندما تثور عليهم، «لأنه المباشر لنواحينا عارف بصالحها وفاسدها، ويساعدونه ويراعوا جنابه كل المراعات ويشد عضدنا مع القبائل لما جعل الله فيهم من الإدمان على محبته ويأمرهم بامتثال الأوامر الشريفة، ويحذرهم كل التحذير...»[193] كما جاء على لسان أحد قواد بني ورابن.

وقد كان الوزاني يؤدي هذا الدور أيضا بمناسبة مرور المحلة. ولم يكن أي تحرك مخزني هام ليعبر حوض ايناون دون حضور الشريف الوزاني معه. بل إنه كان يصحب الحركة منذ خروجها من فاس حتى حدود التسول، حيث كما يقول الشريف عبد السلام بن ادريس في إحدى رسائله: «عادتنا الرجوع، إذ لا اتصال لنا بالقبائل التي هي أمام»[194].

وقد كان صوت الوزاني مسموعا لدى المركز المخزني فيما يتعلق بتعيينات بعض القواد، ولاسيما عند القبائل الجبلية، التي لم يكن نفوذ المخزن يصلها، في غالب الأحيان، إلا عبر «مباشرة» الشريف الوزاني لأمورها كما ورد في رسالة القائد الورايني.

وبصفة عامة فقد كان الوزاني ملجأ للمخزن لقضاء أغراض متنوعة بايناون حتى أنه ربما لجأ إليه لتسوية نزاع حدث ضمن الدوائر المخزنية المحلية ذاتها[195].

غير أن أهم دور تكلف به الوزاني لفائدة المخزن كان هو السهر على هدوء هذه المناطق، وبصفة خاصة حينما يكون السلطان بعيدا عن فاس. فقد كان يعمل على «مباشرة تسكين روع تلك القبائل وهناء الطرقات...»[196]. وكأن الأمر كان

(192) أول ما صادفناه من توسط الوزانيين بين قبائل المنطقة والمخزن يعود إلى 1848/1264 رسالة رحمانية إلى عبد القادر أشعاش. 16 قعدة 1264. حيث تشفع «الخير البركة الحاج العربي في غياثة». انظر عهد السلطان عبد الرحمان، خ.ح.

(193) من ر.م.غ.م. — خ.ح. من القايد عياد أوراغ إلى السلطان. 28 حجة 1894/1311.

(194) ر.م.غ.م. إلى السلطان. 16 قعدة 1895/1312.

(195) انظر كناش 708، ص. 45، 43، عن حالة توسط الشريف ادريس الوزاني في نزاع بين عسكر تازة وعاملها. 1891/1308.

(196) من رسالة من عبد الله بن أحمد إلى الشريف ادريس بن زين العابدين، 26 شعبان 1880/1298 و.ز.ج. 25. و.205.

بالنسبة للمخزن، يتعلق باستعمال قناة أخرى غير قناة العنف والقوة، وهي القناة التي لاتفيد حين ابتعاد السلطان (والجيش معه)، فيلجأ إلى قناة العنف المعنوي والسلطة الرمزية المتمثلة في نفوذ الشريف الوزاني.

وكان بإمكان الشريف بفضل هذه القوة الرمزية، وبفضل طاقته على المفاوضة والمناورة، حل بعض القضايا التي تُشكِل على المخزن حتى بعد لجوئه إلى استعمال العنف العسكري.

نكتفي بمثال على ذلك في شعبان 1306/أبريل 1889 نشأ نزاع بين عسكر تازة وغياثة مات فيه أحد العساكر. انتقاما، خرج العسكر إلى الضاحية واعتقلوا أربعة وثلاثين غياثيا ونهبوا ما وجدوه من الماشية. ولما وصل الخبر إلى السلطان أمر العامل بنهج «السياسية»، لكن مع الاحتفاظ بالمساجين والمتاع المنهوب. وتشبث السلطان بإصرار بعدم تسريح المساجين حتى عندما أكد له قائد البعثة العسكرية الموفدة من فاس في هذا الشأن، ضرورة تسريحهم، إن رغب في صلح غياثة مع عسكر المدينة. وفي وقت ما أصبحت المسألة أمام الباب المسدود: غياثة يطالبون بتسريح مساجينهم واسترجاع متاعهم قبل التعهد بالصلح، والمخزن، وإن هو أمر دائما بالمرونة، لا يريد بديلا بنقل المساجين والمتاع المنهوب إلى فاس. لكن من أين للأربعين عسكريا المبعوثين لهذا الغرض أن يمروا عبر ايناون وغياثة بالمرصاد؟ لم يجد السلطان، هنا أيضا، سوى اللجوء إلى نفوذ الوزاني الذي أفلح في «إرهاب» غياثة حتى أفسحوا طريق فاس(197).

يتضح من هذه النماذج المختلفة مدى الاستفادة التي كان المخزن يجنيها من هذه الأسرة على صعيد المنطقة الإيناونية، وهذا ما يفسر مدى الثناء عليها، والذي نصادفه في أجوبة السلطان إلى الوزاني.

بيد أن الشريف كان يستفيد من دعمه للمخزن بنفس الدرجة التي كان يفيده بها.

تتجلى استفادة الوزاني قبل كل شيء في مدى ما يحصل عليه من نفوذ، من

---

(197) انظر ملف القضية بالكناش 154، ص ص. 61، 68، 91، 97، 110، 127، 147، 151 و180. وسوف نعود إلى هذه المسألة بصدد علاقة غياثة بتازة.

خلال تدعيمه للمركز المخزني. فقد أصبحت كلمة الوزاني لا تناقش في جل أرجاء الحوض الايناوني مستفيدا في ذلك من

- دعم القواد له[198].
- نفاذ كلمته بالمركز المخزني حيث يجد آذانا صاغية لدى بعض الأسر المخزنية المؤثرة والتي ترى فيه ولاشك أحد عناصر فريقها على الصعيد المحلي. وقد رأينا أن أسرة آل أحمد كانت تجد فيه سندا لنفوذها، محليا ومركزيا.

وقد كان الوزاني أول العالمين بأن مصالحه ترتبط بالضرورة بمصالح السلطة المركزية. هكذا، كان يحاول دائما أن يربط في مراسلاته مع المركز المخزني بين ما يؤديه كخدمات وما ينتظره كامتيازات كما يتضح ذلك من هذا النموذج: «سيدي ادريس بن زين العابدين، وصل كتابك بما تطلبه من علي جنابنا من استخدام صهرك الحاج عبد الحفيظ أمينا لما وصفته به مع ما أعلمت به من هناء تلك النواحي..»[199].

نتيجة لكل ذلك أصبح للوزاني بإيناون نفوذ لا يضاهى. رأينا أنه كان بإمكانه اقتراح من يولى في القيادة، ولكن كان بإمكانه أيضا السعي في عزل من لا يرغب فيه من القواد والأشياخ[200].

فهل من الغريب أن يستعمل كل هذا النفوذ لترسيخ القوة المادية التي توصل إلى تكوينها في شكل سلسلة من العزبان؟ عزبانه كانت موقرة وكانت له السلطة المطلقة على الفلاحين التابعين له. وكان عزّابته يشعرون في حمايته من القوة بما كان يجعلهم يواجهون القواد والمبعوثين المخزنيين أنفسهم[201].

وهل من الغريب أن يحاول الشريف ادريس بن زين العابدين كما رأينا في رسالة سابقة، الحفاظ على مثل هذا النفوذ في أعقابه؟ فمنذ سنة 1882/1300 حاول

(198) ر.م.غ.م. 27 قعدة 1312 من ابن العتيق التسولي إلى السلطان «وأما الشريف سيدي عبد السلام بن زيد العابدين، فإنه ناصح لخدمة سيدنا (...) فمثله لا يوجد في الخدمة والوقوف في مصالح المسلمين».

(199) كناش خ.ح. 632، ص، 70، 6 رجب 1891/1308.

(200) من أمثلة كثيرة: ر.م.غ.م - خ.ح. من عبد السلام الوزاني إلى السلطان. 9 جمادى الأول 1894/1312: حيث يشير بعزل القائد علي بن الحاج المحرري وتعويضه بمحمد بن القاضي العيساوي العمراني.

(201) كناش 657، ص. 252. حيث يأوي أحد العزابة من يمتنع من أداء الضريبة من أولاد عمران 27 جمادى الثانية 1892/1309.

تقديم أبنائه إلى الدوائر المخزنية، وأعاد الكرة سنة 1892/1309. وقد استمر في تأدية خدماته لفائدة المخزن إلى قرب وفاته، وقد شرع ابنه الأكبر عبد السلام في الاستفادة من نفس الأدوار بمجرد عياء والده(202).

مصالح متبادلة بين المخزن والشريف. ويمكن التساؤل عن موقف السكان. تحدّثنا كثيرا عن البركة وعن النفوذ الرمزي. ولاشك أن هذا النفوذ كان قويا بحجة أن المخبرين، اليوم، عن تلك الفترة، نادرا ما لا يلحون على أنه من الجوانب التي تغيرت بوضوح، اندثار «البركة» بسبب فقدان «النية».

غير أنه يحق لنا أن نفترض أن الوزاني كان يبرع في تقمص الدور الذي كانت تتيحه له البنية الانقسامية، فيسوس القبائل بعضها مع أو ضد بعض. ولعل الدعم المتبادل بينه وبين المخزن كان أحد أسس اعتقاد العامة من القبائل في بركته.

ثمة مع ذلك رسائل تشكك في تلك البركة وفي ذلك الدعم، وتحدد بالضبط ما يجنيه الوزانيون من فوائد من تحركاتهم، وتستحق لقلتها إدراج جزء من نموذج منها: «ومعلوم أن خروجهم [الوزانيين] مع المَدد السعيد لا يورث إلا فسادا، فلما خرج والده [ادريس بن زين العابدين] مع أبّ محمد قبض ما قبض من القبيلة ونهض ليلا، وقد تأصل الفساد في قبيلتنا وقبيلة الحياينة فلما خرج ولده سيدي عبد السلام زاد الفساد وامتدت فروعه حتى أسرى إلى البرانيص بإشارة منه (...) إنهم لا يجلبون النفع إلا لأنفسهم...»(203).

وإذا كان هذا الصوت المغاير قد لا يكون منبعثا سوى عن حزازة خاصة بهذا القائد، فإنه يدل مع ذلك على مدى قدرة الأسرة الوزانية على تلوين سياستها بين المخزن وقبائل إيناون، مما جعل منها نفوذا محليا لا غنى للمخزن عنه، فيما يخص الحياينة، وبني سادن والتسول، وهي ما يمكن تسميته بمجال الحركات المخزنية، أي مجال تحقّق النفوذ المخزني بالعنف إن اقتضى الأمر ذلك، فأحرى في ما يتعلق ببني وراين وغياثة اللتين لم تطلهما الحركات إلا نادرا، كما سنحلله في الفصل الموالي.

(202) توفي ادريس الوزاني في 22 محرم 5/1311 غشت 1893. وقد ظل في «مباشرة» أحوال ايناون حتى 9 حجة 1310 أي قبل شهر ونصف من وفاته. أما ابنه عبد السلام فإنه يخبر في نفس تاريخ وفاة أبيه بالسهر على الصلح بين الحياينة وشراكة انظر كناش 205 ــ دون تصفيح.

(203) ر.م.غ.م. من القائد الطاهر بن عمارة التسولي إلى السلطان ــ 10 شوال 1895/1312 وهذه إحدى الوضعيات التي تنطبق عليها قولة الوزانيين الشهيرة «منّنا مَا يكُونشِي وبْلاَبِنَا مَا يْكُونْشِي».

يتضح إذاً، أن المخزن المركزي كان يقيم نفوذه المحلي على أساس المعارضة بين بُؤَر النفوذ المتواجدة بإيناون: أعيان وأشراف، وأمناء وأشياخ وقواد. هذا ما يضفي على إرسال الحركات المخزنية الدوري طابعا أساسيا ضمن منظومة الحكم المخزني في القرن الماضي.

الفصل الخامس

الحرْكة والجباية وسائل وغايات الحضور المخزني

ليست المحلة أو الحرْكة(1)، بوصفها تنقلا للسلطة المركزية أو لجزء من جيشها، لأغراض عسكرية أو إدارية (جبائية، قضائية..)، خاصية من خواص الفترة الحسنية ولا حتى العهد العلوي، بل إن جذورها تمتد حتى العهدين المرابطي والموحدي.

كما أن المحلة أو الحرْكة بهذا المعنى ليست مميزة من مميزات التاريخ المغربي، بل إن ملاحظتها تمت في جهات أخرى من المغرب الكبير ولاسيما في تونس(2) حيث تتخذ المحال طابعا منتظما وتتوزع إلى محلة الصيف والشتاء، يركبها الأمير، في نفس الوقت لقبض المجابي وللاتصال المباشر بمحكوميه(3). وبصفة أعم، فإن الحاكم يلجأ إلى

(*) سبق لبعض عناصر هذا الفصل أن عرضت في إطار «مجموعة البحث في التاريخ الاجتماعي المغربي» بكلية الآداب بالرباط، بتاريخ 83/5/10، كما أنها كانت أساسا لمساهمة في ندوة **الدولة والمجتمع في المغرب الكبير** التي عقدت بلندن في 29/28 يونيو 1983 ونشرت في **مجلة المغرب**.
THE MAGHREB REVIEW, Sept-dec., 1983, Vol. 8, Nos 5-6, pp.141-145.

(1) هذا الفصل هو إسهام في النقاش الذي فتحه NORDMAN, Daniel, — «Les expéditions de Moulay Hassan, essai statistique», :in **Hespéris-Tamuda**, Vol XIX, 1980-81, pp. 123-152.
واستمر في اتجاهه محمد اعفيف «الحركات الحسنية من خلال مؤلفات ابن زيدان»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة محمد الخامس، ع 7، ص. 47-75 (مع خريطة).

(2) انظر: VALENSI, Lucette. **Fellahs tunisiens : L'économie rurale et la vie des campagnes aux 18e et 19e S.**, Mouton, Paris-Lahaye, 1977, pp. 348-360.
HENIA, Abdelhamid. — **Le Grid et ses rapports avec le Beylik de Tunis, 1676-1840**, Publications de l'Université de Tunis, 1980, pp. 204-210.

(3) NORDMAN (م.س)، ص. 127.

التنقل كلما كانت الظروف التقنية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة بحكمه بسيطة متدنية، لا تسمح بتنقل سهل للبشر ولا بتداول سريع للخيرات. وبالتالي فإنه، حسب الأنثربولوجيين، يكون من المتعَين على هذا الحاكم أن ينتقل عند محكوميه، إن أراد الحفاظ على الوشائج الهشة التي تشد حياة محلية ما تزال قوية الانسجام إلى نظام مركزي عليه أن يجدد استقراره بكيفية مستمرة عن طريق التنقل(4).

فالمحلة أو الحرْكة تميز إذاً حكما ذا مركزية هشة وهذا ما يلتقي وما خلصنا إليه في الفصل السابق من كون المركزية المخزنية كانت عبارة عن رأس حاد وقاعدة متسعة مبعثرة، تتحرك عبر فجوات الحياة المحلية.

وموضوع الحرْكة من المواضيع التي كثر التطرق إليها. غير أنه على غرار ما سبق التأكيد عليه بشأن المخزن ككل، فإن كثرة التناول هذه، قد تصبح عائقا أمام المعرفة، إذ مازلنا نجهل الأساس من ظاهرة الحرْكة، وهي المحال غير السلطانية(5).

وقد انبهرت الكتابة الأوربية بالمظهر الخارجي للتنقل المخزني فألحت على الأشكال التي ترسمها المحلة في المجال أثناء تنقلها، أو على طابع القوة والفخامة الذي توحي به المحلة السلطانية(6).

أما المصادر التقليدية المغربية من حوليات وتقاييد تاريخية ورحلات، فإنها أولت لتحركات السطان الحسن أهمية خاصة، لأنها اعتبرتها علامة على انتعاش لرسوم الدولة بعد أن كادت تنقرض. وقد كانت المحال تجد لها صدى مباشرا في جنس أدبي هو الرحلة(7).

---

(4) انظر: BALANDRIER, Georges. — **Anthropologie politique**, P.U.F., 1961, p. 3.
VALENSI, L. — **Anthropologie économique et histoire**, (1974).
مرجع سابق (1974)، ص. 1314.
انظر أيضا الضعيف و218 ظ حضور السلطان لازم لاقتناع السكان بدوام حياته.

(5) M. MORSY. — «Comment décrire l'histoire du Maroc», **in Actes de Durham, Recherches récentes sur le Maroc Moderne, B.E.S.M.**, Documents, N° 138-139, Rabat, 1979, pp. 122-143.
تقول إن الأبحاث حول هذه الحرْكات «سوف تشغل حيزا هاما من الإنتاج العلمي في المستقبل القريب»، نظراً لِما قد توضحه من العلاقة بين الدولة والمجتمع القروي.

(6) انظر: ARNAUD, L. — **Au temps des Mahallas**.. 1952.
WEISGERBER, F. — **Au seuil du Maroc Moderne**, 1947.

(7) انظر **رحلة المشرفي**، خ.ح. 2420. وانظر عن المحال السلطانية ابن زيدان، المشرفي، الناصري، السباعي...

ولم تكن هذه الكتابات تميز بين المحلة والحرْكة. كما أنها نادرا ما اهتمت بالمحال غير السلطانية إلا أنْ تتميز بعضها، كحرْكة الأمير علي، أخي السلطان، سنة 1875 إلى شرق فاس، بأحداث خطيرة (انهزامها أمام جيش قائد بني يزناسن)، فتجد لها الصدى في الحوليات.

وفي الآونة الأخيرة صدر مقالان حاول كل منهما التعرض لظاهرة الحرْكة بكيفية تتجاوز الكيف إلى الكم(8).

بيد أن جل هذه التناولات، تركت الجواب معلقا حول أهم وأغزر جانب من الحرْكة، وهي المحال غير السلطانية(9).

ذاك ما حدانا على الغوص في الهوامش المظلمة للمحلة السلطانية التي تسبح في الأضواء، وتلك الهوامش المظلمة هي بالضبط تلك «الحرْكات الصغيرة» التي تسقط بسرعة في النسيان، لكنها، ومن حسن الحظ، خلفت آثارا غزيرة في الوثائق المخزنية المختلفة، ولاسيما في المراسلات التي كانت ترد على المركز السلطاني، سواء من القواد أم من قواد الحرْكات...

وقد وجهنا الاهتمام في أربعة اتجاهات

ـ مسألة الحرْكة كخطاب مخزني.

ـ تتبع لتطور ظاهرة المحال والحرْكات في الحوض الايناوني في النصف الثاني من القرن 19م.

ـ محاولة استجلاء الخصائص العامة لظاهرة الحرْكة، والتي تجعل منها نقطة التمفصل والتواجه بين المخزن والبادية، والحلقة الحقيقية للحضور المخزني ضمن القبائل.

ـ وننهي هذا الفصل بتحليل إحدى أهم وظائف الحركة الجباية.

I ـ مسألة الحرْكة في الخطاب المخزني

«وبعد، فبوصوله إليك نأمرك أن تجمع حركة إخوانك على حد الصائم من الخيل والرماة وتكون على أهبة بها لملاقات المحلة السعيدة، الموجهة لناحيتكم بِرًا بحيث

(8) انظر D. NORDMAN (م.س)، وم. اعفيف (م.س).

(9) «وقعت بعض الحرْكات الصغيرة، غير أني لم أحتفظ بذكريات في شأنها» بنسالم العبدي، مخبر ARNAUD (م.س)، ص. 43.

تجدكم هنالك في انتظارها، مجتمعين، ومن هنالك انهضوا معها على بركة الله مصاحبين لها، إلى بلادكم لاستيفاء الواجبات وغيرها من إخوانكم، وبعد قضائها الغرض عندكم انهضوا معها إلى من يليكم وهكذا حتى ترجعوا صحبتها»(10).

هذا ما كاتب به السلطان كلا من عمال التسول ومكناسة وسائر قواد قبائل شرق تازة إلى وجدة، إخبارا لهم بتوجيه حركة الأمير عمر ولده. وهذه الرسالة نموذج من مآت الرسائل التي نصادفها حول الحرْكة، والتي كان يبعث بها المركز بمناسبة توجيه إحدى الحرْكات. ونلاحظ أن الرسالة تستعمل لفظتي «المحلة» و«الحرْكة» وهما من الألفاظ التي كانت تطلق على التحرك المخزني، الذي كان يتخذ أشكالا عدة، تقابلها مصطلحات بنفس التعدد. فكان لابد من رصد تلك الأشكال وترتيب تلك المصطلحات حسب ما تحيل عليه من مستوى في التحرك المخزني، قبل أن نتعرض للصورة العامة التي نصادفها في الكتابة المخزنية حول الحرْكة والمحلة.

وأهم ما رصدناه من مصطلحات هو المحلة، والحرْكة، والمَدَد، والسوكَة والنزول. والواقع أن عددا من هذه المصطلحات تحيل على مدلول متداخل كما سوف نتبينه. وإذا كنا قد شعرنا بضرورة الترتيب والتدقيق والتمييز في هذه الغابة من الكلمات، فليس ذلك لهوس اصطلاحي، بقدر ماهو لضرورة مطابقة اللفظ مع الواقع. إذ أن مستويات التحرك المخزني متعددة ومختلفة سواء من حيث الحجم أو الأغراض في حين تُسْتَعْمل هذه المجموعة من الكلمات في شأنها بشيء من التداخل وربما الاضطراب.

المحلة والحرْكة

مصطلحان قد يعنيان نفس الظاهرة، وقد يستعملهما المؤلف أو الوثيقة بكيفية غير تمييزية، الواحد في مكان الآخر. فلما بعث السلطان، محمد بن عبد الله بن أحمد، في حركة الأمير علي إلى بني يزناسن، ككبير للعلّافة، واعترضته بعض الصعوبات في تعامله مع أمين الحرْكة كما مر في الفصل السابق، خاطبه أبوه: «هذه حرْكتك الأولى ينبغي لك أن تتحرى لِيَلّا يكون عليك عهدة»(11). لكنه لما أراد

(10) كناش 199، 19 شعبان 1892/1309.

(11) انظر الفصل 4، ص. 246.

نصحه في رسالة أخرى كتب له: «فإن عمل المحلة مخالف لعملكم هنا في البنيقة»(12).

بيد أن المعنى المُعجمي الذي تحمله كل من اللفظتين يختلف جوهريا: فإذا كانت المحلة تشير إلى مكان الإقامة، أو إلى جماعة أو قافلة أو جيش وقتَ المقام، فإن الحرْكة تحيل بالأحرى على نفس المجموعة، لكن حالة تحركها وتنقلها من مكان إلى آخر(13). هكذا قد لا تعدو لفظتا المحلة والحرْكة أن تعبرا عن لحظتين متمايزتين ومتكاملتين من نفس الظاهرة: المقام والتنقل بالنسبة لنفس الحملة على خط مسيرها.

غير أن هذا التحديد المعجمي لا يسعفنا كثيرا حينما نريد استكناه ما تغطيه اللفظتان في الوثائق والمصادر المتوفرة. فمن خلال استقراء عدد من المراسلات السلطانية حول المحال والحرْكات تبين لنا أن السلطان يستعمل باستمرار لفظة «المحلة» للدلالة على الجيش الموجه من المركز المخزني، سواء حضره هو شخصيا أم استخلف فيه أحد أعضاء أسرته، وسواء كان ذلك الجيش في حالة الإقامة أم في حالة الظعون(14).

على العكس، تميل الرسائل الوافدة من القواد، إلى استعمال كلمة «الحرْكة» للدلالة على المحلة، وقد انتشر هذا الاستعمال أيضا عند مؤلف مثل ابن زيدان حتى أعطى أرقاما متتابعة لمحال السلطان الحسن، التي يسميها «الحرْكات التسع عشرة»(15).

والواقع أن الرسالة السلطانية كانت تقصر استعمال لفظة الحرْكة بكيفية دقيقة على من يساهم من الفرقة أو القبيلة من «حُرّاك» ضمن المحلة، كما ورد في الرسالة التي أثبتناها في مستهل هذه الفقرة. بهذا المعنى تكون «الحرْكة» هي تلك الضريبة البشرية (الحُرّاك) والمالية («الراتب» أي ما يفرض على القبيلة أن تزود به

(12) و.ز.ج 25، و. 403. 12 جمادى 1، 1875/1292.

(13) ابن منظور، **لسان العرب**، ج 11 = «المحلة منزل القوم» وج 10، ص. 410 = «الحركة ضد السكون»، بيد أن الحرْكة تحيل أكثر من المحلة على الدلالة العسكرية: «الحارك: منبت أدنى العرف إلى الظهر الذي يأخذ به الفارس إذا ركب» و«حركه بالسيف (...) إذا ضرب عنقه».

(14) مما يعطي هذه المفارقة من وجهة المعنى اللفظي «مولاي عمر (...) وصل كتابك [مخبرا بـ] **نهوض المحلة** السعيدة من وطا بوعبان (...) قاصدة بلاد تسول» انظر كناش 199.

(15) ابن زيدان (م.س)، ج 2. ص ص. 277-279.

حُرّاكها) التي تطلب من القبيلة كلما عبرتها محلة ما. فهل احتفظت الذاكرة الجماعية، بهذا الجانب فقط، من المحلة، وهو الجانب الذي يمس حياة السكان المباشرة، فعممت معناه، حتى شملت به كل ظاهرة التنقل والمقام المخزنية(16)؟

ولعله من بالغ الدلالة أن يشدد المركز على «المحلة» التي تحيل على الإقامة واحتلال المجال، وإظهار السطوة فيه، في حين يميل السكان إلى استعمال لفظ «الحرْكة» الذي يرمز إلى جيش مقبل محتمل الخطورة.

هذا الفرق في التصور المخزني والشعبي للفظتين دفعنا إلى محاولة تحديد دقيق ومختلف للمصطلحين. وقد أسفر استقراؤنا لجملة هامة من الوثائق المخزنية المتعلقة بظاهرة التنقل، عن فرز مستويين رئيسيين: هما المحلة السلطانية والمحلة غير السلطانية التي نقترح قصر تسمية «الحرْكة» عليها، حتى ننقل إلى مستوى اللفظ، التمايز الحاصل في مستوى الفعل.

يتبرر حصر تسمية «المحلة» في المحلة السلطانية، ليس فقط لكون المركز المخزني يفضلها باستمرار، بل كذلك نظرا لكون التحرك الذي يحضره السلطان، نظرا لضخامته، وكثرة المشاركين فيه، ومدى ما يرتجى من وقع في العقول من مروره، نظراً لكل ذلك، فإن ذلك التحرك غالبا ما يكون بطيء السير، تتخلله مقامات مطولة، مما يبرر هذا التحديد حتى على الصعيد الدلالي(17).

أما لفظ «الحرْكة» فإنه يصدق بصفة أكثر على المحلة غير السلطانية، تلك «الحملات الصغرى» بتعبير Erckmann. وبناء على خفتها الناتجة عن صغر حجمها، وبناء على عدم ارتباطها بشخص السلطان، وبالتالي على إمكانية تعددها بتعدد قوادها، فإنها تمثل أهم التنقلات المخزنية بالبادية، ويمكن القول إن معظم السكان عرفوا ظاهرة التنقل المخزني بالضبط عبر هذه الحرْكات.

وتختلف الحرْكات عن المحال في بعض الوظائف ومن حيث الحجم. فإذا كان

---

(16) انظر JAMOUS مثلا ص ص، 226–231.

(17) NORDMAN (م.س)، ص. 147، يعطي جدولا يبرز هذه الظاهرة: محلة الشمال سنة 1889 مثلا، أقامت في محطات متتالية: 25 يوما، ثم 18 يوما، 15، 13 و7 أيام. مما يعطي نسبة مقام تساوي 57،25% من مجموع الرحلة (78 من أصل 136). في حين لم يتجاوز معدل تنقلها 16،25 كلم في المرحلة.

تقدير المحال يتراوح على العموم بين 10.000 و20.000 رجل[18] فإنه لا يبدو أن الحرْكات قد تجاوزت 4000 إلى 5000 رجل. وقد لا يفوق عدد المساهمين فيها ألفين (انظر ص. 321-323)

فالحركة إذاً، مستوى طيع وفعال من التحرك المخزني يمكن اعتباره أهم قناة للإشعاع المخزني بالبادية. وعلى العكس من المحال التي قد ترمي إلى غايات متعددة بتعدد وظائف السلطة المركزية، بما في ذلك مجال السياسة الخارجية (محلة وجدة، ثم محلتا سوس)، فإن أبعاد الحرْكة تبدو داخلية صرف في أغلب الأحوال، وترتبط بالأساس، بإعالة الجيش الذي يؤكد حضور المركز على الصعيد المحلي، وبالجانب الجبائي كما سوف نعود إليه.

حددنا المقصود من لفظتي المحلة والحرْكة ويبقى أن نتبيّن موقع الألفاظ الأخرى **السوكَة والمدد** ثم **النزول**. هذه الكلمات قد تستعمل للتدليل على وجه من وجوه المحلة أو الحرْكة، وقد تعمم في الوثائق لتشمل مجموع إحداهما. لكن «السوكَة»[19] هي في الغالب عبارة عن هجوم موقوت، محدد زمانا ومكانا، تأديبي انتقامي من فرقة ما أو قبيلة لم تستجب لأمر أو مطلب. السوكَة هي إذا تلك الفرقة من الجيش، التي تنفصل عن المحلة أو الحرْكة في هذا الإتجاه أو ذاك، بهذا القصد الهجومي الواضح كما جاء ذلك في رسالة من القائد قدور بن عمرو التسولي إلى السلطان، تروي أخبار حرْكة عبد السلام المراني سنة 1895 «ومقصودهم عدم إنالتهم الأحكام وهم بني مقورة [من التسول]، فراودهم الشريف كبير المحلة فامتنعوا من الرجوع والاستقامة فأمرنا بالصوكَة إليهم وقاتلناهم أشد القتال وحرقنا مداشرهم ومات من إخواننا أناس وانجرحوا أناس ومنهم كذلك ولما كان من الغد أمر الشريف كبير المحلة بالصوكَة إليهم وتقدمنا إليهم مع المحلة والمدفع ففروا بأنفسهم لبلاد البرانص وحرقنا جميع دشورهم ورِتْلنا [أفسدنا] زرعهم...»[20].

أما **المَدد**، الذي هو أيضا وجه من وجوه الحرْكة أو المحلة، إذ أن كلا منهما قد يكون أحد أهدافه إمداد الممثلين القارّين بالدعم والسند، فإنه غالبا ما يعني

---

(18) NORDMAN (م.س)، ص ص. 140-141.

(19) هل لهذه اللفظة علاقة مع «سوق الحرب» = «حومة القتال» (ابن منظور)؟

(20) ر.م.غ.م. 29 شوال 1312/1895.

مستوى أدنى من الحرْكة وذَا وظيفة تختلف عن السوكَة. حجمه يتراوح فيما بين العشرات والمآت، ويوجه إما من العاصمة أو من المحلة أو الحرْكة المخيمة، لتعضيد قائد لاقى صعوبات في تنفيذ أمر، أو استخلاص مطلب مخزني. وقد سبق لنا أن استشهدنا عدة مرات برسالة مطولة للمختار اللنطي التسولي. ونجد فيها ما يلي حول «المدَد» «وقبيلة تسول كثرة [كذا] زروعْهم ومواشيهم واستغلضوا وصاروا كالغابة التي لا يرد عليها أحد فتكبر فيها السباع والوحوش كذلك قبيلتنا في هذه الساعة يجب تعشيبها [تشذيبها] ليظهر ما بداخلها من الوحش بسهولة» ويعتبر اللنطي أن أصل هذه الحالة إنما هو «من عدم حلول المدَد الشريف لبلادنا» لذلك ينهي الرسالة «فنطلب من مولانا أن يساعدنا في توجيه المدَد السعيد لأن الدين لا يقوم إلا به وهذا إبانه...»(21).

إذا كنا فيما سبق قد نبهنا إلى أن اللنطي من القواد الذين رددوا الصورة المخزنية حول القبيلة على خير وجه، فإن هذا المقطع يزكي تلك الملاحظة ويعطينا أيضا، فكرة، حول إحدىَ وظائف الحرْكة كما سنقوله إبراز النفوذ المخزني في عين المكان، والذي ورد هنا بعبارات غير مباشرة «تعشيب»، «الدين لا يقوم إلا به»... بيد أن الاستشهاد بها هنا يهدف فقط إلى إدراج نموذج من التداخل الذي تفصح عنه المراسلات المخزنية بين لفظتي «مدَد» و«حرْكة» (أو محلة). ومن الواضح هنا أن اللنطي يطالب بتوجيه الحرْكة إلى قبيلته، حينما يقول «وهذا إبانه»، (أواخر يونيو) فإنه يعني أن الحرْكة تستطيع في نفس الوقت أن تعيش على ظهر القبيلة وتعاقبها بما أن الإبان هو وقت جمع المحاصيل.

وإذا كان اللنطي قد طلب «المدَد» وهو يعني «الحرْكة»، فإن قواد الحياينة قد طلبوا من حرْكة العربي ولد أبّ محمد التي كانت تتطوف بين ظهرانيهم سنة 1892-1893 أن «تشد لهم العضد» بأمْداد محددة كما جاء في هذا الملخص : «الجعفري، وصل كتابك بأن الجعافرة السفلى كانوا خرجوا عن الجادة (...) وطلبت إنزال المدَد عليهم حتى يؤدوا ما بذمتهم (...) فقد أصدرنا الأمر لكبير المحلة به»(22). وقد ورد في ملخص آخر تعيين عدد المدَد «العلياني والتخيلي، وصل جوابكم عما

(21) ر.م.غ.م. من اللنطي إلى السلطان - متم شعبان 1884/1301.
(22) كناش 707، ص. 94، 11 جمادى 1، 1892/1310.

أمرناكم به من حمل أعشار حبوبكم واصلة للهربي السعيد بأنكم طلبتم من ولد أبّ محمد شد عضدكم على ذلك بمائتين من العسكر (...) فقد أمرنا بتنفيذهم لكم»[23]

أما كلمة «النزول»، وكما سبقت الإشارة إليه، فقد يتراكب مدلولها والمصطلحات السابقة. إذ أن النزول قد يعني جانبا من وظائف وممارسات كل من «الحركة» أو «المدَد»، «فينزل» الجيش بثقله البشري، وخطره المحتمل في شأن الحياة والموت، والمحقق في شأن إتلاف المحاصيل والسطو على الممتلكات، حتى تنصاع المجموعة المنزول عليها إلى التنفيذ[24].

وقد كان في «النزول»، درجات كما نستشفه من الرسالة التهديدية التي بعث بها السلطان إلى بني سادن حينما أووا فرقة من الحياينة «فإنكم إن أبقيتموهم عندكم فلا يعجبكم حال (...) وقد وجهنا حامله قائد الرحى ومن معه من الخيل للنزول عليكم حتى تنفذوا، وقد أمرناهم بعدم النهوض عنكم حتى لا يبقى منهم أحد عندكم وإلا أمرنا ولد أبّ محمد بالنزول عليكم حتى تنفذوا»[25]. فإن لم ينفع «النزول» الصغير لجأ السلطان إلى النزول الكبير، وهو نزول كل الحركة.

على أنه من الجائز حصر معنى «النزول» فيما تحيل عليه هذه الرسالة كمستوى أول، إذ ترد هذه الكلمة بهذا المعنى بتواتر أكثر. فالنزول إذاً هو توجه عدد محدود من العسكر أو من أعوان المخزن، إلى فرقة أو شخص بقصد الزامه الخضوع لأمر ما فض نزاع، فصال دين، أداء متأخر...

ماذا نستخلص من هذه الجولة الاصطلاحية ؟ إن تضخم الألفاظ التي تصف ظاهرة التنقل المخزني، تعكس على أفضل وجه، مدى تنوع وتداخل هذه الظاهرة التي لا يمكن إيجازها كما جرى حتى الآن، في المحلة السلطانية. ولعله أصبح واضحا، أن ثمة جملة من الخصائص تميز الحركة عن بقية أصناف التحرك الأخرى من محلة أو سوكَة أو مدد أو نزول أشرنا إلى بعضها، وسوف ندقق في بعضها

(23) كناش 707، ص. 103، 14 جمادى 1، 1892/1310.

(24) تحتفظ الحياة اليومية الراهنة بهذا المصطلح في شكل ساخر: «النزول» ضيافة مفروضة يكون على الشخص أن يكفر بها عن خطإ ارتكبه في حق أصدقاء أو أحباب.

(25) كناش 707، ص. 44. 21 ربيع 2 1892/1310.

الآخر عند تعرضنا لوظائف الحركة. تلك الخصائص تجعل من الحركة المستوى الإجرائي لقياس الحضور المخزني، فعاليته وعواقبه ضمن الساكنة، وهذا ما برر اهتمامنا بها قبل المستويات الأخرى.

ولعله اتضح أيضا أننا خلال تعرضنا لمختلف التحركات المخزنية، وبالرغم من المجهود، لم نستطع دائما الإفلات من التصور العام الذي نسجه الخطاب المخزني عن الحركة والذي ردده الكتاب والمؤلفون، ورسخته المراسلة المخزنية، حتى قرأنا ضمن الرسائل المدرجة أعلاه ما قرأناه عن القبيلة «كغابة» في حاجة إلى التشذيب من طرف الحركة التي «لا يقوم الدين إلا بها».

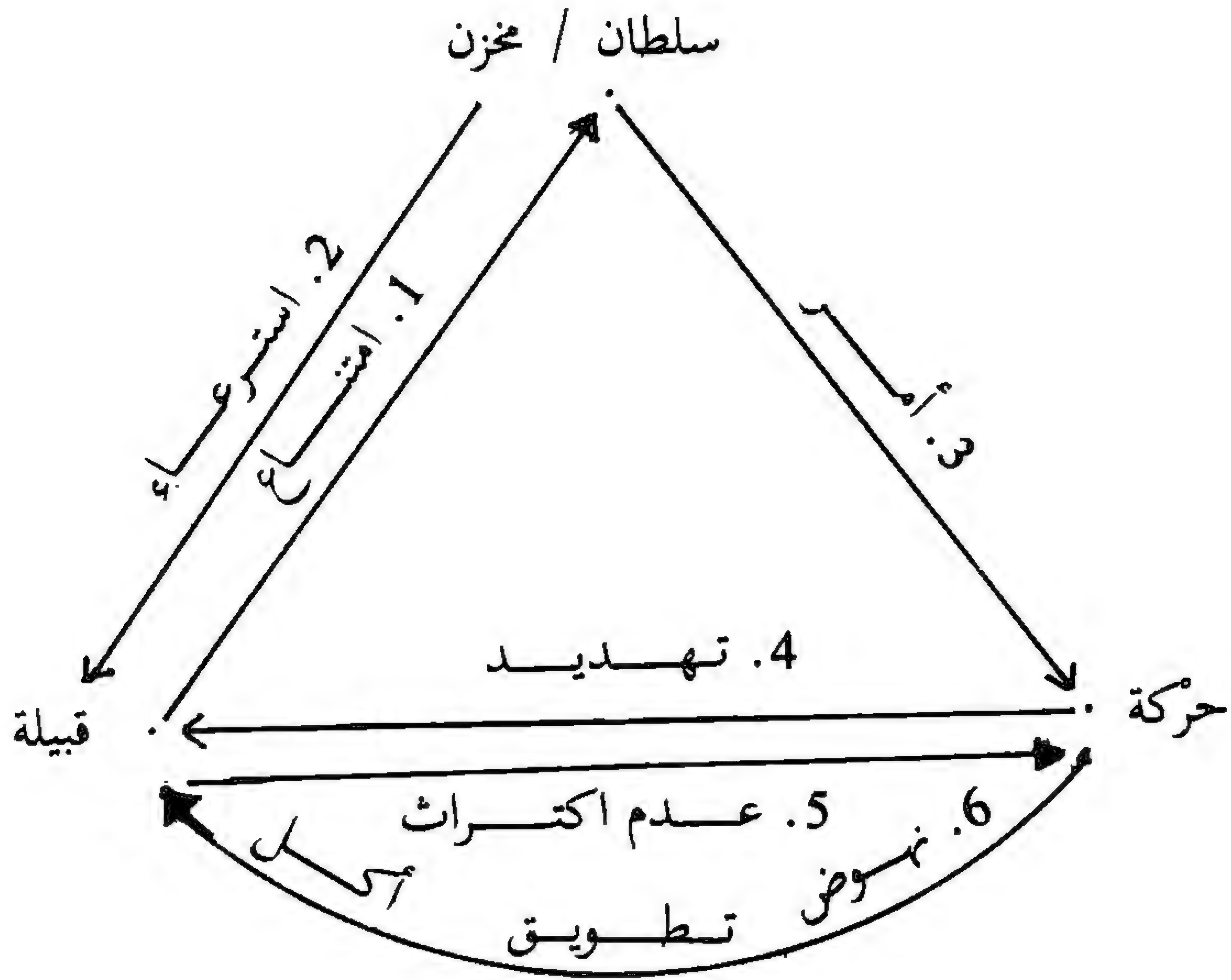
فما هو التصور المخزني العام عن الحركة ؟ من رسالة إلى أخرى ومن مخطوط إلى آخر، تتكرر نفس الصورة الحركة رد فعل مخزني استدعاه موقف سابق من طرف الفرقة أو القبيلة، سواء كان توجه الحركة بطلب من القائد أو الشريف المحلي أو بقرار من السلطان كما جاء في رسالة من السلطان المولى عبد الرحمن إلى ولده سيدي محمد.

«واعلم أن جل الحياينة وخصوصا أولاد ارياب منعوا الحقوق وأظهروا العقوق، فطلب عاملهم خروج المحلة إليهم فوجهناهم صحبة ولدنا الأبر مولاي سليمان (...) فوقع منهم وعد وإخلاف، ومنع وإرجاف، فنهضت المحلة المنصورة إليهم وأحاطت بالمفسدين وأخذتهم أخذة رابية ولاذوا بالفرار وتركوا الأموال والأنعام، فامتلأت أيدي المحلة منها وقبضوا وقتلوا»(26)..

(26) 4 جمادى الأولى 1258 / 13 يونيو 1841. ابن زيدان، **الإتحاف** ج5، ص50. اعتمدنا هذه الرسالة الرحمانية، وكان بإمكاننا تعويضها بسهولة بأخرى إسماعيلية أو ثالثة حسنية. ثم إننا نصادف نفس التصور في الكتابة التقليدية كما يمكن الرجوع إليه عند الضعيف مثلا: ص. 257 و. وقد توصل J. BERQUE إلى رسم نفس الصورة تقريبا اعتمادا على **بستان** السباعي:

J. BERQUE, **L'intérieur du Maghreb**, pp. 483-4

شكل 9 الحرْكة في الخطاب المخزني



وقد سبق لنا وأن أكدنا على كون الكتابة المخزنية كيفما كان صنفها، غالبا ما تسجن القبيلة في موقع «البادىء»، أي «الأظلم». فهي التي تبادر بالخروج مما انخرطت فيه الجماعة، فترفض الطاعة والاستجابة، مما يجعل المخزن في حاجة إلى تجهيز الحرْكة لرد الأمور إلى نصابها. فيكون المخزن حسب هذا التصور في موقع الدفاع لا الهجوم، ويمكن القول إن المركز المخزني لم يكن يقرن هذا التصور بأي من نشاطاته أكثر مما كان يقرنه بالحرْكة أو المحلة.

وترتبط صورة الحرْكة هذه بما سبق ملاحظته حول الإيديولوجيا المخزنية بصفة عامة. وقد ذكرنا أن المخزن يصبغ سلوكاته بمسحة من الأبوية، نجد خير تعبير عنها في المراسلات، بصدد الحرْكة، إذ ينقلب الرفض إلى تكاسل وتراخ ويستحيل القمع إلى تربية وتقويم اعوجاج[27].

صحيح أن السلطان كان أحيانا يمعن في الامتثال لهذه الصورة الأبوية، فيؤجل استعمال العنف إلى آخر لحظة. ومن الخطأ الشائع اعتبار الحرْكة جولة عسكرية

(27) انظر ما أوردناه في الفصل السابق، ص. 232.

بسيطة التكوين والإنجاز، تتم في وسط معاد وتنتهي بقطع رؤوس قبل العودة إلى مكان الإنطلاق. بل إن ظاهرة الحرْكة أكثر تعقيدا من ذلك، إذ يحاول المخزن التقيد بجانب من الصورة التي يرسخها حول نفسه، ونلاحظ أن ذلك التقيد كان يتقوى كلما كان السلطان بعيدا(28).

ففي النزاع الذي نشأ بين أهل تازة وقائدها قدور بن الحسين الجامعي، في صيف 1878، والسلطان وقتئذ بمراكش، منذ سنة ونصف، وجدنا الصدر يشير بالمرونة القصوى قبل اللجوء إلى العنف حتى في حالة بعث الحرْكة. ولعل ما توضحه الرسالة من دقة تقدير المركز لهشاشة بناه المحلية كلما ابتعُد مركز إشعاعه، يغني عن كثير تعليق

«أخانا (...) الباشا (...) عبد الله بن أحمد (...) وبعد فإن مولانا (...) بعدما كتب لكم في شأن قضية أهل تازا وبين لكم الوجه الذي تباشرونها به إن كانوا هم الظالمين وما يكون فيها إن كانوا مظلومين أمرنا بالكتابة لكم بأن تركنوا للسكينة وترقيع الخرق على كل حال سواء كان العامل ظالما أو مظلوما وتحرصوا على جعل سداد بينه وبينهم وتأويل وتؤخروا أمر الحركة بكل ما أمكن (...) حتى يكون سيدنا (...) وينظر في تأخير العامل وإخراجه من الخدمة بسياسة وعزٍّ لا غضاضة فيه على المخزن ولا جسارة للعامة، نعم إن اقتضت المصلحة توجيه الحرْكة ولم تجدوا عنها مندوحة بوجه من الوجوه فأقدموا على ذلك (...) وإذا توجهت الحرْكة فأوصوا الكبير المتوجه معها بأن يهدّدهم ويرهبهم ويضيق بهم لا غير، ولا يضربهم بالبارود ولا يطلق للمجلة يد الضرب به ولابد، وفي حالة إرهابهم وتهديدهم تكون مباشرة جعل التأويل والسداد بينهم وبين العامل ولتكن على يد أهل الخير مثل الشريف سيدي ادريس بن زين العابدين، فإنه يعرف ما يأتي وما يذر فيها (...) وإذا لم يُجْدِ الإرهاب ولا التهديد شيئا فحينئذ يكون الضرب بالبارود والحاصل يكون ضربهم هو آخر وجوه مباشرة أمرهم»(29).

---

(28) كان AUBIN شديد الدقة حينما قرر أن المخزن جهاز من أبسط الأجهزة في حين أن استعماله وممارساته من أعقد الأشياء، (م.س)، ص. 245.

(29) و.ز.ج. 25. و.28. من موسى بن أحمد إلى عبد الله بن أحمد، 27 شعبان 1295 (سجل الناسخ خطأ 1293)/1878، وهي نموذج من مراسلات أسرة آل أحمد من حيث الدقة والسرية، بحيث نادرا ما لا تكون أفيد من بقية مثيلاتها. وعن تعسفات القائد المرفوض من طرف أهل تازة انظر: و.ز.ج.

وقد نستقصي في البحث عن مطابقة الواقع للتصور المخزني حول الحرْكة فنجد نماذج من حرْكات لم تبعث إلا بعد استشارة الممثلين المحليين كما جاء في رسالة من عامل تازة إلى السلطان «ورد علينا الكتاب الشريف (...) بأن قبائل هذه الناحية تازا [كذا] ونواحيها كالاحيانية [كذا] وما يليهم من الجوار تعلقت بذممهم حقوق من الواجب وغيره عن السنين الماضية قد اقتضى نظره السديد توجيه حرْكة معتبرة تنزل وسطهم لاستخراج ما ذُكر واستأشرنا [كذا] مولانا هل يحصل المراد بتلك المحلة في هذا الإبان أم لا (...) اعلم سيدي أن المراد يحصل (...) ممن ذكر بالطرة...»[30].

أن يجيب العامل بمثل هذا ليس سوى أمر طبيعي إذا ما استحضرنا ما سبق أن قرأناه من رسائل اللنطي التسولي. بيد أننا نعثر على حالات، قليلة ولاشك، طالب فيها سكان القبيلة المركز المخزني ببعث الحرْكة ليسلموها ماهم مطالبون به، بدلا من تسليمه مباشرة لقوادهم، اعتبارا ولاشك لشدة عسف أولائك القواد[31].

تلك كانت صورة الحرْكة في الخطاب المخزني، وبعض نماذج السلوكات المخزنية إبان أو بصدد الحرْكة التي كانت ترمي إلى ترسيخ تلك الصورة. ومن السهل أن نلاحظ أنها ـ كأي صورة ـ تقفز على الزمان والمكان، وتختزل الواقع المعقد لصالح الرؤية المخزنية. بيد أن الواقع يظهر من خلال الوثائق المخزنية ذاتها في ثوب مغاير ومعقد. ذاك ما حاولنا استجلاءه عبر تطور ظاهرة الحرْكة عبر ايناون خلال النصف الثاني من القرن 19م.

8، و416. من المحتسب وكافة أهل تازة إلى عبد الله بن أحمد، 29 شوال 1878/1295: «قد أفسد بلادنا وشتت شملها ولم يترك فيها ما يصلح لنا (...) وكلها صارت مفتقرة على ما فعل بها.»

(30) ر.م.غ.م. ـ خ.ح. 16 محرم 1301/نونبر 1883. من عبد الله الزراري إلى السلطان. ولم تذكر بني وراين في الطرة.

(31) هذا ما يرويه THOMAS :(A.M.G, Maroc, C. 6, Rapt. Oct. 1891) ولم نجد صدى لهذا الطلب في المراسلات المخزنية، عدا ما أجاب به السلطان في كناش 708، ص. 220، بتاريخ 11 ربيع 1، 1309/ أكتوبر 1891: «أحمد التخيلي ومن معه من الأمناء والأشياخ وصل كتابكم طالبين توجيه الخراصة لعد الماشية والوقوف على الأنذر (...) فقد أصدرنا أمرنا (...) بتوجيههم لكم...» فهل وقع THOMAS في خلط مزدوج، فجعل طلب القائد والأمناء والأشياخ، طلبا للسكان، وفهم من طلب توجيه الخراصة، طلبا لتوجيه الحرْكة؟ مثل هذا الخلط وارد، إذ أن تقارير THOMAS تقل دقة عما كان يحرره CAUCHEMEZ. ثم إن السلطان كان وقتها بمراكش، أي أن المقرر العسكري الفرنسي الذي كان يرافق السلطان، كان بعيداً عن ميدان الخبر الذي يسوقه. كل هذا يجعلنا نتحفظ في هذا الخبر، بالرغم من إدراجنا له كحالة كانت محتملة.

II – تطور ظاهرة الحركة بإيناون

إن أي تفكير جدي حول ظاهرة الحركة في واقع تطورها وما تحيل عليه من علاقة بين السكان والمركز، أو بين المركز وممثليه المحليين يستلزم من الباحث التسلح بعمق تاريخي مقبول، حول هذه الظاهرة حتى لا تكون المقارنة مبتسرة أو الاستنتاج هشا.

ونستطيع تتبع أخبار عدد من الحركات بدقة كبيرة إذ أن المخزن مثل الملاحظين الأجانب كانوا يولون لهذه التحركات كبير الاهتمام. فمن خلال مقابلة الوثائق المخزنية سواء صدرت عن السلطة أو صدرت عن قواد الحركة أو عمّن سميناهم بالركائز المحلية للنفوذ المخزني، بوثائق البعثة العسكرية الفرنسية والتقارير الدبلوماسية المختلفة (الفرنسية والإنجليزية بالخصوص)، توصلنا إلى بناء كرونولوجيا لِأهم الحركات والمحال عبر ايناون في النصف الثاني من القرن الماضي، ثم جاوزنا ذلك فركبنا ما توفر لدينا من معطيات عن النصف الأول منه، فكان هذا الشطر بالضرورة أقل ضبطا إذ اعتمد في الغالب على الإشارة العابرة في المصدر الإخباري أكثر مما استند إلى الوثيقة المعاصرة للحركة.

والوثائق المخزنية دقيقة في كل ما يتعلق بتاريخ الوقائع التي تعيشها الحركة أو السكان بمناسبتها، لكنها تتركنا على لهفنا فيما يتعلق بعدد المساهمين في الحركة ونوعية الأسلحة المستعملة... وقد تصبح هذه الملاحظة، عديمة الصحة لو أتيح للباحث الاطلاع أكثر على ذخيرة القوائم الحسابية التي نوّهنا بأهميتها غير ما مرة.

بيد أننا إلى ذلك الحين، وحتى في ذلك الحين، لن نستطيع الاستغناء عن وثائق البعثة العسكرية الفرنسية إذ أن تلك البعثة كانت أيضا فرقة استخبارات بالبلاط المغربي، فكان من أشغل شواغلها الرقم المضبوط. هذا ما وفر لنا إمكانية سد جانب من الثغرة المشار إليها أعلاه. على أن انحباس البعثة الفرنسية في العاصمة وكونها لا تصاحب سوى المحال السلطانية، جعل أخبارها عن الحركات دقيقة فقط عند المنطلق ثم عند الإياب. أما ما يتخلل الحركة، فإننا لا نجد عنه تعبيرا أوضح مما في المراسلات المخزنية.

من خلال كل ما سبق أمكننا وضع الجدول التالي

جدول 20 كرونولوجيا الحرْكات المخزنية بإيناون في القرن 19م

تاريخ الحرْكة	اتجاهها القبائل التي تمر بها	قائد الحرْكة أو المحلة	الحجم	مدة التنقل	مستقر السلطان
1808	شرق تازة	س. سليمان	25000	أزيد من شهر	
1812/1227	تسول	س. سليمان	–	–	
1814/1229	غياثة	ق. محمد السلاوي	–	–	
رجب 1237/ أبريل 1822	غياثة	س. سليمان	–	–	
1254/يوليوز 1838	غياثة	س. عبد الرحمن	–	–	
1258/يونيو 1842	أولاد رياب الحياينة	سليمان بن عبد الرحمن	–	–	
1263/غشت 1847	غياثة والنواحي	محمد بن عبد الرحمن وولد أبّ محمد	–	حوالي 5 أشهر	
1264/أكتوبر 1848	غياثة	س. عبد الرحمن	–	–	
1283/مارس 1867	الحياينة	–	349(مدد)		
1286/ماي 1869	غياثة	عبد السلام أخو السلطان	4000 («حرْكة»)		
1288/غشت 1871-فبراير 1872	مليلية * (الحياينة)	عبد الهادي بن عبد المالك العربي ولد أبّ محمد		حوالي 6 أشهر	
1291/غشت نونبر 1874	الحياينة – بني سادن – بني وراين – غياثة تازة – سلوان	س. الحسن		حوالي 3 أشهر	فاس

تاريخ الحركة	اتجاهها القبائل التي تمر بها	قائد الحركة أو المحلة	الحجم	مدة التنقل	مستقر السلطان
1292/ماي ـ شتنبر 1875	الحياينة ـ غياثة سلوان ـ بني يزناسن.	الأمير علي ـ عبد الرحمن الزراري (محمد بن عبد الله بن أحمد).		حوالي 5 أشهر	فاس
1293/يوليوز ـ أكتوبر 1876.	الحياينة ـ بني وراين ـ غياثة وجدة.	س. الحسن	12000 ـ 20.000 30 مدفعا.	أزيد من 3 أشهر	
1877ـ1879	ـ	ـ	ـ	ـ	مراكش
1296/دجنبر 79 غشت 80؟	نواحي تازة	الأمير الأمين	2000	9 أشهر	فاس
1881ـ1883	ـ	ـ	ـ	ـ	مراكش
1301 / 20 يوليوز ـ 29 نونبر 1884	أحواز تازة الحياينة ـ تسول ـ البرانس	العربي ولد أبّ محمد.	740 1 مدفع	4 أشهر و9 أيام	مكناس
1301/يونيو 1884	بني وراين (الحياينة)	قاسم الشركَي		شهر	فاس
1301/يوليوز 1884	الريف (الحياينة ـ تسول).	محمد المراني	1200 + 2 مدفعان	؟	فاس
1885ـ1887	ـ	ـ	ـ	ـ	مراكش
1305/مارس 1887	عمالة وجدة (الحياينة ـ التسول).	الأمير بوبكر عم السلطان، عبد المالك السعيدي			
1305/شتنبر 87 ـ ماي 1888	الحياينة ـ التسول	الطيب الشركي (أخو العربي ولد ابّ محمد)	ـ	8 أشهر	مكناس
1306/11. 2ـ89.3.5	غياثة (الحياينة)	محمد الصغير الجامعي.		23 يوما	فاس
ماي 1889	غياثة (نزول على مكناسة).	العربي بن بوعزة الوديي	40 فارسا (نزول)	1 شهر	فاس
				ـ	فاس

تاريخ الحركة	اتجاهها القبائل التي تمر بها	قائد الحركة أو المحلة	الحجم	مدة التنقل	مستقر السلطان
يونيو 1889	غياثة (الحياينة)	أحمد الصويري	مآت من الفرسان.	–	فاس
يونيو ـ أكتوبر 1889	طنجة (الحياينة)	س. الحسن	12500	4 أشهر (منها حوالي شهر بالحياينة)	
1307 / 89.12.31ـ 1890.5.13	التسول والبرانس (الحياينة)	عبد المالك السعيدي	1100	5 أشهر ونصف	فاس
1890.2.15	(تدعيما).		900		
دجنبر 89ـ17. 1890.5.	وجدة (الحياينة تسول)	المعطي الجامعي (أخو العلاف)	1500	5 أشهر ونصف	فاس
17دجنبر89ـ؟	الحياينة	؟	200		
1890ـ1891	–	–	–	–	مراكش
1309ـ1310/ ـ1892.5.9 مارس 1893.	وجدة (الحياينة التسول والبرانس)	الأمير عمر ابن السلطان	1000 3 مدافع	10 أشهر	فاس
1892.5.28 ـ مارس 1893	الريف (الحياينة)	الأمير عثمان، أخو السلطان.	–	9 أشهر	فاس
1892.6.11 ـ مارس 1893	الحياينة بني سادن	ولد ابّ محمد	2100 1 مدفع	قرابة 9 أشهر (منها 1 عودة الى فاس).	فاس
ماي 1893	الحياينة	الزمراني	200 («نزول»)	؟	
1312/10. 94ـ1895.8	الحياينة ـ التسول	الأمير الأمين ثم عبد السلام المراني	–	11 شهرا	فاس
14مارس1895	وجدة (الحياينة البرانس)	عرفة عم السلطان	–	–	فاس

(*) وضعنا بين قوسين القبائل التي تعبرها الحركة أثناء تنقلها، وخارج القوسين القبيلة أو المدينة هدف الحركة. ونظراً لكثرة المصادر وتنوعها أعفينا القارىء من إثقال الجدول بها.

ملاحظات حول كرونولوجيا الحركات المخزنية بإيناون

ـ يكاد يشمل هذا الجدول قرناً من الزمن لكنه يتضمن ثغرة كبيرة فيما بين 1848 و1867، ومن الواضح أن ثغرة هذه العشرين سنة تعود إلى نقص في مصادرنا وليس إلى توقف في ظاهرة الحركة بإيناون.

ـ نلاحظ مدى اهتمام السلاطين بهذا الممر الحيوي، إذ أن كلا منهم قاد المحلة عدة مرات عبره.

ـ لا نستطيع ادعاء الاستقصاء، ولاسيما فيما يتعلق بالنصف الأول من القرن. في حين لا يبدو أنه عزب عن اطلاعنا الكثير من الحركات بايناون، إبان الفترة الحسنية، ولاسيما خلال شطرها الثاني.

ـ من خلال ما توفر من معلومات، يمكن استنتاج تزايد في ترددية الحركات على امتداد قرن، وهو ما قد نجد له ارتباطا بازدياد حاجيات المخزن المالية المعروفة. وعلى كل فإن فترة المقام خارج القاعدة السلطانية، طالت بالتدريج نحو نهاية القرن، بكيفية جلية.

ـ يبدو تعاقب ملفت للانتباه، بين فترات تتعدد فيها الحركات (1874ـ 1876، 1884ـ1885، 1889ـ1890، ثم 1892ـ1893) وأخرى تقل فيها (1881ـ1883، 1885ـ1887، 1890ـ1892). ومن المثير أيضا أن كثرة الحركات ترتبط بحضور السلطان بفاس وقلتها تتزامن ومقامه بعيدا، بمراكش.

ـ استمرارية بعض قواد الحركات في التعاقب على رآستها في دائرة معينة : (ولد ابّ محمد مثلا بالنسبة للحياينة والتسول).

كل هذه ملاحظات سوف ندققها خلال ما يأتي من تحليل.

نستطيع أن نحلل بكل تدقيق جوانب عدد من الحركات التي سجلناها في الجدول السابق، مثل حركة الأمير علي سنة 1875 أو حركة السعيدي إلى التسول سنتي 1889ـ1890، لأننا نتوفر حولها على ملفات شبه كاملة. لكننا لا نرى في ذلك فائدة إذ أنه إذا ما تجاوزنا الجانب الحدثي الصرف، والمتعلق بكل حركة على حدة نجد أن المعطيات تكاد تتشابه من حركة إلى أخرى، وهذا ما جعلنا نقتصر على

تحليل عينة نموذجية من تلك الحرْكات، وهي التي حدثت سنتي 1892–1893، نظرا لقابليتها لعقد العديد من المقارنات.

وتبدو الحرْكة من خلال كل ذلك نموذجا مصغرا من المحلة، يمثل السلطان فيها خليفة، غالبا من الأسرة الحاكمة، أخ أو عم أو ابن للسلطان (الأمراء علي، الأمين... إلخ) لكن قد يكون أيضا من الأسر الجيشية الكبرى. ففي سنة 1892، بعث السلطان بثلاث حرْكات نحو شرق وشمال فاس نحو وجدة، والريف، ثم نحو الحياينة، واستخلف فيها على التوالي ابنه عمر وعمه عثمان وخاله وأحد كبار قواد الجيش العربي ولد ابّ محمد.

إلى جانب الخليفة، هناك قائد للمحلة، وعلاف، وأمين (في حرْكة 1875 كانت هذه المناصب بيد كل من الأمير علي، ثم عبد الرحمن الزراري، ثم محمد بن عبد الله بن أحمد).

ويصحب الحرْكة أيضا شريف وزاني، يمثل بالنسبة للقبائل سلطة البركة التي تعزز أو تعوض سلطة المدفع، في عدد من الأوقات بفعالية فائقة. وقد مر بنا استشهاد برسالة موسى بن أحمد حيث يصدر تعليماته بتأجيل العنف إلى آخر لحظة، والاعتماد على الشريف المحلي. وقد كان ادريس بن زين العابدين يرافق الحرْكات والمحال فيما بين فاس وتازة كما بيناه سابقا، وذلك إلى قريب من وفاته، حيث عوضه ابنه عبد السلام.

وكان السلطان يستعد مبكرا لهذه الحرْكات، وإن ظل كل من وجهتها وقادتها، في طي الكتمان، إلى آخر لحظة، على غرار المحال[32]. فأول وثيقة تتعلق بحرْكة وجدة، التي قادها الأمير عمر، تعود إلى 19 شعبان / 19 مارس 1892، في حين لم تنطلق هذه الحركة سوى في 11 شوال / 9 ماي 1892[33]. وخلال هذه الأسابيع السبعة أمر السلطان بتيسير الحُرّاك وجمع المؤن في الأماكن المعلومة. ويلاحظ أن المخزن يعامل القبائل بكيفية متفاوتة، فيما يتعلق بنصيبهم من الحُرّاك.

ففي الرسالة التي بعث بها إلى ولد ابّ محمد يقول «فبوصوله إليك نأمرك

(32) انطلقت محلة طنجة في 19 يونيو 1889 من فاس، وإلى غاية 16 منه، لم يكن رئيس البعثة الفرنسية قد استطاع بعد معرفة وجهتها، والواقع أن اتجاهها لم يعرف سوى عندما لم تتمّم طريقها نحو غياثة كما كان يشاع قبل ذلك.

(33) انظر كناش 199، خ.ح.

ان تفرض على سائر إيالتك **النصف** من حركتهم المعتادة»... وبمثله كتب لقواد الغرب، في حين كتب للحياينة وسائر قبائل مابين فاس وتازة بتيسير «**كل حرْكتهم** المعتادة». أما القبائل التي كانت الحرْكة متجهة إليها، مثل التسول ومكناسة وسائر قبائل شرق تازة فإن السلطان خاطب عمالها «نأمرك أن تجمع حرْكة إخوانك **على حد الصائم**»(34).

ومن الجدير بالملاحظة أن الوثائق لا تشير إلى أن المخزن قد طالب كلا من غياثة أو بني وراين بالإسهام في هذه الحرْكة بالرغم من وجودهما على خط مسيرها. ولعل ذلك لكونهما من القبائل الجبلية التي لا تعترف للمخزن إلا بسلطة هشة بعيدة(35).

يمكن القول إذاً إن المخزن كان ينهج سياسة تتميز بتفاوت متدرج غرب فاس ساهم بنصف الحُرّاك، فيما بين فاس وتازة **بكل** الحراك وشرق تازة **بأغلبية السكان** الذكور على حد الصائم، ثم الجبل الذي لا يطالب بأي نصيب. نصادف هنا مجددا تلك السياسة التي نعتناها بكونها انتقائية، وانتبهنا غير ما مرة إلى أن المخزن يطبقها إزاء القبائل.

وتتكون الحرْكة من رصيد أساسي من العسكر والجيش، ثم من حُرّاك القبائل. وقد أمكن تقدير حجم العسكر والجيش كالآتي

ـ حركة الأمير عمر ثلاثة طوابير، وخمسون طبجيا وثلاثة مدافع، يعني حوالي 1000 من العساكر المخزنية.

ـ حرْكة ولد ابّ محمد حوالي 1500 من المشاة، و300 فارس، يمكن إذاً تقدير النواة الأساسية للحرْكة، بما بين 1000 و2000(36). وهي التي تتلقى

(34) كناش 199، رسائل 19 شعبان 1892/1309.

(35) على أن السلطان كان قد سبق له أن استدعى بني وراين للمساهمة في حرْكة 1889 إلى طنجة دون أن نستطيع معرفة مدى مساهمتهم الفعلية عدا ما سجلناه في الفصل الثالث أعلاه، من ورود عدد من أعيانهم عليه، وهو بإحدى محطات إقامة الحرْكة، ثم تعيين قواد عليهم. انظر كناش 154، ص. 3. 10 شعبان 1306/مارس 1889.

(36) أمكن التوصل إلى هذه الأرقام على أساس ما تعطيه تقارير VINCENNES: A.M.G. — Maroc, C. 6 ولعله من المفيد أن نلاحظ أن MICHAUX-BELLAIRE (1911) (م.س)، يعطي، ص. 31 معدل 1000 منهم 600–700 عسكري و300–400 فارس.

مؤنتها من القبائل، في حين يكون على حُرّاك القبائل أن يعولوا أنفسهم بما يجمعونه من «الراتب» الذي يكون المخزن قد حدد قدر فريضته على قبيلتهم. وكان الحياينة يساهمون عادة بـ 300 من الفرسان في حين كان التسول يساهمون بـ 300 من المشاة.

وإذا ما اعتبرنا أن الحركة تصطحب في أغلب الأحيان، حُرّاك القبيلة إلى حين مغادرة ترابها فقط فإنه من الممكن أن نتصور أن الحجم الحقيقي للحرْكة ينتفخ ويتقلص حسب جملة من العوامل منها حجم القبيلة التي تمر الحرْكة بترابها، انقياد القبيلة أو عدمه، توفر شرط الغنائم أم لا، على حساب قبيلة أخرى، صدر الأمر «بأكلها»... فكلما كانت حظوظ السطو متوفرة، كثر المصاحِبون للحرْكة[37].

هذا ما يجعل الحرْكة ذات تقدم بطيء، مبعثر، تكتسح المجال، فتبرز «سطوة المخزن» لمجرد مرورها فحركة الأمير عمر، استغرقت بين فاس ووجدة عشرين مرحلة، أي بمعدل 15 إلى 20 كلم في الواحدة[38].

عند مقدم الحركة، تخيم بالقرب من القبيلة التي تقصدها وغالبا ما تختار المواقع الوسيطة بين القبائل[39] وعلى غرار تخييم المحال السلطانية، فإن مخيم الحرْكة يخضع لترتيب دقيق في القلب قباب خليفة السلطان، وكبير المحلة، وبقية القواد، والشريف الوزاني، وبالقرب من قبة الخليفة ينصب المدفع أو المدافع التي يعلن واحد منها آذان الفجر ثم الغروب. هذه الطلقات اليومية «كان صداها يتردد في الجبال النائية ليعلن عن حضور القوات المخزنية، ويفل شجاعة أية معارضة»، وحول القباب تبنى أخبية قبائل الجيش وتربط خيولهم بالقرب منها، وفي دائرة محيطة تبنى خيام العسكر، وعلى بعض المسافة من هذه الدائرة الأساسية يقيم حُرّاك القبائل خيامهم، وتعقد السوق بالقرب منهم[40].

(37) ولعله في شأن هذا الصنف من الحراك قيل المثل: اللّي شفْتُه علَى قَصْبة قُلْ لهُ مْبارْك العَوْد، وفي هذا الصدد كان التشابه بيِّنا بين حرْكات المخزن والحرْكات القبلية حيث كان «الترّاس»، أي الراجل، يذهب مسلحا بعصى فقط، راجيا أن ينهب بندقية، وربما فرسا.

(38) كناش 199، وقد أشار BERQUE (1978) (م.س)، ص.486 إلى نفس ظاهرة بروز السلطة في عين المكان عبر الحرْكة.

(39) المواقع الوسيطة، عادة ما تقيم فيها المؤسسات أو الهيآت الغريبة عن المجموعة. نفس الحالة لاحظناها في زوايا الوزانيين، ويمكن قول نفس الشيء بالنسبة للسوق...

(40) استوحينا هذا الوصف من MICHAUX-BELLAIRE (1911) (م.س)، ص. 31، ومما يرد في المراسلات المتعلقة بحرْكة تسول سنة 1890. كناش 162، خ.ح.

انطلاقا من هذا الموقع المستقر، تشرع الحرْكة في مباشرة وظائفها، وتنفيذ أوامرها. وغالبا مايكون السكان الذين توجهت الحرْكة من أجلهم قد فروا[41] فيلتجىء الخليفة بالحرْكة إلى حنكة الوزاني ودهائه للحصول على خضوعهم واستجابتهم للأوامر، وفي حالة فشل هذا الأخير، تبعث «السوكَة» لاصطياد ما يمكنها من أعضاء الفرقة الفارة أو من متاعهم وبهائمهم. ولنقرأ ماجاء في رسالة من السلطان إلى ولد ابّ محمد قائد حرْكة الحياينة سنتي 1892–1893 «وصل كتابك بنهوضك بمن معك من المدد الموجه إليك للضرب على فساد بني سادن ولما حللتم ببلادهم ركنوا إلى الفرار وذهب بعضهم لِتَبُودة، فأحرقتم المداشر، واستأصلتم من بقي وقبضتم المساجين الأحد عشر الذين وجهتم لحضرتنا وعلمنا ما ذكرته من رحيل بعضهم عند الغرابة [من آيت يوسي] بمتاعهم ولم يبق أحد بالبلاد، وصار بالبال، فاستمروا بالحرق، ونهب الأمْراس حتى يذعنوا، وقد وصل المساجين المذكورون، وحلوا بالسجن، وأمرنا عمال الغرابة بالقبض على من فر عندهم منهم وتوجيههم لحضرتنا (...) بأمتعتهم (...) والله يعينكم»[42].

– ما هو توقيت حدوث الحرْكة ؟

يتضح من الجدول أعلاه أن معظم الحرْكات تنطلق من العاصمة فيما بين فبراير ويونيو إذ، «عندما تكون المزروعات قريبة من النضج، يسهل الاستيلاء عليها»[43].

فقد شهدت سنة 1892 تعدد الحرْكات في شمال المغرب، وقد ابتدأت معظمها في شهر ماي والسلطان بفاس واتجهت إلى المناطق المعينة لها حيث مكثت هناك طيلة الصيف والخريف والشتاء قبل أن تؤوب في أوائل الربيع، وقد قضت في البوادي مالا يقل عن عشرة شهور. ومن الملحوظ أن المدة التي تقضيها الحرْكة في البادية قد سارت باتجاه الطول حتى أصبحت تقارب السنة في نهاية القرن. وإذا كان هذا الجند المستديم الإقامة يهدد المحاصيل ساعة نضوجها، فإنه من السهل تصور

---

(41) «وبعد، فليكن في علم سيدنا بأن من ذو [كذا] قدمت المحلة السعيدة هنا أديت ما وجب على إخواني الذين هم إلى نظري من واجب ومؤنة وامتنعوا من أداء ذلك بالارتحال على الإبل:...» من القائد علي بن محمد العثماني الهواري إلى السلطان ر.م.غ.م. 17 رمضان 1312/1895.

(42) كناش 707، ص. 92، 8 جمادى 1 1310/1892.

(43) ERCKMANN (م.س)، ص. 275.

مدى التضييق الذي يفرضه على السكان وقت القلة في فصل الشتاء. ومن الملحوظ أيضا أن هذه الحرْكات تموقعت على صعيد الزمان بين المحلة الحسنية السابعة عشرة، لسنة 1891/1309، من مراكش إلى فاس، والمحلة الثامنة عشرة لـ 1310 ـ 1893/1311، من فاس إلى تافيلالت. ونعلم من خلال، **الإتحاف**، أن مقام السلطان بفاس طال من 10 ربيع الأول 1309 / 14 أكتوبر 1891 إلى 14 حجة 19/1310 يونيو 1893، أو ما يفوق واحدا وعشرين شهرا (قمريا).

وقد لاحظنا أن الحركات أقامت منها ما يربو على عشرة شهور في البوادي. وربما رجع عدد الحرْكات وطول مقامها في البوادي(44)، في هذه السنة إلى جودة المحصول الذي تشير إليه الوثائق(45). كما قد يعود إلى آلية خاصة بالنظام المخزني سوف نحاول توضيحها بعد قليل.

ـ ما هو ثقل الحرْكات بالنسبة للسكان ؟

يتمثل أولا في عدد الحُرّاك المفروض على القبيلة، «ورواتبهم» الذي يحدده المركز ويتكفل أمناء القبيلة بقبضه وتزويد الحُرّاك به، وقد أشرنا إلى أن المخزن لا يعامل كل القبائل بنفس المقاييس، بل يتصرف حسب حاجياته، وحسب رغبته في إنهاك هذه القبيلة أو تلك، وحسب خضوعها أو عدمه.

وإذا كان عدد «النوائب» محدودا عادة، فإنه قد يعم كل البالغين («على حد الصائم») فيصبح امتصاصا بشريا باهظا لا يخفى أثره على سائر مناحي الحياة(46).

وربما كانت بعض الحرْكات أيضا، على غرار بعض المحال، تتطلب من القبيلة الممرور بها جملة من الأعمال التسخيرية كردم الشعاب، وإزالة الأحجار من طريق الحرْكة(47).

وكان على السكان استقبال الحرْكة في حدود قبيلتهم، وحمل أثقالها، ومصاحبتها، وتوفير مؤنتها، حتى تغادر مجالهم، إن كانت عابرة فقط، وحتى «تقضي

(44) طال مقام حرْكة ولد اب محمد حتى كثرت رسائله المعبرة عن عيائها.

(45) A.M.G, Maroc, C, 6 Rapport de mai 1892.

(46) ر.م.غ.م. من السلطان إلى ابن فرجي، 10 شعبان 1889/1396. «التأهب للحرْكة (...) بجميع رماة إيالتك (...) بحيث لا يبقى في المداشر والقرى إلا من لا فائدة فيه أصلا».

(47) كناش 154، ص. 1.

آغراضها»، إن كانت أغراضها في تلك القبيلة بالذات(48).

ولا يخلو أن يكون عبور الحرْكة بأرض قبيلة مناسبة لارتكاب أجنادها أشكالا من التعسف والتسلط، في حق أمتعة القبيلة، ومزروعاتها وبهائمها، ولو كانت من قبائل الطاعة، فأحرى إن كانت الحرْكة قد توجهت بالقصد «لأكلها»(49).

وقد كان مجيء الحرْكة، مناسبة للقائد لفرض تعسفه بالعنف، سواء كان ذلك بعلم وموافقة من المركز أم بغيرهما(50).

بيد أن توفير المؤن، ربما كان الجانب الأكثر دلالة من ثقل الحرْكات بالنسبة للقبيلة، سيما إذا كانت من صنف المسلك (الحياينة، التسول إلخ...) التي لم يكن عليها أن تمون الحرْكات والمحال المتجهة إليها فحسب، بل كذلك كل مستويات التحرك المخزني لأراضيها، خلال مبايتها ليلتان أو ثلاث بالنسبة لكل من هذه التحركات حسب أهميتها، وذلك في الذهاب كما في الإياب(51).

وقد كان المخزن يحدد قدر المؤن، إما عينا أو نقدا، في حالة تعذر توفر القوت. وليس من السهل تقدير وقع مؤن الحرْكة على السكان في غياب عدد من المعطيات : عدد العسكر المضبوط، عدد الأيام التي قضاها بمكان ما، وما تسلمه أو أخذه من أهل هذا المكان، حجم الإنتاج الزراعي أو الرعوي بهذا المكان في هذه السنة، وعدد سكانه.. نتوفر فقط في أغلب الأحيان على تعيين مؤنة الحرْكة بالأكباش، وأرطال السمن، وأمداد الدقيق والشعير لليوم الواحد، وهذه الأعداد لا تتغير مهما كانت ظروف الأماكن، التي تمر بها الحرْكة، مختلفة. بحيث يمكن تقدير ما استهلكته حرْكة ما، إذا ما تمكنا من معرفة عدد الأيام التي قضتها خارج المدينة، ولو بصورة إجمالية.

ومن المؤسف أننا لم نعثر على تعيين مؤنة حرْكة ولد أبّ محمد التي أقامت بالحياينة. بيد أننا نتوفر على ما يمكننا من تصور قريب لهذه المؤنة إذ قد مرت بالحياينة، كما أسلفنا، حركتان في نفس الفترة، واحدة في اتجاه وجدة والأخرى في اتجاه

(48) ر.م.غ.م. – خ.ح. من السلطان إلى ولد ابّ محمد. 12 قعدة 1306/1889.

(49) رسائل متعددة في هذا الشأن. ر.م.غ.م. من السلطان إلى قدور التسولي – 4 جمادى 2 1309/1892.

(50) كناش 657، ص. 120.

(51) سنة 1892، مثلا، مونت قبائل ايناون كلا من حرْكة وجدة، وحرْكة الريف عند عبورهما، ثم قامت بتموين حرْكة ولد ابّ محمد طيلة مقامها.

الريف. وبما أن حجم هذه الحرْكات الثلاث كان متقاربا، وبما أن الظروف التي وجهت فيها، والتي ربما كانت تدخل في اعتبار المخزن لتحديد مؤن الجيش، كانت متشابهة، فإنه بدَا لَنا من المشروع اعتماد ما نعرفه من تعيين المخزن لمؤنة هاتين الحركتين(52) للتوصل إلى رقم حول مؤنة ولد أبّ محمد، مهما كان ذلك الرقم تقريبيا.

جدول 21 مؤنة الحرْكة

المؤنـــة		شيـاه	سمن بالارطال	دقيق بالأمداد	شعير بالأمداد	أو	نقد بالريال
حرْكة وجدة	الحرْكــة	81	88	84	182		120
	كبيرهــا	3	10	6	30		
	مجموع 1	84	98	90	212		120
حرْكة الريف	الحرْكــة	68	77	77	114		105
	كبيرها	2	4	4			
	مجموع 2	70	81	81	114		105
المجموع العـام		1,54	179	171	326		225
المعـــدل		77	90	85	163		112،5

يمكن أن نعتبر هذا المعدل رقما غير بعيد كثيرا، زيادة أو نقصانا، عما عينه المخزن فعلا كمؤن تقدمها القبائل التي طافت بها حركة ولد ابّ محمد (الحياينة، التسول، بني سادن إلخ...)(53).

وقد أمكننا تحديد مدة مقام حرْكة ولد ابّ محمد بكيفية تكاد تكون دقيقة عن طريق المقابلة بين مراسلات الحرْكة وتقارير البعثة العسكرية الفرنسية. فقد غادرت فاس يوم 11 يونيو 1892 ولم تعد إليها سوى في أوائل مارس من السنة الموالية. بذلك تكون الحرْكة قد قضت بالحياينة والتسول وبني سادن مالا يقل عن 268 يوما (باعتبار يوم دخولها تقديرا في 5 مارس) أي قرابة ـ تسعة شهور. بيد أن

(52) كناش 199.

(53) للمقارنة كانت مؤنة حرْكة السعيدي سنة 1890 51 كبشا، 56 رطلا سمنا و56 مدا دقيقا و104 أمداد شعيرا. انظر كناش 162، ص. 44.

وثائق Vincennes تؤكد أن هذه الحرْكة، رجعت إلى فاس بمناسبة عيد المولد فأقامت فيها أزيد من شهر (فيما بين 10.2، و1892.11.3)، أي 33 يوما. هذا يجعل المدة النهائية التي قضتها تلك الحرْكة على كاهل سكان حوض إيناون هي : 268 ـ 33 = 235 يوما[54].

وإذا ما أقصينا من الإعتبار بعض العناصر التي، بالرغم من أهميتها، لا يمكن ضبط تأثيرها على حجم المؤنة 1 ـــ تطوف هذه الحرْكة فيما بين هذه القبائل بكيفية لا نستطيع معها معرفة المدة المضبوطة التي قضتها في كل مكان بعينه. 2 ـ عدم استمرار عدد المساهمين في الحرْكة بنفس الحجم، مما قد يرفع من مقدار مؤنتها أو يقلل منه، 3 ـ إضافة 300 من العسكر و1200 من الفرسان في جمادى2. 1310/ دجنبر 1892. إذا ما أقصينا هذه العناصر، جاز لنا حساب ما تطلبته مؤنة هذه الحرْكة بكيفية عامة ومجردة، كما يبينه الجدول التالي.

جدول 22 استهلاك الحرْكة الاحتمالي

المـــواد	المعـدل	فـــي	عدد الأيام	يســاوي	مجمـــوع
شيـــاه	77				18 095
سمـــن	90	×	235		21 150
دقيـــق[55]	85				19 975
شعيـــر	163				38 305
أو ريـــال	112،5				26.437،5

---

(54) انظر A.M.G., Maroc C.6

(55) بغية معرفة ما تعنيه مقادير الدقيق حينما نحولها إلى كميات من الحبوب، التجأت إلى الرّحويين الذين أكدوا لي أن معدل الدقيق من القمح هو 90% على العموم. وقد ورد عند ابن زيدان في ج 2 من **العز والصولة**، ص. 116، أن الوسق يعطي 10 قناطر من الدقيق وقنطارا من الكدار، مما يؤول إلى النسب التالية 90،9 و9،1. وهي قريبة مما أكده رحويو اليوم. وبهذا المعيار أمكن التوصل إلى تقدير كمية القمح التي تطلبتها محلة ولد أبّ محمد هكذا

$$\frac{100\times19975}{90} = 22.194$$ مدا من القمح.

صحيح أن هذه المقادير لم تؤد من طرف قبيلة أو فرقة لوحدها، بل كانت تؤدى من طرف القبيلة التي تقيم الحرْكة على أرضها. وكلما دفعت فرقة أو جماعة ما عليها من الواجبات أو المغارم.. الخ، تنقص المؤنة عليها وتنضاف إلى بقية الفرق التي لم تتمم الأداء بعد[56].

بيد أن هذه الأرقام، بالرغم من عموميتها، تفيد في قياس مدى وزن الحرْكة بالنسبة لقبائل معينة، وفي زمن محدد.

ومن حسن الصدف أننا عثرنا على وثيقة تحدد خرص قبائل الحياينة وبني سادن وهوارة ايناون، عن سنة 1309 /1891–1892[57]. يعني السنة الفلاحية التي عاشت حرْكة ولد ابّ محمد بايناون على محاصيلها. ذلك ما مكننا من الحصول على أرقام الإنتاج، باعتماد نفس المقاييس المعتمدة سابقا، ثم من صياغة مجاميع تمكننا من المقارنة مع أرقام استهلاك الحرْكة، الاحتمالية، والتي توصلنا إليها أعلاه :

جدول 23 مقارنة الانتاج بالمؤنة والواجب

الانتـــاج I		الواجب II	المؤنة III	نسبة % III إلى II	مجموع III+II = IV	نسبة % IV إلى I
شعير بالأمـداد	111.332،5	11.133،25	38.305	% 344	39.418	% 35
قمـح بالأمـداد	93.515	9.351،5	22.194	% 237	31.545	33،7[58]

إننا لا ندعي لهذه الأرقام نصيبا كبيرا من الدقة، عدا أرقام الواجب الواردة بكل وضوح في الوثائق. وقد سبق أن أشرنا إلى الصعوبات التي تكتنف التوصل إلى هذه الأرقام. بيد أنه بالرغم من طابعها الإفتراضي، يحق لنا أن نوليها أهمية قصوى في قياس ثقل ظاهرة الحرْكة ووزن الجباية بصورة أعم على البادية المغربية في القرن الماضي، إذ أنها تكشف عما وراء الأوصاف العامة فالحرْكة التي اتجهت «لاستيفاء الأعشار» حسب التعبير المعتاد، والذي يجزم بأن النسبة المستوفاة هي 10 % من

(56) كناش 162، ص. 49.

(57) كناش 707، ص. 128.

(58) ويمكن مقارنة ما تطلبته حرْكة ولد ابّ محمد من الشياه مع ما عرفناه من قطيع الحياينة مثلا، مما يعطي نسبة (المؤنة إلى القطيع) 13،64%.

الإنتاج، حسب ما يقول به الشرع، تنتهي في الواقع إلى امتصاص ما يزيد عن ثلث إنتاج الشعير، وثلث إنتاج القمح، وقرابة سبع قطعان قبيلة كالحياينة، لو كان عليها أن تقوم وحدها بتوفير شياه المؤنة... مع العلم أن هذه التقديرات لم تضع في الاعتبار ماكان يصاحب الحركة بالضرورة من نهب وسطو وإتلاف، وقت السوكة أو غيرها، وقد قدمنا عنه بعض الأمثلة.

إن مثل هذه الأرقام هي الباعثة ولاشك على تداول عدد من الأمثال الشعبية «بفاس وما إليها»، في شأن تعسفات الجيش منها «الجيش معدود من الجوائح»، و«الجوع من جيش السلطان»[59]. ولم ترد هذه المقارنات بين الجيش والجوع أو الجائحة (جفاف، جراد...) في الأمثال الشعبية فقط، والتي قد نتهمها بالمبالغة أو التعميم، بل وردت أيضا في المراسلات الوافدة من قواد الحياينة أو أمنائها على المركز، بعد أن انسحبت حركة 1894-1895.

فلما طالب يهود فاس باسترجاع ماكان لهم من ديون على بعض الحياينة، تعددت رسائل القواد والأمناء حيث يصفون ما آلت إليه القبيلة من خصاص بعد «جائحة الجراد والمحلة» وما أدى إليه ذلك من انقطاع الأموال «الناضة» منها[60].

غير أن ما قمنا به من حسابات دقيقة لمدى ثقل الحركة بالنسبة للبادية المغربية، على الرغم من أهميتها العامة، تبقى ذات بعد احتمالي فقط، كما كررناه. فائدتها في كونها تعطينا مفتاحا واضحا لمعرفة مدى الابتزاز، اعتماداً على ما تتطلبه الحركة ذاتها من مؤن وما تستوفيه من أعشار دون اعتبار أصناف الجباية والتسخير الأخرى.

أما أن تفلح الحركة، على أرض الواقع، في استخلاص كل ما حدده المركز من أعشار وذعائر الخ... وفي تسلم ما عُين لها من مؤن خلال كل مقامها، فتلك قصة أخرى ! إذ يتطلب ذلك جملة من الشروط من بينها

(59) ابن سودة، (م.س). ج أ، ص. 234، ثم الحجوي، اختصار ص. 382/26.

(60) ر.م.غ.م من محمد بن علي بن المانع الحياني إلى السلطان، 6 شعبان 1895/1312 «أشغلتنا محلة سيدنا حتى عن أنفسنا لملازمتنا لها (...) والآن قد حصل الضعف والإجحاف لسائر القبيلة بأداء الواجب عليهم للحملة (...) مع ما حصل لهم من الجدب بالسنة الماضية إثر الجراد وقد فرغت مخازنهم من الحب وفي علم سيدنا أن راس مال أهل البادية الحب ولا شيء بيدهم منه» وفي ر.م.غ.م. من ابن كروم إلى السلطان، 26 شوال 1895/1312 «إن الراعية قد دازت عليها جائحة الجراد والمحلة وانقطعت الدرهم ولا توجد».

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد وآله

أدام الله وجود مولانا الإمام الناصر راية الإسلام والشريعة جدد عليه أفضل
الصلاة وأزكى السلام وبعد تقبيل نعل الشريف والبساط المنيف وأداء واجب
مولانا من التعظيم والتشريف وليكن في شريف علم مولانا أيده الله تعالى أن الأمر
الشريف ورد بالمسير بجموع المحلة السعيدة لحضرة مولانا أعانه الله ونصره
بحول الله انسدل الفساد في القبيلة وقد كان أهل الجوار يضربون بعضها بعضا بالنهب والقتل
حتى عاد الرجوع الأيدي على الضعفاء الذي مثاربه فتعرف أهل البغي في التصرف
لنهب أمتعة الناس وسفك دماءهم وكانت الناس قبل نزول المحلة بالتمسوك خايفين
ومنتظرين ما يفعل الله بهم خوفا من سطوة مولانا القاهرة وأهل جبال [illegible] وبما أن قبيلة
ولا حيلة على طايل من [illegible] يلوذ بها حتى حكاما من التمسوك ومن البرانيين فتوجهنا
بالواجب عليه [illegible] وأن [illegible] على الأشياخ وأخروا [illegible] ومن لا
[illegible] له أن [illegible] النواحي وكافة المتمسك على الفساد [illegible]
ببعض الأسواق المعتادة أو قطع معاشه وأما قبيلة التمسوك [illegible] حين أنها شقت
[illegible] فيهم رجل والسبب وعلمنا مولانا بما هم عليه والوجه السعيد [illegible]
عامل تازة [illegible] لسيدنا الخبار [illegible] والله وبركة أهل [illegible]
من [illegible] في الصلاح [illegible] ونطلب من مولانا أن [illegible]
القبيلة من توجيه مكاتبه الشريفة بالإرهاب والتخويف ليتنا يرجعون عن ما هم عليه
من الفساد والسلام في 7 في شعبان عام 1305



وثيقة 4 الحرْكة = رمز سطوة المخزن

ـ عدم قدرة المجموعة التي تتجه الحرْكة إليها على الدفاع أو الفرار، كأن تكون محاطة بفرق طيعة للمخزن.

ـ وفرة في المحصول تسمح بالعطاء دون كثير حساب.

ـ تمكن الحرْكة من خلال إحدى السوكَات من القبض على بعض الرهائن يُفتدون بالعطاء، أو من «استخراج أمراس القبيلة» إلخ...

وهذه الشروط لم تتوفر دائما بالقدر الكافي، بل إن بعض الشواهد تدل على أن العكس هو الذي كان يحصل في عدد من الأحيان.

يبدو ذلك من تواتر الوثائق التي تشير إلى كبر حجم مديونية القبائل تجاه المخزن، سوف نعود إليه، مما يدل أن الحرْكة لم تكن دائما تستطيع إنجاز الأهداف المحددة لها. وإلا، ما معنى أن يخاطب السلطان كافة عمال التسول، سنة 1890/1307 بـ «فالمرتب على إخوانكم من الواجب لمدة من أحد عشر عاما آخرها عام تاريخه..»(61)، مع أن الجدول الذي قدمناه حول الحرْكات في ايناون يبرز بوضوح أنه فيما بين 1296 و 1307 (الأحد عشر عاما) قد توجهت الحرْكة إلى التسول عدة مرات؟

كما يبدو ذلك من عدد من الوثائق التي تشير إلى أن الحرْكة لا تحصل دائما على المؤنة التي أمر السلطان قواده بتوفيرها لها(62).

بل إن حرْكة الأمير عمر، حسب أخبار تقارير Vincennes، عانت من الفاقة والجوع خلال شتاء 1892ـ1893، لأن سكان النواحي الشرقية، فضلا عن عدم توفير المؤن لها، رفضوا أن يبيعوها ما تحتاج إليه من مؤن، مما اضطرها إلى التشتية بمدينة وجدة «ريثما يطيب الزمان».

(61) ر.م.غ.م. 27 جمادى 2 1890/1307. كما أن السلطان بعد أن تكررت رسائل التذمر من ولد اب محمد، لطول مقام المحلة بالحياينة، أجابه «فسنأذن لك في القدوم (...) **فلتعجلوا باتمام ما سهل**»، كناش 707، ص، 205. انظر أيضا الوثيقة المرفقة، ص. 357.

(62) من جواب إلى ولد ابّ محمد، ص. 205، كناش 707، نعلم أنه لم يقبض منذ أن خرج (خروجه الثاني، انظر ما سبق) إلا «ثلاث عشرة ليلة (...) وإنما كنت تعالج المحلة مما تحت يدك من الدراهم وأشرفت على التمام في حصار الوادي» وبما أنه خرج منذ 56 يوما حسب تحرياتنا، فإن هذا نموذج قد لا يكون فريدا عن نسبة ما تحصل عليه الحرْكة من المؤنة حوالي الربع. لكن لا نستطيع تعميم هذه الحالة قبل مزيد تحرٍّ. عن ضعف نتائج حرْكات 1892ـ1893 انظر: A.M.G, Maroc, C, 6. 1892-1893.

كل هذه المعطيات تدفعنا إلى التساؤل عن مدى مردودية هذا الشكل من إدارة الجباية. ولنتساءل عن مدى مداخيل حرْكة ولد أبّ محمد بإيناون سنتى 1892 ـ 1893.

إن ما توصلنا إليه من القوائم الحسابية التي تمكنا من الاطلاع عليها، هو جزئي ولاشك، لا يكشف عن كل مداخيل الحرْكة. ولو تمكنا من القيام باستبارات أكثر تعمقا في هذا الصنف من الوثائق، لاضطررنا من دون ريب، إلى مراجعة ما توصلنا إليه من أرقام، سيما والرسائل العادية توحي بأن المخزن استهدف من هذه الحرْكة بالذات، استخراج أموال طائلة كانت جل قبائل المنطقة متبوعة بها[63].

بيد أننا ـ وعلماً بهذا التحفظ ـ رأينا من المفيد جمع المعطيات حول ما استوفته الحرْكة في الجدول التالي

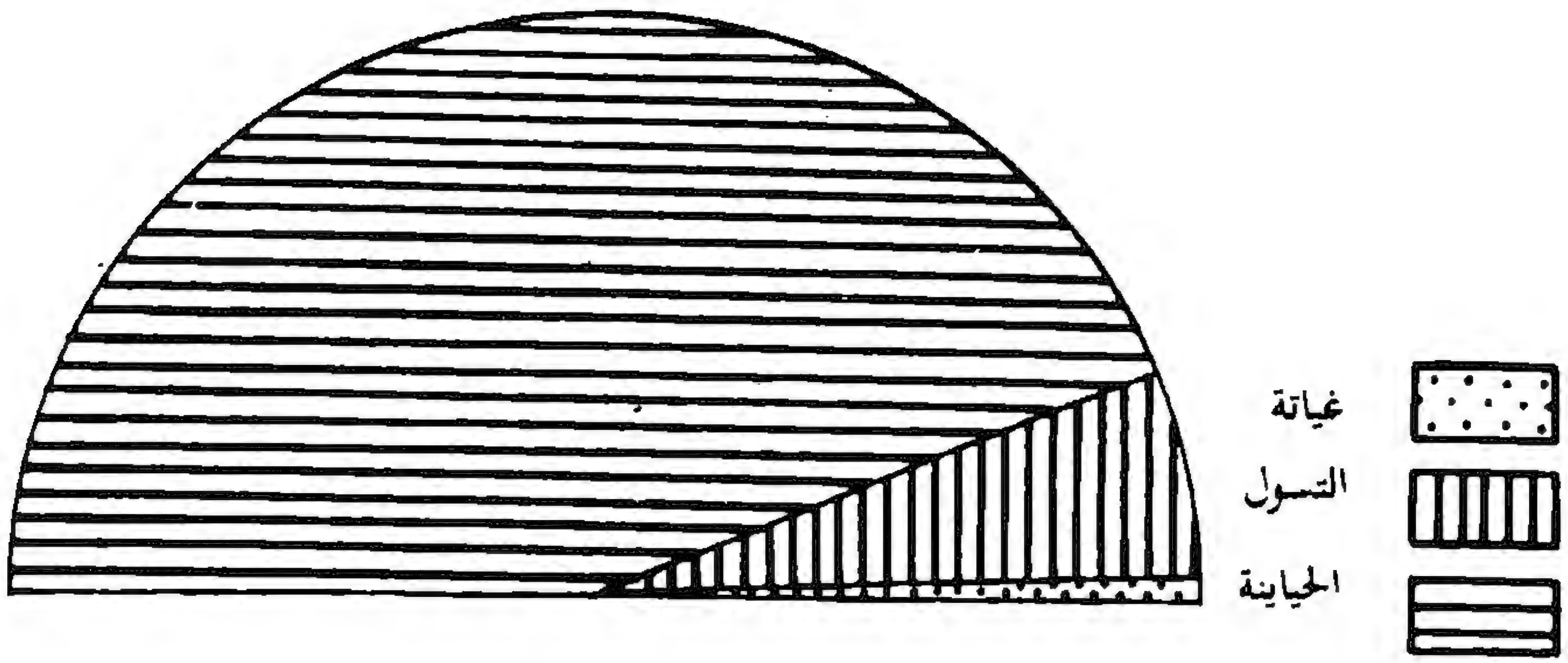
(63) ر.م.غ.م. من السلطان إلى عبد السلام بن يط. البرانس متبوعون بـ57.355 ريالا مطلوب من قائدها تسليم كبير المحلة 20.993 منها.

جدول 24 مداخيل حرْكة ولد ابّ محمد 1892 ـ 1893

التاريخ	القبيلة	نوع المدفوع: خيول	بغال	بقر	تقديره بالريال	ريال	المجموع بالريال
5 حجة 1309/ 1 يوليوز 1892	أولاد عمران	؟	؟	؟	6.900		
25 محرم 1310/ 19 غشت 1892	أولاد عمران	2		34	466		
2 ربيع1 1310/ 24 شتنبر 1892	أولاد عمران					298 (حلي)	
	مجموع 1						7.664
5 حجة 1309	أولاد عليان	؟	؟	؟	3.141		
25 محرم 1310	أولاد عليان	4		27	428،5		
	مجموع 2						3.569،5
2 ربيع1 1310	غياثة ـ 3	2	1	15	156		156
2 ربيع1 1310	التسول	4	2	50	595	400	
24 جمادى1 1310 /14 دجنبر 1892	التسول	8	1	23	511		
	مجموع 4						1.506
المجموع العام		20	4	149	12.197،5	698	12.895،5[64]

ـ المصدر القوائم الحسابية

(64) هذا الرقم يعدل ما ورد في مساهمتي في إطار مجموعة البحث في التاريخ الاجتماعي المغربي، بتاريخ 1983/5/10.



شكل 10 حصة كل قبيلة من المدفوع لحرْكة ولد أبّ محمد

ملاحظـــات ـ ترتبط الملاحظات حول الجدول والشكل السابقين بالجباية بشكل عام، وسوف نقتصر منها على ما يهمنا الآن

1 ـ تنوع «الدفع» الذي لا يتجاوز مع ذلك الماشية الكبيرة والحلي والمال. ولعل هذا الدفع لم يكن يشمل الأعشار التي كانت «تحمل» إلى الهري بفاس.

2 ـ تدرج واضح في أهمية الدفع كلما ابتعدنا من فاس ضعفت المداخيل إلى أن تندثر تماما (بني وراين).

3 ـ مجموع ما قبضته الحرْكة، إذا ما قورن بمجموع ما قد تكون استهلكته، في عين المكان، لا يبلغ حتى النصف. مما يجعل من الحرْكة المظهر الأساسي للجباية، لمجرد وقوعها.

تتبعنا عن كثب نموذجا من الحرْكات التي أقامت بإيناون في أواخر القرن 19م. مكننا ذلك، من قياس المسافة الفاصلة بين الصورة في الخطاب الرسمي، والواقع العيني، إذ يفسح الخطاب المجال للممارسة القائمة على حضور عنف مجسد، يمتص ما يستطيعه من خيرات البادية قبل الانسحاب. كل هذا يقودنا إلى التساؤل عن موقع الحرْكة من المخزن المركزي ومن الحياة المحلية.

III ـ الحرْكة، تمفصل وتواجه بين البادية والمخزن

تبدو الحرْكة من خلال ما سبق كقطب للاتصال بين الدولة والمجتمع القروي، لكن تظهر في نفس الآن كمحور للاحتكاك والمواجهة بينهما. تتحقق هذه

العلاقة المتناقضة عبر سلسلة من المستويات في وظائف الحرْكة، وعلاقتها بالممثلين المحليين القارين؛ ثم في موقع الحرْكة من التنقل المخزني بصفة عامة.

أ ـ وظائف الحرْكة

بالرغم من اختلاف الأزمنة والقبائل المتَّجَه إليها، كانت المراسلات تردد تقريبا نفس العبارة حينما يتعلق الأمر ببعث الحرْكة «بقصد قبض الواجب منهم [القبيلة المعنية] واستخراج الحقوق المترتبة عليهم ورد المظالم..»(65) وكانت تحدد بتلك الكيفية الوظائف الرسمية للحرْكة تدعيم الممثلين القارين برد المظالم وتفقد الأحوال، وخدمة المركز باستيفاء الواجبات والحقوق. بيد أن للحرْكة بعض الوظائف ولعلها الأهم، لا تظهر من خلال المراسلات، وسوف نحاول تلمسها بعد التعرض لما هو مفصوح عنه منها في تلك المراسلات

1 ـ رد المظالم تقوم الحرْكة بتعضيد الممثل المخزني القار للفصل في القضايا التي استعصت عليه قبل مجيئها ـ فكما كان على عمال الجهة التي تتوجه إليها الحرْكة أن يُقوُّوا قدرتها البشرية والقتالية كما أسلفنا بعض الشواهد على ذلك، كان على الحرْكة أن تُدعم أحكام القائد وتمكنه من تحويلها إلى قرارات نافذة، حتى إذا لم يستفد العامل من حضور الحرْكة، وتوانى في تنفيذ الأحكام ساعة حضورها، ثم تشكى للمركز فيما بعد، كان الجواب قاطعا «الصيفَ ضيعتِ اللبن»(66).

2 ـ ردع المتمردين يفترض هنا أيضا نفس التعاون بين الحرْكة والقائد. فتستعين الحرْكة بالقبائل المجاورة أو بالفرق المحيطة بالفرقة المنتفضة لتطويقها إلى أن تخضع أو تفر. وكأن الحرْكة تأتي بهذه الدورية لترميم شقوق التمثيل المحلي المخزني. فلما رفضت فرقة الغرابة من أولاد رياب أداء الواجب وقتلت أمينها، والحرْكة (ولد ابّ محمد) تتطوف بالحياينة، كاتب السلطان قائدها «نأمرك أن تنزل على الذين قتلوا الأمين بالمسجد وتحوز لجانب المخزن زروعهم وتبنهم»(67).

وحينما طلبتهم الحرْكة، وجدتهم قد فروا عند جوارهم بني سادن، فأصدر

(65) ر.م.غ.م من السلطان إلى عبد الله الزراري، 13 رمضان 1884/1301.

(66) ذاك ما هو مكتوب بالرصاص على ظهر ر.م.غ.م. من القائد لحسن بن قدور البوزياني، إلى السلطان 14 رمضان 1895/1312.

(67) كناش 707، ص. 122. 11 ربيع الثاني 1892/1310.

المركز أوامره وتهديداته المكررة إلى بني سادن بطرد المستجيرين بهم. غير أن هؤلاء «تراخوا» في التنفيذ فتقررت معاقبتهم هم أيضا، وفر المجير والمستجير عند آيت يوسي، فأمر السلطان قائد المحلة باستصفاء زروع بني سادن وتبنهم والقبض على رجالهم، بعد ملاحقتهم عند آيت يوسي. فطاردت الحرْكة بني سادن ومن معهم من الجيايِنة عند غرابة آيت يوسي، واستطاعت أن تلقي القبض على البعض اليسير منهم، وتنهب لهم بعض الماشية. لكن معظم الفارين أفلحوا في التوغل داخل الأطلس المتوسط بمعية المجيرين الجُدد، قبل أن يقرر المركز توقيف هذه المطاردة(68).

لعل شفافية الحواجز القبلية أمام رد الفعل المشترك تجاه خطر محتمل موحد (ثقل الحرْكة) جديرة بالتسجيل. وقد سبق التأكيد على ما يربط قبائل ايناون من سمات مشتركة، ولعل هذه الحادثة تبرز تلك السمات المشتركة حالة الفعل.

فالحرْكة تبدو إذا كالأداة الزاجرة الفعلية في عين المكان.

3 ـ وتقوم الحرْكة أيضا بمهمات محددة متعددة جدا، فتعزل العمال المغضوب عليهم قبل أن تلقي عليهم القبض وتستصفي أموالهم، أو تساعد على اختيار العمال الجدد وتعمل على تنصيبهم، وتفصل في القضايا الناشئة بين العمال ومحكوميهم أو بين الفرق المختلفة، ثم إنها تستلم مساجين القواد وتبعث بهم إلى العاصمة، كما أنها تقوم بالتحقيق في القضايا التي تُشكِل على نظر المركز من خلال المراسلات، وتتفقد الحرْكة أيضا أحوال الأملاك المخزنية وتسهر على تعيين من يقوم بأشغالها إلى غير ذلك من المهام التي يصعب حصرها(69).

4 ـ على أن أهم وظائف الحرْكة اثنتان

ـ وظيفة الجباية، وهي وظيفة منصوص عليها باستمرار في الوثائق. ويبدو أن قبض متأخر الجبايات المختلفة من القبائل، كان من أشغل شواغل المخزن، حينما يبعث بحرْكة أو «مدَد» إليها. وقد رأينا كيف أن الرسائل المتعلقة بالحرْكة تؤكد قبل كل شيء على هذا الطابع الجبائي. ولعل ما يبين مدى ما يعطيه المركز من أهمية لهذا الجانب من وظائف الحرْكة، أنه كان يحرر من دفع واجبه من الزكاة ولم تكن عليه

(68) شغلت هذه المسألة حوض ايناون فيما بين ربيع 2. وجمدى 2. 1310 نونبر 1892 يناير 1893، ويوجد حولها ملف بالكناش 707 قوامه 24 ملخصا للرسائل. وما تزال الرواية الشفوية تذكر القصة.

(69) أعفينا القارىء من ذكر كل المراسلات التي استقينا منها هذه الحالات لكثرتها.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

1309

وثيقة 5 الحرْكة والمجال



حركة تسول 1307

(دجنبر 1889 - أبريل 1890)

ذعيرة، أو بقية أعشار، من أداء مؤنة الحرْكة، فتصبح بقية فرق القبيلة مطالبة بأداء المؤنة بمفردها. وهذا ما كان يُفترض فيه أنه يضغط عليها أكثر بقصد الأداء.

ويبدو أن الحرْكة كانت تقبض سائر أنواع الكلف والوظائف بإضافة واجب الزكاة، في حين أن واجب الأعشار، كان، فيما يبدو، على أعضاء القبيلة أن يحملوه إلى الهرى بفاس. «فالواجب» الذي تعنيه الرسائل المتعلقة بالحرْكة هو غالبا الزكاة، إن لم يقترن بتحديد آخر، مثل «واجب المؤنة»...

ـ لكن كان للحرْكة وظيفة هامة ثانية، لا تعبر عنها الوثائق، إلا بكيفية غير مباشرة، وهي إبراز «سطوة المخزن» للعيان[70]. والواقع أن هذه الوظيفة تتجلى على أفضل وجه، حينما نرسم تنقلات الحرْكة على الخريطة. والملاحظ أن الحرْكة كانت تتجه إلى نقط معينة هي المقر المعتاد لمبيت أو استقرار سائر أنواع التنقلات المخزنية. ولا غرابة أن تكون تلك النقط، هي المحطات الأساسية لبعض المسالك الهامة.

ومن خلال تتبع تنقل عدد من الحرْكات، تبين أن الحركة تختار عادة نقطا استراتيجية لإستقرارها. فان كان القصد قبيلة بعينها، تختار نقطة وسطية مثل تيسة بالنسبة لأولاد عمران[71]. وإن كان القصد قبائل متعددة، فإنها تختار نقطة التّماس بينها كواد الحضر بين التسول والبرانس ومكناسة.. وانطلاقا من نقطة الارتكاز هذه، تبعث الحرْكة الأمداد والسوكَات في شتى الاتجاهات. بحيث تغطي مجال القبيلة المتّجه إليها. وقد تمكنا من وضع خريطة لكل من حرْكتي عبد المالك السعيدي سنة 1307 /1890 والعربي ولد ابّ محمد سنة 1309/1892ـ1893. والملاحظ من هذه الأخيرة بالخصوص، إن الحرْكة، سواء بتنقلها ككل، أو عن طريق ما تبعث به من الأمداد والسوكَات في سائر الاتجاهات، قد قامت بمسح حقيقي للتراب الحياني أبرزت فيه الوجود المخزني عند هذه القبيلة طيلة تسعة أشهر.

أن تكون الحرْكة رمزا مجسدا للسلطة المخزنية بالبادية، سواء عن طريق قوة عددها، وطول مقامها، ومدى إشعاع تحركها، فليس ثمة مجال للشك فيه... لكن هل

---

(70) كناش 162، ص. 49 «لما خيمت المحلة بوادي الحضر.. اهتزت قبيلة البرانيص وخافت من سطوة المخزنية» 22 جمادى 1 1307/1890.

(71) ثمة هضبة بتيسة تسمى «المحلة» إلى اليوم، وهي ولاشك، المكان الاعتيادي في القرن 19م لتخييم المحال والحرْكات.

أولاد عليان : قبيلة أو اتحاد قبلي

خط التسوية 500م ونقط الارتفاع

92.11.88.1 : مقرات وفترات تخييم الحركة، مرتبة.

: إمدادات لتدعيم القواد.

: مسالك في اتجاه واحد.

: مسالك في اتجاه مزدوج.

مقياس 1 على 500.000

حركة ولد أبا محمد بالحياينة

26 قعدة 1309 - 17 شعبان 1310

11 يونيو 1892 - 5 مارس 1893

يعني ذلك أن المخزن لا يعتمد لإرساء نفوذه إلا على المدفع والعسكر بكيفية وحيدة ؟

هنا أيضا نلتقي بالسياسة المخزنية الإنتقائية التي سبق لنا تسجيلها سياسة المدْفع فعالة مع من يصنفهم المخزن كـ «قبائل الطاعة» (الحياينة، التسول، بني سادن)، لكنها غير ناجعة مع جملة من قبائل ايناون، ولاسيما بني وراين وغياثة. ولنا حجة على ما نقدمه في اللهجة التي راسل بها كلا من هذه القبائل إبان وقوع حرْكة ولد ابّ محمد.

فلما رفض بني استيتن المساهمة في ضرب بني سادن، أجاب المركز القائد الذي كان قد تشكى بذلك «فاضرب على أيديهم في ذلك»(72). ومقابل هذا الجواب القصير والجاف كطلقة المدفع، لا نجد سوى أسلوب أبوي مطول، مفعم بالروح الدينية في الرسالة التي بعث بها السلطان إلى غياثة في نفس الإبان

«كافة بني بوقيطون، فقد كنا أمرنا عاملكم القائد محمد بن علي قروش، بأن يستوفي ما أوجبه الله عليكم من الزكاة والأعشار تصديقا للطاعة ودخولا في زمرة السنة والجماعة، فلم يظهر أثر لما ظنناه ولم يحصل المراد مما تيقناه وتعين إيقاظكم من غفلتكم وإنهاضكمُ من عثرتكم، لعلكم تتذكرون وفي مئال العواقب تتدبرون. فلتقوموا على ساق الجد في امتثال ما أمرناكم به لتغنموا من رضى الله ورضانا ما يكون عنوانا على صلاح حالكم بل أحوالكم، [ولتتركوا ما هو] قائد إلى الملامة من شؤم العواقب والإلقاء بالأيدي إلى شؤم المعاطب. وقد أمرنا خديمنا ابن يط (عامل مدينة تازة) [بأن] يحضر لقراءة كتابنا هذا عليكم ويكون شاهدا في الاسترعاء عليكم ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة»(73).

ولنلاحظ بصفة عابرة أن الحديث مع بني استيتن كان حول «الحرْكة والكلف المخزنية» في حين لا يطالب المخزن غياثة سوى بواجب الأعشار والزكاة ولعل التهديد بالقوة الإلهية (رضى الله) تعبير عن عجز المخزن أمام تمنع هذه القبيلة(74).

لننتقل عند بني وراين. سبَق لنا التأكيد على ما يواجه بني وراين والمخزن، في

(72) كناش 707، ص. 166.

(73) كناش 707، ص. 229.

(74) «وهكذا القبائل المتغصبة بالأجبال [كذا] المانعة، فعدم الوصول إليهم عجز لا حلم» هذا رأي السملالي، **عناية** (م.س)، ص. 66/395.

فصل سابق. ففضلا عن توسعهم تجاه «الوطا»، كانوا يستضيفون من يفر من أداء الضريبة، وأحرى أن يؤدوا هم أنفسهم(75). غير أنه بالرغم من كل ذلك فإن السلطان لما زاره القائد الزرودي، لا يبدو أنه طالبه بأداء، إذ يقول في رسالة إلى بني وراين «إيالة محمد الزرودي الورايني، فقد ورد على أعتابنا (...) الخديم المذكور وأخبرنا بما أنتم عليه من الصلاح (...) وأثنى عليكم خيرا واستجلب لكم من جنابنا الشريف دعاء صالحا فأصلحكم الله...»(76).

بل، لما حاول كل من الوزاني والقائد الزرودي استغلال وجود حرْكة ولد ابّ محمد بالحياينة، وطلبا إرسال مدد إلى بني وراين فإن السلطان أجاب القائد : «فسنرى في ذلك» والشريف الوزاني «فقد أشرت بالرأي سددك الله وحين يطيب الزمان ننظر في ذلك»(77).

ففي حالة كل من غياثة وبني وراين كان سند المخزن في تنفيذ سياسيته هو الشريف الوزاني، أكثر من الحرْكة. بذلك يبدو أن المجال الذي كانت الحرْكات تنتقل فيه بفعالية، هو مجال قبائل السهل والمسلك. أما قبائل الجبل، فقد استعصى منالها على المخزن، إلا ما كان من عبور بعض المحال السلطانية لها.

ولنعد إلى جدول الحركات والمحال عبر ايناون، فنلاحظ أن عهد الحسن الأول عرف في حدود علمنا، ما لا يقل عن 22 عبورا بين مدد وحرْكة ومحلة. وإذا كان جل هذه التحركات عنى الحياينة إما مرورا أو مقاما، فإن الذي عنى منها بني وراين قد لا يفوق الثلاثة، أهمها المحلتان السلطانيتان لبداية العهد الحسني.

أما غياثة، فإن ظهر اسمها كوجهة لعدد أكبر من الحرْكات فإن ذلك لا يعني أنها كانت تستقبلها فعلا، بل إن الحركة المتجهة إليها، غالبا ما تقيم «أمامَها» على مكناسة مثلا. كل هذا يدل على أن مجال الحرْكة لم يعدُ قبائل السهل والمسلك. لكن

---

(75) كناش 708، ص. 56 و82 وكناش 657، ص. 21.

(76) كناش 657، ص. 119 ـ 6 جمادى الأولى 1891/1309. ما معنى «الصلاح» في هذه الرسالة؟ هل هو عدم التوسع وعدم تهديد المسلك؟ لو صح ذلك لكان «الصلاح» بالنسبة للمخزن يغطي معان متعددة حسب موقع القبيلة: ففي شأن الحياينة سوف يكون هو دفع الضرائب وفي شأن بني وراين عدم إذاية الأراضي الدافعة للضريبة. ألم نر فيما سبق بأن المخزن يعتبر بني وراين «حبّالة» لا يهم أمرهم؟

(77) كناش 707، ص. 215.

يبقى علينا أن نتساءل عن موقع الحركة من التمثيل المحلي القار حتى في هذا المجال ذاته.

ب ـ موقع الحركة من التمثيل المحلي

سبق لنا التأكيد بصدد التمثيل المخزني المحلي، على ما يطبع الهرمية المخزنية من قاعدة واسعة وقمة بارزة ضيقة. وقد أشرنا أيضا إلى ما يستفيده المخزن المركزي من تشظي تمثيله المحلي، وانقسام أطرافه، بما تعرفه قاعدته من منافسة، وتبليغ البعض عن الآخرين... فأين موقع الحركة من هذه المنظومة ؟

من خلال العديد من الشواهد، ومن خلال ما بيناه منذ قليل، من كوْن الحركة تمثل رمزا للإشعاع المخزني بالبادية، فإن الحركة تبدو كلما حصل وقوعها كالممثل المخزني الامتيازي بالمكان الذي تتجه إليه. فبمجرد مجيء الحركة، يصبح الخليفة السلطاني، وسائر الحركة، القناة التي تنفذ بواسطتها السياسية المخزنية.

إن الحركة بما تتوفر عليه من قوة قتالية، سواء استعملتها أم هددت بها فقط، تشكل في الميدان، تعبيرا عن تفوق الدولة المخزنية المركزية، على مجتمع القبيلة المحدودة الإمكانيات، ومن ثم تمثيليتها الامتيازية.

ولدينا شواهد تدل على أن المخزن المركزي كان أيضا يعتبر الحركة كذلك، بالرغم من كون المراسلات التي كانت تعلن عن خروجها كانت في الغالب تحدد أنها إنما «تشد العضد للعمال»، إذ أن الحركة عند حضورها بالقبيلة تستأثر بالسلطة الفعلية. وقد حاولنا، سابقا، توضيح الموقع المتناقض الذي يحتله القائد بين قبيلته والمخزن المركزي. ولعل ما نقوله الآن حول تمثيلية الحركة الامتيازية، عنصر ينضاف إلى نفس المسألة.

ولنستمع إلى جواب سلطاني حول تشكي قائد تسولي من عسف أحد قواد حركة الأمير عمر المتجهة إلى وجدة سنة 1892

«ولدنا مولاي عمر، ووصيفنا ابن الخضر السلاوي، فقد أخبر الخديم عبد الله بن العتيق التسولي بأنه لما أراد الرجوع من مكناسة حصره العربي بن حم وثقف عليه فرسه بسبب بغال سرقت من المحلة وصار يمشي راجلا ثم بعد ذلك ألزمه مع عمال ادسول مائة ريال وحازها منهم ومنعهم من دفع النهاية بالمؤنة وعليه فكيف يسعكم أن

تتركوا ذلك الصعلوك يتجاسر على ظلم الناس ويتطاول على العمال، فبوصوله إليكم نأمركم أن تحوزوا منه ما قبضه من العمال المشار لهم وتوجهوه لحضرتنا الشريفة وإن عاد لمثل ذلك فيكون الكلام معكم (...) زيادة عليه»[78].

وأول ما نلاحظه أن حدوث مثل هذه التعسفات كان أمرا عاديا. ثم إننا نسجل الموقف المزدوج الظاهر للمركز من جهة يكيل الشتم لمن أتى هذا الفعل الشنيع ولكنه من جهة أخرى يستحوذ على ثمرته. فهل ينفي توبيخ السلطان للعسكري ما نقترحه من تفضيل المركز للحركة حالة وقوعها على بقية أصناف تمثيله المحلي الأخرى ؟ إننا نعتقد بالعكس، أن السلطان، بحيازته لما ابتزه العسكري، يضفي على ذلك العمل طابع المشروعية، ويعطي الدليل على اتجاه تفضيله.

بل إن لدينا وثائق أكثر حجّية في هذا الصدد. فقد خاطب السلطان قائد محلة 1890/1307

«القائد عبد المالك السعيدي، فنأمرك أن تجد في استيفاء باقي الواجب الموظف، من العمال الخارج عليهم وإذا قرب عيد الفطر الآتي انهض عنهم على بركة الله واصحب معك ما استوفيته منهم (...) بحيث يجدك الحال بحضرتنا الشريفة قبل العيد بيومين أو ثلاثة ولا تظهر شريف أمرنا لأحد من أولائك العمال ليلّا يحصل لهم من ذلك التراخي في الدفع ولابد»[79].

ويكفينا أن نلاحظ من خلال هذه الرسالة أن السلطان كان يضع قواد القبائل خارج اللعبة المخزنية، لنقتنع بامتياز الحرْكة في التمثيلية المحلية، فخلال أزيد من شهرين، بين أواخر رجب وأواخر رمضان، حسب هذه الرسالة، تعامل القواد مع الحرْكة، على أساس غير متكافىء قائدها يعلم متى سينتهي عملها وهم لا يعملون.

يمكن التساؤل أخيرا عن موقع الحرْكة من نظام التنقل المخزني ككل.

ج ـ تداخل الحرْكات والمحال

لنعد إلى جدول كرونولوجيا الحرْكات والمحال عبر ايناون، لنستخرج منه تطور عددها في الفترة الحسنية، وتوزيعها في الزمان. ثم لنقابل ذلك التطور بمثيله عند قبيلة

---

(78) كناش 199.

(79) كناش 162، ص. 61.

جنوبية وهي ايتولتان حسب ما توصل إليه أحمد التوفيق. ولنضع كل ذلك أخيرا في مقابل تنقلات ومقامات السلطان بين فاس ومراكش، حسبما ورد عند نوردمان(80).

نخرج من هذه المقابلة باستنتاج متين يتمثل في وجود تلازم ملفت للانتباه بين قرب مقام السلطان، وكثرة تردد الحركات على المنطقة المعنية. وكأن الأمر كان يتم على الصورة التالية كلما أقام السلطان بمراكش، تعددت الحركات بالنواحي الجنوبية، وكلما أقام بفاس أو مكناس، كثرت بالجهات الشمالية.

صحيح أنه للتمكن من استنتاج قار، لابد من تأكد ملاحظة هذا التلازم بكيفية أشمل وأوسع، على الصعيد الجغرافي والتاريخي. بيد أنه بالرغم من هذا التحفظ، نرى أنه من الجائز اعتبار أن المخزن، الذي يقوم على التحرك بكيفية مستمرة، يزاوج بين المحلة والحركة. فكلما وصلت المحلة إلى عاصمة، واستقر السطان بها، انطلقت منها جملة من الحركات في سائر آفاق الجهة التي يستقر بها السلطان، بقصد التذكير بوجود المخزن، والجباية، وإعالة الجيش.

وإذا كنا بينا بالأرقام، في السابق، أن أهم ثقل بالنسبة للقبيلة ليس ما تجبيه الحركة، ولكن ما تستهلكه في عين المكان، فإنما ذلك شكلا مباشرا من إعالة (مؤنة) الجيش، والحفاظ على هذا الجهاز دونما حاجة من المركز إلى كثير مصاريف عليه.

ولعلنا نجد حجة إضافية على ما نقوله في الكيفية التي يحافظ بها المخزن على قوة الحمل والجر التي كان يستعملها أثناء محاله، فكلما وصل السلطان إلى إحدى عواصمه، وزع جزءا هاما من الخيل والبغال على بعض القبائل لـ «صيانتها» خلال المدة التي يقيم فيها، ليطلبها من جديد حالة نهوضه مجددا(81). فلمَ لا اعتبار الحركة «صيانة» من نوع آخر ؟

وقد أكدنا في استنتاجنا هذا ما وجدناه عند بعض شهود العيان، بعد أن توصلنا إلى إدراك هذا التلازم، عن طريق مقارنة ما ورد من أخبار الحركات والمحال في الوثائق المخزنية(82).

---

(80) احمد التوفيق (م.س)، ص. 497، NORDMAN (م.س)، ص. 135.

(81) ابن زيدان، **إتحاف** ج. 2، ص. 502.

(82) نقرأ عند ERCKMANN ص. 276 ما يلي: «كلما أقام السلطان في إحدى عواصمه يبعث بجزء من الجيش في حملات صغرى، حتى إنه يمكن القول إن الوضع الطبيعي للقوات المغربية أن تكون في حالة

بهذا يكون قد اتضح، في رأينا، مدى ما للحرْكة من أهمية، ليس كممثل امتيازي للسلطة المركزية على الصعيد المحلي، بل بالخصوص كمستوى أساس للاتصال والمواجهة بين الدولة المخزنية والمجتمع القروي في مغرب القرن 19م. على أنه إن كان يهم المخزن بالدرجة الأولى إحياء مراسيم وجوده، عن طريق الحرْكة، عند قبائل المسلك والسهل، ثم الحفاظ على مؤسسة الجيش بتوفير إعالته عن طريق المؤنة، فإن ما كانت الحرْكات والمحال تمكن من جمعه من الجبايات، كان بالضرورة، جوهري الحيوية، إذ أن ذاك ماكان يوفر الرصيد الذي يعيش عليه المخزن المركزي. لذلك وجب التعرض لمسألة الجباية بايناون تبعا لتحليل ظاهرة الحرْكة بها.

IV ـ الجباية والتسخير

يحق لنا ألا نتعرض بكل تفصيل للجباية وطرقها وأصنافها الخ... إذ أن بعض الدراسات الحديثة حول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي المغربي قد أتت بما يمكن اعتماده والقياس عليه(83).

واعتبارا لتلك الدراسات ارتأينا التركيز على ما بدا لنا إشكاليا بدلا من الإسهاب في تحليل وصفي أو تصنيفي. بيد أننا اعتبرنا من اللازم التأكيد ولو بإيجاز على مدى تنوع المجابي وما يطرحه من استفهامات قبل التعرض لبعض الإشكاليات العامة التي تقترن بالجباية في مغرب القرن 19م.

أ ـ مجابي وتسخيرات متنوعة معظمها يثقل كاهل القرويين

كنا نعلم أن أنواع الجباية متعددة جدا، منذ أن ركز عليها الواصفون الأجانب الأوائل للجهاز المخزني، وكان يهمهم إظهار جانبه التعسفي، لتبرير أطماعهم في تعويضه في امتصاص خيرات البلاد. وقد دققت الدراسات المغربية المحال عليها منذ قليل، هذه المعرفة خارج ذلك الجانب النفعي المسبق.

ويوحي استقراء الوثائق المخزنية بأن المجابي والكلف كانت متنوعة إلى درجة

الظعن»، ويضيف «عند الوصول إلى المدن.. تبعث الخيول والبغال إلى القبائل لصيانتها.» ومعلومة قيمة شهادة هذا القبطان الفرنسي الذي ترأس البعثة الفرنسية العسكرية في أيامها الأولى بالمغرب.

(83) انظر بالخصوص، أحمد التوفيق (م.س) ونعيمة التوزاني (م.س) والبيبلوغرافيا الواسعة حول هذا الموضوع. والملاحظ أن ما أهم الفقهاء بالخصوص من هذه المسألة، جانب المكس. انظر السملالي : عناية.

تكاد تستعصي على الحصر. ولكي نتصور تنوعها علينا أن نتخيل مدى تنوع وتعدد حاجيات المخزن المركزي اليومية، في شتى مناحي حياته، إذ كان يعتمد على تكليف القبائل بتوفير جميع ما يمكنه الحصول عليه لديهم. أما ما يحتاج إليه خارج النطاق القروي، فإن ما يجمعه من جبايي في شكل «أموال ناضة» كان يصرف في هذا الباب.

طبعا، كان المخزن يعتمد أيضا، في مداخيله على الجمارك، وما يقبضه من مكوس الأبواب والأسواق الحضرية، وما يجنيه من أملاكه الخاصة، وأكرية العقارات، وجزية اليهود... لكن العدد من هذه المداخيل أيضا، كانت تأتي من البادية ولو بصورة غير مباشرة. فالمكوس التي كانت تثير حفيظة الفقهاء باعتبارها تذعيرا للحضر فقط، كانت أيضا تنعكس بالضرورة على ما يباع أو يشترى من البادية التي كانت تؤدي نصيبها من المكوس بهذه الكيفية في حين كانت القبائل تؤدي بقية الكلف والوظائف وتسخر في «التوائز» بمفردها. هذا ما دفع ن. التوزاني إلى القول بـ «أن إيرادات القبائل لا تشكل فقط جل المداخيل التي تتوصل بها خزائن الدولة بل هي أهم الإيرادات المخزنية بصفة عامة»(84).

ولنكتف بإدراج لائحة الأسماء التي ترمز إلى هذه الجبايات حسب ما استقرأناه من المراسلات في شأن قبائل ايناون الأعشار، الزكاة، «الحركة»(85)، الراتب، المؤنة، الذعيرة، الفريضة، الهدية، السخرة، غرامة الخيول الميتة، صيانة الخيول، كلف التبن، والقطاني، والبياض (الفحم) والخشب، والأوتاد، والمحارث، والتلاليس، ثم توائز الحرث والنقل والدراس، ثم نقل أثقال المحال والحركات إلخ... وقد تزيد اللائحة طولا مع مزيد بحث.

إن أبرز ما تشير إليه هذه اللائحة أن الجباية أبعد ما تكون عن ذلك الخطاب الأبوي الذي تحدثنا عنه فيما سبق وتحيل على طابع الابتزاز الذي يميز الجباية المخزنية. ولعل أوضح تجسيد لهذا الطابع يتمثل في سياسة المصادرة لأموال القواد المعزولين، والتي يمكن اعتبارها أيضا نوعا من الجباية المخزنية، إذ أن السلطان الذي لم تكن له الوسائل الكافية لمراقبة ما يحصله القواد والأمناء والأشياخ، من عملية الجباية، والتذعير، وبالرغم من تعديد أشكال المحاسبة، كان يلجأ كما سلف لهذه الوسيلة

---

(84) التوزاني (م.س)، ص. 191. وهذا الحكم مبني على مقارنة مداخيل المراسي والمدن والقبائل.

(85) هنا بمعنى «ما ينوب» القبيلة من الحرّاك، فهي إذاً ضريبة بشرية.

البسيطة والفعالة لحيازة ما يكون الممثل المحلي قد جمعه على مدى سنين(86).

وقد قامت التوزاني بالتمييز بين الواجبات والوظائف والكلف، وأشارت إلى أن التحرير من الوظائف والكلف يُمنح بظهير للمرابطين والطلبة وأهل الزوايا، الذين تُرد عليهم زكاتهم وأعشارهم ليصرفوها على مريديهم(87).

بيد أن السؤال هو هل تحرر بقية القبيلة من نصيب الشرفاء والمرابطين أم لا ؟

أن لا تكون القبيلة محررة من نصيب الشرفاء والمرابطين من الوظائف والكلف، شيء طبيعي، إذ لا كلف أو وظائف على الشرفاء والمرابطين أصلا في المنظور المخزني، وبالتالي فإن كل ما يعين منها يلزم عوام القبيلة بكيفية مخصوصة وبهذا الصدد يمكن التأكيد بأن نصيب الفارّين من المجموعة كان ينضاف إلى نصيب الحاضرين منها، بدلا من أن يحذف، إذ أن الكلفة أو التوظيف كانا يحددان اعتباطا، للمجموعة، سواء زادت أو نقصت(88). هذا ما يوضح شدة تنازع القواد حول الفارين من «إخوانهم».

وإذا كان من الواضح أن الجباية غير الشرعية لا تعني أصلا الشرفاء والمرابطين، فإن دائرة السؤال السابق، تضيق، فيصبح هل ينعكس نصيب المحررين من الضرائب الشرعية على غير المحررين ؟ إن جدية العواقب المترتبة عن اتجاه الجواب على هذا السؤال ايجابا أم سلبا، بالنسبة لعموم سكان البادية، بررت في رأينا، الوقوف عند هذه النقطة بشيء من التدقيق.

والواقع أن ما أثار فضولنا وقادنا إلى طرح مثل هذا السؤال هو ما لفت انتباهنا أثناء بناء جدول إنتاج الحياينة الفلاحي، من عدم التطابق، بين رسالة مخزنية، وقائمة حسابية، متعلقتين بنفس الموضوع أعشار 1308/1890–1891. ففي حين كان خرص كل من أولاد عمران وأولاد رياب متطابقا فيما بين الرسالة والقائمة، وجدنا تفاوتا كبيرا بينهما، في اتجاه الارتفاع في الرسالة، بالنسبة لخرص أولاد عليان :

(86) انظر حالة الشاوي، في تاريخ الضعيف، التي أدرجناها أعلاه.

(87) التوزاني (م.س)، ص ص 167–171.

(88) على العكس مما ذهبت إليه التوزاني. فإن الترتيب، إن هو خفف القبائل بما أتى به من مسطرة جباية على أساس الاستيطان، فإن ذلك التخفيف لم يتجاوز حدّ الزكاة والأعشار. أما فيما يتعلق بالكلف والوظائف فإن ذلك آل في النهاية إلى إثقال كاهل من يبقى بنصيب من يفر.

جدول 25. تفاوت خرص أولاد عليان بين القائمة والرسالة

القائمة		الرسالة
الشعير	2095	3910
القمح	1612	3404

ولم تكن دقة وصرامة المكلفين المخزنيين بالحسابات، والتي خبرناها غير ما مرة (انظر ملاحظاتنا حول التجارة فيما يأتي) لتسمح لنا بافتراض الخطإ، فتعين علينا اكتشاف أصل اللغز.

ومن حسن الحظ أن «القائمة» لم تبخل علينا بالمفتاح فبعد أن سجلت خرص القبيلة، ألحقته بخرص المحررين، بالنسبة لنفس أولاد عليان دون غيرهم. ولما قمنا بجمع الخرصين معا، وجدنا أن المجموع كان يطابق تماما ما ورد في «الرسالة». فطُرِح أمامنا سؤال جديد، لم نستطع الإجابة عنه، وهو: هل كانت أرقام خرص أولاد عمران وأولاد رباب التي تطابقت سلفا فيما بين الرسالة والقائمة تشمل خرص المحررين أيضا ؟ لكن الذي خرجنا به من مقارنة الرسالة بالقائمة هو أن المخزن طالب أولاد عليان، سنة 1308، بأعشار محرريهم. فهل يعني هذا أن القبيلة كانت مطالبة بأعشار محرريها ؟[89].

وقد راجع قائدا أولاد عليان المركز في شأن هذه المطالبة حسب ما استفدناه من رسالتين جوابيتين من السلطان إليهما[90] بيد أن ماورد في هاتين الرسالتين لم يساعدنا كثيرا في الجواب عن السؤال المطروح أعلاه «فقد أخبر الأمين الخارج عندك وعند الخديم التخيلي على دفع أعشار عام ثمانية أنكم توقفتهم فيما وجب على الشرفاء من الأعشار وبُحث عن عادتهم في ذلك فثبت أن عادتهم لا يدفعون للهري السعيد، وعليه فلتجرهم على عادتهم». فلا نستطيع التقرير هـل اجراؤهم على عادتهم يعني أيضا إعفاء بقية القبيلة من نصيبهم أم لا.

(89) القائمة و.م.غ.م. في حين وردت الرسالة، في شكل ملخص في الكناش 657، ص. 265. ونتوفر على نسخة مصورة من القائمة.

(90) ر.م.غ.م. من السلطان إلى كل من أحمد بن الخياط التخيلي 2 جمادى 2 1309 والجيلالي الساهلي الحياني 24 جمادى 2 1892/1309.

وإذا كنا نتوفر على رسائل تفيد أن «واجب الشرفاء لا يُقبض»[91] وهو ما قد يوحي بأن واجب المحررين لا ينعكس على غيرهم، فإن وجود رسائل أخرى يشوش على هذا الإيحاء فالرسالة المتعلقة بأعشار أولاد عليان عن سنة 1308 لا تترك مجالا للشك في أن المخزن قد طالبهم بنصيب محرريهم، وإن كانت قد أثارت المنازعة التي أشرنا إليها أعلاه. ثم إن الرسالة الموجهة إلى نفس القبيلة في شأن أداء أعشار سنة 1309، تستعمل تعبيرا مُلْغِزا، إذ تقول «باندراج المحررين منهم»[92].

ولا ندري كيف يمكن قراءة مثل هذه الرسالة «المعينين من أمناء وأشياخ أولاد عليان، وبعد، وصل كتابكم تستفهمون فيه عن العمل الذي تتمشون عليه في شأن عزبان من ذكرتم من الشرفاء (...) فالذي يكون عليه عملكم فيمن ذكرتم هو أن المأذون له في واجبه يحصى ولا يعطي وظيفا، نعم الواجب يحصى عليه **حتى يدخل في ذمتكم** ثم يُرد عليهم...»[93].

مهما يكن، وريثما تكشف دراسة مستزيدة لعدد أكبر من القوائم الحسابية، وعلى مدى زماني ومجالي أوسع بحيث يماط اللثام بكيفية مقنعة عن هذه المسألة، نرى من المشروع إبداء الملاحظة التالية لو صح أن أولاد عليان قد أدوا فعلا ما طولبوا به سنة 1308، فإن مقارنة ما أدوه برسم «الأعشار» (عشر المحصول مبدئيا) كان يساوي 21% من منتوج القبيلة من القمح و18% من منتوجها من الشعير[94].

ب ـ بعض أنواع الإشكال بصدد الجباية

أول إشكال لا يتعلق بالمغرب وحده، وأحرى أن يتعلق بإيناون فقط إنه مشكل الجباية، وعلاقتها بالإنتاج في البلاد الإسلامية، برمتها. يتعلق الأمر باختلاف

(91) ر.م.غ.م. من دحمان بن علي التخيلي إلى السلطان 10 ربيع 2 1884/1301.

(92) كناش 707، ص. 128. وكأن الصدفة ساهمت بدورها في تعتيم هذه المسألة، فنقل الكاتب بدلا من «باندراج» كما قرأتها، «باندارج». ونجد في كناش 371، ص. 10 9 محرم 1885/1303 في شأن الشرفاء «فمن كان منهم يعطي الواجب فليبق على العطاء ومن لم يكن يعطي شيئا فلا. لكن يُعدّون حتى يدخل واجبهم في حيز القبض ثم يُرد عليهم بعد». ولا نعلم هل «حيز القبض» هو ما يطلب من القبيلة أم فقط، «حالة القبض» أي حتى يحصى وكأنه قُبض قبل أن يُرد إليهم.

(93) كناش 364، ص. 9. 27 شعبان 1885/1302.

(94) يجب التذكير بما توصلنا إليه عند حديثنا عن الحركة من نِسب تقديرية، إذا ما أضيفت تلك إلى هذه، فإن مدى الابتزاز يتجاوز نصف المحصول. وهو ما لا يكاد يصدقه العقل، بيد أن هذا ما قد يفسر الظواهر التالية من الجباية بهاظة المديونية، وتنوع أشكال التهرب من الأداء...

إيقاع الانتاج والجباية. فإذا كان الإنتاج الفلاحي يسير في سائر أرجاء المعمور، بما في ذلك البلاد الإسلامية، حسب فصول السنة الشمسية، فإن الحياة العامة تنتظم في هذه البلاد، حسب السنة القمرية، أي أن الحفلات، والتعامل، والتاريخ، وأداء الضريبة، وقبض الأكرية... وسائر مناحي النشاط الاجتماعي، خاصا كان أم عاما، تخضع للدورة القمرية، التي تنقص، كما هو معروف، عن مثيلتها الشمسية بما لا يقل عن ثلاث سنوات في كل قرن. بمعنى أن من يؤدى الضريبة حسب التقويم القمري، وخاصة في حالة الفلاح الذي يرتبط إنتاجه بالفصول السنوية، سوف يعاني من تفاوت بين وتيرته في الإنتاج وإيقاع مطالبته بالأداء.

صحيح أن هذا التفاوت لا يتجاوز ثلاث سنوات في القرن، بمعنى أن الشخص قد لا يعاني منه طيلة حياته أكثر من سنتين. ولكن، لهذا التفاوت، كل أهميته على الصعيد الاجتماعي، ولا يحق إغفاله، في قياس مدى ثقل الجباية بالنسبة للبادية، مهما ضؤل تأثيره بالنسبة لكل فرد على حدة.

وإذ نثير الفضول حول هذا الجانب المجهول من علاقة الجباية بالإنتاج في البلاد الإسلامية[95]، فإننا لا نستطيع بعد، سوى طرح المشكل دون التوفر على ما يمكن من البحث في ثناياه، إذ يتطلب ذلك تحليل سلاسل من أرقام الإنتاج تغطي المدة القرنية حتى نستطيع ضبط الانكسارات التي تبرز التفاوت بين حركة الانتاج وحركة القبض، وهو اتجاه قد تفيد فيه القوائم الحسابية، المنوه بها غير ما مرة.

ومن أوجه الإشكال بصدد الجباية، مسألة مديونية القبائل إزاء المخزن

– ثقل المديونية   سبقت الإشارة إلى مديونية القواد كوسيلة للتحكم فيهم. والواقع أن المديونية الجبائية حسب ما نستنتجه من عدد من الوثائق كانت باهظة، ولاسيما في النصف الثاني من القرن 19م[96]. وقد سبق لنا أن استشهدنا بصدد

(95) انظر: VEINSTEIN, Gilles, «Trésor public et fortunes privées dans l'Empire ottoman (milieu XVIe S - début XIXe Siècles), Cah. Méd., Bendor, 1979, pp. 121-134, Cf. 123.
وتختلف حالة المغرب عن الدولة العثمانية، إن صح ما يشير إليه من كون الجباية على أساس التقويم الشمسي وأداء الرواتب على أساس القمري، إذ لا تترك المراسلات المخزنية مجالا للشك في أن الجباية قمرية الإيقاع.

(96) انظر كناشة باليمني، ص ص. 85 – 91 لوائح مفصلة عن مديونية القواد عن 1868. انظر أيضا G. AYACHE (1979) (م.س)، ص ص. 97–138.

وثيقة 6 مديونية القبيلة

حركة التسول (1890) برسالة تشير إلى أن حجم مديونيتهم من الواجب كان يبلغ «أحد عشر عاما»(97). ويمكن تعديد الشواهد في هذا الباب، ونكتفي، بالإضافة إلى البطاقة المثبتة صورتها طيه، والخاصة بصنهاجة، حيث نطلع على أنها سنة 1306، كانت متبوعة بما لا يقل عن 17 سنة، نكتفي بإدراج هذه الرسالة المتعلقة بزكاة أحد قائدي أولاد عمران «على المحرري، وصل جوابك عما أمرت به في شأن الزكاة بالامتثال (...) فزكاة المواشي الواجبة على إخوانك وسط القبيلة كل عام هو ثمانمائة ريال وثمانية وثمانون ريال وسبعة أثمان الريال والمترتب بذمتهم من الواجب المذكور وغيره هو أربعة وعشرون ألف ريال وسبعمائة ريال وسبعون ريالا وثمنا الريال»(98).

كيف يمكن تأويل ثقل هذه المديونية ؟ فضلا عما لاحظناه سابقا من جانب سياسي في المسألة، وما سجلناه منذ قليل من تفاوت بين وتيرتي الإنتاج والجباية على المدى القرني، فإن لسنوات القحط حظها من تراكم هذه الديون التي تصبح كالسيف المسلول الذي يهدد القبيلة باستمرار.

– هل هذا التفاوت وهذا الثقل هما اللذان دفعا المجموعات القبلية إلى ابتكار شتى أشكال الإفلات من أداء الضريبة ؟ تتحدث الوثائق بكثرة عن الكيفية التي يبحث بها سكان أحواز فاس عن أي منفذ يمكن من عدم الأداء. فمن الاحتماء بالشريف المحلي وعزيبه إلى الالتجاء إلى سلطة طالب ينتمي إلى الجماعة أو الاحترام بضريح أحد أولياء القبيلة إلى الفرار خارج النطاق الذي تطاله يد المخزن.

– لعل هذه العناصر مجتمعة هي التي حدت المخزن على نهج سياسة مرنة في موضوع الجباية، تتجلى أولا في قبول هذه المديونية في حد ذاتها، ثم أيضا في مستويات أخرى فقد سبق لنا إبراز تلك السياسة الانتقائية بصدد دراسة الحركة، واتضح لنا أن المخزن، إن طالب الحياينة بسائر الواجبات والكلف، فلم يطالب غياثة سوى بالواجب، عدا إذا وظف عليهم الوظائف الثقيلة بمناسبة محلة سلطانية، أما بني وراين فإننا لا نصادف لهم سوى ذكر بعض الهدايا الرمزية بين الحين والآخر(99).

97) كناش 162، ص. 51.

98) لا تعني قسمة المجموع على واجب كل سنة أي شيء بما أن المجموع لا يضم الزكاة وحدها وإنما هي وغيرها. بيد أن هذه القسمة تعطي 27 سنة من التأخير، لو تعلق الأمر بالزكاة وحدها. انظر كناش 639، ص. 34 1308/1890.

99) في كناش 16، جرد بهدايا القبائل. ونلاحظ مثلا أن غياثة وبني وراين يهدون في الأعياد والمناسبات، لكن بعد أن نظم السلطان محلة ضد غياثة وحازت من ماشيتهم وبهائمهم عددا هاما (151 من البقر، 54 من الخيل، إلخ ..)، اختفى ذكر هدايا غياثة خلال خمس سنوات.

فهل ثمة تدرج واع أم غير واع من طرف المخزن ؟ مجال للقبض والتذعير، وهو بلاد «الوطا» الحياينة، التسول، والبرانس، وبني سادن، وهو ما سبق لنا أن عيناه كمجال للحركة أيضا. ثم بلاد تؤدي الواجب فقط، وبكيفية متقطعة غياثة، ثم بلاد وعرة، يعجز المخزن عن الإمساك بأهلها، ويكتفي منهم بعدم هجومهم على بلاد الوطا ؟ لو صح ذلك لكانت عبارة «الصلاح» التي يطلقها المخزن على كل هذه القبائل، تغطي هذه المعاني المختلفة، ولكان المخزن بهذه اللفظة يحجب مرة أخرى واقع القبائل التي ترفض سلطته أو على الأقل جانبها الجبائي.

ـ أم أن هذا التدرج يشكل جانبا مما نعتناه بالسياسة الأبوية في عدد من الممارسات المخزنية ؟ فيما نلاحظه من الوثائق المتعلقة بالخرص والجباية، أن المخزن كان يتعامل مع القبائل وكأنه يشعر بعتبة لا يمكنه تجاوزها دون أن يؤدي ذلك إلى إفلات زمام الأمور من يده، من ذلك ما أوردناه من تأخير الحركة بالرغم من نصح الوزاني أو أحد القواد بتوجيهها. ومن ذلك أيضا استجابة المركز في عدد من الأحيان لطلب إرجاء أداء الأعشار حينما يكون المحصول رديئا(100).

مهما يكن، فإن المخزن كان يضع ممارسته الجبائية، ضمن إطار ايديولوجي يركز على الجمع بُغيةَ إعادة التوزيع. وإعادة التوزيع لم تكن تشمل فقط ما سبقت ملاحظته من كون السلطان يدعو بالبركة والخلف مقابل ما يتسلمه من منتوجات فلاحية وماشية، بل إن إعادة توزيع حقيقية للمنتوجات التي كان المخزن يجمعها، كانت تحصل بالفعل من الحين الى الآخر في الحواضر المخزنية، ولاسيما إبان شهور أو سنوات الفاقة. وقد سلف أن بيّنا أن هذه العملية لا تستفيد منها البوادي إلا في حدود ضيقة جدا (الأعيان وقت وفودهم على السلطان في بعض المناسبات).

(100) نقرأ في كناش 694، ص. 64 من ملخص رسالة إلى ولد ابّ محمد «فقد كتب عمال الحياينة يعتذرون عن عدم دفع أعشار العام الماضي بضيق الحال على الناس، وغلاء سعر القمح حتى التجأوا لحفر ايرنا للاقتيات بها وطلبوا التوسعة عليهم فيه إلى العام القابل فساعدناهم على ذلك رفقا بالمسلمين، وشفقة عليهم، فنأمرك أن لا تطالبهم به في هذه السنة» 13 شعبان 1894/1311.

سجلنا عبر فصول هذا الباب، الذي انصب على تحليل جوانب علاقة المخزن بقبائل ايناون، تعدد القنوات والشرايين التي ينفذ من خلالها المخزن إلى الحياة القبلية المحلية ويحاول استغلال آلياتها للتحكم فيها. وسجلنا أيضا عبر عينات مضبوطة، حجم الإبتزاز المحتمل الذي قد تتعرض له القبيلة من جراء الممارسات المخزنية سواء كانت من فعل القائد الذي قد يتبرأ منه السلطان حالا ويصادر ممتلكاته مآلا، أو من فعل الحركة أو المحلة، والتي بمجرد «نزولها» تشكل جانبا هاما من ذلك الابتزاز. وحاولنا أخيراً، عبر مراحل متعددة، الكشف عن الايديولوجيا المخزنية، الأبوية بصورة عامة، والتي تبرز في مواقف مرنة، وسياسة انتقائية حسب المقام والحال. كل هذه العناصر أبرزت في النهاية بنية المخزن كبنية معقدة، يختفي طابع العنف فيها تحت ستار سميك من الخطاب الأبوي التوزيعي، حتى حينما تكون أدوات العنف (الحركة) حاضرة في عين المكان، إذ أنها غالبا ما تدمج العنف في المفاوضة.

غير أن المجتمع القروي، والمجموعات المحلية، أفرزت بدورها جملة من الممارسات الرفضية، تتكيف بها مع هذه الأيديولوجيا وتقابل بها ذلك السلوك.

البــــاب الثــالــــث

بوادي إيناون والرموز المخزنية

الفصل السادس: البادية والمدينة إيناون بين فاس وتازة
الفصل السابع التجارة عبر اينـــاون
الفصل الثامن الانتفاضة المحلية حرَكة بوعزة الهبري

الباب الثالث

بوادي إيناون والرموز المخزنية

لا يعدو هذا الباب أن يكون مشروعا للبحث في جانب من التاريخ المغربي لم ينل الاهتمام إلا مؤخرا، وهو جانب الانتفاضات القروية. وسوف نركز نظرنا على نماذج من ردود الفعل القبلية أمام المبادرات المركزية. ثمة رموز يتجسد فيها المخزن بالنسبة للمجموعة المحلية. ويربط المخزن أيضا وجوده، واستقراره وقوته بوجود وسلامة تلك الرموز التي هي المدينة، والمسلك، والقوافل التجارية.

فأي موقف من المخزن، سوف يتجلى إذاً أولا في السلوك الذي تنهجه المجموعة المحلية من هذه الرمور المخزنية. لذلك محورنا ملاحظاتنا الأولية في هذا الباب حول الاتجاهات التالية

1 ـ القبيلة والمدينة نتعرض فيه لأشكال المواجهة بينهما مع تحليل موجز لكل من علاقة الحياينة وفاس ثم غياثة وتازة.

2 ـ التجارة عبر ايناون، كنشاط لفائدة المدينة.

3 ـ الانتفاضة القبلية غياثة نموذجا، نتعرض فيه لحرَكة الانتفاضة التي قادها بوعزة الهبري.

الفصـــل الســـادس
البادية والمدينة ايناون بين فاس وتازة

حينما كان سكان ايناون يتلفّظون بكلمة «المدينة»، إنما كانوا يعنون بكيفية شبه قطعية مدينة فاس على أن تازة كانت أيضا تلعب دور المدينة، وإن كان ذلك بإشعاع أقل مما لفاس، إذ غالبا ما لا يتجاوز. نفوذها البرانس، ومكناسة أو غياثة.

ولدينا مجموعة من الشواهد توضح مختلف الأدوار التي كانت المدينة تلعبها بالنسبة لسكان ايناون، ونستطيع من خلالها أن نستشف مواقفهم منها. إن ما طبع العلاقة بين القبيلة والمدينة هو التعارض والمواجهة[1]. فقبل التساؤل عن بعض العناصر التي قد تساعد على فهم أصل هذه المواجهة، سوف نتعرض للعلاقة بين كل من فاس والحياينة وتازة وغياثة.

I ـ فاس والحياينة المدينة تكفّر البادية

قـصــة فـتــاوى

نقرأ عند علي السوسي السملالي في **مطالع الحسن** «واعلم أنني وقفت على فتاوى من علماء فاس بتكفير لَحيَيْنَ [كذا] أي بحيث تباح دماؤهم وأموالهم ويخلدون في النار منها فتاوى إثنا عشر عالما أفتوا بتكفير لحيينا [كذا] في أيام مولانا سليمان، وفتاوى أخرى في أيام مولاي اسماعيل»[2].

يعود أصل هذه الفتاوى في الواقع إلى أواسط القرن 17، ولم يكن عددها سوى سبع. ثم تعددت كما يشير اليه السملالي، حتى أصبحت إثنتي عشرة. ويدل تعدد نقلها ونسخها على مدى اهتمام فقهاء فاس بهذا الموضوع.

---

(1) انظر G. AYACHE (1981) (م.س)، ص ص. 32، 37.

(2) السملالي، علي، **مطالع الحسن**، مخطوط خ.ح. رقم 81، ص. 79.

ولا ندري شيئا عن مآل النسخة الأصلية، ولكننا نستطيع أن نفترض أن النسخة التي كانت بالخزانة الكتانية قد نقلت عنها أو عن نسخة منها(3).

وقد تمكنا من العثور على ثلاث نسخ أخرى من نفس الفتاوى، مدمجة في مصنفات مختلفة(4).

يمكن القول إذاً إن مصير هذه الفتاوى لم يكن التعدد مع الزمن فحسب، بل النسخ المتزايد، مما يدل على أن الشعور بأهميتها من طرف فقهاء فاس استمر على الأقل حتى القرن 19م.

وقد أصدر علماء فاس النسخة الأولى من هذه الفتاوى في رجب 1062/1652(5). أي في سياق ما صاحب انهيار الحكم السعدي من اضطراب وتشكل سكاني في حوض ايناون، ركزنا عليه في الفصلين الثالث والرابع. وتدل لائحة الفقهاء الموقعين على هذه الفتاوى، على مدى السلط الفقهية والعلمية التي حركتها قضية «الأجوبة في شأن الحياينة» محمد بن قاسم بن سودة، محمد بن أحمد ميارة، أحمد بن محمد الزموري، أحمد بن محمد اللبار عبد السلام بن محمد، علي بن محمد الشريف المريني، عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي(6).

وإذا ما استثنينا بعض الاختلاف البسيط في النص أو الترتيب فإن النسخ الأربع التي نتوفر عليها تهدف كلها إلى إقامة الدليل على كون الحياينة بكيفية خاصة، والأعراب المحيطين بفاس بكيفية عامة، من «المحاربين»، «القاطعين للطريق» الذين يحل أن «يقدم جهادهم على جهاد الروم والكفار»، وذلك عن طريق جلب العديد من الآيات والأحاديث. ومن المفتين من اعتبر أن الحياينة وسائر أعراب أحواز فاس هم في حكم «الردة والكفر الصريح»، وهو مالم يستسغه حتى السملالي نفسه، مع

(3) **أجوبة علماء فاس في شأن قبيلة الحياينة**، خ.ع.ك 3270.

(4) انظر: **البدور الضاوية** لسليمان الحوات، خ.ع.د. 261، ص ص. 233–238، **الدر المنتخب**، أحمد بن الحاج، خ.ح.، ز. 12184، ج. 5، ص ص. 222–235، **مجموع** خ.ح. 12829.

(5) الحوات (م.س)، ص. 233.

(6) انظر حول هؤلاء الفقهاء: **سلوة الأنفاس** لمحمد بن جعفر الكتاني: ط.ح.، ج 1، ص ص. 161–162؛ (ميارة)، ص ص. 309–310؛ (الفاسي)، ج 2، ص. 70؛ (الزموري والمري بدلا من المريني كما في بعض النسخ) ج 3، ص. 80 (ابن سودة)..

العلم أنه، كما أسلفنا، كان من الفقهاء المتحاملين على سكان البادية[7].

لماذا كل هذا الإجهاز على البادية المجاورة للمدينة ؟ لنترك الكلمة لأحد المفتين «ليت شعري أي مسألة أحمد على المسلمين من قتال المحاربين بدويين وحضريين إذ بقتالهم وكف إذايتهم ينتظم شمل العالم ويحصل الأمن العام الذي تطمئن إليه النفوس وتنتشر فيه الهمم وتسكن فيه القرى ويأنس فيه القوي والضعيف ويشمل النفع للشريف والمشروف، وخصوصا التجارة التي رغب فيها ذوو الأقدار وحض عليها أولو الأخطار (...) وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال تسعة أعشار الرزق في التجارة فإهمالهم وتركهم على حِرابتهم وغوايتهم يحصل ضد ما ذكر من الخوف الذي يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفاتهم ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم»[8].

يبدو إذاً بوضوح، أن ماكان الفقهاء يؤاخذون الحياينة به، هو قطع الطريق، وعرقلة التجارة. والواقع أن الحياينة كانت تقبض على مخنق فاس، بما أنها كانت تسيطر على كل مسالكها نحو الشرق والشمال الشرقي. ومن ثم فإن القبيلة، إذا ما قطعت طريق التجارة على المدينة في هذه الإتجاهات، كانت تلحق الضرر بالنصيب الأوفر من التجارة الفاسية، سيما قبل القرن 19م، حينما كان لهذه المسالك كل الأهمية التي أوضحناها بمناسبة الحديث عن الموكب الحجي.

وإذا كنا سوف نعود بعد قليل للحديث عن دور التجارة في العلاقة بين البادية والمدينة، ولاسيما عن طابعها «الخارجي» الذي كان يجعل من هذه التجارة، ثروة تمر على أرض الحياينة، دون أن تستفيد منها كثير استفادة، مما يفسر معاداتها لها، فإن نفس أهمية هذه التجارة بالنسبة للمدينة، هي التي تفسر مدى حقد فقهائها على قاطعي طريقها. ونادرا مالم يقدم ناسخو هذه الفتاوى لها، بالسباب والشتم في حق الحياينة كما نجده في مجموع الخزانة الحسنية حيث أتبع الناسخ اسم الحياينة بـ «أباد الله خضراءهم واستأصل شأفتهم»[9].

---

(7) دليل حرج السملالي بين إفتاء الفقهاء وعدم استساغته أنه وجد مخرجا سماه «بالكُفر الجُملي» أي إطلاق الكفر على العموم دون تعيين (م.س).

(8) افتاء منسوب إلى علي بن محمد الشريف المريني في نسخة، وإلى أحمد بن محمد اللبار في أخرى.

(9) مجموع خ.ح. رقم 12829.

ولعل هذه الكراهية تبدو أيضا في الأمثال الشعبية الرائجة بفاس، ومنها ما يبرز تخوف أهل فاس من غارات وهجمات الحياينة، ويكون بمثابة الصدى الشعبي لفتاوى الفقهاء

«الحيّاني همّْ عيّانِي»

ومنها ما يشير إلى مدى احتقار الفاسيين لأهل البادية

- «العَرْبِي والفَارْ لا تْوَرِّيهُم باب الدّار»
- «مَا تِيتْخْلاَقْ فَاسِي حتى تِيتْخلاَقُوا ارْبْعِين دْيَالْ العْرُوبِيَّة تِيخْدْمُوه»(10).

ويشير المثل الأخير إلى نوع من العلاقة بين فاس وباديتها ولاسيما منها قبيلة الحياينة، يتمثل في عدم التساوي وعدم التكافؤ على صعيد الملكية العقارية وعلاقات الانتاج عليها. ولعل هذا أحد العناصر التي توضح المواجهة بين البادية والمدينة كما سوف نرجع إليه بعد التعرض لمثال العلاقة المتوترة بين تازة وغياثة.

II – غياثة وتازة البادية تطوق المدينة

جعل موقع تازة من المدينة حصنا يتحكم في الممر الوحيد الممتاز بين الريف والأطلس المتوسط، كما بيّناه غير ما مرة. لكن موطنها في سفح جبل غياثة جعل منها منذ العهود الغابرة مدينة رهينة فيما يتعلق بتزوّدها من الماء، بحسن إرادة القبائل المجاورة لها. فقد سجل الوزان «وينحدر من الأطلس نهر صغير يمر بالمدينة، ويخترق الجامع الكبير. ويغير الجبليون أحيانا مجراه عندما يختصمون مع سكان المدينة، ويصرفونه إلى مكان آخر، فتتأذى المدينة كثيرا، إذ لا يمكن حينئذ طحن الحبوب، ولا الحصول على ماء صالح للشرب، ويضطر السكان إلى الإكتفاء بماء الخزانات العكر، ثم يرد الجبليون الماء إلى المدينة عندما يعود السلام»(11).

هكذا فإن غياثة كانت تمتلك، في إمكانية قطع الماء على المدينة سلاحا فعالا تلجأ إليه كلما عرض عارض بينها وبين أهل تازة، وإن كان استعمال هذا السلاح لم

---

(10) ابن سودة، على التوالي: ج 1 270 و.ج. 2 421 و521.

(11) الوزان (م.س)، ص. 275 – 276. وقد سجل البوخصيبي أن هذه الظاهرة معروفة منذ عصر ابن الخطيب.

يكن دائما بدون نتائج وخيمة بالنسبة لغياثة ذاتها، كما سوف نراه في بعض الحالات.

وقد أمكن من خلال الوثائق المخزنية، ومراسلات البعثة العسكرية الفرنسية، تتبع حالة من مواجهة غياثة وتازة.

لا ندري شيئا عن أصل المواجهة بين عسكر تازة وغياثة، والتي آلت إلى قتل عسكري في أوائل أبريل 1889. بيد أن رسالة سابقة عن الحادث ببضعة أيام تقرر «منذ قدمنا هذه البلاد وأنا نستهدي الجوار لطريق الرشاد ونعدهم من سيدنا بالمواعيد الحسان، ونقول لهم لا ترون إلا ما يسركم من الجانب العالي بالله، واشتروا فرسا وتركوه تحت يدي هذه مدة من ثلاثة أشهر ولم نحصل منهم على طائل وأنا قائم بعلف الفرس تلك المدة وكل يوم يجعلون ميعادا ويتفرقون بلا مفيد، ولما استخلق العسكر قصر أعيانهم من الدخول للبلد وغيرهم يدخل، واسكن الله الرعب في قلوبهم واشتغلوا بالانتقال من الوطا إلى قنن الجبال ولازالوا مرعوبين ومن سطوة سيدنا خائفين، وتلاقوا مع بني وراين مراراً يطلبون منهم الاستناد إليهم بالأموال والأولاد...»[12].

هذه الرسالة ترسم إطارا لقتل العسكري، يتمثل في المواجهة بين غياثة الذين يرغبون في الدخول إلى المدينة ولو لم يكونوا تامي الامتثال للمخزن، والممثلين المحليين الذين يرفضون ذلك. وإذا كانت هذه الرسالة تبرز التجاء غياثة إلى بني وراين، واستمرارهم في إتباع عادة تنظيم «الميعاد»، فإن ما يهمنا منها هنا، أن غياثة ربما قتلوا العسكري حالة منعهم من الدخول إلى المدينة. مهما يكن، فإن قتل العسكري كان منطلقا لتصاعد المواجهة بين عسكر تازة[13] وبين غياثة. نطلع من خلال ملخص لرسالة وفدت من عامل تازة على مايلي «ابن الفقيه البخاري، بأن غياثة قتلوا رجلا من العسكر الذي هناك فقام إليهم العسكر من غير علم منه ولا إذن له فيه، فقبضوا منهم أربعة وثلاثين مسجونا، وخرجوا لمن هو نازل حول المدينة بالدور والكهوف ونهبوا لهم جميع ما ثَمَّ من المواشي والأثاث، مع ماكان بفندق به من البهائم ودخلوا بالجميع للمدينة بعد أن تقاتلوا معهم فمات من غياثة 3 ومن العسكر 1 وإنه أحصى ذلك

(12) ر.م.غ.م. من محمد بن الفقيه البخاري عامل تازة إلى السلطان. 4 شعبان 5/1306 أبريل 1889.

(13) كان عسكر تازة يتراوح حسب الفترات بين 300 و500. انظر: A.M.G. Maroc, C, 5, Thomas, Avril 1889.

المنهوب عليهم وكل من بيده شيء منه فيده عليه، وأن غياثة قبل خروج العسكر إليهم خطفوا أيضا من دول بقر أهل المدينة، والمدينة الآن في الضيق والحصار...»[14].

وفي الجواب على هذه الرسالة، أمر السلطان بالكف عن المواجهة، والمصالحة «فلتساعد مع المذكورين وقاربه، وكف العسكر من العود لمثل هذا وهانحن أمرنا غياثة بالإنكفاف عما يصدر منهم...» ولكنه قرر أيضا «ووجهنا حامله الخديم الباشا القائد العربي بن بوعزة الأودبي ومن معه من المخازنية للوقوف على ذلك حتى يتم الغرض فيه وقد أمرنا أن يعالج أمر الصلح بينهم **على أن يبقى بيد المخزن المساجين والمتاع**، فإن تم على الوجه المذكور وكان عنده من يصحب ذلك لحضرتنا الشريفة في أمان فذاك وإلا فاعلمنا لنوجه من يأتي بذلك»[15].

طبعا حينما وصل الأودبي وجد «غياثة محدقين بتازا، لا يصل إليها أحد. فلم تكن له طاقة بمقابلة جموع القبائل وفساد غياثة، وهم يقولون لا يقبلون الصلح إلا إن سرح لهم مساجينهم ودفعت لهم بهائمهم، (...) منبها أن توجيه المساجين والبهائم للحضرة العالية لا يتأتى بدون جد وقهر»[16].

ومن جملة ضغوط غياثة لاسترجاع بهائمهم وتحرير سجنائهم، قطعوا الماء عن المدينة. بيد أن العامل أبلغهم أن أول من سوف يمنع من الشرب هم إخوانهم المسجونين. وحرمهم فعلا حسب رواية طوماس Thomas، إلى أن أدى ذلك إلى وفاة سجينين غياثيين عطشا، مما أجبر غياثة على ترك الماء للمدينة من جديد[17].

ومن الجدير بالملاحظة أن المخزن الذي أكثر من النصح بالمصالحة، قرر كما لاحظناه، مرات متعددة في مناسبات مشابهة، الاحتفاظ بالسجناء والمتاع المنهوب وذلك بالرغم من إشعار مبعوثيه بما في هذا الموقف من تناقض وحرج. فقد عبر قائد «النزول» عن حرجه هكذا «لما وقع الصلح بين غياثة وأهل المدينة بمحضر الشرفاء

---

(14) شعبان 12/1306 أبريل 1889. كناش 154، ص. 61. وفي رسالة لاحقة، ص. 97 من نفس الكناش، فصّل العامل «المنهوب» كما يلي «خيل 3 واحد بسرجه، إناث الخيل 4، جدع واحد من الخيل، بغال 51، وحمير 48، ومكاحل 9، وسكاكين 3».

(15) كناش 154، ص. 68. التشديد من عندي.

(16) 24 شعبان 25/1306 أبريل 1889. كناش 154، ص. 91. وقد سجل الكناش تعليق السلطان على الرسالة هكذا «يبين كم يكفيهم لذلك من المدد لدخولها [تازة] عنوة». وهذه إحدى فوائد الكنانيش التي تسجل «الوارد» إذ أنها تُتبعها بتعليقات السلطان التي تمثل هيكل فحوى الجواب.

(17) A.M.G., Maroc, C, 5, Thomas, Avril 1889.

وثيقة 7   مخطط الفقيه السملالي لأخذ غياثة

وعامل تازة لم يظهر منهم سوء وأنه [الأوديي] لم يجد سبيلا لتوجيه مساجين بني وجان وبهائمهم خشية تعرضهم لما يوجب نقض ما أبرموه من الصلح وهو لايتم إلا بتسريح مساجينهم ورد بهائمهم»[18].

فكان تعليق السلطان على هذه الرسالة «وكم يكفيه من المدد لذلك، وهل لم يتأت له الخروج بهم ليلا على حين غفلة ؟». وتدلنا هذه الملاحظة على مدى إصرار المركز على الاحتفاظ بالمساجين والمنهوب من متاع غياثة، ولو كلفه ذلك مزيدا من الإمداد العسكري أو اللجوء إلى الحيلة والخدعة، إن لم يفلح الجند في المرور «عنوة».

ولم يستطع المخزن تجاوز الورطة إلا باللجوء مجددا إلى «بركة» الوزاني، كما جاء في تلخيص رسالة «سيدي بن زين العابدين بتحذيره غياثة من التعرض لمساجينهم الواردين صحبة مولاي أحمد الصويري فامتثلوا واتعضوا...» فكان تعليق السلطان، هذه المرة

«ذلك من يمنه ونصحه شكر الله له وكثر أمثاله»[19].

والظاهر أن المخزن المركزي كان يخطط لحركة ضد غياثة بالخصوص، إذ عثرنا على رسالة مطولة للفقيه السملالي، وهي بمثابة مخطط للهجوم على غياثة، إذ يعرض فيها الفقيه تجربته على السلطان، ويبين، حسب خبرته الماضية بهذه القبيلة، كيف يمكن أخذها (انظر الفصل الرابع أعلاه)[20].

ولم يكن غياثة بغافلين عن هذا الإحتمال، إذ أنهم في نفس الوقت الذي توجهوا فيه إلى لقاء السلطان أثناء حركته تجاه طنجة في يونيو 1889، فإنهم حسب عامل تازة «جميع ما يذكرونه إنما هو لأجل زروعهم، خافوا عليها من مولانا (...)

---

(18) كناش 154، ص. 147. 18 رمضان 18/1306 ماي 1889. والتعليق بنفس الصفحة.

(19) كناش 154، ص. 180. 29 رمضان 29/1306 ماي 1889. وفي رسالة م.غ.م. من الأوديي إلى السلطان، 26 رمضان 26/1306 ماي 1889، يصف الوزاني أثناء عمله «وتلقى معهم ووعظهم وأنذرهم وقال لهم مساجينكم وبهائمكم أمر عليهم مولانا بالقدوم لحضرته الشريفة فإن أنتم امتثلتم فإنكم مستطيعين لله ولسيدنا وإن عصيتم فلا تلومن إلا أنفسكم فأجابوا بالسمع والطاعة..» وهنا أيضا نصادف ما سجلناه سابقا من الاعتماد على التحكم في العاطفة الدينية. وتعطي هذه الرسالة صورة عن حنكة الوزاني في المفاوضة، إذ يستعمل «قدوم» عوضا عن «اعتقال» أو «قبض». أما عن المساجين فإننا نعلم من رسالة لاحقة أن 9 منهم أطلق سراحهم بعد شهر ونصف ولا نعلم شيئا عن مصير الآخرين.

(20) انظر صورة الرسالة، مدرجة هاهنا، ص. 371.

وأمتعتهم نقلوها لقنن الجبال والأماكن المعدة عندهم لتحصينهم...»[21].

لم يكن القصد من تتبع ثنايا هذه الحادثة التي واجهت غياثة ومخزن تازة وعسكرها وأهلها، عن طريق قطع الماء، سوى إبراز هذا السلاح الإحتمالي الذي كان بين أيدي القبيلة ضد المخزن بالمدينة. بيد أننا لَا نَعْدَمُ الأمثلة التي يستعمل فيها المخزن المركزي غياثة ضد العسكر الموجود بتازة حينما ينتفض مثلا ضد عامله[22].

لاحظنا إذاً ما تكِنُّه المدينة من احتقار وحقد للبادية عبر نموذج تكفير فاس للحياينة، وقدمنا تطويق البادية للمدينة عبر مثال حصار غياثة لتازة، وعلينا أن نبحث عن بعض أسباب هذه العلاقة الصدامية.

III ـ بعض عناصر التفسير

سبقت بعض هذه العناصر مبعثرة في الفقرات المتقدمة، ويمكن جمعها هنا في مستويين المدينة تجسيد ووسيلة للسلطة المخزنية، ومن ثم فإن مواجهة القبيلة تتخذ طابعا سياسيا، ثم إن للمدينة شتى أشكال السيطرة الإجتماعية والاقتصادية على القبيلة المجاورة، فتكون المواجهة تعبيرا هنا عن صراع إجتماعي واقتصادي.

أ ـ المدينة كتجسيد ووسيلة للسلطة المخزنية

وصفنا المدينة في علاقتها غير المتساوية مع القبائل المجاورة، عبر عدد من المستويات

* إداريا، حينما يسكن القائد المدينة ويحكم القبائل المجاورة،
عسكريا، حينما تنطلق الحركات والأمداد من الحاضرة ثم تعود إليها،
دينيا حينما تكفر المدينة القبيلة، فتعطي للحاكم بذلك حق استباحة ممتلكاتها.

ولعل الأسوار والأبواب التي تميز المدينة في المجال عن البادية المجاورة، تشكل في حد ذاتها رمزا مجسدا للسلطة المخزنية، إذ كم من مرة استعمل المخزن المدينة كمصيدة للسكان القرويين الذين كان له غرض في قبضهم لهذا السبب أو ذاك.

(21) ر.م.غ.م. إلى السلطان. 8 شوال 1306/يونيو 1889.

(22) مثلا 23 شعبان 1308/مارس 1891 ـ كناش 632، ص. 247.

وقد عثرنا على رسائل تفيد أن فاس لعبت هذا الدور مرات بالنسبة لكل من بني سادن، والحياينة والتسول والبرانس، وأن تازة لعبت نفس الدور بالنسبة لغياثة(23).

وبصفة عامة، وكما أشرنا إليه سابقا، فإن المدينة كانت مصب منافع التنظيم المركزي مما كان يمكنها من استغلال شتى أشكال السيطرة على البادية المجاورة لها.

ب ـ المدينة تسيطر على باديتها

تبدو سيطرة المدينة على جوارها في منافستها لهم في وسائل عيشهم كالماء بالنسبة لغياثة الذين إنما كانوا يقطعونه عن المدينة «لأجل سقي الذرة»(24) ولقد كان هذا التنافس أيضا حول الأرض، إذ أن ظاهرة العزبان، قد قويت بكيفية ملحوظة حوالي نهاية القرن، سواء تعلق الأمر بعزبان الشرفاء وأراضي السلطان أو بعزبان بعض أثرياء المدينة(25).

وإذا كانت هذه العزائب تمثل وزنا بالنسبة للقبيلة بما يسيطر عليه من أجود الأراضي، فإنها أيضا كانت تزيد من حدة إثقال كاهلها بالضرائب، وقد رأينا أنه في بعض الحالات على الأقل، ربما كان المخزن يطالب القبيلة بنصيب محرريها من الواجب. وعلى كل فإن القبيلة كانت مطالبة وحدها بسائر أنواع الوظائف والكلف. ثم إن العزائب كانت تلعب دور الملجإ من أداء الضريبة حتى إن بعض القواد اضطروا إلى الاحتجاج من جراء ما يلحق بقية القبيلة من الضرر كما نستفيده من عدد من الإشارات في الرسائل الواردة على السلطان «علي المحرري، وصل كتابك بارتحال إخوانك أولاد بوشتى لعزائب أهل وزان وغيرهم تمنعا من أداء الواجب (...)»(26).

ومن جهة أخرى فإن المخزن لم يكن يعامل المتنقلين من البادية إلى المدينة أو

---

(23) و.ز. مج 3. و138، ومج. 8 و10، كناش 360، ص. 201. انظر أيضا العروي، (1977) (م.س)، ص. 269.

(24) ر.م.غ.م. 4 ربيع 2. 1894/1312 ـ من عبد السلام بن يط إلى السلطان.

(25) انظر ما سبق حول الشرفاء بايناون. ومن أسماء أصحاب العزبان من الحضريين بايناون صادفنا عبد الكبير الفاسي، بنيس، الحمومي، الإدريسي، الرامي.

(26) كناش 708، ص. 232. مع العلم أن «عزابة الحمومي [مثلا] يقربون من ثلث أولاد عمران ولهم مواشي وحرث ولم يطالبوا بأداء شيء، بل هو الذي يتولى الفرض عليهم ويختص بما يقبضه منهم». كناش 657، ص. 227.

العكس بنفس المسطرة، فإن من يقطن البادية من أهل الحرف من المدن كان لا يطالب بواجب أو وظيف كما جاء في جواب إلى القائد العلياني «فإن المعلمين أولاد ابن زكري الفاسي وهم الحاج أحمد وأخواه إدريس والعربي، ذكروا أنهم يقيمون عندكم بعمل حرفتهم لمعاشهم وربما يحرثون بفرد من الحرث لقوتهم أو يكسبون بقرة لحلبها، **وليس لهم مدخل في أحكام القبيلة**، ثم إن الأمناء والأشياخ يريدون أن يطالبوهم بالكلف المخزنية، واستظهروا (...) **أن العادة لم تتقدم بمطالبة المحترفين أهل المدينة بشيء**، وعليه فإن صح فنأمرك أن تكف الأمناء والأشياخ عنهم...»(27).

في حين كان على من يسكن المدينة من أهل البادية أن يؤدي عما تركه من العقارات بها... «الذي يكون عليه العمل هو أن من بالمدينة منهم [الحياينة] ساكنا منقطعا عن أسبابه وعنده علقة بالبادية من حرث ونحوه، فيؤدي عليه نصف ما يؤدي غيره...»(28).

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المعاملة التي كانت قد تغضب ساكن المدينة الجديد إذا ما قارن نفسه مع ساكن المدينة القديم (حالة الحرفيين الآنفة) فإنها لم تكن إلا لتثير تذمر بقية أهل البادية، الذين يتحملون نصيبا من حصة كل من غادرهم إلى المدينة. وقد كان تفضيل المدينة على البادية يتبرر في اعتبار المخزن من وجهة النظر الشرعية والعرفية وهذا مقطع من رسالة، يبرز إلزام أهل البادية بحراسة الطريق ولكنه ينسحب كما يبدو من آخره، على ما يهمنا هنا، وهو تبرير المخزن لتفضيل المدينة :

«وحراسة الطريق التي هي الأهم في كل زمان ومكان، ينظر فيها بمقتضيان، أصول الشرع الأطهر والعرف الواضح الأشهر، فأما الذي تقتضيه أصول النسريعة، فهو تقديم درء المفاسد على جلب المصالح، وإماطة الأذى عن طريق المسلمين من جزئياته (...) وأما العرف، فالحاضري لا قدرة له على الاستقلال بالقيام بمثل البلد وإعطاء حقها من كل وجه، وإنما له منها مجرد الانتفاع الفاضل عن القيام عنه بواجبها كما هو معروف...»(29).

---

(27) كناش 657، ص. 248 ـ 1892/1309. والتشديد من عندي.
(28) و.ز. ـ مج 12، و. 228. 1876/1293.
(29) كناش 371، ص. 103. 25 صفر 1885/1303.

هكذا يبدو أن حيف المدينة كان يلحق البادية إذاً على كل من الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والجبائية والمالية.

وقد تبين لنا سابقا أن المدينة كانت تشكل نقطة المصب لجل ما يجمعه المخزن، وأنها المستفيدة الأساسية بعد البلاط من عملية إعادة التوزيع.

يمكن إذاً أن نستنتج أن المواجهة بين كل من فاس والحياينة وبني سادن أو بين تازة وغياثة، كانت مبنية في آن واحد على اعتبارات من طبيعة اقتصادية وسياسية ودينية.

بيد أنه، وحتى تكتمل تلك العناصر التفسيرية، كان لابد من الحديث عن العلاقة التجارية. غير أننا فضلنا أن نفرد لهذه القضية فصلاً خاصا لأهميتها، من جهة، ولكون التجارة، على العكس من مستويات العلاقة الأخرى بين البادية والمدينة، والتي ركزنا فيها بالخصوص على جانب التوتر، تمثل ـ أي التجارة ـ مستوى معقدا، يمتزج فيه التوتر بالمنفعة المتبادلة، من جهة ثانية.

الفصل السابع

التجارة عبر إيناون

يبدو أن التجارة المبنية على التبادل واستعمال الواسطة النقدية لم تكن تعم جوانب واسعة من التعامل اليومي سواء داخل المجموعات أو فيما بينها، قبل اكتساح النفوذ الرأسمالي التدريجي خلال القرن الماضي. بل إننا بينا فيما سبق أن أساس الحياة اليومية، على الأقل فيما يتعلق بداخل المجموعة الواحدة، كان يقوم بكيفية واسعة على ما أسميناه بـ «المبادلة»، حيث تنعدم الحاجة إلى النقد ويغيب مفهوم الربح بمضمونه الرأسمالي. وقد أسلفنا أيضا أن المخزن كمؤسسة مركزية، كان يقوم على الجمع وإعادة التوزيع، ولو في مستوى ضيق يبرر الترويج لصورة جهاز يعيد توزيع ما يجمع.

بيد أن هذا الجهاز المركزي كانت له حاجيات لا يمكنه الاستغناء عنها، ولا وجود لها كلها في عين المكان. فكان عليه استيرادها من الخارج (أسلحة، أمتعة مختلفة لتلبية حاجيات البلاط...) وكان عليه التفكير في وسيلة لتعويضها (بيع الحبوب أو الصوف بين الحين والآخر...).

فكان لابد وأن تحدث حاجيات هذا المركز في حد ذاتها، حتى ولو قطعنا النظر عن ضغط التجارة الأوربية بعد 1830، استيرادا وتصديرا، أي حركة تجارية تؤول إلى تأسيس دينامية تبادلية[1].

والواقع أن المجموعات القبلية ذاتها، لابد وأن تفرز فيما بينها، تعاملات تقارب التبادل بهذا المعنى، إذ خارج العلاقات القرابية التآزرية يضيق مجال المبادلة ويتسع حيز التبادل.

(1) نقيم اختلافا جوهريا بين التبادل échange القائم على مبادىء السوق والربح، والمتعامل بالنقد وحيث المواد عبارة عن سلع تُتبادل، والمبادلة réciprocité التي أسلفنا فهمنا إياها فيما سبق.

يمكن القول إذاً إن انتقال الخيرات والمصالح في بادية القرن 19م كانت تتقاسمه شتى أشكال التعامل، وينضبط إلى أنواع من السلوكات المختلفة فقد يقوم على المبادلة والتكافل داخل القرية أو فيما بين القرى المجاورة (ظاهرة «الوزيعة» مثلا) كما قد يقوم على التبادل في السوق المحلي القريب أو بين القبيلة وسوق المدينة المجاورة (فاس، تازة)(2)، أو أخيرا على الجمع وإعادة التوزيع...

بيد أن التبادل المشار إليه يتم في أماكن ومؤسسات (أسواق البادية أو المدينة) تابعة أو على الأقل مراقبة من طرف السلطة المركزية مستفادات، مراقبة الأسعار عن طريق الحسبة... بهذا يحق أن نقول إن هذا التبادل يتم في إطار «تجارة مراقبة» من طرف المخزن(3).

ولعل النصف الثاني من القرن 19م شهد بالنسبة لايناون كما بالنسبة لجهات واسعة من البلاد، مرحلة بداية الانتقال من المبادلة إلى التبادل ومن التبادل في إطار التجارة المراقبة إلى التبادل «الحر» الخاضع لقوانين السوق الرأسمالية، حينما انتشر النفوذ الرأسمالي مع أوائل هذا القرن(4).

هذه ملاحظات عامة، سوف نصادف صداها بين الحين والآخر عند تفصيلنا في التجارة في/وعبر حوض ايناون. في حوض ايناون، نتساءل عن نوعية التجارة التي كانت تربط السكان فيما بينهم أو مع الآفاقيين الوافدين عليهم. وعبر ايناون، نتساءل عن نوعية التجارة التي كانت تخترق الوادي لتربط نقطا «خارجية»، «نهائية» تتمثل بالأساس في فاس ثم تازة ووجدة.

I ـ التجارة المحلية

سبقت الإشارة، وقت الحديث عن القافلة الحجية إلى تلك الأسواق التي كان

(2) استغرت هذا التداخل بين المبادلة داخل المجموعة والتبادل فيما بين المجموعات من F. BENNET ومن المؤسف أن تكون محاولة هذا الباحث، وهي الوحيدة، للاستفادة من مفاهيم POLANYI، لمقاربة واقع المغرب الكبير، غارقة في الرؤى الثنائية التي أنتجتها المدرسة الاستعمارية.

(3) أعرّب بهذه الكيفية المؤقتة، هذه العبارة المستعصية Commerce administré والتي أستعيرها من L. VALENSI (م.س) (1974)، ص. 1314.

(4) وقد لا تكون هذه المرحلة انتهت اليوم بعد. أما عن «التجارة المراقبة» فإنها لا ترتبط بما ينعته J.L. MIEGE «بالنظام الإمبراطوري» الذي يرده إلى عهد السلطان عبد الرحمان. في حين أن تلك الممارسات سبقت ذلك العهد وتلته أيضا. انظر ج 2، ص ص. 225ـ240.

الحجاج يرتجلونها أثناء مرورهم بايناون. ولم تكن تلك الأسواق مرتجلة إلا من حيث زمن انعقادها. أما من حيث المكان فإنها كانت تعقد في أماكن مخصصة، هي أماكن أسواق اعتيادية[5].

وإذا كان ليس بمستطاعنا وصف الأسواق التي كانت موجودة بايناون، والتفكير فيما إذا كان من الممكن تصنيفها حسب حجمها، ثم التحدث عن العلاقة فيما بينها، نظرا لضعف وثائقنا في هذا المجال، فإنه بالإمكان الإدلاء ببعض الملاحظات العامة، نستشفها من إشارات عابرة في مصادر مختلفة إلى السوق القروي.

ولعل الأسواق التي كانت تعقد وسط جماعة أو قبيلة كانت من حجم صغير مثل سوق الجمعة عند سدراتة[6]، وكانت في عهدة القبيلة أو الفرقة التي توجد على ترابها.

لكن الغالب أن يكون السوق على نقط التماسّ بين مجموعات مختلفة. ولعل أهل الأسواق بحوض ايناون، وكما رأيناه في شأن الحرْكات، والزوايا، كانت تختار هذا الموقع التَّماسِّي أربعاء تيسة بين المجموعات الحيانية، خميس الكَور بين الحياينة وغياثة وبني وراين.

وقد وصف الرحالة الأجانب هذه الأسواق، إذ أنها ظاهرة اجتماعية، تجارية ومجالية ماكانت لتحدث دون أن تبهر عقولهم وتشبع حاجتهم إلى الإغراب. وصف De Foucauld سوق ثلاثاء أولاد بوزيان، (وطا بوعبان) الذي يقع بطرف الحيانية عند حدودها مع غياثة والتسول، لما مر به في صيف 1883. فقد وجد به حرَكة دائبة حوالي الساعة التاسعة صباحا، وقدر حجم المتسوقين بما بين 500 إلى 600 نسمة[7].

وقد سجل De Foucauld المواد التي كانت رائجة بهذا السوق الحبوب، الدواب والماشية والزيت، وهي المواد التي تنتجها قبائل ايناون، ثم المواد الوافدة من

(5) ظاهرة «السويقة» السوق المرتجلة، ما زالت معروفة حتى اليوم، وتُعقد كلما صادف العيد يوم انعقاد السوق، فيسبّق السوق بيوم عن العيد، ويسمى «سويقة».

(6) كثاش 360، ص. 271.

(7) وقد لاحظ أن المتسوقة كانوا مسلحين، وهذا يشذ عما أشار إليه الإثنوغرافيون عادة من كون السوق حرما لا يحمل فيه سلاح. وقد يرجع ذلك إلى هذا الموقع الطرفي.

فاس، سواء كانت من صناعة المدينة «كالبَلْغة»، أو من المستوردات الأجنبية، كالمنسوجات القطنية والسكر والشاي. ثم إن السوق كان أيضا المزوّد لأهل القرى من اللحم الطازج، إذ تذبح فيه البهائم من بقر ومعز وشياه، ثم «توزع» أقساطا على الراغبين. فكان السوق فضلا عن توفير هذه الحاجيات للسكان، يلعب دور نقطة الاتصال بين اقتصادين، فيجمع مواد القرى في اتجاه المدينة أو الخارج ويوزع المواد الوافدة منهما(8).

وإذا كان السوق ينعقد مبكرا فإنه ينفضُّ مبكرا أيضا حتى يتسنى للمسافر الوصول إلى محله في بقية اليوم. هكذا غادر De Foucauld السوق الذي كان قد شرع في الانفضاض، مع قافلة صغيرة، في اتجاه فاس، على أن القافلة احتاجت إلى قضاء ليلة في الطريق قبل دخول فاس في منتصف النهار الموالي.

هذا نموذج من أسواق ايناون المتعددة والتي لا يبدو أنها كانت دائما ذات إشعاع كبير، إذا ما اعتبرنا أن نفس اليوم أو اليومين المتتاليين كانا قد يشهدان عقد أسواق متقاربة مثل أربعاء تيسة وأربعاء الهبارجة، وثلاثاء أوطا بوعبان وخميس الكَور وهي أسواق لا يفصل بينها شعاع يتجاوز عشرين إلى ثلاثين كيلومترا. وهذا لا يدل على دينامية تجارية بقدر ما يدل على محدودية الأسواق ذاتها وانغلاق أفقها، في الغالب، في المستوى المحلي.

وقد كانت هذه الأسواق المبعثرة في الفجوات التي يبرزها المجال القبلي، إن جاز التعبير، تمثل نقطا ورموزا للحضور المخزني في أغلب الأحوال، عدا الحالات التي سيطرت فيها المجموعة على السلطة في السوق فعينت به «شيخ الربيع»(9).

ونتوفر على وثائق تدل على أن المخزن كان يستعمل السوق كعنصر من عناصر سياسته لضبط القبيلة. فقد يعاقب القبيلة بحرمانها من المتسوقين، فيمنع اليهود، مثلا، من الاتجاه إلى القبيلة المستهدفة، تضييقا عليها، وحرمانا لها مما قد تكون في الحاجة إلى اقتنائه دون الاضطرار إلى «الدخول» إلى المدينة، وما يحتمله ذلك الدخول، كما رأيناه من تعرض للقبض(10).

(8) انظر DE FOUCAULD (م.س)، ص. 36.

(9) و.ز. مج 18. و. 173.

(10) تلك كانت حالة بني وراين حيث دام منع اليهود من التوجه إليها أزيد من أربعة أشهر على أنه يجب أن ندقق أن من بين أسباب هذا المنع، محاولة المخزن تلافي ما يحتمل أن يحصل لليهود من نهب، وما قد

بل إن الأسواق قد تستغل من طرق المخزن بنفس الكيفية التي كان يستغل بها المدينة في بعض الأحيان، فقد جاء في رسالة موجهة إلى سائر القبائل المجاورة للتسول «القائد عبد الله الزراري، وبعد وصل كتابك، بما عليه قبيلة التسول من قتل الأنفس وقطع السبل وصار بالبال فلتجعل عليهم الأرصاد، ولتقبض من حل منهم ذلك النادر وقد أمرنا عامل الحياينة وشراكَة وفاس برصدهم والقبض على من تسوق منهم بأسواقهم»(11). وهذا يدل على أن السوق لم يكن فقط البقعة التي تجسد المخزن في المجال القبلي، بل ينقلب أيضا على غرار المدينة، حينما تغلق أبوابها، إلى مصيدة يتورط فيها مطلوبو المخزن.

أما من حيث المواد المروجة، فإن المنتوجات المحلية كما لاحظه De Foucauld، كالحبوب والماشية كانت تمثل فصلا هاما من مبيعات ايناون. نترك الحديث عن الماشية إلى ما بعد. ونسجل الآن أن الحبوب، التي رأينا أن رصيد قبيلة كالحياينة منها كان مهما، كانت مطلوبة ليس في اتجاه فاس فحسب، بل في اتجاه الجنوب الشرقي والشرق أيضا. وقد كان المخزن يبعث، في مناسبة وفود قوافل الآفاقيين لكيل الحبوب من بعض النقط، أمناءه لاستيفاء مستفادها. وقد أمكننا من خلال مراسلات بعض هؤلاء الأمناء، قياس حجم بعض تلك القوافل، وكانت هامة في معظم الاحيان(12).

بيد أن De Foucauld سجل أيضا حضورا هاما للمواد الوافدة من المدينة أو المستوردة من الخارج. والغريب أن هذه المواد الأخيرة هي التي تنعتها الوثائق المغربية كما سنعود إليه بعد قليل، بلفظة «السلعة»، ولاشك أن تغلغل السلع بالبادية المغربية تزايد باطراد في الثلث الأخير من القرن الماضي. وقد كان للتجار اليهود المتنقلين، دور كبير في ذلك، حتى إن بعض القواد أصبحوا يتخوفون مما قد يلحقهم من ضرورة تعويض أموال هؤلاء اليهود إذا ما تعَرضوا للنهب بإيالتهم، فطالبوا المخزن المركزي بكفهم عن التوجه إلى قبائلهم كما فعل قواد التسول «وبعد فنعلمك سيدي بأن تجار [كذا] من اليهود أهل الذمة من ملاح مدينة فاس صاروا الآن يخوضون في جميع أسواق قبيلتنا، يبيعون البز ويقبضون كثرة الأموال ويطوفون من سوق إلى سوق

يسببه ذلك من طلب هؤلاء للتعويضات. ر.م.غ.م. من السلطان إلى سعيد بن فرجي 28 جمادى 2. 1306/1889 و24 شوال 1306.

(11) كناش 364، ص. 146. 5 قعدة 1302/1885.

(12) ر.م.غ.م. من علي بن محمد الهواري العثماني إلى السلطان. 15 قعدة 1301/1884 تتحدث مثلا عن قافلة من 44 من الإبل تكيل القمح من الحياينة.

وتشوشت لهم الأعيان [كذا] من كل موضع وصارت الفساد تشتها [كذا] نهبهم لأجل الطمع الذي يرونه عندهم وهم يمرون من موضع إلى موضع في بعض الأشعاب [كذا] والجبال والمواضع الخالية ولم يعبأوا بأحد وخفنا سيدي ينهبوهم أو يقتلوهم ونتعاقب بهم لأن الناس في هذه الساعة مستهزئين بأمور المخزن وقلة خوف الله. وكانت عادتهم قبل هذا لا يصل [كذا] بالسلعة لبلادنا (...) وإن وقع لهم شيء لا تلومنا بذلك، وإن ظهر لك سيدي تبحث عنهم وتكفهم عن بلادنا فهو أحسن (...) أن تقع لهم فضيحة وتعظم علينا كلفتهم»(13).

تدل هذه الرسالة على مدى عدوانية التغلغل الاقتصادي الرأسمالي في القرن الماضي، في البادية المغربية، دون أن تقف في وجهه مخاطر «الشعاب أو الجبال»، وتدل أيضا على مدى الوهن السياسي الذي أصاب الجهاز المخزني المحلي الذي أصبح همه تفادي تعرض التجار اليهود، المحميين في الغالب من طرف الأجانب، للاعتداء، وذاك ماكان يسبب المطالبة بالتعويض من طرف القناصل الأجانب. وقد كان تعرض التجار للاعتداء واردا، ليس فحسب طمعا في أموالهم، كما تحدد الرسالة، بل أيضا تعبيرا ضبابيا ورمزيا إن صح القول، عن رفض المجموعة المحلية لما يحمله «تاجر البز» من دلالة عن التغلغل الأجنبي.

ولا نفهم ظاهرة اللصوصية المتكاثرة في النصف الثاني من القرن 19م، خارج هذا السياق. طبعا يجب أخذ عناصر أخرى بالاعتبار كالكوارث الطبيعية (جفاف، قحط أو مجاعة)، والتفاوت الاجتماعي فقد لوحظ بكثرة اعتداء اللصوص وقطاع الطرق على عزبان الشرفاء وأهل فاس(14). لكن ظاهرة الاعتداء على التجار اليهود المتنقلين تدخل من غير شك ضمن شعور معاد للتغلغل الرأسمالي الأجنبي.

ولم يكتف هؤلاء اللصوص بالاعتداء على التجار المتنقلين بل إنهم كانوا أيضا يقطعون الطريق على الوجهين الأساسين للتجارة ذات الطابع الخارجي باينا ون تجارة القوافل المباحة وتجارة الماشية المحرمة.

---

(13) ر.م.غ.م. من القائد اللنطي إلى السلطان. 28 رجب 1885/1302.

(14) انظر مثلا و.ز. مج. 12 .و41. (هجوم على عزبان ادريس بن زين العابدين واحساين الحومي) وفي هذا الصدد يمكن القول إن الوثائق احتفظت بصور واضحة عن أولائك اللصوص الذين يتمتعون بعطف وتشجيع المجموعة التي ينتمون إليها، مما جعل بعض المؤلفين يطلقون عليهم عبارة «اللص الشعبي» انظر .EJ. HOBSAWM Les Bandits Maspéro, 1972

II ـ تجارة القوافل التجارة المباحة

ظلت تجارة القوافل المتجهة من فاس إلى وجدة منتعشة إلى حد ما، خلال القرن 19م وحتى أوائل القرن 20م عندما قطعت حركة الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) الطريق الرابطة بين الغرب والشرق[15].

وتتحدث المصادر الأوربية والمغربية على السواء عن نشاط هذا الخط التجاري. بيد أنه بالإمكان أن نتصور ما أصابه من ضمور بعد احتلال الجزائر (1830)، وانتعاش الخطوط التجارية الغربية ذات الاتجاه العمودي مراكش ـ الصويرة، فاس ـ طنجة[16] وقد سبق لنا التركيز على أهمية اندثار القافلة الحجية (الفصل الثالث).

ويمكن القول إن حيوية هذا الخط، استمرت حتى سقوط الحكم الجزائري المستقل الذي حاول تأسيسه الأمير عبد القادر (1847). بعد ذلك أصبح نشاط هذا الخط مرتبطا بالوجود الفرنسي بالجزائر. ومن ثم طابعه المعقد المتناقض فالتجارة تمتزج هنا أيضا بالسياسة، ويبرز فيها أثر التنافس الاستعماري حول المغرب.

كان المخزن يحاول حصر النفوذ الفرنسي في الجهة الشرقية، ومن ثم كان يعرقل أهم تجارة، كان فرنسيو الجزائر يسعون إلى الاستفادة منها عبر هذه المناطق الشرقية، وهي تجارة الماشية التي سوف نتعرض لها في النقطة الموالية.

أما التجارة التي كان المخزن يسعى إلى حمايتها، فهي تجارة المواد الوافدة من المراسي، فكان ينظم القوافل باتجاه وجدة، أو يُصحبها بالفرق العسكرية لرعاياتها. وقد كانت مواجهة المخزن للأطماع الفرنسية في هذا المستوى تتخذ ألوان الصراع الإنجليزي ـ الفرنسي.

فالإنجليز بالمغرب، أيام Drummond Hay، بنوا نفوذهم على التجارة البحرية المعتمدة على المراسي المغربية، وحاولوا إغراق جميع الجهات المغربية، بما في ذلك الجهة الشرقية، بالبضائع الانجليزية أو تلك التي يتجرون فيها كالشاي والمنسوجات القطنية [17].

---

(15) عبر السفير الفرنسي بطنجة سنة 1909 عن ابتهاجه لسقوط بوحمارة واحتمال إحياء الخط التجاري بين فاس والجزائر. 6.9.1909، A.E.P. Vol. 244, fo. 103

(16) انظر. **B.C.A.F, R.C.** 1905, N° 7, pp. 231-233.

(17) عن هذا الصراع وعن DRUMMOND HAY، انظر MIEGE (م.س). ج 2، ص. 264ـ265.

وكان كل من فرنسيي الجزائر وإسبان مليلية يرون في الانتصار في الصراع التجاري الثلاثي (بين فرنسا واسبانيا وانجلترا) الدائر في الجهة الشرقية، مستوى جوهريا لإرساء نفوذهم الخاص بالشمال المغربي بأكمله(18).

بيد أن التجارة بين فاس ووجدة، وبالرغم من أنها كانت جزءا من الصراع التجاري الدولي في المغرب، كانت إلى غاية أواخر القرن 19م، ما تزال «مراقبة» من طرف المخزن كما نتبينه فيما يأتي، وهذا ما برر توزيعها حسب منظور المخزن إلى تجارة محرمة نرجئها إلى حين، وتجارة مباحة نحللها الآن.

للحديث عن هذه التجارة المباحة يمكن الاعتماد على أوصاف وتقارير الأجانب التي كثرت بالخصوص في بداية هذا القرن، عندما احتدمت مطامع الفرنسيين والإسبان بهذه الجهة(19).

بيد أن الحظ أسعفنا بالعثور ضمن القوائم الحسابية على مجموعة هامة من اللوائح المتعلقة بقوافل التجارة بين فاس ووجدة أو بين تازة ووجدة. وقد اعتمدناها دون غيرها، ولم نستعمل التقارير الأوربية إلا للمقارنة.

يبلغ عدد اللوائح ست عشرة قائمة موزعة على الفترة ما بين 1 حجة 15/1271 غشت 1855 و 6 حجة 28/1273 يوليوز 1857، وتحمل توقيعي الأمينين محمد بن الهاشمي ومحمد بن ابراهيم، ويبدو أنهما كانا يسهران على قبض مستفاد أبواب وجدة(20).

تفصل هذه القوائم في أسماء التجار، ونوع البضائع، وعدد الأحمال ثم في مقدار ما يجب في مستفادها من الدراهم.

ولا يمكن أن نعتبر أن هذه اللوائح تشمل مجموع القوافل التي اتجهت من

---

(18) DOUTTE, Edmond, **Des moyens de développer l'influence française au Maroc**, Paris, 1900.

BERNARD, Augustin, **Une mission au Maroc, Rapport à Mr. le Gouverneur général de l'Algérie**, Paris, 1904.

LOBERA, G.C., **Problemas de Melilla : Los derechos de arbitrios y las mercancias de transito**, 1917.

(19) انظر إضافة إلى المراجع السابقة تقارير **B.C.A.F** ثم ما يرد في كل الرحلات الاستكشافية.

(20) نتوفر على نسخة مصورة من هذه القوائم.

فاس إلى وجدة في حدود هذه الفترة، فالحالة التي كانت عليها ملفات القوائم الحسابية حينما راجعناها، توحي بكيفية أكيدة بأن العدد من هذه القوائم قد يكون أصابها التلف[21]. على أنه طالما لم نعثر على كناش سجل مستفادات وجدة، لا مناص من اعتبار هذه اللوائح عينة تمثيلية عن حرَكة القوافل عبر إيناون واستلهامها، لمعرفة بعض مميزات الحرَكة التجارية بين فاس ووجدة.

وقد نأسف على ضيق المسافة الزمنية التي تغطيها هذه اللوائح. لكنها بالرغم من ذلك تشمل فترة حرجة من تاريخ التجارة المغربية، بما أنها تتموقع على سفحي سنة 1856، أي سنة المعاهدة الانجليزية، التي نعلم أنها الفاتحة الفعلية لباب المغرب أمام سيطرة التجارة الأجنبية.

ثم إن هذه القوائم غنية بما تفيدنا به من معلومات مضبوطة في مجالات طالما عانت فيها المصادر المغربية من شدة التعميم أو غياب الإشارة بالمرة.

• التركيبة الاجتماعية

تمكن اللوائح من رصد الأسماء التي تتواتر بكثرة، ثم عقد المقارنات بين التجار الذين يتحركون على هذا الخط. وقد قمنا بهذه العملية بالنسبة لإحدى القوافل الكبرى، قافلة 27 حجة 1271.

اتخذنا فيها بعض المقاييس الاعتباطية لترتيب التجار المساهمين في القافلة، فاعتبرنا من أدى أكثر من 600 درهم «تاجرا كبيرا» ومن أدى ما بين 200 و600 درهم «تاجرا متوسطا» ثم من أدى ما دون 200 درهم «تاجرا صغيرا».

فاتضح بعد الترتيب أن خُمس التجار أدوا أكثر من ثلثي المستفاد، وهي صيغة أخرى للتعبير عن كونهم يمتلكون حصة الأسد من هذه التجارة[22].

في حين أن التجار المتوسطين، يتواجدون في هامش ضيق، لا يفوق إلا بقليل العشر من قيمة المستفاد، في مقابل عشر عدد التجار. أما التجار الصغار فإنهم يمثلون غالبية عدد المساهمين في القافلة، حيث أنهم يكادون يساوون ثلاثة الأرباع من المجموع في حين أنهم لا يتصرفون سوى في أكثر من خمس تجارتها بقليل.

(21) لعل الحالات التي أشار إليها ابن زيدان (استعمال الوثائق ككاغد لإيقاد النار) كانت تصيب هذا النوع من الوثائق أكثر من غيره. انظر AYACHE (1979) (م.س)، ص. 65.

(22) ما دمنا لا نتوفر على قياس لقيمة البضائع المحمولة.

جدول 26 التركيبة الاجتماعية لإحدى القوافل الكبرى بين فاس ووجدة 27 حجة 1271 (10 شتنبر 1855)[23]

الصنف	أخفض مبلغ للمستفاد	أعلى مبلغ للمستفاد	مجموع مستفادهم	%	عددهم	%	أسماء التجار
التجار الكبار أكثر من 600 درهم.	620	1920	8000	67،29 %	8	20%	الحسان بن كيران ـ ح. عباس الشرايبي ـ عبد السلام الحلوي ـ حمزة المدرومي ـ ح. محمد ولد خليفة ـ محمد مكوار ـ علي بن عبد الخالق وشريكه ـ الحاج المفضل التازي.
التجار المتوسطون 200ـ600 درهم.	260	400	1340	11،27 %	4	10%	عبد الخالق العجالي ـ محمد برادة ـ الدوبلي الديوري ـ حمادي الديوري ـ
التجار الصغار أقل من 200 درهم	20	180	2548	21،43	28	70%	محمد التازي ـ غلاب ـ الحيمري محمد المرزوقي ـ محمد بن الموفق الفاسي ـ الحاج الوليدي ـ أحمد بن جلون ـ التهامي الفيلالي ـ الحاج محمد المكودي.. إلخ
المجموع	ـ	ـ	11888	100	40	100	

تبدو البنية الاجتماعية للتجارة بين فاس ووجدة من خلال هذا النموذج منتفخة في القمة وعريضة في القاعدة وضعيفة في المحطة الوسيطة. إن محدودية هذه الحالة زمانا ومكانا لا تسمح بأي حكم عام جدي على البنية الاجتماعية للتجارة بين فاس ووجدة فأحرى أن يشمل ذلك الحكم سائر التجارة المغربية. بيد أن ضعف الفئات المتوسطة الذي تبرزه هذه اللائحة يدفع إلى التأمل والتساؤل أليس هذه عتبة من

(23) انظر الصورة المرفقة، ص. 387.

وثيقة 8 القافلة الكبرى بين فاس ووجدة

العقبات التي اعترضت جملة من مبادرات النصف الثاني من القرن إصلاحات، تركيز...

من خلال مجموع اللوائح نصادف ضمن كبار التجار أسماء فاسية معروفة مثل بن شقرون، الأزرق، المقري، القباج.. الخ.. لكننا نجد أسماء أخرى تبدو على علاقة أوثق بالأوساط المخزنية مثل ابن الصحراوي ومولاي مصطفى وابّ الفيلالي... إن جاز اعتبار هذه الألقاب دليلا ليس فحسب على أصل ولكن كذلك على علاقات.

أما ضمن التجار الصغار، فإن كنا نصادف أيضا أسماء العائلات التجارية الفاسية مثل بن كيران، اللبار، التازي... فإن نسبة هامة منهم لا تدل أسماؤهم على أصل حضري أو ربما تحيل بصراحة على أصل قروي، قد يعود بعضها إلى القبائل المجاورة باينناون المكودي، البرنوصي، الحياني....

- حجم القوافل

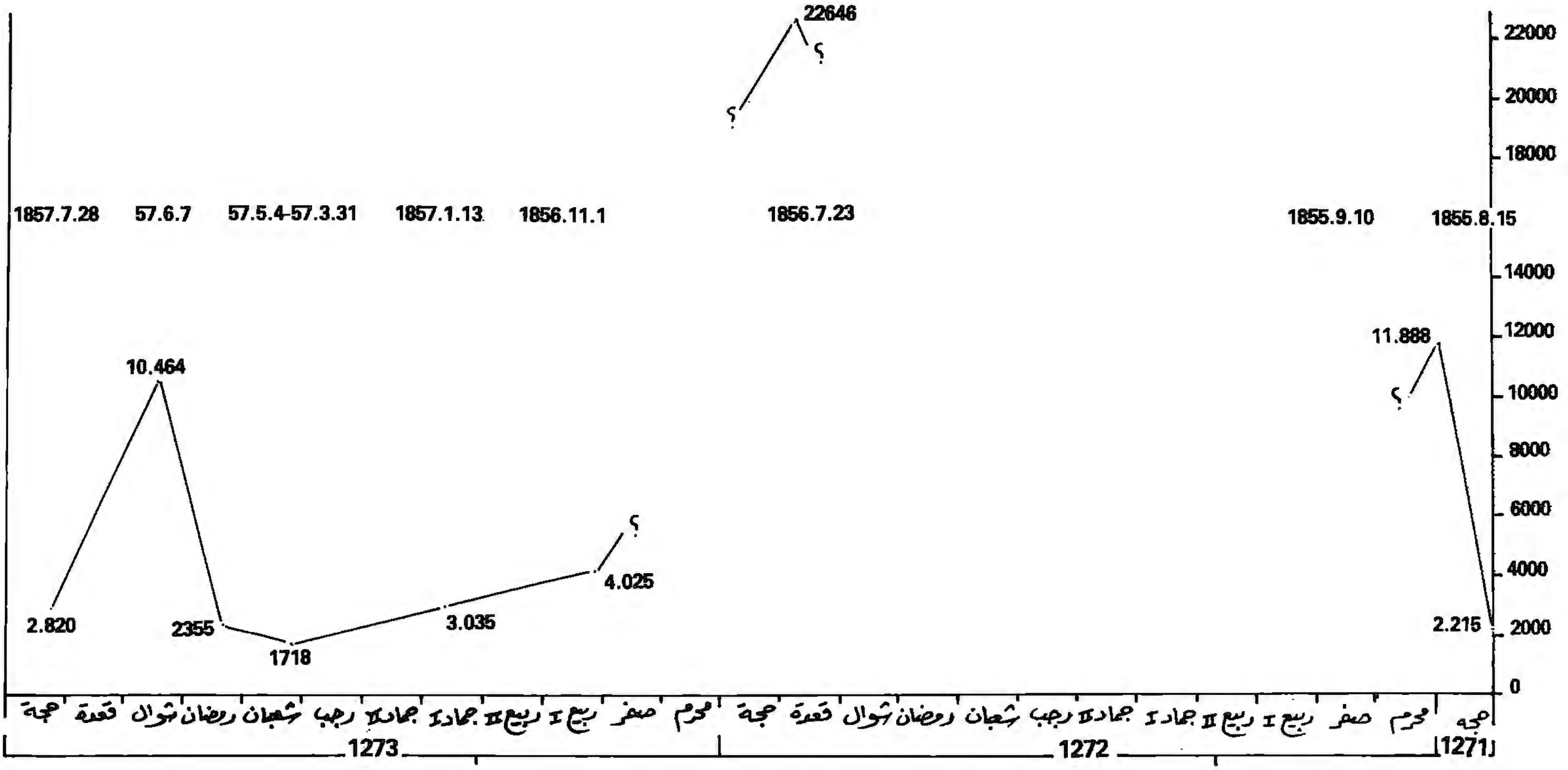
تفيدنا هذه اللوائح في معرفة عدد البهائم المساهمة في القافلة وتعبر عنها بالأحمال حينما يتعلق الأمر بالجمال و«بالشواريات» حينما يتعلق الأمر بالبهائم الصغرى من حمير وبغال. ويعطى هذا العدد بدقة كبيرة تبلغ حد «نصف الحمل» مما ينيرنا عن المشاركات التي كانت تعم الميدان التجاري على غرار الميدان الفلاحي، كأن تسجل اللوائح أمام بعض الأسماء «حمل ونصف»... ويمكّن عدد الأحمال وقدر المستفاد، لو حصلنا على سلاسل أطول، من تتبع تطور التجارة بين فاس ووجدة (انظر الجدول والرسم ص ص. 389 _ 390).

جدول 27 تطور تجارة فاس وجدة بين 1271 و1273/1855-1857

التـاريـخ	عدد بهائم القافلة	قيمة المستفاد بوجدة[24] بالدراهم
1 حجـة 1271 (15 غشت 1855)	62	2215 $\frac{3}{4}$
27 حجـة 1271 (10 شتنبر 1855)	138	11880 (11888)
20 قعدة 1272 (23 يوليوز 1856)	29 (39)	4080 (4100)
20 قعدة 1272 (23 يوليوز 1856)	58 (59)	3166
20 قعدة 1272 (23 يوليوز 1856)	125 (123)	15180 (15380)
3 ربيع 1 1273 (1 نونبر 1856)	53	4025
17 جمادى 1 1273 (13 يناير 1857)	36	3005 (3035)
5 شعبان 1273 (31 مارس 1857)	34	1718 (1778؟)[25]
10 رمضان 1273 (4 مـاي 1857)	37	2355
12 شوال 1273 (5 يونيو 1857)	101	10464
6 حجـة 1273 (28 يوليوز 1857)	42	2820

(24) أعطينا الأرقام كما وردت في القوائم، وبين قوسين وضعنا الأرقام المصححة حسب حساباتنا. ثلاث ملاحظات:
أ ـ من أصل 11 لائحة شملت الأخطاء 6 لوائح، يعني أن نسبة الخطإ تبلغ 54% من القوائم وهو رقم هام يستدعي من الباحث الانتباه إلى المجاميع، وعدم أخذها بالاعتبار بدون مراجعة على أن حجم الخطإ لم يفق حتى في أعلى مقاديره 3،1% (قافلة 20 قعدة 1272 الكبرى).
ب ـ أصاب الخطأ مجاميع البهائم، فكان في الاتجهاين، إضافة ونقصانا، مما يضفي عليه طابع التلقائية والعادية بالنسبة لأمناء قليلي التكوين الحسابي.
ج ـ لا يمكننا قول نفس الشيء بالنسبة لمجاميع قيمة المستفاد. الخطأ هنا وحيد الاتجاه وهو النقصان. فهل كان الخطأ مقصودا ؟.

(25) ثمة «شواري» لم يسجل أمامه مقابل. معدل ما كان يؤديه «الشواري» 60 درهما.



تطور التجارة بين فاس ووجدة : مستفاد ابواب وجدة (بالدراهم)

ما من شك في أن الثغرات كبرى في سلسلة اللوائح التي بين أيدينا، حتى خلال السنتين اللتين تعمهما، وهذا يدعو إلى الكثير من التحفظ. إلا أن الجدول الذي يمكن بناؤه انطلاقا من تلك اللوائح، يبرز ملاحظة أساسية ثمة «قوافل صغرى» كما جاء في إحدى القوائم وهي القوافل العادية، ويتراوح عدد بهائمها بين 36 و62 بمعدل 45 بهيمة. ثم هناك قوافل كبرى، يبدو أنها كانت سنوية، كما يمكن أن نستنتجه من لوائح سنة 1273 التي لا يبدو أنها مثغورة بكيفية كبيرة. والملاحظ أن هذه القوافل الكبرى تفوق 100 بهيمة، بمعدل يستقر حوالي 120.

وليس من الغريب أن تحدث هذه القوافل الكبرى فقط في فصل الصيف، إذ فضلا عن ملاءمة هذا الفصل للسفر، فإن القوافل الكبرى المعتمدة على البعير، كانت صعبة الاستعمال في فصل الشتاء على مسالك ايناون الموحلة. فلا تستعمل سوى القوافل الصغرى من الدواب الخفيفة.

كم عدد القوافل في السنة ؟ من خلال لوائح 1273، يبدو أن القافلة كانت تغادر فاس بمعدل مرة في كل شهرين؛ وإذا ما أضفنا القوافل الوافدة من تازة على وجدة يكون معدل ما يرد على وجدة من القوافل في السنة، متراوحا بين 6 و8. ويعطينا هذا الرقم فكرة عن مدى ضمور التجارة بعد 1830، والذي أشرنا إليه سابقا، إذ أن J.-L. Miège سبق له وأن أكد أن عدد القوافل المتجهة من فاس إلى الشرق كانت تتراوح فيما بين 1833 و1841، بين 10 و 12. أما A. Bernard، في أوائل هذا القرن، فإنه سجل أن عدد قوافل التجارة الشرقية لم تكن تتجاوز 4 أو 5. هكذا تكون التجارة بين فاس ووجدة انهارت خلال سبعين سنة بما لا يقل عن الثلثين من حيث الحركة على الأقل[26].

أما عن البضائع المحمولة، فإن القوائم الحسابية، لا تحدد أسماءها دائما بدقة، بل يكتفي الأمين في أكثر من 80% من الحالات بتسجيل «كذا من أحمال السلعة» وحينما يفصل في مواد تلك «السلعة» نلاحظ أنها تتكون من المواد الواردة من خارج المغرب. فهل كانت تلك المواد تحمل طابعا «سلعيا» أكثر من غيرها ؟ أم أن اللفظة اصطلاح بين الأمناء والتجار ؟ على كل فإننا نستنتج من مقارنة نسبتها إلى مجموع المستفاد ونسبتها إلى مجموع الأحمال أن قيمتها أكبر من وزنها 93،9% و81%

(26) انظر MIÈGE، ج 2، ص. 158 هامش 4 وA. BERNARD (م.س)، ص ص. 117–119.

على التوالي وللمقارنة نفس الأرقام بالنسبة للفخار مثلا هي على التوالي 0،5% و 5،8%).

لا غرابة أن تكون ضمن هذه السلعة التوابل والسكر والشاي والكتان وسائر المنسوجات، وهي البضائع المستوردة من الموانىء الأطلسية.

أما المواد المحلية فإنها إما من صنع حرفيي فاس «البلْغَة»، الفخار، الألواح... أو من المواد الفلاحية كالزيت والحناء والعسل.. إلخ...

ولابد من التساؤل عما مدى علاقة هذه التجارة «البعيدة» مع الحوض الايناوني الذي تعبره بمثل هذا التردد. وقد أسبقنا أن عدد المشاركين في هذه التجارة والذين تدل أسماؤهم على انتماء محتمل للمنطقة، قليل، وينحصرون كلهم ضمن فئة صغار التجار. كما أن القوافل الوافدة من تازة تبدو كفصيل من التجارة الأم، وتارة كمحطة فقط لتجارة فاس نحو وجدة.

فهل يحق أن نعتبر هذه التجارة «خارجية» extravertie بالنسبة للقبائل الايناونية ؟ هذا ماقد تدفع إشارة واردة عند Bernard إلى التفكير فيه فقد حكى أن مخبريه برروا عدم توقف هذه القوافل، للتجارة في الطريق، بالتخوف من إثارة أطماع القبائل المجاورة إذا ما اطلع أهلها على مكنونات أحمالها.

هل هذا الطابع «الخارجي» هو الذي يفسر ما لاحظناه مرات من موقف قبائل ايناون الاعتدائي منها سواء تعلق ذلك بظاهرة اللصوصية المعزولة التي أشرنا إليها أم بنهب أحمال القافلة بكيفية جماعية ؟ ولعل ما يوحي بهذا الطابع «الخارجي» أيضا، ويبين ما يحتمله المخزن من تعرض القافلة التجارية للنهب، أن عددا من تلك القوافل، كما سجلته اللوائح، كانت تفد في «صحبة الإدالة» أي فرقة العسكر التي تذهب إلى وجدة لقضاء خدمتها العسكرية.

ما هو واقع الخط التجاري في الإتجاه المعاكس، وجدة ـ فاس ؟ لم نجد فيما راجعناه من قوائم حسابية ذكرا لخبره. هل يدل ذلك على ضعف حيوية هذا الاتجاه ؟

هذا ماقد نستنتجه مما سجله A. Bernard الذي أشار إلى أن ماكان يروج من الجزائر في اتجاه المغرب عبر وجدة كان ضعيفا إلى درجة أن بعض الحمّارة كانوا يفضلون بيع دوابهم بمغنية، بربح هام والعودة إلى المغرب عن طريق البحر.

ويمكن التساؤل ألا يدخل ضعف هذا الخط ضمن سياق محاولات المخزن في القرن 19م، لمحاصرة النفوذ التجاري الفرنسي المتسرب من المشرق، والتي كانت انجلترا تسعى إلى استغلالها ضمن مخططها العام لمواجهة النفوذين الفرنسي والإسباني بالجهات الشرقية ؟

مهما يكن، فإن التجارة بشرق فاس، خارج هذه التجارة المباحة و«المراقبة»، كانت تتخذ صبغة التهريب، وقد تهدد المداخيل المخزنية كما ورد في هذه الرسالة : «أخانا (...) عبد الله بن أحمد (...) وصلنا كتابك وبطيه الكتاب الذي كتب لك أمين الأعشار بفاس في شأن نقص مستفاد فندق النجارين بسبب جلب السلع لتازا من مرسى مليلية وكبدانة وحجرة النكور...»[27].

ولم تكن هذه التجارة المهربة تعني حركة الاستيراد فقط، بل لعل التجارة التهريبية في اتجاه التصدير ـ تصدير الماشية نحو الجزائر ـ كانت ذات آثار أبـ

III ـ تجارة الماشية التجارة المحرمة

تبدو أهمية هذه التجارة بوضوح في تواتر أخبارها في المراسلات المخزنية، وإن لم نعثر على قوائم مفصلة في شأنها، وما نقدمه أدناه هو جمع لشوارد حول ما حُجز من ماشية موجهة إلى الشرق

جدول 28 أخبار حجز الماشية الموجهة إلى الشرق

التاريخ	غنم	بقر
9 ربيع 2 1869/1286		107
14 رجب 1871/1288		22
24 رجب 1883/1300	3 قطع	43
16 رجب 1885/1302		18
28 شعبان 1885/1302	13	
2 حجة 1885/1302	215	
26 محرم 1885/1303	46	2
14 صفر 1887/1305	28	
متم ربيع 1 1891/1309	200	35 [28]

(27) من موسى بن احمد، 25 رمضان 1877/1294.

(28) اعتمدت في وضع هذا الجدول على 1 ـ كناشة بنيمنى، ص. 135، 2 ـ و.ز. مج 18، و. 160. 3 ـ كناش 353، ص. 18. 4 ـ ر.م.غ.م، 5 ـ كناش 364، ص. 13 و. 192 .. إلخ

لم يكن القصد من هذا الجدول القياس الكمي، ومن ثم لم نر فائدة في وضع مجموع للأرقام المدرجة، لأنه لا يحمل بهذه الصورة أية دلالة تاريخية، إذ لا يعكس حجم تلك التجارة في أي مستوى. وإنما كان القصد إبراز مدى تردد ذكر أخبار هذه التجارة. ومن الطبيعي ألّا نعثر إلا على أخبار مبتسرة حول هذه التجارة التي كان عليها، ككل تجارة تهريب، ألا تترك أثرا بعدها.

بيد أن بعض الرسائل تشير، ولو بكيفية «أدبية»، إلى ما كانت تسوقه هذه التجارة من قطعان في اتجاه الجزائر المحتلة. جاء في ملخص رسالة إلى أحد خدام المخزن بالجهة الشرقية «الطالب احميدة الشركَي، وصل كتابك بفشو إجازة البقر للنواحي الشرقية، واجتهاد خديمنا الستوتي في إجازته دُوَلًا دُوَلًا...»(29).

وإذا ما انتقلنا إلى مصب هذه التجارة بلالّة مغنية، فإننا نجد في التقارير الفرنسية، وتقديرات الرحالة الأجانب ما يعطي فكرة عن حجم القطعان التي كانت تغادر المغرب سنويا في اتجاه الغرب الجزائري.

جدول 29 أهمية تجارة الماشية في اتجاه الجزائر المستعمرة

التاريخ	غنم	بقر
1856	300 000 - 200 000	
1898		عدة آلاف
1899		30 000
1900	150 000	32 000
	254 000	24 500
1901	270 000	42 000
1902	190 000	15 000
1903	182 000	11 000(30)

(29) كناش 353، ص. 19. 26 رجب 1884/1300.

(30) اعتمد هذا الجدول على ما ورد عند

MIÈGE, T. 3. p. 71; DELBREL, p. 171; **B.C.A.F**, 1899, N° 2, p. 66; DE SEGONZAC, p. 221; **B.C.A.F.** R-C N° 7, 1904, p. 178.

تنطق هذه الأرقام بما فيه الكفاية عن تطور هذه التجارة، التي كانت تكاد تكون كلها تهريبية(31).

ويجب الاعتقاد أن حجم هذه التجارة قد هدد التوازن الاقتصادي والاجتماعي بايناون والشمال المغربي بكيفية عامة(32). نستنتج ذلك من ملخص لرسالة بعث بها الخليفة اسماعيل إلى السلطان يخبر فيها أن محتسب فاس يدق ناقوس الخطر بهذه الصيغة «أخانا المولى إسماعيل وبعد وصل كتابك بما تشكى به المحتسب الحاج المهدي بناني من قلة ورود الجالبين للغنم للحضرة الإدريسية بسبب كثرة المتسوقين لها بقصد الناحية الشرقية وأنك كتبت للخديم اليوسي بجعل الأعين أرصادا لمن يفعل ذلك وتثقيف ما عُثر عليه بيدهم هنالك..»(33).

هل يستغرب أن تتكرر من المخزن والحالة هذه أوامر المراقبة وحجز ما يضبط من الماشية المبعوثة «وسقا إلى الإيالة الشرقية» ؟ إن الجدول السابق (رقم 28) لا يوجز سوى ما استطعنا التوصل إليه من أخبار حجز الماشية. ولاشك أن هذه التجارة كانت من الحركة والعاقبة الخطيرة بما لم ينفع معه الترصد والحجز وحده، واضطر المخزن إلى إشراك السكان المجاورين للمسلك، في الاستفادة من حجز الماشية المهربة، حتى يضمن منعها «أمين سدراتة وشيخهم المعين وبعد فقد أخبر المولى إسماعيل أنكم كتبتم له بأن الماشية تكرر مرورها عليكم للإيالة الشرقية والذي يكون عليه عملكم فيه هو أن كل من عثرتم عليه من هاتيك الماشية حوزوها وخذوا منها لأنفسكم الخمس والأربعة أخماس وجهوها لدار المخزن هنالك على يد عاملكم...»(34).

ويمكن التساؤل عن موقف سكان ايناون من هذه التجارة وعن عواقبها عليهم. لعل قبيلة تتحكم في المسلك مثل الحياينة، كانت ذات مصلحة في اعتراض هذه التجارة، بما أنها تستفيد من خمس المحجوزات. بيد أننا لا نستطيع الجزم أن هذا

---

(31) لنقارن مع حجم تجارة الماشية المرخص بها لكل بقية المغرب MIÈGE، ج 2، ص. 533، وج 3، ص. 212.

(32) انظر وصف هذه التجارة عند BERNARD (م.س)، ص. 118 كان الجزائريون يأتون حتى بني وراين لشراء الماشية.

(33) كناش 364، ص. 103.

(34) كناش 364، ص. 58.

الخمس، الذي كان يستفيد منه أعضاء المخزن المحلي قبل غيرهم، كان يحول دون تعاطي قسم من القبيلة على الأقل لهذه التجارة المحرمة، سيما إذا ما اعتبرنا الأرباح المحققة التي كانت تجنى منها. على أنه من المؤكد أن قبائل مثل أولاد الحاج وصنهاجة، والتسول، ومكناسة، كانت تتجاوز النواهي المخزنية في هذا الباب.

ولعله من غير النافل أن نذكر بأن جملة من النزاعات فيما بين قبائل ايناون كما ذكرناه آنفا كانت تجد أصلها في نهب الماشية، الذي كان في النصف الثاني من القرن 19، من غير أي شك، على اتصال بهذه التجارة المزدهرة. فكان من عواقبها المحققة بايناون، تأجيج الصراعات ذات الطابع الانقسامي، سيما بعد أن أذن المخزن بخمس المحجوزات نقرأ في رسالة موقعة من طرف ستة أمناء وأشياخ من أولاد عمران الحياينة «إن فرقة من قبيلة صنهاجة، قد خرجوا ومرجوا واشتغلوا بفعل ما ليس نحتاجوا [كذا] وقد وردوا لفرقة منا (...) ليلا وضربوا إخواننا (...) بالبارود ووقع لإخواننا موتا [كذا] في المواشي، وحيث تكلمنا مع أعيان قبيلتهم واسترعيناهم فلم يسمعوا منا كلام [كذا] (...) يعلم مولانا أنهم ما فعلوا لإخواننا ذلك إلا من أجل الوسق الذي زوّلنا [كذا] لهم ووجهناه للحضرة...»(35).

إن ما يشوب موقف قبائل ايناون من تناقض تجاه هذه التجارة المحرمة، لا يمكن فصله عن كافة تناقضات التاريخ المغربي في النصف الثاني من القرن 19م : فمن جهة نجدهم يعادون كل المبادرات الأجنبية لاستكشاف أرضهم ويعتبرون أن ذلك الاستشكاف إنما هو خطوة على طريق الاحتلال، ثم إنهم يساهمون في كل مجهود وطني لمواجهة الغزو الأجنبي (حالة الحياينة في حرب تطوان)، ويستجيبون كما سوف نراه لكل دعوة تقوم على شعار الجهاد، لكنهم من جهة ثانية لا يقاومون حركة التغلغل التجاري الذي ليس لدينا ما نستطيع بواسطته تقدير ما إذا كانوا يعون أم لا مدى خطورته.

غير أن دعوات الجهاد، حتى تلك التي كانت تنشأ بعيدا عن ايناون، كانت تجد لها صدى القبول بين قبائله كما يتجلى من هذه الرسالة الموجهة إلى جملة من قبائل الشمال ضمنهم التسول والحياينة «وبعد، فقد بلغنا أن بعض مرابطي أهل الريف حصل لهم تشويش مع بعضهم بعضا على سبب نصراني أتى مع بعضهم

(35) ر.م.غ.م. 15 شعبان 1885/1302 ـ «والوسق» هو بيع الماشية «للإيالة الشرقية».

وأفضى بهم الحال حتى أعلنوا النداء بالجهاد افتياتا من غير إذن وبلغنا أيضا أن نداءهم بلغكم وعليه فإن صح بلوغه لكم فنأمركم أن لا تجيبوهم ولا تساعدوهم ولا تلقوا لهم سمعا وحضوا إيالتكم على عدم مساعدتهم والجلوس عند حدهم وعرفوهم بأن أولائك القبائل مفتاتون في ذلك ومساعدتهم عليه خروج عن الطاعة ومفارقة للجماعة وثلمة في دينهم وتجلب لهم سخط الرب وتجلب لهم [كذا] دعوة الشر من جانبها...»[36].

بل إن بعض تلك الدعوات قد جاءت إلى حوض ايناون لتبحث لها عن مساندين، كما فعله بوعزة الهبري في سنوات 1873-1874. وكانت كل هذه الدعوات تقوم على ما لمسناه من توتر في علاقة عدد من قبائل حوض ايناون والمخزن ولاسيما منها قبائل الجبل. هذا التوتر وتلك الدعوات هو ما نبحث فيه في الفصل الأخير من هذه الدراسة.

---

(36) ر.م.غ.م من السلطان إلى قواد التسول، 22 ربيع 2 1301/1884.

الفصل الثامن

الانتفاضة المحلية حرَكة بوعزة الهبري

ينتمي تاريخ الانتفاضة القروية إلى حيز المنسي والمكبوت بالنسبة للكتابة التاريخية التقليدية. وقد بينا مدى ما يكنه الفقهاء والكتاب من احتقار للبادية، يفسر قفزهم على ماكان يهزها من حرَكات وانتفاضات، ويحق لـ J. BERQUE أن يتحدث عن «بياض صفحات» المصنفات التقليدية في شأن هذه الانتفاضات(1).

لاحظ محمد مزين، أن سكان ايناون كانوا فيما بين 1588 و1601 عبارة عن قبائل تبحث عن زعيم، وأن الزعماء كلما بحثوا عن قبائل مستعدة للانتفاض، اتجهوا إليها(2). والواقع أن هذه الملاحظة قد تسري بسهولة على القرن 19م كما بيناه في فصل سابق. ولا يمكن تفسير ذلك بنزعة فوضوية دفينة تهوى «الفساد» و«الخروج عن الجماعة»، بل إن الفصول السابقة حاولت أن ترسم إطارا وسياقا تُفهم فيه انتفاضات ممر تازة في القرن 19م(3).

وقبل التعرض إلى إحدى أهم انتفاضات ايناون، وربما الشمال المغربي بكامله، ألا وهي الانتفاضة التي قادها بوعزة الهبري، والإشارة إلى بعض عواقبها، رأينا من اللازم التذكير بأثر الماضي بالنسبة لاستعداد ايناون لاستقبال مثل حركة بوعزة الهبري.

---

(1) J. BERQUE (1978) (م.س)، تعبير أستعمله في حق السباعي، وبصدد انتفاضة الهبري، ص. 495، هامش 2، وإن كان السباعي تحدث مطولا عن هذه الحرَكة، فإنه على عادة الكتاب المخزنيين يطمس جانبها الواقعي في فضفاضية الإنشاء الذي يوجه مجموع النص في اتجاه انتصار المخزن.

(2) محمد مزين (م.س)، 165–166.

(3) عن تصنيف للانتفاضات القروية حسب دواعيها: A. LAROUI (1977) ص ص. 157–160.

I ـ الرصيد الانتفاضي لإيناون

إن ما قادنا إلى ذلك الغوص في ثنايا تاريخ ايناون الذي قمنا به في الفصل الثاني هو بالضبط السؤال الذي يطرحه الاستعداد المشار إليه أعلاه. وقد انكشف البحث عن وجود تواترات لابد وأن تترك بصماتها على حياة المجموعات الايناونية في القرن 19م.

فقد بدا لنا استمرار آثار الدعوة الإدريسية بالمنطقة في شتى التجليات بدءا من عمق ارتباط بعض القبائل بمنشأ دولة الأدارسة (أوربة)، إلى انتساب بعضها إلى شعار إدريسي (غياثة)، إلى قيام حرَكات باسم المشروعية الإدريسية مثل حرَكة الهبري(4)، أو حتى حرَكة الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) عند منطلقها.

وإذا لم يكن من اللازم التذكير بما أوجزناه في الفصل الثاني عن المنتفضين الذين بحثوا عن أتباع في ايناون، فإنه من المفيد التأكيد على صدى جهاد الأمير عبد القادر، وتحركاته بالمنطقة الايناونية، والشرقية عامة لسببين

– من جهة، يمكن اعتبار أن حرَكته جعلت سكان ايناون يشعرون بعمق بخطر الوجود الفرنسي بالجزائر، ومن ثم ينفتحون على الدعوات الجهادية.

– ومن جهة أخرى، بعد أن انقلبت علاقة الأمير مع السلطان عبد الرحمن إلى العداء المكشوف، أصبحت تحركاته تهدد فعليا حكم السلطان، وعمت حرَكته في آونة ما، الجهة الشرقية إلى أن شارفت فاس، ومن ثم يمكن اعتبارها حرَكة مهيّئة لكل من حرَكة الهبري ثم بعدها حرَكة الزرهوني، واللتين عمتا تقريبا نفس المجال(5).

والواقع أن شرق فاس تأثر بالغ الأثر باحتلال الجزائر كما أكدنا عليه غير ما مرة على الصعيد الاقتصادي انهيار نشاط الخطوط العابرة ولاسيما القافلة الحجية، على صعيد العلاقة مع المخزن تعدّد الحرْكات سواء أيام دعم جهاد عبد القادر أم عندما أصبح السلطان يطارده بعد ايسلي، وقد بينا مدى ما تعنيه هذه

---

(4) TRENGA, (1916) p. 202

(5) جهاد الأمير عبد القادر، ومواجهته مع السلطان، بين 1844 و1847 من القضايا التي نلمس حولها تمزقا واضحا عند المؤلفين، بين واجب الجهاد الذي يجعلهم يعطفون على الأمير، وضرورة الاعتراف بالعجز عنه، والذي يجعلهم يبررون موقف السلطان. خير مثال عن هذا التمزق ابن زيدان (م.س)، ج 2، ص ص 60–74.

الحركات بالنسبة لسكان المسلك. بل إن بعض الحركات نظمت خصيصا لمعاقبة بعض قبائل ايناون كغياثة، «لدخولهم في حزب الفتان»، واستمرارهم في دعم الأمير عبد القادر بالرغم من الموانع المخزنية[6].

إن تحركات الأمير عبد القادر بشرق فاس، جعلت قبائله تكون ذات انتباه خاص لأمور الجهاد. ولا نستغرب من مساهمة الحياينة بكل الثقل الذي تشير إليه المصادر، في حرب تطوان[7].

وقد ظل الجهاد شعارا فعالا لكل من رغب الحصول على المساندة من قبائل ايناون. وتلك كانت حالة الحركة التي تزعمها الهبري.

II ـ حركة بوعزة الهبـري

تبدو حركة بوعزة من خلال المصادر التقليدية كحركة «فتان»[8] «يتعاطى بعض السحريات فتبعه بعض الأوباش الذين لا شغل لهم»[9]، أو «دجال من الدجاجلة»[10].

وحينما نسائل هذه النصوص عمن هو هذا الشخص ؟ وما هي دعوته وما مصير حركته فإننا نصادف الاضطراب الشامل. كل ما تفيدنا به أن حركته امتدت حتى هددت العاصمة ثم انطفأت بكيفية مفاجئة[11].

---

(6) انظر الرسالة من السلطان إلى ابنه محمد، بتاريخ 6 رمضان 1263/1847 الموجودة في ابن زيدان، (م.س) ج 5، ص ص. 81-83.

(7) يبدو أن مساهمة الحياينة مع بني مالك في المواجهة هي التي وضعت حدا لزحف الإسبان في اتجاه طنجة، بالإضافة، طبعا، إلى الضغط الانجليزي. عن مساهمة الحياينة، انظر: الناصري: «ووافق ذلك اليوم قدوم عرب الحياينة. جاءوا في حَرَدٍ كبير وحنق شديد فقويت قلوب الناس بهم..» (م.س)، ج.9، ص ص 98-99.

(8) ابن زيدان، ج 2، ص. 153

(9) الناصري، ج 9، ص. 142.

(10) السباعي (م.س)، و90 و. وقد لاحظ PASCON (م.س)، ص ص 171-172 أن أغلب زعماء الانتفاضات تطلق عليهم ألقاب تحقيرية (بوخبزة، الروكي، بوحمارة..) في حين تشير شهادة ROHLFS إلى أن سكان العرب كانوا يطلقون على الجيلالي الروكي (الغرلي) تسمية «مولاي جلول».
انظر: Correspondancia Embajadas y Legaciones, Marruecos, N° 1640-1872-1878.
Lettre de Rohlfs à l'Ambassadeur d'Espagne, 23.4.1872.

(11) دراسة شاملة كبحث MIEGE، مثلا، لا تجد مكانا لذكر الهبري. ومثلها في ذلك دراسة قريبة كدراسة MARCUS حول غياثة.

والواقع أن تتبع أصداء هذه الانتفاضة من خلال المراسلات المخزنية التي حررت في وقت الأحداث، ثم عبر بعض الروايات الشفوية التي سجلها بعض اثنوغرافيي بداية هذا القرن، تفند صورة النَّيْزَق الذي ينطفىء بنفس السرعة التي يشتعل بها، تلك الصورة التي توحي بها المصادر التقليدية عن جل انتفاضات القرن 19م وضمنها حرَكة الهبري.

ـ من هو بوعزة الهبري ؟

ينتمي بوعزة بن عبد القادر الشركَاوي، إلى هبرة، وهي قبيلة يرتفع نسبها إلى زغبة الهلاليين، وهبرة أيضا بلدة بين أم عسكر ومستنغانم[12] ويبدو أن أجداده قبل الاستقرار في الشركَ، أي في أحواز وجدة، قد عرجوا، دون أن نعرف عبر أي طريق، على تادلة والشاوية[13]. وحسب ما أشار إليه Gouvion فإن استقرارهم قد يعود إلى القرن 13. وعُرفوا في المنطقة الشرقية كمرابطين يصالحون بين القبائل، وكانوا يتبعون للطريقة الدرقاوية[14].

وكان بوعزة الهبري، إضافة إلى كونه مرابطا، على اطلاع واسع بعلم النبات، حتى أنه كان أثناء حجاته المتعددة، يجلس بالأزهر لشرح كتاب **خزانة الأدب** الذي هو مختصر **كتاب النبات** لابي حنيفة الدينوري[15]. ويبدو أن هذا الاطلاع كان مصحوبا لدى الهبري بانجذاب وجداني إلى عالم النبات، يؤكد Gouvion أنه كان وراثيا عند هذه الأسرة.

ومهما يكن فإن الهبري كان يستغل معلوماته لمعالجة بعض أمراض مريديْه، عن طريق ما يستقطره من تلك النباتات من مواد. ولعل هذا أساس ما وُصف به من سحر من طرف سائر المصادر التقليدية.

إنما وقفنا عند جوانب من شخصية بوعزة الهبري، حتى نعطيه كثافة بشرية بخلت عليه بها مصادرنا التي جعلت منه سرابا يستعصي على التصور. ونستخلص ما

---

(12) الناصري، ج 9، ص. 142 وابن زيدان، ج 2، ص. 153.

(13) GOUVION ص ص. 877ـ880، وقد اعتمد في معلوماته على رواية محمد الهبري (ابن بوعزة).

(14) ن.م، ص. 883.

(15) ن.م، ص. 887، وعن الدينوري انظر **الأعلام** لخير الدين الزركلي، ج 1، ص. 119 ويصفه بقوله «مؤرخ وعالم نباتي».

بهم فهم حرَكته بايناوان هذا مرابط، على خبرة ببعض المعارف كالطب، وسوف يفد على ايناون من الشركَ، المسامت للمستعمِر. وهذه صفات ذات أهمية قصوى لكل من رغب في الحصول على تعاطف سكان ايناون.

ـ متى ظهرت حرَكته ؟

ينفرد ابن زيدان بذكر أن الهبري قد ثار منذ عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن سنة 1281/1864ـ1865، وكانت حرَكته وقتها حبيسة الجهة الشرقية في أحواز وجدة، ويضيف أن جموعه قد شُتت، وخبا أمره، قبل أن يظهر مجددا عند تولي السلطان الحسن(16).

والواقع أننا نشك في أن تكون دعوة الهبري قد خبت كل هذه المدة (عشر سنوات)، وإن كنا لا نملك سوى إشارات غامضة عن ذلك. فقد أورد السملالي في سياق حديثه عن الحرْكة ضد غياثة، أواخر أيام السلطان محمد بن عبد الرحمن، والتي سبقت الإشارة إليها، ما يلي «كنا بتازا قاتلين [كذا] لغياثة وظهر هناك فتان اجتمعت عليه قبائل قد استمال قلوبهم بمهولاته ويذكرون عنه خوارق، فإذا تتبعت طريقة من تلك الطرق فلا تجد لها أصلا..»(17). وهذه أوصاف تنطبق على ما أشرنا إليه في شأن صورة الهبري.

وقد مكنتنا إحدى المراسلات بين السلطان محمد بن عبد الرحمن وأحد قواده، وتعود إلى 19 صفر 1286/31 ماي 1869، من ضبط تاريخ الحرْكة التي قادها المولى عبد السلام أخو السلطان إذ ورد فيها «القائد الحسن بن العباس (...) وبعد فقد وصلنا كتابك أخبرت فيه أن زرع الفساد من العقبة إلى تازا كله لا ضرر عليه وأن المصلحة توجيه طرف من الجيش ينزل بكردوسة (...) فها نحن كتبنا لأخينا الأرضى مولاي عبد السلام (...) بتوجيه طرف من الجيش صحبة قائد عاقل حازم للنزول بالمحل الذي ذكرت، وينزل معهم الدسول والبرانس ونسأل الله أن يمكنهم من رقاب الفساد..»(18).

(16) ابن زيدان، ج 2، ص. 153، وقد نقل عنه ابن سودة **إتحاف المطالع**، وفيات 1291.

(17) السملالي، **مطالع الحسن**، ص. 96. وإن كان السملالي يؤكد أن هذا الفتّان قد تم القبض عليه. ولا يستبعد أن يكون هذا القبض من نسج خيال السملالي الذي يأتي بهذا الخبر في سياق وصفه لـ«كرامات سيدي محمد بن عبد الرحمن».

(18) ر.م.غ.م. بالتاريخ أعلاه من السلطان إلى الحسن بن العباس، «والعقبة» هي عقبة بني مكَارة، وكردوسة هي التل المسمى في ورقة «تازة» من 1 على 000 50، بـ تيغردوسن (614×402) شمال ـ شرق بني مكَارة.

فهل كان «فُساد» 1869 أتباعا للهبري الذي نفترض أنه «الفتان» الذي أشار إليه السملالي ؟ ثمة احتمال كبير أن يكون الجواب بالإثبات. إذذاك يكون الهبري قد عاود الكرة، وهذه المرة، بالقرب من فاس، بعد خمس سنوات من تحركه الأول بأحواز وجدة، وقبل أن يعود للظهور مجددا، وعند نفس القبائل، سنة 1874. فلم تكن حرَكة الهبري إذاً تلك الفورة الفجائية والسريعة الانطفاء كما يوحي بذلك الناصري مثلا(19).

إن المصادر التقليدية لا تسلط الأضواء، إلا على مرحلة التوهج الذي إن صح أنه كان يسبق الاندثار، فإنه أيضا كان وليد طول اختمار.

ـ ما هو مدى حرَكة الهبــري ؟

مما يكتسي دلالة كبرى أن المصادر أوْلت كل هذا الاهتمام البالغ سنة 1874 بالذات لحرَكة نشأت منذ عشر سنوات ولو أن خطورة تلك الحرَكة لم تتواصل خلال كل هذه المدة.

فلم يكن السلطان الجديد قد قضى في حكمه أزيد من سنة. وكان ما يزال عليه إثبات استحقاقه للحكم(20). وقد سبقت الإشارة إلى ما تشكله لحظة الانتقال من حلقة ضعيفة في الحكم المخزني. فلا غرابة أن يتضاعف خطر زعيم بمثل المؤهلات التي أشرنا إليها، وعلى هذا القرب من قاعدة السلطان.

وقد دعم الهبري تلك المؤهلات بأمرين لهما فعالية كبرى بالمنطقة ـ أعلن أن هدفه من القيام على السلطان هو الجهاد(21). ـ وحصل على تحالف شريف إدريسي يُدعى الشيخ سعيد، وينتمي إلى قبيلة آيت سغروشن.

وإذا كنا لا نتوفر على ما يمكّننا من التفكير في جدية دعواه الجهادية، غير ما سبقت الإشارة إليه من ثقلها في مسامع سكان ايناون من جهة، واحتراس المخزن

---

(19) الناصري، ج 9، ص. 142–143.

(20) ابن سودة (م.س)، وفيات 1290 يشير بصدد الحديث عن ثورة الدباغين إلى كون أهل فاس امتنعوا «من أداء المكس بدعوى أنهم لا سلطان عليهم وسلطانهم قد توفي». ومن الجدير بالذكر أن الحياينة قد ساهموا بنصيبهم في ثورة الدباغين بفاس. انظر ابن الحاج، **الدر المنتخب**، الجزء المنفرد ص ص. 151، 291، 293.

(21) ARNAUD، (م.س)، ص. 39.

المركزي من كل داعٍ إليها من جهة أخرى[22]، فإن تحالف الهبري مع الشريف الإدريسي يستحق منا بعض الوقوف.

لا نعرف الكثير عن هذا الشريف سوى أنه يسمى «سعيد بن أحمد السغروشني ويقال إنه ادريسي» حسبما رواه الناصري[23] ولا يهمنا كثيرا ما اتفقت عليه جل المصادر من كون شرفه مشكوكا فيه[24] بل إن ما نعتبره بالغ الأهمية، أن هذا الرجل كان يُعتبر شريفا من طرف سكان ايناون فكانت دعواته مسموعة، «وممن يشار إليه بالديانة والخيارة عندهم»[25].

وقد أورد المشرفي حكاية لها عميق الدلالة. فقد كان سعيد السغروشني يروي لأتباعه «بأن والده أوصاه بأن القادم عليه من الشرق والطالب إليه السلهام الذي تركه له هو صاحب حاجتك، فاتبعه ولابد لك من الملك على يده»[26]. ولم يكن صعبا على الهبري، فيما يبدو، أن يتقدم كصاحب السلهام (كمن يقول «صاحب الساعة»).

ولا تدع هذه الحكاية مجالا للشك في أن «برنامج» الهبري والسغروشني، لم يكن يقل عن المطالبة بالملك في غمرة هالة من المهدوية والشرف الإدريسي، والدعوة الجهادية، وفي وقت انتقال سلطاني.

في ضوء كل هذه المؤهلات، نفهم الشعبية التي حظيت بها هذه الحرَكة، حتى حسب المعادين لها فقد اجتمعت على الهبري حسب ابن زيدان فضلا عن غياثة «التسول والبرانس والحياينة وبنو وراين وكَزناية وأولاد بوريمة وآيت سغروشن وبنو سادن»[27].

(22) انظر رسالة السلطان إلى قواد التسول والحياينة السابقة، ص. 396-397.

(23) (م.س)، ج. 9، ص. 142.

(24) السباعي و90 والناصري، ن.م، ص. 142 وابن زيدان لا يذكره أصلا في حين ينفرد المشرفي، وقد سبق له تولى القضاء بالحياينة، بنعته بدون تحفظ، ص. 237 من **الحلل**، بـ«مولاي سعيد السغروشني». وقد سبق لنا الإشارة إلى وجود شرفاء أدارسة سغروشنيين.

(25) السباعي، ص. 90 و والمشرفي، ص. 237.

(26) ن.م، ص. 237.

(27) ابن زيدان، ج 2، ص. 153 ويعم مجال هذه القبائل حسب ما نستنتجه من خريطة القبائل من مقياس 1 على 1.500.000، مساحة تفوق 6000 كلم2.

وحسب ما رواه المشرفي، وهو الذي أعطى أدق المعلومات حول حركة الهبري، فإنه اتخذ مخزنا فعين وزيرا إسمه يعقوب «وقوادا، وجعل أعوانا وخدمة وصاحب مشور وكتابا ومنهم الشيخ محمد بن علي الوراييني الزرودي»[28].

ولعل مخزن الهبري قد شرع في التضييق على الممثلين المخزنيين الرسميين، إذ أننا نصادف ضمن الأخبار التي كان يبعث بها أحد الجواسيس المزدوجين بالبلاط السلطاني إلى السفير البريطاني ما يلي «ونعلمك على وجه السر بأن أهل تازة حصروا على عاملهم القائد عبد الرحمن بن الشليح وضيقوا عليه ووجه له سيدنا نصره الله الإعانة من الجيش السعيد صحبة الفقيه بن عبد الوهاب الزموري إلى أن وصل باب تازة وتلقوه أهل الفتنة من راعية أهل تازة ونهبوا له الخيل والحوائج والأمتعة وبلغ الخبر لسيدنا (...) فأمر بالنهوض بنفسه لتلك النواحي...» (6 جمادى 2 1291/20 يوليوز 1874)[29].

فأن يستشعر السلطان الخطر، أمر طبيعي، إذ أن هذه الحركة لم تكن تنازع في مجبى من المجابي بقدر ما تنازع في الحكم برمته، معتمدة على شرعية إدريسية يحارب السلاطين انتعاشها بكل شدة منذ المرينيين على الأقل[30].

ـ مصير حركة الهبــري

ندخل هاهنا في دائرة الضوء، إذ أن المصادر المختلفة لا تفصّل وحدها في المراحل النهائية لهذه الانتفاضة، بل نجد العديد من تقارير القنصليات الأجنبية بطنجة تتتبع التقلبات الأخيرة لها، بالنظر إلى كون السلطان قرر دخول المعمعة بنفسه ضد الهبري وقبائل ايناون[31] كل هذا فضلا عن المراسلات السلطانية.

---

(28) المشرفي (م.س)، ص ص. 237–240. ولا ندري ماذا كان توزيع السلطة بين الهبري والسغروشني.

(29) P.R.O., F.O. 174/89. N° 254 من بوبكر بن الحاج إلى WHITE النائب عن J.D. HAY وعن الدور المزدوج لبوبكر بن الحاج انظر J.L. MIEGE، ج 4، ص ص. 67–68. وهو غير احمد بن الحاج، المؤرخ صاحب **الدر المنتخب** سابق الذكر.
وعن تطويق تازة من طرف غياثة في نفس الإبان، انظر و.ز. 2. و213. وو.262.

(30) انظر الفصل الثاني أعلاه.

(31) انظر وثائق ORSAY، والخارجية البريطانية والخارجية الإسبانية على السواء. والملاحظ أنه بالرغم من ارتباك العلم «الهبري» «الهردي» «الهيدي»، فإن معلومات القناصل حول حركة الهبري كانت دقيقة.

ولْنُنصت إلى ما يقوله بوبكر بن الحاج، مخبر السفير البريطاني واصفا حرَكة الهبري وأثرها بفاس قبيل توجه المحلة السلطانية ضده «إن السلطان مجتهد في تنضيد أمور الحرْكة السعيدة (...) وإن كنتم سمعتم على قيام رجل الساحر الوارد من السحرة فقد كان قد وفد حقا وبلغ إلى قبيلة بني سادن قرب فاس بيوم اللارب [إلا ربع] واتجه المخَلفون من أهل البوادي من الريف إلى المحل المذكور الذي هو بلد بني سادن، وتبعه عدد، ودخل الناس الحمق من أجل ما يصنع من أمور السحر، مع أنه ولا يفلح الساحر حيث أتى. فلما استحس سيدنا نصره الله بذلك وجه على ثلاثة من المحال السعيدة الذين كانوا عند الحياينة وشراكَة وأولاد جامع، وأمرهم بالقدوم عليه وبالقبض عليه أو قتله. فلما قدمت عليه المحلة السعيدة، تلك العشية، فهرب وفر ليلا وترك من الأمتعة والمواشي استعدادا كثيرا وتمزقت الجيوش التي كانت معه. وسيدنا أيده الله لاشك في نهوضه، ليزجر تلك القبائل الذين تبعوه ولو كان ذلك على وجه السحر، مع أنه كان شوش فاس ونواحيه وتجدد الغلاء الكثير بفاس من أجل ذلك الساحر وأما مدينة تازة لازالت مسدودة ومحصورة، ولابد من قدوم سيدنا (...) لذلك المحل وسترى ما يحصل لهؤلاء المخالفون من العقوبة (...) وإن حدث خبر آخر فأنا نعلمك به...» متم جمادى 2 13/1291 غشت 1874[32].

وقد تمت المواجهة التي يشير بوبكر بن الحاج إليها بين جموع الهبري وحرْكة قائد الحياينة، محمد بن قدور البوزياني، كما تذكر ذلك مصادر أخرى، بالقرب من جسر سبو، إذ كان الهبري قد استطاع استغفال حرْكة ثانية مقيمة منذ شهر ببني سادن لمواجهته، فهجم حتى وصل أبواب فاس[33].

بيد أن رسالة ابن الحاج توحي بأن حرَكة الهبري قد اندثرت قبل خروج المحلة السلطانية، في حين، عندما توجهت تلك المحلة، وباتت في بني سادن في أواسط رجب 1291 / أواخر غشت 1874، هاجمها أتباع الهبري ليلا، معتمدين على تقنية الخدعة الحربية. لكن جيش السلطان، بالرغم من الهلَع الذي أصابه،

(32) انظر: P.R.O./F.O. 174/89 ويغلب على ابن الحاج استعمال الدارجة. لذلك لم نر فائدة في استعمال رمز [كذا] ـ هذا المخبر ينقل ما كان يروج داخل البلاط، وهذه هي الصورة التي تناقلتها جل المصادر التقليدية. مثال آخر عن فكرة «النموذج المركزي» التي صادفناها سابقا.

(33) انظر السباعي (م.س)، و90 ظ والمشرفي (م.س)، ص. 237.

«صوبوا المدافع وآلات الحرب ضد عدوهم»[34] و«تركتهم أشرد من نعامة هاربين متفرقين»[35].

ويبدو أن الهبري والسغروشني فرا إثر هذه المواجهة. فشرع السلطان في معاقبة قبائل ايناون «على استحسانهم فعل ذلك الضال المضل (...) وبذلك استوجبوا ما استوجبوا من أخذ زروعهم (...) وغيرها نكالا وتأديبا»[36].

ويسهب الإخباريون في وصف ما أنزل من عقاب بقبائل ايناون من قطع رؤوس، وأخذ أسرى، قبل مجيء المذنبين تائبين طائعين، وقبولهم أداء ما وظف عليهم (100.000 مثقال، 400 من الخيل، 30.000 ريال إلخ...). وكأن أمر الهبري والشيخ سعيد تبخر بكيفية تلقائية[37].

في حين أن المراسلات المخزنية، تدل على أن السلطان، وهو ينزل العقاب فعلا بقبائل ايناون، لم يهدأ له بال ما لم يكن قد ألقى القبض على منافس من مستوى الهبري.

فلما فر الهبري والسغروشني كتب السلطان إلى عامل تازة ما أجابه عنه بقوله «وبعد (...) فقد وصلنا كتابك الشريف (...) وأنا نعلم جنابك (...) بما آل إليه أمر ما كلفتنا به من جمع الحركة والقيام على ساق الجد من أنك (...) على نية النهوض لبوزملان في الأثر، ومن أن الفتان قد غدر فيه حزبه الخاسر ومزقوا شمله وفر لجبل بني وراين هو وصاحبه وأمرنا سيدنا بنصب الحبائل والمكائد لتحصيله وجعل الجعائل عليه حتى نتظفر به (...) واعلم سيدي (...) ورد خبر وأن بني وراين عرقبوا على غياثة السفلى ليودعوا عندهم مواشيهم وأمتعتهم، وكتب لهم الفتان بأن يدخلوا في حزبه الخاسر فداركناهم بالتخوف [كذا] من جانب سيدنا وأمرناهم بأكل مواشيهم وأمتعتهم والضرب عليهم وما نحن بمقصرين ومبذلين المجهود في نصب الحبائل والمكائد لهذا الفتان كما أمر سيدنا وقاولنا بعدد معتبر لمن يأتي به نطلب الله أن يعجل بسوء الدائرة عليه...»[38].

(34) الناصري، ج 9، ص. 142.

(35) السباعي (م.س)، و90 ظ.

(36) السباعي، ن.م، و91 و.

(37) الناصري، خ 9، ص. 143 يستعمل صيغة المبني للمجهول «وفي هذه الأيام جيء إلى السلطان بالهبري أسيرا».

(38) ر.م.غ.م. من عبد الرحمن الزراري إلى السلطان. 25 رجب 7/1291 شتنبر 1874. نفس طريقة الفدية سوف يستعملها المخزن فيما بعد لطلب الجيلاني الزرهوني (بوحمارة).

تدلنا هذه الرسالة على مدى جهود المخزن للقبض على الهبري. وأغلب الظن أن الفدية التي وعد بها السلطان، مضافة إلى ثقل حضور المحلة، كانت ذات فعالية كبيرة، إذ نتوفر على رسالة من عامل وجدة تثبت مدى ما أثاره القبض على الهبري من تزاحم بين قبائل شرق تازة «... وبعد وصلني عزيز كتاب سيدي (...) مؤدنا بجد الطلب في تحصيل الظالم الفتان بوعزة الهبري (...) فليكن في كريم علم سيدنا (...) أنه من يوم سمعت بنهوض سيدنا من فاس علمت أنه لابد له من الفرار من تلك الناحية لهذه النواحي فنصبت له شباك القنص في كل قبيلة من هذه القبائل من بني بويحي وكبدانة وبني بوزقوا وبني يعلى وغيرهم إلى أن حكم الله فيه وسعادة سيدنا وورد خبر القبض عليه من بني بوزقوا، حتى أتى إلى مرابط عندهم يقال له سيدي عبد الرحمن، فعرفوه هنالك عندهم فأرادوا قبضه، فاستشعر بذلك واستغفلهم، ريثما ركب بردونه هو ورفيقه الذي كان معه وفرا من عندهم فاتبعوه بالغوث والصياح إلى أن دخل لتراب بني كَلال ومنعوهم منه إلى أن أرادوا القتال عليه، ولما بلغني خبر ذلك كتبت لهم بأن يتوجهون به لحضرة سيدنا (...) من حيث أن ذلك هو المراد فإذا به وردت عليهم شرذمة من الخيل من قبل خديم سيدنا القائد عبد الرحمن الزراري، فارتفع نزاعهم بذلك، وحملوه لمحل حتفه...»(39).

إن ما يشفع لإدراج هذه الرسالة على طولها، ليس دقتها فحسب، بل مدى تنوع الإجراءات التي اتخذها المخزن للتوصل إلى اعتقال الهبري. ويبدو حجم الخطر الذي استشعرته الأوساط المخزنية من انتفاضة الهبري من الرسائل المتعددة التي وفدت على دار المخزن، تهنىء السلطان بالسلامة بعد اعتقاله. ونكتفي منها بهذا المثال لتعبيريته «... سيدي موسى بن أحمد (...) الحمد لله على سلامتك (...) وسلامة سيدنا ( ) وحمدنا الله على ما منحه لسيدنا المنصور بالله من العز والتمكين والنصر والفتح المبين (...) وقد سرنا ما سمعناه من حصول الروقي بعزة وكفاية مؤنته، فياله من بشارة...»(40).

---

(39) و.ز.مج. 8. و296.

(40) و.ز.مج 9 و 171 13 رمضان 24/1291 أكتوبر 1874. ونلاحظ من هذه الرسالة أن لفظة «الروقي» قد أصبحت تطلق على كل منتفض. انظر عن خبر القبض عليه وما أثاره من فرح في طنجة، تقارير الأنجليز F.O 99/163 - 66 والفرنسيين A.E.P. Cor-Pol. Vol 39, F.105. والإسبان Cor. Emb. Leg. Mar. 1640

ـ ماذا كان مآل الهبري ؟

ينفرد المشرفي مجددا بإعطاء رواية مغايرة لما ورد في بقية المصادر فلما جيء بالهبّري، سأله السلطان «عن سبب قيامه وطمعه في الملك، وليس هو لأبيه ولا لجده فقال إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وهذا ما أراد الله»(41) في حين ركزت بقية المصادر كإبن زيدان والناصري إلخ... على كونه أُتي به «حقيرا ذليلا فشهر وطيف به على جمل ثم وجه به سجينا لفاس وبقي فيه إلى أن انتقل لمراكش فمات في الطريق»(42). ويضيف السباعي «حتف أنفه ليس إلا»(43). ولابد من الإشارة إلى أن المشرفي كان أكثر دقة مرة أخرى حينما أكد أنه اقتيد إلى مراكش «وبقي بسجنها إلى أن مات به»(44).

ويستفاد من رواية شفوية استقاها Gouvion سنة 1923، أي حوالي خمسين سنة بعد الأحداث، أن الهبري لم يمت في واقع الأمر سوى سنة 1901(45).

ولن نتتبع تنقل السلطان إلى تازة ثم سلوان قبل العودة إلى فاس، فقد فصلت فيه سائر المصادر المحال عليها أعلاه. بيد أن السؤال الذي يظل مطروحا هو هل ذهبت ريح انتفاضة الهبري دفعة واحدة أم أنها خلفت آثارا بعيدة المدى في حوض ايناون ؟

III ـ توابع انتفاضة بوعزة الهبري

لا تعزب عن ذهننا الملابسات العامة المعقدة المرتبطة بسائر أشكال التغلغل الأجنبي الذي أشرنا غير ما مرة إلى أهميته بالخصوص في هذه المناطق التخومية، تلك الملابسات التي كانت تكتنف أي علاقة بين المخزن والقبيلة أو بين القبيلة والقبيلة.

(41) المشرفي، ص. 240.

(42) ابن زيدان (م.س) ج 2، ص. 153.

(43) السباعي (م.س)، و91 و.

(44) المشرفي (م.س).

(45) GOUVION (م.س)، ص. 887. ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التاريخ يوافق بداية تحرك الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) الذي أعلن عن حركته سنة بعد ذلك. وقد كان مخبر GOUVION هو محمد بن بوعزة الهبري. ومن سخرية التاريخ أو علامات الزمان، أن يكون الهبري الذي نادى بالجهاد قد خلف هذا الابن الذي كان حسب GOUVION من أمتن دعامات الوجود الفرنسي بشرق المغرب. بيد أن مثل هذا المسار لم يُعدم وجوده في البادية كما في الحاضرة.

بيد أن واقعة مثل انتفاضة بوعزة الهبري، وإن انخرطت في تلك الملابسات، فإنها لا تلبث أن تصبح بدورها عنصرا فاعلا ومشكّلا للصورة التي يحتفظ بها طرف عن الطرف الآخر.

ولنعد إلى جدول المحال والحرْكات، فنقتنع بأن السلطان شعر بضرورة ممارسة «السلطة المتنقلة» ربما في هذه الجهة أكثر مما في جهات أخرى.

والواقع أن انتفاضة الهبري خلفت بقايا حتى بعد اعتقال متزعمها، إذ استمر حليفه سعيد السغروشني في مواجهة المخزن انطلاقا من جبال بني وراين.

ولعل حرْكة 1875، التي قادها أخو السلطان الأمير علي وحضرها محمد بن عبد الله بن أحمد، توجهت للقضاء عليه. ذاك ما يفسر طول مقامها بالحياينة، وغياثة قبل أن تنتقل إلى الريف ثم الجهة الشرقية(46).

ونتوفر على رسالة تبين أن الشيخ سعيد السغروشني كان مايزال يتحرك في جبال بني وراين في أوائل 1876 «وصلنا كتابك (...) علمنا منه (...) ما آل إليه أمر سعيد السغروشني من انتهاك حرمته...»(47).

فهل كان من بين أهداف محلة السلطان لصيف 1876 في اتجاه الشرق، القضاء على مواجهة السغروشني كما كان من تلك الأهداف القضاء على نفوذ ولد البشير اليزناسني ؟.

مهما يكن فإن هذه المحلة هي التي قادت السلطان إلى وقعة الشقة الشهيرة. وقد نالت هذه الحادثة اهتمام جل المصادر على العكس من انتفاضة الهبري. فقد أشار جل الرحالة الذين عبروا المنطقة إلى كون ذكراها كانت حية حينما مروا بالمنطقة(48). ولعل تضخم الأوصاف حول هذه الوقعة يبدو واضحا في تضخم أسمائها «الشقة» من إسم الخندق الذي هوى فيه جند السلطان، «بوكَربة» من

---

(46) ملف هام حول هذه الحرْكة بمجموعة الوثائق الزيدانية مج 25، مج 19... إلخ... وقد آلت هذه الحرْكة إلى التشتت شذر مذر أمام اليزناسني. الناصري، ج 9، ص ص. 145ـ146. وابن زيدان ج 2، ص ص. 154ـ155... إلخ...

(47) و.ز.مج. 12 و. 85. 26 صفر 1293/فبراير 1876.

(48) DE FOUCAULD، ص. 34 بعد سبع سنوات، DE SEGONZAC، ص. 215، بعد 25 سنة، GOUVION، ص. 820، بعد خمسين سنة.

اسم الواد الذي أقام عليه غياثة سدا حجزوا به مياهه ثم أطلقوها على الجيش بكيفية مفاجئة، «السريفة» من الخدعة العسكرية التي استخدمها غياثة إذ تركوا المحلة تقدم عميقا في الجبل قبل أن يطلقوا عليها الرصاص والماء والصياح في نفس الوقت. فلا يستغرب أن ينعتها بعض المساهمين القدماء في الجيش «بواد جهنم»، فقد كثر بها القتلى حتى استعصى دفنهم فرادى[49].

فهل كان أصل هذه الحادثة إيغار عامل تازة قلب السلطان على غياثة كما يشير إليه صاحب **الإتحاف** ؟ أم ثقل ما طالب به السلطان غياثة من وظائف عجزوا عن أدائها ولم يتعودوا دفع مثلها في السابق كما يرويه صاحب **الاستقصا** ؟ أم أن هذه الوقعة كانت في الخط المستقيم، من تبعات انتفاضة بوعزة الهبري وسعيد السغروشني ؟ أليس من بالغ الدلالة أن تؤكد بعض النصوص (السباعي) والرواية الشفوية بالخصوص[50] أن السلطان استهان بالأوعار الطبيعية والسلط الرمزية المحلية إذ أن الجند، فضلا عن عدم احترامه ليوم الجمعة، استعمل المدفع ضد القرى وضد أضرحة الصلحاء المحليين، وبالخصوص منهم ضريح الولي سيدي مسرور[51] ؟ ثم ما هو أثر دعوة الهبري المهدوية والتي لم يكن قد مر عليها أكثر من سنتين في تحميس أهل القبيلة ضد الجيش السلطاني ؟

مهما كان من الجواب عن هذه الأسئلة، فإن السلطان بعد انتقام جزئي، أمر عامله على تازة بقبض كل من يدخلها من غياثة مما جعل التوتر يستمر، وغياثة يعترضون طريق جند السلطان عند رجوعه من وجدة[52].

---

(49) تغنينا كثرة الأوصاف عن التعرض لهذه الحادثة بتدقيق: انظر: ابن زيدان، ج 2، ص ص. 158–167، الناصري، ج 9، ص ص. 158–159، السباعي، و110 و. ــ 111 ظ، المشرفي، **الحلل**، نسخة خ.ح. ص ص. 284–285، ثم Erckmann : 198. Gouvion : 820, Segonzac, 215, Foucauld ; 34, etc...

أما الوثائق المخزنية والعسكرية والدبلوماسية فإنها عديدة. ولعله ليس من غير المفيد أن نذكر بأن بعض نصوص القرن 16م تصف استغلال غياثة لبيئتها على نفس الكيفية للدفاع عن مجالها انظر مارمول ج 2، ص. 216–218.

(50) MARCUS (م.س) ص ص. 68–70، ورواية شفوية خاصة.

(51) وتعتبر الرواية الشفوية أن الضباب الذي تذكره المصادر المكتوبة كان من نتيجة دخان المدفع وليس فقط من جراء ريح هبت صدفة.

(52) وكان لوقعة الشقة في طنجة حسب التقارير الدبلوماسية نفس الصدى الذي سجلناه حول الانتصار على الهبري.

يتضح إذاً بعد دراسة انتفاضة الهبري، وحادثة الشقة، أن بداية عهد السلطان الحسن كانت فترة توتر بين المخزن وقبائل ايناون ولاسيما منها غياثة وبني وراين وآيت سغروشن.

والواقع أن هذه القبائل اصطلحت مع المخزن المركزي فيما بعد طالما أننا نعثر على ذكر لهدايا وتعيين قواد وحضور أعيان(53)...

ويبدو أن هذا الاصطلاح كان مبنيا على أساس توازن ضمني بين الطرفين : المخزن لا يطالب القبائل الجبلية بما يطالب به قبائل السهل، وتلك القبائل الجبلية لا تهدد المصالح المخزنية الأساسية   السهل، المسلك والمدينة.

غير أن هذا التوازن الضمني لم يكن لينخدع به أي من الطرفين فقد سجل Erckmann أن أعضاء المخزن، حينما يقتربون من أرض غياثة، في حدود 1880، يبادرون إلى إخفاء «شاشيتهم»، مخافة أن يتعرف غياثة على كونهم من مسخري المخزن المركزي فيعتدوا عليهم(54).

وقد ظل المخزن، من جهته، يضع نصب أعينه، «تجهيز حرْكة معتبرة» تتوجه إلى غياثة، وقد تردد صدى تهييء هذه الحرْكة كلما شرع السلطان في الاستعداد لحرْكة ما، عبر الأخبار التي كان يجمعها أعضاء البعثة العسكرية الفرنسية. وذاك ما يؤيده عدد من المراسلات المخزنية(55).

هكذا نكون قد رسمنا الإطار الذي توجهت فيه تلك الحرْكة الشبيهة بعشرات الحرْكات، وهي حرْكة الأمير عمر (1892–1893) والتي سبق ذكرها. ولا تختلف هذه الحرْكة عن مثيلاتها سوى في أنها كانت تشمل من بين المساهمين فيها، أحد الكتبة المخزنيين المغمورين، وكان ما يزال يحمل اسمه فقط، ولم ينتحل اسما شريفا ولا أُطلق عليه اسم تحقيري بعد، ذلك الكاتب كان هو الجيلالي الزرهوني، الذي سمته

---

(53) ونصادف في كناش 707، ص. 12 ذكراً لـ محمد بن سعيد السغروشني قائدا «لآيت سغروشن حريرة»، جمادى الأولى 1892/1310. فهل هذا الشخص ابن لسعيد السغروشني ؟ لا نستطيع الجواب. ولكن، لو صح أنه ابنه لما كان ذلك مستغربا من الطرق المخزنية التي وصفناها فيما سبق.

(54) ERCKMANN (م.س)، ص. 199.

(55) تكررت هذه الأصداء سنة   1877، 1878، 1889، وهي التي أدرجنا طيه في شأنها وثيقة موقعة من طرف الفقيه السملالي. وتفصح رسالة السملالي عن برنامج مخزني لأخذ غياثة في عقر دارهم، ثم تردد صدى الحركة ضد غياثة سنة 1890 أيضا.

ساكنةايناون إلى اليوم «مولاي محمد» ولا نعرفه في الغالب عبر النصوص المكتوبة إلا باسم «بوحمارة»[56].

سوف يكون من باب إجهاد الواقع أن نقرر أن الجيلالي الزرهوني تمكن خلال هذه الحركة من تكوين تصور عام عما سيقوم به بعد عشر سنوات. لن نرتكب هذا الخلط بين موقع المؤرخ وما يعلمه من تطور للأمور، وموقع المنخرط في التاريخ الذي كان ما يزال مأخوذا في شبكة من الاحتمالات.

بيد أنه كان من الجدير بالانتباه أن يكون ذلك الشخص الذي بدأت في شأنه الشائعات منذ 1900 قبل أن يعلن عن كونه إدريسيا ويَتسمى «مولاي محمد بن مصطفى»[57] وقبل أن تستقر الوثائق على أنه «مولاي مَحمد» المرشح السابق للحكم والذي أُبعد عنه سنة 1894 ـ أن يكون ذلك الشخص قد تجول مع حركة 1892ـ1893، أي عشر سنوات قبل انطلاق ثورته، بنفس المناطق، خلال ما لا يقل عن عشرة شهور[58]. فإن لم يكن قد كون خلالها فكرة حرَكته المقبلة، فلاشك أن هذا الاتصال المطول كان ذا أهمية قصوى بالنسبة له، لمعرفة الميدان الذي سوف يستغل فيه جميع الشروط التي وصفناها سابقا ليعلن، في أكتوبر 1902 عن انطلاق حرَكته التي لا تمثل بداية حلقة أخرى من تاريخ ممر تازة فحسب، بل من تاريخ المغرب بأكمله.

ماذا يمكن استخلاصه من تتبع هذه النماذج من الانتفاضات القروية ؟ هل هي مبادرات عفوية، تنشأ بصفة تلقائية ما إن تبتعد يد المركز («سطوة المخزن») ثم تندثر حينما يحضر ؟ ذاك ما قد نستنتجه من رأي أحد الملاحظين البارزين، والمؤثرين في تاريخ مغرب القرن 19م وهو J.D. Hay «حينما يكون السلطان في الجنوب تثور القبائل في الشمال، وعندما يتوجه مصحوبا بجيش كبير «لأكلها» كما يقال، تنتفض قبائل الجنوب قبل أن «تؤكل» بدورها. يكاد يكون هذا نظام يحصل المخزن من خلاله على متأخر الجبايي وسائر أصناف المؤن والتسخيرات»[59]. ككل الأحكام

---

(56) MALDONADO, **El Rogui**, Tetuan (s.d.) (1949), p. 38.

(57) A.E.P. Cor. pol. N.S. 183 F° 1 St René Taillandier, Tanger, 3.11. 1902.

(58) انظر الفصل الخامس أعلاه.

(59) P.R.O. F.O. 99. 163/78.

العامة، يختزل J.D. Hay تعقيدات الواقع في حرَكة تراقصية. بيد أن ما يشفع للاستشهاد به، تواتر ذكر الفورات القبلية شمالا وجنوبا، حيث تنتهي الفورة بالإحترام بمدفع الحرْكة أو المحلة. فهل تنتمي هذه الانتفاضات إلى الصنف الذي لوحظ في غير واحد من المجتمعات ما قبل الرأسمالية، حيث تنقلب الانتفاضة إلى عملية شبه طقوسية، يكاد النظام يحتاج إليها لتجديد ترسيخ دعائمه ؟(60).

أم أن الانتفاضة المحلية هي في العمق مطالبة بالمشاركة أكثر في الإمساك بدفة الأمور المحلية وفي الحضور في صنع القرار على الصعيد المركزي(61) ؟ لعل ما قد يدعم مثل هذا الاستنتاج أن العدد من أعيان القبائل يتحولون إلى زعماء لمواجهة المخزن عند فصلهم أو حتى خلال ممارستهم لمهامهم كممثلين مخزنيين محليين. ومما قد يؤيد هذا الاستنتاج أيضا ما أوضحناه من علاقة المركز المخزني بالبنيات «الإدارية» المحلية عبر ما حللناه من جوانب الحرْكة(62).

ثمة شيآن واضحان على الأقل، من خلال التحليل 1 ـ ثقل الضرائب وما يتبعه من زجر عند رفض الأداء، كان على صلة وطيدة بعدد من الانتفاضات (ومنها حادثة الشقة). 2 ـ واقع هذه الانتفاضات محجوب عنا في النصوص التقليدية بغشاء سميك يحتاج الباحث إلى إزاحته قبل الإطلال عليها.

أما قدرة هذه الانتفاضات التغييرية، فإن حالة البحث حولها وحول تاريخ المجتمع المغربي برمته لا تسمح بالحكم. صحيح أن الصنفين المحال عليهما منذ قليل، يؤولان في النهاية إلى تكريس الأمر الواقع. تبقى الحالات التي تشابه حالة انتفاضة الهبري والتي تبدو كحركة سياسية متكاملة، وليست فورة مؤقتة على غرار ما أسبقنا. إن الحكم عليها يفترض معرفتها من الداخل، وهو ما لا يبدو قريب المنال.

(60) BALANDIER, op. cit., pp. 24-50.
CHESNAUX, J. **Le mouvement paysan chinois,** Seuil, 1976, pp. 26-27.
BERQUE, J. (1978), op. cit., pp. 492-493.

(61) LAROUI (1977) (م.س)، ص. 182.

(62) انظر الفصل الخامس أعلاه.

تســاؤلات في الختــام

لا يمكن لهذا البحث في العلاقة بين المجتمع القروي والدولة المخزنية بين القرون 16 م و19 م، عبر التركيز بصفة خاصة على نموذج إيناون في النصف الثاني من القرن 19 م، إلا أن يتساءل في الأخير حول نفسه.

ـ من حيث الإسهام هل أفلح في الكشف عن بعض المحددات التي تحكمت في علاقات قبائل ايناون بالمخزن المركزي، والتي تنير استعدادها للانتفاض منذ الهبري والشقة حتى الزرهوني ؟ وهل أفلح في تعويض صورة «الغوغاء» بصورة الإنسان المنخرط في علاقات معقدة منها المحلي ومنها المركزي ومنها الداخلي ومنها الخارجي ؟ وهل أفلح من خلال كل ذلك في الإطلال على السفح المخفي من تاريخ المجتمع المغربي عامة والقروي خاصة ؟

ـ من حيث المادة هل استطاع هذا البحث أن يدلف إلى حياة المجموعات الايناونية الخاصة سواء عن طريق ما ترويه عن نفسها أو بواسطة ما كان يروج بين أعيانها والمركز من مراسلات ؟ وهل استطاع الاستفادة من الوثائق الرسمية دون السقوط فريسة للتصورات التي تحملها ؟ ثم هل استطاع تفكيك رصيد الكتابة الاستعمارية حول ايناون، موظفا ما هو علمي منها ومنحيا ما هو ايديولوجي ؟.

ـ من حيث الأدوات هل تمكنت هذه الدراسة من عدم الانغلاق في الحدود الضيقة التي يرهن الباحث بها تفكيره، عندما يعتبر أن الوثيقة تفصح بكيفية مباشرة عن كل مكنونها ؟ هل تمكنت من تعديد زوايا النظر اقترابا من واقع متعدد ؟

إذا ما كان الجواب عن كل أو بعض من هذه الأسئلة بالإثبات، ولو إلى حد ما، فإن هذا البحث سوف يكون قد أصاب جزءا من الأهداف التي سطر بعضها والتقى ببعضها الآخر أثناء المسير. ومهما شق طريق البحث فإن فرز الاسئلة الواضحة لاشك مساهم في اختزاله.

البيبليوغـرافيـا

عن الوثائق، راجع الفصل الأول، سواء تعلق الأمر بالوثائق المغربية أو الوثائق الأجنبية. ولم نسجل ضمن هذه البيبليوغرافيا سوى مختلف أنواع المصادر الأخرى، من شهادات وحوليات ورحلات... ثم الدراسات الميدانية والأبحاث المنهجية... وقد تتبعنا الترتيب الأبجدي المتبع في **L'Encyclopédie de l'Islam**، بالنسبة للمصادر بالعربية. وقد أدرجنا بالنسبة للمخطوط رقمه بالخزانة التي يوجد بها.

I ـ المصادر باللغة العربية

ابن الحاج، أحمد بن حمدون. ـ **الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المومنين مولانا الحسن.** 9 أجزاء، راجعنا بالخصوص ج5، 8، 9. خ.ح.ر. ز 12184.

ـــــ **الدر المنتخب**.. جزء منفرد، خ.ح، ز 10916.

ابن الخطيب، لسان الديـن. ـ **كتاب أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام.** المطبوع تحت عنوان **المغرب العربي في العصر الوسيط**، بتحقيق ا.م. العبادي، وم.ا. الكتاني، دار الكتاب، البيضاء، 1964.

ابن خلدون، عبد الرحمـن. ـ **العبر وديوان المتبدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر**، 7 أجزاء، بيروت 1958ـ1959، ج4 و6.

ـــــ **المقدمـة**، دار البيان، بيروت، د.ت.

ابن زيدان، عبد الرحمن. ـ **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية، الرباط، 1929ـ1933، 5 أجـزاء.

ـــــ **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، الرباط، 1962، جزءان.

ابن سودة، عبد السلام بن عبد القادر. ـ **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، دار الكتاب البيضاء، ط.ث. 1960، جزءان.

ـــــ **إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع**، خ.ح.ر. 10651.

ـــــ **أمثال فاس وما إليها**، جزءان، خ.ح.ر. 10653

ابن عسكر، محمد الشفشاوني الحسني. ـ **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، دار المغرب، الرباط، 1976.

ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 1380م). ـ **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن** خ.ع.ر. ق 111.

أبو ضيف، أحمد مصطفى. ـ **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصر الموحدين وبني مرين (524ـ876هـ/1130ـ1472م)**، دار النشر المغربية ـ البيضاء، 1982.

أجوبة علماء فاس في شأن قبيلة الحياينة خ.ع.ر. 32705 خ.ح.ر. 12826.

الأزموري، محمد، بن عبد العظيم. ـ **تقييد لشرفاء المغرب وقبائله** من مجموع ص165بـ ـ 174بـ ـ خ.ع.ر. د.1595.

أعفيف، محمد «الحركات الحسنية من خلال مؤلفات ابن زيدان». ـ **مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية** ـ الرباط، العدد 7، ص47ـ75

اكنسوس، المراكشي محمد بن محمد. ـ **الجيش العرموم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي** خ.ح. 26 ح.ع.د 965.

بروفنصال، ليفي. ـ **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي ـ الرباط، 1977.

البنداق، محمد صالح. ـ **التقويم الهادي** ـ بيروت، 1980.

بن الصغير، خالد. ـ **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856ـ1886)**؛ ولادة ـ البيضاء، 1990.

ـــــــ **المغرب في الأرشيف البريطاني مراسلات جون درامند هاي مع المخزن 1846ـ1886**، ولادة ـ البيضاء، 1992.

بن ناصر، محمد صالح، محمد بن عبد السلام (ت 1823). ـ **الرحلة الصغرى**، خ.ح. 121.

بوجندار، محمد. ـ **الاغتباط بأعلام الرباط**، خ.ع. د. 1287

البوخصيبي، أبوبكر. ـ **أضواء على ابن يجبش التازي**.

بوشرب، أحمد. ـ **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي و آزمور (قبل 28 غشت 1481 ـ أكتوبر 1541)**، دار الثقافة، البيضاء، 1984.

البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي. ـ **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، الرباط، 1971.

تاريخ مولاي سليمان (1248/1833)، مجهول المؤلف، من و. 64 إلى و. 69 من مجموع رقم 1892، الخزانة الوطنية بباريس.

التسولي، أبو الحسن علي. ـ **نوازل**... خ.ع. د. 882.

التوزاني، نعيمة الهراج. ـ **الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن 1290ـ1311/1873ـ1894**، مطبعة فضالة، 1979.

التوفيق، أحمد. ـ **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان 1850ـ1912**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط.ث.، 1983.

الحجوي، محمد بن الحسن. ـ **الرحلة الوجدية أو انتحار المغرب بيد ثواره** خ.ع.ر. حـ. 123.

ـــــــ **تقرير تاريخي**، خ.ع.ر. حـ. 254.

حجـي، محمـد. ـ **الزاوية الدلائية** المطبعة الوطنية ـ الرباط، 1964.

الحضيكي، الشيخ محمد بن أحمد، (ت 1189/1775). ـ **رحلة**.. خ.ح.ر. ز 12373، من مجموع، ص65ـ127.

الحوات، سليمان بن محمد بن عبد الله، (ت1817). ـ **ثمرة أنسي في التعريف بنفسي**، من مجموع، ص52ـ83. خ.ع.ر. ك.1264.

ـــــــ **البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية** خ.ع.ر. د.261.

داود، محمد. ـ **تاريخ تطوان** ـ الرباط، د.ت. ج 4.

الدرقاوي، العربي. ـ **رسائل العربي الدرقاوي**، خ.ع.ر. ك.3095.

رزق، يونان لبيب، ومحمد مزين. ـ **العلاقة المغربية المصرية من مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912**.دار النشر المغربية ـ البيضاء، 1982.

الزبادي، عبد المجيد بن علي المنالي، ت 1749. ـ **بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام** خ.ح.ر. 10989.

الزياتي، عبد العزيز، (ت 1546). ـ **الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**، خ.ع.ر. د. 1698، جزءان.

الزياني، أبو القاسم ـ **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا** تحقيق عبد الكريم الفلالي ـ المحمدية، 1967.

ـــــــ **البستان الظريف في ذكر دولة مولانا الشريف**، خ.ح.ر. 241.

ـــــــ **تاريخ الولاية المحمودة البدء والنهاية** من مجموع، خ.ح.ر. ز.12109.

السباعي، محمد بن ابراهيم. ـ **البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد مآثر السلطان مولانا الحسن**، خ.ع.ر. د.1346.

السليماني، أبي عبد الله، **اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب** ـ الرباط، 1971.

السملالي، علي السوسي. ـ **عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة، أو تقول قمع أهل الرعونة في إطلاق المكس على التوظيف والمعونة** من مجموع، خ.ع.ر. د.480.

ـــــــ **رحلة الفقيه سيدي علي السوسي حين ذهب للحدود بين الملكين أو «منتهى النقول ومشتهى العقول»** خ.ع.ر.د.633.

ـــــــ **مطالع الحسن واتباع السنن بطلوع راية مولانا الحسن** خ.ح.ر. 81.

السناني، محمد بن الرضي، (ت 1922). ـ **المقالة المرومة في الرحلة إلى تلمسان وندرومة** خ.ح.ر. ز.2871.

السوسي، محمد المختار. ـ **المعسول**، د. ت،20 جزءا، الجزء 20.

ــــــ **خلال جزولة** ـ تطوان، د.ت، 4 أجزاء، الجزء 4.

سيكَار، نورمان (تحقيق). ـ **حوليات نشر المثاني للقادري**، المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، 1978.

الشاذلي، عبد اللطيف. ـ **الحركة العياشية**، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية ـ الرباط.

الشرقي، أبو محمد بن محمد الاسحاقي، ت 1737. ـ **رحلة الفقيه الوزير أبي محمد الشرقي** خ.ح.ر. 11.867.

الضعيف، الرباطي، محمد بن عبد السلام. ـ **تاريخ**... خ.ع.ر.د. 758

عبد الرزاق، محمود اسماعيل. ـ **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن 4 الهجري** ـ البيضاء، 1976.

العلمي، الحسني، علي بن عيسى. ـ **نوازل الشريف سيدي علي بن عيسى بن أحمد العلمي الحسني**، خ.ع.ر.ك. 832.

ــــــ **نوازل الأحكام في الشرع** خ.ع.ر.د. 876.

العماري، الحاج الطاهر المراكشي. ـ **نشاط الأذهان وتحفة الإخوان في استنباطات ومناقب مولانا الحسن** خ.ح.ر. 1707.

عمور عمر. ـ **فهارس الخزانة الحسنية، قسم الوثائق، المجلد الأول، فهرس الكنانيش (السجلات الرسمية)** د.ت.(1983).

الفاسي، عبد الرحمن بن عبد القادر. ـ **الاقنوم في مبادىء العلوم**، جزءان، خ.ع.ر. د.90.

الفاسي، محمد. ـ **رباعيات نساء فاس (العروبيات)** مطبعة محمد الخامس، فاس 1971.

الفاسي، محمد المهدي، (ت 1697/1109). ـ **ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع** ط.ح.

ــــــ **داعي الطرب باختصار انساب العرب** خ.ح.ر. 221.

الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز. ـ **مناهل الصفا، في مآثر موالينا الشرفا** تحقيق، عبد الكريم كريم، الأوقاف ـ الرباط، د.ت. (1972).

لقادري، الحسني، أحمد بن عبد القادر، ت 1720. ـ **كتاب رحلة الآس في حجة سيدنا أبي العباس،** خ.ح.ر. 8787.

القادري عبد السلام بن محمد الخياط، ت 1813. ـ **تقاييد تاريخية** خ.ح.ر. 248.

ــــــ **التحفة القادرية** خ.ع.ر.ك. 2321 جزءان.

القادري، محمد بن الطيب. ـ **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني.** ـ تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، جزءان، 1977ـ1980.

ــــــ **الأزهار النادية في أهل المائة الحادية والثانية** من مجموع ـ خ.ع.ر. ك.1264.

القبلي، محمد. ـ «مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين»، **مجلة كلية الآداب** الرباط، 1978، ص7ـ59.

ـ الكتاني، جعفر بن ادريس. ـ **جواب حول وسق الماشية والحب** من مجموع ـ ح.ع.ر 1119.

الكتاني، عبد الكبير بن هاشم. ـ **زهرة الآس في بيوتات فاس** خ.ع.ر. ك.1281.

الكتاني، محمد بن جعفر بن ادريس. ـ **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس** ط.ح. 1898

مجهول. ـ **مراحل رحلات السلطان مولاي الحسن** خ.ح.ز 12059.

مجهول. ـ **مفاخر البربر،** خ.ح.ر. 10893 (نسخة مصورة).

مجهول. ـ **الإبتسام عن دولة ابن هشام** خ.ح.ر. ز 12490.

مجهول. ـ **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية،** تحقيق زكار سهيل، وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة ـ البيضاء، 1979.

المراكشي، عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب،** دار الكتاب البيضاء، طبعة سابعة 1978.

مزين، محمد، **فاس وباديتها من 1549 إلى 1637** دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب ـ الرباط، 1979.

المشرفي، الحاج العربي بن علي، **ذخيرة الأواخر والأول، بما تضمن من أخبار الدول** خ.ع.ر. ك 2659.

ـــــ **رحلة المشرفي**، خ.ح.ر. 2420.

ـــــ **ديوان السيد العربي المشرفي في دولة السلطان مولاي الحسن الأول** خ.ح. ر.5310.

ـــــ **مشموم عرار النجد والعيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان**، خ.ح.ر. ز 12082.

المشرفي، محمد بن المصطفى (ت 1919). ـ **الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية** خ.ع.ر.د. 1463.

المعداني، أبو علي الحسن بن رحال. ـ **رفع الالتباس عن شركة الخماس**، خ.ع.ر.د. 1862.

المكناسي، محمد بن العياشي (ت 1727). ـ **زهرة البستان في أخبار مولانا زيدان** خ.ح.ر.ز. 12044.

المنوني، محمد. ـ **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، د.ت (1979).

ـــــ **ركب الحاج المغربي**، تطوان، 1953.

الناصري، أحمد بن خالد. ـ **كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، 9 أجزاء ـ البيضاء، 1954 ـ 1956.

ـــــ **جواب.. حول الفرق بين خطة القضاء والولاية والحسبة** من مجموع خ.ع.ر. د 2295.

الوفراني، محمد الصغير بن الحاج. ـ **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، ط.ث. مكتبة الطالب ـ الرباط، د.ت.

الونشريسي، أحمد بن يحيى. ـ **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى افريقيا والأندلس والمغرب**، اخراج بإشراف محمد حجي، الاوقاف ـ الرباط، 12 جزءا، 1981.

الوزان الفاسي، محمد بن الحسن. ـ **وصف افريقيا**، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، جزءان ـ الرباط، 1980ـ1982

الوزاني، المهدي. ـ **تقاييد وفتاوى**، خ.ع.ر 27445.

اليوسي، محمد بن الحسن (ت 1695). ـ **رحلة اليوسي إلى الديار المقدسة** خ.ح.ر. 2343.

II ـ باللغات الأجنبية

ABES. — «Monographie d'une tribu berbère Les Aït N'dhir (Béni M'tir)», **Archives Berbères**, 1917, Vol. 2, Fasc. 2, pp. 149-194.

ALAOUI, Abderrahim, HICHAM Md, SELMAOUI, Hassan. — **Stage de ruralisme 1978 : Aïn Zehra.** Rapport de fin de Ière Année en Agro., Institut Agronomique, Rabat.

ARIF, F. — «Le Talion et le prix du sang chez les Berbères marocains», **Archives Berbères**, 1915, Vol. 1, Fasc. 2, pp. 62-87.

ARNAUD, Dr. — **Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912**, Casablanca, 1952.

ARRIBAS, Palau. — **Cartas Arabes de Marruecos en Tiempo de Mawlay al-Yazid, 1790-1792**, Tetuan, 1961.

AUBIN, Eugène. — **Le Maroc d'aujourd'hui**, Armand Colin, Paris, 1913.

AYACHE, Germain. — **Etude d'histoire marocaine**, SMER, Rabat, 1979.

* ____ **Les origines de la guerre du Rif**, S.M.E.R. Publication de la Sorbonne, Rabat-Paris, 1981.

BALANDIER, Georges. — **Anthropologie politique**, Col. Sup. P.U.F. 1969.

BARTHES, Roland. — «Introduction à l'analyse structurale des récits», **in Communication, 8**, Seuil, 1981.

* ____ «Les discours de l'Histoire», in poétique, n° 49, Fév. 1982, pp. 13-21.

BASSET, Henri. — **Essai sur la littérature berbère**, Alger, 1920.

* ____ «Les Troglodytes de Taza», in **Hespéris**, 1925, T.V 4° T., pp. 427-442.

B.C.A.F. — 1895-1915 ; **Bulletin du Comité de l'Afrique Française**,

BEN ALI, Driss. — «Le rôle de l'organisation urbaine dans le blocage de la formation économique et sociale marocaine piécapitaliste», **Revue juridique, politique et économique du Maroc**, N° 2, Juin 1977, pp. 107-132.

BEN MAHMOUD, Si Mohamed Khodja. — «Les voyages du chérif Tidjani de Fès à la Moulouia». Déc. 1912, - Janv. 1913, **in B.C.A.F. Renseignements Coloniaux**, 1914, N° 5, pp. 196-200.

BERNARD, Augustin. — **Une mission au Maroc, Rapport à Mr le Gr. Gl. de l'Algérie**, Paris, 1904.

BERQUE, Jacques. — «Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine», **in «Maghreb, Histoire et Société»**, S.N.E.D., Duclot, 1974, pp. 22-34.

* ____ **Structures sociales du Haut-Atlas**, P.U.F., Paris, 1955.

* ____ **L'intérieur du Maghreb XV^{e}-XIX^{e} Siècles**, Gallimard, Paris, 1978.

* ____ **Ulémas Fondateurs, insurgés du Maghreb au XVII^{e} S.**, Paris, Sindbad, 1982.

BERRADY, Lhachmi. — **Les chorfas d'Ouezzane, le Makhzen et la France, 1850-1912.**Th. de 3^{e} cycle, Aix-en-Provence, Juin 1971.

BIARNAY, S. — **Notes d'ethnographie et de linguistique nord-africaines**, publiées par L. Brunot et E. Laoust, éd. Leroux, Paris, 1924.

BLOCH, Marc. — **La Société Féodale**, Albin Michel, Paris, 1978.

BOUHDIBA, Abdelwahab. — «Les sciences sociales à la recherche du temps», **in Revue Internationale des Sciences Sociales**, Vol. XXXIII, N° 4, 1981, pp. 635-647.

BOURDIEU, Pierre. — **Questions de Sociologie**. Les éd. de Minuit, Paris, 1980.

* ____ **Le sens pratique**, éd. de Minuit, Paris, 1980.

BRAUDEL,Fernand.— **Ecrits sur l'histoire**, Flammarion, Paris, 1969.

* ____ **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II**, Armand Colin, 1976, 2 T.

BRIGNON, J, BOUTALEB, Brahim. — **Histoire du Maroc**, Hatier, Casablanca, 1967.

BURDEAU, Georges. — **L'Etat**, Seuil, Paris, 1970.

BURKE III, Edmund. — **Prelude to Protectorate in Morocco: Precolonial Protest and Resistance : 1806-1912.** The University of Chicago Press, Chicago, 1976.

CAIX, Robert de. — «La population du Maroc», in **B.C.A.F.**, 1913, N° 5, pp. 179-183.

CAMILLERIE, C. — «Résistance psychosociologique à la formation de la conscience de classe dans le Maghreb contemporain», in **Cahiers de la Méditerranée**. Actes des Journées d'Etudes de Bendor, 1977, pp. 61-68.

CAMPARDOU, Joseph. — «Notes archéologiques sur la région de Taza (Maroc)», **in Bul. Trim. de la Sté de Géo. et d'Arch. d'Oran**, 44^{e} année, T. XLI, Fasc. (3^{e} - 4^{e}). Sept.1921, pp. 173-194.

Lieutenant CAMPARDOU et ANDRE. — «Notes historiques sur Taza», **B.C.A.F.** 1916, **R.C.** N° 9, pp. 148-160.

Capitaine CANAVY. — «Les Aït Tserrouchen», **B.C.A.F.** 1907, **R.C.** N° 10, pp. 270-71.

CAUSSIN, Cne. — **Vers Taza (1913—14)**, Fournier, Paris, 1922.

CELERIER, J. — «Les conditions géographiques du développement de Fès», **Hespéris**, 1934, T. XIX, Fasc. 1-2, pp. 1-20.

CHAVAGNAC, Maurice de... — «De Fès à Oujda», **in Bulletin de la Sté de Géographie**, 7e Série, T. VIII, 3e trim. 1889.

CHERIF, Mohamed Hedi. — «Tribus tunisiennes au début du XVIIIe siècle. Quelques caractéristiques culturelles, sociales et économiques», **in Structure et culture précapitalistes**, Anthropos, 1981, pp. 291-310.

CHESNEAUX, Jean. — **Du passé, faisons table rase?**, Maspéro, Paris, 1976.

* ____ **Le mouvement paysan chinois 1840-1949**, Seuil, Paris, 1976.

CIGAR, Norman. — **Muhamad al Qadiri's Nashr al mathâni the chronicles**, Oxford University Press, London, 1981.

COLIN, G.D. — «Origine arabe des grands mouvements de population berbère dans le Moyen-Atlas», **Hespéris** 2e-3e T., 1939, T. XXV, pp. 265-68.

COLVILLE, Capitaine H.E. — **A ride in petticoats and Slippers**, London, 1880. Extraits concernant «Taza et la trouée de Taza», **in B.C.A.F.** 1913, N° 12, pp. 434-437.

DE CERTEAU, Michel. — «L'opération historique», **in Faire de l'histoire**, Gallimard, Paris, 1974, pp. 3-41.

DE FOUCAULD, Vicomte Charles. — **Reconnaissance au Maroc (1884-1885)**, Paris, 1888.

DE LA CHAPELLE, François. — «Le sultan Moulay Ismaïl et les Berbères Sanhaja du Maroc central», **Archives Marocaines**, 28-30, 1928 — 30 ; pp. 7-65.

DE LA MARTINIERE, H. — «Itinéraire de Fès à Oujda, suivi en 1891, **in Bul. de Géo-Hist. et descriptive**, 1895, Extraits, **B.C.A.F.** 1914, N° 2, pp. 58-64.

DELBREL, Gabriel. — «De Fès à l'Oranie à travers le pays des Ghiata (Vallée de l'Inaoun) 1899», **in La géographie, Bulletin de la Société de Géographie**, T. II, 2e Semestre, 1900; Paris, Masson et Cie, pp. 167-182.

DE SEGONZAC, Marquis. — **Voyages au Maroc 1899-1901**, Armand Colin, Paris, 1903.

DE TORRES, Diego. — **Histoire des Chérifs et des Royaumes de Fès et de Tarudant**, inclus dans T. III de **l'Afrique de Marmol**, Paris, 1667.

DOUTTE, Edmond. — «Le sultanat marocain». Extrait de la **Revue politique et parlementaire**, Paris, 1900, pp. 3-20.

* ____ **Des moyens de développer l'influence française au Maroc**, Paris, 1900.

DUCHAC, René. — «Les classes sociales dans l'analyse des sociétés méditerranéennes appréciation critique d'un concept», **in Cahiers de la Méditerranée.** Actes des Journées d'Etudes de Bendor, 1977, pp. 3-14.

DUBY, Georges. — **L'économie rurale et la vie de campagne dans l'Occident médiéval**, 2. T., Flammarion, Paris, 1977.

DUMONT, Louis. — **Homo aequalis, genèse et épanouissement de l'idéologie économique**, Gallimard, Paris, 1977.

DURKHEIM, Emile. — **Les règles de la méthode sociologique**, P.U.F., 12e éd., 1977.

EL ABBASSI, Ali, bey. — **Voyages d'Ali bey el Abbassi en Afrique et en Asie (1803-1807)**, Didot l'Aîné, Paris, 1814, 3 T.

EL MERAKCHI, Si Mohamed. — **Rapport de Si Mohammed El Merakchi sur son voyage de Fès à Hassi Lahmar**, Paris, 3 sept. 1894. A.M.G., Vincennes, Paris, série Maroc, carton C.9.

EL MOUDEN, Abderrahman. — «Exploration et pénétration un siècle «d'itinéraires» dans le couloir de Fès-Taza (1805-1911), **Hespéris-Tamuda**, Vol. XXII, 1984, pp. 103-118.

ERCKMANN, Jules. — **Le Maroc moderne**, Challamel, Paris, 1885.

EVANS-PRITCHARD, E.E. — **Anthropologie sociale**, Payot, 1969, «Extraits concernant la trouée de Taza», in **B.C.A.F.** N° 12, 1913, pp. 437-439.

FADLOULLAH, Abdallatif. — **La vie humaine dans le plateau de Tahla-Matmata.** (Etude géographique). Mémoire pour le Diplôme d'Etudes Supérieures, Rabat (Paris), 1972.

FAHMI, M., JADIDI, Md Hassan, RHARIB, Mustapha. — «**Stage de ruralisme, 1878, Oulad Ajenna**», Rapport manuscrit de fin de stage de la 1ère année en Agronomie. Institut Agronomique, Rabat.

FIDEL, C. — «Le commerce du Maroc oriental», **B.C.A.F.** 1904, **R.C.** N° 7, pp. 178-179.

FOUCAULD, Michel. — **L'archéologie du savoir**, Gallimard, Paris, 1969.

FREJUS, Roland. — «Relation de Roland Fréjus», Henri de Castries. **Sources inédites de l'histoire du Maroc**, France, Dynastie Filalienne, T. 1, pp. 121-188, Paris, E. Leroux, 1922.

FREUD, Julien. — **Sociologie de Max Wever**, Sup., P.U.F., Paris, 1968.

GALLISSOT, René. — «Sociétés segmentaires et violence politique critique des interprétations par la segmentarité, rapports d'exploitation et reproduction sociale», **in Cahiers de la Méditerranée**. Actes des Journées d'Etudes de Bendor, 1977, pp. 33-59.

* ____ «Vers un renversement de perspectives dans l'approche des méthodes de production et des sociétés précapitalistes», **in Structures et cultures précapitalistes**, Anthropos, 1981, pp. 11-27.

GEERTZ, Clifford. — **Islam Observed, Religious Development in Morocco and Indonésia**, Chicago, 1968.

GELLNER, Ernest. — **Saints of the Atlas**, Chicago, 1969.

* ____ **Muslim Society**, Cambridge, 1983.

GIETSCHY, Janine. — «Les théories du pouvoir», **in Sociologie du travail**, oct.-déc. 1981, pp. 447-467.

GODELIER, Maurice. — **Horizon, trajets marxistes en anthropologie**, 2 T., François Maspéro, Paris, 1977.

* ____ «Origine et formation de l'Etat Les processus de sa formation, la diversité de ses formes et de ses bases», in **Rev. Int. des Sciences sociales**, Vol. XXXII (1980) N° 4.

GOUVION, Marthe et Edmond. — **Kitab Ayane al Maghrib al aqsa**, Alger, 1357 (1939).

"HAJIB." — **E.I.**, N^lle Edition (B. Lewis), Larose, Paris, 1971, T. III, pp. 47

HAMMOUDI. — «Segmentarité, Stratification sociale, pouvoir politique et sainteté Réflexion sur les thèses de Gellner», **Hespéris-Tamuda**, Vol. XV, Fasc. unique, 1974, pp. 147-180.

HENIA, Abdelhamid. — **Le Grid, ses rapports avec le Beylik de Tunis (1676-1840)**, publications de l'Université de Tunis, 1980.

HERMASSI, Elbaki. — **Etat et Société au Maghreb, étude comparative**, Anthropos, Paris, 1975.

HOBSBAWM, E.-J. — **Les Bandits**, Maspéro, Paris, 1972.

JAMOUS, Raymond. — **Honneur et baraka, les structures sociales traditionnelles dans le Rif**, éd. de la Maison des Sciences de l'homme, Paris, 1981.

JULIEN, Ch.-André. — **Histoire de l'Afrique du Nord**, Payot, Paris, 1975, 2 Tomes.

* ____ **Le Maroc face aux impérialismes, 1415-1956**, éd. Jeune-Afrique, Paris, 1978.

KENBIB, Mohamed. — «Structures traditionnelles et protection diplomatique dans le Maroc précolonial», **in Structures et cultures précapitalistes**, sous la direction de Gallissot, Ed. Anthropos, 1981, pp. 447-470.

LAHBABI, Mohamed. — **Le Gouvernement marocain à l'aube du XX^e S.**, Editions Techniques Nord-Africaines, Rabat, 1957.

LAOUST, Emile. — **Mots et choses berbères**, Challamel, Paris, 1920.

* ____ **L'habitation chez les transhumants du Maroc central**, Larose, Paris, 1935.

LAROUI, Abdellah. — **L'histoire du Maghreb**, Maspéro, Paris, 1970.

* ____ **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)**, Maspéro, Paris, 1977.

LAZAREV, Grigori. — «Structures agraires et grandes propriétés en pays Hayaîna (Prérif)», **R.G.M.** N° 9, 1966, pp. 23-58.

* ____ «Aspects du capitalisme agraire au Maroc avant le Protectorat», in **Annuaire de l'Afrique du Nord**, C.N.R.S., Paris, 1975, pp. 57-90.

LE COZ, Jean. — **Le Rharb, Fellahs et colons**, 1964, T. 1.

LE CHATELIER, A. — **Mémoire sur le Maroc: Situation actuelle de la France au Maroc, programme politique, questions économiques, voyages au Maroc oct. 1889 - mars 1890** (s.d. ni lieu d'édition).

LOBERA, Girela, Candido. — **Problemas de Melilla,·Los derechos de arbitrios y Las mercancias de transito**, 1917.

LE GOFF, Jacques, et NORA, Pierre (Sous la direction de). — **Faire de l'Histoire, Nouveaux problèmes**, Gallimard, Paris, 1974.

LEROY LADURIE, Emmanuel. — **Le territoire de l'historien**, Gallimard, Paris, 1973.

LEVI STRAUSS, Cl. — **Anthropologie Structurale**, Plon, Paris, 1974.

MALDONADO, Eduardo. — **El Rogui**, Tetuan (s.d.) (1949).

MARCUS, Michael. — **Townsmen and Tribesmen: Identity, History and Social Change in Eastern Marocco**, Ph. D. N.Y. University, 1983.

MARCY, Georges. — «Une tribu berbère de la confédération Aït Waraïn Les Aït Jallidasen», **Hespéris**, T. IX, pp. 79-142.

MARMOL. — **L'Afrique de...** Traduction de N. Perrot d'Ablancourt, 3. T., Paris, 1667.

MARTIN, A.G.P. — **Quatre siècles d'histoire marocaine au Sahara: 1504-1904, au Maroc: 1824-1912**. Leroux, Paris, 1923.

MAUSS, Marcel. — **Essais de sociologie**. Ed. Minuit, 1969.

MAUDUIT, René. — «Le Makhzen marocain» **B.C.A.F.**, 1903, **R.C.** N° 12, pp. 293-304.

MEILLASSOUX, Claude. — «Potlach», in **Encycloppédia Universalis**, Vol. 13, pp. 423-5.

* ____ «Essai d'interprétation des phénomènes économiques dans les sociétés traditionnelles d'autosubsistance», in **Cahiers d'Etudes Africaines**, N° 4, 1960, pp. 38-67.

* ____ **Femmes, Greniers et Capitaux**, Maspéro, Paris, 1980.

MEZZINE, Larbi. — **Contribution à l'histoire du Tafilalt. Aspect d'histoire économique et sociale du sud-est marocain au XVII-XVIII^e S. à travers l'analyse de quatre documents inédits**, Thèse de 3^e Cycle, Sorbonne, 1977.

MICHAUX BELLAIRE. — «Les impôts marocains», in **Archives Marocaines**, Vol. I, 1904, pp.56-83.

* ____ «Une tentative de restauration idrisside à Fès». **Revue du Monde musulman**, juillet 1908, Vol. V, pp. 393-435.

* ____ «L'Islam et l'Etat marocain», in **R.M.M.**, Vol. VIII, Juil.-Août 1909, pp. 313-342.

* ____ «L'organisme marocain», in **R.M.M.**, Vol. IX, Sept. 1909, pp. 1-43.

* ____ «Makhzan». **in E.I.**, 1re Edition, Paris, 1936, T. 3, pp. 177-181.

* ____ «Quelques tribus de montagnes de la région du Habt», **Archives Marocaines**, Vol. XVII, Leroux, Paris, 1911.

* ____ «Fès et les tribus berbères en 1910», **in Bulletin de l'Enseignement Public**, Janv. 1922, N° 37.

MIEGE, Jean-Louis (1961-63). — **Le Maroc et l'Europe: 1830-1894**, 4 Tomes, P.U.F., 1961-63.

MONTAGNE, Robert. — **Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc**, Alcan, Paris, 1930.

MORIZOT. P. — **LES Jmâa-s en pratique (Tsoul)**, C.H.E.A.M, N° 2, 429, 1953, p. 14

MORSY, Magali. — **Les Ahansala, examen du rôle historique d'une famille maraboutique de l'Atlas Marocain au XVIIIe S.**, Paris - La Haye, 1972.

* ____ **La relation de thomas Pellow, une lecture du Maroc au 18e S.**, Edition Recherche sur les civilisations, Paris, 1983.

* ____ «Comment décrire l'histoire du Maroc», **in Actes de Durham. Recherches récentes sur le Maroc moderne**. Publication **B.E.S.M.**, Documents, 1979... pp. 121-143.

* ____ «Réflexions sur le discours historique à travers l'examen d'un document sur le Maroc au milieu du XVIIIe siècke», **in revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée**, N° 20, 2e Sem. 1975, pp. 67-103.

MOUNIN, Georges. — **La linguistique**, Seghers, 1971.

MOUSSARD. — **Notes sur Taza, petite ville marocaine**, C.H.E.A.M., 308, 1939, p. 63.

MONIOT, Henri. — «L'histoire des peuples sans histoire», in Faire de l'histoire, Jacques le Goff, Gallimard, 1974, pp. 106-123.

NORDMAN, Daniel. — «Les expéditions de Moulay el Hassan, essai statistique», **Hespéris-Tamuda**, Vol. XIX, Fasc. unique, 1980-81, pp. 123-152.

PASCON, Paul. — «Connaissance historique à partir des documents et archives familiaux». Conférence donnée à l'amphi Ibn Khaldoun, Fac. des Lettres, Rabat, le 25-4-1978.

* ____ «Segmentarité et stratification dans la société rurale marocaine», **in Structures et cultures précapitalistes**, Anthropos, 1981, pp. 429-446.

* ____ **Le Haouz de Marrakech**, Rabat, 1977, 2. T.

POLANYI, Valensi. — Dossier «Pour une histoire anthropologique la notion de réciprocité», **Annales E.S.C.**, 29e Année, N° 6, Nov.-Déc. 1974, pp. 1309-1380.

POLANYI, Karl. — **The Great transformation, the political and economic origins of our time**, Beacon Press, Boston, Seventh printing, 1967.

POLANYI et ARENSBERG. — **Les systèmes économiques dans l'histoire et dans la théorie**. (Préf. de Godelier), Larousse Université, Paris, 1975.

PROPP, Vladimir. — **Morphologie du Conte**, Seuil, 1970.

REPERTOIRE. — **Répertoire alphabétique des agglomérations de la zone française de l'Empire chérifien ; classé par tribus et par fractions de tribus d'après les résultats du recensement quinquennal du 8 mars 1936**, Rabat, 1941.

RENE LECLERC, Charles. — **Le commerce et l'industrie à Fès**, in **B.C.A.F.**, 1905, **R.C.** N° 7.

* ____ **Le Maroc septentrional**, Alger, 1905.

ROBIN, Régine. — **Histoire et linguistique**, Armand Colin, Paris, 1973.

RODINSON, Maxime. — **«Préface» à CHALMETA - GENDRON, Pedro. — El Senôr del Zoco en España Edades media y moderna. Contribución al estudio de la historia del mercardo**, Madrid, Instituto Hispano-Arabe de Cultura, 1973, pp. XVI LXIX.

ROHLFS, Gerhard. — «Voyages». Extrait concernant son voyage à Taza en 1862, **in B.C.A.F.** 1914, N° 1, pp. 14-15.

Cne ROMIEU. — **Les Aît Ouraîn**, C.H.E.A.M., N° 2258, Paris, 1953, 12 p.

ROSENBERGER, Bernard. — «Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc XVᵉ-XVIIIᵉ S.», **Annales E.S.C.** N° 3-4, mai-août 1980, pp. 477-503.

ROSENBERGER, Bernard, et TRIKI, Hamid. — «Famines et épidémies au Maroc aux XVIᵉ XVIIIᵉ S.», **Hespéris-Tamuda**, Vol. XIV, Fasc. unique, 1973, pp. 109-175, et Vol. XV, Fasc. unique, 1974, pp. 5-92.

SAHLI, Mohamed C. — **Décoloniser l'histoire, introduction à l'histoire du Maghreb**, Maspéro, Paris, 1965.

SCHACHT, Joseph. — «Zakât», in **E.I.**, 1ère éd., Paris, 1934, T. IV, pp. 1270 - 1273.

SCHROETER, Daniel. — «The royal Palace archives of Rabat and the Makhzan in 19th Century», **in The Maghreb Review**, Janv.-April 1982, Vol. 7, N° 1-2, pp. 41-45.

SCOTT, Col. — **A Journal of residence in the Ismailla of Abdelkader and of travels in Morocco and Algiers**, London, 1842.

SEDDON, David. — **Moroccan Peasants, A century of change in the eastern Rif, 1870-1970**, Dawson, Kent, 1981.

SEBTI, Abdelahad. — **Aristocratie citadine, pouvoir et discours savant au Maroc précolonial ; Contribution à une relecture de la littérature généalogique fassie (XVᵉ - Début XXᵉ Siècles)**. Thèse de Doctorat de 3ᵉ Cycle, Histoire et Civilisation, Paris VII, 1984.

SUNAR, Ilkay. — «Anthropologie politique et économique L'Empire ottoman et sa transformation», **Annales, E.S.C.** N° 3-4, mars-août 1980, pp. 551-579.

TERRASSE, H. — **Taza, notice historique et archéologique**, C.H.E.A.M., 1939, 10 p.

TRENGA, G. — «Les Branès, notes pour servir à une monographie des tribus de la région de Fès», **Archives Berbères**, Vol. 1, Fasc. 3, pp. 200-218, Fasc. 4, pp. 293-330.

* «Contribution à l'étude des coutumes berbères», **Archives Berbères**, Vol. 2, Fasc. 3, pp. 219-248.

TRIBU. — Tribus, (Les) à l'Est de Fès», **in** , **R.C.** N° 6 et 7, **B.C.A.F.** 1912; pp. 209-217, 292-295.

TURBET, Lieut. — « Le droit coutumier des Beni Ouarain Cheraga (Région de Taza)», **in Revue Algérienne, Tunisienne et Marocaine de Législation et de Jurisprudence**, 1931: pp. 97-110; 218-226; 253-259 — 1932: pp. 115-140; 223-232; 267-274.

VALENSI, Lucette. — **Le Maghreb avant la prise d'Alger, 1790-1830**, Flammarion, 1969.

* **Fellahs tunisiens: l'économie rurale et la vie des campagnes au 18e et 19e siècles**, Mouton, Paris - La Haye, 1977.

* «Anthropologie économique et Histoire l'œuvre de Karl Polanyi», **Annales, E.S.C.**, 29e a., N° 6, Nov.-Déc. 1974, pp. 1311-1319.

VEINSTEIN. — «Trésor public et fortunes privées dans l'Empire ottoman (milieu XVIe début XIXe siècles), **Cahier de la Méditerranée**, Bendor, 1971, pp. 121-134.

VEYNE, Paul. — **Comment on écrit l'histoire**, Seuil, Paris, 1979.

VOINOT, Cdt. — « Taza et les Riata», **in Bul. trimest. de la Sté de Géo. et d'Arch. d'Oran**, Sept. 1920, pp. 103-163.

WEBER, Max. — **Le savant et le politique**, Plon, 1959.

WESTERMARCK, Edward. — **Ceremonies and beliefs connected with agriculture, certain dates of the Solar year and the weather in Morocco**, Helsingfors, 1913.

* ____ **Les cérémonies du mariage au Maroc**, Trad. Jne Arin, Paris, Leroux, 1921.

WITTFOGEL, Karl. — **Le despotisme oriental**, éd. Minuit, Paris, 1964. Avant-propos de P. Vidal - Naquet.

فهـارس

- أسمـاء الأشخاص*
- أسمـاء المجموعات البشرية*
- الأعلام الجغرافية*
- الوثائق
- الخرائط
- الأشكـال
- الـجداول
- الموضوعات

(*) تقتصر مواد هذه الفهارس على الأعلام البشرية والجغرافية الواردة في متن الدراسة دون اعتبار الهوامش والجداول والخرائط وصور الوثائق والبيبليوغرافيا. وقد رُتِّبت الأعلام حسب الحرف الأوّل من الإسم الذي اشتهرت به. فالسلاطين مثلا رُتِّبوا حسب أسمائهم الشخصية في حين رُتِّب معظم بقية الأعلام حسب الألقاب.

أسماء الأشخاص

ب

ت

ج

ح/خ

ل

م

ن

أسماء المجموعات البشرية

ب

ت

الأعلام الجغرافية

ت

ج

د/ر/ز

ل

م

ن/هـ

الوثـــائـــق

الخرائـــط

الأشكـــــال

الجـــداول

فهـرس الموضوعـات

الفصـل الثالـث

التشكل القبلي والحياة اليومية عند قبائل إيناون

الباب الثاني
السلطة المركزية وقبائل إيناون

الفصل الرابع
الحكم المخزني وركائزه المحلية بإيناون

الفصل الخامس
الحرْكة والجباية وسائل وغايات الحضور المخزني

البـاب الثالـث

بوادي إيناون والرموز المخزنية

الفصــل الســادس

البادية والمدينة إيناون بين فاس وتازة

الفصــل السابـع

التجـارة عبـر إينـاون

الفصـــل الثـــامـــن

الانتفاضة المحلية حركة بوعزة الهبري

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

هذا الكتاب

يتعرض هذا الكتاب لقضية مركزية تتمثل في أصناف ومستويات العلاقات بين التجمعات البشرية في البوادي المغربية قبل الاستعمار وبين المؤسسات المخزنية، وذلك من خلال نموذج حوض إيناون بين تازة وفاس، في الفترة ما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر، وقد تطلب تحليل هذه القضية تتبع تفرعاتها: الحضور المخزني متعدد الصور على الصعيد المحلي وأشكال ارتباطه بالتنظيم المخزني المركزي وانفصاله عنه، مسألة الحرْكة وتشعباتها وتعقيدات العلاقات بين البوادي والمدن والانتفاضات المحلية ... بيد أن التحليل استلزم أيضا تأطير تلك التطورات من الناحية التاريخية والبشرية، فبدا حوض إيناون منطقة انتظمت حول وظيفتها كمعبر فريد غرباً وشرقاً، ومن ثم أهمية القافلة الحجية، وكذا الهجرات البشرية المختلفة التي تعاقبت على المنطقة، فساهمت في تشكيل المجموعات البشرية الكبرى كغياثة والحياينة وبني وراين أساسا وفي تفاعلاتها فيما بينها أو مع المخزن.